

مَعَاجِزُ التَّفَكُّرِ

وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تَفْسِيرُ تَدْبِيرِيٍّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ التَّزْوِيلِ
وَفُقْمَانِهِ كِتَابٌ «قَوَاعِدِ التَّدَبُّرِ الْأَمْثَلِ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»

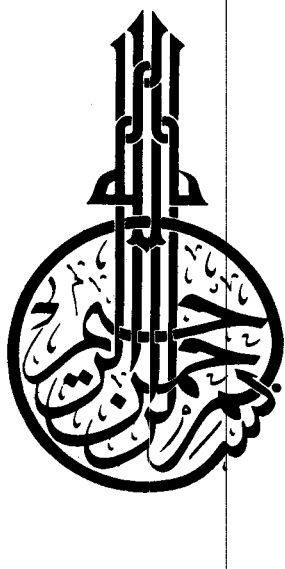
المجلد الرابع

تفسير سورة

الأعراف (٣٩) من الآية (١) - (١٧١)

عبد الرحمن حسن حبیبك المیدانی

دار الفکر
دمشق



مَعَالِجُ التَّفَكُّرِ
وَذِقَائِقُ التَّنَادُرِ

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف^٢

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ب : ١١٣ / ٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عمه طريقه

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

٧ مَصْحَف ٣٩ نزول

وهي كلها مكيّة إلا الآيات

من (١٦٣) ومعنى غاية الآية (١٧٠) فمكية

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ ﴿١﴾ كَتَبْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ
لِتُنذِرَ بِهِ. وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن
رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ
مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا
كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ
﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾
فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ

٣ - • قرأ: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

وقرأ: [يَتَذَكَّرُونَ]: ابن عامر.

وقرأ: [تَذَكَّرُونَ]: باقي القراء العشرة.

تَذَكَّرُونَ، وَتَذَكَّرُونَ، أَضْلُهُمَا «تَتَذَكَّرُونَ»، حُذِفَتِ التَّاءُ تَخْفِيفًا فِي الْأُولَى،
وَأُدْغِمَتْ بِالذَّالِ فِي الثَّانِيَةِ وَفَقَ قَوَاعِدُ الْإِدْغَامِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَأَمَّا قِرَاءَةُ [يَتَذَكَّرُونَ] فَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ الْأَخْرَجِيَيْنِ تَكَامُلٌ بَيِّنَانِي، إِذْ هُمَا
يَخْطَبَانِ الْمُتَلَقِّينَ لِلْقُرْآنِ، وَهَذِهِ تَتَحَدَّثُ عَنْ غَيْرِهِمُ الْغَائِبِينَ عَنِ التَّلْقِي.

٤ - ٥ • قرأ: [بَأْسُنَا] بِالْأَلْفِ بَدَلَ الْهَمْزِ فِي اللَّفْظَتَيْنِ: السُّوسِي، وَأَبُو جَعْفَرٍ فِي
الْوَصْلِ وَالْوَقْفِ.

وَحَمْزَةٌ فِي الْوَقْفِ.

وقرأ: ﴿بَأْسُنَا﴾ بِالْهَمْزِ بَاقِيَ الْقِرَاءَةِ الْعَشْرَةَ.

٦ - ٧ • قرأ بَضَمَ هَاءِ الضَّمِيرِ فِي [إِلَيْهِمْ] وَفِي [عَلَيْهِمْ] حَمْزَةً وَيَعْقُوبُ.

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَتْ
 مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ
 ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا
 مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ
 اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾
 قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقَنِي
 مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ
 تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ
 يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي
 لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾
 قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَبَعَادُكُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ

= وقرأ بكسر هاء الضمير فيهما باقي القراء العشرة.

١١ - قرأ: [لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا] بضم التاء.

وقرأ باقي القراء العشرة بكسرها.

١٦ - قرأ: [صِرَاطُكَ] قُتْبِل، ورؤيس.

وقرأ بأشمام الصاد زائياً خلف عن حمزة.

وقرأ [صِرَاطُكَ] بالصاد: باقي القراء العشرة.

١٧ - قرأ: [أَيْدِيَهُمْ] بضم هاء الضمير: يعقوب.

وقرأ بكسرها [أَيْدِيَهُمْ]: باقي القراء العشرة.

شَيْئًا وَلَا نَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةُ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّسَ لَهُمَا
 الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا
 رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ
 ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَذَلَّلَهُمَا بِفُرُودٍ فَلَمَّا
 ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ
 الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا
 إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ
 تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ
 لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ
 فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَبْنَىٰ ءَادَمَ قَدْ
 أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ

١٩ - • قرأ: [شَيْئًا] بالياء بدل الهمزة: السوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف.
وحمة في الوقف.

وقرأ: ﴿شَيْئًا﴾ بالهمزة باقي القراء العشرة.

٢٢ - • قرأ: [عَلَيْهِمَا] بضم هاء الضمير: يعقوب.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿عَلَيْهِمَا﴾ بكسر هاء الضمير.

٢٥ - • قرأ: [تُخْرَجُونَ] بفتح التاء: ابن ذكوان، وحمة، والكسائي، ويعقوب،
وخلف.

وقرأ: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بضم التاء: باقي القراء العشرة.

وبين القراءتين تكامل بياني، إذ الموتى يُخْرَجُونَ بالبعث من الأرض بخلق الله،
فهم بالمطوعة يُخْرَجُونَ.

٢٦ - • قرأ: [وَلِبَاسُ التَّقْوَى] بنصب (لباس) عطفاً على [لباساً]. نافع، وابن عامر،
والكسائي، وأبو جعفر.

وقرأ: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ برفع «لباس» على الاستئناف باقي القراء العشرة.

ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْقَىٰ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَنكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَبْقَىٰ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

٣٠ - • قرأ: [عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ] بكسر هاء الضمير وكسر الميم بعده: أبو عمرو.
 وقرأ: [عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ] بضم هاء الضمير وضم الميم: حمزة، والكسائي،
 وخلف، ويعقوب.
 وقرأ: [عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ] بكسر هاء الضمير، وبضم الميم بعده: باقي القراء
 العشرة.

وهي وجوه من النطق العربي.

٣٠ - • قرأ: [يَحْسَبُونَ] بفتح السين: ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر.

وقرأ: [يَحْسَبُونَ] بكسر السين: باقي القراء العشرة.

وهما وجهان عريان للكلمة.

خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ
 إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ
 مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ
 سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَبْنِي عَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ
 يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ
 أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى

٣٢ - • قرأ: [خَالِصَةً] بالرفع، على أنها خبر ثانٍ للمبتدأ [هي]: نافع.
 وقرأ: [خَالِصَةً] بالنصب على أنها حال: باقي القراء العشرة.
 والوجهان جائزان في اللسان العربي.

٣٣ - • قرأ: [رَبِّي الْفَوَاحِشَ] بإسكان ياء المتكلم: حمزة.

وقرأ باقي القراء العشرة بفتحها ﴿رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ وهما وجهان عربيان.

٣٣ - • قرأ: [مَا لَمْ يُنْزَلْ] من فعل: «أُنْزِلَ»: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب.

وقرأ: [مَا لَمْ يُنْزَلْ] من فعل «نَزَلَ»: باقي القراء العشرة.

أنزل ونَزَلَ فعلاً متكافئان في المعنى.

٣٤ - • قرأ: [لَا يَسْتَأْخِرُونَ] بالالف اللينة بدل الهمزة: ورش، والسوسي، وأبو
 جعفر، في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ بالهمزة.

٣٥ - • قرأ: [يَأْتِيَنَّكُمْ] بالالف اللينة بدل الهمزة: ورش، والسوسي، وأبو جعفر.

وقرأ ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بالهمزة، باقي القراء العشرة.

٣٥ - • قرأ: [فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ] برفع: «خَوْفٌ» وبضم هاء الضمير [عَلَيْهِمْ]: حمزة
 والكسائي، وخلف.

وقرأ: [فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ] بفتح الفاء، وبضم هاء الضمير: يعقوب.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ برفع الفاء مع التنوين، وكسر هاء
 الضمير.

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ
 الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَنِنَا مَا كُنْتُمْ
 تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ
 كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ
 الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا
 آدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَبُهُمْ لِأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا
 فَتَاتَهُمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا نَعْلَمُونَ
 ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرَبُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ
 فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ

٣٧ - • قرأ: [رُسُلُنَا] بإسكان السين: أبو عمرو.

وقرأ: [رُسُلُنَا] بضم السين: باقي القراء العشرة.

٣٨ - • قرأ: [فَاتَتْهُمْ] بضم هاء الضمير: رويس.

وقرأ باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير.

٣٨ - • قرأ: [وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ] بياء الغائين: شعبة.

وقرأ: [وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ] بقاء المخاطبين: باقي القراء العشرة.

وفي القراءتين هنا تكامل في الأداء البياني، لأن المعنيين بالخطاب مُتَلَقُّونَ،

وغير متلقين فهم بحكم الغائين.

٤٠ - • قرأ: [لَا تُفْتُحُ]: أبو عمرو.

وقرأ: [لَا يُفْتُحُ]: حمزة، والكسائي، وخلف.

وهما وجهان عربيان جائزان:

وقرأ: [لَا تُفْتُحُ] بتشديد التاء الثانية من الفعل المضغف: باقي القراء العشرة،

أي: يُشَدَّدُ فِي إِغْلَاقِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ دُونَهُمْ، لَشِدَّةِ عِنَادِهِمْ وَكَفَرِهِمْ. فبين

المضغف وغير المضغف تكامل في الأداء البياني.

الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ
 وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ
 تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا
 لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ
 تُلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ
 الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا
 وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

٤٣ - • قرأ: [مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ] بكسر هاء الضمير والميم بعدها: أبو عمرو، ويعقوب.
 وقرأ: [مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ] بضم هاء الضمير والميم بعدها: حمزة، والكسائي، وخلف.
 وقرأ: [مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ] بكسر هاء الضمير وضم الميم بعدها: باقي القراء العشرة.
 وهي وجوه من النطق في اللسان العربي.

٤٣ - • قرأ ابن عامر: [مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ] بحذف حرف العطف قبل: [مَا كُنَّا].
 وقرأ باقي القراء العشرة: [وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ] بإثبات حرف العطف الواو.
 والقراءتان وجهان ببيان متكافئان، لتكافؤ الفصل والوصل هنا.

٤٤ - • قرأ: [نَعَمْ] بكسر العين: الكسائي.
 وقرأ باقي القراء العشرة: [نَعَم] بفتح العين.
 وهما نَطْقَان للكمة في اللسان العربي.

٤٤ - • قرأ: [مُؤَذِّنٌ] بالواو بدل الهمزة: ورش.
 وأبو جعفر في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف.
 وقرأ باقي القراء العشرة: [مُؤَذِّنٌ] بالهمزة.

٤٤ - • قرأ: [أَنْ لَعْنَةُ] بأن التفسيرية، ورفع [لَعْنَةُ].

الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ
 بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ
 كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ
 يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا
 لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا
 يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ
 ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ
 لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ
 أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ
 قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
 دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ
 كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَائِبِينَ يَجْحَدُونَ
 ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ
 الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ
 شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ
 خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ

= وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ لَعَنَ]: بَأَنَّ المشبهة بالفعل، و[لَعَنَ] اسْمُهَا.
 والقراءتان من التفثن في الأداء البياني.

رَبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
 اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ
 وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ
 اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ أَدْعُوا رَبِّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا
 يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
 وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ
 ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ

٥٤ - ● قرأ: [يُغْشِي] من فعل «غَشَى»: شعبة، وحزمة، والكسائي، ويعقوب، وخلف.

وقرأ: [يُغْشِي] من فعل «أَغْشَى»: باقي القراء العشرة.
 المهموز مثل المضغف فالقراءتان متكافئتان.

٥٤ - ● قرأ ابن عامر: [وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ] بالرفع على الاستئناف.
 وقرأ باقي القراء العشرة: [وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ] بالنصب عطفاً
 على السماوات والأرض.
 وينصب [مُسَخَّرَاتٍ] على الحالية.

وهما وجهان جائزان عربيًا، وفيهما تفنن في الأداء البياني.

٥٥ - ● قرأ: [وَوَخْفِيَةً] بكسر الخاء: شعبة. وقرأ باقي القراء العشرة: [وَوَخْفِيَةً] بضم
 الخاء. وهما وجهان عربيان لنطق الكلمة.

٥٧ - ● قرأ: [الرِّيَّحَ] بالإنفراد: ابن كثير، وحزمة، والكسائي، وخلف.

وقرأ: [الرِّيَّاحَ] بالجمع: باقي القراء العشرة.

الرَّيْحَ: بالإنفراد اسم جنس، وهو يشمل أنواع الرياح، وبين القراءتين تكافؤ في
 المعنى، مع التنبيه على أَنَّ الرِّيَّاحَ أنواع.

٥٧ - ● قرأ عاصم: [بُشْرًا] من البشارة. وقرأ ابن عامر: [نُشْرًا] من النُّشْرِ بمعنى
 المدِّ الواسع. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [نُشْرًا] من النُّشْرِ أيضاً.
 وقرأ باقي القراء العشرة: [نُشْرًا] من النُّشْرِ أيضاً.

حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نُّفَالًا سُفِنَهُ لِبَدٌ مِّمَّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ
 فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ
 تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي
 خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوِّمُوا عِبَادُوا
 اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
 عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ أَمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
 ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوِّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ

٥٧ - • قرأ: [مِيت] ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة ويعقوب. وقرأ:
 [مِيت] الباقون.

٥٧ - • قرأ: [تَذَكَّرُونَ] بتخفيف الذال: حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.
 وقرأ: [تَذَكَّرُونَ] الباقون.

٥٨ - • قرأ: [لَا يُخْرِجُ إِلَّا] من فعل: «أَخْرَجَ» ابْنُ وَرْدَانَ فِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ لَهُ.
 وقرأ باقي القراء العشرة [لَا يُخْرِجُ إِلَّا] من فعل «خَرَجَ» المجرد، وهو الوجه
 الآخر لابن وردان.

٥٨ - • قرأ أبو جعفر: [نَكِدًا] بفتح الكاف، وهو مصدر.
 وقرأ باقي القراء العشرة [نَكِدًا] بكسر الكاف، وهو صفة مشبهة باسم الفاعل.
 والقراءتان متكاملتان في الأداء البياني.

٥٩ - • قرأ الكسائي، وأبو جعفر: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ] بجزء «غَيْرِهِ» صفة لإله على
 اللفظ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ] صفة لإله على المحل.

٥٩ - • قرأ: [إِنِّي أَخَافُ] بفتح ياء المتكلم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو
 جعفر.

وقرأ باقي القراء العشرة بإسكان ياء المتكلم هذه.

وهما وجهان عربيان لنطق ياء المتكلم.

الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ
 اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ
 عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
 فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ * وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ
 يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
 الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا
 لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْقُومِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ
 وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي
 وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ
 عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ
 قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ

٦٢ - • قرأ أبو عمرو: [أُبَلِّغُكُمْ] من فعل: «أَبْلَغَ» المتعدي بالهمزة.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أُبَلِّغُكُمْ] من فعل «بَلَّغَ» المضعف.
والقراءتان متكافئتان.

٦٨ - • قرأ أبو عمرو: [أُبَلِّغُكُمْ] من فعل: «أَبْلَغَ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [أُبَلِّغُكُمْ] من فعل «بَلَّغَ» بتشديد اللام.

٦٩ - • قرأ: [بَضْطَةً] بالسّين: قُنْبُل، وأبو عمرو، وهشام، وحفص، وخلف عن حمزة، ووجه لخلّاد، وزوّيس، وخلف عن نفسه.

وقرأ: [بَضْطَةً] بالصاد: باقي القراء العشرة، وهو الوجه الثاني لخلّاد.

٧٠ - • قرأ: [أَجِئْنَا] بالياء بعد الجيم، السوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف. =

مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَآٰنَا بِمَا تَعُدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ
 الصّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ
 وَغَضَبٌ أَتُجَدِّلُونَنِي فِيٓ أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وءَابَاؤُكُمْ مَا
 نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطٰنٍ فَاٰنظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
 الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَآِِرَ
 الَّذِينَ كَذَبُواْ بِآٰيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَى ثَمُودَ
 أَخَاهُمْ صٰلِحًا قَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلٰهٍ
 غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ
 لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ
 فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ إِلٰهِ ﴿٧٣﴾ وَآذَكُرَّا إِذْ جَعَلَكُمُ خُلَفَآءَ مِن
 بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمُ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِّنْ سُهُولِهَا قُصُورًا
 وَنَحْنُونَ الْجِبَالُ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُواْ فِي

= وحمة في الوقف.

وقرأ: [أَجْتَنَّا] بالهمزة بعد الجيم: باقي القراء العشرة.

٧٠ - قرأ: [فَآٰنَا] بالالف اللينة بعد الفاء: ورش، والسوسي، وأبو جعفر، في

الوصل والوقف، وحمة في الوقف.

وقرأ: [فَآٰنَا] بالهمزة الساكنة باقي القراء العشرة.

٧٣ - قرأ: [مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرِهِ] بجزر «غَيْرِهِ» صفة «إِلٰهٍ» على اللفظ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [غَيْرُهُ] بالرفع مراعاة لمحل لفظ [إِلٰهٍ] وهو الرفع بالابتداء.

٧٤ - قرأ: [بُيُوتًا] بضم الباء: ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر،

ويعقوب.

وقرأ: [بُيُوتًا] بكسر الباء: باقي القراء العشرة.

والقراءتان لغتان عربيتان.

٧٤ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
 لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ اتَّعَلَمُونَ أَتَكْصِلُحَا مُتْرَسَلُ
 مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنُمْ بِهِ كَفِرُونَ ٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ
 وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَثْنَا بِمَا نَعُدُّنَا إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ
 ٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ
 لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ٧٩﴾ وَلَوْطَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ
 الْفَتَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ٨٠﴾ إِنَّكُمْ
 لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ
 ٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ
 قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا
 أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا

٧٥ - • قرأ: [وَقَالَ الْمَلَأُ] بالعطف بالواو: ابن عامر.

وقرأ باقي القراء العشرة: [قَالَ الْمَلَأُ] بغير عطف.

الوصل والفصل هنا وجهان متكافئان بلاغيًا.

٨١ - • قرأ: [إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ] بالالف اللينة بعد التاء [لَتَأْتُونَ] ورش، وأبو جعفر.

وقرأ: [تَأْتُونَ] بالهمزة الساكنة بعد التاء: قالون، وحفص.

وقرأ: [إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ] بالالف اللينة، السوسي مع همزة الاستفهام.

وقرأ: [إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ]: باقي القراء العشرة.

٨٤ - • قرأ: [عَلَيْهِمْ] بضم هاء الضمير: حمزة، ويعقوب.

وقرأ: [عَلَيْهِمْ] بكسر هاء الضمير: باقي القراء العشرة.

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدِينَةِ
 آخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهِ
 غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ
 وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي
 الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ
 مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
 عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَّاذْكُرُوا
 إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي
 أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا
 وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن
 قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ
 فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
 إِن كُنتُمْ إِذْ بَخَلْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن
 نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَىٰ

٨٥ - قرأ: [مِن إِلَهِ غَيْرِهِ] بجزء: [غَيْرِهِ] مراعاةً للفظ: الكسائي، وأبو جعفر.

وقرأ: [مِن إِلَهِ غَيْرُهُ] برفع [غَيْرُهُ] مراعاةً للمحل: باقي القراء العشرة.

٨٦ - قرأ: [صِرَاطٍ] بالسين: قبل، ورؤيس.

وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد زايًا.

وقرأ: [صِرَاطٍ] بالصاد: باقي القراء العشرة.

اللَّهُ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ
 ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِذْكَاءُ لَخَيْرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ
 ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا
 كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
 رِسَالَتِي ربي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ
 ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ
 وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ
 حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاؤُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً
 وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا
 عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا
 كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا
 وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ ءَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى

٩٤ - • قرأ نافع: [مِنْ نَّبِيٍّ] مع المدِّ المتصل.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مِنْ نَّبِيٍّ].

٩٤ - • قرأ: [بِالْبَاسَاءِ] بالالف اللينة بدل الهمزة: السوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف فقط.

وقرأ باقي القراء العشرة: [بِالْبَاسَاءِ] بالهمزة الساكنة.

٩٦ - • قرأ: [لَفَتَحْنَا] بتشديد التاء: ابن عامر، وأبو جعفر، ورؤيس.

وقرأ: [لَفَتَحْنَا] بالتاء المفتوحة دون تشديد: باقي القراء العشرة.

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد يَفْتَحُ أحياناً برفق، وقد يَفْتَحُ أحياناً أُخْرَى بِشِدَّةٍ على وفق حكمته.

٩٧ - ٩٨ • قرأ في الآيتين: [بَأْسُنَا] بالالف اللينة بعد الباء: أبو جعفر، والسوسي، =

وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ

= في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف فقط.

وقرأ فيهما: [بَأْسُنَا] بالهمزة الساكنة: باقي القراء العشرة.

٩٨ - • قرأ: [أَوْ أَمِنَ]: نافع، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وأبو جعفر. على أن حرف العطف (أَوْ).

وقرأ: [أَوْ أَمِنَ] بفتح الواو: باقي القراء العشرة، على أن حرف العطف «الواو» وقبلها همزة استفهام.

والقراءتان من قبيل التفنن البياني.

١٠١ - • قرأ: [رُسُلُهُمْ] بإسكان السين: أبو عمرو.

وقرأ: [رُسُلُهُمْ] بضم السين باقي القراء العشرة.

وهما وجهان عربيان لنطق الكلمة.

١٠٥ - • قرأ نافع: [حَقِيقٌ عَلَيَّ].

جِئْتَ بِثَآئِفَةٍ فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٦﴾ فَأَلْقَى
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ
لِلنَّظَرِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٢٠﴾
قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٢١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ
سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١٢٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا
إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٢٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٢٤﴾
قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِمَّا أَنْ تُثَلِّقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١٢٥﴾
قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْبَهُهُمْ
وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١٢٦﴾ ❀ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ

= وقرأ باقي القراء العشرة: [حَقِيقُ عَلَى].

وسايتي إن شاء الله توجيه القراءتين عند تدبر الآية.

١٠٥ - قرأ: [مَعِي] بفتح ياء المتكلم: حفص.

وقرأ: [مَعِي] بإسكان ياء المتكلم: باقي القراء العشرة.

وهما وجهان عربيان لنطق ياء المتكلم.

١١١ - في لفظة [أَرْجِهْ] عدة قراءات تتعلق بنطق الكلمة تُهْمُ المقرئين.

١١٢ - قرأ: [سَاحِرًا]: حمزة، والكسائي، وخلف.

وقرأ: [سَاحِرٍ]: باقي القراء العشرة.

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، لأن اقتراح ملاء فرعون كان موجهًا
لإحضار كل ساحر وكل ساحر ذي مهارة شديدة في السحر.

١١٣ - قرأ: [قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا]: نافع، وابن كثير، وحفص، وأبو جعفر.

وقرأ: [قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا] بإظهار همزة الاستفهام: باقي القراء العشرة.

١١٤ - قرأ الكسائي: [نَعِمْ] بكسر العين، وقرأ باقي القراء العشرة بفتح العين،

وهما وجهان عربيان لنطق الكلمة.

عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَعْلَبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ
السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى
وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا
لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ
﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ
ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ
﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ
وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ
وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

١١٧ - • قرأ البزّي في الوصل: [فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ]. وقرأ حفص: [فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ].
وقرأ باقي القراء العشرة: [فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ] قراءة البزّي وجّه في النطق. وقراءتا:
[تَلْقَفُ] و[تَلْقَفُ] متكاملتان في التعبير عن المعنى المراد، إذ كانت عصا موسى
التي انقلبت حية تلقف أحياناً أدوات السحرة، وتلقفها أحياناً أخرى، بحسب
ما تحتاج إليه من أمر.

١٢٧ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر: [سَنُقَتِّلُ].
من فعل «قتل» غير المزيد.

• وقرأ باقي القراء العشرة: [سَنُقَتِّلُ] من فعل «قتل» المزيد بتشديد التاء.
والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد.

إذ دلّ فعل: [سَنُقَتِّلُ] على أن فرعون قال هذا في حالة الهدوء. وعلى أن
فعل: [سَنُقَتِّلُ] قد قاله مرة أخرى في حالة الغضب، أي: سنشدّد في القتل.

وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ
 بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ
 وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ
 أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
 يَذَكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ
 تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ
 اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ
 آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
 الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكَبَرُوا
 وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا
 يَمُوسَىٰ آدُعْ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا
 الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا
 كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ
 ﴿١٣٥﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا
 يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمُغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ
 كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا

١٣٣ - ١٣٤ • قرأ بضَمِّ هاء الضمير من [عَلَيْهِمْ] في الآيتين: حمزة، والكسائي،
 ويعقوب، وخلف.

وقرأ بكسر هاء الضمير منها في الآيتين: باقي القراء العشرة.

كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾
وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى
أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُوا
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ
فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ
فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾
وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتُ رَبِّهِ

١٣٧ - • قرأ ابن عامر، وشعبة: [يَعْرِشُونَ] بضم الراء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَعْرِشُونَ] بكسر الراء.

وهما وجهان لنطق الكلمة في اللسان العربي.

١٣٨ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [يَعْكُفُونَ] بكسر الكاف.

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَعْكُفُونَ] بضم الكاف.

والقراءتان وجهان لنطق الكلمة في اللسان العربي.

١٤١ - • قرأ ابن عامر [وَإِذْ أَنْجَاكُمْ] تعبيراً عما قاله موسى عليه السلام لقومه بشأن ما أكرمهم الله به من النجاة.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ] تعبيراً عما قاله الله لهم، وبلغهم إياه موسى عليه السلام.

فبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

١٤١ - • قرأ نافع: [يُقْتَلُونَ] من فعل «قَتَلَ». وقرأ باقي القراء العشرة: [يُقْتَلُونَ] من فعل «قَتَلَ» مضاعف التاء.

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، فقد كان آل فرعون يُقْتَلُونَ أبناء الإسرائيلين بعنف أحياناً في حملات مشددة، وَيُقْتَلُونَهم أحياناً أخرى دون عنف.

أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي
وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى
لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ
تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا
تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ
قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ
يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا
ءَاتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ

١٤٢ - • قرأ أبو جعفر، وأبو عمرو، ويعقوب: [وَوَعَدْنَا] مِنْ فِعْلٍ: «وَعَدَ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَوَاعَدْنَا] مِنْ فِعْلٍ: «وَوَاعَدَ» الدال على المشاركة أي:
أكدنا الوعد.

والقراءتان متكاملتان في بيان المعنى المراد، فقد وعد الله موسى أولاً، وبعد
ذلك أكد له الوعد.

١٤٣ - • قرأ ابن كثير، والسوسى، ويعقوب: [أَرِنِي] بِإِسْكَانِ الرَّاءِ، وقرأ الدوري
باختلاس كسرة الراء. وقرأ باقي القراء العشرة: [أَرِنِي] بِكَسْرِ الرَّاءِ.

١٤٣ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [دَكَّاءَ]. وقرأ الباقون: [دَكَّا] وهما وجهان
عربيان.

١٤٣ - • قرأ نافع وأبو جعفر: [وَأَنَا أَوَّلُ] بِالْفِ ممدودة بعد نون «أَنَا» وقرأ الباقون:
بنون مفتوحة دون ألف.

١٤٤ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ] بِفَتْحِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ.
وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها.

١٤٤ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، وزُوح: [بِرِسَالَتِي] عَلَى الْإِفْرَادِ.
وقرأ باقي القراء العشرة: [بِرِسَالَاتِي] عَلَى الْجَمْعِ.

وفي القراءتين دلالة على رسالة موسى بالنظر إلى عمومها هي واحدة، وبالنظر
إلى أجزائها وأقسامها وتنزيلاتها هي رسالات.

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ
 قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَاصْرِفْ عَنْ
 عَآيَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُفْلًا
 ءَايَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا
 وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
 الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا
 جَسَدًا لَهُمْ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا
 اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ
 وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا

١٤٦ - • قرأ ابن عامر، وحمزة: [عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ] بإسكان ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة بفتحها في الوصل.

١٤٦ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [الرُّشْدِ].

وقرأ الباقون: [الرُّشْدِ] بضم الراء وإسكان الشين. وهما لغتان.

١٤٨ - • قرأ حمزة، والكسائي: [حُلِيِّهِمْ] بكسر الحاء واللام وتشديد الياء المكسورة.

وقرأ يعقوب: [حُلِيِّهِمْ] بفتح الحاء وإسكان اللام وكسر الياء غير المشددة.

وقرأ باقي القراء العشرة: [حُلِيِّهِمْ].

وهي لغات عربية لنتق هذه الكلمة.

١٤٨ - ١٤٩ • قرأ بضم هاء الضمير في: [وَلَا يَهْدِيهِمْ] وفي: [أَيْدِيهِمْ]: يعقوب.

وقرأ الباقون بكسرها في الموضعين.

١٤٩ - • والكسائي، وخلف: [لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا]: خطاباً لله عز وجل بالدعاء.

وقرأ باقي القراء العشر: [لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا].

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذ هم قالوا ما جاء في قراءة =

لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

= الجمهور وتوجهوا بالدعاء لربهم، كما جاء في القراءة الأخرى.

١٥٠ - • قرأ: [بِئْسَمَا] بالياء المدية بدل الهمزة: ورش، والسوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف. وحزمة في الوقف فقط.

وقرأ: [بِئْسَمَا] بالهمزة باقي القراء العشرة.

١٥٠ - • قرأ: [مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ] بفتح ياء المتكلم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر.

وقرأ بإسكانها باقي القراء العشرة.

١٥٠ - • قرأ: [بِرَأْسِ] بالألف اللينة بدل الهمزة: السوسي، وأبو جعفر في الوصل والوقف، وحزمة في الوقف فقط.

وقرأ: [بِرَأْسِ] بالهمزة الساكنة: باقي القراء العشرة.

١٥٠ - • قرأ: [ابْنُ أُمِّ] بكسر الميم المشددة، ابن عامر، وشعبة، وحزمة، والكسائي وخلف.

وقرأ: [ابْنُ أُمِّ] بفتح الميم المشددة: باقي القراء العشر.

وهما وجهان عريان لُنْطَق الكلمة، وأصلها: «أُمِّي» حذفت منها ياء المتكلم مع ملاحظتها ذهنًا.

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ فِي تَشْخِهَا
 هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ
 سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ
 أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ
 إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا
 فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ * وَكُتِبَ لَنَا فِي
 هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا عَلَيْنَا عَذَابِي
 أُصِيبَ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا
 لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ
 ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ
 مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ
 وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
 الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ

١٥٦ - • قرأ: [عَذَابِي أُصِيبَ] بفتح ياء المتكلم في الوصل: نافع، وأبو جعفر.

وقرأ بإسكانها في الوصل والوقف باقي القراء العشرة.

١٥٧ - • قرأ نافع: [النَّبِيَّ] مع المذ المتصل.

وقرأ: [النَّبِيَّ]: باقي القراء العشرة.

١٥٧ - • قرأ ابن عامر [ءَاَصْرَهُمْ] بالجمع.

وقرأ باقي القراء العشرة: [إِصْرَهُمْ] بالانفراد.

ومؤدّي القراءتين واحد، لأن المفرد المضاف يؤم كل ما للمضاف إليه من أفراد.

فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي
 أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي
 رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ
 الَّذِي يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
 ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾
 وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشَرَ آسَاطًا أُمًّا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ
 اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ
 مِنْهُ أَثْنَتَا عَشَرَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا
 عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلَوىٰ كُلُوا مِنْ
 طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ
 يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا
 مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا
 نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَازِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ

١٦٠ - • قرأ أبو عمرو: [عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ] و[عَلَيْهِمُ الْمَنَّ] بكسر هاء الضمير وكسر الميم بعدها في الوصل.

وقرأ بضمهما في الموضعين في الوصل: حمزة والكسائي، ويعقوب، وخلف.
 وقرأ باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير وضم الميم فيهما.

١٦١ - • قرأ نافع، وأبو جعفر ويعقوب: [نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ] بالبناء لما لم يسم فاعله، وبالجمع بآلف وتاء.

وقرأ ابن عامر: [نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ] بالبناء لما لم يسم فاعله، وبالإفراد،
 والإفراد مع الإضافة كالجمع في المعنى.

ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا
 مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٦﴾ وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ
 الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي
 السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا
 يَسْبُتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
 ﴿١٦٧﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ
 مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
 ﴿١٦٨﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
 وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٩﴾

= وقرأ أبو عمرو: [تَغْفِزْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ] بنون المتكلم العظيم، وجمع التكسير.
 وقرأ باقي القراء العشرة: [تَغْفِزْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ] بنون المتكلم العظيم والجمع
 بألف وتاء.

وفي هذه القراءات تفتن في التعبير والمؤذي واحد.

١٦٣ • وقرأ ابن كثير، والكسائي، وخلف: [وَسَأَلْتُهُمْ] وقرأ باقي القراء العشرة:
 [وَأَسْأَلْتُهُمْ].

١٦٣ • قرأ: [تَأْتِيهِمْ] بضم هاء الضمير في الموضعين: يعقوب.

وقرأ باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير فيهما.

١٦٤ • قرأ حفص: [مَعَذَرَةَ] بالنصب، على أنها مفعول لأجله.

وقرأ باقي القراء العشرة بالرفع: [مَعَذَرَةَ] على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أي:
 هي معذرة.

١٦٥ • قرأ نافع وأبو جعفر: [بِعَذَابٍ بَئِيسٍ].

وقرأ ابنُ عامر: [بِعَذَابٍ بَئِيسٍ] وقرأ شعبة في أحد الوجهين عنه: [بِعَذَابٍ
 بَئِيسٍ].

وقرأ باقي القراء العشرة: [بِعَذَابٍ بَئِيسٍ] وهو الوجه الثاني لشعبة.

وهذه القراءات وجوه من الأداء، والمعنى واحد.

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾
 وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكْبَكَ لِيُبَعِّثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُومُهُمْ
 سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
 ﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ
 دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾
 فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى
 وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ الَّذِي أَخَذُوا آلَهُ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ
 مِمَّا شَتَّى الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ
 وَالْذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ
 يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ
 ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَنْفَخْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ
 بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

١٦٩ - • قرأ رويس بضم هاء الضمير في: [يَأْتِيهِمْ].

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَأْتِيَهُمْ] بكسر هاء الضمير.

١٦٩ - • قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [أَفَلَا تَعْقِلُونَ] بتاء المخاطبين.

وقرأ الباقون: [أَفَلَا يَفْقِلُونَ] بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، فالمتلِّقون يقال لهم: [أَفَلَا تَعْقِلُونَ] والآخرين يقال بشأنهم: [أَفَلَا يَفْقِلُونَ].

١٧٠ - • قرأ شعبة: [يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ] من فعل: «أَمَسَكَ».

وقرأ الباقون: [يُمَسِّكُونَ] من فعل: «مَسَكَ» بتشديد السين.

روعي في إحدَى القراءتين حال من يُمَسِّكُ بغير التزام بقوة، وفي الأخرى حال من يُمَسِّكُ بالِتِزام وقوة، وكلُّ منهما لا يُضِيعُ الله أجره.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
 أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ
 قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْفِئْكُمْ بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾
 وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَّاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ
 الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
 الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى
 الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ
 يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بِءَايَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا
 الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلُمٍ ﴿١٧٧﴾ مَنْ
 يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ
 ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
 لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ

١٧٢ - • قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [ذُرِّيَّاتِهِمْ] بالجمع.

وقرأ باقي القراء العشر [ذُرِّيَّتَهُمْ] بالافراد.

والمؤدى واحد في القراءتين.

١٧٢ - ١٧٣ • قرأ أبو عمرو: [أَنْ يَقُولُوا] و[أَوْ يَقُولُوا] بياء الغائبين فيهما.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ تَقُولُوا] و[أَوْ تَقُولُوا] بتاء المخاطبين فيهما.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني، فالمتلقون يخاطبون، والآخرين يتحدث عنهم بضمير الغائبين.

يَهَىٰ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِقُونَ ﴿١٧٩﴾
وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي
أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً
يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي
مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا
نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ
حَدِيثٍ بَعَدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ
وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ نُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا
عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ
لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ

١٨٠ - • قرأ حمزة: [يُلْحِدُونَ] من فعل: «لَحَد».

وقرأ باقي القراء العشرة: [يُلْحِدُونَ] من فعل: [الْحَد].

لَحَدَ وَالْحَدَ لغتان عربيّتان.

١٨٦ - • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر: [وَيَذَرُهُمْ] بنون المتكلم
العظيم، ورفع الفعل.

وقرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب: [وَيَذَرُهُمْ] بياء الغائب، ورفع الفعل.

وقرأ الباقر: [وَيَذَرُهُمْ] بياء الغائب، وبجزم الفعل، على اعتبار «مَنْ» في:
[مَنْ يُضِلِلِ] شرطية.

لَا تَسْتَكْبِرُتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا
خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ
فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَتَشْرِكُونَ مَا لَا
يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا
أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ
سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنْ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ
لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ

١٨٨ - • قرأ قالون في أحد الوجهين له: [إِنْ أَنَا إِلَّا] بإثبات ألف «أنا».

وقرأ باقي القراء العشرة بحذف ألف «أنا» وهو الأكثر في الاستعمال.

١٩٠ - • قرأ نافع، وشعبة، وأبو جعفر: [شُرَكَاءَ] على المصدرية.

وقرأ باقي القراء العشرة: [شُرَكَاءَ] جمع «شريك».

والقراءتان من قبيل التفتن في أداء المعنى المراد.

١٩٣ - • قرأ نافع: [لَا يَتَّبِعُوكُمْ] من فعل «تَبَعَ» المجرد.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَا يَتَّبِعُوكُمْ] من فعل «اتَّبَعَ» المزيد الدال على التكلف.

وفي القراءتين إشارة إلى أحوال الشركاء، المدركين أنهم مَغْبُودُونَ وغير المدركين ذلك.

١٩٥ - • قرأ أبو جعفر [يَبْطِشُونَ] بضم الطاء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَبْطِشُونَ] بكسر الطاء. وهما وجهان عربيان.

عَآذَاتٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾
 إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾
 وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَبْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾
 وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ
 بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾
 الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾
 وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِيتَهَا قُلْ
 إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ

١٩٥ - • قرأ عاصم، وحزمة، ويعقوب: [قُلْ اذْعُوا] بكسر اللام في الوصل.

وقرأ باقي القراء العشرة: [قُلْ اذْعُوا] بضم اللام في الوصل.

وهما وجهان من الأداء في النطق جائزان.

١٩٥ - • قرأ أبو عمرو، وأبو جعفر: [كِيدُونِي فَلَا] بإثبات ياء المتكلم في الوصل.

وقرأ يعقوب، وهشام: [كِيدُونِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.

وقرأ باقي القراء العشرة: [كِيدُونِي] بحذف ياء المتكلم في الوصل والوقف.

٢٠١ - • قرأ ابن كثير وأبو عمرو، والكسائي، ويعقوب: [طَافٌ].

وقرأ باقي القراء العشرة: [طَافٌ] والمعنى فيهما واحد، فالطيف هو الخيال الطائف.

٢٠٢ - • قرأ نافع، وأبو جعفر: [يُمُدُّونَهُمْ] من فعل «أمد» وقرأ باقي القراء العشرة:

[يُمُدُّونَهُمْ] من فعل: «مد يمد».

وهما لغتان عربيتان والمعنى واحد.

٢٠٣ - • قرأ زويس: [تَأْتِيَهُمْ] بضم هاء الضمير.

وقرأ باقي القراء العشرة: [تَأْتِيَهُمْ] بكسر هاء الضمير

وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

٢٠٤ - • قرأ أبو جعفر [وإذا قرئ] بالياء بدل الهمزة.
وقرأ باقي القراء العشرة: [وإذا قرئ] بالهمزة على الأصل في كلمة [قرئ].

(٢)

مما ورد في السنة بشأن سورة (الأعراف)

صح عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ أحياناً بهذه السورة في صلاة المغرب، يُفَرِّقُهَا فِي رَكْعَتَيْنِ.

(١) روى النسائي عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فَرَّقَهَا فِي رَكْعَتَيْنِ.

(٢) وروى النسائي أيضاً من حديث أبي مُلَيْكَةَ، عن عروة عن زيد بن ثابت، أنه قال لمروان بن الحكم: «مَالِي أَرَاكَ تَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِقِصَارِ السُّورِ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقْرَأُ بِأَطْوَلِ الطُّوَلَيْنِ».

قال مروان: قُلْتُ: «يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا أَطْوَلُ الطُّوَلَيْنِ؟».

قال: «الأعراف».

(٣) وجاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها، «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِطَوَلَى الطُّوَلَيْنِ».

المراد بالطوليين: «الأنعام» و«الأعراف» وسورة «الأعراف» أطول، إذ عدد آياتها (٢٠٦) وعدد صفحاتها (٢٤) صفحة. أما سورة الأنعام فعدد آياتها (١٦٥) وعدد صفحاتها (٢٣) صفحة بحسب مصحف المدينة المنورة. أي: أما «البقرة» و«آل عمران» و«النساء» فمعروفات بأنها الطوال. وكل منها أطول من «الأعراف».

وتأتي «المائدة» بعد «النساء» وقبل «الأنعام» وهي أقصر من «الأنعام» فالطوليان بعد المائدة في المصحف هما: «الأنعام» و«الأعراف».



(٣)

موضوع سورة الأعراف

يمكن وضع العنوان التالي لموضوع سورة (الأعراف):

مطلوبُ الله من عباده في رحلة امتحانهم أَنْ يَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وتفصيلات تتعلق بهذا المطلوب، وقصة التاريخ الإنساني تجاه هذا المطلوب الرباني مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَزَوْجَهُ.

فيُدور موضوع سورة (الأعراف) حول تاريخ الناس، آدَمَ وَزَوْجَهُ وذُراريهما، تُجَاةَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ اتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وما يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ مِنْ اتِّبَاعِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ، وبيان ما أثبتته الواقع من أَنَّ النَّاسَ قَلِيلًا مَا يَتَذَكَّرُونَ عِبْرَ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ.

واشتمل هذا الموضوع على معالجات للرَّسُولِ ﷺ، ولِلَّذِينَ لَمْ يَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ، وَعَلَى بَيِّنَاتٍ لِأَصُولِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ، وَكُلِّيَّاتِهِ الْكُبْرَى، وتحذيراتٍ لبني آدَمَ مِنْ أَنْ يَفْتَنَهُمُ الشَّيْطَانُ، فَيُضِلَّهُمْ بِوَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ، كما أخرج أبويهم آدَمَ وَحَوَاءَ مِنَ الْجَنَّةِ، بِمُخَالَفَتِهِمَا لِمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ.

واشتمل على كشف ما أوصى الله بني آدم به، منذ تاريخهم الأول، من وجوب اتباع آياته التي يُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهَا رُسُلٌ مِنْهُمْ يُرْسِلُهُمْ إِلَيْهِمْ لِيَقْضُوها عليهم كما أنزلها الله.

واشتمل على عرض لقطات من مشاهد يوم الدين، فيها ترغيب وترهيب، وعلى أمثلة تاريخية من الأمم السالفة، وما جرى لهم في الحياة الدنيا، وما أعد الله لهم يوم الدين.

واشتمل على معالجات اقناعية حول توحيد الربوبية والإلهية لله عز وجل، وما يجب على الناس تجاههما، وعلى معالجات إقناعية لأمة دعوة محمد ﷺ، وترغيبية وترهيبية، والثناء عليهم بأن منهم أمة يَهْدُونَ بالحق وبه يعدلون، وعلى وصايا للرسول ﷺ ولحملة رسالته من أمته، في مجالات تأديتهم وظائف الرسالة التي يحملون مهماتها.

ويلاحظ المتدبر المتتبع أن الخط الأعظم الذي تسير عليه آيات السورة هو الخط المنطلق من الآية الثالثة منها، وهي قول الله تعالى خطاباً للناس جميعاً:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣).



(٤)

دروس السورة

تشتمل سورة (الأعراف) على اثني عشر درساً تدور حول موضوعها الذي سبق بيانه بصورة إجمالية.

الدرس الأول وهو الآيات من (١ - ١٠).

ويشتمل على بيان لقطات موجزات من أصول الدين في قضايا، مع

خطاب الناس عقب بيان بعضها بأنهم قليلاً ما يتذكرون، وعقب بيان مئة الله عليهم في ظروف هذه الحياة الدنيا بالتمكين في الأرض، وبما جعل لهم فيها من معاش، بأنهم قليلاً ما يشكرون.

وقد اشتمل هذا الدرس الأول على ثماني قضايا:

القضية الأولى: بيان أن القرآن مُنَزَّلٌ مِنَ الرَّبِّ الخالق للعالمين المخاطبين بما جاء فيه.

القضية الثانية: بيان وظيفة الرسول محمد ﷺ بالنسبة إلى القرآن، بوصف كونه رسولاً، وهي تبليغه، وبيانه، وأخيراً الإنذار بما جاء فيه من إنذارات، فهو غير مسؤول عن تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان.

وبيان ما يجب على الناس تجاه ربهم والكتاب المنزل إليهم، فالمطلوب من المؤمنين أن يكون هذا الكتاب ذكرى لهم دوماً.

القضية الثالثة: توجيه الله الأمر لكل الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، بأن يتخذوا ربهم هو وليهم، وبأن لا يتخذوا من دونه أولياء على خلاف ما تقتضيه ولايته لهم، وبأن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم.

القضية الرابعة: بيان حقيقة من حقائق واقع المجموع البشري، وهي أنهم قليلاً ما يتذكرون ما يجب عليهم تجاه ربهم، لتحقيق سعادتهم الأبدية.

القضية الخامسة: الإلماح إلى الإنذار بمعجل العقاب في الحياة الدنيا، قياساً على من أهلكهم الله عز وجل من أهل القرى السابقين بسبب كفرهم، وعدم اتباعهم ما أنزل الله إليهم، وتكذيبهم رسل ربهم، مقروناً ببعض تفصيل عن أسلوب الله عز وجل في إهلاكهم.

القضية السادسة: توجيه الإنذار بمؤجل العقاب إلى يوم الدين، من خلال عرض لمحاتٍ من عُصْرَيْنِ من عناصر محكمة العدل الربّانيّة يوم الدين، وهما عُصْرُ السّؤال، وعنصر الوزن لأعمال العباد.

القضية السابعة: بيان أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل الناس في الأرض ممّتعين بأنّهم كيفية لتحقيق امتحانهم في الحياة الدنيا، بينَ طريق الشكر لربّهم، وطريق الكفر به، إذ مكّنه في الأرض فجعلهم قادرين على أن يتصرّفوا فيها على ما يُريدون من طاعة لربّهم بإرادة الخير وفعله، أو معصية لربّهم بإرادة الشرّ وفعله، وجعل لهم فيها وسائل عيشٍ مختلفة، ليبلّوهم فيما آتاهم.

القضية الثامنة: بيان حقيقة من حقائق واقع حال المجموع البشري، وهي أنّهم قليلاً ما يشكّرون.

الدرس الثاني وهو الآيات من (١١ - ٢٥).

ويشتمل على بيانٍ حول قضية خلق الإنسان متمثلاً بالشخص الأول من نوعه، وهو آدم ومعه زوجته، ولقطاتٍ مما رافق خلقه من أحداث، وما جرى لهما بعد إدخالهما الجنة إدخال امتحان واختبار، لا إدخال خلود واستقرار، من إغواء الشيطان لهما، حتى عصيا ربّهما فأكلا من الشجرة التي نهاهما عن أن يقرباها، فكان السبب في إخراجهما من الجنة.

وكان ما جرى منهما مثلاً من أمثلة عدم اتّباع الإنسان الممتحن المكلف ما أنزل الله إليه، واتّخاذه ولياً من دون الله عزّ وجلّ، وكان ما جرى لهما مثلاً من أمثلة الجزاء الربّاني بالعقاب على معصية أوامر الله ونواهيه.

الدرس الثالث وهو الآيات من (٢٦ - ٣٦).

ويشتمل هذا الدرس على قصة الدين الذي كان هدى الله لبني آدم

الأولين، وقد تضمن بيان الأسس العامة للدين الذي جاء به جميع رسل الله آدم فمن أرسله الله من بعد آدم إلى أممهم، وهو الدين الذي بلغه كل رسول لأمة، وقد ختم الله ببعثة محمد ﷺ وبما أنزل عليه رسالاته للناس.

وجاء في الآية (٣٢) من هذا الدرس بيان حول القرآن بأن الله عز وجل يُفَصِّل الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، للتنبية على بعض خصائص البيان القرآني، وجاء هذا البيان في أثناء ذكر بعض القضايا المفصلة في هذا الدرس.

الدرس الرابع وهو الآيات من (٣٧ - ٥٣).

وقد جاء هذا الدرس مرتباً على الخط الفكري الذي جاء في الآية الثالثة من السورة، وهو قول الله عز وجل خطاباً للناس:

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

فقد جاء في مطلع الدرس الرابع قول الله عز وجل:

﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ...﴾.

وقد جاء في هذا الدرس بيان لقطات من مشاهد عذابهم يوم الدين، وبيان لقطات أخرى من مشاهد ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، متبعين في الحياة الدنيا ما أنزل إليهم من ربهم.

وجاء فيه عرض حوارين بين أصحاب الجنة وأصحاب النار:

أحدهما: حوار اقترن ببدء لبعد ما بين الفريقين، وهذا الحوار يكون في موقف الحشر.

والآخر: حوار اقترن ببدء أيضاً، وهذا الحوار يجري حين يكون أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ويجعل الله بينهما وسائل اتصال.

الدرس الخامس وهو الآيات من (٥٤ - ٥٨):

وقد جاء هذا الدرس أيضاً مرتباً على الخطّ الفكري الذي جاء في الدرس الأول من دروس السورة، في الآية الثالثة منها، وهي:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وقد اشتمل هذا الدرس الخامس على بيان بعض آيات الربّ الخالق في كونه، وأنّ له في الوجود كلّ الخلق والأمر، فعلى مَرْبُوبِهِ أَنْ يَعْْبُدُوهُ وحده لا شريك له، ومن عِبَادَتِهِ جَلّ جلاله، أَنْ يَدْعُوهُ عِبِيدُهُ تَضَرُّعاً وخفية، وأن لا يَعْتَدُوا، وأن لا يُفْسِدُوا في الأرض بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، وأن يتوجّهوا له بالدعاء في أحوالِ الخوف، وفي أحوال الطمع.

الدرس السادس وهو الآيات من (٥٩ - ١٧١).

وهو درس طويل يشتمل على قِصَصٍ فيها تفصيل متوسّط أو مطوّل لستّة رُسُلٍ وأقوامهم، وبيان مجمل عن رُسُلٍ لم تُذَكَّرْ أسماؤهم ولا أسماء أقوامهم. وينقسم هذا الدرس إلى سبع فصول.

الفصل الأول: فيه لقطات من قصة نوح عليه السلام مع قومه، وهي الآيات من (٥٩ - ٦٤).

الفصل الثاني: فيه لقطات من قصة هود عليه السلام مع قومه عاد، وهي الآيات من (٦٥ - ٧٢).

الفصل الثالث: فيه لقطات من قصّة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، وهي الآيات من (٧٣ - ٧٩).

الفصل الرابع: فيه لقطات من قصة لوط عليه السلام مع قومه، وهي الآيات من (٨٠ - ٨٤).

الفصل الخامس: فيه لقطات من قصة شعيب عليه السلام مع قومه، وهي الآيات من (٨٥ - ٩٣).

الفصل السادس: فيه بيان مجمل عن رُسُلٍ لم تُذَكَّرْ أسماؤهم، ولا أسماء أقوامهم، وفيها بيان عامٌّ عن سُنَّةِ الله عَزَّ وَجَلَّ في أهل القرى، وتوجيهات هاديات وواعظات لكلِّ النَّاسِ ما تعاقبت القرون حتَّى زَمَنِ إقفال باب التوبة، والإيذان بإقامة ساعة إنهاء ظروف الحياة الدنيا حياة الابتلاء.

وهي الآيات من (٩٤ - ١٠٢).

الفصل السابع: فيه لقطات من قصة موسى وأخيه هارون عليهما السلام، مع فرعون ومَلَأِهِ وَقَوْمِهِ، ومع بني إسرائيل.

وهي الآيات من (١٠٣ - ١٧١).

الدرس السابع وهو الآيات من (١٧٢ - ١٧٤).

وهو درس يشتمل على بيان العهد الذي أخذه الله عَزَّ وَجَلَّ على بني آدم وهم في عالم الدَّرِّ، بأنَّهُ رَبُّهُمْ، والذي أشهدهم فيه على أنفسهم بذلك.

وجاء في آخر هذا الدرس آية فاصلة حول القرآن تبين أن الله عَزَّ وَجَلَّ يفصل الآيات للناس لعلهم يَرْجِعُونَ إِلَى الْحَقِّ، وإلى صراط الله المستقيم فيلتزموا سلوكه وهي الآية (١٧٤).

الدرس الثامن (هو الآيات من ١٧٥ - ١٧٧).

وهذا الدرس يشتمل على بيان حال من يكون مَخْمِيًّا بِلِبَاسٍ شاملٍ من آيات الله، ثُمَّ يَنْسَلِخُ مِنْهَا، وعندئذٍ يَتَّبِعُهُ الشَّيْطَانُ، وَيَسْتَهْوِيهِ حتَّى يكون من الغاوين، بسبب اتِّبَاعِهِ هَوَاهُ، وإخلاقه إلى الأرض.

وهذا الدرس موصول بالخط الفكريِّ الأعظم الذي جاء في الآية الثالثة من السورة، التي تأمر الناس جميعاً باتِّباع ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، في آياتٍ بيانيَّةٍ تتضمَّن مطلوب الرَّبِّ الخالق من عباده المكلفين.

الدرس التاسع وهو الآيتان (١٧٨ - ١٧٩).

وهذا درس يعرض الله عز وجل فيه لقطة من لقطات محكمة العدل الربانية يوم الدين، وهي لقطة ختامية تكشف أن من يحكم الله له بالهداية فهو المهتدي، وأن من يحكم الله عليه بالضلالة فهو الخاسر لا محالة.

وجاء فيه تعليق بياني بشأن أهل جهنم الذين لم ينتفعوا بما آتاهم الله من قلوب مؤهلة لأن تفقه، إلا أنهم لم يفقهوا بها، ولم ينتفعوا بما آتاهم الله من أعين مؤهلة للإبصار، وأذان مؤهلة للسمع، إلا أنهم كانوا في حياة امتحانهم كالأنعام بل كانوا أضل من الأنعام، إذ لهم أعين ولكنهم لا يبصرون بها، ولهم أذان ولكنهم لا يسمعون بها، بسبب انصرافهم عما يُنجيهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ويُظفرهم بجنان النعيم يوم الدين، غروراً بمتاع الحياة الدنيا وزيناتها.

ولا يخفى ارتباط هذا الدرس بموضوع السورة، وبالخط الأعظم الذي تسير عليه آياتها.

الدرس العاشر وهو الآية (١٨٠).

ويتضمن هذا الدرس وجوب الالتزام بأسماء الله الحسنى لدى عبادته بالدعاء، والتحذير من الإلحاد في أسمائه.

وهذا الالتزام هو من عناصر اتباع ما أنزل الله عز وجل لعباده في آياته البَيِّنَات من مطالب، فالدعاء أول عبادة العبد لربه، ورأس عباداته له، ويجب أن يكون خالياً من كل شرك.

الدرس الحادي عشر وهو الآيات من (١٨١ - ١٩٨).

وهو درس يتعلق بأمة دَعَا مُحَمَّد ﷺ وهم كل الناس بعد بَعَثَتِهِ، وفيه بيان أنه توجد فيهم أمة مؤمنون يهدون بالحق وبه يعدلون، ويوجد

فيهم آخرون مُكذَّبون بآيات الله سينالون عقابهم، وفيه مُعَالَجَاتُ إقْنَاعِيَّةٍ لهؤلاء المكذبين، ولا سيما ما هم فيه من شرك، وفيه رَدٌّ على سؤالهم عن وقت قيام الساعة.

الدرس الثاني عشر وهو الآيات من (١٩٩ - ٢٠٦) آخر السورة.

وهو درس ختامي فيه توجيه للرسول محمد ﷺ، ولحملة رسالته من بعده، بشأن ما ينبغي التحلي به لدى القيام بمهمات الدعوة إلى الله وما ينبغي اتخاذه تجاه نزغ الشيطان المحرّض على مقابلة السيئة من المدعّوين بمثلها، وما ينبغي أن يجيب به الرُّسُولُ المتعنتين الذين يقترحون عليه أن يأتي بالآيات على ما يشتهون.

وهذه التعليمات موصولة بما جاء في أول السورة، وهو قول الله عز وجل لرسوله:

﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

وفي هذا الدرس أمر من الله للمؤمنين بأن يستمعوا للقرآن إذا قرئَ وهم حضور، وبأن يُنصِتُوا راجين أن يرحمَهُمُ الله، وهذا الأمر موصول بالآية الثالثة من السورة، المشتملة على الخطِّ الأعظم الذي تَسِيرُ عليه دُرُوسها.

وفيه أمرٌ لكلّ مستجيب لدعوة الحقِّ الربّانية بأن يذكر ربّه في نفسه تَضَرُّعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال، وهذا الأمر موصول بالآية الثالثة من السورة أيضاً، وبفقرتها الأخيرة بالذات وهي قوله تعالى فيها: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وذلك لأنّ التذكّر وسيلته حَرَكََةُ الذِّكْرِ في النفس، وأقلُّه وزدُّ الغدو، ووزدُّ الأصيل مع التضرع والخوف وأن يكون دون الجهر من القول.



(٥)

التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة

وهو الآيات من (١ - ١٠)

قال الله عز وجل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ
وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ
﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْتَلِزَّ
الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلِزَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ عِلْمَهُمْ وَمَا كُنَّا عَائِلِينَ
﴿٧﴾ وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَن
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِعِبَابِنَا يُظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ
مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُم فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

تمهيد:

● في هذا الدرس يخاطب الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ، فيبين له حدود وظيفة رسالته تجاه القرآن الذي أنزل إليه قسماً منه خلال الزمن الذي بدأ في أوله بعثه رسولاً للناس أجمعين، وسيُنزل إليه سائرته خلال ما بقي من حياته، وهذه الوظيفة محدّدة بأن عليه تبليغه وبيانه للناس.

ثم إنذار من لم يستجب لدعوته، بما جاء فيه من إنذارات، بعد أداء مهمات رسالته لهم.

● أما من استجاب فأمن إيماناً صحيحاً صادقاً، فالمطلوب منه أن يكون القرآن له ذكراً، يتذكر ما جاء فيه من بيان مطلوب الله من عباده، عند كل مناسبة داعية لهذا التذكر.

● وبعد هذا نجد في هذا الدرس خطاباً موجهاً من الله عز وجل لكل الناس الصالحين للخطاب، والموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، فيأمرهم فيه أمر إلزام وإيجابٍ باتِّباع ما أنزل إليهم من ربهم أو سينزل على وفق ما تم به قضاؤه، في هذا الكتاب الذي يُبلِّغهم إياه الرسول محمد ﷺ، أو المبلِّغون عنه من أُمته الذين آمنوا به وحملوا واجب تبليغ رسالته التي تَبَلَّغوها منه، وينهاهم نهْي إلزام وتحريم، عن أن يتَّبِعُوا من دون ربهم أولياء، يَشْرَعُونَ لهم ويَحْلُلُونَ لهم ويَحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ ما لَمْ يُنَزِّلِ اللَّهُ به سلطاناً.

● وبعد ذلك نجد في هذا الدرس إعلاماً من الله عز وجل، بأن واقع حال الناس الذي سيكونون عليه باختيارهم الحر، والذي سبق به علمه كشفاً لا جبراً، أنهم قليلاً ما يتذكرون، بسبب أنهم سيَتَّبِعُونَ أولياء من دون ربهم، الذين يُزَيِّنُونَ لهم معصية الله، ويَحْبِبُونَ إليهم عَدَمِ اتِّباع ما أنزل ربهم إليهم، ويَضَعُونَ لهم أحكاماً وشرائع وسُبُلًا طاعُوتِيَّةً، مَقْرُونَةً بِزُخْرَفٍ من القول، لِيَتَّبِعُوهَا، ويستشيرونها فيهم أهواءهم وشهواتهم ويَعْلَقُونَهَا بما حرَّم عليهم ربهم من زينات الحياة الدنيا، غير مكْتَفِينَ بالكثير الذي أحلَّه لهم ربهم منها.

● واستدعى بيان هذا الواقع الذي سيكون عليه الناس، أن يحذِّرهم ربهم من المصير العقابي في الحياة الدنيا، نظير الذي أنزله بالظالمين الأولين الذين أَهْلَكَهُمْ من كُفَّارِ القرون الأولى، الذين كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، ولم يَتَّبِعُوا ما أنزل إليهم منه، فجاء في هذا الدرس ما يكشف هذه السُّنَّة من سُنَنِ الله في عباده الظالمين.

● لَكِنَّ المصيرَ العقابيَّ المعجَّلَ في الحياة الدنيا، بالإهلاكِ الجماعيِّ العام للأقوام الظالمة، مع إنزالِ بغضِ الْعَذَابِ عليهم قبل إِمَاتَتِهِمْ، لَا يُسَدِّدُ ما يَسْتَحِقُّونَ من جزاء، إذ الجزاء الأَوْفَى مؤجَّلٌ إلى يوم الدين، يوم يُنْعَمُونَ

لحياةٍ أخرى يكون فيها الحساب، وفصلُ القضاء، وتحقيقُ الجزاء الأوفى بالعدلِ على ما قَدَّمُوا وأَخْرُوا في الحياة الدنيا حياةً ابتلاءً.

فَسَيَحَاكُمُونَ في محكمة العدل والفضل الربَّانية، وفيها يُسألُونَ عن مخالفاتهم لأوامر ربِّهم ونواهيه، ويُسألُ الشُّهود الَّذِينَ بَلَّغُوهُمْ ما أُنْزِلَ إليهم من ربِّهم، وفيها تُعرضُ عليهم صُحُفُ أعمالهم التي سَلَفَتْ في الحياة الدنيا، فَيَسْأَلُونُ صِغَارَهَا وَكِبَارَهَا، إلاً ما سَتَرَهُ اللَّهُ وَعَفَا عَنْهَا. وفيها تُوزَنُ أعمالُهُمْ بموازينِ العدلِ الرَّبَّانية القائمة على الحقِّ، والتي تَرِنُ أَصْغَرَ الذَّرَاتِ، بموازينٍ ملائمةٍ لوزنِ الأعمال بحسبِ الطَّاقاتِ التي أنفقت فيها، وتكشف هذه الموازين أحوال الناس، ومراتبهم، ومنازلهم ودرجاتهم ودركاتهم المساوية لأعمالهم الجسدية والفكرية والنفسية والقلبية، فمنهم من تثقل موازينُهُم، فيحكُمُ الله لهم بالفلاح، على مقادير مراتبهم ودرجاتهم، ومنهم من تخِفُ موازينُهُم، بسببِ ظلمهم الناجم عن عَدَمِ اتِّباعِهِم ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ من آياتِ ربِّهم، فيكونون خاسرين أَنفُسَهُمْ، إِذْ يَصِيرُونَ إلى عَذَابٍ خَالِدٍ فِي جَهَنَّمَ، وذلك هو الخسران الأعظم.

● وقد كان الواجب عليهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، أَنْ يَشْكُرُوا ربَّهم على ما أَوْلَاهُم فيها من نِعَمٍ كثيرة، ولو من مستوى أَدْنَى الشكر بالإيمان وَبَعْضِ العمل الصالح المعبر عن صدق إيمانهم بربهم وبما أُنْزِلَ إليهم منه، إلاً أَنْ النَّاسَ قَلِيلًا ما يَشْكُرُونَ.



التدبر التحليلي:

● قول الله عز وجل:

﴿الْعَص ۝ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ

وَذِكْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾:

﴿الْقَصِّ﴾ تُثَلَّى عَلَى وَفْقِ أَسْمَاءِ حُرُوفِهَا: «أَلِفٌ، لَامٌ، مِيمٌ، صَادٌ» وَقَدْ سَبَقَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ (الْقَلَمِ) بَيَانُ كَافِ حَوْلِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي أَوَائِلِ بَعْضِ السُّورِ.

﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: أَي: هَذَا الْقُرْآنُ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ يَا مُحَمَّدٌ، وَجَاءَ فِي هَذَا إِبْطَاقُ عُنْوَانِ كُلِّ الْكُتَابِ الرَّبَّانِيِّ الْقُرْآنِ، مَعَ أَنَّ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ فِعْلًا مِنْهُ قَبْلَ إِنْزَالِ سُورَةِ (الأعراف) بَعْضُهُ لَا كُلُّهُ، نَظَرًا إِلَى أَنَّ الْقَضَاءَ الرَّبَّانِيَّ قَدْ تَمَّ بِإِنْزَالِهِ كُلُّهُ مُنْجَمًا، فَهُوَ بِحُكْمِ الْمَنْزِلِ كُلُّهُ، فَسَائِرُهُ سَيُنْزَلُ حَتْمًا. وَإِلَى أَنَّ مَا أُنْزِلَ مِنْهُ يُخْدِثُ فِي صَدْرِ الرُّسُولِ حَرَجًا إِذَا لَمْ يُبَيِّنِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرُسُولِهِ وَظِيفَتِهِ تَجَاهَهُ، إِذْ قَدْ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَبَيَانِهِ، وَمَسْئُولٌ أَيْضًا عَنْ اتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ لِتَحْوِيلِ النَّاسِ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَمِنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ إِلَى أَعْمَالِ الْخَيْرِ الَّتِي تُرْضِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، تَحْوِيلًا بِالْإِكْرَاهِ وَالْجَبْرِ، وَهَذَا التَّصَوُّرُ يُؤَلِّدُ حَرَجًا وَضِيقًا فِي صَدْرِهِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامَاتِهِ عَلَيْهِ، فَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حُدُودَ وَظِيفَتِهِ تَجَاهَ كِتَابِ رَبِّهِ.

يُضَافُ إِلَى هَذَا اعْتِرَاضَاتُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى تَنْزِيلِهِ مُنْجَمًا لَا جَمْلَةً وَاحِدَةً، الْأَمْرُ الَّذِي يَسَبِّبُ لَهُ ضِيقًا فِي صَدْرِهِ مِنْ اعْتِرَاضَاتِهِمْ.

﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾: أَي: فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ يَا مُحَمَّدُ ضِيقٌ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ، بِسَبَبِ اعْتِرَاضَاتِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى تَنْزِيلِهِ مُنْجَمًا، وَيَسَبِّبُ تَصَوُّرَكَ أَنَّكَ مَسْئُولٌ عَنْ تَحْوِيلِ النَّاسِ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ.

وَالْمَعْنَى: فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ ضِيقٌ مِنْ مَسْئُولِيَّاتِكَ وَمَا يَجِبُ عَلَيْكَ تَجَاهُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، فَلَا أَمْرَ لَيْسَ كَمَا يَتَبَادَرُ إِلَى تَصَوُّرِكَ مِنْ أَنَّكَ مَسْئُولٌ عَنْ تَحْوِيلِ النَّاسِ إِلَى الْإِيمَانِ مِنْ وَاقِعِ الْكُفْرِ الَّذِي هُمْ فِيهِ، وَإِكْرَاهِهِمْ عَلَى

أَنْ يَسْلُكُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، بينما واقع حالهم أَنَّهُمْ مُتَفَرِّقُونَ فِي السُّبُلِ المنحدرة إلى عذاب الجحيم، بل تنحصر مسؤوليتك في تبليغ وبيان ما أنزل الله إليهم، فإذا لم يَسْتَجِيبُوا فما عليك إلا أَنْ تُنذِرَهُمْ بما جاء فيه من إنذارات، إذ هم ممتحنون قد وهبهم الله إرادات حرّة ليلبّوهم، ولا يكن في صَدْرِكَ حَرَجٌ من اعتراضات المشركين.

الخرج: الضيق. وقال الزجاج: أَضِيقُ الضَّيْقَ. وقال ابن عباس: الحرج الموضع الكثير الشجر الذي لا يَصِلُ إِلَيْهِ الراعية. ويقال: مكان حَرَجٌ وَحَرَجٌ، أي: ضيق كثير الشجر.

أقول: هذا المعنى المادي نُقِلَ للدلالة على مشاعر الضيق التي تكون في الصُّدُور من أمرٍ عظيم.

ونلاحظ في هذا التعبير القرآني إبداعاً في الأداء البياني من جهة، وحكمة تَرْبُويّة رَبَّانِيّة من جهة أخرى.

● أما الإبداع البياني فظاهر في توجيه النهي للخرج، لا للرُّسُول ﷺ، فلم يَقُلْ الله له: لَا تَكُنْ حَرَجَ الصُّدْر، بل قال له: فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ، ولا يخفى ما في هذا من تَلَطُّفٍ بالرسول، إذ لم يواجهه الله بالنهي، بل وجه النهي للخرج.

ومن الإبداع في الأداء البياني، أَنْ لَفَّتَ النظر قد جاء للأثر، لا لمُسَبِّباته، مع أَنَّ المقصود هو مُسَبِّباته، فالخرج في صدره أثّر قَدْ يَخْدُثُ من جرّاء تصوّره أَنَّ مسؤوليته تجاه هذا الكتاب الذي أنزل إليه، أَنْ يجعل الناس مُتَّبِعِينَ له، وهذا أمرٌ لم يملكه الرسول ﷺ، بعد أن ظهر له خلال مسيرته في دعوته حتى وقت إنزال سورة (الأعراف) أَنَّ معظم قومه كفروا به، ورفضوا اتّباعه، فماذا يَفْعَلُ تجاه مسؤوليته العظمى التي تمثّلت في تصوّره؟

وقد يحدث من جراء اعتراضات أئمة الكافرين على تنزيل القرآن منجماً واتخاذ ذلك ذريعة لاتهامه بالافتراء على الله.

فاقتضى الأمر إعلامه بأنه ليس مسؤولاً عن إلزامهم بالاتباع، ولا عن اتخاذ الوسائل الإكراهية التي تجعلهم يتبعونه، وهي غيرُ مُتَّاحَةٍ له بمقتضى نظام الأسباب والمسببات، وأن اعتراضاتهم على تنزيل القرآن منجماً ينبغي له أن لا يهتم لها، لأنها اعتراضات على الاختيار الحكيم لرب العالمين.

والتعبير التلقائي القريب لإعلامه بهذه الحقيقة، يكون ببيان أنه ليس مسؤولاً عن جعلهم يتبعون الكتاب، فإذا لم يتبعوه فلا يجد في صدره حرجاً من ذلك، لأن الله قد منح الناس إرادات حرة ليبلوهم من خلالها فيما آتاهم، فلا سلطان للرسول ولا لغيره من خلق الله على إكراه الناس على الإيمان والإسلام والطاعة.

لكن مثل هذا التعبير يتناول الموضوع بطريقة مباشرة ليس فيها إبداع فكري، فعدّل عنه الأداء القرآني، ووجه النهي للأمر النفسي الذي يُخْدِثُهُ تصوُّره أنه مسؤول عن جعلهم يتبعون ما جاء في القرآن، وهو الحرج في صدره.

أي: لا تتصوّر تصوّرات تفضي بك إلى أن تشعُر بالحرج في صدرك، لأن التكليف الموجه لك ليس فيه ما يجعل في صدرك حرجاً.

هذا الأسلوب غير المباشر هو من رفيع الأدب في جانب المضمون الفكري للنص.

● وأما الحكمة التربوية الربانية، فنلاحظها في تقديم البيان الدالّ على نفّي ما يُسبّب الحرج في صدر الرسول ﷺ، إذ الحرج هو المشكلة التي كان يعاني منها إبان نزول هذه الآية.

وقد جاء قول الله عز وجل: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ بمثابة

جملة مُغْتَرِضَةٍ بين: ﴿كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ وبين: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فَطَمَأَنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رسوله بأنَّ تحويل الناس خارج عن حدود مسؤولياته.

وهكذا جاء تأخير البيان الدالَّ على مسؤوليته تجاه ما يُنْزِلُ الله إليه من القرآن، وهي أن ينذر الذين كفروا بما جاء في القرآن من إنذارات، ويذَرُهُمْ وشأنَهُمْ، لأنه ليس مسؤولاً عن كفرهم وعن عدم اتِّباعهم لما جاء في الكتاب، وليس مكلفاً أن يحولَهُمْ من الكفر إلى الإيمان والعمل الصالح.

أما من آمن واستجاب لدعوته، فليأمرهم بكتابته، وتلاوته، وتدبره على مقادير استطاعتهم، وأن يكون لهم ذكرى، وقد جاء الإيجاز الدالَّ على هذه المعاني بقوله تعالى:

● ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ :

﴿لِنُنْذِرَ بِهِ﴾ : أي: كتاب أنزل إليك لِنُنْذِرَ بما جاء فيه من إنذارات، مَنْ كَفَرَ بِكَ وبما أنزل إليك، بعد التبليغ والبيان واتخاذ كلِّ وسائل الإقناع.

﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ : أي: وليكون ذِكْرَى للمؤمنين، يُذَكِّرُونَ به، وَيَتَذَكَّرُونَ به، ويكون لهم أداة تَذَكَّرُ كُلَّمَا تَلَّوْهُ، أو قَرَّوْهُ، أو سَمِعُوهُ.

ذِكْرَى: اسم يؤتى به للدلالة على معنى أو أكثر من معاني ثلاثة:

المعنى الأول: التذكير، ومنه ما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ : أي: إن كان التذكير مَطْمَوْعاً بِنَفْعِهِ.

المعنى الثاني: التَّذَكُّرُ، ومنه ما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بشأن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام:

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾: أي: تَذَكُّرُ الدَّارِ الْآخِرَةِ دواماً.

المعنى الثالث: التَّذَكُّرَةُ، أي: الوسيلة التي يَخْصُلُ بها التذَكُّر، كبطاقةٍ فيها ما يُذَكَّر، أو رتيمة، وهي الخيط الذي يوضع في الإصْبَعِ للتذَكُّر.

والقرآن بالنسبة إلى المؤمنين هو ذكرى على المعاني الثلاثة، فهم يُذَكَّرُونَ به من قبل المذَكِّرِينَ، وهم يتذَكَّرُونَ به، ثم يكون هُوَ لَهُمْ إذا قرأوه في المصاحف، أو تَلَّوْهُ من حفظهم، أو سَمِعُوهُ ممن يقرؤه أو يَتْلُوهُ أداة تذكير.

وقد فهمنا مسؤولية الرسول ﷺ في تبليغ القرآن للناس من دلالة اللُّزُومِ العقلي، ومقتضيات الترتيب الطبيعي للأشياء.

وذلك لأن القرآن لا يكون ذِكْرَى للمؤمنين ما لم يَتَبَلَّغُوهُ أولاً، ولا يكون تَبَلُّغُهُمْ له ما لم يُبَلِّغُهُمُ الرُّسُولُ إِيَّاهُ، أو أَحَدُ حَمَلَةِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

ولا يُنْذِرُ به الرُّسُولُ الكَافِرِينَ ابتداءً، بل لَا بُدَّ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ إِيَّاهُ أولاً، وَيَبَيِّنَ لَهُمْ ما جاء فيه ممَّا يَتَعَلَّقُ بِإِيمَانِهِمْ وإِسْلَامِهِمْ وعَمَلِهِمْ، وَيُكْرِّرُ تذكيرهم به، فإذا أَصْرُوا على رَفْضِ الاستِجَابَةِ لدعوته، وَأَبَوْا أَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسَلِّمُوا أَنْذَرَهُمْ بما جاء فيه من إنذارات.

وإيجازاً في التعبير، وَحَذَفَاً لما يُمكن إِذْرَاكُهُ ذِهْناً قال الله عز وجل لِرَسُولِهِ: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ ذِكْرَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

● فمن أَبَى وَكَفَرَ، ولم يستجب لدَعْوَةِ الإِيمَانِ والإِسْلَامِ، أَنْذَرَهُ الرُّسُولُ، وَكَذَلِكَ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، بما في القرآن من إِنْذَارَاتٍ عاجِلَاتٍ قد يَجْرِي تَنْفِيذُهَا في الحياة الدنيا، وَأَجَلَاتٍ مُؤَخَّرَاتٍ التَّنْفِيذُ إلى يوم الدين.

• ومن آمن وأسلم وأطاع كَانَ القرآن له ذِكْرَى.

فلا داعي لأن يكون في صدرِ الرسولِ حَرْجٌ، إِذَا وَجَدَ الناسَ لم يستجيبوا لدعوته، وهذا يتضمَّن أمرين:

الأمر الأول: أَنَّهُ غَيْرُ مَكْلَفٍ أَمراً لَّا يَسْتَطِيعُهُ، وهو تَحْوِيلُ الناسِ من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ مِنْهُمْ اللهُ إِيَّاهَا لِيَبْلُوَهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا سَبِيلَ إِلَى إِكْرَاهِهَا إِلَّا مِنْ قَبْلِ خَالِقِهَا، وهذا يتعارض مع حكمة الابتلاء.

الأمر الثاني: أَنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سَيَمُدُّهُ بِالْمَعُونَةِ والتأييد، حَتَّى يُؤَدِّيَ رِسَالَتَهُ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ.

إِذَنْ فَلَا دَاعِيَ لَأَنْ يَكُونَ فِي صَدْرِهِ حَرْجٌ.

الحكمة من عبارتي: ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ و﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ ونحوهما.

جاء في بعض النصوص القرآنية حول إنزال القرآن التعديّة بحرف الجرّ «إلى» وجاء في بعضها التعديّة بحرف الجرّ «على».

• فمن أمثلة التعديّة بحرف الجرّ «إلى» ما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا بَيْنَهُمْ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾.

(٢) وقول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً ﴿١٥﴾﴾.

(٣) وقول الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول)
خطاباً لرسوله:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ...﴾.

● ومن أمثلة التعدية بحرف الجر «على» ما يلي:

(١) قول الله عز وجل في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول)
خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْتْ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ بِمُكِيلٍ﴾.

(٢) وقول الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾.

(٣) وقول الله عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول)
خطاباً لرسوله:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾.

فما الحكمة من هذا التنوع في التعبير؟

أقول: الذي أراه أن كلاً من هذين التعبيرين يدل على معنى مقصود غير المعنى الذي يدل عليه التعبير الآخر.

وذلك لأننا نلاحظ أن بعض آيات القرآن فيها تكاليف يُناسِبُها التعبير الاستعلائي، فجاء في بعض النصوص التعبير متعدياً بحرف الجر «على».

ونلاحظ أيضاً أن بعض آيات القرآن تشتمل على معارف وعُلُومٍ ونصائح نافعة لا تكليف فيها، وهذه يُناسِبُها التعبير الدال على معنى

الإرشاد، والهداية، والهِدْيَةُ من الله عز وجل لعباده، فجاء التعبير في بعض النُصُوص متعدياً بحرف الجر «إلى».

وبهذا الإجراء البياني تكاملت النُصُوص في أداء الغرضين، وملازمة التعبير للمضمون الفكري.



● قول الله عز وجل:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

في هذه الآية خطابٌ موجّه لجميع الناس الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، لابتلاء إراداتهم الحرّة في اختياراتها بين نجدتي الخير والشرّ، وفي هذا الخطاب أمرٌ ونهيٌ من الله لعباده.

﴿اتَّبِعُوا﴾: يُقال لغة: تَبَعَ الشيء تَبَعاً وَتَبَاعاً وَتُبُوعاً، أي: سار في أثره وقفاه دون تكلفٍ وَلَا مُعَانَاةٍ.

ويقال: اتَّبَعَهُ اتِّبَاعاً إذا سار في أثره وقفاه بتكلف ومشقة.

ويقال لغة: اتَّبَعَهُ وَتَتَبَعَهُ، وفي هَذَيْنِ معنَى الْقَصْدِ بعناية، وفي تَتَبَعَ معنى الاستقصاء. وعبارة ﴿اتَّبِعُوا﴾: فعل أمرٍ تكليفي.

وَاتَّبَعَ الْقُرْآنَ: أي: اتَّسَمَ بِهِ، وَعَمِلَ بما فيه، بِقَصْدٍ وَعِنَايَةٍ.

﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: أي: آيات القرآن، وَبَيِّنَاتِ الرِّسُولِ لَهُ الْمُتَعَلِّقَةُ بقضايا الدين.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾: في هذه العبارة نهيٌ إلزاميٌّ عن اتِّبَاعِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ الرَّبِّ جَلَّ جلاله.

﴿مِنْ دُونِهِ﴾: أي: من أشياء أو أحياء غَيْرِ رَبِّكُمْ هي بطبيعتها تقع

دونه لأنها خلَقَهُ، وهو سَبْحَانَهُ المتَّصِفُ بِالْفَوْقِيَّةِ المطلقة فهو العُلِّيُّ الأَعْلَى.
 كلمة «دُون» في اللُّغَةِ تأتي في الأصل مقابل كلمة «فوق» فهي مثل
 «تحت». وكُلٌّ من كلمَتَي «فوق» و«دون» يستعمل في الحسِّيَّاتِ وفي
 المعنويَّاتِ.

﴿أَوْلِيَاءُ﴾: جَمْعُ «وَلِيٍّ» وَالْوَلِيُّ كَالْمَوْلَى.

الْوَلِيُّ: يأتي بمعنى: الرَّبِّ، والمالك، والسَّيِّد، والمنعم، والمعتق،
 والناصر، والمحبِّ، والتَّابِع، والجار، وابن العمِّ، والحليف، والصُّهْر،
 والعَبْد، والمعتق، والمنعم عليه، والعَصْبَة من الأقارب، والذي يلي أمرَ
 اليتيم ويقوم بكفائيته، والذي يلي عَقْدَ نكاح المرأة عَلَيْهَا.
 وَوَلِيُّ الرَّجُلِ هُوَ الَّذِي يَلِي عَلَيْهِ أَمْرَهُ.

والمُنَاسِبُ من معاني الوَلِيِّ لِلآيَةِ مَعْنَى الرَّبِّ الْمُطَاعِ الْمُنْعِمِ، الذي
 يَنْصُرُ عباده المؤمنين، والذي يلي جميع أمورهم، وَمِنْهَا أُمُورُ دِينِهِم الشَّامِلَةُ
 لشرائعهم، وأحكام سُلُوكِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ، وَمِنْهَا جَمْعُ مَسِيرَتِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
 دَارِ امْتِحَانِهِمْ.

فمعنى ما جاء في الآية من أمرٍ وَنَهْيٍ: أَيُّهَا النَّاسُ اتَّخِذُوا رَبَّكُمْ
 وَلِيِّكُمْ الذي يلي جَمِيعَ أُمُورِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ، فَاطِيعُوا أَوَامِرَهُ، وَاجْتَنِبُوا
 نَوَاهِيَهُ، مُتَّبِعِينَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ عَنْ طَرِيقِ رَسُولِهِ الْمُؤَيَّدِ بِآيَاتِهِ، فِي كِتَابِهِ
 الْقُرْآنِ، وَفِيمَا أَوْحَى بِهِ إِلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ حَقَائِقِ اعْتِقَادِيَّةٍ، وَشَرَائِعِ
 وَأَحْكَامٍ وَوَصَايَا، فَاعْمَلُوا بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَاجْتَنِبُوا مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ، وَاهْتَدُوا
 بِهَدْيِهِ. وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ رَبِّكُمْ بَارِئَكُمْ وَمُصَوِّرَكُمْ وَمُمِدِّكُمْ دَوَاماً بِنِعْمِهِ
 الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، أَرْبَاباً مِنْ أَشْيَاءٍ أَوْ أَحْيَاءٍ أَوْ لَيَاءٍ، تَجْعَلُونَهُمْ أَوْلِيَاءَ عَلَيْكُمْ،
 يَتَوَلَّوْنَ أُمُورَكُمْ فِي مَسِيرَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ، فَتَتَّبِعُونَ مَا يَأْمُرُونَكُمْ بِهِ أَوْ تَأْمُرُكُمْ
 بِهِ الشَّيَاطِينُ السَّادِنُونَ لَهُمْ، أَوْ الْمَوْسُوسُونَ لَكُمْ فِي صُدُورِكُمْ، فَتَعْمَلُونَ بِهِ،

وَتَتَّبِعُونَ مَا يَنْهَوْنَكُمْ عَنْهُ أُولَئِكَ، فَتَجَنَّبُونَهُ، وَتَعْمَلُونَ بِشَرَائِعِهِمْ وَمَنَاهِجِهِمْ وَخُطَطِهِمْ وَوَصَايَاهُمْ، الَّتِي وَضَعُوهَا لِإِغْرَائِكُمْ وَإِغْوَائِكُمْ وَسَوْقِكُمْ إِلَى عَذَابِ جَهَنَّمَ.

فَحَقُّ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ تُوَحِّدُوهُ فِي وِلَايَةِ أُمُورِكُمْ فِي مَسِيرَتِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةَ الْإِبْتِلَاءِ.

وَكُلٌّ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الْوَارِدَيْنِ فِي الْآيَةِ مِنْ قَبِيلِ التَّكْلِيفِ الْإِلْزَامِيِّ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلنَّاسِ، وَالْمُسْتَتَبِعِ بِالْمَثُوبَةِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَالْعُقُوبَةِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَمِنَ الْمَلَاظِظِ أَنَّهُ اخْتِيرَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اسْمَ «الرَّبِّ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي لَهُ عَلَى النَّاسِ حَقٌّ أَنْ يَتَّخِذُوهُ وَلِيًّا يَتَوَلَّى جَمِيعَ أُمُورِهِمْ فِي مَسِيرَتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ، فَيَتَّبِعُوا مَا أُنْزَلَ لَهُمْ، وَيَأْتِمِرُوا بِأَوَامِرِهِ، وَيَنْتَهُوا عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ، وَيَهْتَدُوا بِهَدْيِهِ، وَيَعْمَلُوا بِوَصَايَاهُ، وَلَا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ وَلِيًّا، إِذْ لَا رُبُوبِيَّةَ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

فَالرَّبُّ: هُوَ الْخَالِقُ ابْتِدَاءً، وَهُوَ الْمُمِدُّ بِالْبَقَاءِ وَالنَّمَاءِ وَشُرُوطِ الْحَيَاةِ، وَالْمَحَافِظَةُ عَلَيْهَا دَوَامًا، حَتَّى نِهَايَةِ الْأَجْلِ الْمَقْضِيِّ مِنْ قَبْلِهِ لِكُلِّ مَوْجُودٍ سِوَاهُ.

وَالرَّبُّ: هُوَ الْمَرْبِيُّ الَّذِي يَتَعَهَّدُ مَا يُرَبِّيهِ وَمَنْ يُرَبِّيهِ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ دَوَامًا، إِذِ التَّرْبِيَّةُ هِيَ الْإِنْشَاءُ الْمَتَدَرِّجُ مَعَ تَوَالِي الزَّمَنِ، حَتَّى إِبْلَاغِ الشَّيْءِ دَرَجَةَ كَمَالِهِ، وَيَتَّبَعُ ذَلِكَ التَّعَهُّدُ بِالتَّنَاقُصِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى نِهَايَةِ الْأَجْلِ الْمَقْدَّرِ الْمَقْضِيِّ لِلْمَخْلُوقِ وَفَقْ نِظَامِ التَّرْبِيَةِ.

وَهَذِهِ التَّرْبِيَةُ فِي تَصَاعُودِهَا وَفِي تَنَازُلِهَا لِلْأَحْيَاءِ وَسَائِرِ الْكَائِنَاتِ هِيَ مِنْ أَفْعَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْوُجُودِ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ.

إِذَنْ: فلا أحد ولا شيء من دون الله يَصْلُحُ لأن يكون وَلِيًّا لِأَحَدٍ من خَلَقِ الله في الوجود كُلِّه، إِلَّا بِأَمْرِهِ أو إِذْنِهِ، وَضَمَّنَ الحدود والشروط الَّتِي يُبَيِّنُهَا سُبْحَانَهُ وتعالى فيما أُنْزِلَ للناس.

فكيف يكونُ حالٌ من يَتَّخِذُ الطَّوَاعِيَّتَ أو شياطينَ الإنسِ والجنِّ أَوْلِيَاءَ من دون الله، أو يَتَّخِذُ إِلَهَهُ هَوَاهُ؟! .

وَكَيْفَ يكونُ حالٌ من يَرْفُضُ أحكامَ الله وشرائعَهُ لعباده، وَيَتَّخِذُ أَرْبَابًا من دون الله، يُشْرَعُونَ لَهُ ما لَمْ يَأْذَنْ به الله، وَلَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا؟! .

إِنَّهُ يَرْفُضُ الاستجابةَ لطلبِ الله منه في الأمر وفي النَّهْيِ، فَيَعْصِي مَرَّتَيْنِ، لَقَدْ عَصَى الأَمْرَ فلم يَتَّبِعْ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ من رَبِّهِ، وَعَصَى النَّهْيَ فَاتَّخَذَ أَرْبَابًا من دون الله وَاتَّبَعَ أَوَامِرَهُم ونَوَاهِيَهُمْ، وَشَرَائِعَهُمْ وَمَنَاهِجَهُم الَّتِي لَمْ يَأْذَنْ بِهَا الله، وَلَمْ يُنْزِلْ بِهَا سُلْطَانًا.

وَنُلاحِظُ في هذا النصِّ أَنَّ جملةَ الأَمْرِ قَدْ حُذِفَ مِنْهَا ما جاءَ الدليلُ عليه في جملةِ النَّهْيِ، وَأَنَّ جُمْلَةَ النَّهْيِ قَدْ حُذِفَ مِنْهَا أيضاً ما جاءَ الدليلُ عليه في جملةِ الأَمْرِ، وهذا ما يُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ البَلَاغَةِ «الِاخْتِيَاك».

فقد حُذِفَ مِنْ جملةِ الأَمْرِ التَّكْلِيفُ باتِّخَاذِ الله وَلِيًّا، وَحُذِفَ مِنْ جملةِ النَّهْيِ التَّكْلِيفُ بعدمِ اتِّبَاعِ شَرَائِعِ وَمَنَاهِجِ وَأَحْكَامِ يَضَعُهَا الْوَاضِعُونَ من دون الله، بغيرِ سُلْطَانٍ مِنْهُ أو إِذْنٍ.

وَاسْتُغْنِيَ بِدَلَالَةِ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى ما حُذِفَ مِنْ مُقَابِلِهِ، فَوَضَحَ أَنَّ الْمَعْنَى يَشْمَلُ النَّهْيَ عَنِ اتِّخَاذِ أَوْلِيَاءَ من دون الله بغيرِ سُلْطَانٍ مِنْهُ أو إِذْنٍ، وَعَنِ اتِّبَاعِ شَرَائِعِ وَمَنَاهِجِ وَأَحْكَامِ يَضَعُهَا هَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءَ بغيرِ سُلْطَانٍ من الله أو إِذْنٍ.

قوله تعالى في الآية خطاباً لجميع الناس الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء: ﴿.. قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أصلها «تَذَكَّرُونَ» حذفت التاء الثانية

تخفيفاً. وقُرئ: [تَذْكُرُونَ] بإدغام التاء الثانية بالذال، والحذف والإدغام في مثل هذا جائز في اللسان العربي، وهما وجهان من الأداء متكافئان.

وقُرئ: [يَتَذَكَّرُونَ] بضمير الغائبين، مراعاة لأحوال الذين لا يَتَلَقَّونَ الخطاب الرَّبَّانِيَّ في القرآن.

فبين الخطاب والحديث عن الغائبين تكامل في الأداء البياني.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: أي: تَذَكَّرَ قَلِيلًا قَلِيلًا تَتَذَكَّرُونَ، فلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ صِفَةٌ لمفعول مطلق محذوف مقدّم على فعله، ولفظ ﴿مَّا﴾ إبهامية لتأكيد القِلَّة.

والمراد بالتذكّر الأثر النفسي والسلوكي الذي يُثِيرُهُ أو يُخَدِّثُهُ التَّذَكُّرُ لقضية ما من قضايا المعرفة.

والمعرفة المرادة هنا هي المعرفة الدينيّة التي أوحى الله بها إلى رسوله، وهو ما جاء بيانه في صدر الآية التي نتدبرها.

التَّذَكُّرُ: هو استحضار المعلومة في الذاكرة، أو في جهاز التّصوُّر الحاضر في الدماغ، باستخراجها من مَخَازِنِ المعرفة، وإحضارها إلى ساحة التّصوُّر الحاضر.

ومخازِنُ المعرفة هي مراكز مُتَخَصِّصَةٌ في الدماغ للاحتفاظ بالمعارف، وتُسْتَدْعَى المعارف منها عند الحاجة، وتعرّض للنسيان بعدة أسباب، ومن هذه الأسباب الإهمال، وعدم اهتمام النفس بالمعلومة، وعدم المبالاة بها والاكتراث لها.

أحوال الإنسان بالنسبة إلى المعارف:

وباستطاعتنا لدى التحليل النفسي بالنسبة إلى المعارف أن نكتشف أن الإنسان له عدّة أحوالٍ معها:

الحالة الأولى:

هي الجهل بها مطلقاً، ونعلمُ بدهاءة أنه لا مسؤولية على الإنسان بالنسبة إلى المعرفة أو بالنسبة إلى العمل بها، مع الجهلِ الأضليّ الذي لا كَسْبَ للإنسان فيه، أمّا ما لَهُ كَسْبٌ فيه كأن دُعِيَ إلى المعرفة فأبى، أو عُرِضَتْ عليه فأعْرَضَ عنها أو أذْبَرَ وتولَّى، فهو مسؤولٌ عن الجهلِ، ومسؤولٌ عن عَدَمِ العمل بما كانَ عليه أن يتعلَّمه.

الحالة الثانية:

تَهَيُّؤُ الفُرْصَةِ والشُّرُوطِ اللازِمة لاكتساب المعرفة الواجبة، والناسُ مع هذه الحالة قسمان:

● قِسْمٌ يَخْرِصُ على المعرفة، وَيَبْحَثُ عَنْهَا بوسائلها، الفكرية، أو التجريبية أو الخبرية.

وهذا القسم من الناس قد عَرَفَ مِيزَةَ ذاته بوصفه إنساناً، وقامَ بواجبه نحوها، أو بِيَغْضٍ واجبه، وأهْلُ هذا القِسْمِ من الناس على درجات مُتَفَاضِلَاتٍ.

● وقِسْمٌ لا يُبالي بالمعرفة ولا يَكْتَرِثُ لها، ويبقى راضياً بحالة الجهل التي هو فيها.

وهذا القِسْمُ من الناس قد أَهْمَلَ إنسانيَّته، وانساق مع الدوافع الحيوانية فيه، ولم يَقُمْ بواجبه نحو ما مِيزَهُ الله به عن سائر الحيوانات، مُنْذُ كَرَّمَهُ وشَرَّفَهُ بأداة المعرفة ووسائلها، التي مَنَحَهُ الله إِيَّاهَا، وكَرَّمَهُ وشَرَّفَهُ بالإرادة الحرَّة التي فَطَرَهُ عليها.

وهذا القسم مسؤولٌ عَنْ إِهْمَالِهِ وتقصيره، ومؤاخَذٌ عليه.

الحالة الثالثة:

حصول المعرفة بوسيلة من وسائلها الفكرية، أو التجريبية، أو الخبرية.

وأصحاب هذه الحالة قسمان:

- قِسْمٌ يَحَافِظُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ، وَيُوجِّهُهَا لِمَخَازِنِ الْمَعَارِفِ فِي نَفْسِهِ.
- وَقِسْمٌ تَمُرُّ الْمَعْرِفَةُ عَلَى فِكْرِهِ، فَلَا يَغْتَنِي بِهَا، وَلَا يَكْتَرِثُ لَهَا، وَيَدْعُهَا تَمُرُّ عَابِرَةً، دُونَ أَنْ يَهْتَمَّ بِنَقْلِهَا إِلَى مَخَازِنِ الذَّاكِرَةِ فِي نَفْسِهِ، بِسَبَبِ إِهْمَالِهِ وَعَدَمِ اهْتِمَامِهِ.

وهذا القسم من الناس مسؤول عن إهماله وتقصيره، ومؤاخذ عليه.

الحالة الرابعة:

استقرار المعرفة المكتسبة في مخازن الذاكرة في النفس.

وأصحاب هذه الحالة قسمان:

- قِسْمٌ يَسْتَدْعِي الْمَعْلُومَةَ مِنْ مَخَازِنِ الذَّاكِرَةِ، إِلَى سَاحَةِ التَّصَوُّرِ الْحَاضِرِ عِنْدَ الْمُنَاسَبَةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا، وَهَذَا هُوَ التَّذَكُّرُ.

وَيَتَفَاوَتْ أَهْلُ هَذَا الْقِسْمِ فِي دَرَجَاتِ الْاسْتِدْعَاءِ التَّذَكُّرِيِّ.

- وَقِسْمٌ يُهْمِلُ هَذِهِ الْمَخَازِنَ، حَتَّى تَكُونَ فِي زَوَايَا الْمَتْرُوكَاتِ وَالْمُهْمَلَاتِ، أَوْ تَوَادِرِ الْاسْتِدْعَاءِ، أَوْ فِي غِيَاهِبِ النِّسْيَانِ.

وهذا القسم مسؤول عن إهماله وتقصيره، ومسؤول عن نسيانه، إذ كَانَ لَهُ كَسْبٌ فِيهِ.

وَلَدَى إِخْصَاءٍ وَاقِعٍ حَالِ النَّاسِ أَمَامَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ نَجْدُ الْقَلِيلِ النَّادِرِ مِنْهُمْ الَّذِي يَكْتَسِبُ الْمَعْرِفَةَ الدِّينِيَّةَ الَّتِي تَخْدُمُ الْآخِرَةَ، وَالْكَمَالَ الْحَقِيقِيَّ لِلْإِنْسَانِ، وَيَحَافِظُ عَلَيْهَا فِي مَخَازِنِ الْمَعْرِفَةِ لَدَيْهِ، وَيَسْتَدْعِيهَا إِلَى سَاحَةِ التَّذَكُّرِ وَالتَّصَوُّرِ الْحَاضِرِ، عِنْدَ الْمُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ، لِيَكُونَ هَذَا التَّذَكُّرُ الْحَاضِرُ مُوجَّهًا لِلْإِرَادَةِ، وَمُحَرِّكًا لِلسُّلُوكِ عَلَى وَفْقِ الْمَعْرِفَةِ وَمَا تَقْتَضِيهِ مِنْ اعْتِقَادٍ أَوْ عَمَلٍ.

كُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي قَدْ فَتَحَ لَنَا أَبْوَابَ إِدْرَاكِهَا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ: ﴿فَلَيْلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

قيمة التذكُّر وأثره في السلوك:

وَلَمَّا كَانَ الَّذِي يُحَرِّكُ شَيْئًا مَّا مِنْ جَوَانِبِ النَّفْسِ إِقْبَالًا أَوْ إِذْبَارًا بِعَاطِفَةٍ مِنَ الْعَوَاطِفِ، أَوْ انْفِعَالٍ مِنَ الْانْفِعَالَاتِ، وَيُحَرِّكُ إِزَادَتَهَا، وَيَذْفَعُهَا لَتَصْرِفٍ مِنَ التَّصْرِيفَاتِ، أَوْ عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ، لَا بُدَّ أَنْ يَمُرَّ فِي سَاحَةِ التَّذَكُّرِ الْحَاضِرِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ الْقِرَائِيِّ التَّنْبِيهِ عَلَى قَضِيَّةِ التَّذَكُّرِ لِلْمَعَارِفِ وَالْقَضَايَا الدِّينِيَّةِ.

فَالَّذِينَ لَا يَتَذَكَّرُونَ هَذِهِ الْمَعَارِفَ وَالْقَضَايَا لَا يَعْمَلُونَ بِمَقْتَضَاهَا، وَالَّذِينَ يَقِلُّ تَذَكُّرُهُمْ لَهَا، يَقِلُّ عَمَلُهُمْ بِهَا، وَالَّذِينَ يُكْثِرُونَ مِنْ تَذَكُّرِهَا يَكُونُ عَمَلُهُمْ بِمَقْتَضَاهَا أَزْجَى وَأَكْثَرَ، لِأَنَّ التَّذَكُّرَ يُثِيرُ دَوَافِعَ النَّفْسِ، وَيُحَرِّكُ مَطَالِبَهَا وَرَغَائِبَهَا.

أَلَهُمْ لَا يُحْيِيهِ فِي النَّفْسِ إِلَّا التَّذَكُّرُ، أَمَّا النِّسيَانُ فَيَمْحُوهُ.

وَالْعَشْقُ لَا يُوقِدُ لَهُبَهُ فِي النَّفْسِ إِلَّا التَّذَكُّرُ، أَمَّا النِّسيَانُ فَيَطْفِئُهُ.

وَالْحَقْدُ لَا يُبَيِّنُ بُرْكَانَهُ فِي الْقَلْبِ إِلَّا التَّذَكُّرُ، أَمَّا النِّسيَانُ فَيَطْوِيهِ وَيُؤَمِّتُهُ.

وَالْحَسَدُ لَا يُثِيرُهُ إِلَّا شَغْلُ سَاحَةِ التَّصَوُّرِ وَالتَّذَكُّرِ بِمِرَاقَبَةِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْمُحْسُودِ، أَمَّا النِّسيَانُ فَيَضْرِبُهُ عَنِ الْقَلْبِ، فَلَا تَتَحَرَّكُ النَّفْسُ بِهِ، فَتَنْعَدِمُ الرِّغْبَةُ فِي كَيْدِ الْمُحْسُودِ أَوْ ضَرَرِهِ أَوْ إِذَابِهِ، أَوْ تَمَنِّي زَوَالِ نِعْمَتِهِ، أَوْ تَمَنِّي الْحَصُولِ عَلَى مِثْلِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَخْرَفِهَا.

وَيَأْنَسُ الصَّدِيقُ وَيَسْرُهُ أَنْ يَكُونَ فِي ذَاكِرَةِ صَدِيقِهِ دَوَامًا أَوْ أَحْيَانًا، لِذَلِكَ فَهُوَ يَفْرَحُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا التَّذَكُّرِ، كَهَدِيَّةٍ رَمْزِيَّةٍ، أَوْ رِسَالَةٍ، أَوْ

بِطَاقَةٍ دَعَوَى، أَوْ زِيَارَةٍ، أَوْ مُحَادَثَةٍ بِالْهَاتِفِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. وَحِينَ يُعَاتِبُهُ عَلَى التَّقْصِيرِ يَقُولُ لَهُ: أَلَمْ نَخْطُرْ فِي بَالِكَ؟! أَتَسَيِّتُنَا؟! أَلَمْ تَذْكُرْنَا?!.

وَاشْتِغَالَ الْقَلْبِ وَجَوَانِبِ النَّفْسِ فِي حَرَكَاتِهَا وَتَصَرُّفَاتِهَا بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَبِطَاعَتِهِ، وَبِالتَّقْيِيدِ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، مَسْبُوقٌ بِاشْتِغَالِ قِسْمٍ مِنْ سَاحَةِ التَّذَكُّرِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، الَّذِي يَفْتَحُ فِي الذَّاكِرَةِ صَفْحَاتٍ مَطَالِبِ الدِّينِ تُجَاهَ الْمُثِيرِ الْمُقَارِنِ، مِنْ حَرَكََةِ الزَّمَنِ، أَوْ مَطَالِبِ الْحَيَاةِ وَشَهَوَاتِ النَفُوسِ.

وَكَلَّمَا كَانَ الشَّيْءُ أَكْثَرَ حُضُورًا فِي سَاحَةِ التَّذَكُّرِ كَانَ أَكْثَرَ تَأْثِيرًا فِي النَّفْسِ، وَتَخْرِيكًا لِلْإِزَادَةِ الْمَوْجِهَةِ لِلطَّاقَاتِ نَحْوِ السُّلُوكِ الْمَلَائِمِ لِمَطْلُوبِ النَّفْسِ الَّذِي أَثَارَهُ التَّذَكُّرُ.

وَكَلَّمَا كَانَ الشَّيْءُ أَكْثَرَ شُغْلًا لِنِقَاطِ سَاحَةِ التَّذَكُّرِ، كَانَ أَكْثَرَ تَأْثِيرًا فِي جَوَانِبِ النَّفْسِ، وَأَكْثَرَ مُحَاصِرَةً لَهَا، فَالشَّامِلُ لِسَاحَةِ التَّذَكُّرِ يَسْتَأْثِرُ بِكُلِّ جَوَانِبِ النَّفْسِ.

وَكَلَّمَا كَانَ الشَّيْءُ أَذْوَمَ بَقَاءً فِي سَاحَةِ التَّذَكُّرِ، كَانَ أَذْوَمَ تَأْثِيرًا فِي جَوَانِبِ النَّفْسِ، وَاسْتِثَارَةً لَهَا نَحْوِ السُّلُوكِ الْمَلَائِمِ لِمَطْلُوبِهَا الَّذِي أَثَارَهُ التَّذَكُّرُ.

فَمَنْ كَانَتْ ذَاكِرَتُهُ مَشْغُولَةً دَوَامًا بِالذَّارِ الْآخِرَةِ، وَمَا يُحَقِّقُ السَّعَادَةَ الْآبِدِيَّةَ فِيهَا، كَانَتْ جَوَانِبُ نَفْسِهِ كُلُّهَا مُسْتَثَارَةً لِتَحْقِيقِ مَطَالِبِهَا مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ، بِالْعَمَلِ لِمَا يُحَقِّقُ أَعْظَمَ سَعَادَةٍ خَالِدَةٍ يَوْمَ الدِّينِ، وَطَرِيقُ ذَلِكَ الْعَمَلُ بِمَرَاضِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَابْتِغَاءِ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ.

وَهَكَذَا كَانَ حَالُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَفِي صَفْهِهِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (ص/٣٨ مَصْحَف/٣٨ نَزُول) خُطَابًا لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلِكُلِّ حَرِيصٍ عَلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ يَوْمَ الدِّينِ:

﴿وَأَذْكُرْ عِندَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَلَئِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

إن الخصلة الخالصة من الشوائب التي اضطفأهم الله بها، فجعلهم بها من المصطفين الأخيار، هي أن ساحة تذكيرهم مشغولة دوماً بالدار الآخرة، وبما يبلغهم فيها أعظم سعادة من رضوان الله عز وجل، ويجعلهم في الفردوس الأعلى من جنّة العظمى.

ولهذا جاء في القرآن المجيد التوجيه بعناية فائقة للتذكير والتذكير والتذكير.

يُضاف إلى ما سبق بيانه، أن للقصايا الاعتقادية عند إخضرارها في ساحة التصور الحاضر، ومراكز التذكر، رُود أفعال في النفس ملاتمة لها، ومساوية لها في مقدارها شدة وضعفاً، وذلك عند سلامة الفطرة النفسية وأجهزتها، وسلامة التصورات من العوارض المشوشة المفسدة، أو الصادة لها، الواقعة في طريقها تمنعها من التثؤذ إلى داخل النفس، أو المخدرة لها، إذ تسلها عن الحركة والتأثير، فتغذو تصورات اعتقادية كميّة في قلوب أصحابها بالشلل الذي أصابها، فهي حينئذ قد ترى ولا تتحرك، وقد تعي ولا تفعل شيئاً، فلا بد لها من علاج في كل هذه الأحوال غير الطبيعية.

أما في الحالة الطبيعية السليمة فلكل تصور اعتقادي رد فعل نفسي ملائم له، ومساوٍ له في مقداره، أو زائد عليه من شحنة ذاتية تنطلق من نفس الإنسان.

وفي بيان تأثير ذكر الله وذكر آياته المنزلات، في توجيه السلوك الديني والدفع إليه، قال الله عز وجل في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾﴾.

أي: من أحضر في تصوُّره أسماء ربه الحسنَى، وصِفَاتِهِ العَظْمَى، دَفَعَهُ تَذَكُّرُهَا إلى الخُضُوعِ لَهُ، وَالتَّيَمَّاسِ رَحْمَاتِهِ، فَصَلَّى لَهُ، رَاكِعاً، وَسَاجِداً، وَدَاعِياً.

والمراد بالتذكر لقضايا المعرفة الدنيئة المتصلة بالله عز وجل، إحضارها في ساحة التذكر والتَّصوُّر الحاضر، بإخراجها من خَزَائِنِ المَعْرِفَةِ في النَّفْسِ، وشغل الفكر المتحرك بها.

وأبان الله عز وجل أن عوارض نزغ الشيطان في النفس يصرفها تذكُّر الله والاستِعَاذَةُ بِهِ، فقال الله عز وجل في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) التي نتدبرها:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٥٧﴾ وَلِإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

فَكَشَفَ هَذَا النَّصَّ أَثَرَ الاستِعَاذَةِ الْحَقِيقِيَّةِ بِاللَّهِ، وهي الاستعاذة المصحوبة بتذكُّر فكري حقيقي لله عز وجل، في إحداث الإبصار القلبي الوجداني بعين البصيرة لحقائق الأمور التي يحيط بها نزغ الشيطان ويستغلها بوساوسه ونزغاته. وهذا الإبصار القلبي يطارد نزغ الشيطان، ويصرف عن النفس طائفه.

بخلاف إخوان الشياطين الذين لا يستعيذون بالله من نزغهم، ولا يذكرون الله ذكراً حقيقياً واصلًا إلى أعماق الفكر والنفس، فإن الشياطين يمدُّونهم في الغي والضلال ابتداءً، ثم لا يقصرون ولا يكفون عن متابعة الإغواء دوماً.

وأبان الله عز وجل أن المؤمنين المتقين الذين يرتكبون عوارض المعاصي، فيظلمون بها أنفسهم، ويُعَرِّضُونَهَا لاسْتِحْقَاقِ العقوبة من الله جلَّ

جَلَّالَهُ، لَا يَتْرُكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَعِيدِينَ بِمَعَاصِيهِمْ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ وَمَوَاقِعَ تَنْزِيلَاتِ رَحْمَاتِهِ، بَلْ يَتَدَارَكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَالرَّجْعَةِ الْحَمِيدَةِ إِلَى مُقْتَضَيَّاتِ التَّقْوَى، فَيَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، وَلَا يُصِرُّوا عَلَى مُتَابَعَةِ تَكَرُّارِ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي الَّتِي سَبَقَ أَنْ ارْتَكَبُوهَا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (آلِ عِمْرَانَ/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) فِي مَعْرِضِ بَيَانِ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

فَمِنْ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ أَنَّهُمْ إِذَا عَصَوْا مَعْصِيَةَ ذَكَرُوا اللَّهَ بَعْدَهَا، فَدَفَعَهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ إِلَى الْاسْتِغْفَارِ لِذُنُوبِهِمْ، وَعَدِمَ الْإِصْرَارَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا لَذِكْرِ اللَّهِ مِنْ تَأْثِيرٍ فِي النَّهْيِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الْعَنْكَبُوتِ/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) خُطَاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِابْنِ الصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

فَذَكَرَ اللَّهُ الدَّائِمُ أَكْبَرُ فِي النَّهْيِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ مِنَ الصَّلَاةِ الَّتِي قَدْ يَغْفُلُ الْمُصَلِّي فِيهَا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْاِكْتِفَاءُ بِذِكْرِ اللَّهِ عَنِ الصَّلَاةِ، بَلِ الْمُرَادُ التَّنْبِيهُ عَلَى قِيَمَةِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَوْجِيهِ سُلُوكِ الْإِنْسَانِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَالْعَمَلِ بِمَرَاذِيهِ.

وَلَيْسَ مَعْنَى النَّهْيِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ تَحَقُّقُ الْإِنْتِهَاءِ تَلَقَائِيًّا، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ حَرَكَةٍ نَفْسِيَّةٍ إِرَادِيَّةٍ أُخْرَى يَتَحَقَّقُ فِيهَا الْإِنْتِهَاءُ فِي وَاقِعِ سُلُوكِ الْإِنْسَانِ، غَيْرَ أَنَّ رَجَاءَ الْإِنْتِهَاءِ مَعَ وَجُودِ النَّهْيِ الَّذِي يَكُونُ بِالصَّلَاةِ أَوْ بِذِكْرِ اللَّهِ الدَّائِمِ وَلَوْ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، أَكْثَرُ مِنْهُ حَيْثَمَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ غَافِلًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ.

وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ التَّذْكَرَ النافع في جَعْلِ الإرادة تتوجّه لتنفيذ السلوك الذي يُرضي الله، هو التَّذْكَرُ الَّذِي يَتَذَكَّرُهُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ أُولُوا الْأَلْبَابِ، فقال تبارك وتعالى في سورة (الزمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول):

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

وقال تبارك وتعالى في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول):

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

الألباب: هي العقول الواعية الذراكة، التي تغل المعارف فتُمسِكُ بها، وتعقل النفس عن اتباع الهوى.

ولما للتذكّر بمعنى إحضار الشيء من ساحة التصوّر الحاضر من مخازن المعرفة في النفس، من قيمة عظيمة جداً، في تحريك الإرادة وتوجيه السلوك، جاء في القرآن المجيد نصوص كثيرة جداً يتطلب تدبرها بالتفصيل مجلداً ضخماً، وهذه النصوص تأمر بذكر الله، وبذكر آياته المنزلات، وبذكر قصص وأحوال الأولين للاعتبار والاتعاظ، أو الاقتداء والتأسي، وهذا الذكر لا بُدَّ أن يكون مسبوقاً بتلقّي القرآن كلّهُ أو بغضبه، ومسبوقاً بتفهّمه، واختزانه في مراكز المعرفة في النفس، ويعدّ ذلك يأتي تذكّره، بإحضار ما يتعلّق منه بالمناسبة الداعية، في ساحة التصوّر الحاضر، لتحريك الإرادة وتوجيه السلوك.

مراتب تأثير ذكر الله في قلوب المؤمنين:

ولتأثير ذكر الله عزَّ وجلَّ في قلوب المؤمنين ثلاث مراتب، ولكل مرتبة منها درجات متفاوتة بحسب أحوال أصحابها.

المرتبة الأولى الدنيا «مَرْتَبَةُ الْوَجَل»:

إنَّ المؤمن المتقي الذي يتملّكه الشّعور بالمعاصي والتقصيرات، إذا

ذَكَرَ اللهُ خَافَ مِنْ عِقَابِهِ، فَوَجَلَ قَلْبُهُ، وَيَكُونُ مَقْدَارُ وَجَلِهِ بِمَقْدَارِ قُوَّةِ إِيمَانِهِ شِدَّةً وَضَعْفًا، وَبِهَذَا تَتَفَاضَلُ دَرَجَاتُ أَهْلِ الْوَجَلِ.

الْوَجَلُ فِي اللُّغَةِ: الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾.

المرتبة الثانية الوسطى (مَرْتَبَةُ الْخُشُوعِ):

الْخُشُوعُ: هُوَ سُكُونُ النَّفْسِ وَخُضُوعُهَا، وَكُلُّ خَاشِعٍ سَاكِنٍ خَاضِعٍ.

وهذه المرتبة يرتقي المؤمن إليها، ثم يرتقي في درجاتها، إِذَا قَلَّتْ مَعَاصِيهِ وَمُخَالَفَاتُهُ، وَكَثُرَتْ طَاعَاتُهُ وَقُرْبَاتُهُ، وَعَظُمَ رَجَاؤُهُ لِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَتَكُونُ نِسْبَةُ خُشُوعِهِ بِمَقْدَارِ قَلَّةِ مَعَاصِيهِ، وَكَثْرَةِ طَاعَاتِهِ وَقُرْبَاتِهِ وَعَظَمِ رَجَائِهِ، وَبِهَذَا تَتَفَاضَلُ دَرَجَاتُ أَهْلِ الْخُشُوعِ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾: أَي: أَلَمْ يَحِنْ، يُقَالُ لَعَةً: أَنَّى يَأْنِي أَيْئًا وَإِنِّي وَأَنَاةً، أَي: حَانَ وَقَرَّبَ.

والمعنى: أَلَمْ يَحِنْ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَزْتَفُّوا فَوْقَ مَرْتَبَةِ الْوَجَلِ، وَيَصِلُوا إِلَى مَرْتَبَةِ الْخُشُوعِ وَالسَّكِينَةِ، بَعْدَ الْمَدَّةِ الَّتِي مَرَّتْ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يَمَارِسُونَ فِيهَا الْعِبَادَاتِ وَأَنْوَاعَ الْاسْتِقَامَةِ عَلَى صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ.

وقد نزل هذا النص بعد النص السابق بمدة كافية لحدوث الخشوع في قلوب المؤمنين من أصحاب الرسول ﷺ في المدينة.

المرتبة الثالثة العليا (مرتبة الطمأنينة):

وهي حالة السكون النفسي والقلبي التام المسترخي في أحضان فضل الله ورحمته وفيض إنعامه.

وهذه المرتبة يرتقي المؤمن المتقي إليها إذا صار من الأبرار أو من المحسنين، فاستوفى حقوق مرتبة المتقين بفعل الواجبات، وترك المحرمات، ودخل سباق نوافل العبادات والقربات، أو الإحسان في أداء العبادة للرب جلّ جلاله.

دلّ على هذه المرتبة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول):

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ﴿٧٨﴾.



مقادير الذكر والتذكر في الأزمان والأحوال:

وبالنظر إلى الأزمان التي تمرّ على المؤمنين والأحوال التي يتقبلون فيها نلاحظ أنهم يتفاوتون تفاوتاً كثيراً في مقادير ذكرهم لله، وتذكّرهم لآياته المنزلات، أو ما فيها من دلالات على قضايا دينه لعباده، وأوامره ونواهيه ووصاياه.

وقد أمر الله الذين آمنوا أن يذكروه ذكراً كثيراً، وأن يسبحوه بكرة وأصيلاً، والتسبيح من الذكر، إلا أنه خاصّ بتنزيه الله عن كلّ ما لا يليق به، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول):

﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ .
البُكْرَةُ: أول النهار إلى طلوع الشمس .

الأصيل: الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غروبها .
والكثرة والقلة في الذكر تكون من وجهين:
الوجه الأول: وجه تلاحظ فيه قلة الذكر وكثرته في اللحظة الواحدة،
فأكثره ما يملأ ساحة التذكر كلها في هذه اللحظة، فيستبد الشيء المذكور
فيها بجوانب النفس كلها .

ويتنازل المقدار حتى يكون الشيء المذكور في ساحة التذكر
بمثابة فرد من أفراد كثيرة مرث كلها في وقت واحد، وامتد إليها الشهود في
رؤية واحدة بالتساوي، كمن يرى شخصاً واحداً بعينه ضمن جمهور غفير
من الناس بإثارة مشتركة .

الوجه الثاني: وجه تلاحظ فيه قلة التذكر وكثرته للشيء الواحد في
تتابع اللحظات، فأقله ما يمر في الذاكرة لحظة واحدة وينصرف، وأكثره
أدومه وأبقاه مستمراً مع الزمن .

وينتج عن هذين الوجهين حالات لا حصر لها، ناتجة عن نسبة شغل
الشيء المذكور لساحة التذكر في اللحظة الواحدة، وفي مقدار دوام هذا
التذكر واستمراره مع توالي الزمن .

ولو استعرضنا أحوال الناس وأمكنا أن نشهد واقع أحوال ذاكراهم
للأشياء لوجدنا أمراً عجباً عجاباً .

فمن الناس من لا يوجد في ساحة تذكره إلا المال وجمعه، فلا تتجه
عواطفه وإرادته وسلوكه إلا لجمع المال بأية وسيلة متاحة له .

ومن الناس من لا يوجد في ساحة تذكره إلا عشيقتة، وهذا يكون
مشغول العواطف والإرادة والسلوك بها، بغية الوصول إليها .

ومن الناس من لا يَوجَدُ في ساحة تذكُّره إلَّا السُّلْطَانُ والعلوُّ في الأرض، فهو مشغولُ العواطف والإرادة والسلوك به دوماً.

ومن الناس من لا يَوجد في ساحة تذكُّره إلَّا مطالبُ شَهَوَاتِهِ وَلذَاتِهِ من طعامٍ وشرابٍ ورفاهية ونساء ونحو ذلك، فهو مشغولُ العواطف والإرادة والسلوك بما يملأ ساحة تذكُّره من هذه الأمور.

أما الذين يَتَذَكَّرُونَ رَبَّهُم والدَّارَ الآخِرَةَ، ومطلوبُ سعادَتِهِم الأبدية يوم الدين فهم نادِرُونَ قَلِيلُونَ في الناس، وهم على مراتب متفاضلات، ودرجاتٍ كثيرات متفاوتات، كما قال الله عزَّ وجل في الآية التي نحن في صَدَدِ تَدَبُّرها خطاباً للناس:

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وَ[تَذَكَّرُونَ].

وحديثاً عن الناس في القراءة الأخرى: [قَلِيلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ].

والخلاصة: أَنَّ قَلِيلًا من الناس من يتذكَّرُ الأشياءَ الَّتِي جعلَ اللهُ سعادةَ الناس في دُنْيَاهُمْ وأَخْرَاهُمْ بها، وكلُّها مربوطَةٌ بذكرِ اللهِ، ويذكرُ مَا أَنزَلَ لعباده وبلغَهُ رَسُولُهُ، وذلك لأنَّهُمْ لا يَضَعُونَهَا أَضْلًا في مراكز عِلْمِهِمْ وإِيمَانِهِمْ حتَّى يُخَيِّبُوهَا بالتذكرِ الباعثِ على العملِ للدَّارِ الآخِرَةِ، ومَرْضَاةِ اللهِ، بل سَاحَةً تذكُّرِهِمْ مشغولةٌ بمطالبِهِمْ من الحياة الدُّنْيَا.

والمؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ أحياناً الأشياءَ الَّتِي جعلَ اللهُ سعادةَ الناس في دُنْيَاهُمْ وأَخْرَاهُمْ بها قَلِيلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ، إذ لا يَسْتَعْرِفُونَ أَوْقَاتًا كثيرةً من عُمْرِهِمْ بتذكُّرِهِمْ لها إذا تذكَّروها، فيَقِلُّ تذكُّرُهُمْ في اللَّحْظَةِ الواحدة، ويَقِلُّ مِقْدَارُ زَمَنِ التذكُّرِ عندهم في مَدَى أَعْمَارِهِمْ، وسَبَبُ ذَلِكَ العَفَلَاتُ، والصَوَارِفُ من مطالبِ الجَسَدِ وشَهَوَاتِهِ، وَمَطَالِبِ النَفْسِ من الدُّنْيَا وشَهَوَاتِهَا مع شوارد الأفكار العاملة دوماً.

إِنَّ مطالبَ الجسد والنفس هي مُثِيرَاتٌ من داخلها، وهذه لها أيضاً

مثيرات من الخارج تأتي عن طريق الحواس، وهذه المثيرات تستدعي الأفكار للاستيعال بها، بغية تحقيقها أو الاستمتاع بها، فتمتلئ ساحة التصور الحاضر بها، فلا تجد القضايا الإيمانية المتعلقة بالله واليوم الآخر مجالا في هذه الساحة، فتبقى في خزائنها نائمة.

ومعلوم أن مطالب الجسد والنفس من الدنيا لا تنتهي، وبسبب ذلك تبقى ساحة التصور الحاضر مشغولة بشريط ممتد من صور الأفكار الموصولة بهذه المطالب، وهذا الشريط لا نهاية له.

ولهذا جعل الله عز وجل لأهل الإيمان به بزنامج ذكر واجب، يذكرون فيه ربهم على وفقه، في أوقات من كل يوم موزعات ما بين الفجر إلى الفجر، وأوقات أسبوعية، وأوقات سنوية؛ أو في العمر كله. وجعل لهم برنامج ذكر تطوعي يتسابق الذاكرون الله والذاكرات فيه إلى اغتنام أكبر قدر من ذكر الله عز وجل وذكر آياته وذكر الدار الآخرة، للظفر بالمراتب والدرجات الرفيعة في جنات النعيم.

فالصلوات الخمس اليومية جعلها الله عز وجل وعاء عمليا يحتاج مقداراً من الزمن، والمطلوب فيها مع الأعمال ذكر الله عز وجل.

وصلاة الجمعة في كل أسبوع سعي إلى ذكر الله والتذكير به بصفة جماعية ذات شمول للمؤمنين والحواسر.

وصيام شهر رمضان في كل عام مناسبة لذكر الله وتكبيره، وتذكر نعمة العظيمة، والاستكثار من تلاوة القرآن وقيام الليل، وشهود حلقات العلم والذكر لله عز وجل والتذكير به.

والحج إلى بيت الله الحرام وشهود مشاهدته والقيام بأركانه وواجباته وسائر مناسكه، إنما كان كل ذلك لذكر الله عز وجل، مع الأغراض الأخرى من هذه العبادة.

ولدى التحقيق والتدقيق نلاحظُ أَنَّ ذِكْرَ الله هُوَ رُوحُ الْعِبَادَاتِ كُلِّهَا،
والتَّصَوُّصُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ تَدُلُّ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ.

والمطلوبُ ترغيباً مِنَ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ ذَاكِرًا لِلَّهِ فِي أَحْوَالِهِ كُلِّهَا، غَيْرَ
أَنَّ مَطَالِبَ الْجَسَدِ وَالنَّفْسِ مِنَ الدُّنْيَا، وَعَوَارِضَ الْهُمُومِ وَالْمَتَاعِبِ
وَالْمَصَائِبِ، صَوَارِفُ تَصْرِفِ الْإِنْسَانَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ.

وكلِّمَا جَاءَتْ خَطَرَاتُ الْإِيمَانِ فَشَدَّتِ الْمُؤْمِنَ إِلَى ذِكْرِ رَبِّهِ، جَاءَتْ
الصَّوَارِفُ فَجَعَلَتْهُ يَتَفَلَّتُ بِسُرْعَةٍ إِلَى أُمُورِ دُنْيَاهُ، وَلِهَذَا كَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى
حِصَصٍ زَمَنِيَّةٍ يُفَرِّغُ فِيهَا نَفْسَهُ لِإِذَا لِعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَيُخَصِّصُهَا لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ، فَكَانَتِ الْعِبَادَاتُ بِحِكْمَةِ اللَّهِ مَخْصُصَةً لِذِكْرِ اللَّهِ فَوْقَ الْعَادَةِ.

أَمَّا سَائِرُ أَوْقَاتِ الْمُؤْمِنِ وَأَحْوَالِهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ فِيهَا وَفَقَّ الْعَادَةَ،
أَيُّ: ضِمْنَ حُدُودِهَا، وَمَعَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ تَسْتَدْعِي ذِكْرَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ
سُلْطَانُهُ وَتَبَارَكَتِ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ.

وَذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ حَالَةٌ اسْتِحْضَارٍ فِي التَّصَوُّرِ وَتَذَكُّرٍ
لِعُنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، الشَّامِلَةِ لَصِفَاتِ اللَّهِ كُلِّهَا، وَأَيَّاتِهِ الْجَلِيلَاتِ، وَنِعَمِهِ
الْعَظِيمَةِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَوَاجِبَاتِ الْإِنْسَانِ تَجَاهَ رَبِّهِ.

وبِهَذَا التَّذَكُّرُ وَالِاسْتِحْضَارُ فِي التَّصَوُّرِ تَكُونُ مُرَاقِبَةُ اللَّهِ الْمَحِيطِ بِكُلِّ
شَيْءٍ قُدْرَةً وَعِلْمًا، وَمَعَهُ تَتَحَرَّكُ رُدُودُ الْأَفْعَالِ النَّفْسِيَّةِ وَالْقَلْبِيَّةِ الْمَوْجَّهَةُ
لِلسُّلُوكِ عَلَى مَا يُرْضِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي النَفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ
السُّوِيَّةِ.

وَالنُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا النُّصُوصُ التَّالِيَةُ:

(١) حِينَ خَاطَبَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْوَادِي الْمَقْدَسِ
طُوًى، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠) مَصْحَف/ ٤٥
نَزُول):

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤).

أي: وأقم الصلاة لتذكركني في عبادتي لي.

(٢) وفي الدعوة إلى حضور صلاة الجمعة، قال الله عز وجل في سورة (الجمعة/ ٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ثَوَدْتُمُ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩).

فأبان الله عز وجل أن السعي إلى حضور صلاة الجمعة هو في حقيقته سعي إلى ذكر الله.

(٣) وبشأن عبادة الحج قال الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿...فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَوْيِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩٩)
 ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُنَّ مِنَّا ذُكِّرُوا أَنْ يَدْعُوا بِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَيَذَرُوكَ الذِّكْرَ أَفْ يَسْمَعُونَ﴾ (٢٠٠)
 ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءِاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ (٢٠١)
 ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءِاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢٠٢) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢٠٣) ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٠٤).

فهذه أعمال الحج مشحونة بذكر الله الذي أمر الله ورسوله به.

إلى غير ذلك من نصوص قرآنية كثيرة فيها توجيه لذكر الله عز وجل في السلم والحرب، والمشي في مناكب الأرض لكسب الرزق، والصحة

والمرضى، والمنشَيطِ والمَمَكَّرَه، إلى سائر أحوال الحياة، ويضاف إلى النصوص القرآنية بيانات نبوية من أقوال الرسول وأفعاله^(١).



● قول الله عز وجل:

﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْتَهَا فُجَاءَ مَا بِأُسْنَا يَبْتَأْ أَوْ هُمْ فَالِقُلُوكَ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِيْنَ ﴿٢﴾﴾

في هاتين الآيتين بيانٌ لأحداثٍ مضت في تاريخ الناس، وإشارةٌ إلى سُنَّةِ الله عز وجل في عبادِهِ، وهذه تتضمن عن طريق اللزوم العقلي تَوْجِيهَ إنذارٍ من الله جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانه للكافرين إِبَّانَ تنزيل السُّورة، ولمَن سَيَّأتِي بعدهم عبرَ القرون، بالإهلاك المعجل إذا وَصَلَ حَالُهُمْ إلى مثل ما وَصَلَتْ إليه أحوال المهلكين السابقين من أَهْلِ الْقُرُونِ الأولى، من مُكَذَّبِي الرُّسُلِ، وَرَافِضِي اتِّبَاعِ ما أُنْزِلَ إليهم من رَبِّهم، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ.

وهذا التوجيه الإنذاري هو بمثابة التفريع على ما جاء في الآية الثانية من السُّورة التي نتدبرها، وهو قول الله عز وجل لرسوله:

﴿كِتَبٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَيُذَكِّرَ لِلْمُؤْمِنِيْنَ ﴿٢﴾﴾

فالإنذار بالقرآن من عناصره عَرَضُ مَا جَاءَ في آيَاتِهِ من بيان إهلاكِ الله للكُفَّارِ أَهْلَ القرون الأولى، إِذْ يَدُلُّ عَرَضُهَا على أَنَّ سُنَّةَ الله في عبادِهِ

(١) انظر كَتِيبَ «العبادة في الإسلام» للمؤلف، ففيه بعض إضافات حول ذكر الله، على أنه يوجد في هذا البحث المستفيض في تفسير الآية (٣) من سورة (الأعراف) مفهومات لم تذكر في كتاب «العبادة في الإسلام».

السابقين واللاحقين، أن يُهلك الأمم إهلاكاً جماعياً، إذا بلغت من الكفر والفساد والإفساد في الأرض مبلغاً تقضي الحكمة الربّانية معه بإهلاكهم، لأنّ بقاءهم المُجبرَ للأجيال على الكفر يُلغي الغاية من خلق الناس لينلّوهم في ظروف الحياة الدنيا.

ولمّا كان إهلاك السابقين لم يَخْصُلْ إلّا بغدٍ إنذارٍ من الله لهم، مسبقٍ بتبليغ رُسل الله لهم أصول الدين وشرائع الله وأحكامه وأوامره ونواهيه لعباده، ومسبقٍ بصبرٍ طويلٍ عليهم، ومعالجةٍ لهم بمختلف وسائل الإقناع والتربية والترغيب والترهيب والجدال بالتي هي أحسن وغير ذلك من أمور، كان من الحكمة الإشارة إليه بحرف عطفٍ هو (الواو) في صدرِ حِكَايَةِ مُوجزِ إهلاك قُرَى كثيرة سابقة، العاطفُ على محذوف^(١)، فقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا...﴾.

ولو كان هذا المطويّ في النّصّ المتفرّع عن مضمون قوله تعالى: ﴿إِنذِرْ بِهِ﴾ مُصَرِّحاً به لكان التعبير على نحو قولي:

فكم من رسولٍ أَرْسَلْنَا إِلَى قَرْيَةٍ فَبَلَغَهَا وَأَنْذَرَهَا، وكم من قرية أَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رَسُولاً بِرِسَالَاتِنَا، فَبَلَغَهَا وَنَصَحَهَا وَهَدَاهَا إِلَى صِرَاطِ رَبِّهَا، وَحَذَرَهَا وَأَنْذَرَهَا، فَلَمْ تَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِهِ، وَكَفَرَتْ وَعَانَدَتْ وَأَصْرَتْ عَلَى فِسَادِهَا، وَعَلَى إِفْسَادِهَا فِي الْأَرْضِ، وحين اقتضت الحكمة إهلاكها أَهْلَكْنَاهَا.

بهذا الفهم يتم ترابط الكلام، ولا تكون به واو العطف مجرد عاطفة جملة على جملة، أو للاستئناف، دون ملاحظة ترابط المعاني المرادة.

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ﴾: أي: وكم من أهل قرية، وإطلاق أسماء الأماكن

(١) صحّ عِنْدِي بتتبع النصوص القرآنية أن العطف على محذوف من اللفظ لا يقتصر على الفاء الفصيحة التي تنبّه إليها المفسرون وذكرها النحويون، بل كل حروف العطف قد تكون مفصحة عن محذوف، ويشهد لهذا كثير من دلالات النصوص القرآنية.

على أهلها وسُكَّانها من الاستعمالات الشائعات في العريَّة وغيرها. ويُسمَّى علماء البلاغة هذا الإطلاق مجازاً مُرسلاً، وهو من إطلاق المحلِّ وإرادة الحال فيه، فيقالُ عن مدينة شاع في أهلها الفجور مثلاً: المدينة الفاجرة، أو المدينة العاهرة، ونحو هذا.

«كم» اسم يقع على العدد بمعنى «كثير» وتُسمَّى: «كم الخبريَّة» للتفريق بينها وبين «كم الاستفهامية».

ولإنهاهما ودلالتهما على عددٍ مجهولِ الجنس كانت مفتقرةً إلى التَّمييز، ومميِّزها مجرورٌ بعدها، ويجوز دُخولُ حرف الجرِّ «من» عليه للتأكيد.

و«كنم» مبتدأ، خبرُهُ جُمْلَةٌ ﴿أَهْلَكْنَهَا﴾.

﴿أَهْلَكْنَهَا﴾: أي: أَفْنَيْنَاهَا، واستأصلْنَاهَا، أضلُّ الإهلال في اللِّغَةِ الإمامة، ويقع على إفناء الأشياء واستئصالها.

والمراد بقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَهَا﴾ أرْذْنَا إهلاكها، فقضيْنَاهُ، إذ استحققت الإهلاك، وبعد ذلك يأتي إصدار الأمرِ التنفيذي بإهلاكها، وهذا من الاستعمالات الشائعات، وله نظائر كثيرة في القرآن، وفي استعمالات الناس، بالنسبة إلى كلِّ أمرٍ قد صارَ متحقِّق الوقوع في المستقبل.

فمن ارتكبَ جَرِيْمَةً يستحقُّ عليها القتل، ووقع في قبضة الحاكم الذي يُنفِذُ الأحكام بالعدل، قال الناس بشأنه: قتلته جريمته، ولو لم يكنْ قَدْ قُتِلَ بَعْدُ، نظراً إلى أنه صائرٌ إلى ذلك بحسب العادة، فكيف إذا كان الأمرُ حَتْمِيَّ الوقوع، كقضاء الله وأوامره التنفيذية؟!

ومن أطلقَ قَذِيفَةً بتسديدٍ مُحْكَمٍ، يُقالُ بشأنه: لَقَدْ أَصَابَ الْهَدَفَ، ولو لم تَصِلْ بَعْدُ قَذِيفَتُهُ.

ودلَّنا على أنَّ هذا المعنى هو المعنى المراد في الآية، ترتيبُ أحداثِ

تنفيذ الإهلال على جُمْلَةٍ ﴿أَهْلَكْنَهَا﴾ بحرف الفاء الدالّ في اللسان العربيّ على الترتيب مع التعقيب، في قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿...فَجَاءَهَا بِأَسْنَا بَيْتًا أَوْ هُمْ قَالُوا﴾ .

﴿بِأَسْنَا﴾ : أي: عذابنا الشديد، فالأُس في اللُّغَة هو العذاب الشديد.

﴿بَيْتًا﴾ : أي: وهي دَاخِلَةٌ في اللَّيْلِ، قال الزّجاج: كلُّ من أذْرَكَ اللَّيْلُ فقد بَاتَ، نَامَ أو لم يَنَمْ، يقال لغة: بَاتَ يَبِيتُ، وَبَاتَ يَبَاتُ، بَيْنًا، وَيَبَاتًا، وَمَبِيتًا، وَيَبُوتَةً.

فَالْبَيَاتُ مُضَدُّ بَاتَ، ولفظ «بياتًا» في الآية منصوبٌ على الحالِية، أي: بَاتَيْنِ، بتنزيل المضدّر مَثْرَلَةً اسمِ الفاعل.

﴿أَوْ هُمْ قَالُوا﴾ : أي: أو هم في وقت القيلولة، وهي الاستراحة نِصْفَ النَّهَارِ إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ.

يقال لغة: قال يَقِيلُ قِيَالًا: وَقَائِلَةً، وَقِيلُولَةً، وَمَقَالًا، وَمَقِيَالًا، أي: اسْتَرَحَ نِصْفَ النَّهَارِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَرِّ، فهو قَائِلٌ، وهم قَائِلُونَ.

والجملة حالِية، أي: في حالة يَبَاتِهِمْ، أو في حالة قِيلُولَتِهِمْ.

والمعنى: فكم من رَسُولٍ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى أُمَّةٍ فِي قَرْيَةٍ، فَبَلَّغَهَا رِسَالَاتِنَا، وَحَذَّرَهَا وَأَنْذَرَهَا، فَلَمْ تَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِهِ، وَحِينَ اقْتَضَتْ الْحُكْمَةُ إِهْلَاكَهَا قَضِيئَهُ - وَبَعْدَ ذَلِكَ أَضْذَرْنَا الْأَمْرَ التَّنْفِيزِيَّ، فَجَاءَهَا عَذَابُنَا الشَّدِيدُ، وَهُمْ بَاتُونَ لَيْلًا، أَوْ هُمْ مُسْتَرِيحُونَ فِي وَقْتِ الْقِيلُولَةِ نَهَارًا.

والمراد بِالْقَرْيَةِ كُلِّ مَجْمَعٍ سَكَنِي كَبُرَ أَمْ صَغُرَ، وفي ذكر القرية هنا تلوِيحٌ إِلَى سُكَّانِ مَكَّةَ أُمِّ الْقُرَى إِبَّانَ التَّنْزِيلِ.

وهذه المِباغِتة في اللَّيْلِ وفي الغالب عند الفجر، أو في القِيلُولَةِ في النَّهَارِ، بعد الإنذار بالعذاب على ألسنة الرُّسُلِ، هي من سُنَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

في إهلاك الأمم، التي يقضي الله تبارك وتعالى إهلاكها بسبب ذنوبها، وتكذيبها رُسُلَ ربِّها، وطُغيانها في الأرض.



قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ﴾: أي: فَمَا كَانَ دُعَاؤُهُمْ. الدعوى والدُّعاء: بمعنى واحد، فكلُّ منهما مضدٌّ من مصادر «دعا» والدُّعاء هو رفع الصَّوت بأمرٍ ما.

والمعنى: فما كان نداؤهم حين نزولِ بأسِ الله فيهم، وانصِبَابِ سَوَاطِئِ عَذَابِ الله عليهم إلا الاعترافُ بأنَّهم كانوا ظالمين، لأنَّ الاعترافَ بأنَّهم كانوا ظالمين في تلك اللَّحَظَاتِ هي الوسيلة الوحيدة التي يطمعون أن يرفع الله عزَّ وجلَّ عنهم بها البأسَ النَّازِلَ في ديارِهِم لإهلاكهم.

أما المعاذيرُ فلا دَوْرَ لها، وأما جحود الذُّنْبِ فعنادٌ يزيد من شدة البأس، وطلَبُ الغفران لا بُدَّ أن يُسَبِّقَ بالاعتراف بالذُّنْبِ، أي: إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ يَا رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَارْفَعْ عَنَّا الْعَذَابَ، لكنَّ فات أوانُ التَّوْبَةِ والاستغفار، فعند نزول العذاب لا يَنْفَعُ الدُّعَاءُ، ولا الرَّجَاءُ، ولا التوبة والاستغفار.

جاء في عبارتهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ تأكيد اعترافهم بظلمهم بمؤكدين: «إن - والجملة الإسمية» رجاء أن يرفع الله عنهم العذاب.

واعترافُهُمْ بظلمهم يتضمَّنُ اعترافهم بكُفْرهم، وتكذيبهم رُسُلَ ربِّهم، وسائر معاصيهم التي كانوا يَزْكِبُونَهَا.

ويضع الله عزَّ وجلَّ الكافرين المخاطبين بهذا البيان عن أحوال

المهْلِكِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى السَّابِقِينَ، أَمَامَ صُورَةٍ قَرِيبَةٍ الشَّبَهِ بِالْأَحْوَالِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَضْعُوا فِي حِسَابِهِمْ أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ لَا تَبْدِيلَ لَهَا، وَلَا تَغْيِيرَ فِيهَا، فَإِذَا أَصْرُوا عَلَى ظُلْمِهِمْ كَمَا أَصَرَ الْأَوَّلُونَ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَرَقَّبُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِأُسْ اللَّهِ بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ.

والوعيد بالإهلاك المعجل في الدنيا قبل يوم الدين قد جاء في بعض السور النازلة قبل سورة (الأعراف):

(١) فقد جاء في سورة (الفجر) (٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) بأسلوب عرضٍ موجزٍ إيجازاً مختزلاً، يتعلّق بإهلاك عادٍ وثمود وفرعون الذين طَعَنُوا في البلاد.

(٢) ثمّ بعرضٍ موجزٍ لما فعل الله عزّ وجل بأصحاب الفيل، في سورة (الفيل/ ١٠٥ مصحف/ ١٩ نزول).

(٣) ثم بعرضٍ موجزٍ لإهلاك عادٍ وثمود وقوم نوح وقوم لوط، في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف / ٢٣ نزول).

(٤) ثم بعرضٍ موجزٍ لإهلاك أصحاب الأخدود في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) مع إشارة في آخرها إلى فرعون وثمود.

(٥) ثم عرّض الله عزّ وجلّ للكافرين المكذبين بقوله في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣):

﴿أَلَمْ تُنَبِّهْ الْآوَلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ تُنَبِّهُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

(٦) ثم تحدّث عنهم في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بقوله

فيها:

﴿كَذَّبَتْ قَلْبَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَأَصْحَبُ الرِّيسِ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ

﴿١٣﴾ وَأَصْحَبُ آلِ يَنْبَغُ كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ لَقَى وَعِيدُ ﴿١٤﴾﴾.

وبقوله فيها:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّجِيصٍ﴾ (٣٦).

(٧) ثُمَّ فَصَّلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بعض تفصيل قصص قوم نوح، وعادٍ وثمود، وقوم لوط، وآل فرعون، مع بيان إهلاكهم.

وواجه مكذبي الرسول محمد ﷺ بقوله تعالى فيها لهم:

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٤٣).

وبقوله أيضاً فيها خطاباً لهم:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٥١).

(٨) ثُمَّ طَمَّأَنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رُسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ فِي سُورَةِ (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بقوله:

﴿كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مِنْ مَنَاصِرٍ﴾ (٣).

وبقوله تبارك وتعالى فيها:

﴿جُنْدٌ مِمَّا هُمَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ (١١) كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلِ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥).



• قول الله عز وجل:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦) فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ مَا

وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَأَلْوَزُنْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ ﴿٩﴾ .

تمهيد:

ارتباط هذه الآيات بما سبقها من آيات هذا الدرس الأول، يتضح لنا حينما نلاحظ ما جاء في بدايتها، وهو عنصر الإنذار للكافرين الذين كذبوا رسول ربهم، وكذبوا بآيات الله، وجحدوا واستكبروا، ولم يتبعوا ما أنزل الله إليهم.

ففي صدر السورة خاطب الله عز وجل رسوله بقوله:

﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢﴾ .

ولما كان الإنذار بعقاب الله وعذابه للكافرين المكذبين ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الإنذار بالعقاب المعجل في الدنيا وأبرز مظاهره إهلاك الأمة المجتمع على الكفر والتكذيب والظلم والعدوان والفساد في الأرض، وقد جاء الاستشهاد بوقائع من التاريخ مثلاً على تحقق إنذار الله للأمم السابقة في الآيتين الرابعة والخامسة من هذا الدرس.

القسم الثاني: الإنذار بالعقاب المؤجل إلى يوم الدين في الحياة الأخرى.

وهذا الإنذار يستدعي بياناً ما عنه، فجاء في هذه الآيات من (٦ - ٩) عرض لقطات من مشاهد يوم الجزاء الأكبر، وفيها إشارة إلى الجزاء الرباني بالعدل، إذ اشتملت على بيان بعض عناصر موقف المحاكمة يوم الدين.

والمحاكمة العادلة لا بُدَّ أن تشتمل على سؤال المحاكم، وسؤال الشهود، وبيان وثائق إثبات الجرائم، ووضعها في ميزانٍ دقيق يُحدِّد مقدار الجريمة، ومقدار ما تستحقُّ من عقاب، ثم يكون إصدارُ الحكم بالعدل مستنداً إلى ذلك، وهذا ما اشتملت على بيانه هذه الآيات.

وقد اشتملت هذه الآيات على بيان ثلاث قضايا، السؤال، والإعلام بسجل الأعمال، والوزن لإصدار الأحكام:

التدبر:

قول الله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٦.

إنَّ سؤال الناس الذين أرسل إليهم الرسل، في بدء مُحَاكَمَتِهِمْ يوم الدين في محكمة العدل والفضل الربَّانية، يكون حَوْلَ أمور دينهم عقيدةً وشريعةً ومنهاجاً، وحول العمل بها، لانتزاع اعترافهم بأنهم قد بَلَّغَهُمْ ما أنزَلَ الله عزَّ وجلَّ إليهم، عن طريق رُسُلِهِ إليهم، أو عن طريق مَنْ حَمَلَ بِلَاغَتِهِمْ من الذين آمنوا بهم واتَّبَعُوهُمْ، فإذا اعترفوا سئلوا عن عَمَلِهِمْ بما أنزَلَ رَبُّهُمْ إليهم، وعن إخلاصهم له به، إذا كانوا قد آمنوا وَعَمِلُوا به، تمهيداً لمحاسبتهم على ما قَدَّمُوا من عمل خيراً كان أم شراً، وعلى ما أَخْرَوْا من عَمَلٍ فَلَمْ يَغْمَلُوهُ وهو مطلوبٌ منهم، وبعد الحساب يَفْصِلُ الله القضاء، وَيُضِدِّرُ حُكْمَهُ عَلَى كُلِّ فَرْذٍ وَضَعَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامتحان، بالفضل أو بالعدل، على وَفْقٍ مَقْتَضِي حِكْمَةِ الله جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَسَمَتْ حِكْمَتُهُ.

وإنَّ سُؤَالَ الْمُرْسَلِينَ، وَيُلْحَقُ بِهِمْ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِمْ من الذين آمنوا بهم واتَّبَعُوهُمْ، يكون لتقديم شهادتهم على مَنْ بَلَّغُوا من الناس، بأنهم قد بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَعَمِلُوا بما أمرهم الله به تُجَاهَ أَمَمِهِمْ، فَهُمْ شُهُودٌ فِي محكمة العدل والفضل الربَّانية يوم الدين، على مَنْ بَلَّغُوهُمْ دين الله لعباده،

وبهذه الشهادة يُغلثون أيضاً براءتهم من التهاون أو التقصير، فيما كَلَّفَهُمُ الله إِيَّاهُ من تبليغ الرسالة، وتأدية الأمانة، والتُّضح والهداية والإرشاد، على الوجه الذي أَمَرَهُمُ الله به.

وَتَظْهَرُ الْحَاجَةُ إِلَى شَهَادَةِ الْمُبْلَغِينَ، حينما يَجْحَدُ الْمُحَاكِمُونَ من أهل الكفر أَنَّهُمْ تَبَلَّغُوا ما أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ، أما المقرُّونَ الْمُعْتَرِفُونَ فإنَّهُمْ باعترافاتهم يكونون شاهدين على أنفسهم، ولا تَظْهَرُ الحاجة عندئذٍ إلى إحضار الشهود الذين يَشْهَدُونَ عليهم.

﴿فَلَنَسْتَلَنَّ﴾: أي: أقسم لَنَسْأَلَنَّ، فجاء في العبارة التأكيد بالقسم، فالآم دالَّةٌ على القسم المحذوف، ونون التوكيد لازمة في نحو هذا القسم. واحتاج الإخبار بالسؤال إلى التأكيد لأنَّه من موضوعات الآخرة المعدَّة لجزاء العباد، وهو أَمْرٌ يُنْكَرُهُ الكافرون أو يشْكُون فيه.

ونظيرها: ﴿وَلَنَسْتَلَنَّ﴾، وظاهر أنَّ السؤال هو القضية الأولى من قضايا محكمة العدل الربَّانية يوم الدين.

● قول الله تعالى:

﴿فَلَنَقْصُصَنَّهُمْ عَلَيْكُمْ بِعَلَمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (٧).

تَضَمَّنَتْ هذه الآية بيانَ القضية الثانية من قضايا محكمة العدل الربَّانية يوم الدين، وهي قضية الإعلام بما اشتمَلَتْ عليه صحف أعمال العباد في الحياة الدنيا حياة الابتلاء.

فبعد سؤال المسؤول في محكمة العدل الربَّانية يوم الدين، يَقْصُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عليه قِصَّةَ رَحْلَتِهِ في الحياة الدُّنيا بإعلام شامل، فلا يُغَادِرُ صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أَحْصَاهَا، ويظهر أَنَّهُ يراها مفصَّلة في كتاب أعماله وقد يكون هذا الكتاب سجلاً يشمل الصورة والصُّوَّت والخواطرَ والنيات، والأعمال الظاهرة والباطنة، ومن الباطنة أعمال القلوب والنفوس والأفكار.

الْقَصُّ فِي اللُّغَةِ: تَتَّبِعُ الْأَثْرَ، يقال لغة: قَصَّ أَثْرَهُ قَصًّا وَقَصَصًا، أي: تَتَّبَعُهُ بِدَقَّةٍ.

وَالْقِصَّةُ: الْحِكَايَةُ، وَيُقَالُ: قَصَّ الْقِصَّةَ، أي: رواها وحكاها، ويقال: قَصَّ عَلَيْهِ خَبْرَهُ، إِذَا أوردته على وجهه.

﴿يَعْلَمُ﴾: أي: بوسائل إثبات علمية لا مجال لجحودها وإنكارها، ومنها صُحُفُ الملائكة، وشريطُ رِخْلَةِ حياته المصوَّر لها عَمَلًا وقولًا ونياتٍ وخواطرٍ، ومنها شهادة جوارحه عليه.

وفوق كلِّ وسائل الإثبات العلمية، عِلْمُ الله عزَّ وجلَّ، الذي هو شهيد على كلِّ شيء، وهو ما أشار الله إليه قوله تعالى في الآية:

﴿... وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾: أي: بل كُنَّا حاضرين شاهدين كلِّ شيء، وجاء في العبارة اسْتِخْدَامُ ضمير المتكلم العظيم، لأنَّ شُهُودَ كلِّ شيء في الوجود وشموله بالعلم يلائمه هذا الضمير الدالُّ على عظمة المتكلم في ذاته وفي صفاته.

● قول الله تعالى:

﴿وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

تَضَمَّنَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ بيان القضية الثالثة من قضايا محكمة العدل الربانية يوم الدين، وهي قضية وزن أعمال العباد، لإصدار الأحكام الجزائية بالعدل الكامل بالنسبة إلى السَّيِّئَاتِ، وقد يشمل بعضها الفضلُ الربَّاني، أمَّا بالنسبة إلى الحسنات فحكم الله لعباده فيها يكون بالفضل العظيم.

الوزن: عمليةٌ يُقَصَّدُ بها معرفةُ مقادير الأشياء المادية أو المعنوية، ذات المقادير المجهولة للوازن أو الموزون له، بمعاذلتها بأشياء أخرى معلومة المقادير.

والغرض معرفة مقادير الحقوق الشاملة لأنواع ولجزئيات الحقوق المادية أو المعنوية، بغية إقامة واجب العدل بالاستناد إليها.

فمن اشترى عشرة أرتال من السكر، أو عشرة أمداد بعشرين درهماً، فقد ثبت له من الحق هذا المقدار من السكر، ولكن لا يُستطاع معرفة هذا المقدار إلاّ بوزنه بموازين، أو كيله بمكاييل تكشف بصديق المقدار الذي اشتراه من السكر.

أما الكيل فيحتاج إلى أداة ضابطة يعرف الناس مقدار ما تستوعب، فيكال بها ما اتفق على شرائه وبذل ثمنه.

وأما الوزن فيحتاج إلى آلة للتبادل، وهي الميزان، وهذا التبادل إما أن يكون داخلياً في أصل نظام الميزان، وإما أن يكون بوساطة مئاقيل معلومة المقادير، توضع في إحدى كفتي الميزان المتعادلتين تماماً عند نقطة الصفر، وتوضع الأشياء الأخرى في الكفة الأخرى، لوزن مقاديرها.

هذه الآلة اليسيرة الصنع هي أولى الموازين التي عرفها الإنسان، وعملية الوزن بها تُشاهد بالحس البصري، وإنما توزن بها الأشياء ذوات الأثقال الملموسة، وتكون قيمها بحسب مقادير ثقلها أو خفتها، والتي تُقاس أثقالها بقوى الرفع المعارضة لقوة جاذبية الأرض، ولو كانت مكتسبة منها، كالثقلين في كفتي الميزان.

ولكن قيم الأشياء ومقاديرها لا توزن كلها بقوى الرفع، فمنها ما يُوزن بقوى الدفع، ومنها ما يُوزن بمقدار ما فيه من مؤثرات كيميائية، ومنها ما يُوزن بالآلة تُحدد عدد ذراته النوعية، ومنها ما يُوزن بمقدار ما يشع منه من عناصر مشعة، ومنها ما يُوزن بحساب الحجم والسرعة.

وحفظ النصوص يوزن بمقدار المطابقة أو عدم المطابقة بينه وبين النصوص.

ومقدارُ التحصيلِ العلمي يُوزَنُ بموازينٍ فِكْرِيَّةٍ خاصة. وللحُبِّ موازين، وللكرهية موازين، إلى غير ذلك ممَّا لا يُخَصَّر.

وكلُّ شيءٍ في الوجودِ يخضعُ لنظامِ المقاديرِ المختلفةِ المتفاضلةِ فإنَّ ضَبْطَ مقداره يحتاج إلى ميزانٍ يلائم طبيعته.

فإذا لاحظنا أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد خلقَ كلَّ شيءٍ فَقَدَرَهُ تقديرًا وأنَّ كُلَّ شيءٍ عنده بمقدار، وكما قال جلَّ جلاله في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩)

فلا بُدَّ أنْ نُذَرِكَ أنَّ لكلَّ جنسٍ من أجناسِ الوجود، ولكلِّ نوعٍ من أنواعه، ولكلِّ صنفٍ من أصنافه، ولكلِّ جُزْئِيٍّ من جزئياته، ميزانًا يلائم طبيعته، وبهذا الميزان تُكْتَشَفُ مقاديره.

ولهذا ائْتَمَرْنَا الله على عباده بأمرينِ أساسيينِ كُلَّيْنِ أَنْزَلَهُمَا:

الأمر الأول: الحق.

الأمر الثاني: الميزان.

● فالْحَقُّ يُذَرِّكُ بما وَهَبَ اللَّهُ النَّاسَ مِنْ وَسَائِلَ عِلْمِيَّةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَغْرِفُوا بِهَا قَدْرًا كَبِيرًا مِنْهُ، وَيُذَرِّكُ بما أَنْزَلَ اللهُ لِعِبَادِهِ مِنْ كُتُبٍ، وبما أَوْحَى بِهِ إِلَى رُسُلِهِ مِنْ مَعَارِفٍ.

● والميزان يُكْشَفُ بِهِ نِسْبُ التَّعَادُلِ والتَّرَاجُحِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ فِي مَقَادِيرِهَا، وَقَدْ وَضَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْظَمَةَ الْمَوَازِينِ فِي الْأَرْضِ، لِيُكْتَشَفَ بِهَا النَّاسُ بِمَا آتَاهُمْ مِنْ قُدْرَاتٍ وَوَسَائِلٍ، وَلِيُزَنُوا بِهَا مَقَادِيرَ الْأَشْيَاءِ، وَلِيُقِيمُوا الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ، وَيَعْدِلُوا بَيْنَ أَصْحَابِ الْحَقُوقِ، فَيُعْطُوا كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

وَأَنْزَلَ جَلَّ جَلَالُهُ فِيمَا شَرَعَ لِعِبَادِهِ الْقَوَاعِدَ وَالضُّوَابِطَ وَالْأُسُسَ

الْعَدْلِيَّةَ، لِيَزِنُوا بِهَا حَقُّوقَ النَّاسِ، وَلِيَسْتَنِدَ إِلَيْهَا حُكَاْمُهُمُ الْمُقْسِطُونَ، بُغْيَةً
إِقَامَةَ الْعَدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ.

ولهذا نُشَاهِدُ فيما اكْتَشَفَ النَّاسُ من موازينَ أَنْواعاً وأصنافاً كثيرةً
جداً.

● فِلِمَعْرِفَةِ مقاديرِ ثِقَلِ الْأَشْيَاءِ ذَاتِ الْحُجُومِ الْمَلْمُوسَةِ موازين
خاصة.

● وَلِمَعْرِفَةِ دَرَجَةِ الْكَثَافَةِ، أو مقاديرِ الْكَثَافَةِ، موازين خاصة.

● ولمعرفة درجة الحرارة أو مقاديرها موازين خاصة.

● ولمعرفة مقادير الصلابة موازين خاصة.

● ولمعرفة مقادير التَّيَّارِ الْكَهْرَبَائِيِّ موازين خاصة.

● ولمعرفة مقادير ضغط الدَّمِ في الأجساد موازين خاصة.

● ولمعرفة سُرْعَةِ المركبات البريَّةِ والبحريَّةِ والجويَّةِ موازين خاصة.

● حتَّى صار الْجَهْدُ الْفِكْرِيُّ قابلاً لِلوْزَنِ بموازين خاصةٍ فَضْلاً عَنْ
الْجَهْدِ الْعَضَلِيِّ وَالْعَصَبِيِّ.

وَأُكِّدُ أَنَّ الوسائلَ الحضاريَّةَ البشريَّةَ قد ارتقت اِرْتِقَاءً بَاهِراً جداً في
اكتشاف أنواع كثيرة من الموازين، إذ اضْطُرَّ الباحثون العلميون أن يتخذوا
موازين لكلِّ شيءٍ يُمْكِنُ أن يُجَزَّأَ إلى وحداتٍ صُغْرَى تتكون من اجتماعها
مقادير قابلة للتزايد بحدٍّ أو بغير حدٍّ، وقابلة للتناقض حتَّى الفناء.

وأدنى مقدار يمكن أن يُذَرَّكَ ولو بالأدوات والوسائل لأيِّ شيءٍ،
يمكن أن يَجْزَأَ إلى وحداتٍ صغرى، وأصغر الوحدات هي ذرَّةُ ذلك
الشيء.

● فذرة السكر التي هي أصغر مقدار منه ويحمل الصفة السكرية لها وزن نوعي:

● وذرة الملح التي هي أصغر مقدار منه ويحمل الصفة الملحية لها وزن نوعي.

● وذرة الذهب التي هي أصغر مقدار منه ويحمل الصفة الذهبية لها وزن نوعي.

كذلك الحرارة والبرودة، والضغط، والقوة، وسائر الماديات والمعنويات.

ويقاس عليها الإيمان والكفر، والحب والبغض، والتلاؤم والتنافر، فضلاً عن الأعمال التي لا تكون إلا ببذل طاقات من الجسد للقيام بها.

ولما كان كل شيء في الوجود ذا مقادير فإنه لا بد أن يخضع لوزن يحدد مقداره، ولا بد أن يكون ميزانه ملائماً لطبيعته.

وقد حكم بغض مدعي العقلانية عقولهم القاصرة بشأن وزن أعمال العباد يوم الدين بالموازن القسطنطينية التي يضعها الرب جل جلاله ليوم القيامة، فحملوا ما جاء في النصوص على أنه من قبيل المجاز، إذ تصوّروا أنه لا توجد موازين إلا ما كانوا يعهدونه في أسواق البيع والشراء، وإذ رأوا أن أعمال العباد الظاهرة والباطنة أعراض، ورأوا أن الأعراض لا تخضع للوزن، مع أنها في الحقيقة ذوات مقادير تزيد وتنقص، وكل ذي مقادير يخضع لنظام الوزن، ويمكن أن تتخذ له موازين.

الدليل على إنزال الحق وإنزال الميزان:

ولإقامة العدل بين الناس في قضايا الحقوق، أنزل الله عز وجل القرآن والكتب السابقة له بالحق، وأنزل على رسله الميزان، ووضع موازين

الأشياء في متناولِ الباحثين عنها، بما أودع في فِطَرِ الأفكار والقلوب والنفوس.

فالقواعدُ والأصولُ الفكريةُ، والأحكامُ والتشريعاتُ الدنيئةُ، والوسائلُ والأدواتُ في الأئُفس وفي الكون من حَوْلِها، قد وَضَعها الله للأنام، حتَّى يَتَوَصَّلُوا بها إلى وزنِ الحقوق، والحكم بالعدل.

وبالاستناد إلى الوزن المنضبط أو التقريبي يَحْكُمُ الحُكَّامُ المقسطون فيما بين الناس بالعدل.

● قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ...﴾ (١٥) ﴿

أي: وَأُمِرْتُ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ تَتَعَلَّقُ بِقَضَايَا الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ فِي أَحْكَامِي الْقَضَائِيَّةِ وَفِي غَيْرِهَا.

● وقال تَبَارَكَ وتعالى فيها أيضاً:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ...﴾ (١٧) ﴿، أي: اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ مُقْتَرِنًا بِالْحَقِّ فِي كُلِّ قَضَايَاهُ، وَأَنزَلَ الْمِيزَانَ، لِيَتَّبِعَهُ النَّاسُ وَيَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، إِذَا أَرَادُوا الْإِسْتِقَامَةَ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ.

والإنزال يشمل كُلَّ عَطَاءٍ رَبَّانِيٍّ سِوَاءِ أَنزَلَهُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ. أَمْ خَلَقَهُ فِي الْأَرْضِ.

فمن بيان الحقوق مثلاً حقُّ الإنسان في حياته، وحقُّه في ماله، وحقُّه في الإيمان بما يَرَى أَنَّهُ الْحَقُّ، وحقُّه في كَسْبِ رِزْقِهِ مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ جَلَّ جلاله، إلى غير ذلك من حقوقٍ يَضَعُ بِإِحْصَاؤِهَا.

ومن قواعد ميزانِ الْعَدْلِ الْقِصَاصِ مِنَ الْقَاتِلِ، أَوِ الدِّيَّةِ إِذَا عَفَا بَعْضُ أَوْلِيَاءِ الْقَتِيلِ عَنِ الْقِصَاصِ ضَمِنَ مَا جَاءَ فِي أَحْكَامِ الشَّرْعِ.

ومن قواعد ميزان العدل في الحقوق المالية، أن من أخذ مال أخيه بغير حق كان عليه أن يرد له عين ماله إن وجد، أو ما يعادله في القيمة أو المنفعة إن فقد.

وهكذا إلى سائر قواعد ميزان العدل المستندة إلى الحق.

● وقال الله عز وجل في سورة (الحديد/٥٧ مصحف/٩٤ نزول):

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

فدل هذا النص على أن إنزال الكتاب مقترناً بالحق وملتزماً به، وإنزال الميزان، لم يكن خاصاً برسالة محمد ﷺ في الإسلام، بل جاء مثل ذلك في الرسالات الربانية السابقة.

وأضاف هذا النص بيان إنزال الحديد الذي فيه بَأْسٌ شَدِيدٌ، إشارة إلى ضرورة حماية أحكام العدل في المجتمع البشري، بالقوى المسلحة بالأسلحة الحديدية التي تملكها الدولة، والتي يجب أن تملكها لإقامة الحق والعدل.

وأضاف أيضاً أن من أغراض إنزال الحديد استخدام أسلحته في نُصْرَةِ دين الله عز وجل، ونُصْرَةِ رُسُلِهِ، والجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى.

نفهم لهذا من إشارة قول الله عز وجل فيه:

﴿... وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ... ﴿٢٥﴾﴾.

ودل هذا النص أيضاً، على أن الله عز وجل، قد وضع في الأرض الأنظمة والوسائل التي يمكن أن تُصنَّع بها الموازين المختلفة، التي تُعرف بها مقادير كل الأشياء.

● وقال الله عز وجل في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):
﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾.

فَدَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ أَنْ وَضَعَ الْمِيزَانَ كَمَا سَبَقَ
به البَيَانُ، أَمَرَ بِأَنْ لَا يَطْغَى النَّاسُ فِي الْمِيزَانِ مُتَجَاوِزِينَ حُدُودَ الْحَقِّ وَمَا
يَجِبُ أَنْ يَكُونَ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يُقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ، أَي: بِالْعَدْلِ، وَأَمَرَ
أَنْ لَا يُخْسِرُوا الْمِيزَانَ، فَلَا يَنْقُصُوا مِنَ الْمَوْزُونَاتِ فِي عَمَلِيَّاتِ الْوَزْنِ الَّتِي
يُجْرُونَهَا شَيْئًا.

وَأَبَانَ هَذَا النَّصُّ أَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ قَدْ وَضَعَ الْمِيزَانَ بِكَمَالِ إِتْقَانٍ
وَإِحْكَامٍ، كَمَا رَفَعَ السَّمَاءَ بِكَمَالِ إِتْقَانٍ وَإِحْكَامٍ.

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾: أَي: وَأَوْجَدَ فِي الْأَرْضِ وَأَثَبَتِ الْأَنْظِمَةَ
وَالْقَوَائِينَ وَالْوَسَائِلَ، الَّتِي يَسْتَطِيعُ النَّاسُ بِهَا صِنَاعَةَ الْمِيزَانِ الشَّامِلِ لِمَخْتَلِفِ
الْمَوَازِينِ الَّتِي تُوزَنُ بِهَا مَقَادِيرُ الْأَشْيَاءِ الْمَخْتَلِفَةِ، وَوَضَعَ لِلنَّاسِ بِمَا أُنْزِلَ
عَلَى رُسُلِهِ أَحْكَامَ الْعَدْلِ.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾: أَي: وَمَعَ الْأَحْكَامِ الَّتِي أَنْزَلَهَا فِيهَا
أَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ لِإِقَامَةِ الْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَجَّهَ تَكْلِيفًا مضمُونُهُ النَّهْيُ عَنِ
الطُّغْيَانِ فِي عَمَلِيَّاتِ الْوَزْنِ.

الطُّغْيَانُ: هُوَ الزِّيَادَةُ عَلَى مِقْدَارِ الْحَقِّ فِي الْوَزْنِ ضِدَّ مَصْلَحَةِ الْمَوْزُونِ
لَهُ، بِأَنْ يَأْخُذَ الْوَازِنُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ وَيُعْطِيَ الْمَوْزُونَ لَهُ أَقْلَ مِنْ حَقِّهِ.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾: أَي: وَوَجَّهَ تَكْلِيفًا آخَرَ مضمُونُهُ وَجُوبُ
إِقَامَةِ الْوَزْنِ بِالْعَدْلِ.

الْعَدْلُ فِي الْوَزْنِ هُوَ الْمَسَاوَاةُ التَّامَّةُ بَيْنَ قِيَمَةِ الْحَقِّ الْمَطْلُوبِ، وَقِيَمَةِ
الْمَوْزُونِ الَّذِي يُؤَدَّى بِهِ الْحَقُّ.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾: أي: ووجه تكليفاً آخر مضمونه النهي عن النقص في الوزن عن الحق المطلوب.

يُقَالُ لُغَةً: خَسَرَ المِيزَانَ وأَخْسَرَهُ، إِذَا نَقَصَ الْوَازِنُ فِي عَمَلِيَّةِ الْوَزْنِ عَنِ الْحَقِّ الْمَطْلُوبِ.

فاشتمل هذا النص على تكاليف ربّانية ثلاثة:

(١) النهي عن الزيادة على الحق المطلوب في عملية الوزن.

(٢) الأمر بالمساواة العادلة بين حقّ الموزون له والموزون منه.

(٣) النهي عن النقص عن الحق المطلوب في عملية الوزن.

وفي هذا استقصاء للاحتتمالات في عمليات الوزن، عنايةً بضرورة العدل، وهذا من التفصيلات التي اشتمل عليها القرآن، مع أن بعضها كان يغني عن بعض فكرياً.

ومن هنا نُذِرُكَ أَنَّ وَزْنَ أعمال العباد يوم الدين، سواءً أكانت أعمالاً جَسَدِيَّةً ظاهرة للحواس، أم أعمالاً فِكْرِيَّةً، أم نَفْسِيَّةً أم قَلْبِيَّةً إِرَادِيَّةً، يكون بموازين ثلاثم طبائعها التي طبعها الله البارئ عليها.

إذا كان الناس باكتشافاتهم لأنظمة الموازين التي وضعها الله عز وجل لهم في الأرض، قد توصّلوا إلى اكتشاف أنواع كثيرة جداً، يَزِنُون بها المَادِّيَّات الظَّاهِرَات، والمعنويّات، والقُوَى التي كان القُدَمَاءُ يُسَمُّونها أَعْرَاضاً، أفلا يكون عند الله البارئ الخالق لكل شيء يوم الدين موازين تَرِنُ الأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، وتزن الخواطر، وتزن النِّيَّاتِ، وتزن الإرادات، وتزن مقادير الإيمان والكفر، وتزن مقادير الحب والبغض، ومقادير الرضا والغضب، ومقادير العفو والحقد إلى سائر العواطف؟!!

وَيَدُلُّنا على اِخْتِلَافِ أنواع الموازين التي يُوزَنُ بها ما كَسَبَ العبادُ أو

اكتَسَبُوا في الحياة الدنيا، حين يُحَاسَبُونَ عليها يوم الدين، أنها لم تُذَكَّر في نُصُوصِ القرآن المجيد إلا مجموعة، وما ذُكِرَ في القرآن مفرداً بلفظ «الميزان» فقد جاء في بيان ما أُنزِلَ الله للنَّاسِ في الحياة الدنيا، ويُحْمَلُ على الجنسِ الشَّامِلِ لمختلِفِ أنواع الموازين التي نُشَاهِدُها في واقعنا، أو التي سَيَكْتَشِفُها الناس مستقبلًا في الحياة الدنيا، بالوسائل التي وهبها الله لهم في ذواتهم، أو في الأشياء من حَوْلِهِمْ.

فلا رَيْبَ في تَنَوُّعِ الموازين عند الله جلَّ جلالُهُ وعَظَمَ سلطانه وله الحكمة البالغة، والقُدرة على خلق ما يشاء، وهو سبحانه وتعالى العليم الخبير، بما تكون عليه موازين أعمال العباد الظاهرة والباطنة الجسدية والنفسية يوم الدين.

وحسبنا في هذا قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

لفظ «ميزان» ويجمعُ على «مَوَازِين» يُطْلَقُ على الآلة التي تُوزَنُ بها الأشياء. ويُطْلَقُ أيضاً على المِثاقيل ذاتِ المقادير المعلومة، التي تُوضَعُ عادةً في إخدئِ كَفَّتِي الميزان، لتوزن بها الأشياء ذاتِ المقادير المجهولة، وهي التي يُقالُ لها: «صِنج»، و«سِنج»، وإحْدَثُها: «صَنجَة» و«سَنجَة».

ويُطْلَقُ أيضاً لفظ «الميزان» ويُراد به عمليةُ الوَزنِ، ولهذا من إطلاق أداة الشيء على المصدر الذي يَدُلُّ على الحدث.

ويُطْلَقُ أيضاً لفظ «الميزان» على المقدار، فميزان الرَّجُلِ مقداره.



قول الله تعالى:

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

دلّت هاتان الآيتان على أنّ موازين محكمة العدل الربّانية يوم الدين تزنّ على طريقة أنّ العمل الصالح المقبول عند الله سواء أكان عملاً جسدياً أم فكرياً أم نفسياً أم قلبياً، يَضْعُطُ بِثِقَلٍ يُعْطِي إِشَارَةً تُحَدِّدُ مقدار قيمته الحقيقية فوق إشارة الصّفر، أمّا العمل السيّئ فهو بعكس العمل الصّالح، إذ هو يجذب كِفَّةَ ميزانه إلى الأعلى بقوّة سائلة، حتّى تظهر طائشة فتكشف إشارة الميزان أنّ قيمة العمل هو تحت إشارة الصّفر بحسبه.

وأما العمل الذي لا هو من الحسنات ولا هو من السيّئات عند الله، وكذلك العمل الذي لا يبتغى به وجهه الله عزّ وجلّ، فلا يقام له وزن، ولا يحرك في الموازين الربّانية شيئاً، لا شيئاً موجباً، ولا شيئاً سالباً.

ويشير قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بصيغة الجمع إلى أنّ الموازين مختلفة بحسب أنواع الأعمال.

● فمنها مثلاً ميزان يزنّ مقادير الإيمان والإخلاص والصّدق مع الله، ونقائضها.

● ومنها ميزان يزنّ مقادير الحبّ في الله والبغض في الله، ومقادير كراهية الحقّ، وكراهية فعل الخير وترك الشرّ، وحُبّ العدوان والظلم، ونقائضها.

● ومنها ميزان يزنّ الإرادات والرغبات، ومقادير شدّتها وضعفها.

● ومنها ميزان يزنّ مقدار الصّبر على جهد فعل الطّاعات، وترك المعاصي والمنكرات من مطالب الشهوات، ونحو ذلك.

● ومنها ميزانٌ يزنُ شُحَّ النفوسِ وجودها، ونحو ذلك.

● ومنها ميزانٌ يزنُ أَعْمَالَ الجوارح الظاهرة، إلى غير ذلك من موازين لا نَسْتَطِيعُ بقدراتنا البشرية تَحْدِيدُهَا، ولا يَسْمَحُ لنا التَّصَوُّرُ الملتزمُ بما يأتي عن الوحي بتحديدِها، إذ لم يَأْتِ في بيانات الوحي عَنْ موازين يوم القيامة أَكْثَرُ من الدَّلَالَةِ على أَنَّها موازين، والظاهر من كونها موازين لِكُلِّ موضوع موضع المحاسبة يَوْمَ الدِّينِ أَنَّها أنواع، كَمَا أَنَّ الموازين للأشياء في الدُّنْيَا أنواعٌ مختلفات.

● ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾: أي: فَمَنْ ثَقُلَتْ مقادير أَعْمَالِهِ الموزونة بالموازين، إِذْ كَانَتْ إيجابية الضغط، بسبب ما فيها من قِيَمَةٍ ذَاتِ ثِقَلٍ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في موقف الحساب وَفَضْلُ القِضَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، والضمير في ﴿مَوَازِينُهُ﴾ يعود على لفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه على الجمع، لأنه من صيغ العموم.

● ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: أي: فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ الرِّفِيعَاتِ الَّذِينَ يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِاسْمِ الإِشَارَةِ الموضوع للبعيد، هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وجاءت الفاء في جملة الخبر لما في المبتدأ من رائحة الشرط.

هُمُ الْمُفْلِحُونَ: أي هم الظَّافِرُونَ بما يُحِبُّونَ، والفائزون بالنعيم الخالد في جناتٍ عَذْنٍ، ودَلَّ ضمير الفصل على الحصر، أي: هم وحدهم المفلحون.

● ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾: أي: وَمَنْ خَفَّتْ أَعْمَالُهُ الموزونة بالموازين، إِذْ كَانَتْ سَالِبَةً سَائِلَةً، لَمْ يُوَجَدْ لَهُ فِيهَا إِيمَانٌ صَحِيحٌ صادق، ولا عَمَلٌ صَالِحٌ مُسْتَنِدٌ إِلَى إيمان صحيح صادق، فَلَمْ تُسَجَّلْ إشارات موازينِهِ ثِقَلًا ما لِعَمَلٍ ما مقبولٍ عِنْدَ اللَّهِ، والضمير في ﴿مَوَازِينُهُ﴾ هنا أيضاً يعود على لفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه على الجمع لأنه من صيغ العموم.

● ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ : أي: فأولئك أضحَابُ الدُّرَكَاتِ السَّافَلَاتِ الَّذِينَ يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْبُعِيدِينَ، هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ.

ومعلومٌ أَنَّ خَسَارَةَ الْأَنْفُسِ أَغْظَمُ الْخَسَارَاتِ، وَجَاءَتِ الْفَاءُ فِي جُمْلَةٍ الْخَبَرِ لَمَّا فِي الْمَبْتَدَأِ مِنْ رَائِحَةِ الشَّرْطِ.

● ﴿يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ : أي: خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِسَبَبِ مَا كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ، يَظْلِمُونَ عَلَى تَوَالِي الْأَيَّامِ، وَاللَّيَالِي، بِتَرْكِ اتِّبَاعِ آيَاتِنَا، الَّتِي أَمَرْنَاهُمْ بِاتِّبَاعِهَا.

الظُّلْمُ: تَجَاوُزُ حَدِّ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْوَاجِبِ، إِلَى مَهَاوِي الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ وَالْمُوبِقَاتِ، وَوَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

فَمَنْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ظَلَمَ بِتَجَاوُزِهِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَدَاؤُهُ، وَبَارْتِكَابِهِ مَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ فَعْلُهُ، وَظَلَمَ نَفْسَهُ إِذْ عَرَّضَهَا لِلْعُقُوبَةِ، وَدَفَعَ بِهَا إِلَى ذِكِّ الشَّقَاءِ وَالْعَذَابِ.

فمعنى: ﴿يَظْلِمُونَ بِتَرْكِهِمْ اتِّبَاعَ آيَاتِنَا الْمَنْزِلَاتِ، الَّتِي أَمَرْنَاهُمْ بِاتِّبَاعِهَا، وَهُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الْآيَةِ (٣) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي نَتَدَبَّرُ آيَاتِهَا، وَالَّذِي هَدَى إِلَى هَذَا التَّقْدِيرِ أَنَّ فِعْلَ «ظَلَمَ» يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، وَلَا يَتَعَدَّى بِالْبَاءِ، وَالتَّقْدِيرُ الْمَلَائِمُ أَنْ نَقُولَ: يَظْلِمُونَ بِتَرْكِهِمْ اتِّبَاعَ آيَاتِنَا الْمَنْزِلَاتِ الَّتِي أَمَرْنَاهُمْ بِاتِّبَاعِهَا، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لَمَّا جَاءَ فِي صَدْرِ السُّورَةِ.



● قول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (١٥).

يَخَاطَبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بضمير المتكلم العظيم، النَّاسَ

المؤهلين للخطاب، بَأَنَّهُ قَدْ مَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَا يَعْيشُونَ بِهِ بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ، كَثِمَارِ الْأَشْجَارِ، أَوْ بِطَرِيقَةٍ مَنْحِيهِمُ الْوَسَائِلَ وَالْأَسْبَابَ وَالْقُوَى الْمَادِّيَّةَ وَالْمَعْنَوِيَّةَ لِاسْتِخْرَاجِ وَاسْتِنْبَاطِ مَعَايِشِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ، فَمِنْ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا نِعْمَ اللَّهِ الَّتِي هَيَّأَهَا لَهُمْ، وَمَكَّنَتْهُمْ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا وَالِاسْتِمْتَاعِ بِمَتَاعِهَا.

وَأَكَّدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيَانَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ بِعِبَارَةٍ: ﴿وَلَقَدْ﴾ نَظَرْنَا إِلَى أَنَّ أَذْهَانَ النَّاسِ مُنْصَرِفَةً عَنْ مِلَاحَظَةِ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ قَلِيلًا مَا يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى نِعَمِهِ.

التمكين: هو الإقدار على التَّصَرُّفِ الموصل إلى تحقيق المطالب، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي الْأَرْضِ بِالْأَشْيَاءِ، مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهَا مَكَانٌ ثَابِتٌ مُسْتَقَرٌّ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الثَّبَاتِ فِيهِ إِذَا شَاءَ، وَقَادِرٌ عَلَى التَّحَرُّكِ فِيهِ بِحُرِّيَّةٍ كَمَا يَشَاءُ، وَقَادِرٌ عَلَى اسْتِخْدَامِ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ وَسَائِلِ مَادِّيَّةٍ، وَمَعْنَوِيَّةٍ تُظْفِرُهُ بِمَطَالِبِهِ.

قال الجوهري: مَكَّنَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْءِ تَمَكِينًا، وَأَمَكَّنَهُ مِنْهُ، بِمَعْنَى، أَي: بِمَعْنَى وَاحِدٍ. وَاسْتَمَكَّنَ الرَّجُلُ مِنَ الشَّيْءِ، وَتَمَكَّنَ مِنْهُ بِمَعْنَى. وَفُلَانٌ لَا يُمَكِّنُهُ التَّهْوُضُ، أَي: لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ.

قال ابنُ سَيِّدِهِ: تَمَكَّنَ مِنَ الشَّيْءِ وَاسْتَمَكَّنَ ظَفِرًا.

قال أبو منصور: وَيُقَالُ أَمَكَّنِي الْأَمْرُ يُمَكِّنُنِي فَهُوَ مُمَكِّنٌ، أَقُولُ: أَي: مَقْدُورٌ عَلَيْهِ.

قالوا: وَالْإِسْمُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ «الْمَكَانَةُ». أَقُولُ: أَي: التَّمَكُّنُ.

فمعنى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: وَلَقَدْ جَعَلْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ
تمكيناً تقدرون به على التصرف بالمسخرات لكم فيها.

ومن مظاهر هذا التمكين استقرارُ الناس في المُدن والقرى والبوادي،
وقُدْرَتُهُمْ على إنشاء المساكن والحصون والمصانع والمعامل، وقُدْرَتُهُمْ على
التسلُّط على حيوانات البر والبحر، وقُدْرَتُهُمْ على قَطْع الصُّخور وَخَرْقِ
الجبال وتطويع الحديد وسائر المعادن، وقُدْرَتُهُمْ على حفر الآبار العميقة
جدّاً، واستخراج النُّفْط والمياه من باطن الأرض، وغيرهما من كنوز
الأرض، وقُدْرَتُهُمْ على اكْتِشافِ الْقُوَى الَّتِي أودَّعها الله في الأشياءِ،
واستخدامها والانتفاع بها في السُّلْم والحرب، إلى غير ذلك من كلِّ ما نجد
الناس قَدْ قَدَرُوا عليه، وتمكَّنُوا منه، ممَّا لا نَسْتَطِيعُ إحصاءه.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾: أي: ولقد جعلنا لكم في الأرض التي
مكَّنَّاكم فيها ما تَعِيشُونَ به.

مَعَايش: جمع «مَعِيشَة» وهي ما يُعَاشُ به مباشرة، أو باتِّخاذ الوسائل
والأسباب لاستخراجه واستنباطه وتصنيعه.

العيش: هو في اللُّغة الحياة. يقال: عَاشَ يَعِيشُ عَيْشاً، وَعِيشَةً،
وَمَعِيشاً، وَمَعَاشاً، وَعَيْشُوشَةً، أي: حَيِّياً.

وهذه المعاييش التي جعلها الله للناس في الأرض تستوجب أن يشكروا
نِعَمَ الله عَلَيْهِمْ بها، فَهَلْ هُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّهُمْ عليها؟؟. والجواب في قول الله
عز وجل يخاطب الناس جميعاً:

● ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: أي: أنتم يا أيُّها الناس بالنظر إلى مجموعكم
لا إلى جَمِيعَتكم تَشْكُرُونَ شُكْراً قَلِيلاً جداً نِعَمَ رَبِّكُمْ عليكم.

﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمفعول مطلق محذوف مُقَدِّمٌ على فِعْله.

﴿مَا﴾ : إبهامية لتأكيد القلة .

فالشَّاكِرُونَ من النَّاسِ نِعَمَ رَبِّهِمْ عَلَيْهِمْ قَلِيلُونَ جداً بالنسبة إلى غير الشاكرين ، إذ أكثر النَّاسِ كَافِرُونَ .
ومعظم الَّذِينَ يَشْكُرُونَ من أَهْلِ الإِيمَانِ يَشْكُرُونَ شُكْرًا قَلِيلًا لا يكافئ عطاءات الفضل الرَّبَّانِيَّة .

وسبق التحليل المستفيض لمثل هذه العبارة لدى تدبُّر قول الله عز وجل في الآية الثالثة من هذه السورة خطاباً للناس :

● ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فلا حاجة إلى إعادة هذا التحليل .



قضايا الدرس الأول من دروس السورة:

اشتمل هذا الدرس الأول من دروس سورة (الأعراف) على بيان لقطات موجزاتٍ من أصول الدين وواقع حال الناس بالنسبة إلى بعضها، في ثمانى قضايا:

القضية الأولى: بيان أن القرآن مُنَزَّل من الرب الخالق للعالمين المخاطبين بما جاء فيه .

القضية الثانية: بيان وظيفة الرُّسُول بالنسبة إلى القرآن، بوضفه رَسُولاً، وهي تَبْلِيغُهُ، وبيان ما يَجِبُ على الناس تُجَاهَ رَبِّهِمْ، فَمَنْ لم يَسْتَجِبْ لدَعْوَتِهِ بَعْدَ التبليغ والبيان ومُتَابَعَةِ التذكير، ووصل إلى حالةٍ مَيُؤُوسٍ منها، فالمطلوب من الرُّسُول ﷺ نَحْوَهُمْ أَنْ يُنْذِرَهُمْ بما جاء في القرآن من إنذارات مُعْجَلَاتٍ في الحياة الدُّنيا، ومُؤَجَّلَاتٍ إلى يوم الدين .

أي: فليس مسؤولاً عن تحويل الناس من الكفر والمعصية، إلى الإيمان والطَّاعة، حتَّى يكون في صدره حَرْجٌ مِمَّا أُنْزِلَ إليه .

أما من استجابوا لدعوة الرُّسُول ﷺ فَأَمِنُوا، فالمطلوب منهم أن يكون القرآن لهم ذِكْرًا، يتذكرون منه عند كل مناسبة داعية ما يتعلَّق بها، ويتَّبِعُون ما جاء فيه.

القضية الثالثة: توجيه الأمر الرِّبَّانِي لكلِّ موضوع في الحياة الدنيا موضع الامتحان، بأنَّ يَتَّخِذُوا رَبَّهُمْ وَلِيَّهُمْ، وَيَتَّبِعُوا ما أنزله إليهم.

وتوجيه النهي الرِّبَّانِي لهم بأن لا يَتَّخِذُوا من دون الله أولياء، وبأن لا يَتَّبِعُوا هؤلاء الأولياء في مناهج مخالفة لما أنزل رَبُّهم إليهم.

القضية الرابعة: بيان حقيقة من حقائق واقع المجتمع البشري، وهي أَنَّهُمْ قَلِيلًا ما يَتَذَكَّرُونَ، وذلك لأنَّ أكثر الناس كافرون فهم لا يَتَذَكَّرُونَ رَبَّهُمْ ولا ما أنزل إليهم بصورة طبيعية، ولأن الذين يَتَذَكَّرُونَ منهم وهم الأقلون المؤمنون، أَكْثَرُهُمْ لا يَتَذَكَّرُونَ إلا قليلاً.

القضية الخامسة: توجيه الإنذار من الله والرسول للكافرين، بمعجَلِ العقاب في الحياة الدنيا، قياساً على من أهلكهم الله من كُفَّار القرون السَّالفة، مقروناً ببعض تفصيل عن سُنَّةِ الله في إهلاكهم.

القضية السادسة: توجيه الإنذار من الله والرسول للكافرين، بمؤَجَّلِ العقاب إلى يوم الدين، من خلال عرض لمحاتٍ من عُصْرَيْنِ من عناصر محكمة العدل الرِّبَّانية يوم الدين، وهما عُصْرُ السُّؤال، وعنصر الوزن والموازن.

القضية السابعة: بيان أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد جعل النَّاس في الأرض، في أَتَمِّ وأَحْكَمِ كَيْفِيَّةٍ لتحقيق امتحانهم في الحياة الدنيا بين نَجْدِي الشكر والكُفْرِ لربِّهم، إذ مَكَّنَهُمْ في الأرض، فجَعَلَهُمْ قَادِرِينَ على أن يتصرفوا فيها على ما يريدون من طاعةٍ لربِّهم وقُرْبَاتٍ إليه بإرادة الخير وفِعْله، أو معصية لربِّهم بإرادة الشرِّ وفِعْله، وجعل لهم في الأرض وسائلَ عَيْشٍ مختلفة،

وهي وسائل ومواد إمداد حياتهم بالعيش إلى انتهاء آجالهم فيها، ومواد استمتاعهم فيها بما يشتهون، ومكنتهم من استخدام بعضها في طاعته، أو في معصيته، لينلّوهم فيما آتاهم.

القضية الثامنة: بيان حقيقة من حقائق واقع حال المجتمع البشري، وهي أنهم قليلاً ما يشكرون، وذلك لأن أكثر الناس كافرون، ولأن الذين يشكرون منهم وهم الأقلون المؤمنون أكثرهم عصاةً لربهم، لا يشكرون إلا قليلاً، والشكورون منهم قليلون نادرون، كما قال الله عز وجل في سورة (سبا/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) حكاية لما خاطب به آل داود عليه السلام:

﴿... أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝﴾

﴿الشَّكُورُ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «الشَّارِك» أي: الكثير الشكر.



(٦)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة

وهو الآيات من (١١ - ٢٥)

قال الله عز وجل خطاباً للناس جميعاً:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝﴾ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝﴾ (١٢) قَالَ فَأَخْرِجْهُ مِنَ الْجَنَّةِ مِنَ الصَّغِيرِ ۝﴾ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝﴾ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝﴾ (١٥) قَالَ فِيمَا أَعْوَجْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝﴾ (١٧) قَالَ أَخْرِجْهُمَا مِن جَنَّاتٍ وَعَنَآئِينَ هُمْ فِيهَا مُتَحَرِّرُونَ ۝﴾ (١٨) وَلَقَدْ جَعَلْنَا نُورًا لِّلْجَنَّةِ مِثْلَ نَارِ الْفَلَاحِ ۝﴾ (١٩) وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا نَارًا تَلْقَوْنَ فِيهَا سُلُوفًا مِّمَّنْ جَعَلْنَا لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۝﴾ (٢٠) وَلَقَدْ جَعَلْنَا مِنْ قِبَلِكُمْ مِثْلَ الْأَنْهَارِ ۝﴾ (٢١) وَلَقَدْ جَعَلْنَا مِنْ قِبَلِكُمْ مِثْلَ الْأَنْهَارِ ۝﴾ (٢٢) وَلَقَدْ جَعَلْنَا مِنْ قِبَلِكُمْ مِثْلَ الْأَنْهَارِ ۝﴾ (٢٣) وَلَقَدْ جَعَلْنَا مِنْ قِبَلِكُمْ مِثْلَ الْأَنْهَارِ ۝﴾ (٢٤) وَلَقَدْ جَعَلْنَا مِنْ قِبَلِكُمْ مِثْلَ الْأَنْهَارِ ۝﴾ (٢٥)

وَرَزَجَكَ الْجَنَّةَ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾
فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ
هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ
النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ
عَلَيْهِمَا مِنْ وَرْقٍ الْجَنَّةِ وَفَادَهُمَا رَبُّهُمَا آلَزَّ أَهْنَهُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقْلَلَ لَكُمَا إِنَّا
الشَّيْطَانُ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ
إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾

تمهيد:

سبق في الملحق الرابع من ملاحق سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) تدبر هذا الدرس تدبراً تكاملياً مع سائر النصوص التي جاءت في القرآن بشأن قصة خلق الإنسان الأول وفي ظهره ذُرِّيَّاتُهُ، وما رافق خلقه من أحداث.

وكشف ذلك التدبر التكاملِي مفهومات يَضَعُ على المتدبر لكتاب الله اكتشافاً من خلالِ دراستِهِ لكلِّ نصٍّ منها دراسةً منفصلة، لا تَجْمَعُهَا جَمِيعاً نظرةً عامَّةً شاملةً لكلِّ النُّصوص الواردة في القرآن حَوْلَ الموضوع نفسه.

والتزاماً بما تَوَصَّلْتُ إِلَيْهِ في تلك الدراسة التكاملية، فَإِنِّي أشرح معاني آيات هذا الدرس طبق ما كنت قد تَوَصَّلْتُ إِلَيْهِ في تلك الدراسة، لثلاً يَخُذُ اختلاف في المفهومات الْمُسْتَبْطَاتِ من آياتِ كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا الدرس الثاني من دروس سورة (الأعراف) يتضمَّن مُلْتَقَطَاتِ بيانية، من قصة خلق نَوْعِ الإنسان، متمثلاً بالشخص الأول من هذا النوع، وفي ظهره كُلُّ ذُرِّيَّاتِهِ، وهو أبو البشر آدم عليه السلام، ويتضمَّن مُلْتَقَطَاتِ مِنَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي رَافَقَتْ خَلْقَهُ، ومنها أمر الله الملائكة ومن كان معهم

مُنْدَسًا فِيهِم بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، وَعَصِيَانُ إِبْلِيسَ الْمُنْدَسِ، وَاسْتِكْبَارُهُ، وَعَرْضُ مُحَاكَمَةٍ مِنْ مُحَاكَمَاتِهِ الثَّلَاثِ، وَإِضْدَارُ الْحُكْمِ عَلَيْهِ، وَمِنْهَا إِذْخَالُ آدَمَ وَزَوْجِهِ الْجَنَّةَ إِدْخَالَ امْتِحَانٍ وَاجْتِبَارٍ، لَا إِذْخَالَ خُلُودٍ وَدَوَامٍ وَاسْتِقْرَارٍ، وَمِنْهَا مُلْتَقَطَاتٌ مِنْ مَكَايِدِ إِبْلِيسَ بِالْوَسْوَسَةِ لِهَمَّا، حَتَّى عَصَيَا رَبَّهُمَا فَأَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا، فَحَاكَمَهُمَا عَلَى مَعْصِيَتِهِمَا فَاعْتَرَفَا بِذُنُوبِهِمَا، فَعَاقَبَهُمَا اللَّهُ بِالْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَهْبَطَهُمَا وَفِي ظَهْرِ آدَمَ كُلُّ دُرِّيَّاتِهِ إِلَى الْأَرْضِ، لِيُمَرَّا هُمَا وَدُرِّيَّاتُهُمَا رِحْلَةً امْتِحَانِهِمْ فِيهَا، وَبَقَاءُ سَلَالَةِ هَذَا النُّوعِ فِي الْأَرْضِ مُقَدَّرٌ إِلَى حِينٍ مُحَدَّدٍ مَعْلُومٍ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَعِنْدَئِذٍ يَتِمُّ أَنْهَاءُ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ يَبْعَثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخَلَائِقَ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَى، لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ.

التدبر:

● قول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾: يؤكد الله عز وجل بعبارة ﴿وَلَقَدْ﴾ لأن المضمون يحتاج تأكيداً للمخاطبين به والواو عاطفة على ما جاء في الدرس الأول من دروس السورة. فما جاء في الدرس الثاني ذو روابط فكرية واضحة بما جاء في الدرس الأول.

وجاء في عبارة ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ خطاباً للناس أجمعين استخدام ضمير المتكلم العظيم، للإشعار بأن خَلَقَ النَّاسَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ رَبوبِيَةِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، الَّذِي يُلَاثِمُهُ اسْتِعْمَالُ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ.

الخلق: يأتي في اللغة بمعنيين:

المعنى الأول: التقدير، أي: تحديد مقادير كل شيء يُرادُ إيجادُه.

المعنى الثاني: الإبداع على غير مثالٍ سبق، إيجاداً من العَدَم الكلي، أو إيجاداً من موادٍ موجودة، بإعطائها صفاتٍ بالتركيب والتقدير والتصوير، لم يكن لها وجود فيها وهي عناصرٌ وأجزاء متناثرة. وهذا المعنى الثاني يدخل فيه المعنى الأول، إذ لا يكون إبداعٌ لشيءٍ مُركَّب من عناصر، دُونَ تحديد مقادير أجزائه بإحكام، لقليلها وكثيرها، صغيرها وكبيرها.

فالمعنى: وَلَقَدْ قَدَرْنَا تَكْوِينَكُمْ الشَّامِلَ لكلِّ العناصر صغيرها وكبيرها، لقليلها وكثيرها، والتي يتكوَّن منها مجتمعةٌ في نَسَقٍ متكاملٍ هذا المركَّب الإنساني، بكلِّ صفاته وخصائصه النفسيَّة والجسديَّة، الماديَّة والمعنويَّة، وهذه العمليَّة التي اشتملت على تحديد مقادير العناصر في مواقعها من البناء الكلي، قد كانت إبداعاً على غير مثالٍ سبق.

﴿ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ الخَلْقِ التقديرِي الإبداعِي صَوَّرْنَاكُمْ.

تَصْوِيرُ الشَّيْءِ: جَعَلُهُ فِي صُورَةٍ وَهَيْئَةٍ خَاصَّةٍ يَتَمَيَّزُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ، وهذه الصورة تُذَكِّرُ بالحسِّ الظاهر.

دَلَّ قول الله عزَّ وجلَّ خطاباً للناس جميعاً: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ﴾ على أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ خَلَقَ آدَمَ وَخَلَقَ جَمِيعَ ذُرِّيَّاتِهِ فِي ظَهْرِهِ، ثُمَّ صَوَّرَهُمْ، قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَ مَلَائِكَةَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، إِذْ جَاءَ الْعُطْفُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

وقد أبان الله عزَّ وجلَّ أَنَّهُ صَوَّرَ آدَمَ وَزَوْجَهُ وَذُرِّيَّاتَهُمَا فَأَحْسَنَ صَوَرَهُمْ، أي: جَعَلَهَا فِي صُورٍ حَسَنَةٍ جَمِيلَةٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) خطاباً للناس:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ...﴾ (٦٤).

وقال تبارك وتعالى في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨ نزول)
خطاباً للناس أيضاً بامتنان عليهم:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝﴾.

فالتصوير للصورة الحسنة الظاهرة للإنسان الشامل للأب الأول ولكل
ذرياته، قَدْ كَانَ بَعْدَ تَحْدِيدِ مَقَادِيرِ عُنَاصِرِ إِنْسَانِيَّتِهِ بِزَمَنِ مَتَرَاخٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ
لِتَقْدِيرِ خَلْقِهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْتَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْتَكُمْ﴾ فجاء
العطف بحرف العطف: ﴿ثُمَّ﴾ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى التَّرْتِيبِ مَعَ التَّرَاخِي.

لقد خلق الله جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ آدَمَ، وَأَوْدَعَ فِي ظَهْرِهِ كُلَّ
ذُرِّيَّاتِهِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَجَعَلَهُمْ مُتَدَاخِلِينَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ عَلَى وَفْقِ
نِظَامٍ تَنَاسُلِهِمْ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَكَانَ خَلْقُ آدَمَ خَلْقًا لَهُ وَلِكُلِّ نَسْلِهِ مَعَهُ،
وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ صُورَةَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَوْجُودَةٌ فِي خَرِيطَةِ نَوَاتِهِ الصُّغْرَى، فَقَدْ
تَمَّ خَلْقُ نَسْلِ آدَمَ مَعَ خَلْقِهِ، وَتَمَّ تَصْوِيرُهُمْ مَعَ تَصْوِيرِهِ، وَكَانُوا مُصْغَرَاتٍ
مُتَدَاخِلَاتٍ فِي ظَهْرِهِ، أَمَّا ظُهُورُ هَذِهِ الذَّرِّيَّاتِ كَائِنَاتٍ حَيَّةٍ تَتَحَرَّكُ عَلَى
الْأَرْضِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِلْمُتَحَنِّانِ، فَهُوَ ظُهُورٌ لَاحِقٌ، يَتَّبَعُ حَتَّى آخِرِ إِنْسَانٍ
يُولَدُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

● ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾: المراد بالملائكة ملائكة الملائكة
الأعلى، بِدَلِيلِ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) مِنْ بَيَانِ
أَنَّهُمْ كَانُوا هُمْ الْمُخْتَصِمِينَ السَّائِلِينَ عَنِ الْحِكْمَةِ مِنْ خَلْقِ آدَمَ، وَقَدْ سَبَقَ
بَيَانُ هَذَا فِي التَّدْبِيرِ التَّكَامِلِيِّ فِي الْمُلْحَقِ الرَّابِعِ مِنْ مَلَا حَقِّ سُورَةِ (ص).

والخطاب الموجهٌ لمَلَائِكَةِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى قَدْ كَانَ مُوجَّهًا لَهُمْ وَلِمَنْ كَانَ
مُنْدَسًا فِيهِمْ وَمُلْتَحِقًا بِهِمْ، وَهُوَ إِبْلِيسَ، بِدَلِيلِ اسْتِثْنَائِهِ مِنْ عُمُومِ السَّاجِدِينَ
الآتِي فِي الْآيَةِ.

ودل حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ عَلَى أَنَّ تَكْلِيفَ مَلَائِكَةِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَمَنْ

كان مندساً فيهم وملتحقاً بهم وهو ليس من نوعهم، قد كَانَ بَعْدَ مُدَّةٍ متراخية من الزمن، والله أعلم بمقدارها.

ودلّت نصوص قرآنيّة أخرى، على أَنَّ الله جَلَّ جلالُهُ قَدْ نفخ في آدم الرُّوحَ بعد أنْ أتمَّ خَلْقَهُ وتصويره، ثمَّ علّمه الأسماء كُلَّهَا، ثُمَّ أجرى المباراة بينه وبين الملائكة حول معرفة الأسماء، فتنفّوq آدم عليهم بالعلم الَّذي آتاه الله إيَّاه وآتاه وَسَائِلَ الوُصُولِ إلى معارف عن طريق الاستدلال العقلي، مُتَجَاوِزاً بها المدركات الحسيّة، ثُمَّ أَمَرَ اللّهُ الملائكة بالسُّجُود لآدم، وكلُّ ذَلِكَ قد كان في مراحل متفاصلة.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾

دل قول الله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ على أَنَّ في العبارة التي اشتملت على المستثنى مِنْهُ مَحْذُوفاً، ويمكن تَقْدِيرُهُ مع لَوَازِمِهِ الفكريّة كما يلي:

ثم قلنا للملائكة ولمن كان معهم مندساً فيهم ولاحقاً بهم من الجنّ، الَّذِينَ كانوا مُمَكِّنِينَ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ بَغْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فأجسامُهُمْ لطيفة قابلة للتَشَكُّلِ كأجساد الملائكة، ومنهم جنٌّ طيارون كالملائكة قادرون على الصعود إلى السماوات، إلّا أَنَّ الملائكة مخلوقون من النور، ولا يَغْضُونَ الله ما أمرهم بالفطرة، أمّا الجنُّ فمخلوقون من النار، وَلَدَيْهِمْ إِرَادَاتٌ حرّة، وهم قد يُؤْمِنُونَ وَيُسَلِّمُونَ فَيُطِيعُونَ، وقد يكفرون فيَرْفُضُونَ الإيمان والإسلام والطاعة، بإِرَادَاتٍ حرّةٍ غَيْرِ مَجْبُورَةٍ.

والاستثناء على هذا هو من قبيل الاستثناء المتّصل، ويكون التكليف ابتداءً مُوجَّهاً للملائكة، وَقَدْ أَلْحَقَ الله بِهِمْ من كان معهم مُندساً في صفوفهم، وليسَ هُوَ مِنْ نَوْعِهِمْ، فَكَشَفَهُ الامتحان.

وقد أثبت القرآن المجيد أَنَّ إبليسَ كَانَ من الجنِّ فَفَسَقَ خارجاً عن أَمْرِ رَبِّهِ، وَعَنْ واجب طاعته، في توجيه الأمر له بالسُّجُود لآدم، ولا يَصِحُّ

أَنْ يُحَاسِبَ اللَّهُ إِبْلِيسَ عَلَى عَدَمِ السُّجُودِ لِآدَمَ، مَا لَمْ يَكُنْ دَاخِلًا فِي عُمُومِ خِطَابِ التَّكْلِيفِ.

وعبارة ﴿لَوْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ تَدُلُّ عَلَى قَضِيَّتَيْنِ:

القضية الأولى: أَنَّهُ لَمْ يَسْجُدْ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ ضِمَنِ السَّاجِدِينَ، وَلَكِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ فُهِمَ مِنَ الْإِسْتِثْنَاءِ، فَالْعِبَارَةُ عَلَى هَذَا بِمِثَابَةِ تَوْكِيدِ لِمَا هُوَ مَفْهُومٌ مِنَ الْعِبَارَةِ السَّابِقَةِ لَهَا.

القضية الثانية: أَنَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَوْعِ السَّاجِدِينَ، إِذْ هُمْ أَحْيَاءُ مِنْ نَوْعِ الْمَلَائِكَةِ الْمُعْصُومِينَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ بِالْفِطْرَةِ، وَهُوَ مِنْ نَوْعِ الْجِنِّ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ الْمُخَيَّرِينَ لِلِابْتِلَاءِ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ.

ودلالة العبارة على هذه الحقيقة دلالة تأسيسية، ويحمل العبارة على المعنيين معاً، نَسْتَفِيدُ دَلَالَةَ تَأْكِيدِيَّةً، وَدَلَالَةَ تَأْسِيسِيَّةً.

وَيُؤَكِّدُ فَهْمَ الْقَضِيَّةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْعِبَارَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾:

أي: أَبَى أَنْ يَكُونَ سَاجِداً مَعَ السَّاجِدِينَ مِنْ مَلَائِكَةِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، بِمَقْتَضَى مُخَالَطَتِهِ لَهُمْ، وَدُخُولِهِ بَيْنَهُمْ، وَالتَّحَاقُّقِ بِهِمْ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَوْعِهِمْ فِي أَضْلٍ خَلَقَهُ وَطَبِيعَتِهِ.

وَمِنَ النَّصِّينِ تَتَكَامَلُ الْفِكْرَةُ الْمَرَادُ بَيَانُهَا، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَوْعِ السَّاجِدِينَ، فِي أَصْلِ تَكْوِينِهِ، وَأَبَى أَنْ يُشَارِكَهُمْ فِي السُّجُودِ فَيَكُونَ مَعَهُمْ، بِمَقْتَضَى كَوْنِهِ أُنْتَمَى إِلَيْهِمْ، وَالتَّحَقَّقَ بِهِمْ، وَصَارَ يَعْْبُدُ اللَّهَ مِثْلَ عِبَادَتِهِمْ، وَشَمَلَهُ أَمْرُ السُّجُودِ.



قول الله عز وجل:

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝١٢﴾ قَالَ فَأَهِيطَ مِمَّنَّا بِمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۝١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لِأَفْعِدَنَّ لَهُمْ سِرَطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُدْحَوًى لَّئِنْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٨﴾ ﴿

بالنظرة التدبرية التكاملية، التي سبق بيانها في الملحق الرابع من ملاحق سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) ظهر لي أن المحاكمة لإبليس التي أبانها هذا النص من سورة (الأعراف) هي الجلسة الثالثة من الجلسات التي جرت فيها محاكمته، أو المحاكمة الثالثة من محاكماته الثلاث، التي أعطاها الله برحمته فيها فرصة مُراجعة نفسه، واعترافه بذنبه، وإعلان إيمانه الكامل بالهيبة الله، وأنه لا إله إلا هو، لكنه لم يفعل، بل أصرَّ على عناده واستكباره.

● قول الله تعالى:

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ...﴾؟ بدأت جلسة هذه المحاكمة بسؤال الله عز وجل لإبليس: ﴿مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ رأى بعض المُفسِّرين أن حرف النفي «لَا» في عبارة ﴿آلَا تَسْجُدُ﴾ زائدة لتأكيد عدم سجود إبليس.

ولست أرى هذا الرأي صواباً بل قول الله تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدُ﴾ جَارٍ على قاعدة التضمين القرآنية، ذات النظائر الكثيرة، فيه، وهُنا ضُمِّنَ فِعْلُ «مَنَّ» معنى فعل «حَمَلَ» فَعُدِّي تَغْدِيَّتُهُ، فَأَغْنَتْ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ، وَأَصْلُ الْكَلَامِ: مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ، وَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ لَا تَسْجُدَ؟

وبالتضمنين الإيجازي البديع، جاءت العبارة: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ واختصاراً في التقدير نقول: ما مَنَعَكَ فَحَمَلَكَ عَلَى أَلَّا تَسْجُدَ، ولا مانع من تقدير فعل نظير فعل «حَمَلَ» كفعل «دَعَا» مما ينسجم مع عبارة «أَلَّا تَسْجُدَ». بهذه العبارة أبان الله تعالى أنه سأل إبليس عن المانع له من السُّجود، وعن الحامل له على عَدَمِ السُّجود، واعتبار «لا» زائدة لا يستقيم مع كمال الإعجاز القرآني.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: أي: وَفَتَ أَمْرِي إِيَّاكَ بِالسُّجُودِ مع مَنْ أَمَرْتُ مِنْ ملائكة الملائكة الأعلى، الَّذِينَ دَخَلَتْ فِيهِمْ، وَاعْتَبَرْتَ نَفْسَكَ وَاحِداً مِنْهُمْ، فأبان الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الجلسة لإبليس بهذا السؤال مخالفته لواجب طاعة العباد لربهم فيما يَأْمُرُهُمْ به أو يَنْهَاهُمْ عنه، بمقتضى أَنَّهُ إِلَهُهُمْ الذي يجب عليهم أَنْ يَعْْبُدُوهُ، ومن عبادتهم الأولى له بَعْدَ الاعتراف له بِرُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، أَنْ يُطِيعُوهُ في أوامره ونواهيه، لَكِنَّ إبليسَ لم يَعْتَذِرْ بِأَنَّهُ لم يكن يَعْلَمُ أَنَّ أَمَرَ الله مَوْجَّهٌ له ضِمْنَ مَنْ هو مَعَهُمْ مِنَ الملائكة، بل أَصَرَ على عناده، ولم يُرَاجِعْ نفسه، وأَعْلَنَ بهذا الإصرار أَنَّهُ غَيَّرَ مَوْمِنٍ بِالْإِلَهِيَّةِ الله له، وَأَنَّهُ مُعْتَرِضٌ على أَمْرِ الله لَهُ بِالسُّجُودِ لآدَمَ، ولهذا الاعتراض لَوَازِمُ كُفْرِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

فبماذا أجاب إبليس ربّه؟

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢).

أي: لم يكن أَمْرُكَ لي بِالسُّجُودِ لآدَمَ أَمراً حَكِيماً، وليس من حَقِّكَ أَنْ تَكْلِفَنِي أَنْ أَخْتَرِمُ بِالسُّجُودِ مَنْ هو أَذْنَى مِنِّي في العناصرِ الَّتِي خَلَقْتَهُ مِنْهَا، فَطَبِيعَةُ النَّارِ الَّتِي خَلَقْتَنِي مِنْهَا، أَشْرَفُ مِنْ طَبِيعَةِ الطِّينِ الَّتِي خَلَقْتَ آدَمَ مِنْهَا.

هذا الادّعاء من إبليس قائمٌ على فِرْيَتَيْنِ، قَاعِدَتُهُمَا التَّوَهُّمُ الباطل، ودافعُهُمَا الْكِبَرُ وَحُبُّ الاستِغْلَاءِ وَلَوْ بغير حق.

الفرية الأولى: أَنَّ من كان مَخْلُوقاً مِنْ عُنْصُرٍ أو عَنَاصِرٍ أَشْرَفَ، كَانَ هو أَشْرَفَ دَوَاماً، ولو ظَهَرَتْ منه بَعْدَ خَلْقِهِ قَبَائِحُ وَمَنكَرَاتٌ وَأَشْيَاءُ خَسِيسَةٌ، لم تَظْهَرْ مِمَّنْ كان مَخْلُوقاً من عَنَاصِرٍ أَقْلَ قِيَمَةٍ من عَنَاصِرِهِ التي خُلِقَ هو مِنْهَا، ولو ظَهَرَتْ مِنْهُ بَعْدَ خَلْقِهِ فَضَائِلُ وَمَزَايَا وَمَحَاسِنُ عَظِيمَةٌ، لم يَأْتِ بِمِثْلِهَا ذُو العنصر الأشرف.

وهذه الفرية هي أساس الاستِغلاء والاستكبار بالأعراق والأصول، القائم على ادعاء التفاضل العرقي الذي يسري إلى الفروع، وفروع الفروع، ولو فَسَدَتْ ونجم عنها ضَرْ كَبِير، وَشَرٌّ مُسْتَظِير.

الفرية الثانية: أَنَّ عُنْصُرَ النَّارِ أَشْرَفُ من عُنْصُرِ الطِّينِ، وهذا ادعاء تَوْهِيْمِيٌّ باطل.

فالنار ذات نفع بحرارتها. لإنضاجها الأشياء، واستخدامها في منافع كثيرة، وذاتُ ضَرَرٍ عَظِيمٍ وَخَطَرٍ جَسِيمٍ، حينما تُحْرِقُ وتُتَلِفُ وتُهْلِكُ. والطِّينُ ذُو نَفْعٍ عَظِيمٍ جَدًّا حينما يكون عُنْصُراً لِإِنْبَاتِ الزَّرْعِ والثمار، وسائر نباتات الأرض النافعات للأحياء في غِذَائِهِمْ، ودَوَائِهِمْ، ومصالح حياتهم الكثيرة، وحينما يكون بِيئَةً صَالِحَةً لِإِمْدَادِ الأشجار الباسقات، حتَّى تكون جَنَاتٍ وارفَاتٍ الظلال.

والطين لا يعطي عطاءً العظیم حتَّى يأخُذَ حَظَّهُ من الحرارة الناريَّة بالمقادير المَحْدَدَةِ في سُنَنِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيَّةِ.

ومع حاجة كلٍّ من النار والطين إلى العنصر الآخر منهما للتزاوج، في تَشَارُكِ تَكَامُلِيٍّ، فَإِنَّ النِّسْبَةَ النِّفْعِيَّةَ الَّتِي تُسْتَفَادُ من الطين أكثر من النسبة النِّفْعِيَّةَ الَّتِي تُسْتَفَادُ من النار، ومع هذا فلا يَصِحُّ اعتبار عُنْصُرِ الطِّينِ أَشْرَفَ من عنصر النار، ولا العكس، لأنَّ كِلَا مِنْهُمَا في سُنَنِ الله التَّكْوِينِيَّةِ لا يَتَحَقَّقُ الاِئْتِفَاعُ به إِلَّا إذا امْتَزَجَ بِالْآخَرِ أو اتَّحَدَ به، ضِمْنَ المقادير النافعة غير الضارة.

فتفضيل غُنْصُرِ النارِ على غُنْصُرِ الطَّيْنِ تفضيلٌ توهُمِيٌّ باطلٌ، دافعه النزعة الاستكبارية المنيئة، الَّتِي نَفَخَتْ فِي صدرِ إبليس، فجعلته يَغْصِي رَبَّهُ، وَيُكَابِرُ معانداً مُصِراً على المعصية، كافراً بحقِّ الرَّبِّ الَّذِي لا رَبَّ في الوجودِ سِوَاهُ، فهو وحده الإله الَّذِي لا يجوز أن يُغْبَدَ من دونه سِوَاهُ، لا أحياء، ولا أشياء، ولا مفهوماتٌ فِكْرِيَّةٌ، ومبادئٌ عقلِيَّةٌ، ولا قوانينُ تَسِيرُ على وفق أنظمتِهَا ظواهرُ الخلق.

إِنَّ الشَّرَفَ الحقيقيَّ للأحياء ذوي الإرادات الحرة، الَّذِينَ يفعلون ما يشاءون بإرادتهم، لا يكون بشرف الأصول فقط، بل يكون بما يَكْتَسِبُونَهُ من أَعْمَالٍ وَصِفَاتٍ وَأَخْلَاقٍ ذَوَاتٍ فَضْلٍ، وَشَرَفٍ، وَمَجْدٍ، وهذا ما جعل ابنَ الوردي يقول في لاميته:

لَا تَقُلْ أَضْلِي وَفَضْلِي أَبَدًا إِنَّمَا أَضْلُ الْفَتَى مَا قَدْ فَعَلَ

والسجود المأمور به لآدم سجود تكريم طاعة لأمر الله، لا سجود عبادة، فالأمر بالسجود له أَمْرٌ حَكِيمٌ، إذ هو في الحقيقة إدْعَانٌ لحكمة الخالق، كَيْفَ لا وقد أخضع الله للإنسان بالتسخير ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وهذا الإخضاع التسخيري أعظم من السجود التكريمي.

توجيه السؤال لإبليس في المجالس الثلاثة:

(١) في الجلسة الأولى كان السؤال الموجه لإبليس من ربه، هو ما جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالَ يٰإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

فتلطّف الله عزّ وجلّ بإبليس وناداه باسمه، وسأله عن عُذْرِهِ في أَنْ لا يَكُونَ مع السَّاجِدِينَ من ملائكة الملائكة الأَعْلَى الَّذِي دَسَّ نفسه فيهم، واعتَبَرَ نفسه واحداً مِنْهُمْ.

(٢) وفي الجلسة الثانية كان السؤال الموجه لإبليس من ربه، هو ما جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ ۖ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ .
فتلطف به أيضاً، وسأله عن المانع له من السجود، مُبَيِّنًا لَهُ أَنَّ هَذَا المخلوق قد اعتنيت به عناية خاصة، وكرَّمْتَهُ فَخَلَقْتَهُ بِدَيِّ .
وَوَضَعَ اللهُ إبليسَ أَمَامَ اِحْتِمَالَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا :
الاحتمال الأول: أن يكون قَدْ اسْتَكْبَرَ بِغَيْرِ حَقٍّ .

الاحتمال الثاني: أن يَكُونَ مِنَ الْعَالِينَ الَّذِينَ لَمْ يُوجَّهْ اللهُ لَهُمْ أَمْرُ السُّجُودِ لِآدَمَ، لَكِنَّ هَذَا اِلْحْتِمَالِ اِحْتِمَالٌ سَاقِطٌ، لِأَنَّ إبليسَ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ قَدْ أَمَرَهُ بِالسُّجُودِ مَعَ ملائكة الملائكة الأعلَى الَّذِينَ هُوَ مُنَدَّسٌ فِيهِمْ . أَوْ أَنَّ يَكُونُ مُعْتَقِداً أَنَّهُ مِنَ الْعَالِينَ فِي تَكْوِينِهِ، فَلَا يَلِيقُ بِهِ السُّجُودُ لِآدَمَ .

(٣) وفي الجلسة الثالثة كَانَ السُّؤَالُ الْمُوْجَّهُ لِإِبْلِيسَ مِنْ رَبِّهِ هُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ... ﴿١٢﴾﴾ .

فلم يتلطف الله به، وخاطبه دون أن يذكر اسمه، وسأله عن المانع له من السجود، وعن الحامل له على عدم السجود، وأبانَ لَهُ أَنَّهُ قَدْ وَجَّهَ لَهُ الْأَمْرَ بِالسُّجُودِ، فَمِنْ حَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُ، أَنْ يُطِيعَهُ وَيَعْبُدَهُ، وَلَا يَجْحَدَ إِلَهِيَّتَهُ لَهُ، وَأَنْ لَا يَتَّخِذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ .

وكان جوابُ إبليس على أسئلة ربه له في الجلسات الثلاث، ما جاء بيانه في سورة (الحجر) وفي سورة (ص) وفي سورة (الأعراف):

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾﴾ .

فأصدر الله عَزَّ وَجَلَّ الْحُكْمَ الْخَتَامِيَّ عَلَيْهِ بِالْإِهْبَاطِ وَبِالطَّرْدِ، وَبَيَّأَهُ مِنَ الصَّاعِرِينَ، وَهُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ مِنْ سُورَةِ (الأعراف):

● ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣).

لقد أصرَّ إبليس على كُفْرِهِ بِالْهِيَةِ الله له، الَّتِي هي اللازم العقلي لربوبيته له، فاستحقَّ الطَّرْدَ والإخراجَ من موطن الملائكة الأعلى من الملائكة، وجعلهُ من الصَّاغِرِينَ.

وإصدار هذا الحكم الذي تضمنته هذه الآية يقتضي كلاماً مطوياً قال الله له فيه: كَذَبْتَ، فَلَسْتَ خيراً مِنْهُ، وَلَسْتَ مِنَ الْعَالِينَ، بل أَنْتَ مُسْتَكْبِرٌ بغيرِ حقٍّ، جَاوِدٌ إِلَهِيَّةَ رَبِّكَ لَكَ، مُتَمَرِّدٌ عَلَى طَاعَتِهِ فِي أَمْرِ يَخَالِفُ هَوَاكَ، فَأَنْتَ كَافِرٌ، والفاء الفصيحة في ﴿فَاهْبِطْ﴾ تدلُّ على هذا المحذوف المطوي.

● ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾: الْهَبُوطُ: ضِدُّ الصُّعُودِ، يقال لغة: هَبَطَ يَهْبِطُ هَبُوطاً، إذا نزل من مكانٍ مُرتَفِعٍ إلى مكانٍ مُنْخَفِضٍ، وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْمَادِيَّاتِ، وَفِي الْمَعْنَوِيَّاتِ، كَالهَبُوطِ إِلَى الْمَهَانَةِ وَالذُّلَّةِ وَالْخَسَةِ. ﴿مِنْهَا﴾: أي: من موطن ومنازل ملائكة الملائكة الأعلى، أي: فاهبط منها هبوطاً متوالياً إلى أدنى المنازل.

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾: أي: فَمَا أَنْتَ مُمَكِّنٌ مِنْ أَنْ تَتَكَبَّرَ وَأَنْ تَبْقَى فِي مَوَاطِنِ وَمَنَازِلِ ملائكة الملائكة الأعلى، وَبِمَا أَنَّكَ تَكَبَّرْتَ بِغَيْرِ حَقٍّ فَاهْبِطْ مِنْهَا، فَمَا يَكُونُ لَكَ حُرِّيَّةٌ أَنْ تَرْتَعَ فِي مَنَازِلِ الملائكة وتكون فيها من المتكبرين، إِنَّهَا مَنَازِلُ الَّذِينَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ.

● ﴿فَاخْرُجْ﴾: هذا حُكْمٌ مُتَمِّمٌ لِأَمْرِ بِالْهَبُوطِ، لِأَنَّ الْإِهْبَاطَ لَا يَسْتَلْزِمُ الْإِخْرَاجَ الْكُلِّيَّ، فجاء الأَمْرُ بِالْخُرُوجِ الْكُلِّيِّ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْهَبُوطِ مُتَمِّماً لِلْحُكْمِ الصَّادِرِ ضِدَّهُ بِالطَّرْدِ الْكُلِّيِّ وَاللُّغْنِ.

وقد يفيد الأَمْرُ بِالْخُرُوجِ، الْخُرُوجُ مِنْ كُلِّ مَنَازِلِ الملائكة فِي السَّمَاءِ، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، أَيْ: فَإِذَا بَلَغَتْ فِي هَبُوطِكَ إِلَى أَدْنَى الْحُدُودِ فَاخْرُجْ مِنْهَا خُرُوجاً كَلِيّاً.

● ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾: هذه مادةٌ ثالثةٌ مِنْ موادِّ الحُكْمِ عليه.

الصَّاعِرُونَ: جمع «الصَّاعِر» وهو الوضع الذَّلِيلُ الحَقِيرُ، ذو القيمة القليلة، أو الَّذِي لا قيمة له.

وجاء في سورة (الجُحُر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأن الحكم على إبليس بالخروج، قول الله تعالى:

﴿قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾.

وجاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) قول الله تعالى:

﴿قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾.

وقد سبق في الملحق الرابع من ملاحق سورة (ص) بيان الحكمة مِنْ فُرُوقِ هذه العبارات، الَّتِي يُلائِمُ كُلُّ مِنْهَا مَجْلِسَ المحاكمة الَّذِي صَدَرَتْ فيه.



● قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾:

لقد استعطف إبليس رَبَّهُ في الجلستين الأولى والثانية، فقال فيهما بَعْدَ إضْدَارِ الحكم عَلَيْهِ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦).

أما في الجلسة الثالثة التي كانت خاتمةَ جلسات المحاكمة، فقد خاطب الله جَلَّ جلالُهُ بجفاءٍ دُونَ أَنْ يقولَ لَهُ: ﴿رَبِّ﴾ بل قال: ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. لَقَدْ وَاجَهَ رَبَّهُ بخطابٍ مُماثِلٍ لخطابِ الله له.

فكما قال الله له في هذه الجلسة الثالثة: ﴿... مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ (١٧) دون أن يَتَلَطَّفَ به بِذِكْرِ اسمه، كما فعل في الجلستين

الأولى والثانية. قال إبليس: ﴿أَنْظِرْ لِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ دون أن يقول له: «رَبِّ» فمع إلحاحه بتكرار الطلب الذي لم يُعطه الله مِنْهُ إِلَّا الْإِنْظَارَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ المعلوم الَّذِي يُمِيتُ الله فيه جميع الأحياء، كما جاء في الجلسَتَيْنِ الأولى والثانية، فقد كَانَ فِي الْجُلُوسَةِ الثَّالِثَةِ شَدِيدَ الْوَقَاحَةِ، فحَاطَبَ رَبَّهُ بِأَسْلُوبٍ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ النَّذِّ لِلنَّذِّ، فقال الله له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، أي: إِنَّكَ مَنْظَرٌ مَعَ الَّذِينَ أُخِّرَ إِمَاتَتُهُمْ إِلَى وَقْتِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فجميع المنظرين من كبراء الملائكة يميتهم الله عندئذ.

كان إبليس بَعْدَ الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِالْهَبُوطِ وَالْخُرُوجِ، وَاللَّغْنِ فِي كُلِّ جُلُوسَةٍ مِنْ جَلَسَاتٍ مُحَاكَمَتِهِ، يُنْعِنُ فِي إِصْرَارِهِ عَلَى إِغْوَاءِ آدَمَ وَزَوْجِهِ وَذُرِّيَّاتِهِمَا حَتَّى يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ حَلِيمًا رَحِيمًا، بَأَنْ عَقَدَ لَهُ ثَلَاثَ جَلَسَاتٍ لِمَحَاكَمَتِهِ، لِيَتَرَكَّ لَهُ فُرْصَةٌ مُرَاجَعَةِ نَفْسِهِ، وَيَقْطَعَ عَلَيْهِ كُلَّ عُذْرٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَغْتَذِرَ بِهِ مُسْتَقْبَلًا، كَعُذْرِ أَنَّ الْحُكْمَ عَلَيْهِ قَدْ كَانَ بِمَحَاكَمَةٍ مُسْتَعْجَلَةٍ لَمْ تَتْرَكْ لَهُ فِيهَا فُرْصَةَ التَّرْوِي، لَعَلَّهُ يُرَاجِعُ نَفْسَهُ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ فِي حَالَةٍ اسْتِيَاءٍ وَغَضَبٍ أَخْرَجَتْهُ عَنْ وَغْيِهِ السَّلِيمِ، فَصَدَرَ مِنْهُ مَا صَدَرَ مِنْ عِنَادٍ وَإِضْرَارٍ عَلَى الْاسْتِكْبَارِ، وَرَفُضِ طَاعَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ.

وَيَتَرَجَّحُ لَدَيْ أَنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ أَنْ أَصْدَرَ الْحُكْمَ عَلَيْهِ فِي الْجُلُوسَةِ الْأُولَى، وَفِي الْجُلُوسَةِ الثَّانِيَةِ، أَعْلَمَهُ بِأَنَّهُ سَيَعْقِدُ لَهُ جُلُوسَةً مُحَاكَمَةٍ أُخْرَى، لِيُعِدَّ نَفْسَهُ لِلتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَلِيُرَاجِعَ نَفْسَهُ عَسَى أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَيَرْفَعَ عَنْهُ حُكْمَ الطَّرْدِ وَاللَّغْنِ الْمُؤَبَّدَيْنِ، لَكِنْ إِبْلِيسُ أَصَرَ عَلَى الْعِنَادِ وَالِاسْتِكْبَارِ، وَجُحُودِ الْهِيَةِ اللَّهِ لَهُ.

كَرَّرَ إِبْلِيسُ فِي هَذِهِ الْجُلُوسَةِ الثَّالِثَةِ طَلَبَ إِنْظَارِهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، رَاغِبًا فِي أَنْ لَا يَذُوقَ الْمَوْتَ حَتَّى عِنْدَ إِنْهَاءِ حَيَاةِ كُلِّ الْأَحْيَاءِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ

بَعْدَ الْبَعْثِ لَا مَوْتَ لِلْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُوَضِّعَ الْإِبْتِلَاءِ، فَكَأَنَّهُ فِي هَذَا يَطْلُبُ الْخُلُودَ، وَلَوْ كَانَ مَصِيرُهُ إِلَى عَذَابِ جَهَنَّمَ الْخَالِدِ.
وَرَبَّمَا كَانَ يَتَوَهَّمُ أَنَّ تَأْخِيرَ إِمَاتَتِهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ يُخْرِجُهُ مِنْ قَانُونِ الْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، بِحِيلَةٍ أَنَّ هَذَا يَكُونُ بَعْدَ الْبَعْثِ، وَهُوَ مُنْظَرٌ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُبْعَثَ، وَرَبَّمَا تَوَهَّمُ أَنَّ اللَّهَ لَوْ أَنْظَرَهُ لَجَادَلَ رَبَّهُ فِي مَوْضُوعِ حِسَابِهِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، وَمَجَازَاتِهِ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.



● قول الله عز وجل:

﴿قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي﴾: أي: قَالَ إِبْلِيسُ خُطَاباً لِرَبِّهِ، فِيمَا أُغْوَيْتَنِي، أي: فَبِسَبَبِ مَا حَكَمْتَ عَلَيَّ بِالْغَوَايَةِ، لِرَفْضِي طَاعَةَ أَمْرِكَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، وَلِإِصْرَارِي عَلَى هَذَا الرِّفْضِ.

«الفاء» تَفْرِيعِيَّةٌ، و«الياء» جَارَةٌ سَبَبِيَّةٌ، أي: فَبِسَبَبِ حُكْمِكَ عَلَيَّ بِالْغَوَايَةِ. و«ما» مَصْدَرِيَّةٌ، وَهِيَ الَّتِي تُؤَوَّلُ مَعَ الْفِعْلِ الَّذِي بَعْدَهَا بِمَصْدَرٍ، أي: فَبِإِغْوَائِكَ لِي فِي حُكْمِكَ الصَّادِرِ عَلَيَّ.

فَالْمَرَادُ بِالْإِغْوَاءِ الْحُكْمُ بِهِ فِي مَجْلِسِ الْمَحَاكِمَةِ، لَا تَقْدِيرَهُ، وَلَا الْإِجْبَارَ عَلَيْهِ.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾: أي: لَأَقْعُدَنَّ مُتَرَصِّداً مَسِيرَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ فِي حَيَاتِهِ، لِإِغْوَائِهِ وَإِضْلَالِهِ، مَلَازِماً صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الَّذِي يُوصِلُهُمْ إِلَى مَرْضَاتِكَ، فَيَجْعَلُهُمْ مُسْتَحِقِّينَ أَنْ يَدْخُلُوا جَنَّاتِكَ دَارَ النَّعِيمِ الْخَالِدِ، بِحَسَبِ وَعْدِكَ لِلْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِكَ.

انْتَصَبَ لَفْظُ «صِرَاطٍ» لِتَضْمِينِ فِعْلِ «أَفْعُدْ» مَعْنَى فِعْلِ «أَلْأَزِمِ» عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ، فَأَعْنَى هَذَا التَّضْمِينُ عَنِ التَّصْرِيحِ بِجَمْلَتَيْنِ، إِذِ الْجُمْلَةُ الْأُولَى حُذِفَ مَعْمُولُهَا، وَالْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ حُذِفَ لَفْظُ فِعْلِهَا، وَضُمِّنَ الْفِعْلُ الْمَذْكُورُ مَعْنَاهُ، وَالتَّقْدِيرُ: لَا أَفْعُدَنَّ عِنْدَ صِرَاطِكَ، مُلَازِمًا إِيَّاهُ.

والتَّضْمِينُ ظَاهِرَةٌ قُرْآنِيَّةٌ هِيَ مِنْ عَنَاصِرِ إِبْدَاعِهِ الْبَيَانِيِّ.

وَاللَّامُ فِي: ﴿لَا أَفْعُدَنَّ﴾ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ:

فَيَسَبِّبُ حُكْمَكَ عَلَيَّ بِالْعَوَايَةِ، أَقْسِمُ لَا أَفْعُدَنَّ لِإِغْوَائِهِمْ مُلَازِمًا صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ.

أَبَانَ إِبْلِيسُ بِقُعُودِهِ مَعْنَى التَّمَكُّنِ، وَأَضَافَ إِلَيْهِ مَعْنَى الْمُلَازِمَةِ، فَتَمَّتْ لَهُ الْمُرَابَاطَةُ بِكَامِلِ عَنَاصِرِهَا.

لَمْ يَكُنْ لِإِبْلِيسِ أَنْ يُعْطِيَ الْعَهْدَ عَلَى نَفْسِهِ بِهَذِهِ الْمُرَابَاطَةِ، لَوْلَا أَنَّهُ لَاحَظَ ذُرِّيَّتَهُ الْأَبَالِسَةَ، وَجُنُودَهُ مِنْ شَيَاطِينِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خُطَابًا لِلنَّاسِ فِي سُورَةِ (الْكَهْفِ/ ١٨ مَصْحَفِ/ ٦٩ نَزُولِ):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝﴾

وَقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشُّعَرَاءِ/ ٢٦ مَصْحَفِ/ ٤٧ نَزُولِ) بِشَأْنِ مَصِيرِ الْغَاوِينَ، وَالْمُشْرِكِينَ فِي الْجَحِيمِ، وَجُنُودِ إِبْلِيسِ أَجْمَعِينَ:

﴿فَكَبَّكِرُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝ وَخُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝﴾

إِنَّ الْمُرَابَاطَةَ بِتَمَكُّنٍ وَمُلَازِمَةٍ وَتَرَصُّدٍ، هِيَ أَوَّلُ شُرُوطِ أَعْمَالِ الْإِغْوَاءِ وَالْإِغْوَاءِ، لِلإِعَادِ وَالصَّرْفِ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ.

وقد اختار إبليس أن تكون مُرَابِطَتُهُ عندَ صراطِ الله المستقيم، لأنَّ مُهِمَّتَهُ صَرْفُ المتجهين لسلوكه عنه، وإخراج السالكين فيه منه، أمَّا الآخرون السَّالكون في سُبُلِهِم المختلفة البعيدة عن صراطِ الله المستقيم، فَإِنَّهُمْ غَاوُونَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَقَدْ كَفَّوْا إِبْلِيسَ مُبَاشَرَةً مِّمَّةٍ إِغْوَائِهِمْ، بل هم مُهَيِّئُونَ لأنَّ يكونوا من جُنُودِهِ شياطين الإنس، مع شياطين الجنِّ الملازمين لهم.

وإِبْلِيسُ يَعْلَمُ أَنَّ صراطَ الله المستقيم يُوصِلُ سَالِكَهُ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَسَعَادَةِ الآخِرَةِ، وَقَدْ هَيَّأَ نَفْسَهُ لِإِغْرَاءِ ذُرِّيَّاتِ آدَمَ وَزَوْجِهِ وَإِغْوَائِهِمْ، حَتَّى يَسْلُكُوا سُبُلًا مُنْحَدِرَةً مُجَافِيَةً لَصِرَاطِ الله المستقيم، وهذه السُّبُلُ تُوَصِّلُ سَالِكِهَا إِلَى الشَّقَاءِ وَعَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، مع ما فيها من نتائج وخيمة في الدنيا، تَجْعَلُهُمْ تُعَسَاءُ فِي مَشَاعِرِهِمُ الدَّاخِلِيَّةِ.

وَأَمَّا مَا يُصِيبُونَهُ مِنْ لَذَّاتٍ، وتحقيق بعض أهواء نفوسهم، فَمَغْمُوسٌ بِمَصَائِبٍ وَأَكْذَارٍ وَهُمُومٍ، تَتَّبِعُهَا حَسَرَاتُ أَمْرَاضٍ وَنَكَبَاتٍ.

﴿ثُمَّ لَا تَنبِتُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ...﴾ (١٧)

شَمَائِلُ: جمع «شِمال» مقابل «اليمين».

تنحصر أعمال الْمُغْوِي الحريص على صَدِّ السَّالِكِ عَنْ سَبِيلِ الله، وإخراج السَّالِكِ فيه منه، وتوجيهه لِسُبُلٍ ضَالَّةٍ شَتَّى، في أَرْبَعِ جِهَاتٍ:

الجهة الأولى: هي جهة ما بين يَدَيِ السَّالِكِ.

الجهة الثانية: هي جهة ما خَلْفَ السَّالِكِ.

الجهة الثالثة: هي الجهة الواقعة عن يمين السَّالِكِ.

الجهة الرابعة: هي الجهة الواقعة عن شمال السَّالِكِ.

وأعمال الْمُغْوِي: إمَّا أَنْ تَكُونَ صَدًّا، وهذه تكون من الأمام.

وإِذَا أَنْ تَكُونَ جَذْبًا وَمَنْعًا مِنَ التَّقَدُّمِ، وهذه تكون من الخلف، وإِذَا أَنْ تَكُونَ تَحْوِيلًا عَنْ خُطِّ السَّيْرِ، وهذه تكون عَنْ الْإِيمَانِ، وعن الشَّمَائِلِ، والوسيلة هي التَّزْيِينُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ إِفْكَارٍ، وَأَهْوَاءٍ وَشَهَوَاتٍ وَغَرَائِزٍ، وهو ما جاء بيانه في النص الذي جاء في سورة (الحجر).

أَمَّا مَا هُوَ فَوْقَ الصِّرَاطِ، أَوْ مَا هُوَ تَحْتَهُ، فلا دفع ولا جذب يكون في أي واحد منهما، لأن موقع الصراط شامل لما هو فوقه ولما هو تحته، فمن كان سَالِكًا عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، فَكُلُّ عُلُوٍّ فَوْقَ أَرْضِهِ هُوَ مِنْهُ، وَكُلُّ غُمُقٍ تَحْتَ أَرْضِهِ هُوَ مِنْهُ.

وبهذا أَبَانَ إبليس خُطَّتَهُ فِي الْحَصَارِ الْإِغْوَائِيِّ، وَطَوَى النَّصَّ حَرَكَاتِ الصَّدِّ وَالْمَنْعِ وَالتَّحْوِيلِ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، لِأَنَّهَا مِمَّا يُمَكِّنُ فَهْمَهُ ذَهْنًا.

فأصول الإغواء ترجع إلى ثلاثة أعمال في خُطَّةِ إبليس:

الأول: الصَّدُّ مِنَ الْأَمَامِ.

الثاني: المنع والجذب من الخلف.

الثالث: التحويل ذات اليمين، أو ذات الشِّمَالِ.

وهكذا أَعْلَنَ إبليس أصول خُطَّتِهِ الْعَامَّةِ، لِإِغْوَاءِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَرَوْجِهِ، عقب هذه الجلسة الثالثة من جلسات محاكمته.

وأعطاه الله عز وجل التمكين من التحرك لتنفيذ خُطَّتِهِ، لِيَتِمَّ اخْتِيَارُ الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ، وَلَكِنْ حَدَّدَ لَهُ إِمْكَانَاتِ تَحْرُكِهِ، فَجَعَلَهَا لَا تَصِلُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ سُلْطَانٌ.

• ﴿... وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١٧): أي: وقال إبليس لرَبِّهِ بَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ أَصُولَ خُطَّتِهِ الَّتِي رَسَمَهَا، وَلَا تَجِدُ بَعْدَ قِيَامِي أَنَا وَذُرِّيَّتِي وَجُنُودِي

بإغواء ذُرِّيَّةِ آدَمَ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ، بَلْ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ فِي نَهَايَةِ رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَفُورِينَ، يَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ يَوْمَ الدِّينِ فِي النَّارِ دَارَ عَذَابِ الْمَجْرِمِينَ.

شَاكِر: اسم فاعل، وهو يُطْلَقُ عَلَى مَنْ يَكُونُ مِنْهُ شُكْرٌ مَا وَلَوْ كَانَ قَلِيلًا، وَأَقْلُ الشُّكْرِ يَكُونُ بِإِيمَانٍ صَاحِقٍ صَادِقٍ تُعَبِّرُ عَنْهُ كَلِمَةُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

أَمَّا مَنْ لَيْسَ لَدَيْهِ أَدْنَى شُكْرٍ لِرَبِّهِ فَهُوَ كَفُورٌ «صِيغَةُ مُبَالِغَةٍ لِكَاْفِرٍ»، وَالْكَفُورُ هُوَ الَّذِي لَيْسَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ.

ولهذا عَبَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْ مِنْ أَدْنَى دَرَجَاتِ الْإِيْمَانِ، بِعِبَارَةِ «شَاكِرٍ» وَعَبَّرَ عَنِ الْكَافِرِ وَلَوْ مِنْ أَخْفَ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ بِعِبَارَةِ «كَفُورٍ» فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ (الْإِنْسَانِ/ ٧٦ مَصْحَفِ/ ٩٨ نَزُولِ):

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

أي: إِمَّا أَنْ يَكُونَ بَعْدَ رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ شَاكِرًا وَلَوْ مِنْ أَدْنَى دَرَجَاتِ الشُّكْرِ بِإِيْمَانٍ مَقْبُولٍ يُدْخِلُ الْجَنَّةَ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بَعْدَ رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ كَفُورًا، وَلَوْ كَانَ كُفْرُهُ مِنْ أَخْفَ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ، وَهُوَ الْكَفَرُ الَّذِي يَجْعَلُهُ خَالِدًا فِي عَذَابِ النَّارِ.

ونتساءل: مَا الَّذِي جَعَلَ إِبْلِيسَ يُخْبِرُ أَنَّ خُطْبَتَهُ سَتَنْجَحُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، عَبْرَ تَارِيخِ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ، فَيَكُونُ أَكْثَرُهُمْ كَفُورِينَ لِرَبِّهِمْ؟

أقول: لَقَدْ كَانَ هَذَا ظَنًّا مِنْهُ، مُسْتَنْدًا إِلَى مَا رَأَاهُ مِنْ عَوَامِلٍ ضَعْفٍ تَكْوِينِيٍّ، وَتَأْثِيرِ أَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَغَرَائِزِهِ عَلَى إِرَادَتِهِ، وَإِمَّا كَانَ اسْتَهْوَاهُ بِهَا.

وربما قَاسَ الْإِنْسَانُ عَلَى مَا سَبَقَ أَنْ عَرَفَهُ مِنْ طَبِيعَةِ الْجَنِّ، ذَوِي

الإرادات الحرّة، والأهواء والشّهوات والغرائز، وهذه مُشَابِهَةٌ لِمَا لَدَى الإنسان.

والدليل على أَنَّ هذا قَدْ كَانَ ظَنًّا من إبليس مستنداً إلى أماراتٍ لاحظَها، قول الله عزّ وجل في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) في مَعْرِضِ الحديث عن سَبَأَ، وَمَعَاقِبَتِهِمْ بِالسَّيْلِ الْعَرِمِ، وتمزيقهم كُلِّ مُمَزَّقٍ:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠).



● قول الله عزّ وجل:

﴿قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَمَنِ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨).

وجّه الله عزّ وجلّ هذا الطَّرْدَ والذَّمَّ والدَّخَرَ، والوعيدَ بعذاب جهنّم يوم الدّين لإبليس ولمن تَبِعَهُ، بغدّ أن أَصَرَ إبليس على كُفْرِهِ بِالْهِيَةِ الله له، وعلى عناده واستكباره، وخاطب ربّه بوقاحةٍ كأنّه ندّ له وهو يسأله بِالْحَاجِ أَنْ يُنْظِرَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ الَّذِي لَمْ يُجِبْهُ إِلَيْهِ، بل وَعَدَهُ بِالْإِنْظَارِ مع المنظرين إلى ساعةٍ إنهاء ظروف الحياة الدنيا، وبغدّ أن أعلن إبليس أصولَ خُطْبَتِهِ الْعَامَةِ الَّتِي رَسَمَهَا لِلإِغْرَاءِ وَالْإِغْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ وَالْإِبْعَادِ عن صراط الله.

● ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾: في هذه العبارة أمرٌ إهانةٍ وإذلالٍ بالخروج من كلِّ المنازل التكريمية، الَّتِي جعلها الله لعباده من الملائكة المكَرَّمِينَ.

● ﴿مَذْمُومًا﴾: أي: مذمومًا، مَعِييًّا، مُحَقَّرًا، مَخْزِيًّا، مَظْرُودًا.

يقال لغة: ذَامَهُ، أي: ذَمَّهُ، وَعَابَهُ، وَحَقَّرَهُ، وَأَخْزَاهُ وَطَرَدَهُ.

● ﴿مَدْحُورًا﴾: أي: مَدْفُوعًا مُبْعَدًا بِغُنْفٍ وَإِهَانَةٍ وَإِذْلَالٍ.

يُقال لغة: دَحَرَهُ يَذْخَرُهُ دَخْرًا وَدُخُورًا، أي: دفعه بِغُنْفٍ وَإِهَانَةٍ وَإِذْلَالٍ لِيُبْعِدَهُ.

فَالذَّخْرُ: هو الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ الْمُقْتَرَنُ بِدَفْعٍ فِيهِ إِهَانَةٌ وَإِذْلَالٌ.
● ﴿لَنْ يَمَعَكَ مِنْهُمْ﴾: أي: لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ الَّذِينَ عَزَمْتَ عَلَى إِغْوَائِهِمْ، وَرَسَمْتَ خُطَّتَكَ الْمَحَاصِرَةَ الشَّامِلَةَ لِذَلِكَ.

اللَّامُ فِي: ﴿لَنْ﴾ ابْتِدَائِيَّةٌ لِلتَّأْكِيدِ، أَوْ مَوْطِئَةٌ لِقَسَمٍ مَحْذُوفٍ، هَذَا الْوَجْهَانِ رَأْيَانِ عِنْدَ النُّحَوِيِّينَ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الْأَرْجَحُ فِيمَا أَرَى.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: اللَّامُ فِي ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ الْقِسْمِ الْمَحْذُوفِ، وَهَذَا الْجَوَابُ قَدْ سَدَّ مَسَدَ جَوَابِ الشَّرْطِ فِي: ﴿لَنْ يَمَعَكَ مِنْهُمْ﴾.

جَهَنَّمَ: اسْمٌ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، وَهُوَ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ، لِلْعِلْمِيَّةِ وَالتَّائِيثِ. وَيُقَالُ لِلْقَعْرِ الْبَعِيدِ جَهَنَّمَ.

وَجَاءَ التَّأْكِيدُ بِلَفْظِ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لِدَفْعِ تَوْهْمِ أَنَّ بَعْضَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ إِبْلِيسَ فَيَكْفُرُونَ بِالْهِئَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ يَنَالُهُمُ الْعَفْوُ، فَلَا يَكُونُونَ مِنْ أَهْلِ جَهَنَّمَ.

مِمَّا جَاءَ فِي السُّنَّةِ حَوْلَ مَلَأَ جَهَنَّمَ بِالْكَافِرِينَ:

(١) صَحَّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْظِمُ أَجْسَادَ الْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ.

رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضِرسُ الْكَافِرِ أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أَحَدٍ، وَغِلْظُ جُلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ».

(٢) وَصَحَّ أَنَّ الْجَبَّارَ يَضَعُ قَدَمَهُ، فَيَنْضِمُ بَعْضُ جَهَنَّمَ إِلَى بَعْضِهَا، حَتَّى يَكُونَ أَهْلُهَا مَالِيهَا.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«يُلْقَى فِي النَّارِ، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطُّ، قَطُّ».

أي: حَسْبِي، حَسْبِي، لقد امتلأت.

وروى مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُورِثْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ فَمَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ، قَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتَ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ، إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي، أَعَذَّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَاَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَضَعَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رِجْلَهُ، تَقُولُ: قَطُّ، قَطُّ، قَطُّ. فَهُنَالِكَ تَمْتَلِي، وَيُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ^(١)، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا».

ولهذا الحديث روايات متعددة عند البخاري ومسلم وغيرهما، ومعانيها متقاربة، منها المختصر، ومنها المطول.

ومما جاء مطولاً منها، ما رواه الترمذي بسنده عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَطْلُعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ:

أَلَا يَتَّبِعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا كَانَ يَعْبُدُ؟ فَيُمَثِّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيبِ صَلَيبُهُ، وَلِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ، وَلِصَاحِبِ النَّارِ نَارُهُ، فَيَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَيَبْقَى الْمُسْلِمُونَ، فَيَطْلُعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ:

أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، اللَّهُ رَبَّنَا، وَهَذَا مَكَانُنَا حَتَّى نَرَى رَبَّنَا، وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُنْشِئُهُمْ، ثُمَّ يَتَوَارَى، ثُمَّ يَطْلُعُ فَيَقُولُ: أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، اللَّهُ رَبَّنَا، وَهَذَا مَكَانُنَا حَتَّى نَرَى رَبَّنَا، وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُنْشِئُهُمْ.

(١) يُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ: أي: يَضُمُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ.

قَالُوا: وَهَلْ نَرَاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟
 قَالَ: وَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟
 قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا تِلْكَ السَّاعَةِ.

ثُمَّ يَتَوَارَى، ثُمَّ يَطْلُعُ، فَيَعْرِفُهُمْ نَفْسُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُومُ
 الْمُسْلِمُونَ، وَيُوضَعُ الصُّرَاطُ، فَيَمُرُونَ عَلَيْهِ مِثْلَ جِيَادِ الْخَيْلِ وَالرَّكَابِ،
 وَقَوْلُهُمْ عَلَيْهِ: سَلَّمَ، سَلَّمَ.

وَيَبْقَى أَهْلُ النَّارِ، فَيُطْرَحُ مِنْهُمْ فِيهَا فَوْجٌ، ثُمَّ يَقَالُ: هَلِ امْتَلَأَتْ؟ هَلِ امْتَلَأَتْ؟ هَلِ امْتَلَأَتْ؟ فَتَقُولُ: هَلْ
 مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى إِذَا أُوعِبُوا فِيهَا^(١)، وَضَعَ الرَّحْمَنُ قَدَمَهُ فِيهَا، وَأَزْوَى بَعْضُهَا
 إِلَى بَعْضٍ^(٢)، ثُمَّ قَالَ: قَطُّ؟ قَالَتْ: قَطُّ، قَطُّ.

فَإِذَا أَدْخَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: أَتَيْتِ بِالْمَوْتِ
 مُلَبِّبًا، فَيُوقَفُ عَلَى السُّورِ الَّذِي بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا
 أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَطْلَعُونَ خَائِفِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَطْلَعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ
 يَرْجُونَ الشَّفَاعَةَ، فَيَقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ،
 هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ: قَدْ عَرَفْنَاهُ، هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي وَكَّلَ بِنَا، فَيُضْجَعُ، فَيَذْبَحُ
 ذَبْحًا عَلَى السُّورِ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ لَا
 مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ لَا مَوْتَ، قَالَ الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ
 صَحِيحٌ.



(١) أُوعِبُوا فِيهَا: أَي: أَدْخِلُوا فِيهَا جَمِيعًا، يُقَالُ لُغَةً: أَوْعَبَ الشَّيْءُ فِي الشَّيْءِ، أَي: أَدْخَلَهُ
 فِيهِ كُلَّهُ.

(٢) أَي: جُمِعَ.

● قول الله عز وجل:

﴿وَبَقَادُمْ أَتَكُنَّ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩).

جاء هذا القول مُستَقْطَعاً من الحَدِثِ الماضي للقِصَّة، كَأَنَّ الحَدِثَ يَجْرِي الآن، وهذا مِنْ أَوَّلِ أسَالِيبِ الأَدَاءِ البَيَانِي، يُعَلِّمُنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ فَنَّا مِنْ فُتُونِ البَيَانِ الرَفِيعِ، مع ما قد يَتَضَمَّنُ من دَلَالَاتٍ يَكْشِفُهَا تَدَبُّرُ النُّصُوصِ المَخْتَلَفَةِ الأسَالِيبِ، لَدَى دِرَاسَتِهَا مَجْتَمَعَةً.

وقد دَلَّتْ هَذِهِ الآيَةُ عن طَرِيقِ اللُّزُومِ الذَّهْنِيَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ لآدَمَ زَوْجَهُ، وَهِيَ أُمْنَا حَوَاءٌ، وَجَاءَ فِي عِدَّةِ نُّصُوصٍ أُخْرَى بَيَانِ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ النَّاسَ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ نَفْسُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَأَنَّهُ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَأَنَّ هَذَا الْجَعْلَ قَدْ كَانَ بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَرَاخِيَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ لَخَلْقِ آدَمَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) مُبَيِّنًا لِعِبَادِهِ بَعْضَ ظَوَاهِرِ خَلْقِهِ فِي كَوْنِهِ:

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا...﴾ (٦).

وَجَاءَ فِي بَيَانِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّ أُمْنَا حَوَاءَ قَدْ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ مِنْ أَضْلَاعِ آدَمَ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرْتُهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»^(١).

وَلَا شَكَّ أَنَّ أَوَّلَ امْرَأَةٍ خُلِقَتْ هِيَ زَوْجَةُ أَبِي الْبَشَرِ آدَمَ، فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ.

(١) انظر صحيح الجامع الصحيح للألباني ص ٢٢٦ المجلد الأول.

وأورد ابنُ كثير، في كتابه «قِصَصُ الأنبياء»^(١) قال: حكى السَّدي، عن أبي صالح، وأبي مالك، عن ابن عباس، وعن مُرَّة عن ابن مسعود، وعن ناسٍ من الصُّحابة، أنَّهم قالوا: أُخْرِجَ إبليسُ من الجنة، وأُسْكِنَ آدَمُ الجنة، فكان يَمْشِي فيها وَخَشِيًّا لَيْسَ لَهُ فِيهَا زَوْجٌ يَسْكُنُ إِلَيْهَا، فَتَمَّ نَوْمَهُ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَ رَأْسِهِ امْرَأَةٌ قَاعِدَةٌ، خَلَقَهَا اللَّهُ مِنْ ضِلْعِهِ، فَسَأَلَهَا: مَا أَنْتِ؟ قَالَتْ: امْرَأَةٌ. قَالَ: وَلِمَ خُلِقْتِ؟ قَالَتْ: لِتَسْكُنَ إِلَيَّ.

فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَنْظُرُونَ مَا بَلَغَ مِنْ عِلْمِهِ: مَا اسْمُهَا يَا آدَمُ؟. قَالَ: حَوَاءَ. قَالُوا: وَلِمَ كَانَتْ حَوَاءَ؟. قَالَ: لِأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ شَيْءٍ حَيٍّ.

ونستطيع أن نستخلص من قول الله عز وجل: ﴿وَبَعَثْنَا آدَمَ أَتَى زَوْجَكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) أَرْبَعَ قَضَايَا:

القضية الأولى: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَوَلَّى بِنَفْسِهِ عَقْدَ تَزْوِيجِ بَيْنِ آدَمَ وَحَوَاءَ، بقوله لآدم: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾.

القضية الثانية: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَسْكَنَهُمَا فِي بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ الْمُعَدَّ لَهُمَا وَلِذُرِّيَّاتِهِمَا الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ الْمُسْلِمِينَ لَهُ، أَمَّا غَيْرُهُمْ فَلَا حَظَّ لَهُمْ فِيهَا.

وكان هذا الإسكانُ الأوَّلُ إسْكَانَ امْتِحَانٍ واختبار، لا إسْكَانَ خُلُودٍ واستقرار.

القضية الثالثة: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَلَّ لَهُمَا أَنْ يَأْكُلَا مِنْ كُلِّ مَأْكُولٍ فِي الْجَنَّةِ، وَمِنْ كُلِّ مَكَانٍ مِنْ أَمْكِنَتِهَا، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمَا فِي إِقَامَتِهِمَا الْإِخْتِبَارِيَّةِ أَنْ يَأْكُلَا مِنْ شَجَرَةٍ خَاصَّةٍ، عَيْنُهَا لَهُمَا بِشَخْصِهَا أَوْ بِنَوْعِهَا، إِذْ نَهَى عَنِ الْإِقْتِرَابِ مِنْهَا نَهْيَ تَحْرِيمٍ، بِدَلِيلِ تَرْتِبِ الْعِقَابِ عَلَى الْأَكْلِ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ: ﴿فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ .
 النهي عن الاقتراب أبلغ من النهي عن الأكل، والأكل من ثمرتها ولو
 مع البعد عن مغرسها هو اقتراب من جزء منها، والجزء من الشيء له حكم
 الكل، ولأن الغرض من النهي عن الاقتراب النهي عن الأكل منها، بدليل
 الإذن بالأكل من غيرها.

القضية الرابعة: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَذَّرَهُمَا مِنْ مَغْبَةِ مَعْصِيَتِهِمَا إِذَا أَكَلَا
 مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي حَرَّمَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ . وَالْحُكْمُ بِالظُّلْمِ يَسْتَدْعِي
 الْعُقُوبَةَ، وَكَانَتِ الْعُقُوبَةُ الْإِخْرَاجَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَجَعَلَ الْأَرْضَ هِيَ مَسَرَّحَ
 الْاِمْتِحَانِ، فَمَنْ آمَنَ وَأَسْلَمَ، اسْتَحَقَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا. وَمَنْ كَفَرَ
 بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ أَوْ بِإِلَهِيَّتِهِ وَتَمَرَّدَ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ كَانَ خَالِدًا فِي دَارِ عَذَابِ
 الْمَجْرِمِينَ.

ورحلة الامتحان في الأرض لآدم وزوجه وذريتهما، رحلة كدح
 ومكابدة وكشف لما في النفوس، من إرادة خير واعتراف بالحق، أو إرادة
 شر وجحود للحق واتباع للأهواء والشهوات وزينة الحياة الدنيا.

● ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ : أي: من الظالمين لأنفسكما، إذ تُسَبِّبُ
 لَكُمَا مَعْصِيَتَكُمَا الْإِخْرَاجَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْإِهْبَاطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَتَحْمِلَ الْكَذْحِ
 وَالْكَدَّ وَالْعَنَاءَ وَالْمَتَاعِبَ فِيهَا.



● قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا
 رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْفَاطِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي
 لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ .

● ﴿نُوسَ لَمَّا الشَّيْطَانُ﴾: النوسوسة: تطلق في اللغة على الصوت الخفي، يقال لغة: ونوس يونس ونوسة ونوساساً.

والنوسوسة، والنوسواس: حديث النفس، والاسم منه: النوساس بفتح الواو، ويطلق على الشيطان اسم «النوساس» لأنه يحدث من داخل النفس.

وتطلق النوسوسة والنوساس على صوت الحلي إذا تضارب بعضها ببعض. ويطلق على همس الصياد الذي يخفي صوته لفظ «نوساس» بفتح الواو.

الشيطان: يطلق لفظ «شيطان» على كل عاتٍ متمرّد من الجن والإنس والدواب. وهو على وزن «فيعال» من فعل: «شطن، يشطن شطناً» ويأتي هذا الفعل بمعنى: «بعد». تقول: شطن عنه، أي: بعد، وأشطنه، أي: أبعدته. ويأتي بمعنى: «شدّه بالشطن». الشطن: هو الحبل الطويل الشديد القتل، يستقى به، وتشد به الخيل. ويجمع على أشطان.

ومعلوم أن إبليس ومن كان على شاكلته يحمل وصفين:

الوصف الأول: أنه بعيد عن الحق، مطرود عن دائرة رحمة الرحمن الواسعة، وهو مبعّد من يغويهم عن صراط الله بوساوسه وتسويلاته.

الوصف الثاني: أنه يشطن من يغويهم بأشطانه أي: «بجائله المغنوية» الإغرائية، ويدلّهم في آبار المآثم والمهالك ليكونوا من أهل جهنم.

والوسيلة التي مكّن الله عز وجل منها إبليس وجنوده من شياطين الجن، هي الدعوة إلى معصية الله، وإلى الابتعاد عن صراط الله المستقيم.

وحين تكون هذه الدعوة ونوسة في الصدر من محدث غير مرئي، فإنها تشعر بأنها من قبيل حديث النفس لذاتها.

وهذا أَدْعَى للاستجابة، والاندفاع إلى ما تَدْعُو إليه الوسوسة، باعتبار
أَنَّ الدَّاعِيَ شَيْءٌ من ذاتِ النَّفْسِ، لا من جهة أُخْرَى تَأْمُرُ وتَنْهَى وتُغْري.

وبعد أن حَذَرْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ من وساوس الشياطين، فإنَّنا نَعْرِفُ
بتجاربنا كَيْفَ تَكُونُ وَسَاوِسُ الشَّيْطَانِ في صُدُورنا، إِذْ تَشْعُرُ بِأَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ
أَحَادِيثِ النَّفْسِ الَّتِي تَنْزِعُ بنا إلى الإثمِ وَالْمَعْصِيَةِ لله عَزَّ وَجَلَّ، وَتَنْصَرِفُ
حين نذكر الله وَنُسْتَعِيدُ به، وَذَلِكَ بِحَرَكَةِ خُنُوسٍ مُؤَقَّتٍ، وَتَرْجِعُ إلى
الْوَسْوَسَةِ عند الْعَقْلَةِ.

وَأَمَّا كَيْفَ وَسَّوسَ الشَّيْطَانُ لآدَمَ وَزَوْجِهِ فِي الْجَنَّةِ، فَقَضِيَّةٌ من قضايا
الْغَيْبِ الَّتِي لم يَرِدْ في النُّصُوصِ الْإِسْلَامِيَّةِ الصَّحِيحَةِ بَيَانٌ عنها، فلا داعِي
لإِيرَادِ إِسْرَائِيلِيَّاتٍ لا نَعْلَمُ مدى الصَّدَقِ في واحدٍ منها، ولا لإِيرَادِ أَخْبَارٍ
لَيْسَتْ مَرْوِيَّةً عن المعصوم.

لَكِنَّا عَلِمْنَا من دلالات نُّصُوصِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ
مَكَّنَ إِبْلِيسَ من وسائلِ دَعْوَةِ آدَمَ وَزَوْجِهِ لِمَعْصِيَةِ رَبِّهِمَا، حَتَّى أَكَلَا من
الشجرة المحرَّمة، ومَكَّنَ إِبْلِيسَ وَجُنُودَ من شياطين الجنِّ من وسائلِ دعوة
ذُرِّيَّاتِهِمَا لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ حَتَّى أَحْسُ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ، دون أن يكون لهما سُلْطَانٌ
على أيِّ واحدٍ مِنْهُمْ، يُلْغِي إِرَادَتَهُ الْحَرَّةَ، أَمَّا من كان غَاوِيًّا وَاتَّبَعَ الشَّيْطَانَ
فإنَّه هو الذي مَكَّنَ الشَّيْطَانَ من أن يكون له عَلَيْهِ سُلْطَانٌ.

ولمَّا كان إِسْكَانُ آدَمَ وَزَوْجِهِ الْجَنَّةَ إِسْكَانَ امْتِحَانٍ واختبار، لا إِسْكَانَ
خُلُودٍ واستقرار، كَانَ تَمْكِينُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِإِبْلِيسَ من أن يُوسَّوسَ لهما
بوسيلة ما، وَلَوْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ دُخُولَ غَيْرِ سَاكِنٍ وَلَا مُسْتَمْتِعٍ، امْرَأً مَنْسَجَمًا
مع الْحِكْمَةِ الزَّبَانِيَّةِ، ولا يَتَنافَى مع قَضِيَّةٍ من قضايا صِفَاتِ الْجَنَّةِ.

والاعتراضُ بأنَّ إِبْلِيسَ طُرِدَ من الْجَنَّةِ، اغْتِرَاضٌ غير وارد، لأنَّه ليس
في النُّصُوصِ ما يُعَيِّنُ أَنَّ طُرْدَ إِبْلِيسَ قد كان طُرْدًا من الْجَنَّةِ، بل الاحتمال

الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ سَوَابِقُ النُّصُوصِ وَلَوْاحِقُهَا وَمفهوماتها العامة، هو أَنَّ طَرْدَهُ
قد كان من منازلِ الْقُرْبِ من الله الَّتِي يَخْطِي بِهَا أَهْلُ الْمَلَأِ الْأَعْلَى من
الملائكة .

والاغْتِرَاضُ بِأَنَّ من دخل الجنة لا يَخْرُجُ منها، اغْتِرَاضٌ غير واردٍ
أيضاً، لأنَّ النُّصُوصَ ثَبَتُ أَنَّ من دخل الجنة يَوْمَ الدِّينِ بعد الحساب،
وَفَضَلَ الْقَضَاءَ، وَكَانَ دَخُولُهُ جَزَاءً عَلَى مَا قَدَّمَ من عَمَلٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،
هو الَّذِي يَكُونُ خَالِداً فِيهَا، أَمَّا من دَخَلَهَا دُخُولَ امْتِحَانٍ واختبار، أَوْ
مَكْنَهُ الله من دخولها للاطلاع، أَوْ القيام بِعَمَلٍ من الْأَعْمَالِ الْمُشْمُولَةِ
بِخُطَّةِ الله التَّكْوِينِيَّةِ الْعَامَّةِ، وَلِتَحْقِيقِ حِكْمَةٍ من حِكَمِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، فَإِنَّهُ لَا
خُلُودَ لَهُ فِيهَا، مَا لَمْ يَقْضِ اللَّهُ لَهُ بِالْخُلُودِ بِقَضَاءٍ خَاصٍّ.

ولهذا أخرج الله آدم وحواء من الجنة لَمَّا عَصَيَا، إِذْ أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ
الَّتِي حَرَّمَ الله عليهما الْأَكْلَ مِنْهَا.

ونتساءلُ: ما موقع الَّلَامِ في عبارة: ﴿وَسْوَاسَ لَهْمَا الشَّيْطَانُ﴾ مع أَنَّ
فعل «وَسْوَاسَ» لازم لا يَتَعَدَّى، إِذْ هو بمعنى: أَخَذَ هُمُوساً خَفِيّاً، أَوْ
صَوْتاً خَفِيّاً يَتَضَمَّنُ حَدِيثاً.

أقول: إِنَّ فِعْلَ «وَسْوَاسَ» ضَمَّنَ مَعْنَى فِعْلِ «سَوَّلَ» فَعُدِّي تَغْدِيته،
فَاغْنَتْ الْعِبَارَةَ الْمُخْتَصِرَةَ عَنْ جُمْلَتَيْنِ، أَي: وَسْوَاسَ وَسَوَّلَ لَهُمَا.

التَّسْوِيلُ: التَّحْسِينُ وَالتَّزْيِينُ، وَالتَّخْيِيبُ بِالْأَمْرِ. وَالْإِغْرَاءُ بِهِ، وَتَهْوِيئُهُ
وَتَسْهِيلُهُ.

يُقَالُ لُغَةً: سَوَّلَ لَهُ الشَّيْطَانُ، أَي: حَسَّنَ لَهُ وَزَيَّنَ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ أَنْ
يَفْعَلَ أَوْ يَقُولَ مَا فِيهِ مَغْصِيَّةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فيكون المعنى: أَخَذَ وَسْوَاساً، بِصَوْتٍ خَفِيٍّ، تَضَمَّنَ تَسْوِيلاً لَهُمَا،
بِتَحْسِينٍ وَتَزْيِينٍ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي حَرَّمَ الله عَلَيْهِمَا أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا.

وجاء في النص الذي في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في معرض الحديث عن آدم وقصته:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ أَذْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ (١٢٠).

فجاء في هذه الآية استخدام حرف «إلى» بدل حرف «اللام» المستخدم في النص الذي من (الأعراف) وجاء فيها أيضاً الحديث عن آدم وخده منفرداً عَنْ زَوْجَتِهِ. فما الحكمة من هذا الإجراء؟

أقول: دلّ ما جاء في سورة (طه) عَلَى أَنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يُوسْوِسْ لآدم في أَوَّلِ الأَمْرِ بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ، بَلْ كَانَ يَتَّخِذُ وَسَائِلَ بَعِيدَةٍ عَنِ الْوَسْوَسَةِ المباشرة، وَهِيَ فِي آخِرِهَا تُحَدِّثُ الْوَسْوَسَةَ، دَلٌّ عَلَى هَذَا اسْتِخْدَامُ حَرْفِ «إِلَى» الْمَشْعُرُ بِطُولِ الْمَسَافَةِ بَيْنَ بَدْءِ الشَّيْطَانِ بِحَرَكَتِهِ وَبَيْنَ حَدُوثِ الْوَسْوَسَةِ، وَدَلٌّ عَلَيْهِ أَيْضاً اسْتِخْدَامُ اسْلُوبِ الْعَرْضِ الِاسْتِفْهَامِيِّ فِي الْعِبَارَةِ الْإِغْرَائِيَةِ: ﴿هَلْ أَذْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ فَهِيَ عِبَارَةٌ تَشِيرُ الشُّوقَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ، وَلَيْسَ فِيهَا إِشَارَةٌ مَا إِلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْاقْتِرَابِ مِنْهَا، وَهَذَا الْعَرْضُ يُشْعِرُ بِأَنَّ إِبْلِيسَ لَا يَعْلَمُ شَيْئاً عَنِ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى آدَمَ وَزَوْجِهِ أَنْ يَأْكُلَا مِنَ الشَّجَرَةِ، فَدَلٌّ عَلَى أَنَّهُ خَالِي الذَّهْنُ تَمَاماً مِنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَهُوَ كَاذِبٌ مَآكِرٌ.

فما جاء في سورة (طه) بَيَّانٌ لِلْمَحَاوَلَةِ الْأُولَى مِنْ مَحَاوَلَاتِ الشَّيْطَانِ، ثَلَاثَهَا مُحَاوَلَاتٌ أُخْرَى فِي خُطُوبَاتٍ شَيْطَانِيَّةٍ تَهْبِطُ فِي الدَّرَكَاتِ.

وَلَمَّا أَدْرَكَ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ قَدْ غَرَسَ فِي نَفْسِ آدَمَ الرُّغْبَةَ فِي الظَّفَرِ بِالْخُلْدِ وَبِملْكٍ لَا يَبْلَى، اقْتَرَبَ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى صَارَ يُوسْوِسُ لآدَمَ وَزَوْجِهِ بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ، دُونَ اسْتِخْدَامِ وَسَائِلَ بَعِيدَةٍ، لَقَدْ اتَّخَذَ إِبْلِيسُ حِيلَةَ التَّشْوِيقِ لِلرَّبْطِ، حَتَّى وَقَعَ عَلَى الْمَغْمَزِ الْمَلَائِمِ لَصِيدِ الْفَرِيسَةِ فَأَمْسَكَ بِهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا

ما جاء في سورة (الأعراف) وهو قول الله عز وجل: ﴿قَوَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ...﴾. وحين دُلَّهما على الشجرة لا بُدَّ أن يكون آدم قد قال له: إن الله حرَّم علينا أن نأكل منها، فأبدى إبليس تعجُّبه من هذا النهي، ثم افترى فريته.

● قول الله تعالى:

﴿لِيَبْدِيَ لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا...﴾.

في هذه العبارة بيان لوازم غَرَضِ إبليس مِنْ وَسْوَستِهِ لآدم وزَوْجِهِ، إِنَّ غَرَضَهُ إيقاع آدم وزوجه في معصية الله ربَّهما، وإيصالهما إلى دَرَكَةِ الكُفْرِ لَوْ اسْتَطَاعَ، وَبِتَحَقُّقِ هذا الغَرَضِ يَشْفِي غَيْظَهُ مِنْهُمَا وَمِنْ ذُرِّيَّاتِهِمَا.

فَمِنْ ظواهر مَعْصِيَتِهِمَا بأكلهما من الشجرة المحرَّمة عَلَيَّهما تَسَاقُطُ ما كان يَسْتُرُ جُلُودَهُمَا مِنْ كُسُوةٍ عَلَيَّهما، وَبِتَسَاقُطِ هذه الكُسُوةِ السَّاتِرَةُ تَنَكَّشُفُ سَوَاتِهِمَا، وَتَظْهَرُ عَلَيَّهما آثارُ مَعْصِيَتِهِمَا، إِذْ لِكُلِّ مَعْصِيَةٍ آثارٌ تَظْهَرُ بِحَسَبِ سُنَنِ الله السَّيِّئَةِ.

وكانَ إبليسُ لَعَنَةُ الله عليه يَعْلَمُ أَنَّ من آثارِ أكلهما من الشجرة المحرَّمة تَسَاقُطُ أَكْسِيَّتِهِمَا وَبُدُو سَوَاتِهِمَا، الَّتِي كانتْ مَسْتُورَةً بها، فيكونُ بُدُو سَوَاتِهِمَا علامةً ظاهِرةً على مَعْصِيَتِهِمَا، وأِنَّه استَطَاعَ بوسْوَستِهِ أَنْ يُغْوِيَهُمَا، وَيَسْتَنْزِلَهُمَا إلى اسْتِحْقَاقِ عِقَابِ اللَّهِ لهما، وإِخْرَاجِهما من الجَنَّةِ.

فجاءت الكنايةُ في العبارة عَنْ غَرَضِهِ الحَقِيقِيِّ بِذِكْرِ أثرِ ظاهِرٍ من آثاره، وهو بُدُو سَوَاتِهِمَا لهما.

● ﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾: أي: ما سُتِرَ وأُخْفِيَ عَنْهُمَا بِأَكْسِيَّةِ سَاتِرَةٍ لَمْ يَأْتِ في النُّصُوصِ بَيانٌ عنها.

● ﴿مِنْ سَوَآتِهِمَا﴾: السَّوْءَةُ، هي العَوْرَةُ، الْقُبْلُ والدُّبُرُ. وتُطْلَقُ السَّوْءَةُ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ وَأَمْرٍ قَبِيحٍ شَائِنٍ.

وَحِينَ تَظْهَرُ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا يَنْكَشِفُ لَهُمَا أَنَّ إِبْلِيسَ قَدْ خَدَعَهُمَا وَعَرَّرَ بِهِمَا، وَكَانَ أَقْوَى مِنْهُمَا بِمُخَادَعَتِهِ وَحِيلَتِهِ، وَأَنَّهُ شَفَى غَيْظَهُ مِنْ آدَمَ، وَأَنَّهُ كَانَ لَهُ الْعَذْرُ فِي رَفْضِهِ السَّجُودَ لَهُ، فَلِيَتَحَمَلَ آدَمَ وَزَوْجَهُ نَتَائِجَ مَعْصِيَتِهِمَا إِخْرَاجاً مِنَ الْجَنَّةِ، كَمَا طُرِدَ هُوَ بِمَعْصِيَتِهِ مِنْ مَنَازِلِ أَهْلِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وبانْكَشَافِ سَوَاتِهِمَا الْمَادِيَةِ تَنْكَشِفُ سَوَاتُهُمَا النَّفْسِيَّةُ الْمُسْتَعِدَّةُ لِلْسَّقُوطِ فِي الْمَعْصِيَةِ وَازْتِكَابِ الْإِثْمِ.

لقد كان إبليس مُتْلَهِّفًا أَنْ يَرَى أَوَّلَ ظَاهِرَةٍ مِنْ ظَوَاهِرِ مَعْصِيَتِهِمَا، وَهِيَ بُدُو سَوَاتِهِمَا، وَمَا يُصَاحِبُهُ مِنْ حُزْنِهِمَا، وَالْمِهْمَا، وَخَوْفِهِمَا مِنَ الْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ حَذَّرَهُمَا اللَّهُ مِنْ إِبْلِيسَ وَمَكَايِدِهِ، وَقَالَ لآدَمَ كَمَا أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزل):

﴿فَقُلْنَا يَتَّخِذُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْحِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى ۝﴾ (١١٧).

لكنَّ آدَمَ وَزَوْجَهُ قَدْ غَفَلَا عَنْ هَذَا التَّحْذِيرِ، أَوْ لَمْ يَخْرِصَا عَلَى اسْتِذْكَارِهِ دَوَامًا، فَاسْقَطَهُمَا إِبْلِيسُ بوساوسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ فِي الْمَعْصِيَةِ.

● قول الله عز وجل:

﴿وَقَالَ مَا تَهْكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝﴾ (٢٠) ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝﴾ (٢١) ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ ۝﴾.

الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ إِبْلِيسَ قَدْ زَيَّنَ لآدَمَ وَزَوْجِهِ بوساوسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ الْأَكْلَ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَأَنَّهُ قَدَّمَ لَهُمَا عِدَّةَ إِغْرَاءَاتٍ، إِلَّا أَنَّهُمَا قَدْ كَانَا حَذَرَيْنِ فَلَمْ يَسْتَجِيبَا لَهُ، إِلَى أَنْ ظَفِرَ بِمَعْمَزٍ ضَعِيفٍ لَدَيْهِمَا، يَسْتَشِيرُ رَغْبَتَهُمَا فِي أَنْ يَكُونَ

لَهُمَا انْطِلَاقُ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاوَاتِ بِأَجْسَادٍ نُورَانِيَّةٍ، أَوْ أَنْ يَكُونَا خَالِدِينَ فِيهَا هُمَا فِيهِ مِنْ نَعِيمٍ فِي الْجَنَّةِ، إِذْ كَانَا يَعْلَمَانِ أَنَّهُمَا فِي سُكْنَى ابْتِلَاءٍ، لَا فِي سُكْنَى دَوَامٍ وَبَقَاءٍ.

عِنْدِيذِ زَرْعِ الشَّكِّ فِي قُلُوبِهِمَا حَوْلَ الْغَرْضِ مِنْ نَهْيِ اللَّهِ لَهُمَا عَنْ أَنْ يَأْكُلَا مِنَ الشَّجَرَةِ الْمُحَرَّمَةِ، فَجَاءَ هَذَا النَّصُّ مُبَيِّنًا هَذِهِ الْحِيلَةَ الشَّيْطَانِيَّةَ، إِذْ كَانَ قَدْ أَشْعَرَهُمَا بِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا، لَوْلَا أَنْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْهُمَا.

أي: وقال لهما مع ما قدّم لهما من إغراءاته وتَسْوِيلَاتِهِ: ما نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ الْأَكْلِ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، إِلَّا مَنَعَ أَنْ تَكُونَا مَلَكَئِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ.

وَرُبَّمَا قَالَ لَهُمَا إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ يَصِيرُوا نُورَانِيَّيْنَ يَنْطَلِقُونَ فِي السَّمَاوَاتِ بِأَجْسَادٍ نُورَانِيَّةٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَكَلُوا مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ. هَذِهِ هِيَ الْفِكْرَةُ الْإِبْلِيسِيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَكْفُورَةُ، الَّتِي تَجْعَلُ لِلْأَشْيَاءِ طَبَائِعَ ذَاتِيَّةً أَصْلِيَّةً ثَابِتَةً، وَأَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مِنْ خِلَالِهَا.

وَمَنْ يَسْقُطُ فِي أَوْهَامِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ الْبَاطِلَةِ، يَغْتَرُّ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ تَصَارِيفَ خَلْقِهِ مَقْيَدَةً بِالْأَسْبَابِ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَضَعَهَا بِحُكْمَتِهِ فِي الْأَشْيَاءِ، لِيَمْتَحِنَ عِبَادَهُ فِي الْإِيمَانِ بِهِ خَالِقًا مِنْ قَنَوَاتِ الْأَسْبَابِ، وَأَنَّ الْأَسْبَابَ لَيْسَتْ إِلَّا أَوْعِيَّةَ يَمُرُّ الْخَلْقُ الرَّبَّانِيُّ مِنْ خِلَالِهَا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَخَلَقَ مَا شَاءَ دُونَ أَنْ يَمُرَّ خَلْقُهُ مِنْ ظَوَاهِرِ الْأَسْبَابِ، وَلَا وَجَدَ مِنَ الْعَدَمِ الْمَطْلُوقِ بِكَلِمَةٍ: «كُنْ» مَا شَاءَ مِنْ أَكْوَانٍ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ.

إِنَّ إِبْلِيسَ لَمَّا رَفَضَ السُّجُودَ لآدَمَ عَلَّلَ رَفْضَهُ بِأَنْ غُنْصَرَ النَّارُ بِطَبِيعَتِهَا الذَّاتِيَّةِ أَشْرَفُ مِنْ غُنْصَرِ الطِّينِ، فَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ تَكْلِيفُ مَنْ هُوَ أَشْرَفُ فِي غُنْصَرِهِ، أَنْ يَسْجُدَ لِمَنْ هُوَ فِي غُنْصَرِهِ دُونَهُ شَرَفًا.

وفي تَسْوِيلِهِ لآدَمَ وَزَوْجِهِ، زَعَمَ لَهُمَا كاذِباً أَنَّ غُنْصَرَ الشَّجَرَةِ
المَحْرَمَةِ، يُحَوِّلُ الْآكِلَ مِنْهَا إِلَى مَلِكٍ نُورَانِيٍّ يَغْبُرُ أَقْطَارَ السَّمَاوَاتِ بِخِفَّةِ
الْأَنْوَارِ، أَوْ الْأَزْوَاجِ الْمَجْرَدَةِ، أَوْ يَجْعَلُهُ خَالِداً يَعِيشُ أَبَداً دُونَ أَنْ يُذْرِكَهُ
الْمَوْتُ، وَأَوْهَمَهُمَا أَنَّ اللَّهَ لَا يُرِيدُ لَهُمَا أَنْ يَكُونَا مَلَكَينِ، أَوْ مِنَ الْخَالِدِينَ،
فَحَرَّمَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَأْكُلَا مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، وَأَلْقَى فِي تَصَوُّرِهِمَا أَنَّهُ يُوجَدُ فِي
الْكُونِ مَخْلُوقُونَ خَالِدُونَ، بقوله لهما: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

لَا شَكَّ أَنَّ قَبُولَ هَذِهِ الْفِكْرَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ يُوَقِّعُ فِي إِحْدَى مَعْصِيَتَيْنِ، هُمَا
مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَايِرِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ.

فَإِنْ قَبِلَا فِكْرَةَ أَنَّ الشَّجَرَةَ ذَاتُ غُنْصَرٍ ذَاتِي فِعَالٍ فِي أَنْ يَكُونَا مَلَكَينِ،
أَوْ يَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، فَقَدْ جَعَلَا طَبَائِعَ الْأَشْيَاءِ شُرَكَاءَ لِلَّهِ فِي كَوْنِهِ، وَمَا
نَظَرُ أَنْ آدَمَ وَزَوْجَهُ قَدْ سَقَطَا فِي هَذِهِ الْكَبِيرَةِ الشَّرِكِيَّةِ.

وَأِنْ تَصَوَّرَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي جَعَلَ فِي الشَّجَرَةِ هَذِهِ الْمِيزَةَ
الْخَاصَّةَ، وَأَنَّهُ حَرَّمَ عَلَيْهِمَا الْأَكْلَ مِنْهَا لِثَلَا يَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ يَكُونَا مِنَ
الْخَالِدِينَ، فَقَدْ وَقَعَا فِي غَفْلَةٍ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمَا، عَلَيْهِمْ بِكُلِّ حَرَكَةٍ
يَتَحَرَّكَانِهَا، وَكُلِّ سَكْنَةٍ يَسْكُنَانِهَا، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ لِهَذِهِ الشَّجَرَةِ هَذِهِ الْمِيزَةُ
بَخَلَقِ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَا مَلَكَينِ، أَوْ يَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، فَإِنَّهُ
جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ، لَا يُمَكِّنُهُمَا مِنَ الْأَكْلِ مِنْهَا، إِذَا أَرَادَا مَبَاشَرَةَ
ذَلِكَ، أَوْ يَسْلُبُ الشَّجَرَةَ مِيزَتَهَا، فإِذَا ارَادَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُمَكِّنُ
مَعَارَضَتَهَا.

وَالَّذِي أَوْقَعَهُمَا فِي هَذِهِ الْغَفْلَةِ شِدَّةُ رَغْبَتِهِمَا بِأَنْ يَكُونَا مَلَكَينِ، أَوْ بِأَنْ
يَكُونَا خَالِدِينَ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ شِدَّةَ الرَّغْبَةِ تَتَحَوَّلُ إِلَى هَوًى، وَمِنْ شَأْنِ الْهَوَى
أَنْ يُغْشِيَ عَلَى مَرَائِزِ التَّفَكِيرِ الصَّحِيحِ، وَيَجْعَلَ الْإِنْسَانَ يَتَصَرَّفُ بِمُوجِّهِ مِنْ
رَغْبَاتِ نَفْسِهِ، لَا بِمُوجِّهِ مِنْ فِكْرِهِ وَعَقْلِهِ وَإِيمَانِهِ، وَمِنْ هُنَا يَسْقُطُ الْمُؤْمِنُونَ
فِي أَوْحَالِ الْمَعَاصِي وَالْخَطَايَا.

وَوَجَّمَ آدَمَ وَزَوْجَهُ عَنْ قَبُولِ مَا سَوَّلَ إِبْلِيسُ لَهُمَا بِهِ، فَلَجَأَ إِبْلِيسُ إِلَى حِيلَةٍ حَلِيفَ الْإِيمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ، فَشَرَعَ يُقْسِمُ لَهُمَا بِرَبِّهِ كَاذِبًا، وَيُؤَكِّدُ أَقْسَامَهُ، وَيَقُولُ لَهُمَا: إِنِّي لَكُمْ لِمَنِ النَّاصِحِينَ.

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِمَنِ النَّاصِحِينَ﴾ (٢١).

فعل «قَاسَمَ» من الصَّبَغِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى المشاركة، ولكنها قد تخرجُ عن هذه الدلالة، للدلالة على المبالغة والتشديد، في مضمون الحدث الذي دُلَّ عليه الفعل، والظاهر أنَّ عبارة ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ من هذا القبيل، أو أنَّهما طَلَبَا منه أن يُقْسِمَ على ما ذكر لهما، فأقسم كاذباً مُفْتَرِياً، ولم يَكُنْ لآدم وزوجه خِبرَةٌ سابقةً بالكذابين المنافقين المُفْتَرِينَ، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ قد حَذَرُهُمَا من مكايده بصورةٍ عامَّةٍ فلا عُدْرَ لَهُمَا.

ولم يكتفِ إبليسُ بالتَّشْدِيدِ في الْقَسَمِ، بل شَدَّدَ أيضاً في تأكيد المُقْسَمِ عليه بعدة مؤكَّدات هي: «إِنَّ - والجملة الاسمية - واللَّامُ المرحَلَةُ» في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لِمَنِ النَّاصِحِينَ﴾.

وعلى الرُّغم من كلِّ هذه التأكيدات فإنَّ آدمَ وزوجَهُ لم يُسْرِعَا في الاستجابة لدَعْوَتِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ.

فاتَّخَذَ إبليسُ معهما أسْلُوبَ الْخُطُوبِ الْإِزْلَاقِيَّةِ الْمُتَتَابِعَةِ، وَالتَّدْلِيَةِ شَيْئاً شَيْئاً في بثر المعصية، ومع كلِّ مَرْحَلَةٍ من مراحلِ التَّدْلِيَةِ إغراءاتٌ مِنْ مَنَابِعِ التَّغْرِيرِ وَالْخِدَاعِ وَالْإِطْمَاعِ بِالْبَاطِلِ.

دَلَّ عَلَى هَذَا قولُ الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ...﴾ (٢٢).

﴿فَدَلَّاهُمَا﴾: أي: فَبَعَدَ أَنْ شَدَّدَ فِي الْحَلِيفِ لَهُمَا، وَأَكَّدَ لَهُمَا أَنَّهُ لَهُمَا لِمَنِ النَّاصِحِينَ، أَخَذَ يُنْزِلُهُمَا شَيْئاً فَشَيْئاً فِي بثر المعصية، أو مَهْوَاةٍ

الْمَعْصِيَةِ، لِيَجْعَلَهُمَا عِنْدَ حَدِّهَا تَمَامًا لَيْسَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهَا إِلَّا الْمَلَامَسَةُ وَعِنْدُنَا يَسْهُلُ جَدًّا إِرْزَاقُهُمَا، وَإِيقَاعُهُمَا فِي الزَّلَلِ.

يُقَالُ لُغَةً: دَلَّى الدَّلْوَ وَأَذْلَاهُ، أَي: أَرْسَلَهُ فِي الْبَثْرِ بِشَطْنِهِ.

ويقال: دَلَّى الشَّيْءَ فِي الْمَهْوَةِ إِذَا أَرْسَلَهُ فِيهَا.

ومعلومٌ أَنَّ التَّدْلِيَةَ لَا تَكُونُ رَمْيًا أَوْ قَذْفًا، وَإِنَّمَا تَكُونُ إِرْسَالًا بِرَفْقٍ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَهَذِهِ هِيَ وَسِيلَةُ الشَّيْطَانِ، إِنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى أَسْلُوبِ الْخُطُوبِ الْمُتَتَابِعَاتِ تَنَازُلًا إِلَى الْحُضِيضِ، أَوْ إِلَى الذُّرْكَ الْأَسْفَلِ مِنَ الْجَحِيمِ.

إِنَّ الْأَدِيبَ الذَّوَاقَ لِلْعِبَارَاتِ الْفَنِّيَّةِ الْأَدَبِيَّةِ، لَيَجِدُ فِي عِبَارَةِ ﴿فَدَلَّاهُمَا﴾ إِنْدَاعًا بَالِغَ الْغَايَةِ، فِي الْمِطَابَقَةِ بَيْنَ الْعِبَارَةِ الَّتِي هِيَ فِي غَايَةِ الْإِيْجَازِ، وَبَيْنَ الْفِكْرَةِ الْمُرَادَةِ ذَاتِ الْمَرَامِيِّ وَالْأَبْعَادِ الْوَاسِعَةِ.

إِنَّ تَشْبِيهِ عَمَلِيَّةِ الْإِغْوَاءِ ذِي الْخُطُوبِ الْمُتَتَابِعَاتِ فِي الْإِنْحِدَارِ بِالتَّذْلِيَةِ فِي بَثْرِ، أَوْ فِي مَهْوَةٍ مِنْ أَوَّلِ التَّشْبِيْهِاتِ وَأَبْرَعِهَا وَأَدْقُهَا.

وَاسْتِعْمَالُ فِعْلِ «دَلَّى» كَانَ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ.

﴿يَغْرُورُ﴾: الْغُرُورُ، مَصْدَرُ «غَرَّ» تَقُولُ لُغَةً: «غَرَّهْ يَغْرُهُ غَرًّا، وَغُرُورًا، وَغَرَّةً»، أَي: خَدَعَهُ وَأَطْمَعَهُ بِالْبَاطِلِ.

«الْبَاءُ» لِلْمَلَابَسَةِ وَالْمَصَاحِبَةِ، أَوْ سَبَبِيَّةٍ. أَي: دَلَّاهُمَا تَذْلِيَةً مَصْحُوبَةً بِغُرُورٍ، أَوْ تَذْلِيَةً بِسَبَبِ الْغُرُورِ الَّذِي كَانَ يَغْرُهُمَا بِهِ.

فَالْمَعْنَى: فَأَخَذَ إِبْلِيسُ يُنْزِلُهُمَا فِي مَهْوَةِ الْمَعْصِيَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا، تَذْلِيَةً مَصْحُوبَةً بِأَسْبَابِ خِدَاعٍ مِنْهُ لَهُمَا، وَإِطْمَاعٍ لَهُمَا بِالْبَاطِلِ.

● قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ...﴾ (٢٢)

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾: أي: فَحِينَ ذَاقَا طَعْمَ مَاكُولٍ مَا مِنَ الشَّجَرَةِ.
«لَمَّا» حِينِيَّةٌ ظَرْفِيَّةٌ تَخْتَصُّ بِالْمَاضِي.

الذَّوَاقُ: هو الإِخْسَاسُ بِطَعْمِ المَأْكُولِ أو المشروب.

﴿بَدَتْ لَهُمَا﴾: فعل «بَدَا» جوابُ «لَمَّا» الحِينِيَّةُ الظَرْفِيَّةُ.

﴿سَوَّاهُمَا﴾: أي: عورَاتهما، بِسُقُوطِ الأكْسِيَّةِ السَّاتِرَةِ لهما.

وقد دَلَّتْ عبارة: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَّاهُمَا﴾ عَلَى أَنَّ نَزَعَ لِبَاسِهِمَا عَنْهُمَا وَبُدُو سَوَّاهُمَا قَدْ كَانَ عَقِبَ تَذَوُّقِهِمَا مِنَ الشَّجَرَةِ المَحْرَمَةِ عليهما مباشرةً، دون تأخير.

وكان هذا أَوَّلَ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ عُقُوبَتَيْهِمَا، قَبْلَ مُحَاكَمَتَيْهِمَا عَلَى خَطِيئَتَيْهِمَا. وَكَانَ عَلَامَةً عَلَى أَنَّهُمَا سَيُخْرِجَانِ مِنَ الْجَنَّةِ.

ولكن هَلْ طَرَحَا مَا فِي أَفْوَاهِهِمَا مِنْهَا، عِنْدَ مَشَاهِدَةِ أَثَرِ هَذَا الذَّوَاقِ؟.

أقول: لَقَدْ دَلَّ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) عَلَى أَنَّهُمَا أَتَمَّا أَكَلَا مَا ذَاقَاهُ مِنْهَا، فَقَدْ جَاءَ فِيهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَّاهُمَا...﴾ (٢١).

وَيُظْهِرُ أَنَّ الْبُدُوَ الَّذِي كَانَ عَقِبَ الذَّوَاقِ قَدْ كَانَ بُدُوًا أَوَّلِيًّا وَجُزْئِيًّا، وَأَنَّ الْبُدُوَ الَّذِي كَانَ بَعْدَ الْأَكْلِ قَدْ كَانَ نَهَائِيًّا وَكَامِلًا.

وَيُظْهِرُ أَنَّ لَذَّةَ طَعْمِ الشَّجَرَةِ غَلَبَتْ إِرَادَتَيْهِمَا فَأَتَمَّا الْأَكْلَ، وَلَمْ يَمْلِكَا أَنْفُسَهُمَا لِللَّفْظِ مَا فِي أَفْوَاهِهِمَا مِنَ الشَّجَرَةِ اكْتِفَاءً بِمَا حَصَلَ لَهُمَا مِنْ ذَوَاقٍ، وَاتِّعَاضًا بِبُدُوِ أَثَارِهِ، بَلْ تَابَعَا أَكْلَ مَا فِي أَفْوَاهِهِمَا وَابْتِلَاعَهُ.

● قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَطَافَا بِحُتُوفَيْنِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَوْقِ الْجَنَّةِ...﴾ (٢٢):

﴿وَطَافَا﴾: أي: وَشَرَعَا آدَمُ وَزَوْجُهُ. طَفِقَ: مِنْ أَفْعَالِ الشَّرْعِ،

تَعْمَلُ عمل «كان» إلا أنْ خَبَرَهَا يَجِبُ أن يكون جُمْلَةً فعليةً من مضارع مجزئ من «أن» المصدرية، وفاعله ضمير يعودُ على الاسم قبله.

﴿يَخْصِفَانِ﴾ : أي : يُلْصِقَانِ على جُلُودِ سَوَاءِيهما من ورقِ أشجار الجنة، لسترهما.

واخْتَفَى إبليسُ بعدَ أنْ غَرَّرَ بهما وَخَدَعَهُما، حتَّى أوقَعَهُما في مَغْصِيَةِ رَبِّهما.



● قول الله عز وجل :

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ فَلَا رِبَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَرَحِمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِنَّ حِينِ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

في هذه الآيات بيانُ مُسَاءَلَةِ اللَّهِ عز وجلَ لآدمَ وَحواءَ بشأنِ مَغْصِيَتِهِما، وأَكْلِهِمَا مِنَ الشَّجَرَةِ التي حرَّمَ عليهما أنْ يَقرَّبَاها. وبيانُ مُحَاكَمَتِهِ لهُمَا، وَحُكْمِهِ عليهما بالإخراجِ من الجنة، وبالنَّهْوَطِ إلى الأرض، وبأنْ تَكُونُ في الأرضِ رَحْلَةً امتحانهما، وامتحانِ ذُرِّيَّاتِهِما الَّذِينَ قَضَى اللَّهُ أنْ يَتَنَاسَلُوا منهما، وبأنْ تكون الأرضُ مستقرًّا ومتاعاً لهم إلى حين.

وأبان الله عز وجلَ لهما أنْ ذُرِّيَّاتُهُما سيكونون في رحلَةِ امتحانهم مُتَنَافِسِينَ، مُتَحَاسِدِينَ، مُتَخَالِفِينَ، فيكونون بسبب ذلك متعادين مُتَقَاتِلِينَ، بَغْضُهُمْ لِبَغْضِ عَدُوٍّ.

وخطابُ الله لآدمَ وَحواءَ، قد كان مُوجَّهاً لهُمَا، ولَمَن أودَعَ فيهما من ذُرِّيَّاتِ سَتَنَاسَلٍ منهما، حتَّى آخِرَ مولودِ إنسانٍ في الأرض.

● ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾: النداء برفع الصوتِ وَمَدَّهُ إِنَّمَا يَسْتَعْمَلُ لتبليغ البعيد، أو مَنْ هو مُنَزَّلٌ مُنَزَّلَةً البعيد.

ويظهرُ أَنَّهُمَا لَمَّا عَصَيَا واكتشفا أثر المعصية بُدُوْ سَوْءَاتِهِمَا إِبْتَعَدَا عَنْ مكان شجرة الابتلاء الَّتِي أَكَلَامْنَهَا، وَأَخَذَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ اسْتِخْيَاءً مِنْ اللَّهِ جُلَّ جَلَالُهُ.

فخاطَبَهُمَا اللَّهُ بحسب حالة أنفسهما، فناداهُما.

● ﴿.. أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٢):

اشتملت هذه العبارة في جلسة محاكمة آدم وزوجه على معصيتهما على استفهامٍ تَقْرِيرِيٍّ مِنْ شَقِيْنٍ، فيهما معنى الإنكار عليهما:

الأول: استفهامٌ لانتزاع إقرارِهِمَا، بِأَنْ رَبَّهُمَا قَدْ نَهَاَهُمَا عَنْ الاقتراب من الشجرة المحرَّمة، والأَكْلِ منها، وقد خالفا فاقترفا معصيتهما.

والإجابة الصَّادِقَةُ على هذا الاستفهام تكونُ بعبارة: «بَلَى» لِأَنَّ الاستفهام مُسَلِّطٌ عَلَى منفيٍّ، مع أَنَّهُ فِي الواقع لم يَكُنْ منفيًّا، بل كان أمراً حقًّا، فقد نهاهما الله عز وجل عن أَنْ يَقْرَبَا مِنْهَا، فخالفا نَهْيَهُ.

الثاني: اسْتِفْهَامٌ لانتزاع إقرارِهِمَا، بِأَنْ رَبَّهُمَا قَدْ حَذَرَهُمَا مِنْ إبليس الشيطان، وَمِنْ مكايده، وَأَبَانَ لَهُمَا أَنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ لَهُمَا، وَأَنَّهُ سَيَسْعَى بِكُلِّ مَا لَدَيْهِ مِنْ حيلة ووسيلة، لإسقاطهما في الخطيئة، الَّتِي تكون سبباً في مُعَاقَبَتَيْهِمَا بالإخراج من الجنة. وقد ذكر الله إبليس باسمه الجديد: الشيطان والإجابة الصادقة على هذا الاستفهام تكون أيضاً بعبارة «بَلَى» لِأَنَّهُ مُسَلِّطٌ عَلَى منفيٍّ، والواقع لم يكن منفيًّا، بل كان أمراً حقًّا، وقد خالفا مقتضى التحذير فاستجابا لتسويلاته فسَقَطَا فِي الخطيئة.

وطوى النصّ إجابتهما بعبارة «بلى» إذ جاء بَعْدَهُ ما يَدُلُّ على اعترافهما بذنبيهما. وبإقرارهما بأنَّهُما عصَيَا، وبأنَّهُما بِمَعْصِيَّتِهِمَا قَدْ ظَلَمَا أَنْفُسَهُمَا.

ومن الملاحظ أن الله عزَّ وجلَّ لَمَّا نهاهُما عن الاقتراب من شجرة الابتلاء، ذَكَرَهَا بلفظ الإشارة الموضوع للمشار إليه القريب، إذ قال لهما:

● ﴿.. وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩).

لكنه جَلَّ جَلَالُهُ في سُؤالِ مُحَاكَمَتِهِمَا قَالَ لهما:

● ﴿أَلَمْ... أَتَهْكَمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ...﴾ (٢٣).

فذكرها بلفظ الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد.

فدَلَّ هذا الإجراء البياني على أَنَّهُمَا ابْتَعَدَا بَعْدَ الأكل منها، وانكشاف سوءَاتِهِمَا، عن مَوْقعِ خَطِيئَتِهِمَا ابْتِعَاداً يَصِحُّ معه أن يُشَارَ إلى الشجرة باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، وَيَصِحُّ معه أن يخاطبا بالنداء الذي يكون للبعيد.

ومعلوم أن من طبيعة المذنب إذا ظهرت عليه بعض أمارات الذنب، أن يَبْتَعدَ عن المكان الذي ارتكب فيه ذنبه، وهذه الحركة تكون منه حركة تلقائية تُوجِّهُها البديهة دون أناة في التفكير.

ولم يَكُنْ من آدم وزَوْجِهِ في جَلْسَةِ مُحَاكَمَتِهِمَا إلَّا الاعترافُ لِرَبِّهِمَا بأنَّهُما قَدْ ظَلَمَا أَنْفُسَهُمَا، وَأَلْحَقَا الاعترافَ بِطَلَبِ مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، واستعطافه بأنَّه إن لم يَغْفِرْ لهما ولم يَرْحَمْهُمَا فَإِنَّهُمَا لَيَكُونَانِ مِنَ الْخَاسِرِينَ حتماً، لأنَّ خَطِيئَتَهُمَا تقتضي خَسَارَتَهُمَا بمقتضى أحكام العدل الربَّانية.

● ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣).

خاطبا الله جَلَّ جَلَالُهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ لهما، وَعُبُودِيَّتِهِمَا له، انكساراً ودُلاً

واستعطافاً، وأبانا في اعترافهما أنَّهُمَا ظَلَمَا أَنْفُسَهُمَا، باعتبار أن مَعْصِيَتَهُمَا لم تضرَّ الله شيئاً، بل هُما بمَعْصِيَتِهِمَا الجانيان، وهما المجنيُّ عليهما، إذ عَرَضَا أَنْفُسَهُمَا للعقوبة التي يَخْسِرَانِ بها البقاء في الجنة، ويتَحَمَّلَانِ بها متاعِبَ الشَّقَاءِ في رحلة الابتلاء في الأرض.

واستَجْدِيَا المَغْفِرَةَ، وَرَحْمَةً زَائِدَةً على المغفرة، بطريقة مليئة بالتذلل والأدب مع رَبِّهِمَا.

ورَجَّحَا في هذا الموقف جانب الرِّجَاءِ، باستعمال حرف الشرط «إِنْ» الذي يُسْتَعْمَلُ في المشكوك فيه، فقالا: ﴿...وَلَا تَقِفِرْ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) ﴿فحرف «إِنْ» دخل على الْمَنْفِيِّ، وهذا المنفيُّ مَشْكُوكٌ فيه، فيكون نَقِيضُهُ مَرْجُوءاً، وهو المغفرة، وَالرَّحْمَةُ الزَّائِدَةُ عليها.

● ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: هذه الجملة جواب الشرط «إِنْ» وقد جاءت مُؤَكَّدَةً على تقدير وقوع الشرط وهو عدم المغفرة وعدم الرحمة، لكنَّ وَقُوعَ هذا الشرط مشكوكٌ فيه، إذ المرجوُّ أن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمَا وَيَرْحَمَهُمَا.

﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: أي: من ضمن جماعات الخاسرين الذين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ من قبلنا، كإبليس وسائرِ كَفَرَةِ الْجَنِّ، ومن بعدنا من الجنِّ ومن ذُرِّيَّاتنا من الإنس.

عندئذٍ أَضْدَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حُكْمَهُ عليهما:

● ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢٤) ﴿.

وفي هذا الحكم الصَّادِرُ عليهما، وعلى ذُرِّيَّاتِهِمَا الَّذِينَ سَيَتَنَاسَلُونَ مِنْهُمَا، نَقْلٌ لِرَحْلَةِ الابتلاء من الجنة، الْمُعَدَّةِ في الْخُطَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ لأن تكون إحدى دَازِيِ الجزاء، إلى الأرض التي نحن الآن فيها، والمُعَدَّةِ في أصل الْخُطَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، لأن تكون هي مَكَانَ الابتلاء.

وبإسكان آدم وزوجه أولاً في الجنة، أعلمنا الله عز وجل عن طريق التجربة، أن الحكمة تقضي بأن لا تكون الجنة هي دار الابتلاء والامتحان، بل ينبغي أن تكون دار جزاء فقط.

وأعلمنا أيضاً أن المسكن الدائم للإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم هي جنات النعيم، بشرط أن يجتاز رحلة امتحانه بنجاح، ولو من أدنى الدرجات، التي يكافأ عليها بأدنى درجات الجنات، وشروط استحقاق دخول الجنة والخلود فيها هيّن سهل، إنه الإيمان برؤية الله لكونه، وبإلهيته لعباده، دون أن يشرك الممتحن من العباد بالله شيئاً في ذلك، مع قيامة بما يدل على أنه غير مستكبر ولا متمرّد على طاعته.

أما من أخل من العباد الممتحنين بهذا الشرط، فالحكمة تقضي بمعاقبته في دار عذاب معدّة للكافرين المجرمين الذين يقضى عليهم بأن يخلدوا فيها.

ومن عصى غير مستكبر ولا متمرّد على طاعة ربه في التكليف العملية، فإنه يستحق العقاب بالعدل على مقادير معاصيه، إذا لم يشملته عفو الله أو غفرانه.

وبتقديم تجربة الامتحان في الجنة والإخراج منها بالمعصية، يكشف الله عز وجل لنا، أن الحكمة التي ينبغي أن يعمل بها دوماً، تقضي أن يكون الامتحان في مكان ما آخر خارج الجنة، لتكون الجنة بغد ذلك ثواباً وجزاء لمن يكون أهلاً للخلود فيها.

فالخلود السعيد لا يُكتسب بالأكل من شجرة، أو مادة ما فيها إكسير الخلود السعيد، وإنما يكون بالعمل الإرادي الذي يتحقق به رضوان الله رب الأكوان، والمهيمن على كل شيء فيها بعلمه وحكمته وقدرته، والمجري أحداثها بقضائه وقدره وخلقته.

وهو الذي يُمنَحُ بحكمته الخلود السَّعِيدَ، لِلَّذِينَ يَجْتَازُونَ رحلة امتحانهم على ما شرع لهم، من الذين وَضَعَهُمْ موضع الامتحان، ليحاسبهم، وَيُفْصِلَ القضاء بَيْنَهُمْ، ويجازيهم يوم الدين.

أَمَّا الَّذِينَ قَابَلُوا نِعْمَةَ الله وتفضيلهم في الخلق وتكريمَهُ لَهُمْ بالكفران والجُحود، والاعتراض على حكمته في تكاليفه بمقتضى ربوبيته وإلهيته، فلهم دار عذابٍ مضادةٌ ومُنَاقِضةٌ في صِفَاتِهَا لدار النعيم، وجزاؤُهُم الخلود فيها، سواء أكانوا من الجنِّ أم من الإنس.

إنَّ إجراء تجربة الابتلاء في الجنة، ثم الانتقال منها إلى الأرض، بَعْدَ مَعْصِيَةِ الْإِنْسَانِ فيها، تُشَبِّهُ عَمَلِيَّاتِ النَّسْخِ في الأحكام التشريعية، الَّتِي يُعَلِّمُنَا اللهُ بِهَا التَّغْيِيرَ في قراراتنا بحسب مُقْتَضَيَاتِ الْحِكْمَةِ، وَيُغَطِّينَا بِهَا قُدْوَةً حَسَنَةً من أَعْمَالِهِ الْحَكِيمَةِ جَلَّ جَلَالُهُ، حَتَّى لَا نَتَعَصَّبَ لِقَرَارَاتٍ وَأَحْكَامٍ نَبْتُهَا، وَحَتَّى لَا نَتَشَبَّثَ بِهَا، إِذَا اكْتَشَفْنَا مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا وَأَفْضَلُ لتحقيق المطلوب، بل الواجب علينا أَنْ نُعَدِّلَ إِلَى الْأَصْلَحِ دَوَامًا، صَاعِدِينَ عَلَى دَرَجَاتٍ سَلَّمَ ارْتِقَائِي فِي أَنْظِمَتِنَا وَتَرَاتِينَا الْإِدَارِيَّةِ، وَأَسَالِينَا الْحَضَارِيَّةِ.

إِذَا كَانَ الرَّبُّ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْحَكِيمُ فِي اخْتِيَارَاتِهِ، يَنْسَخُ فِي أَحْكَامِهِ، مِرَاعَاةً لِمَا هُوَ الْأَحْكَمُ وَالْأَصْلَحُ، وَلِيضْرِبَ لَنَا مَثَلًا مِنْ نَفْسِهِ، حَتَّى نَقْتَدِيَ بِهِ، فَمَاذَا يَجِبُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ دَوُوْ عُلُومٍ قَاصِرَةٍ، وَنَظَرَاتٍ ضَعِيفَةٍ مَخْدُودَةٍ كَلِيلَةً!!

● ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: خِطَابٌ لِآدَمَ وَزَوْجِهِ، وَذُرِّيَّاتِهِمَا فِيهِمَا، لِأَنَّ مُصْغَرَاتِ أَنْسَالِهِمَا مَوْجُودَاتٌ فِي ظَهْرِ آدَمَ، وَعِنْدَ حَوَاءَ مُصْغَرَاتِ الْبَيُوضِ، بِأَعْجُوبَةٍ إِعْجَازِيَّةٍ لَا يَقْضِي بِتَكْوِينِهَا إِلَّا رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

● ﴿أَهْبِطُوا﴾: أَمْرٌ تَكْوِينِيٌّ فِيهِ إِشْعَارٌ بِالْعُقُوبَةِ لَهُمَا، وَبِإِجْرَاءِ الْأَحْكَامِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى ذُرِّيَّاتِهِمَا.

● ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: جملةٌ حالِيَّةٌ، وهي من نَوْعِ الحالِ المقدَّرة، أي: والحال أنه سيكون بعضُكم عدوًّا لبعض. إنَّ التكوينَ النفسيَّ للنَّاسِ القائم على حُرِّيَّةِ إرادةِ الأفراد، وعلى اختلافِ المصالح والأهواء والشهوات والمطالب، وعلى تعارضها وتباينها مع التَّزاحمِ والتنافسِ وما في النفوس من تَحاسُدٍ، من شأنه أن تَظْهَرَ بَيْنَهُمِ العداوات، وهي عداوَاتٌ تكونُ بين الأفراد، وبين الجماعات الصغرى، ثم بين الأقسام والأمم، وهي تَظْهَرُ في شَتَّى أنواعِ سلوكهم وتحركاتهم، حتَّى تَصِلَ إلى مكاييد كثيرة بينهم، وإلى خُصُومات شديداً، ثم إلى مقاتلات وحُرُوب كبرى.

وهكذا كان واقع حال الناس في تاريخهم الطويل.

وَلَسْتُ أرى أَنَّ الشيطان له دخل في عموم: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إذ قد جاء بيانُ عداوَتِهِ لآدم وزوجه في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَقُلْنَا يَتَّخِذُكُمْ هَذَا عَدُوًّا لَّكُمْ وَلِرَزْوِجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧).

وفي غيره أيضاً، وخاطب الله الناس جميعاً بأنَّ الشيطان لهم عدوٌّ مُبِينٌ في عِدَّةِ نصوص.

فالعداوة المرادة هنا هي العداوة بين الناس الذين تَنَحَّدِرُ أُنْسَالُهُمْ من آدم وحواء. والله أعلم.

● ... وَلَكِنَّ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا وَمَتْنًا إِلَى جَيْنٍ ﴿٢٤﴾:

اشتملت هذه الجملة على بيان الفقرة الثانية من المادَّة الأولى من قرار الحكم. وهي تتعلَّقُ بالمكان المنقول إليه، لاستكمال رحلة الابتلاء بالنسبة إلى آدم وحواء، وابتداء رحلة الابتلاء بالنسبة إلى كلِّ موضوع مَوْضِعِ الامْتِحَانِ من ذُرِّيَّاتِهِمَا.

والمكان المنقول إليه هي الأرض التي نعيش عليها، والتي كان الله تبارك وتعالى وجلّت حكمته قد أعدّها إعداداً ملائماً لظروف الامتحان الأمثل، بحسب خصائص الإنسان الجسديّة، والفكريّة، والنفسية.

● ﴿مُسَفَّرٌ﴾: أي: مكانٌ استتقرار مُؤَقَّت، مُقَدَّر بإحكام لسُكَّانه، حتّى انتهاء آجالهم.

● ﴿وَمَتَّعٌ﴾: المتاع: كلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ به، وَيُتَبَلَّغُ به، وَيَتَزَوَّدُ، وغايته الفناء والانقطاع.

بخلاف «النعيم» الذي جاء وصفاً لما في الجنة من لذات وأنواع سعادات، فهو مُتَجَدِّد دوماً لا يَنْقَطِع، وليس لِتَوَارِدِ أفرادِه نهاية، لأنَّ أهلها خَالِدُونَ فيها.

● ﴿إِلَىٰ جَنَّةٍ﴾: أي: إلى زَمَنِ مُحَدَّدٍ بقضاء الله وَقَدَرِهِ، لكل فَرْدٍ في الحياة الدنيا، وللحياة الدنيا كُلِّها.



قول الله عز وجل:

● ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

اشتملت هذه الآية على المادّة الثانية من قرار الحكم، فقد دلّ بدّوها بفعل: ﴿قَالَ﴾ على أنها مادّة ثانية من القرار الربّاني.

وقد خاطب الله عز وجل في هذه الآية أيضاً آدم وزوجّه وذريتهما وهم في عالم الدّر.

﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾: أي: فيها تكون حياة ابتلائكم.

﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾: أي: فيها يكون موتكم، فلا تُنْقَلُونَ إلى كوكب

آخر لاستكمال رحلة امتحانكم.

﴿وَمِنْهَا تُخْرِجُونَ﴾ : أي: ومن هذه الأرض تُخْرِجُونَ يَوْمَ بَغْيِكُمْ للحساب، وفضل القضاء، وتحقيق الجزاء.

وجاء في القراءة المتواترة الأخرى: ﴿وَمِنْهَا تُخْرِجُونَ﴾ بالفعل المبني للمعلوم، وبين القراءتين تكاملٌ فكري.

فقراءة ﴿تُخْرِجُونَ﴾ بالفعل المبني لما لم يُسمَّ فاعله دلَّت على أن الله جلَّ جلاله يُخْرِجُهُم بِالْبَغْيِ من الأرض التي قُبِروا فيها.

وقراءة ﴿تُخْرِجُونَ﴾ بالفعل المبني للمعلوم دلَّت على أنهم يُطَاوَعُونَ، فَيُخْرِجُونَ خُرُوجاً جَبْرِيًّا، لا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَعْصِيَ إرادة الخالق فيه.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الثاني

من دروس السورة والحمد لله على معونته وتوفيقه



(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة

وهو الآيات من (٢٦ - ٣٦)

قول الله عز وجل خطاباً لبني آدم:

● ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُورِي سَوَاءَ قَتْمٍ وَرِيشًا وَلِيَاسُ النَّفَقَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنَیْ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِيَاسُهُمَا لِیَرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَةً وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ

عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَبْقَىٰ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَفِيَّ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَبْقَىٰ عَادَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَفْضُونَ عَلَيْكُمْ مَا بَقِيَ فَقَبُلْ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾

تمهيد:

تضمن هذا الدرس فيما ظهر لي قصة الدين الذي كان هدى لبني آدم الأولين، وقد اشتمل على الأسس العامة للدين الذي جاء به جميع رسل الله من بعد آدم لأمتهم، وبلغه كل رسول لأمتيه، وأخيراً ختم الله به رسالاته للناس أجمعين، بما أنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، برسالة عامة شاملة تامة، بعثه الله بها للناس أجمعين بدءاً من بعثته حتى قيام الساعة.

ويظهر لي الربط بين الدرس الثاني وهذا الدرس الثالث، إذا لاحظ أن الدرس الثاني قد انتهى ببيان أن آدم وحواء أهبطا من الجنة عارين جسدياً، بسبب خطيئتهما التي تعرياً بها نفسيهما وسلوكياً عما يقيهما من عقاب الله، إذ سقطت عنهما بالمعصية وقايتهما، وبذت لهما سوءات إثمهما، تأثراً بوساوس وتسويلات إبليس الشيطان، الذي هو عدو لهما ولذريتهما، فكانت مكاييد إبليس الشيطان، هي السبب الذي جعل إرادتهما

الحرَّتَيْنِ تختاران ارتكَابَ الخطيئةِ، طمعاً في أن يكونا مَلَكَينِ أو يكونا مِنَ الخالدين، كما وسوسَ لهما الشيطان، وقد تسبَّبَ ارتكابهما الخطيئة بالأكْثَل من الشجرة المحرمة، في نَزَعِ أَكْسِيَّتَيْهِمَا المادِّيَّةَ عنهما، وكان هذا النَزْعُ ظاهرة من ظواهر العقاب المعجَّل لهما، قَبْلَ مُحَاكَمَتَيْهِمَا، وكان مُمَآثِلًا لِنَزْعِ لِبَاسِ التقوى عنهما، وكان سَبَباً في إخراجهما من الجنة إلى الأرض، لِيَسْتَكْمِلَا رحلة امتحانِهما عَلَيْهَا، ولتبدأ دُرِّيَّاتُهُمَا رِحَالَتِ امتحانهم عليها.

وقد جاء الدرسُ الثالثُ مُبْتَدَأً بِبَيَانِ بَدْءِ رِحَالَتِ امتحان بني آدم بمئة الهداية لصناعة الألبسة السَّائِرَةِ للسُّوءَاتِ وسائر الأَجْسَادِ، وصِنَاعَةِ الرِّيَاسِ، وهو الأَثَاثُ الْفَآخِرُ وكلُّ ما فِيهِ رِفَاهِيَّةٌ لِلْعَيْشِ، والهداية لِمَا يَبْقَى من عَذَابِ الله يَوْمَ الدِّينِ، من اعتقَادٍ أو خُلُقٍ أو عمل ظاهِرٍ أو باطن، وهذا الواقِي شبيهة بالأَكْسِيَّةِ والدروع الواقية، والألبسة السَّائِرَةِ لِلْعَوْرَاتِ، وهو في الحقيقة خَيْرٌ وَأَعْظَمُ نَفْعاً لِلإنسان من الألبسة السَّائِرَةِ لِلأَجْسَادِ، والواقية لها من ضَرِّ الحرِّ والبرْدِ، وَقُبْحِ انْكِشَافِ السُّوءَاتِ الجَسَدِيَّةِ، ذاتِ المناظِرِ الْمُسْتَكْرَهَةِ، الَّتِي يَدْعُو كَشْفُهَا إِلَى إشاعة الفَاحِشَةِ، وَتَسَافِدِ النَّاسِ كَالْبَهَائِمِ المهملَةِ.

وبعد المئة بهذَيْنِ السُّتْرَيْنِ الواقِيَيْنِ المادِّيِّ والمعنويِّ، حَذَّرَ الله عَزَّ وجلَّ بني آدم مِنْ أَنْ يَفْتِنَهُمُ الشَّيْطَانُ، فَيُضِلَّهُمْ أو يَحْوِلَهُمْ عن صراطِ الله، حتَّى لَا يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، بل مِنْ أَهْلِ النَّارِ، بعد رَحَلَةِ الامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى الْأَرْضِ، كَمَا فَعَلَ بِأَبْنَيْهِمَا، إِذْ أَوْقَعَهُمَا بِحِيلِهِ وَوَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ فِي الْفِتْنَةِ. حتَّى سَقَطَا فِي مَعْصِيَةِ رَبِّهِمَا، فَكَانَ السَّبَبُ فِي إِخْرَاجِهِمَا مِنَ الْجَنَّةِ عَقُوبَةً لِهَمَا عَلَى مَعْصِيَتَيْهِمَا الْإِخْتِيَارِيَّةِ.

وخاطب الله عَزَّ وجلَّ فِي هَذَا الدَّرْسِ بَنِي آدَمَ، بِكَثِيرٍ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ، عَلَى سَبِيلِ الْحِكَايَةِ الْمُفْتَطَعَةِ مِمَّا خَاطَبَ بِهِ بَنِي آدَمَ

الأولين، منذ عهد آدم عليه السلام، أو إشعاراً بأن هذه التعليمات والبيانات قد تلقاها بنو آدم الأولون، مما أوحى الله عز وجل به إليه من هدى، باعتبار أن آدم عليه السلام بعد أن تاب الله عليه هداه واجتباؤه، فهو أول نبي ورسول للناس، يُلِّقُ هدى ربه وشرائعه وأوامره ونواهيه لعباده.



التدبر:

قول الله عز وجل:

● ﴿بَنَىٰ آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُّورَىٰ سَوَآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِن آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٢٦).

في مطلع هذا الدرس يشعر الله عز وجل بأنه قد خاطب جميع بني آدم، بدءاً من أولاد آدم في عصره، حتى آخر ذراريه، مُمتناً عليهم، بأنه قد أنزل عليهم لباسين:

اللباس الأول: هو اللباس المادي الذي يسترُونَ به أجسادهم مما يؤذيها، ويسترُ سَوَاتِيهِمْ، تجميلاً لَهُمْ وتزييناً وتَحْسِيناً، وحماية لَهُمْ مما يَشِينُهُمْ في عيون النَّاطِرِينَ إليهم من الناس، وتكريماً لَهُمْ عن أن يكونوا كالذُّوَابِ والأنعام بَادِيِ السَّوْآتِ، وأنزل عليهم ريشاً وهو الفاخر من الثياب، والأثاث لِمَنَازِلِهِمْ وَمَحَلَّاتِ إِقَامَتِهِمْ، وَجِلَّهُمْ وَتَرْحَالِهِمْ، وما يكون وسيلة رفاهِيَّتِهِمْ، في يَقْظَتِهِمْ وفي مَنَامِهِمْ.

اللباس الثاني: هو اللباس المعنوي الذي يقيهم بهذيه وصراطه ومنهاجه وَوَصَايَاهُ، شقاء الحياة الدنيا، وعقَابَ الله فيها، وَيَقِيهِمْ عَذَابَ الله يوم الدين، إِذَا عَمِلُوا به وَاتَّبَعُوهُ، مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ.

وهذا اللباس هو الدين الذي اصطفاه الله لعباده، فإذا لَبِسُوهُ وقاهم شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، فَكَانَ لَهُمْ لِبَاسٌ تَقْوَى.

- كلمة «لِبَاس» من عبارة «وَلِبَاسُ التَّقْوَى» قُرِئَتْ في المتواتر بالرفع والنصب.

فالقراءة بالنصب تقتضي أَنْ «وَلِبَاسُ التَّقْوَى» مَغْطُوفَةٌ عَلَى «لِبَاسًا» من عِبَارَةِ: «قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا». فالمعنى: قد أُنْزِلْنَا عليكم لباساً يُوَارِي سَوَاتِكُمْ وَأُنْزِلْنَا عَلَيْكُمْ رِيشاً لِرِيشَتِكُمْ وتأثيث منازلكم، وَأُنْزِلْنَا عليكم لباسَ التقوى وهو أحكام دينكم الذي تَقُونَ بارتدائها والعمل بها أَنْفُسُكُمْ من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، وتَقُونَ بها أَنْفُسُكُمْ من نَقْمَتِهِ، وآثار معصيته الفاضحة.

والقراءة بالرفع تستلزم مَحْذُوفاً مُقَدَّراً جاء التصريح به في القراءة بالنصب، أي: «قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشاً». وَلِبَاسُ التَّقْوَى «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ». فتكون الجملة مُسْتَأْنَفَةً لبيان فضل وَخَيْرِيَّةِ لِبَاسِ التَّقْوَى المَعْنَوِيِّ عَلَى لِبَاسِ الْجَسَدِ المَادِّي.

شُبَّةُ الْعَمَلِ بِأَحْكَامِ الدِّينِ بَارْتِدَاءِ الْأَلْبَسَةِ عَلَى الْأَجْسَادِ، بِجَامِعِ الْوَقَايَةِ فِي كُلِّ مِنْهُمَا، وَأُطْلِقَ عَلَى أَحْكَامِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ لَفْظُ «لِبَاسٍ» عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ، وَأُضِيفَ لَفْظُ «لِبَاسٍ» إِلَى التَّقْوَى الْمُرَادِ بِهَا اتِّقَاءُ عَذَابِ اللَّهِ بِالْعَمَلِ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَوَصَايَاهُ، لَتَمْيِيزِهِ عَنِ اللَّبَاسِ الَّذِي يُوَارِي السَّوَاتِ الْجَسَدِيَّةَ، وَالَّذِي يَبْقَى مِنْ أَذَى الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَاللَّبَاسِ الَّذِي يَبْقَى مِنْ بَأْسِ الْمُقَاتِلِينَ. كَالدُّرُوعِ وَالْمَغَافِرِ وَنَحْوِهَا.

﴿يَبْقَى ءَادَمَ﴾: خُطَابٌ مُوجَّهٌ لِجَمِيعِ بَنِي آدَمَ الْمُؤَهَّلِينَ لِلخُطَابِ، مُنْذُ بَدَأَ وُجُودُهُمْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى آخِرِ كَائِنٍ مِنْهُمْ.

وقد دَلَّ السِّيَاقُ فِي النَّصِّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْخُطَابَ قَدْ أُنْزِلَ عَلَى آدَمَ مِنْ ضِمْنِ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ هُدًى.

● «قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكُمْ» : أي: قَدْ مَنَّنَا عَلَيْكُمْ بِعَطَاءِ أَنْزِلْنَاهُ أَمراً من

أَمَرْنَا، نَافِذًا عَلَى وَفْقِ الْأَمْرِ، فَالْهَمْنَاكُمْ وَعَلَّمْنَاكُمْ بِمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ وَخَلَقْنَا لَكُمْ.

ولا يقتضي التعبير بالإنزال في القرآن أَنَّ الشَّيْءَ الْمَنْزُولَ كَاللِّبَاسِ والأنعام والحديد، قد أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، بَلِ الْمَعْنَى أَنَّ عَطَاءَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ كُلُّهُ إِنْزَالٌ مِنْ رَحْمَتِهِ، بِأَمْرِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَوْ كَانَتْ مَادَّةُ ذَلِكَ الشَّيْءِ مَوْجُودَةً فِي الْأَرْضِ بَخَلَقِ اللَّهِ قَبْلَ ذَلِكَ، إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ الْعُلُوُّ دَوَامًا، فَكُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ رَحْمَةٍ، وَفَيْضٍ عَطَاءٍ، أَوْ تَنْفِيزٍ جَزَاءٍ وَلَوْ بِعِقَابٍ، هُوَ إِنْزَالٌ مِنْ أَمْرِهِ، فِي أَيِّ مَوْقِعٍ مِنَ الْوُجُودِ كُلِّهِ.

● ﴿يَاسَا﴾: اللِّبَاسُ: مَا يَسْتُرُ الْجِسْمَ، مِنْ ثَوْبٍ وَنَحْوِهِ، وَلَوْ كَانَ سَاتِرًا لِبَعْضِ الْجِسْمِ كَالرَّأْسِ أَوِ الْأَقْدَامِ أَوِ الْعُورَةِ الْمَغْلُظَةِ، لِدَفْعِ الْأَذَى وَالضَّرَرِ، أَوْ اسْتِحْيَاءٍ مِنَ الْقَبِيحِ، أَوْ لِلزَّيْنَةِ، أَوْ لِلإِحْصَانِ مِنَ الْبَاسِ كَالدُّرُوعِ وَالْمَغَافِرِ.

أي: أَلْهَمْنَاكُمْ وَعَلَّمْنَاكُمْ أَنْ تَصْنَعُوا مِمَّا خَلَقْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ لِبَاسًا.

● ﴿يُورِي﴾: أي: يُخْفِي وَيُغْطِي وَيَسْتُرُ، يُقَالُ لُغَةً: وَارِئُ الشَّيْءِ يُوَارِيهِ، أي: أَخْفَاهُ، وَغَطَّاهُ، وَسَتَرَهُ.

﴿سَوَّاتِكُمْ﴾: أي: عَوْرَاتِكُمْ وَهِيَ الْفُرُوجُ وَمَا حَوْلَهَا، سُمِّيَتْ الْعُورَةَ سَوَّاءً، لِأَنَّ النَّظَرَ إِلَيْهَا يَسُوُّ النَّاطِرَ بِسَبَبِ قُبْحِهَا، فَهِيَ مَخْرَجُ الْفَضَلَاتِ وَالْقَذَارَاتِ.

قِيلَ: إِنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَى آدَمَ وَحَوَّاءَ بَعْدَ أَنْ أَهْبَطَا إِلَى الْأَرْضِ عَارِيَيْنِ، إِلَّا مَا خَصَفَا عَلَى سَوَاتِيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، فَأَعْطَاهُمَا قُطْنًا، وَأَمَرَ حَوَّاءَ أَنْ تَغْزِلَ، وَعَلَّمَهَا كَيْفَ تَغْزِلُهُ خُيُوطًا، وَأَمَرَ آدَمَ بِالْحِيَاكَةِ، وَعَلَّمَهُ كَيْفَ يَنْسُجُ الْخُيُوطَ، حَتَّى تَكُونَ صَالِحَةً لَوَقَايَةِ الْأَجْسَادِ مِنْ ضَرِّ الْحَرِّ، وَضَرِّ الْبَرْدِ، فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ صِنَاعَةِ الْأَلْبَسَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

● ﴿وَرِيشًا﴾: أي: وأنزلنا عليكم ريشاً، فهو معطوف على ﴿لِبَاسًا﴾. الريش في اللغة والرياش: يأتيان بمعنى ما ظهر من اللباس، وبمعنى اللباس الفاخر، وبمعنى الخضب، وبمعنى المال، وبمعنى الأثاث الذي تُفرش به المنازل وتُزَيَّن. وبمعنى المعاش، وهو كُل ما يُعَاشُ به. ومن حُسْنِ التَّدْبِيرِ أَنْ يُحْمَلَ لفظ: «ريشاً» هنا على كل المعاني التي يُطْلَقُ عليها، لأنَّ كُلَّ مَذَلُّولَاتِ هذا اللَّفْظِ مِمَّا تَفَضَّلَ اللَّهُ به على بني آدم، ومِمَّا ائْتَنَ به عليهم، وليس بعضها أولى من بعضٍ بالتخصيص.

لكنَّ الله عزَّ وجلَّ أفرَدَ امتنانهُ بنعمة اللباس الذي يوارى السَّوَاتِ، ويستُرُّ الفروجَ وما حولها. بقصد توجيه العناية للأدب الديني الذي يأمرُ بستر العورات، والتذكير بأنَّ المعصية التي كان من أوَّل مظاهرها كشفُ السَّوَاتِ لآدم وزَوْجِهِ في الجَنَّةِ، كانت هي السَّبَبُ في إخراجهما منها، فعلى ذُرِّيَّاتِهِمَا أَنْ يَسْتُرُوا عَوْرَاتِهِمَا إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ، وعليهم أَنْ يُؤْمِنُوا بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ وإِلَهِيَّتِهِ. وَأَنْ يَلْتَزِمُوا طَاعَتَهُ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، حتَّى لَا تَنكْشِفَ سَوَاتُ نَفُوسِهِمْ، وَحتَّى لَا يُسْتَنْزِلُوا بِالْخَطَوَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ إِلَى كِبَائِرِ الْإِثْمِ، فَالْكُفْرِ بِاللَّهِ، فَيُخْرِمُوا مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَيَسْتَحِقُّوا دُخُولَ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

● ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ بَرَفَعِ «لباس» وَنَضَبِهِ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ. أي: وأنزلنا عليكم يا بني آدم تعاليمات وأحكاماً لِبَاسِ التَّقْوَى المعنوي، التي هي هُدًى لَكُمْ، فهي تَقِيكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ بِهَا وَاتَّبَعْتُمُوهَا فِي حَيَاتِكُمْ شَقَاءَ الدُّنْيَا، وَعَذَابَ الْآخِرَةِ، وَمِنَ الْعَقُوبَةِ الْعَاجِلَةِ فَضِيحَةُ الْإِنْسَانِ بِقَبَائِحِهِ وَفَوَاحِشِهِ الْكَاشِفَةُ لِسَوَاتٍ نَفْسِهِ.

وَلِبَاسُ التَّقْوَى هو الإيمان بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ وإِلَهِيَّتِهِ، وَطَاعَتُهُ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَاجْتِنَابُ مَعْصِيَتِهِ.

وأشار الله عزَّ وجلَّ إلى لباسِ التَّقْوَى بعبارة ﴿ذَلِكَ﴾: الموضوع

للمشار إليه البعيد، للإشعار بعلو منزلته ورفعتها، وبُعدها في الدرجات العاليات، وأبان أنه خَيْرٌ من كُلِّ لباسٍ يَقِي به الناسُ أجسادَهم، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾.

● ﴿ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (٢٦) أي: ذلك الذي أنزلناه على بني آدم من نِعَمِ الحياة الدنيا لمعاشهم، وما أنزلناه عليهم من هداية في تعليمات الدين الذي اصطفيناهُ لهم، هو من آيات الله العظيمة، الدالّاتِ على عظيم رحمته ونعمته وحكمته.

● ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾: أي: ونحن نودُّ ونُحِبُّ لهم أن يضْعُوها في ذكراتهم، وأن يَعملوا بما تهديهم إليه، ممّا يحقّق سعادتهم في عاجل أمرهم وآجله، ولكننا لا نجعلهم مجبورين على ذلك، لأننا خلقناهم مُمْتَحِنِينَ مُخَيَّرِينَ، ذوي إراداتٍ حُرّةٍ لنبْلُوهُمْ فيما آتيناهم.



قول الله عز وجل:

● ﴿يَنْبِئُ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰنَهُمَا ۚ إِنَّهُ يَرَئُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٧).

﴿يَنْبِئُ ءَادَمَ﴾: هذا نداء ثانٍ مُوجَّهٌ لجميع بني آدم المؤهلين للخطاب، مُنْذُ بَدْءِ وجودهم في الأرض حتى آخر كائنٍ منهم.

وهذا نظير النداء الأول، إذ دلَّ السَّباقُ على أنه قد أنزل على آدم من ضِمن ما أنزل عليه من هُدى.

● ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾: صِغَةُ النَّهْيِ المؤكدة بنون التوكيد الثقيلة، مُوجَّهَةٌ بِحَسَبِ ظَاهِرِ الاستعمال اللُّغَوِيِّ للشيطان، لكنَّ النَّهْيَ في

الحقيقة مُوجَّهَ لِبَنِي آدَمَ، والعبارة فيها محذوفٌ مقدَّرٌ ذَهْنًا، وهي عَلَى تقدير: لَا تُمَكِّنُوا الشَّيْطَانَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ حَتَّى تَتَأَثَّرُوا بِهِ فَيَفْتِنَكُمْ، كما يَقُولُ القَائِلُ لِإِنْسَانٍ دَخَلَ بَيْتَ الْأَسَدِ: لَا يَأْكُلُكَ الْأَسَدُ، أَي: خُذْ حِذْرَكَ مِنْهُ، وَلَا تُمَكِّنْهُ مِنْ أَنْ يَنْتَهَزَ فُرْصَةً يَفْتَرِسُكَ فِيهَا.

[لَا يَفْتِنَكُمْ] أَي: لَا تَمَكِّنُوهُ مِنْ أَنْ يُغَرِّبَكُمْ بِخَدَاعِهِ وَغُرُورِهِ، وَوَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ، حَتَّى يُضِلُّكُمْ عَنْ صِرَاطِ رَبِّكُمْ، فَيُوقِعَكُمْ فِي الْغَوَايَةِ، فَتَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ جَاءَ الْفِعْلُ مُؤَكَّدًا بِنُونِ التَّوَكِيدِ الثَّقِيلَةِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي النَّهْيِ، وَاسْتُخْدِمَ الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ أَعْمَالَ الشَّيْطَانِ دَائِمَةُ التَّكَرُّارِ وَالتَّجَدُّدِ وَالتَّمَاتِيعَةِ بِدَابٍ.

الْفِتْنَةُ: هِيَ فِي الْأَصْلِ الصَّهْرُ بِالنَّارِ لِلْمَعْدِنِ، كَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، لِمُتَمَيِّزِ الرَّدِيِّ مِنَ الْجِيدِ، اخْتِبَارُهُ، تَقُولُ لُغَةً: فَتَنَ الصَّانِعُ الذَّهَبَ مِثْلًا، يَفْتِنُهُ فَتْنًا وَفُتُونًا، أَي: أَذَابَهُ بِالنَّارِ لِيُخَيَّرَهُ.

ثُمَّ صَارَتْ مَادَّةُ الْكَلِمَةِ تَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ وَالْإِخْتِبَارِ، وَبِمَا أَنَّ اخْتِبَارَ الْإِرَادَةِ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ وَيُخَالِفُ أَهْوَاءَهَا وَشَهَوَاتِهَا، فَإِنَّ جِنْسَ الْأَلَمِ الَّذِي يُخَذِّثُهُ مَسُّ النَّارِ بَاقٍ فِي دَلَالَةِ الْمَادَّةِ مَعَ دَلَالَتِهَا عَلَى الْإِخْتِبَارِ وَالْإِمْتِحَانِ.

وَمِنْ التَّوَسُّعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ فِي دَلَالَةِ هَذِهِ الْمَادَّةِ اللَّغَوِيَّةِ مَا يَلِي:

● اِطْلَاقُهَا عَلَى مَا يُسَبِّبُ الضَّلَالََةَ فَيُوقِعُ فِي الْخَطِيئَةِ، الَّتِي يَسْتَحِقُّ مُرْتَكِبُهَا الْعَذَابَ، فِينَالَهُ مَا يَكْرَهُ، وَمِنْ هَذَا يَقَالُ: فَتَنَ الشَّيْطَانُ الْإِنْسَانَ إِذَا أَغْرَاهُ بَوَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ، فَاسْتَجَابَ لِخَدَاعِهِ وَغُرُورِهِ، حَتَّى أَضَلَّهُ فَأَغْوَاهُ، فَعَرَّضَهُ لِعَذَابِ اللَّهِ، وَلِهَذَا يُسَمَّى الشَّيْطَانُ فَاتِنًا وَفَتْنَانًا، وَلِهَذَا يَقَالُ لِكُلِّ مُضِلٍّ فَاتِنٌ وَفَتْنَانٌ.

● اِطْلَاقُهَا عَلَى الضَّلَالِ وَارْتِكَابِ الْإِثْمِ، لِأَنَّ ذَلِكَ يُعَرَّضُ لِعَقُوبَةِ اللَّهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إِطْلَاقَاتٍ.

● ﴿كَأَخْرَجَ أَبْوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ : أي: كما فتن أبويكم آدم وحواء فافتننا به فتسبب في إخراجهما من الجنة، إذ استجابا لإغراءاته فأكلا من الشجرة المحرمة.

أي: يا بني آدم لا تمكثن الشيطان من أنفسكم، فيستميلكنم ويستنزلكم في الدركات، ويدلكنكم في مهاوي المعاصي والأثام، بخداعه وغروره، ويصرفكم عن طريق الجنة، حتى يدفع بكم إلى عقاب ربكم، كما فعل بأبوينكم، إذ أخرجهما من الجنة.

● ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ : أي: إن إبليس الشيطان قد تسبب عن طريق فتنة أبوينكم بإخراجيهما من الجنة، حالة كونه ينزع عنهما لباسهما.

دلّ الفعل المضارع «ينزع» على أن إبليس كرّر محاولاته بتتابع وإلحاح لينزع عنهما لباسهما، فقد كان إبليس يشدّ بحيله لينزع، وهما لا يستجيبان، حتّى أترّ على إرادتيهما، فضعفت قواهما، فسقطا في الخطيئة، فأكلا من شجرة الاختبار التي حرّمها الله عليهما.

● ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا﴾ : أي: يستميلهما ويستهويهما ليغملا ما يكون سبباً في نزع لباسيهما عنهما، وهو لباس التقوى، ولباس الجسد، وهذا من إطلاق المسبب، وهي عمليّات النزع، وإزادة السبب، وهي الحيل والوساوس والتسويلات وألوان الخدع والتغريب لهما.

لقد كانا وهما في الطاعة لربهما مستورين بلباس التقوى، ولباس الجسد، الساترين لسوآتهما النفسيّة والجسديّة.

فعمل الشيطان إبليس على أن ينزع عنهما لباس التقوى، بإسقاطيهما في المعصية لربّهما، التي تكشف لهما سوآتهما النفسيّة، وتظهر أنّهما يغصيان ربّها كما عصى هو ربّه.

وكان إبليسُ الشيطانَ يَعْلَمُ أَنَّ نَزْعَ لباسِ التقوى، مِنْ آثاره التي قضاها الله في خُطَّةِ اخْتِبَارِهِ لَهُمَا نَزْعَ لباسِ الجسدِ عَنْهُمَا، الَّذِي تَنَكَّشِفُ بِهِ سَوْءَاتُهُمَا عِنْدَ فُرُوجِهِمَا وما حَوْلَهَا، فيَكُونُ ذلك افتضاحاً مادياً لَهُمَا بسُقُوطِهِمَا في مَعْصِيَةِ رَبِّهِمَا.

فإِذَا أَرَاهُمَا سَوْأَتُهُمَا الجَسَدِيَّةَ والنَّفْسِيَّةَ، شَفَى غَيْظَهُ بِإِشْعَارِهِ الملائكةَ أَنَّهما لم يكونا أَفْضَلَ مِنْهُ، إِنَّهُ سَبَقَ أَنْ عَصَى أَمْرَ رَبِّهِ لَهُ بالسُّجُودِ لِأَدَمَ، وَها هُما قد عَصَيَا نَهْيَ رَبِّهِمَا لَهُمَا عَنِ الأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ. إِنَّهُ طَرِدَ وَاسْتَحَقَّ عَذَابَ النارِ خالداً فيها، فهو حَرِيصٌ عَلَى طَرْدِهِمَا وَذُرِّيَّاتِهِمَا وَاسْتِحْقَاقِهِمْ عَذَابَ النارِ.

وَيَبْدُو أَنَّ الرِّبْطَ بَيْنَ لِبَاسِ التقوى النَّفْسِيِّ الإِرَادِيِّ السَّائِرِ لِلْسَّوَاتِ النَّفْسِيَّةِ، وَبَيْنَ لِبَاسِ الجَسَدِ السَّائِرِ لِسَّوَاتِ الجَسَدِ، قد جِيءَ بِهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ كُلَّ سُلُوكٍ إِرَادِيٍّ بَاطِنٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، لَهُ أَثَرٌ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فِي ظَاهِرَاتِ الأَجْسَادِ، قد لا يُذَكِّرُهُ إِلَّا أَصْحَابُ الْفِرَاسَةِ الإِيمَانِيَّةِ، مِنَ الْمُتَقِينَ وَالْأَبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ.

● ﴿إِنَّهُ يَرْتَكِبُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَرْوَنَهُمْ﴾ : أي: يَا بَنِي آدَمَ إِنَّ إبليسَ الشَّيْطَانَ يَرَاكُم هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ شَيَاطِينِ الْجَنِّ، مِنْ أُمُكِنَةٍ يَكُونُونَ مَعَكُمْ فِيهَا، وَأَنْتُمْ لَا تَرَوْنَهُمْ.

وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَعَظُمَتْ حِكْمَتُهُ، قَدْ جَعَلَ أَبْصَارَ الْإِنْسِ مَخْدُودَةَ الرُّؤْيَةِ، فَهِيَ لَا تَرَى الْهَوَاءَ مَثَلًا، وَلَا تَرَى أَجْسَادَ الْمَلَائِكَةِ النُّورَانِيَّةِ، وَلَا أَجْسَادَ الْجَنِّ الشَّفَافَةِ النَّارِيَّةِ بِحَسَبِ الْعَادَةِ، وَلَا الْحَيَوَانَاتِ الدَّقِيقَةِ الصَّغِيرَةِ كَالْجَرَاثِيمِ، وَالْمَيْكُرُوبَاتِ، وَالْفَيُورِوسَاتِ، دُونَ مُكْبَرَاتِ مَجْهَرِيَّةِهَا.

وهذا من نظامِ اللَّهِ فِي خَلْقِ الْإِنْسِ وَالْجَنِّ وَالْمَلَائِكَةِ.

● ﴿وَقِيلُوا﴾: أي: وجماعته وجنوده من الجن وذريته.

القبيل: هو في اللغة؛ الجيل، والجماعة، والاتباع، والصنف المماثل.

وفي إعلام الله عز وجل بني آدم بأن إبليس وجنوده من شياطين الجن، يَكُونُونَ مَعَهُمْ وَيَرَوْنَهُمْ، من حيث هم لا يَرَوْنَهُمْ، مَعَ أَنَّهُمْ يُوسُوسُونَ، وَيُسَوِّلُونَ، وَيَبْذُلُونَ ما يَسْتَطِيعُونَ لِإِغْوَائِهِمْ وإضلالهم، تنبيه لهم على أن خواطر السوء، ونزغات النفوس إلى المعاصي التي يشعرون بها في داخلهم، تُشَارِكُ في إثارتها الشياطين، بما جعل الله عز وجل لهم من تَمَكِينٍ بِحَسَبِ نِظَامِ خَلْقِهِمُ الْفِطْرِيِّ، لحكمة استكمال ابتلاء الناس على أَحْسَنِ وَجْهِ، وَأَكْمَلِهِ.

● ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٧): يتحدث الباري جل جلاله بضمير المتكلم العظيم فيخبر بني آدم جميعاً منذ عهد آدم حتى آخر كائن من ذريته صالح للخطاب، بأنه قد جعل في نظام التكوين العام لخلق الأحياء ذوي الإرادات الحرة، الموضوعين موضع الابتلاء، أن من لم يؤمن منهم بالله وبما جاء من عند الله على لسان رُسُلِهِ، ولم يؤمن بالجزاء الرباني المعجل منه والمؤجل إلى يوم الدين، كانت الشياطين أولياء له، أي: هي التي تتولى بوساوسها وتسويلاتها توجيهاً وتسييراً في الحياة، لأنه تخلّى بأرادته الحرة عن حماية الله له، وخرج من حصنه بالكفر، فتجد الشياطين فُرْصَتَهَا مواتية للعبث به وتسييره من خلال أهوائه وشهواته ولذاته من زينة الحياة الدنيا، وهو يخسب أنه يتحرك في الحياة دون أن يكون من حوله من يُغْرِيه ويُغْوِيهِ من غير المنظور، فهذا الجعل هو جعل في النظام السببي العام، كجعل النار تحرق من دخل فيها، وليس أمراً جبرياً لا اختيار للمكلف فيه.

ولا غَرْوْ أَنْ مِنْ تَوَلَّته الشَّيَاطِينُ سَاقَتِه فِي مَسَالِكِ الْغَوَايَةِ، الَّتِي تَنْتَهِي بِهِ إِلَى أَنْ يَكُونَ فِي الْجَحِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ مَا يَنَالُهُ مِنْ شَقَاءٍ وَهُمُومٍ وَأَكْدَارٍ وَعَذَابٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَمِنْ تَوَلَّته الشَّيَاطِينُ اتَّبَعَهَا مُطِيعاً لَهَا طَاعَةَ الْعَابِدِ لِلْمَعْبُودِ، وَقَدْ أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ هَذَا اللَّوْنُ مِنَ الطَّاعَةِ لِلْمُوسُوسِ الْغِيْبِيِّ عِبَادَةٌ، فَحَذَّرَ بَنِي آدَمَ مِنْ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (يَس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) مَبِيناً مَا سَوْفَ يَقُولُهُ يَوْمَ الدِّينِ لِلَّذِينَ كَانُوا يَتَّبِعُونَ الشَّيْطَانَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا:

﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٥﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِثْلًا كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿جِثْلًا كَثِيرًا﴾: أَي: أُمَّةٌ مِنَ الْخَلْقِ وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ النَّاسِ.

﴿أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾؟: أَي: أَلَا غَرَضْتُمْ عَنِ الْاسْتِمَاعِ لِبَيَانَاتِ رَبِّكُمْ، وَتَحْذِيرَاتِهِ لَكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ عَدُوِّكُمْ، فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ الْمَعَارِفَ الدِّينِيَّةَ، فَتَمْسِكُونَهَا فِي ذَاكِرَاتِكُمْ لِلانْتِفَاعِ بِهَا وَالْعَمَلِ بِمَا أَوْصَتْكُمْ بِهِ، وَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ بِإِرَادَاتِكُمْ نَفْسَكُمْ عَنْ اتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَاتِّبَاعِ نَزْعَاتِ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسِهِ وَدَسَائِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ!! فَنَالُوا الْيَوْمَ جَزَاءَكُمْ بِالْعَذْلِ مِنْ رَبِّكُمْ الَّذِي وَضَعَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ.



قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَةً مَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

● ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾: قال أهل اللغة: الفاحشة القبيح من القول والفعل، وكلُّ خضلةٍ قبيحة. وكلُّ شيءٍ جاوز قدره وحده فهو فاحش.

وقد نظرت في الاستعمالات القرآنية لهذه المادة، فوجدت أنها تدور حول المحرمات الكبائر المتعلقة بشهوات الفروج.

● ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾: أي: قالوا: وجدنا آباءنا حالة كونهم مداومين ومواظبين عليها.

● ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾: أي: وقالوا افتراءً على الله: واللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا.

● ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾: أي: قل لهم يا مُحَمَّد، ويا كُلِّ منّاظرٍ لهم من حملة رسالتي من أمته: إِنَّ اللَّهَ بصفاته الجليلة العظيمة، ومنها حكمته البالغة، وعلمه المحيط بكل شيء، وإرادته التي لا تأذُن بالضرِّ والشرِّ والقبايح، لا يُمكن أن يأمر بالفحشاء، إذ هو منافٍ لكمال صفاته، فمن المستحيل أن يضدّر عنه شيء من ذلك.

● ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟: أي: أتقولون كذباً على الله وافتراءً عليه، قولاً لا تعلمون علماً يقيناً أنه قاله جلّ جلاله؟!.

الاستفهام هنا استفهام توبيخي لأصحاب هذا القول، وإنكار عليهم لكذبهم وافتراءهم على ربهم.

ويتساءل المتدبر: ما هو وجه الربط بين هذه الآية، وبين الآيتين السابقتين لها في هذا الدرس؟

أقول: إذا تفكرنا في أحوال بني آدم منذ بدء التاريخ البشري على الأرض، وجدنا أن أول داعٍ لمعصية الله في المحرمات، هو داعي الفاحشة، ومعصية الله عز وجلّ بالزنا.

وذلك لأنّ وفرة ما في الأرض من رزقٍ ومطالب عيش، مع قلة

سُكَّانَهَا مِنْ بَنِي آدَمَ، لَا تَدْعُ مَجَالًا لِلتَّنَافُسِ، حَتَّى تَظْهَرَ الْمَعَاصِي الْأُخْرَى، كَالسَّرَقَةِ وَالْعُدْوَانِ عَلَى الْحَقُوقِ، وَالظُّلْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، حَتَّى الشَّرْكَ بِاللَّهِ لَمْ تَكُنْ دَوَاعِيهِ قَدْ ظَهَرَتْ، وَإِشْرَاكُ الْأَسْبَابِ لِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لَمْ تُنَسَّ بَعْدُ عَقُوبَتُهُ الَّتِي أَخْرَجَتْ أَبْوَنَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْقَتْلُ فِي أَوَّلِ الْبَشَرِيَّةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ دَاعٍ إِلَّا دَاعِي التَّنَافُسِ عَلَى مَطَالِبِ شَهْوَةِ الْفُرُوجِ.

فَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ كَانَتْ التُّدْرَةُ وَالْمَنَافَسَةُ الْمُثِيرَةُ لِلتَّحَاسُدِ مُنْخَصِرَةً فِي مَطَالِبِ الشَّهْوَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْمَتَرَكِّزَةِ فِي الْفُرُوجِ.

وَهَذَا يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ فِي مَقْدَمَةِ مَا نَزَلَ مِنْ نَهْيِ رَبَّانِيٍّ تَحْرِيمِيٍّ عَلَى بَنِي آدَمَ مِنْذُ بَدْءِ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ عَلَى الْأَرْضِ، النَّهْيَ عَنِ الْفَاحِشَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالسَّوَاتِ، وَمِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتُ نَزَلَ الْأَمْرُ بِسِتْرِ السَّوَاتِ، وَهِيَ الْعَوْرَاتُ الْمَغْلُظَةُ، حَيْثُ تَكُونُ سُبُلُ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ، لِيَكُونَ سِتْرُهَا عَلَامَةً عَلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يَتَرَكَّزُ فِي بُؤْرَتِهِ التَّحْرِيمِ، وَلِيَكُونَ مُسَاعِدًا عَلَى التَّزَامِ الْعَقْدَةِ، فَكُشِفَ الْعَوْرَاتُ، وَالِاسْتِهَانَةُ بِإِبْدَائِهَا لِلنَّاطِرِينَ، الَّذِينَ لَدَيْهِمْ دَوَافِعُ شَهْوَةِ مُرْتَبِطَةٌ بِهَا، يُشِيرُ لِمُمَارَسَةِ تَلْيِيَةِ مَطَالِبِ الشَّهْوَةِ، وَهُوَ بِمِثَابَةِ إِعْلَانِ بَأْنِ الْأَبْوَابِ مَفْتُوحَةٍ، وَالسُّبُلِ إِلَيْهَا مُيَسَّرَةٍ، وَأَنَّ الْوَطَرَ لَدَيْهَا مُقْضِيٌّ بِاسْتِضَافَةٍ أَوْ إِبَاحَةٍ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا ظَهَرَتْ فِيهَا عَلَامَاتُ الرَّغْبَةِ.

وَنَزَلَ تَعْلِيمُ بَنِي آدَمَ الْأَوَّلِينَ صِنَاعَةَ أَوْ اسْتِخْدَامَ الْأَلْبَسَةِ السَّاتِرَةِ، مِنْ جُلُودِ الْبَهَائِمِ، أَوْ مِمَّا يَنْسُجُ مِنَ الْخِيُوطِ، وَجَاءَ التَّرْكِيزُ فِي بَدَايَةِ التَّعْلِيمِ عَلَى مَوَاضِعِ السَّوَاتِ، لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهَا مَوَاضِعُ أَوَّلِ تَحْرِيمٍ دِينِيٍّ نَزَلَ عَلَى بَنِي آدَمَ مِنْذُ بَدْءِ تَارِيخِهِمْ عَلَى الْأَرْضِ

وَجَاءَ التَّمْهِيدُ لَهُ فِي بَيَانِ نَزْعِ اللَّبَاسِ عَنْ سَوَاتِ آدَمَ وَحَوَاءِ، لَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ الْمَحْرَمَةَ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الشَّجَرَةُ الْمَعْيِنَةُ لِامْتِحَانِهِمَا. وَفِي بَيَانِ امْتِنَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى بَنِي آدَمَ بِإِنْزَالِ اللَّبَاسِ الَّذِي يُوَارِي سُوءَاتِهِمْ بَعْدَ

هَبُوطِ آدَمَ وَحَوَاءَ إِلَى الْأَرْضِ، وَاتَّبَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْأَمْتَانِ بِإِنْزَالِ الرَّيْشِ الشَّامِلِ فِي مَعْنَاهِ الْعَامِّ لِكُلِّ مَطَالِبِ الْحَيَاةِ.

وَتَكَاثَرَ بَنُو آدَمَ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَخَذَ بَعْضُهُمْ يَسْقُطُ فِي فَاحِشَةِ الزُّنَا، ثُمَّ شَاعَتْ هَذِهِ الْفَاحِشَةُ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ، وَتَوَارَثُوهَا تَقْلِيدًا، وَكَانُوا يَرَوْنَهَا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مِنَ الْمَعَاصِي، فَلَمَّا صَارَتْ تَقْلِيدًا مُتَوَارَثًا، جَعَلُوهَا جُزْءًا مِنْ تَقَالِيدِهِمُ الدِّينِيَّةِ، وَأَمَعَنَ الشَّيْطَانُ فِي إِغْوَائِهِمْ، حَتَّى جَعَلُوا مُمَارَسَةَ الْفَوَاحِشِ مِنْ مُقَدَّسَاتِ الدِّينِ، وَظَهَرَتْ لِعِبَادَةِ الْفُرُوجِ الْمُمَثِّلَةِ بِأَوْثَانٍ مَعَابِدُ فِي جِبَالِ الْهِنْدِ لَهَا مَوَاسِمٌ، وَهِيَ مِنَ التَّحْرِيفَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ لِأَدْيَانٍ قَدِيمَةٍ فِي تَارِيخِ بَنِي آدَمَ، وَظَهَرَتْ طَوَائِفُ بَعْدَ ذَلِكَ تَعَبُّدُ فُرُوجِ النِّسَاءِ.

فَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

● ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ . . ﴿٧٨﴾
إِشَارَةً إِلَى انْتِشَارِ الْفَاحِشَةِ فِي بَنِي آدَمَ، حَتَّى صَارَتْ عَمَلًا مُتَوَارَثًا، جَعَلَهُمْ يَقُولُونَ لِمَنْ يَعْظُمُهُمْ بِاجْتِنَابِهَا، وَبِنَهَايَةِ عَنْهَا: وَجَدْنَا آبَاءَنَا بِالتَّقْلِيدِ الْمَتَوَارِثِ عَنْ آبَائِهِمْ مُوَظِّينَ عَلَيْهَا، مُضِيِّفِينَ إِلَى هَذَا قَوْلِهِمْ: وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ.

وَرُبَّمَا كَانَتْ حُجَّتُهُمْ زَعْمُهُمْ أَنَّهَا لَا تَكُونُ مُنْتَشِرَةً فِي أَجْيَالِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ مَا لَمْ تَكُنْ أَمْرًا مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ، وَجُزْءًا مِنْ تَعَالِيمِ الدِّينِ.

هَذِهِ ظَاهِرَةٌ مِنْ ظَاهِرَاتِ الْجَاهِلِيَّاتِ الْأُولَى فِي بَنِي آدَمَ، الْقَائِمَةِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فِيمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ عَلَى آدَمَ ثُمَّ عَلَى مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ رُسُلٍ بَعَثَهُمُ اللَّهُ لِهَدَايَةِ النَّاسِ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَلِئَلَّا تَمُرَّ قِصَّةُ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ الشَّنِيعَةِ دُونَ تَعْقِيبٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿قُلْ... إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ...﴾ (٢٨)

أي: إِنَّ الفحشاء سَبِيلٌ سَيِّئٌ قبيح، وله عواقب ضارة في الأفزاد وفي المجتمعات البشرية، ومن المؤكّد الذي لا مجال فيه للشك أَنَّ اللَّهَ الْعَلِيمَ الحكيم لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ.

ولمّا كان في المخاطَبين من أهل الجاهليّة في عَصْرِ الرُّسُولِ محمد ﷺ مَنْ يقولون مثل مقالة أهل الجاهليّات القديّمات، علّم الله جلّ جلاله رسوله أن يقول لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ وعَلَّمَهُ أيضاً أن يقول لهم مستنكراً ومُوبِّخاً: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾!!؟

أي: أَتَقُولُونَ ما لا تعلمون بوسائل إثباتٍ صَحِيحَةٍ كَذِباً وافتراءً على الله: إِنَّ الله يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ.

في هذه العبارة توجيه السؤال لهم بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ التوبيخيّ، ومعناه الإنكارُ عليهم، وتوبيخُهم على مقاتلتهم الشنيعة على الله، التي ليس لديهم عِلْمٌ ما بأنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قد قالها.

أما فِعْلُ آبائهم للفاحشة حتّى صارت من الظواهر التّقليديّة في مجتمعاتهم الجاهلية، فهو لا يَضْلُحُ لأنَّ يَكُونَ دليلاً على أَنَّ الفحشاء من أوامر الدّين لدينٍ صَحِيحٍ مُنْزَلٍ من عند اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، بل هو من الظواهر البشريّة التي انحرفَ النَّاسُ فيها عن الدّين الرّبّانيّ الصّحيح، واستحبّتها نفوسهم لأنّها تُعْطِي شهواتهم انطلاقاً دون قيودٍ ولا حُدُودٍ.

وَمِنْ بؤرة شهوات الفروج الحيوانيّة، يَسْتَغْلُ شياطينُ الجنِّ والإنسِ مغامزَ الضعف البشريّ لإخراج الناس عن صراط الله المستقيم، وَيُزَيِّنُونَ لهم ذلك بما يُسَمُّونَهُ بنظريّاتٍ علميّة نفسيّة، أو اجتماعيّة، أو اقتصاديّة، أو فلسفيّة، وبما يُقَدِّمُونَهُ من أكاذيبٍ تاريخيّة أو دينيّة، أو غير ذلك، عدا ما يُهَيِّتُونَ لهم من بيئاتٍ إثارة وإغراء واستنزالٍ إلى الخطيئة، ومَغْصِيَةِ الله جلّ جلاله.

وإذ قد ثبت أن التقليد المتوارث، لا يصلح لأن يكون دليلاً على أنه من موزونات الدين التي أمر الله بها، إذ لا يتضمن الفعل المرتبط بالشهوات أي دليل علمي يجعل الأمر المتفق على ممارسته من أوامر الله عز وجل، فلم يبق أمام مدعي هذه الدغوى إلا أن يقدموا دليلاً من نص ديني صحيح، عن رسول من رسل الله، أو كتاب ثابت لم يحرف من كتب الله عز وجل، أو دليلاً عقلياً قاطعاً.

لكن أحداً لا يملك أن يقدم دليلاً دينياً صحيحاً، ولا دليلاً عقلياً قاطعاً.

بل الأديان الربانية كلها، والكتب المنزلة من عند الله كلها، تنهى عن فاحشة الزنا، وعن سائر فواحش الفروج.

والدليل العقلي القائم على دراسة الآثار الضارة والمفسدة للحياة الإنسانية في الأرض للفواحش، يثبت أن الله جلّ عظّمته ليس من حكمته العلية أن يأمر بالفحشاء، بل من حكمته أن ينهى عنها في عالم الابتلاء، وهذا الدليل العقلي قد جاءت الإشارة إليه في قول الله عز وجل:

﴿.. قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ..﴾ (٢٨)

وعلى الرغم من تنابع الرسائل الربانية على البشر، بقي لأفكار استباحة الفواحش، والمذاهب الشيطانية حولها، دعاة مجرمون في الأرض، تظهر رؤوسهم كما تظهر رؤوس الأفاعي من جحورها.

وقد أخذت هذه الأفكار في عصور الإلحاد الحديث مسيرات تتستر بالعلم، وبالبحوث العلمية المزيفة.



● قول الله عز وجل:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

تمهيد:

إن الدين عند الله الإسلام، منذ عهد آدم حتى قيام الساعة، والحديث عما أنزل الله عز وجل على بني آدم الأولين ينسحب أيضاً على كل بني آدم الأوسطين والأخريين.

وفي هذا الدرس الذي يتحدث الله جلّ جلاله فيه عن بغض عناصر الدين، الذي أنزله على بني آدم الأولين، منذ عهد آدم عليه السلام، يذمّج فيه تبارك وتعالى تكليف الرسول محمد ﷺ أن يبين لأمتيه التي هي خاتمة الأمم، كما هو خاتم الأنبياء والمرسلين، أن هذه العناصر من الدين، هي من الأمور الباقية التي لم تتعرض للنسخ، لأنّ واقعها لا يقتضي بحكمة الله أن تنسخ.

ومن ترتيب بيان واجب العدل وتحريم الجور والظلم، بغد الإشارة إلى أنّ أول معاصي بني آدم قد كانت في الفواحش المتصلة بشهوات الفروج، نذكر أنّ ثاني المعاصي التي ظهرت في بني آدم الأولين، هي معاصي العدوان والظلم، التي تكون بين الناس بعضهم لبعض، ومنها ما كان من قبيل التزاحم والتنافس على المرأة، وهو ما كان بين قابيل وهابيل، الذي جرّ إلى قتل قابيل لأخيه هابيل ظلماً وعدواناً.

ثم جرّ التنافس على الامتلاك وعلى الزعامات، إلى أنواع من العدوان والظلم كثيرة، ومنها التنافس على ما يكون به معاشهم ورفاهيتهم.

ومن هذا نُذِرْكَ أيضاً أَنَّ ثاني تحريفٍ في الدِّينِ ظَهَرَ في بني آدم، هو الإِذْنُ بِظُلْمِ طَبَقَةٍ في المجتمع الإنساني لَطَبَقَةٍ، وظُلْمُ أشخاص الرؤساء والقادة وكِبَرَاءِ القُومِ لسائر المجتمع.

ثُمَّ ظَهَرَتْ طَبَقَةُ السَّادَةِ والعبيد، فبالتحريف الشيطانيِّ للدِّينِ، أُعْطِيَ هذا الظُّلْمُ مُسَوِّغَاتٍ دِينِيَّةً افتراءً على الله، واستَمَرَّتِ الجاهليَّاتُ البشريَّةُ تتوارثُ هَذِهِ الْمُسَوِّغَاتِ الْمُفْتَرِيَّاتِ على الدِّينِ الرَّبَّانِي، لظُلْمِ بَعْضِ طَبَقَاتِ وأفرادِ المجتمع لبعض، حتَّى المجتمعُ الجاهليُّ الَّذِي بُعِثَ فيه الرُّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ، فجاء قول الله له: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ مُبَيِّنًا الْحُكْمَ الدِّينِيَّ مُنْذُ عَهْدِ الرِّسَالَةِ الأولى لبني آدم الأولين، في قضايا الحقوق بين الناس، وهو العَدْلُ، وهذا الحكم غَيْرُ قَابِلٍ لِلتَّغْيِيرِ ولا لِلنَّسْخِ بمقتضى حِكْمَةِ اللَّهِ، ما دَامَ في الكائناتِ أَفْرَادٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَظْلِمَ بعضهم بعضاً، وَيَعْتَدِي بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ، وَيَأْخُذَ بَعْضُهُمْ بِالْقُوَّةِ أو بالحيلةِ حَقَّ بَعْضٍ، وهو يَعْلَمُ أَنَّهُ ظالم.

أي: وَدَبَّ في بني آدم العدوان والظُّلْمُ، وبتطاوُلِ الْعَهْدِ أُعْطِيَ شياطين الإنس والجنَّ هذا العدوانَ مُسَوِّغَاتٍ مَسْئُوبَةً إلى الدِّينِ، تَحْرِيفاً في دينِ الله، وافتراءً على اللَّهِ جُلَّ جلاله. وتوارث كثيرٌ من الناس هذا التحريف، ومنه مقالة اليهود بالنسبة إلى الذين يتعاملون معهم من سائر الأمم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّاتِ سَبِيلٌ﴾^(١): أي: لَا نَحَاسِبُ إِذَا ظَلَمْنَاَهُمْ، وَأَكَلْنَا حُقُوقَهُمْ، وَسَلَبْنَا أَمْوَالَهُمْ، أو قَتَلْنَا مِنْهُمْ.

ثُمَّ مع تكاثر بني آدم، واجتماعهم في بيئة أوبيئاتٍ يتناقسون فيها على ما يكون به معاشهم ورفاهياتهم، مع وسائل تحصيل مطالب الحياة المختلفة، إِذْ قَلَّتِ الرِّفْرَفَةُ الْكَبِيرَةُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي كَانَتْ في الأرض منذ بدءِ

(١) من الآية ٧٥ من سورة آل عمران.

التكاثُر البشري، وتشابَكَتِ العلاقات الاجتماعية، وانطَلَقَتِ الشياطينُ تَنَزُّعُ
 بَيْنَ النَّاسِ، وَتُشِيرُ مَطَامِعُ بَغْضِهِمْ لِلْاِسْتِیْلَاءِ عَلَى حُقُوقِ آخَرِينَ مِنْهُمْ،
 وَامْتَدَّتْ آيَادِي الْمُسْتَجِيبِينَ لَوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ، فَسَلَبَتْ أَوْ نَهَبَتْ، أَوْ
 سَرَقَتْ، أَوْ تَحَايَلَتْ، أَوْ قَتَلَتْ، ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، فَكَانَ مِنْ أَشَدِّ الْوَاجِبَاتِ
 الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَأَوَّلَاهَا بِالرَّعَايَةِ وَالتَّطْبِيقِ، مَبْدَأُ الْعَدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَأَنْزَلَهُ
 مَعَ مَا أَنْزَلَ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ. فَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾
 يُشِيرُ ضِمْنًا إِلَى كُلِّ ذَلِكَ فِيمَا أَرَى. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

التدبر:

في هاتين الآيتين بيان لخمسة قضايا من قضايا الدين الكبرى منذ عهد
 آدم.

القضية الأولى:

● ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ...﴾ (٢٩): أي: قل يا مُحَمَّدُ: أَمَرَ رَبِّي،
 وَهُوَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْقِسْطِ، وَهَذَا الْأَمْرُ صَادِرٌ عَنِ اللَّهِ
 وَمُنَزَّلٌ عَلَى بَنِي آدَمَ مُنْذُ نَشَأَتِهِمْ فِي الْأَرْضِ.

القِسْطُ: هو العدل، وهو من المصادر التي يوصفُ بها، وَكَلِمَةُ
 «القِسْطُ» يوصفُ بها المفرد والمثنى والجمع.

يقال لغة: «قَسَطَ يَقْسِطُ قِسْطًا» أي: عدَلَ. ويقال: «أَقْسَطَ يَقْسِطُ»
 إِقْسَاطًا. فهو مُقْسِطٌ أي: عادِلٌ.

أما القِسْطُ بِفَتْحِ الْقَافِ والقُسُوطُ فهو الجورُ والعُدُولُ عن الحق،
 والقَاسِطُ هو الجائر.

وقد جاء في دين الله لعباده بيانُ أَحْكَامِ تَحْدِيدِ الْحَقُوقِ، وَأَحْكَامِ
 قَوَاعِدِ الْعَدْلِ، لِلْفَصْلِ بَيْنِ النَّاسِ فِي خُصُومَاتِهِمْ.

والعدلُ يكونُ بإعطاءِ كُلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ أو ما يُساويه، ويكونُ بمعاقبةِ المعتدي بما يعادلُ ما كان منه من عُذوانٍ وظُلْمٍ على صاحبِ الحقِّ.

القضية الثانية:

● ﴿...وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ۖ﴾: أي: وأمر بالصَّلَاةِ وقال لبني آدم كُلِّهِمْ: ﴿أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: أي: عندَ كلِّ صَلَاةٍ.

لفظ «مَسْجِدٍ» اسمٌ لمكان السُّجودِ، واسمٌ لزمانِ السُّجودِ، ومضدٌّ ميميٌّ لفعل «سَجَدَ».

السُّجودُ: هو وضعُ الجبهةِ على الأرض، ويُطلَقُ على الصَّلَاةِ لفظُ السُّجودِ، لأنَّه أبلغُ أركانها عُبوديَّةَ الله عزَّ وجلَّ.

ويُحْسَنُ أَنْ نحملَ لفظَ «مَسْجِدٍ» في الآيةِ هُنا على معانيهِ الثلاثةِ، أي: وأقيموا وُجُوهَكُمْ عندَ كُلِّ سُجودٍ، بمعنى كُلِّ صَلَاةٍ، وعندَ كُلِّ وَقْتِ صَلَاةٍ تسجدونَ لله فيها، وعندَ كُلِّ مكانٍ صَلَاةٍ تَعْبُدُونَ الله فيه، وتَسْجُدُونَ لله فيه.

فما المراد بإقامةِ الوجوهِ عندَ كُلِّ مَسْجِدٍ؟

أقول: يُقَالُ لُغَةً: أقام الشيءَ، أي: عَدَّلَهُ وأزالَ عَوَجَهُ، والإنسانَ حينَ يَنْصَبُ قَامَتَهُ، وَيَقِفُ على رِجْلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُعَدِّلُ قَامَتَهُ، وَيُزِيلُ كُلَّ عَوَجٍ وميلٍ فيها، كالرَّمْعِ الْمُتَنَصِّبِ الذي لا عَوَجَ فيه.

ومن اهْتَمَّ بِأَمْرِ لِعَمَلِهِ وإصلاحِ شأنه، فَإِنَّهُ يقومُ له، ليكونَ في أَحْسَنِ أحوالِ استعداده لبذلِ كُلِّ قُوَاهِ، مع غايَةِ الاهتمامِ والعنايةِ، بخلافِ مَنْ لا يقومُ له، بل يَعمَلُهُ قاعداً أو مضطجعاً.

فإقامةُ الوجوهِ في الصَّلَاةِ عندَ كُلِّ مَسْجِدٍ كِنَايَةٌ عن توجيهِ الاهتمامِ

والعناية التامة لعبادة الله عز وجل، استقبلاً للقبلة التي أمر الله باستقبالها، وتركيزاً للحواس الموجودة في الوجه لها معدلة غير مغوجة ولا مائلة، ولا شاردة ولا مذبذبة أو مغرصة، ويكون ذلك بتوجيه السمع والبصر واللسان معدلات في استقامة وتوجيه لعبادة الله عز وجل، ومن وراء الحواس الظاهرة الفكر والنفس والقلب، وبذلك يؤدي المصلي صلاته أداءً حسناً ظاهراً وباطناً.

فدل قول الله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ بظاهر اللفظ ولوازمه، على أول واجب عملي تعبدي ديني وهو أداء الصلاة المفروضة، مع ما ينبغي فيها من توجه تام للحواس الظاهرة والباطنة لعبادة الله جل جلاله وعظم سلطانه، حتى تثمر الصلاة ثمراتها المرجوة منها.

والوجه من كل شيء: هو ما يستقبل منه. والوجه من ذي الحياة، هو ما يستقبل فيه السمع والبصر والشم الذي فيه اللسان المعبر.

ومن الأمور الطبيعية أن من أراد جهة ما، أقبل إليها بوجهه وصدره، وكل ما يستقبله منه، ومعلوم أن حواس السمع والبصر واللسان أعظم الثوافد للحواس الباطنة استقبلاً وبثاً.

ومن وراء الوجه الذي يحتوي على أجل الحواس الظاهرة تقع مستقبلات الفكر والقلب والنفس، والصادرات عنها.

من أجل هذا جاء التعبير عن الإقبال على الشيء في النصوص القرآنية بعبارة التوجه له ونحوها، والمراد التوجه النفسي القلبي أحياناً كثيرة.

وعكس التوجه للشيء الإذبار عنه، ويكون بمقابلة الشيء بالدبر والظهر، ودونه، الإغراض واللي.

ودلت النصوص القرآنية المتعددة على أن التوجه بالوجه عنوان على

الإقبالِ لِمُمَارَسَةِ المطلوبِ الدِّينِيِّ بعناية واهتمام، سواءً أكان حِسِّيًّا جَسَدِيًّا، أم فِكْرِيًّا أم نَفْسِيًّا أم قَلْبِيًّا.

(١) فجاء بشأنِ تَحْقِيقِ عِبَادَةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ تَعْلِيمُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُوجِّهُوا وُجُوهَهُمْ لِلَّهِ وَخَدَهُ، اقتداءً بإبراهيم عليه السلام في قوله الذي جاء بيانه في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٧٩).

(٢) وجاء بشأن الإسلام لله إيماناً به، وطاعةً له، ورضاً بمقاديره، وعملاً بشرائعه، وتَقَرُّباً إِلَيْهِ بِالْعِبَادَاتِ، ورغبةً في ثوابه، وخوفاً من عقابه، ودُعَاءٍ لَهُ فِي مَطَالِبِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قول الله عز وجل في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٢).

فجاء التعبير في هذه الآية بإسْلَام الوجه إلى الله، وجاء نظير هذا في (البقرة - وآل عمران - والنساء) والإِسْلَام هو التسليم الكامل إلى الله عز وجل على مُرَادِهِ في كُلِّ شَيْءٍ.

(٣) وجاء بشأن الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَاةِ، قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا جَمِيعاً:

﴿قَدْ رَأَىٰ قَلْبُكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّيْتَكَ قِبْلَةً رَّضِيتَهَا قَوْلَ وَجْهِكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...﴾ (١٢٤).

(٤) وجاء بشأن توجيهه كامل العناية، وكلِّ الْقُوَى، للمطالب الدينية الشَّامِلَةِ بِمَضْمُونِهَا لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، التعبيرُ بِإِقَامَةِ الْوَجْهِ لِلدِّينِ، فقال الله عز وجل في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ...﴾ (٤٣) ﴿

مَرَدٌ: مصدر ميمي، أي: لا دَفْعَ لما يَجْرِي فيه من جزاء.

وقال الله عز وجل فيها أيضاً:

• ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَدِيمُ وَلَكِنْ كَثُرَ الْكُفْرُ أَكْثَرَ النَّكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٥) ﴿

(٥) وجاء بشأن أبتغاء رضوان الله عز وجل، في مجالات إنفاق الأموال في الطاعات والقربات، التعبير بابتغاء وجه الله، فقال الله عز وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) أيضاً:

﴿فَقَاتِلْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣٨) ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ ذِكْوَةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (٣٩) ﴿

فظهر لنا من هذه النصوص القرآنية أن التعبير بالوجه ذو دلالة حسية ومعنوية في الحسنيات، وذو دلالة معنوية في المعنويات، وأن الغرض من توجيه الوجوه جعل أجهزة البت والاستقبال في الإنسان مقابلة للجهة المعينة، التي حددت لاستقبال الواردات، وبت الصادرات، لتحقيق أحسن الظروف الملائمة، وأوفى المقاصد المزمجة.

القضية الثالثة:

• ﴿...وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٢٩) ﴿: أي: وأمر الله عز وجل بني آدم كلهم بأن يتوجهوا له بالدعاء، وقال لهم: ادْعُوا رَبَّكُمْ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، أي: مخلصين له الدعاء، لأن الدعاء من الدين، وهو من عناصر العبادة الكبرى، والعمل الديني لا يكون صحيحاً ولا جائزاً إلا أن يكون لله وحده، لا شريك له، إنه جل جلاله لا شريك له في ربوبيته، فلا شريك له في إلهيته.

وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لِلَّهِ يَكُونُ بِجَعْلِهِ خَالِصاً صَافِياً مُتَّقِياً مِنَ الشُّرْكَ، وَمِنَ الرِّبَا، وَمِنَ شَوَائِبِهِمَا.

هذه القضية من التعليم الديني الذي خاطب الله عز وجل به بني آدم مُنْذُ عَهْدِ نَشَأَتِهِمْ الْأُولَى عَلَى الْأَرْضِ، حَتَّى آخِرِ كَائِنٍ مِنْهُمْ فِي السُّلَالَاتِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَى الْأَرْضِ.

القضية الرابعة:

● ﴿.. كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۖ﴾ (٢٦): هذه العبارة تدل على أن من مبادئ الدين المنزل على بني آدم الأولين، مبدأ الإيمان باليوم الآخر، وهذا المبدأ قد خاطب الله عز وجل به جميع بني آدم حتى آخر كائن منهم في السُّلَالَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، فهو مما بلغه كُلُّ رَسُولٍ لَأُمَّتِهِ، وَسَبَقَ بَيَانُ أَنَّهُ مَعْلُومٌ لِلْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ مِنْ قَبْلِ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وجاء التعبير هنا عن اليوم الآخر بذكرِ فِقرَةٍ من الْفِقرَاتِ الَّتِي يُخْتَجُّ بِهَا عَلَى الشَّاكِّينَ بِالْبَعْثِ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، الَّذِينَ يَسْتَبْعِدُونَ إِعَادَةَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ يَصِيرُوا تُرَاباً، وَيَتَبَدَّدَ رُفَاتُهُمْ فِي تُرَابِ الْأَرْضِ.

وهذه الفقرة تدل على ما قَبْلُهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَمَنْ اسْتَبْعَدَ قَضِيَّةَ الْعُودَةِ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخَرَى، فَلْيَتَأَمَّلْ فِي قَضِيَّةِ بَدْءِ الْحَيَاةِ الْأُولَى، تَتَبَدَّدَ أَوْهَامُهُ.

فالمعنى: كَمَا بَدَأَ اللَّهُ خَلْقَكُمْ فَكُنْتُمْ بَشَراً أَحْيَاءَ، لَكُمْ مِنَ الصِّفَاتِ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِنْهَا شَيْءٌ، قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ خَلْقَكُمْ، فَإِنَّهُ يُعِيدُكُمْ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ يُمِيتَكُمْ وَيَجْعَلَكُمْ تُرَاباً، فَتَعُودُونَ إِلَى الْحَيَاةِ مُطَاوِعِينَ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لِإِرَادَاتِكُمْ فِي ذَلِكَ تَدَخُّلٌ بِشَيْءٍ، فَتَجْدُونَ أَنْفُسَكُمْ أَحْيَاءَ مَسْوَغِينَ إِلَى الْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِذِ الْجَزَاءِ.

كما بدأكم فصرتم أحياء مطاوعين، يعيدكم بعد الموت والفناء فتعودون إلى الحياة مطاوعين ليوم الجزاء.

القضية الخامسة:

● ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٠).

في هذه الآية تصوّر موجز لما سوف ينتهي إليه الأمر يوم الدين، بعد الحساب، وفضل القضاء، بين بني آدم الذين وضعهم الله عز وجل في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، إذ يكونون فريقين:

(١) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾: أي: فريقاً حكم الله لهم بالهداية، إذ كانوا قد اختاروا لأنفسهم في الحياة الدنيا طريق الهداية، فآمنوا بربوبية الله ولهيته، وأعلنوا إسلامهم له، ولم يشركوا به شيئاً.

(٢) ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾: أي: ثبت عليهم أنهم كانوا قد اختاروا لأنفسهم في الحياة الدنيا طريق الضلالة، فلم يحققوا أذنئ مظلوب الله منهم من إيمان وإسلام، فحكم الله عليهم في محكمة العدل يوم الدين بالضلالة فاستحقوا الخلود في عذاب النار، ولا معقب لحكم الله جلّ جلاله.

﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: أي: إنهم في الحياة الدنيا رَفَضُوا وِلَايَةَ اللَّهِ لَهُمْ، فَلَمْ يَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَهْدَايَتِهِمْ، بَلْ زَيَّنَتْ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ اتِّبَاعَ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَالْمَحْرَمَاتِ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَاتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ بِإِرَادَتِهِمْ الْحَرَّةَ، فَعَرَّثَهُمُ الشَّيَاطِينُ بِوَسَاوِسِهِمْ وَتَسْوِيلَاتِهِمْ وَإِطْمَاعَاتِهِمْ لَهُمْ بِالْبَاطِلِ مِنْ زُخْرِفِ الْأَفْكَارِ وَالْأَقْوَالِ. فَصَارُوا يُتَابِعُونَ فِي مَسِيرَاتِهِمْ خُطُواتِ الشَّيَاطِينِ أَنَا فَأَنَّا عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ، حَتَّى أَوْصَلْتَهُمْ إِلَى حَضِيضِ الضَّلَالَةِ، وَأَذْرَكْتَهُمْ مَنَآيَاهُمْ وَهُمْ فِي هَذَا الْحَضِيضِ.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٠): أي: ويقع في اعتقادهم أنهم

بِاتِّبَاعِهِمُ الْمُحَرَّمَاتِ مِنْ زِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، عَلَى خِلَافِ مَنْهَجِ اللَّهِ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، مُهْتَدُونَ إِلَى تَحْقِيقِ سَعَادَاتِهِمْ.

فَعَلَّ «حَسِبَ يَحْسَبُ» لَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي الظَّنِّ التَّوْهِيمِيِّ الْبَاطِلِ.

إِنَّهُمْ يَتَفَادُونَ لِلشَّيَاطِينِ بَدَوَافِعَ مِنْ دَاخِلِ أَنْفُسِهِمْ، وَيَسْعَوْنَ وَرَاءَهُمْ سَغِيًّا حَثِيثًا مَهْمَا تَعَثَّرُوا فِي سُبُلِهِمْ، وَمَهْمَا أَصَابُوا مِنْ مَتَاعِبَ وَمَشَقَّاتٍ، وَمَهْمَا نَزَلَتْ بِهِمْ مِنْ مَصَائِبَ وَنَكَبَاتٍ، وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ وَاصِلُونَ إِلَى أَمَانِيهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ ضَالُّونَ.

جَاءَ التَّعْبِيرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَمَّا سَوْفَ يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْأَمْرُ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، بِالْفِعْلِ الْمَاضِيِّ: ﴿فَرِيقًا هَذَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَحَقُّقِ وَقُوعِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، كَمَا تَحَقَّقَتِ الْأَحْدَاثُ الَّتِي مَضَتْ وَانْقَضَتْ.

وهذه العبارة هي بمثابة لقطةٍ مُقْتَطَعَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ الْمَوْعُودِ بِهِ، وَإِيرَادُهَا فِي سِبَاقِ وَسِيَاقِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ دِينٍ، لِبَنِي آدَمَ الْأَوَّلِينَ، مِنْذُ عَهْدِ آدَمَ، يُشِيرُ إِلَى أَنَّ مَضْمُونَ هَذَا الْبَيَانِ مِمَّا تَلَقَّاهُ بَنُو آدَمَ الْأَوَّلُونَ مِنْ تَعْلِيمِ دِينِيٍّ. وَدَلَّتِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْمَضْمُونَ هُوَ مِنْ أَسْسِ الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ كُلِّهَا لِبَنِي آدَمَ جَمِيعاً، مِنْ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى آخِرَ مَوْضُوعٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُوَضِّعِ الْإِمْتِحَانِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

إِنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ يُقَسَّمُونَ إِلَى فَرِيقَيْنِ أَعْظَمَيْنِ، مُؤْمِنِينَ وَكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَسَّمُ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمَا إِلَى زُمْرٍ، بِحَسَبِ دَرَجَاتِهِمْ الْارْتِقَائِيَّةِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، أَوْ دَرَكَاتِهِمْ الْانْحِدَارِيَّةِ الْهَابِطَةِ بِالْكَفْرِ وَارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ.



● قول الله عز وجل:

﴿يَنْبَغِي مَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ (٣٣) .

تمهيد:

في الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث، بيان لقضيتين من قضايا الدين التي أنزلها الله عز وجل على بني آدم، بدأ من ذرياته الأولين، وحتى آخر كائن موضوع في الحياة الدنيا موضع الابتلاء منهم، فهي من تعليمات الدين المنزلة على جميع المرسلين بعد آدم، وحتى خاتمهم محمد بن عبد الله صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين.

وفي الآيتين التاليتين إشارة إلى تحريفات الناس في الدين، حول هاتين القضيتين، بتخريم ما لم يحرمه الله جل جلاله، من زينته التي أخرجها لعباده، ومن الطيبات من الرزق، وفيهما تعليم جدلي حول تخريفاتهم الباطلات، وبيان حول أصول المحرمات الدينية الربانية، في الدين الذي اضطفاه الله عز وجل لعباده، وبلغته رسله الصادقون إلى أممهم.

التدبر:

القضية الأولى:

● ﴿يَنْبَغِي مَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾ (٣١):

سبق بيان أن لفظ «مسجد» يُطلق على مكان السجود، وزمان

السجود، وعلى السجود، باعتبار «مَسْجِد» مصدراً ميميّاً، لِفَعْل «سَجَد». فَبَنُوا آدم مأمُورون بأن يأخذوا زيتهم عند كلِّ صَلَاة، وعند كلِّ زَمَانِ صَلَاة يُؤَدُّونها، وعند كلِّ مَكَانِ صَلَاة يُؤَدُّونَ الصَّلَاةَ فيه، وقد جاء التعبير عن الصلاة بلفظ السجود. لأنَّ السجودَ أعظم أركانها، إذ هو دالٌّ على غاية الخضوع لله عَزَّ وَجَلَّ.

وسَبَقَ في هذا الدرس أن الله عَزَّ وَجَلَّ، قد امتنَّ على بني آدم بأنَّه أنزَلَ عليهم لباساً يوارِي سَوَاتِمَهم وريشاً.

ولَمَّا كانت السَّوَاتُ مُسْتَقْبَحَاتِ المنظر، فَإِنَّ سَتْرَهَا بِاللِّبَاسِ السَّاتِرِ من الزَّيْنَةِ.

ولَمَّا كَانَ من آداب عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في الصَّلَوَاتِ وفي الطَّوَافِ، ومن آداب المجامع الدينيَّة في المساجد، سَتَرُ ما يُسْتَقْبَحُ مَنَظَرُهُ، وهذا من أصول دين الله الَّذِي أنزَلَهُ على بني آدم منذ عَهْدِ آدم إلى آخِرِ رسالة أنزلها الله للناس، كان قولُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَبْنَیْ مَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قولاً يُبَيِّنُ الله تبارك وتعالى فيه ما أنزله على بني آدم الأولين فَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَيُوجِّهُهُ تَكْلِيفاً لبني آدم الآخِرِينَ، الَّذِيْنَ جَاءَتْ خَاتِمَةُ الرِّسَالَاتِ الرِّبَايَةِ لِبَلَاغِهِمْ وتكليفهم.

فَدَلَّلْنَا هذا على أَنَّ وجوبَ سَتْرِ العَوْرَاتِ عند كلِّ مَسْجِدٍ من الأحكام الثابتة في كلِّ الرِّسَالَاتِ الرِّبَايَةِ للناس.

والأَمْرُ بأخذِ الزَّيْنَةِ سَتْراً للعورات عند كلِّ مسجد، يُشْعِرُ بأنَّ تَحَلِّيَ الإنسانِ بمختلفِ أنواعِ الألبسة التي أنزلها الله للناس، مَأْذُونٌ به في الدين، بل قد يكونُ مطلوباً طَلَبَ نَذْبٍ وترغيب، باستثناء ما نزل تحريمه بالنص.

القضية الثانية:

• ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ...﴾ (٢٦):

هذه القضية من وصايا الدين وأحكامه التي أنزلها الله عز وجل، على بني آدم الأولين فمن بعدهم، حتى آخر كائن من ذريته، موضوع في الحياة الدنيا مَوْضِعِ الابتلاء.

أي: وَكُلُوا مِنْ كُلِّ مَأْكُولٍ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْكُمْ بالتعيين أو بالوصف، وَاشْرَبُوا مِنْ كُلِّ مَشْرُوبٍ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْكُمْ بالتعيين أو بالوصف.

والأَمْرُ بالأكل والشرب يُحْمَلُ على وجوه:

(١) فإذا كان تَرْكُ الأكل أو الشرب يُسَقِّمُ، أو يُمِيتُ، أو يُضْعِفُ عن القيام بما يجب القيام به، فالأَمْرُ للوجوب.

(٢) وإذا كان تَرْكُ الأكل أو الشرب يَضْعِفُ عن القيام بما يُنْدَبُ القيام به، فالأَمْرُ للذِّبِ.

(٣) وإذا كان تَرْكُ الأكل أو الشرب في بعض الأحوال لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ فالأَمْرُ للإِبَاحَةِ.

هذه الأحكام تُفْهَمُ من هذا النصِّ مجموعاً مع جُمْلَةِ نصوصٍ أخرى، وَتُفْهَمُ ضِمْنِ كُلِّيَّاتٍ عَامَةٍ من كُلِّيَّاتِ الدِّينِ المستخرجة من عِدَّةِ نصوص.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾: في هذه العبارة نَهْيٌ عن الإسرافِ في الأكل والشرب.

الإِسْرَافُ: هو تجاوز الحدِّ إلى ما يُؤْذِي أو يَضُرُّ.

والنهي عن الاسراف له أيضاً عدَّة وجوه:

(١) فإذا كان الاسرافُ في الأكل أو في الشرب ضاراً بالصَّحَّة، أو ضاراً بالآخرين من الناس، إذ يُقَلِّلُ مواردَهُمُ الغِذائيَّة، ويُوَقِّعُهُم في الجوع أو في العطش، فالنَّهْيُ للتحريم، إذ لَا يجوزُ في الدِّينِ لبغض الناس في المجتمع أن يُسْرِفُوا في مآكلهم ومشاربهم إسرافاً يَنْجُمُ عنه جُوعُ الآخرين

وظَمَّوْهُمْ. ولا يجوز للإنسان أن يُسرف في طعام أو شراب إسرافاً يُضِرُّ بصحته، ويُعرِّضه للأسقام والأمراض وهو يَعْلَمُ أن احتمالات الضرر راجحة.

وكذلك إذا كان الإسراف في الطعام أو الشراب يَمْنَعُ من القيام ببغض الواجبات، فالنهي عنه للتحريم.

(٢) وإذا كان الإسراف في الأكل أو في الشرب يَمْنَعُ من القيام بما يُندبُ القيامُ به ولا يضرُّ، فالنهي عنه للكرهية.

(٣) وإذا كان الإسراف في الأكل أو في الشرب ليس له أثر ضارٌّ أو مؤذٍ، ولا يَمْنَعُ من القيام بما يُندبُ القيامُ به، فالنهي عنه للإرشاد إلى ما هو الأفضل في الاقتصاد، والأفضل للمحافظة على السلامة وكمال الصحة في المستقبل، مع ما في ضبط النفس عن الإسراف من تدربٍ على قوة الإرادة، في مخالفة شهوات النفس، وعدم الانسياق وراء أهوائها ولذاتها التي إذا استشرت قادت إلى المهالك الدنيوية أو الأخروية.

قال علماء الصحة: قاعدة: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ تتضمن رأس قواعد الصحة غذاءً ووقايةً، أو ما يُسمَّى بالأمن الصحي.

وقال علماء الاقتصاد الغذائي: إن هذه القاعدة هي رأس قواعد الاقتصاد، للمحافظة على الأمن الغذائي.

وللتحذير من الإسراف بصورة عامة. قال الله عز وجل في ختام الآية: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على الله جل جلاله، وهذا يفهم من السباق والسياق. فالإسراف بوجه عام يوصل إلى الوقوع في المضار أو المهالك، أو الظلم أو التحريف في الدين، إلى غير ذلك من أمورٍ غير حميدة، والله لا يحب هذه الأشياء، فهو لا يحب من يعرض نفسه إليها.

التحريفات في الجاهليات الأولى لأحكام الألبسة والمآكل والمشارب الربّانية:

هذه الأحكام التي جاء بيانها في الآية (٣١) أحكام منزلة منذ عهد آدم عليه السلام، ومُتَّبَعَةٌ في الرِّسَالَتِ الرَّبَّانِيَّةِ، حَتَّى خَاتَمَتِهَا.

إلّا أنّها قد تعرّضت في تاريخ البشر للتحريفات من قِبَلِ شياطين الإنس والجن.

● فَوَجُوبُ أَخْذِ الزينة عند كلِّ مَسْجِدٍ قد تعرّضَ لتحريفاتٍ في الجاهلية قبل الإسلام.

ومن هذه التحريفات في الدِّينِ أَنَّ العربَ من غير قريشٍ كانوا يطوفون بالبيتِ الحرام «الكعبة المشرفة» عُرَاءَ، ويقولون: لا نَعْبُدُ اللهَ في ثيابٍ أَذْنَبْنَا فيها. واللّواتي يَسْتَحْيِينَ من نساء العرب كُنَّ يَطْفَنَ عَارِيَّاتٍ في اللَّيْلِ، لَكِنْ إِذَا وَجَدَ الْعَرَبِيُّ مِنْ يُعِيرُهُ ثَوْباً مِنَ الْقُرَشِيِّينَ، اسْتَعَارَهُ وَطَافَ فِيهِ، وَكَذَلِكَ إِذَا وَجَدَتِ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ تُعِيرُهَا ثَوْباً مِنَ الْقُرَشِيَّاتِ، اسْتَعَارَتْهُ مِنْهَا وَطَافَتْ فِيهِ.

ومن التحريفات في الدِّينِ بالنسبة إلى المآكل والمشارب التي أباحها الله عز وجل، تحريمُ العرب في الجاهلية بغضِ الأنعام، ضَمَنَ أوصاف وشروط خاصّة، وتحريمُهُم بعض المنتجات الزراعية، وتخصيصُها لأصنامهم. فلا يَطْعَمُ منها في زَعْمِهِمْ إلّا ما يَشَاءُونَ.

وكان للعرب في الجاهلية أحكامٌ افْتَرَوْهَا على الله، ومنها ما كانوا يُسَمُّونَه: «الْبَحِيرَةُ»، والسَّائِبَةُ، والوصيلة، والحام» وقد جاء بيانها في القرآن في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) في الآية (١٠٣) - وفي سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) في الآيات من (١٣٨ - ١٤٠) بشأن بعض الأنعام والحرث.

مما ورد من روايات بشأن التحريفات في أحكام الألبسة والمطاعم:

■ أما العُري الكامل في بعض العبادات الذي هو من تحريفات الجاهلية، فقد ورد بشأنه عدة روايات، منها ما يلي:

(١) روى مُسلمٌ والنسائي وابنُ أبي شَيْبَةَ وغيرهم، عن ابنِ عباسٍ: أَنَّ النِّسَاءَ كُنَّ يَطْفَنُ عُرَاءَهُ، إِلَّا أَنْ تَجْعَلَ الْمَرْأَةُ عَلَى فَرْجِهَا خِرْقَةً وتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَجْلَهُ

فنزَلَتْ: ﴿يَبْنِي مَا دَمَ خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

(٢) وأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وابنُ أَبِي حَاتِمٍ، وابنُ مَرْذُوقٍ، عن ابْنِ عَبَّاسٍ أيضاً في هذه الآية قال:

«كَانَ الرِّجَالُ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاءَهُ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالزَّيْنَةِ، وَالزَّيْنَةُ اللَّبَاسُ، وَهُوَ مَا يُوَارِي السُّوءَةَ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ جَيْدِ الْبَزِّ وَالْمَتَاعِ».

(٣) وروى ابْنُ جَرِيرٍ عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

«كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاءَهُ، الرِّجَالُ والنِّسَاءُ، الرِّجَالُ بِالنَّهَارِ، والنِّسَاءُ بِاللَّيْلِ».

(٤) وأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:

«كَانَتِ الْعَرَبُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاءَهُ إِلَّا الْخُمْسُ^(١)، وَالْخُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، فَكَانَ غَيْرُهُمْ يَطُوفُونَ عُرَاءَهُ، إِلَّا أَنْ يُعْطِيَهُمُ الْخُمْسُ ثِيَاباً، فَيُعْطِي الرِّجَالُ الرِّجَالَ، والنِّسَاءُ النِّسَاءَ».

(١) الْخُمْسُ: الْمُتَشَدُّونَ فِي الدِّينِ، وَقَدْ أَطْلَقَ الْقُرَشِيُّونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ خُمْسٌ، تَفَاخَرُوا بِأَنَّهُمْ مُتَشَدَّدُونَ فِي التَّمَسُّكِ بِالدِّينِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، عَلَى مَا هُمْ قَدْ ابْتَدَعُوهُ مِنْ تَحْرِيفَاتٍ جَاهِلِيَّةٍ.

وَرُوي عن عُرْوَةَ أَيضاً: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا وَصَلُوا إِلَى مِنًى، طَرَحُوا ثِيَابَهُمْ، وَأَتَوْا الْمَسْجِدَ عُرَاةً.

(٥) وَرُوي أَنَّ الْحُمْسَ كَانُوا يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الْحَرَمِ، فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنْ يَطُوفَ إِلَّا فِي ثِيَابِنَا، وَلَا يَأْكُلَ إِذَا دَخَلَ أَرْضَنَا إِلَّا مِنْ طَعَامِنَا. فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْعَرَبِ صَدِيقٌ بِمَكَّةَ يُعِيرُهُ ثَوْباً، وَلَا يَجِدُ مَا يَسْتَأْجِرُ بِهِ ثَوْباً مِنْ قُرَشِيٍّ، كَانَ بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ:

● إِمَّا أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرِيَاناً.

● وَإِمَّا أَنْ يَطُوفَ فِي ثِيَابِهِ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَلْقَى ثَوْبَهُ عَنْهُ، فَلَمْ يَمَسَّهُ أَحَدٌ، وَكَانَ ذَلِكَ الثَّوْبُ يُسَمَّى «اللَّقَى». قال شاعرهم:

كَفَى حَزْناً كَرِيَّ عَلَيْهِ كَأَنَّهُ لَقَى بَيْنَ أَيْدِي الطَّائِفِينَ حَرَامَ

■ وَأَمَّا تَحْرِيمُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ بَغْضَ الطَّيِّبَاتِ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، وَتَحْرِيفاً فِي دِينِ اللَّهِ الْمُرُوثِ، فَقَدْ وَرَدَ بِشَأْنِهِ عِدَّةُ رَوَايَاتٍ، مِنْهَا مَا يَلِي:

(١) رَوَى الطَّبْرِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ، أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا حَجُّوا حَرَّمُوا الشَّاةَ وَلَبَنَهَا وَسَمَنَهَا.

(٢) وَرُوي عن السُّدِّيِّ وَابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يُحَرِّمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْوَدَكَ^(١) مَا أَقَامُوا فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ.

فَكَانُوا لَا يَأْكُلُونَ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ إِلَّا قُوتاً، وَيَجْتَنِبُونَ الدَّسَمَ.

فَعَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَكُلَّ دَاعٍ إِلَى دِينِ اللَّهِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، مَنَاطِرَةً مُلْتَزِمِي هَذِهِ التَّحْرِيفَاتِ وَالْمُبْتَدَعَاتِ فِي الدِّينِ.

(١) الْوَدَكُ: هُوَ الدَّسَمُ وَالذَّهْنُ.

● قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ﴿٣٢﴾.

في هذه الفقرة يُعَلِّمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ، أسلوبَ مناظرةِ جدليَّةٍ، حوَّلَ التحريفات في الدين، الَّتِي افترتها الجاهليات قبل الإسلام، بشأنِ زيناتِ الملابس الَّتِي أخرجها الله لعباده، وبشأنِ الطَّيِّبَاتِ من الرزق.

أي: قل لهم يا مُحَمَّدٌ وَيَاكُلُ حَامِلٌ لِرِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَرَ بِأَخْذِ الزينة عند كُلِّ مَسْجِدٍ، وَأَمَرَ بِسِتْرِ الْعَوْرَاتِ مِنْذَ عَهْدِ بَنِي آدَمَ الْأَوَّلِينَ.

فَمَنْ هَذَا الَّذِي افترى عَلَى اللَّهِ فَكَلَّفَ الطائفين والطائفاتِ مِنْ غَيْرِ قُرَيْشٍ، وَمَا وَلَدَتْ قُرَيْشٌ، بَأَنْ يَطُوفُوا عُرَاةً بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ!!!.

وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَرَ بَنِي آدَمَ بَأَنْ يَأْكُلُوا وَيَشْرَبُوا مِمَّا يَشَاءُونَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، إِلَّا الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَيْهِمُ بِالْتَّغْيِينِ أَوْ بِالْوُضْفِ.

فَمَنْ هَذَا الَّذِي افترى عَلَى اللَّهِ، فَوْضَعَ قَوَاعِدَ التَّحْرِيمِ فِي الْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ، فَقَالَ: هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ، مَعَ أَنَّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَلَيْسَتْ مِنَ الْخَبَائِثِ!!!.

أي: هَلْ هَذَا الْمَحْرَمُ رَسُولٌ يُبَلِّغُ عَنْ اللَّهِ، أَمْ هُوَ كَذَّابٌ مُفْتَرٍ يَفْتَرِي عَلَى دِينِ اللَّهِ!!!.

والمعنى من توجيه هذا السؤال الإنكاري الجدلي، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْمَفْتَرِيَّاتِ فِي الْجَاهِلِيَّاتِ، بَلْ أَوْجَبَ بَعْضُهَا، وَنَدَبَ إِلَى بَعْضِهَا، وَأَبَاحَ بَعْضُهَا، وَكُلُّ حُكْمٍ مُخَالِفٍ لِحُكْمِ اللَّهِ هُوَ مِنَ الْعُدْوَانِ عَلَى رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَى إِلَهِيَّتِهِ، لِأَنَّ الْمُلْكَ مُلْكُهُ، وَالْخَلْقُ خَلْقُهُ، وَمَنْ لَهُ الْخَلْقُ فَهُوَ وَخْدَهُ الَّذِي لَهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَحَقُّهُ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ

يُطِيعُوهُ، لَا أَنْ يَفْتَرُوا عَلَيْهِ فِي الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ، وَيُشَارِكُوهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ
وَالْهَيْئَةِ.

وفي طَرَحِ هَذَا السُّؤَالِ الْجَدَلِيِّ مَطَالَبَةٌ لَهُمْ بِدَلِيلِ التَّحْرِيمِ، وَهُوَ لَا
يَكُونُ دَلِيلًا عَقْلِيًّا، لِأَنَّ مَوْضُوعَهُ مِنْ مَوْضُوعَاتِ الْعِبَادَاتِ الدِّينِيَّةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ
يَكُونُ دَلِيلًا نَفْلِيًّا عَنْ نَصِّ دِينِيٍّ صَحِيحٍ فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ أَوْ خَبَرٍ
صَحِيحٍ ثَابِتٍ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ، وَلَكِنْ يَجِدُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فِي نَصِّ
صَحِيحٍ ثَابِتٍ.

أَمَّا إِذَا كَانَ الْمَحْرُومُ لِهَذِهِ الْأُمُورِ زَعِيمًا أَوْ كَاهِنًا، أَوْ نَحْوَهُمَا، فَهُمْ
طَوَاعِيثُ يَفْتَرُونَ الْكَذِبَ فِي الدِّينِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ يَجْعَلُونَ أَنْفُسَهُمْ
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَهُمْ يُحْلَلُونَ وَيُحْرَمُونَ عَلَى مَا يَشَاءُونَ بِأَهْوَائِهِمْ،
فَأَقْوَالُهُمْ سَاقِطَةٌ، وَالْعَمَلُ بِهَا اتِّبَاعًا لَهُمْ هُوَ مِنَ الشَّرْكِ.

وَحِينَ لَا يَجِدُ الْمَسْئُولُونَ الدَّلِيلَ الْمُبْتَدَأَ لِمَا يُحْرَمُونَ مِنْ زِينَةِ اللَّبَاسِ
وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، فَإِنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْبُدُوا تَقَالِيدَهُمُ الْبَاطِلَةَ، وَيَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا يَتَّبِعُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ.

وَإِذَا اسْتَجَابُوا لِمَا أُلْزِمُوا بِهِ فِي نَهَايَةِ الْمَنَازِرَةِ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُضْغُوا إِلَى
التَّعْلِيمِ الَّذِي يُبَلِّغُهُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.



● قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ تُفَصَّلُ الْآيَةُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢).

أَي: قُلْ لَهُمْ مُعْلَمًا بَعْدَ أَنْ يُذْعِنُوا أَوْ تَدْمَغُهُمُ الْحُجَّةُ بِإِبْطَالِ أَحْكَامِ
الْجَاهِلِيَّةِ، حَوْلَ زِينَةِ اللَّبَاسِ، وَبَعْضِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْمَطَاعِمِ:

زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق، قد خلَقها الله لِيَتَنَفَّعَ وَيُسْتَمْتِعَ بها الَّذِينَ آمَنُوا وَغَيْرُهُمْ فِي الحياة الدنيا. لكنها سوف تكون يوم القيامة خَالِصَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا فقط، فَلَا يُشَارِكُهُمْ فيها الكافرون يومئذٍ، لأنها يومَ الدين من أضياف نعيم أهل الجنة.

ولم يَذْكُرِ الله عز وجلْ غَيْرَ المؤمنين في الانتفاع بها في الحياة الدنيا، اكتفاءً بقوله جلّ جلاله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: حالة كونها خَالِصَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا يومَ القيامة، ولأنَّ الكافرين لا يَهْمُهُمْ حُكْمُ الإِبَاحَةِ الرِّبَانِيَّةِ، حَتَّى تَكُونَ تَصَرُّفَاتُهُمْ مَتَقِدَّةً بما أباح الله، بل هم يَتَنَفَّعُونَ مِمَّا مَكَّنَهُمُ اللهُ من الانتفاع به كَيْفَ كَانَ حُكْمُ اللَّهِ فِيهِ حَلَالًا أَمْ حَرَامًا، فالمُنَاسِبُ فِي النِّصِّ بِالنُّسْبَةِ إِلَيْهِمْ هو الإِعْرَاضُ عَنْ ذِكْرِهِمْ بِصَرِيحِ العبارة. ﴿خَالِصَةً﴾: بالرفع في قراءة نافع، أي: وهي خَالِصَةٌ لَهُمْ يومَ القيامة، على أَنَّ اللَّفْظَ خَبَرٌ ثَانٍ.

● ﴿.. كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢): أي: كَذَلِكَ التعلِيم والبيان الذي سبق مُفْصَلًا، حَوْلَ الْأَخْبَارِ، والشرائع، والأحكام، مِنْ بَدْءِ السُّورَةِ حَتَّى هَذِهِ الْآيَةِ، سَنُقْصِلُ فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي سَنُنْزِلُهَا، وَهَذَا التَّفْصِيلُ سَيَكُونُ مُوَجَّهًا لِمَنْ هُمْ مُهْتَمُّونَ بِأَنْ يَعْلَمُوا مَا يُنْزَلُ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ حَتَّى يَتَّبِعُوهُ، فَهُمْ يَتَلَقَّوْنَ الْآيَاتِ، وَيَتَذَبَّرُونَهَا، فَيَعْلَمُونَ دَلَالَاتِهَا جُمْلَةً فَجُمْلَةً وَفَقْرَةً فَفَقْرَةً، وَقَضِيَّةً فَقَضِيَّةً، دِرَاسَةً وَبَحْثًا وَتَأْمُلًا، بَغِيَّةً اتِّبَاعَهَا، وَالْعَمَلُ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ وَصَايَا وَأَحْكَامٍ وَتَوْجِيهَاتٍ.

● قول الله تعالى لرسوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ (٣٣).

هذه الآية تابعة لما أمر الله به رسوله أن يقوله للملتزمين بجاهليّاتهم،

في أحكام ما أنزل الله بها من سلطان، بل هي مفتریات ومُبْتَدَعَاتٍ ابْتَدَعُوها، وجَعَلوها دِيناً.

وفي هذه الآية حَضَرُ للمَحَرَّمَاتِ الَّتِي حَرَّمَها الله الرَّبُّ جَلَّ جلالُهُ، في كَلِمَاتٍ خَمْسٍ، هي كَلِمَاتٌ أَصُولٌ في كُلِّ رِسَالَاتِ اللَّهِ السَّابِقَاتِ لِبَنِي آدَمَ، وهي مَسْتَوْرَآتُ التَّحْرِيمِ بِحِكْمَةِ اللَّهِ، لا تَتَعَرَّضُ لِتَسْخِخِ.

[إِنَّمَا] أَذَاةٌ حَصَرَ، بِمَعْنَى: «مَا» و«إِلَّا» فَمَعْنَى: [إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي]: مَا حَرَّمَ رَبِّي إِلَّا، وَالْحَضَرُ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ غَيْرِ الْمَحْصُورِ.

الْكَلِمَةُ الْأُولَى: الْفَوَاحِشُ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

الْفَوَاحِشُ: جَمْعُ «الْفَاحِشَةِ» وَهِيَ الْفُحْشُ وَالْفَحْشَاءُ فِي اللُّغَةِ: كُلُّ قَبِيحٍ تَجَاوَزَ حَدَّ مَا يُحْتَمَلُ وَيُغْضَى عَنْهُ عَادَةً مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

قال أهل اللُّغَةِ: كُلُّ شَيْءٍ جَاوَزَ قَدْرَهُ وَحَدَّهُ فَهُوَ فَاحِشٌ، وَقَالُوا: الْفُحْشُ وَالْفَحْشَاءُ وَالْفَاحِشَةُ، الْقَبِيحُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَكُلُّ خَصْلَةٍ قَبِيحَةٍ.

وقد نَظَرْتُ فِي الاسْتِعْمَالَاتِ الْقِرْآنِيَّةِ لِهَذِهِ الْمَادَّةِ، فَوَجَدْتُ أَنَّهَا تَدُورُ خَوْلَ الْكَبَائِرِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِشَهَوَاتِ الْفُرُوجِ، وَتَرْجِعُ لَدَيَّ أَنْ يُحْمَلَ مَا جَاءَ مِنْهَا مُطْلَقاً لَمْ تُبَيِّنْهُ الْقِرَائِنُ عَلَى مَا جَاءَ مِنْهَا مُبَيَّنّاً بِالْقِرَائِنِ، فَهِيَ فِي الاسْتِعْمَالِ الْقِرْآنِيِّ مُخَصَّصَةٌ بِهَذَا الْإِطَارِ مِنَ الْمَعَاصِي اصطلاحاً.

(١) فِي سِوَةِ التَّمَلُّ/ ٢٧ مِصْحَف/ ٤٨ نَزُولِ) جَاءَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

فِي حِكَايَةِ قِصَّةِ قَوْمِ لُوطٍ وَمُمَارَسَاتِهِمُ الشَّاذَّاتِ:

﴿وَلَوْ مَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾

أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

(٢) فِي سِوَةِ (الْإِسْرَاءِ/ ١٧ مِصْحَف/ ٥٠ نَزُولِ) جَاءَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ

وَجَلَّ فِي النَّهْيِ عَنِ الزُّنَى.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَفَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٢٦﴾.

(٣) وفي سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) جاء قول الله عز وجل في حكاية قصة قوم لوط. وإتيانهم الرجال شهوة:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَافِحُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَلَكِينَ ۝٢٧﴾.

أي: أنتم أكثر الناس مُمَارَسَةً لهذه الفاحشة الشاذة، الخارجة عن نظام الخلق الرباني السوي.

(٤) وجاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قول الله عز وجل:

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ۝٢٨﴾.

وجاء فيها أيضاً قول الله عز وجل:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَفَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٢٩﴾.

(٥) وجاء في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بشأن حديث الإفك قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَحِشَةُ فِي الدِّينِ ؕ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾.

من هذه النصوص ترجح لدي أن المراد بلفظ «الفاحشة» والفواحش في الاصطلاح القرآني ما يتعلّق بالمحرمات الكبائر من شهوات الفروج.

● أما ما ظهر من الفواحش، فهي الفواحش المغلّنة في بيوت الزنا الخاصة، وما كان من قبيل الفواحش التي تُمارَس في الطُرقات والحدائق العامة في بلاد الكفر، ونحو ذلك.

● وَأَمَّا مَا بَطَّنَ مِنَ الْفَوَاحِشِ، فَهِيَ الْفَوَاحِشُ الَّتِي تَكُونُ فِي السِّرِّ مَعَ الْخَلِيلَاتِ وَالصَّدِيقَاتِ، وَالْأَخْدَانِ، وَنَحْوِهِنَّ.

وقد يُلْحَقُ بما بَطَّنَ مِنَ الْفَوَاحِشِ تَمَنِّي الْفَاحِشَةِ وَإِرَادَتُهَا مَعَ عَدَمِ التَّمَكُّنِ مِنْ مُمَارَسَتِهَا، فَإِرَادَةُ الْمَغْصِيَةِ الَّتِي يَمْنَعُ مِنْ تَحَقُّقِهَا مَا نَعِ خَارِجِي تَسَاوِي اِزْتِكَابِهَا فِعْلًا، وَهَذِهِ الْإِرَادَةُ الْجَازِمَةُ مَعَ وَجُودِ الْمَانِعِ الْخَارِجِيِّ هِيَ مِنَ الْفَوَاحِشِ الْبَاطِنَةِ.

الكلية الثانية: الإِثْمُ، وجاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بيان أن الإِثْمَ منه ما هو ظاهر، ومنه ما هو باطن، فقال الله عز وجل فيها.

﴿وَدَرَوْا ظَهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ (١٢٦).

الإِثْمُ: فِي اللَّغَةِ، الذَّنْبُ، وَقَدْ نَظَرْتُ فِي التُّصُوصِ الْقُرْآنِيَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِيهَا مَادَّةُ «الْإِثْمِ» فَظَهَرَ لِي أَنَّ «الْإِثْمَ» مُسْتَعْمَلٌ فِي الْقُرْآنِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى جَمِيعِ الْمَعَاصِي كِبَائِرِهَا وَصَغَائِرِهَا، وَمَا بَيْنَهُمَا.

فَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ أَكَلَ الْمَيْتَةِ مِنْ دُونِ اضْطِرَارٍ لِأَكْلِهَا، إِثْمٌ. وَأَنَّ تَبْدِيلَ نَصٍّ وَصِيَّةِ الْمُوصِي عَمَّا كَتَبَهُ أَوْ أَمْلَأَهُ عَلَى الْكَاتِبِ، إِثْمٌ. وَأَنَّ أَكَلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، إِثْمٌ. وَأَنَّ شُرْبَ الْخَمْرِ وَأَكَلَ الدَّمِ وَلَحْمِ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلُ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، إِثْمٌ. وَأَنَّ أَقْوَالَ الْكُفْرِ، إِثْمٌ. وَأَنَّ قَذْفَ أَهْلِ الْعِفَّةِ، إِثْمٌ. وَأَنَّ بَغْضَ الظَّنِّ، إِثْمٌ. وَأَنَّ الشُّرْكَ، إِثْمٌ عَظِيمٌ. وَأَنَّ افْتِرَاءَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ، إِثْمٌ مُبِينٌ. وَأَنَّ كَيْثَمَانَ الشَّهَادَةِ، إِثْمٌ، وَهَذَا مِنَ الْإِثْمِ الْبَاطِنِ، لِأَنَّهُ سَكُوتٌ عَنِ الْحَقِّ، فَهُوَ مِنْ إِثْمِ الْقُلُوبِ. وَأَنَّ أَكَلَ الرِّبَا مِنَ الْإِثْمِ.

وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ بَيَانُ أَنَّ الْمَعَاصِيَ الَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا لَفْظُ «الْإِثْمِ» مِنْهَا مَا هُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ بِالتَّدرُّجِ حَتَّى الصَّغَائِرِ الصُّغْرَى.

وَعَلَى هَذَا فَالْفَوَاحِشُ تَدْخُلُ فِي عُمُومِ الْإِثْمِ، إِلَّا أَنَّهَا تَنْفَرِدُ بِمُصْطَلَحِ

خاص بها، تمييزاً لها عن سائر الآثام، لأن لها أحكاماً خاصة، ولأن مزالق النفوس إليها كثيرة.

وظاهر الإثم ما هو مُغلَّن منه، أما باطن الإثم فما كَانَ منه في السرِّ، ويدخل في عموم باطن الإثم ما كان منه من أعمال القلوب والنفوس الإرادية، كالتفاق في دائرة الكفر، وبعض أنواع الشرك الخفي الذي يكون في القلوب والنفوس. وكالرِّياء المحبِّط للعمل، والنيات الفاسدات من وراء الأعمال، والعزم على المغيصة التي مَنَعَ من فعلها أو ممارستها مانع خارجي، وكالحسد المنهي عنه شرعاً، وتدبير الخطط للإضرار بأحكام الدين، أو الإضرار بعباد الله في أنفسهم أو في أموالهم، أو في أعراضهم.

الكلية الثالثة: البغي.

البغي: هو العدوان، والظلم، والعدول عن الحق، والاستطالة على الناس بغير حق.

وأصل البغي تجاوز الحد المأذون به في السلوك الإرادي إلى ما يضرُّ ويؤذي، ويأتي البغي بمعنى الحسد، قيل: وأصل البغي الحسد، ثُمَّ سُمِّي الظلم بغيًا، لأنَّ الحاسدَ يَجْتَهِد في أن تَزُولَ نعمة الله عن المحسود.

وتَحْرِيمُ البغي يَشْمَلُ مَا ظَهَرَ مِنْهُ وَمَا بَطَّنَ، لَأَنَّهُ يَدْخُلُ فِي عُموم الإثم.

ومن استقراء النصوص القرآنية، ظهر لي أَنَّ المراد بالبغي فيها الظلم والعدوان على حقوق الأفراد والجماعات.

ولمَّا كَانَ الفَسَادُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْعُدْوَانِ عَلَى حَقُوقِ الْجَمَاعَاتِ أَوْ الْأَفْرَادِ، كَانَ مَشْمُولاً بِعُنْوَانِ البغي.

وقد خُصَّ البغي بالذكر مع أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي عُموم الإثم، لِتَوْجِيهِهِ اهْتِمَامَ

المؤمنين، للحدِّر الشديد من العدوان والظلم في الحقوق الخاصّة والعامة، ومن الفساد في الأرض، إذ هي من كبائر الذنوب التي يَخْصُّها الله عزَّ وجلَّ بعقوبات معجّلات، مع ما يدخر لمرتكبيها من عُقوباتٍ مؤجّلاتٍ إلى يوم الدين.

وفي هذا التوجيه تنبيهٌ على أنَّ المؤمنين مطالبون بمكافحة العدوان والظلم والفساد في الأرض، تحقيقاً للأمن.

وجاء تقييدُ البغي بـ «بغْيِ الحقِّ» في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْبَغْيَ يَغْيِرُ الْحَقُّ﴾ لإخراج ما قد يُسمَّى بحسب الظاهر بغياً، وهو في الحقيقة قَمَعٌ للبغْيِ.

كمقاتلةِ الفِئاتِ الباغيةِ، مُعاملةُ لها بمثلِ أعمالها، لِقَمَعٍ ما تقوم به من بغيٍّ، ولَوْ أدَّتْ هَذِهِ الْمُقَاتَلَةُ إِلَى ظُلْمٍ بَغْضٍ أَفْرَادٍ جَمَاعَاتٍ الْبَغَاةِ، لَعَدِمَ إِمْكَانُ التَّمْيِيزِ.

وكقِيَامِ بَغْضِ أَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ ضَمْنِ اجْتِهَادِ مَقْبُولِ شَرْعاً، بِتَصَرُّفَاتٍ يَقْصِدُ بِهَا تَأْمِينَ النَّاسِ، أَوْ تَأْمِينَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَهَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ قَدْ يَسْمِيهَا النَّاسُ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ عُذْوَاناً وَظُلْماً وَبَغْياً، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ لِقَمَعُ أَهْلِ الْمَكْرِ وَالْكِيدِ الَّذِينَ يُبْغُونَ الشَّرَّ وَالْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ.

ومن البغي ما هو ظاهر وباطنٌ، لَأَنَّهُ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ الْإِثْمِ، وَمِمَّا بَطَّنَ مِنَ الْبَغْيِ تَدْبِيرِ الْمَكَايِدِ الْخَفِيَّةِ، كَالْغِيْبَةِ، وَالنَّمِيمَةِ، وَالسُّخْرِ، وَالْوَشَايَاتِ الَّتِي يَنْجُمُ عَنْهَا إِضْرَارٌ بِالْآخَرِينَ بِغَيْرِ حَقٍّ. وَمِمَّا ظَهَرَ مِنَ الْبَغْيِ الْعُدْوَانُ الصَّرِيحُ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ، وَمِنْهُ شَهَادَةُ الزُّورِ، وَالْبَهْتَانُ، وَأَنْوَاعُ الشَّتَائِمِ وَالسَّبَابِ، وَالْإِثْمُ بِالْبَاطِلِ.

الكلية الرابعة: الشُّرْكُ بِاللَّهِ.

الشرك بالله جلَّ جلاله قسمان: شُرْكٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَشُرْكٌ فِي إِلَهِيَّتِهِ، ومن الشرك ما هو ظاهر، ومنه ما هو باطنٌ خفيٌّ.

إِنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ خَالِقاً رَبّاً لَهُ كُلُّ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، أَوَّلُ الْحَقَائِقِ
وَالْمَطَالِبِ الدِّينِيَّةِ، وَيَقْتَرِنُ بِهَا تَقَرُّدُهُ بِهَذِهِ الرُّبُوبِيَّةِ إِذْ لَا يُوجَدُ رَبٌّ غَيْرُهُ.

وقد قام على تَقَرُّدِ اللَّهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وبالوجود الأزلِي دَلِيلُ الْعَقْلِ، الْمُسْتَنْدُ
إِلَى الظَّاهِرَاتِ الْكُونِيَّةِ، وَدَلِيلُ الْخَبَرِ عَنِ اللَّهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ كُلُّ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ
وَرُسُلِهِ، مِنْذُ عَهْدِ آدَمَ حَتَّى خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

فَمَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ شَرِيكاً لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ مِنْ أَحْيَاءَ أَوْ أَشْيَاءَ، أَوْ قَوَانِينَ
سَبَبِيَّةٍ، فَقَدْ كَذَّبَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَكَذَّبَ أَخْبَارَ الْمُرْسَلِينَ، وَظَلَمَ حَقَّ رَبِّهِ
عَلَيْهِ، فَهُوَ بِشْرِكِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ. وَأَشَدُّ مِنْهُ كُفْراً وَظُلْماً مَنْ أَنْكَرَ وَجُودَ الرَّبِّ
الْخَالِقِ، أَوْ أَنْكَرَ بَعْضَ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الَّتِي هِيَ صِفَاتُ الْكَمَالِ الْمَطْلُوقِ.

وبعد الإيمان بالله ربّاً لا شريكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، تَأْتِي الْحَقِيقَةُ الثَّانِيَّةُ،
وَهِيَ الْإِيمَانُ بِالْإِلَهِيَّةِ الرَّبِّ الْخَالِقِ، وَبِأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ.

فَاللَّهُ وَخَدَهُ هُوَ الَّذِي لَهُ عَلَى عِبَادِهِ حَقٌّ أَنْ يَغْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا
بِعِبَادَتِهِ أَحَداً، وَلَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شَيْئاً.

وقد قام دليلُ الْعَقْلِ، وَدَلِيلُ الْخَبَرِ عَنِ اللَّهِ، عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الثَّانِيَّةِ.

● أَمَّا دَلِيلُ الْعَقْلِ، فَمِنْ بَدَهِيَّاتِ الْعُقُولِ، أَنَّ مَنْ أَنْعَمَ بِشَيْءٍ عَلَى
غَيْرِهِ، كَانَ لَهُ حَقٌّ اعْتِرَافِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بِذَلِكَ.

وَأَنَّ مَنْ كَانَ هُوَ الْخَالِقُ الْمَوْجِدَ مِنَ الْعَدَمِ، كَانَ مِنْ حَقِّهِ عَلَى
الْمَخْلُوقِ أَنْ يَخْضَعَ لَهُ وَيُطِيعَهُ، لِأَنَّهُ مِلْكُهُ، فَإِذَا كَانَ هُوَ الْمُجِدُّ لَهُ بِالْبَقَاءِ
وَبِالنَّعْمِ الْجَلِيلَةِ، وَبِالتَّكْرِيمِ وَالتَّفْضِيلِ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّا خَلَقَ، فَإِنَّ مِنْ حَقِّهِ عَلَيْهِ
أَنْ يُقَابَلَهُ بِالشُّكْرِ وَلَوْ ضَمَّنَ الْحُدُودَ الدُّنْيَا.

هَذِهِ هِيَ الْعُنَاصِرُ الْأُولَى لِعِبَادَةِ الْمَخْلُوقِ لَخَالِقِهِ، فَالْوَاجِبُ الْبَدَهِيُّ
عَلَى الْمَخْلُوقِ أَنْ يَكُونَ عَابِداً لَخَالِقِهِ وَرَازِقِهِ وَالْمُنْعِمِ عَلَيْهِ عِبَادَةً إِرَادِيَّةً.

ومن الْبَدَهِىَ أَيْضاً أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ مَعْبُوداً مِنْ قَبْلِ الْمَخْلُوقِ، عِبَادَةً إِرَادِيَّةً، أَيْ: أَنْ يَكُونَ إِلَهاً لَهُ.

وبما أَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَا مَعْبُودَ إِلَّا اللَّهُ، أَيْ: فَلَا إِلَهَ هُوَ مُعْبُودٌ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، تَبَارَكَتْ صِفَاتُهُ، وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

● وَأَمَّا دَلِيلُ الْخَبَرِ عَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، الَّذِي هُوَ صَاحِبُ الْحَقِّ، فَمَا مِنْ نَبِيٍّ وَلَا رَسُولٍ إِلَّا أَخْبَرَ عَنِ اللَّهِ، بِأَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ كُلَّ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَيَنْتَهِاهُمْ عَنْ أَنْ يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أَحَدًا، أَوْ شَيْئًا مِثْلَهُ.

هذه الكلية الرابعة من الكليات المحرّمات، قد جاءت في الآية بعبارة: ﴿...وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا...﴾ (٣٣).

السُّلْطَانُ هُنَا: الْحُجَّةُ وَالْبِرْهَانُ.

وَيَتَسَاءَلُ الْمَتَدَبِّرُ: لِمَ جَاءَ قَيْدُ: «مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا»؟! وَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سُلْطَانًا بِاتِّخَاذِ شُرَكَاءَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ؟؟.

أقول: هَذَا مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، تَكْرِيمٌ لِلْأَفْكَارِ وَالْعُقُولِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَمَا مَنَحَ النَّاسَ مِنْ أَدَوَاتٍ مَعْرِفِيَّةٍ، يُمَكِّنُ أَنْ تَتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى حَقَائِقِ الْأُمُورِ.

فَأَعْطَاهَا الْحَقَّ فِي أَنْ تَجَادِلَ عَنْ أَفْكَارِهَا، وَمَعْتَقِدَاتِهَا، بِمَا مَنَحَهَا مِنْ قُدْرَاتٍ اسْتِدْلَالٍ، وَتَقْدِيمِ حُجَجٍ بَرَهَانِيَّةٍ.

فَمَنْ كَانَ لَدَيْهِ سُلْطَانٌ حُجَّةٍ، مَكَّنَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ تَقْدِيمِهَا، بِمَا أَنْزَلَ لِعِبَادِهِ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُثَبِّتَ بِهَا أَنَّ اللَّهَ شَرِيكاً فِي رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَغْذُرُهُ، وَيَرْفَعُ عَنْهُ الْمَوَاحِدَةَ.

ومن كان لَدَيْهِ خَبْرٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ عن رُسُولٍ من رُسُلِ الله، يُثَبِّتُ بَيِّقِينَ أَنَّ اللهَ شَرِيكاً في رُبُوبِيَّتِهِ، أو في إِلَهِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ يُغْفِي نَفْسَهُ أَيْضاً من المُواخَذَةِ عند رَبِّهِ.

أما مَنْ تَرَكَ بُرْهَانَ العقل، والثابتَ من النقلِ عن اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ، واعْتَمَدَ على الأوهام، وعلى مَا لَا يَصْلُحُ لَأَن يَكُونَ دليلاً، وَاتَّبَعَ الكَذَّابِينَ، والمُخَرِّفِينَ، والمُوسُوسِينَ من شياطين الجنِّ والإنسِ، فَإِنَّهُ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِلْإِدَانَةِ، بِأَنَّهُ من المُشْرِكِينَ الكَافِرِينَ، وبِأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ أَن يَكُونَ في جَهَنَّمَ دَارَ الْعَذَابِ يومَ الدِّينِ، مع الخالدين في العذاب المُهِينِ.

فَمَعَ أَنَّ الأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِحَقِّ الله عَزَّ وَجَلَّ على عباده، في رُبُوبِيَّتِهِ، أو في إِلَهِيَّتِهِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لم يجعله أَمْراً تَحْكُمِيّاً، وَإِنَّمَا جعل له بَرَاهِينَ عَقْلِيَّةً وَعِلْمِيَّةً، وقد آتَى الله عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ وسائلها، فهو يحاسبُهُمْ بِمَقْتَضَاهَا، وَيُطَالِبُهُمْ أَن يَسْتَنِدُوا إِلَيْهَا، وَمَكَّنَهُمْ من أَن يَحَاجُّوا بِهَا.

هَذِهِ هي منطقِيَّةُ دِينِ اللّهِ الْإِسْلَامِ، إِنهَا تَقُومُ على مَقُولَةٍ: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» ولا تقومُ على مثل مقولة النصارى: «اغْتَبِذْ وَأَنْتَ أَعْمَى».

على أَنَّ اللهَ جَلَّتْ حُكْمَتُهُ، وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، لو أَمَرْنَا أَن نَعْبُدَ بَعْضَ خَلْقِهِ، لكان يجب علينا أَن نطيع أَمْرَهُ.

لَكِنَّ حُكْمَتَهُ الْعَلِيَّةَ قَضَتْ بِأَن يُفَرِّدَ نَفْسَهُ بِالْعِبَادَةِ، لِثَلَا يَكُونَ الشَّرْكُ في العِبَادَةِ دليلاً على الشَّرْكِ في الرُّبُوبِيَّةِ، وعندئذٍ يَنْتَقِضُ أَصْلُ التَّوْحِيدِ، الَّذِي هو قاعدة الامتحان الكبرى، في الإيمان بالغيب، بِأَدْلَتِهِ الْبَرهَانِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، وهذا أَمْرٌ يَتَنَافَى مع كمال الحكمة الرُّبُوبِيَّةِ، فهو لا يكون.

الْكَلِمَةُ الْخَامِسَةُ: أَن يَتَقَوَّلَ الْعِبَادُ على الله ما لا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ من عِنْدِ الله حَقّاً وَصِدْقاً، ولو بَعَلْبَةِ الظَّنِّ.

دَلَّ على هذه الكَلِمَةِ قولُ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ في الآية:

﴿...وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٣).

أي: وأن تقولوا افتراءً على الله قولاً لا تعلمون علماً صحيحاً مستنداً إلى خبر صحيح عن المغضوم، أن الله عز وجل قد قاله.

● فمن أمثلة هذا الافتراء على الله عز وجل ادعاء اليهود أنهم لن تمسهم النار مهما كفروا أو أجزموا إلا أياماً معدودة قليلة.

وفي بيان هذه الفرية اليهودية، قال الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) في معرض الحديث عن اليهود:

● ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخِذُكُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠).

● ومن أمثلة هذا الافتراء على الله عز وجل ادعاء بعض المشركين، وادعاء النصارى، وغيرهم، أن الله سبحانه وتعالى اتخذ ولداً.

وفي بيان هذه الفرية قال الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨) قُلْ لِلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾.



هذه هي الكليات الخمس التي حصر الله عز وجل فيها المحرمات التي حرّمها على جميع بني آدم، في كل رسالاته التي بعث الله بها رسله، بدأً بآدم عليه السلام، حتى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

ونُلاحظُ في حصر المحرّماتِ بهذه الكلّياتِ الخمسِ جمعاً لكلِّ مفرداتِ المحرّماتِ التفصيليّة، فليس منها محرّماتِ أهلِ الجاهلية، كتخريم أخذ زيتيّهم في الطواف، وكتحريم بعض الطيّباتِ من الأطعمة.

وفي بيانها إشارةً إلى أنّ أهلَ الجاهلية يرتكبون المحرّماتِ، التي حرّمها الله في كلّ رسالته لبني آدم، فلا يتورّعون عن ارتكاب الفواحشِ ما ظهرَ منها وما بطنَ، وارتكاب أنواع الإثم، ولا يتورّعون عن البغيِّ بغير الحقِّ، بل هم يُشركون بالله ما لَمْ يُنزلْ به سلطاناً، فيركّبون مركّب الكُفر بذلك، وهم يقولون افتراءً على الله ما لا يعلمون.

في حين أنّهم يُحرّمون باسم الدين ما أحلَّ الله لبني آدم جميعاً، في كلّ رسالته لهم، كالطواف بثياب عَصَوْوا والله فيها بزعمهم. وكتحريم بعض الطيّباتِ من الأنعام والحرث، وكلُّ ذلك من اتباع أولياء من دون الله.



قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

تمهيد:

هذه الآية موصولة بما جاء في الآيتين (الرابعة والخامسة) من الدرس الأوّل من دروس السورة، اللَّتَيْنِ جاءَ فيهما الإنذارُ باحتمال إهلاك كُفّارِ قريشٍ إهلاكاً عاماً شاملاً، إذا وصلَتْ حالُّهم إلى مثل أحوال المهلكين الأولين، من أهل القرون السابقة.

إنّ هذا الإنذار من شأنه أن يُحرّك نفوسَهُم لطرح السؤال التالي: ما هو الأجلُ المحدّد لإنزالِ هذا العقابِ المعجّل، إذا كان الإنذارُ أمراً جديّاً صادقاً.

فأنزل الله عز وجل هذه الآية (٣٤) في أثناء الدرس الثالث، فأبان فيها أن آجال إهلاك الأمم الكافرة، التي كذبت رسل ربها، وأكثر الفساد في الأرض، آجال مقترنة بتحديد من الله عز وجل على وفق حكمته.

إن إنزال الإهلاك العام الشامل في الأمم يلاحظ فيه أحوال عموم الأفراد، متبوعين وتابعين، قادة ومفودين، ولا يلاحظ فيه أفراد القادة فقط، أو أفراد منهم مع بغض أتباعهم.

فاستبطأ نزول العقاب الشامل، بعد التهديدات المتكررات، أمر يدل على قصر النظر، والجهل بحكمة الله عز وجل في تربية الأمم، وتصاريفه في عقابهم، أو إمهالهم حتى آخر قطرة زمنية يقترن بها في علم الله، أن الأمة ما زالت فيها بقيّة لم ينقطع معها ترقب استجابة بعض أفرادها لدعوة الخير، ودخولهم في دين الله.

وحين يغلم الله عز وجل، أن الإمهال غير ذي جدوى بالنسبة إليهم، فإنه يقضي بإهلاكهم، وينزل بهم معجل العقاب الشامل.

التدبر:

● ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: أي: ولكل أمة قضى الله بحكمته أن يهلكها إهلاكاً عاماً شاملاً أجل محدّد بقضائه وقدره لإهلاكها.

كلمة ﴿أُمَّةٌ﴾ تُطلق في الاستعمال القرآني على كل مجموعة حية تجمعها صفات وخصائص، أو روابط متميزة.

فكل أمة من الناس أُرسل إليها رسول ليلغها رسالة ربها، فهي أمة بلاغ ذلك الرسول. ومن أجابه منهم واتبعه فهم أمة الإجابة، ومن قام بواجب الدعوة، إلى دين الله من اتباع الرسول فهم أمة الدعوة. ومن قام بواجب الجهاد في سبيل الله منهم فهم أمة الجهاد.

والفريق من الأُمة الواحدة، إذا اجتمعوا على رأيٍ واحدٍ متميّزٍ افرقوا به على سائر إخوانهم، تُطلقُ عليهم كلمة «أُمة».

حتى الفرد الواحد المتميّز عن قومه، هو أمةٌ وخده، وقد كان إبراهيم عليه السلام أمةً وخده، إذ انفرد بكونه مؤمناً. فانتأ الله خنيفاً في أول عهده، قبل أن يؤمن به من آمن.

والمراد بلفظ «الأمة» هنا في الآية الأُمة المكذبة الكافرة. وأجلها هو أجلٌ إهلاكها، ويقابلها الأُمة المؤمنة، وأجلها هو أجلٌ نصرها على الأُمة الكافرة، ونجاتها بمُعونةٍ من الله عز وجل وتأييد.

وكلمة «أجل» تأتي في اللغة للدلالة في ثلاثة معاني:

المعنى الأول: الوقت المحدد أو المناسب لحصول الشيء وابتداء زمانه، مثل الأجل الذي كان في علم الله عز وجل لبُعثة محمد ﷺ قبل بعثته.

المعنى الثاني: غاية الوقت المحدد لشيء ما، أو المأذون به، مثل الأجل المحدد في علم الله عز وجل لإنهاء ظروف الحياة الدنيا بقيام الساعة.

المعنى الثالث: المدة المحددة للشيء، والمحصورة بين أولٍ وآخر، مثل أجل اليوم، أو الشهر، أو السنة، أو أجل الحي في الحياة الدنيا، أو أجل الحياة الدنيا كلها منذ البدء وحتى النهاية.

والمراد بالأجل في الآية التي نتدبرها يدور حول الوقت المحدد أو المناسب لحصول الشيء، وحول غاية الوقت المحدد لشيء ما، أو المأذون به.

فالمعنى: ولكل أمةٍ مدةٌ إِمهالٍ أو تَرِيثٍ، ووقتٌ مُحدّدٌ أو مناسبٌ

لإهلاكها، إذا كانت كافرةً مُفسِدةً في الأرض، ولنضرها وتأييدها إذا كانت مؤمنةً مُجاهدةً صابرةً.

● ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ : أي: فإذا جاء وقت تنفيذ إهلاكهم، أو وقت تنفيذ نضرهم.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفِيدُونَ﴾ : أي: لا يتأخرون في حالتهم السابقة زمنًا ما، مهما قل، ولا يتقدمون في حالتهم التي هم عليها زمنًا ما، مهما قل، أي: لا يتمكّنون من تعجيل الأجل الذي يحذفون به من المدة مقداراً ما إذ لا يجري تنفيذ الأمر المقرر حدوثه إلا في الأجل المحدد تماماً، دون تأخير ولا تقديم.

استأخر: أي: تأخر، لغة.

استقدم: أي: تقدّم، لغة.

والمراد بمجيء الأجل قُربُ الوقت المحدد، لا حصوله بالفعل، وإلاّ لم يكن للتقدم معنى. وهو نظير: قد قامت الصلاة، أي: قد اقترب وقت القيام بأدائها.



قول الله عز وجل:

● ﴿يَبْقَىٰ ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمَا يَتَّبِعِي فَمَنِ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

جاء في صدر هذا النص نداء رابع من الله عز وجل في بيانات هذا الدرس، موجّهة لبني آدم الأولين، الذين كانوا في عهد آدم عليه السلام، فمن بعدهم، يخكيه الله تبارك وتعالى للناس، ليبيّن لهم أسس الدين الذي أنزله لجميع بني آدم منذ عهدهم الأول في الأرض.

● ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾ حرفُ شَرْطٍ مُرَكَّبٌ من «إِنْ» الشرطية، و«مَا» المضافة لتأكيد معنى الشرط، واصطُلِحَ النحاة على تسميتها زائدة، أي: لغرض التأكيد.

وفعلُ الشرط في عبارة: ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وجوابُ الشرط في عبارة: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

تَضَمَّنَ هذا البيانُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قد وَعَدَ بني آدمَ الأولين، بأنَّه سَيُرْسِلُ لَهُم وَلَدَارِهِم ولأجيالهم القادمة من بَعْدِهِم رُسُلًا، يُبَلِّغُونَهُمْ، هُدًى رَبِّهِمْ لَهُم، الْمَشْتَمِلَ على أوامره ونواهيه، ووصاياه، وشرائعه، وأحكام دينه الذي اصطفاه لهم، وَوَعْدَهُ، وَوَعِيدَهُ، وأخباره، وبياناته، في آيَاتٍ يُنَزِّلُهَا عَلَيْهِم.

وهذا الوعدُ يَتَضَمَّنُ عن طريق اللزوم الذهني، أَنَّ أجيالَهُمْ ستَتَعَرَّضُ لنسيان الدين الَّذِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهُ أبوهم آدم عليه السلام، وستَتَعَرَّضُ للخروج عن صراط الله المستقيم، في عقائدهم، ومفهوماتهم، ومنهاج حياتهم، حتَّى يكونوا بحاجة إلى إرسال رُسُلٍ من عند الله، يُبَلِّغُونَهُمْ من جديد عناصر الدين الَّذِي نَسُوهُ أو ضَيَّعُوهُ، ويأْمُرُونَهُمْ بِتَرْكِ مَا ظَهَرَ فِي مجتمعاتهم من انحرافات عن دين الله، وبِالْعَوْدَةِ إلى صراط الله المستقيم، وَيُضَيِّفُونَ إلى التعليمات السَّابِقَاتِ بِأَمْرِ الله بعض الأحكام الدِّينِيَّةِ الَّتِي صَارَتْ مجتمعاتهم بحاجة إليها، مُرَاعَاةً لِسُنَّةِ التَّطَوُّرِ البشريِّ التكامليِّ، في تنامي التصرفات الفردية، وتَزَايُدِ وَتَشَابُكِ العلاقات الاجتماعية.

وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لبني آدمَ مُنْذُ نَشَأَتِهِمُ الأوَّلَى، أَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ سَيُرْسِلُهُم لأجيال بني آدمَ في قُرُونِهِم الآتِيَاتِ هُمْ مِنْهُمْ، أي: أفراد بشرٍ مِنْ ذُرِّيَةِ آدمَ، لا ملائكة ولا جنَّ، دَلَّ على هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

وقد أكد الله عز وجل هذا النبأ بثبوت التوكيد الثقيلة، ليضَعُوا في ذكرااتهم دواماً، أنهم إذا انحرفوا ونَسُوا تعاليم الدين، بعث لهم رُسلًا بشراً منهم، يُجَدِّدُونَ لَهُمْ ما كانوا قد أَبْلَوْهُ من الدين، بالانحراف والتحريف والنسيان، مع ما يُضِيفُهُ الله تبارك وتعالى من بيانات تكاملية، في مسائل الدين وقضاياه.

وقبل بعثة محمد ﷺ أَخَذَ الله الميثاق على الرُّسل وأتباعهم أن يُؤْمِنُوا بالرُّسُولِ الخاتم، وَيَتَّبِعُوهُ مَتَى بَعَثَهُ الله.

وبإرسال الله عز وجل رُسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ خَتَمَ الأنبياء والمرسلين، وأكْمَلَ بما أُنْزِلَ عليه الدين، وتكفَّلَ بحفظ كتابه من أيِّ تحريف أو تبديل، أو ضياع أو نسيان، فتمَّتْ بذلك مقتضيات الحكمة الربَّانية، وتمَّ تدبير أمر دين الله لعباده، على أحسن وجه وأكمله.

● ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكَ عَائِدًا﴾: يقال لغة: قصص عليه الخبر، أي: حدثه به على وجهه، بتتبع عناصره، دون تحريف أو تبديل. وتقول: قصصت الشيء، إذا تتبعته أثره شيئاً فشيئاً.

والمعنى: أن الرُّسل الذين سارسلهم إليكم مِنْكُمْ في تتابع أجيالكم يا بني آدم، سَيَقْضُونَ بِتَتَبُعٍ كامل، تالين عليكم آياتي البيانية، التي سَأُنْزِلُهَا عليهم، فَهُمْ يُلْغَوْنَكُمْ إِيَّاهَا، وَسَيَتَّبِعُونَ آياتي الكونية فيُرْشِدُونَكُمْ إليها.

وفي الآيات البيانية المنزلات التي يَقْضُهَا عليكم رُسُلي، أوامِرُ ونواهي وتكاليف، وَوَعِيدٌ لِمَنْ خَالَفَ وَعَصَى، وَوَعْدٌ بثوابٍ عظيم لِمَنْ اتَّبَعَ وَأَطَاع.

● ﴿فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥):

أي: فَمَنْ أَتَقَى بإيمانه وإسلامه الْخُلُودَ في عَذَابِ النار، وَمَنْ أَصْلَحَ فَأَتَى مِنَ الْعَمَلِ بما هو صالح، وَأَصْلَحَ نَفْسَهُ وَعَمَلَهُ مِمَّا يَتَعَرَّضُ لَهُ من فسادٍ بِالثبوت والعمل الصالح، فثوابه عند ربِّه يوم الدين أن لا يَخَافَ من عِقَابٍ وَعَذَابٍ، وأن لا يَحْزَنَ على أمرٍ فاته.

عبارة ﴿أَتَقَى﴾ دَلَّتْ عَلَى اتِّخَاذِ شَيْءٍ تَكُونُ بِهِ الْوَقَايَةُ، وَدَلَّتْ بِاللُّزُومِ الذَّهْنِيَّ عَلَى أَنَّ هَذَا الشَّيْءَ قَدْ نَزَلَ بِهِ تَكْلِيفٌ فِي آيَاتِ اللَّهِ. وَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّكْلِيفَ قَدْ اقْتَرَنَ بِوَعِيدٍ لِمَنْ عَصَى، وَهَذَا الْوَعِيدُ يَشْتَمِلُ عَلَى تَرْتِيبِ عَقُوبَةٍ ذَاتِ أَلَمٍ، وَأَنَّ الطَّاعَةَ هِيَ بِمِثَابَةِ الْوَقَايَةِ مِنْهَا.

لَكِنَّ مُجَرَّدَ الْوَقَايَةِ مِنَ الْعِقَابِ لَا يَسْتَدْعِي تَرْتِيبَ الثُّوَابِ فِي جَنَّاتِ النِّعِيمِ، فَجَاءَتْ عِبَارَةٌ: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ لَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِصْلَاحَ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْوَعْدُ بِالثُّوَابِ فِي جَنَّاتِ النِّعِيمِ.

فَعَل «أَصْلَحَ» يَأْتِي لَازِمًا، وَيَأْتِي مَتَّعِدِيًّا. يُقَالُ لُغَةً: أَصْلَحَ الرَّجُلُ فِي عَمَلِهِ، أَوْ فِي أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ، أَي: أَتَى بِمَا هُوَ صَالِحٌ نَافِعٌ. وَيُقَالُ: أَصْلَحَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ، أَي: أَزَالَ فُسَادَهُ.

وَيَحْسُنُ هُنَا أَنْ يَحْمَلَ فَعْلَ (أَصْلَحَ) عَلَى الْمَعْنَيْنِ مَعًا.

وَالْمَعْنَى: فَمَنْ أَتَقَى الْعِقَابَ، وَأَتَى بِمَا هُوَ صَالِحٌ لِنَيْلِ الثُّوَابِ، وَأَصْلَحَ مِنْ نَفْسِهِ وَعَمَلِهِ مَا تَعَرَّضَ لَهُ مِنْ فُسَادٍ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، فَاسْتَحَقَّ الثُّوَابَ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الْخَوْفُ: اضْطِرَابٌ وَقَلَقٌ فِي النَّفْسِ يَخْدُثُ عِنْدَ تَوَقُّعِ حُدُوثِ مَكْرُوهٍ، أَوْ تَوَقُّعِ فَوَاتٍ مَحْبُوبٍ.

الْحُزْنُ: مَا يَخْدُثُ فِي النَّفْسِ مِنْ غَمٍّ وَأَلَمٍ بِسَبَبِ نَزُولِ مَكْرُوهٍ، أَوْ فَوَاتٍ مَحْبُوبٍ.

وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَبَانَ لِبَنِي آدَمَ مِنْذُ زَمَنِ الْجِيلِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، أَنَّ مَنْ اتَّقَى عِقَابَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ، فَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِقَابِ اللَّهِ وَقَايَةً بِإِيمَانِهِمْ وَإِعْلَانِهِمْ إِسْلَامَهُمْ لِرَبِّهِمْ، وَأَصْلَحُوا فَاتُّوا بِمَا هُوَ صَالِحٌ، وَأَصْلَحُوا بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ مَا تَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ فُسَادٍ، فَهُمْ فِتْنَةٌ لَا خَوْفٌ تَضْطَرُّ بِهِ نَفْسُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، بِسَبَبِ تَرْقُبِ مَكْرُوهٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

بسبب مَكْرُوهِ نَزَلَ فعلاً بهم، أو من أجل مَحْبُوبٍ فَاتَهُمُ الحُصُولُ عليهم.

عبارة «عَلَيْهِمْ» من جُمْلَةٍ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ تَدُلُّ على أَنَّ الخوفَ لا يَسْتَعْلِي عليهم اسْتِغْلَاءَ المَلازمِ المَسْئَطِرِ.

وعبارة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ باستعمال الفعل المضارع الذي يدلُّ على التجدد، تَدُلُّ على أَنَّهُمْ لا يَكُونُونَ بحالة يَتَجَدَّدُ مَعَهُمْ فيها الحزنُ.

وهذا يكون لهم في الدنيا وفي الآخرة.

أما في الدنيا فلأنَّ إيمانهم بالله واليوم الآخر، وما أعدَّ الله لهم من ثوابٍ جَزِيلٍ خَالِدٍ في جَنَّاتِ النعيم، يجعلُهم راضين عن الله جلَّ جلاله تمامَ الرِّضا بكلِّ مقاديره، مطمئنين لحكمته، واثقين بالثواب العظيم، الَّذِي سَوْفَ يَلْقَوْنَهُ يومَ الدِّينِ.

وهل يُسَيِّطِرُ الخوفُ على من يَتَرَقَّبُ مُصِيبَةً تُصِيبُهُ بُوزُنِ حَصَاةٍ، وهو يَعلَمُ بيقين أنَّ مكافأته عليها أعظم من وزن جبل؟!.

وهل يتوالى الحزنُ على مَنْ تَنَزَّلَ به مصيبة بمقدار حَصَاةٍ، وهو يَعلَمُ بيقين أنَّ ثوابه عليها سوف يكون أعظم من وزن جبل؟!..

على أنَّ ثواب الله عزَّ وجلَّ يومَ الدِّينِ أَعْظَمُ وأَجَلُّ.

وأما في الآخرة، فمن اتَّقَى وأَصْلَحَ فَإِنَّهُ لا يخاف من عقاب الله، لأنَّ رحمة الله جلَّ جلاله سَتَشْمَلُهُ بالغفران والعفو، وإنَّه لا يَحْزَنُ من أجلٍ مَحْبُوبٍ فَاتَهُ في الدُّنيا، لأنَّه سينالُ من النعيم فوقَ ما يَتَمَنَّى، وفوقَ ما يَحْلُمُ به، وسيُعْطَى كُلَّ مَا يَطْلُبُ وَيَشْتَهِي، وَمَزِيداً فَوْقَ ذَلِكَ ما كَانَ يَعلَمُهُ ولا يتصوَّره.

وفوق حالٍ من اتَّقَى وأَصْلَحَ حال الأبرار، وفوقهما حالُ المحسنين يومَ الدِّينِ.

أما من كان من أهل الإيمان ولكن لم يصل إلى درجة من اتقى وأصلح، فقد يناله من الخوف والحزن على مقدار معاصيه، بسبب ما ينزل به من عقاب، وما يُحرّمه من ثواب.

● ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦).

أي: والذين يثبت عليهم في محكمة العدل الربانية يوم الدين، أنهم كانوا في الدنيا قد كذبوا بآيات الله، التي بلغها رسول من رسل الله، المؤيدين من عند الله بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات، إذ كذبوا الرسول على الرغم من ثبوت رسالته بالبرهان، ويثبت عليهم في محكمة العدل الربانية، أنهم استكبروا في أنفسهم، وامتنعوا عن امتثال مطلوب الله منهم، بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه في آياته المنزلات، هم ملازموا النار للعذاب فيها، وهم في العذاب خالدون بلا نهاية.

الاستكبار: يأتي في اللغة بمعنى الامتناع عن قبول الحق، معاندة وتكبراً. ويأتي بمعنى التكبر بشدة، والمعنى الأول هو الأكثر مناسبة هنا.

وجاءت تغذية فعل: استكبروا هنا بحرف الجر «عن» لتضمن الفعل معنى الامتناع عن قبول ما جاء في بيانات الله من حق، والامتناع عن العمل بما جاء فيها من أوامر ونواهي وتكاليف.

ولما كان هؤلاء كافرين بسبب تكذيبهم واستكبارهم مُمتنعين عن طاعة الله، وعن الإيمان بربوبيته وبإلهيته، كانوا مستحقين لأن يكونوا أصحاب النار، وأن يكونوا خالدين فيها.

وجاءت الإشارة إليهم باسم الإشارة الموضوع للبعيد: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ للدلالة على أنهم بعيدون جداً عن مواطن تنزلات رحمة الله، وهابطون في العمق السحيق الذي يكون فيه المجرمون.

﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾: أي: ملازموها، وجاء تأكيد هذه الملازمة بأنها ملازمة خلود فيها، فقال الله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦).

وبهذا تم تدبر الدرس الثالث من دروس السورة
والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعاونته



(٨)

التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة
وهو الآيات من (٣٧ - ٥٣)

قول الله عز وجل:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاثِبُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّحْنًا أَخْبَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَاهُ لَأُدْنِيَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ ضَلُّوا عَنَّا قَالَتْ أُولَٰئِكَ لَئِنْ كُنْتُمْ عَادَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَٰئِكَ لَئِنْ كُنْتُمْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ لَكُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقَهُمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تَكُنْ فِتْنًا أَلَّا وَسَّعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْبَغْيَةُ أَورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا

وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يَطْمَئِنُّونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْلُكُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ نَسْفَعُهُمْ كَمَا سُوفُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا يَتَابَعُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ .

تمهيد:

يسير هذا الدرس على الخطِّ الأعظم الذي سارت عليه مفهومات أكثر دروس السورة ومقاصدها، وهو الخطُّ الذي دلَّت عليه الآية الثالثة منها: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣﴾ .

إنَّ تكليف الناس الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء باتِّباع ما أنزل إليهم من ربهم، وبأن لا يتَّبِعُوا من دونه أولياء على ما سبق به التدبُّر، يلزَمُ عنه عدَّة أمور:

الأمر الأول: أن يُحَافِظُوا عَلَىٰ مَا أَنزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، فلا يُحَرِّفُوا فِيهِ تحريفاً ما، ولا يُبَدِّلُوا فِيهِ شَيْئاً، ولا يُضَيِّعُوا أو يُهْمِلُوا أو يَنْسُوا مِنْهُ شَيْئاً.

الأمر الثاني: أَنْ لَا يَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يَنْسُبُونَهُ إِلَى اللَّهِ. ويقولون: إِنَّهُ مِمَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وهو من اختلاقاتهم وأكاذيبهم على ربهم.

الأمر الثالث: أَنْ لَا يُكَذِّبُوا بآيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ إِلَيْهِمْ، الَّتِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهَا الرَّسُولُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ، الْمُؤَيَّدُ مِنْ اللَّهِ جَلَّ جلاله، بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ.

الأمر الرابع: أَنْ لَا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ، مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَاتَّخَذَهُمْ أَوْلِيَاءَ يَقْتَضِي اتِّبَاعَهُمْ فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ، وَفِيمَا يَنْهَوْنَ عَنْهُ، وَالْأَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَأْمُرُونَ وَيَنْهَوْنَ عَلَى خِلَافِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ، وَيَضَعُونَ قَوَانِينَ وَتَشْرِيعَاتٍ طَاغُوتِيَّةً، عَلَى خِلَافِ شَرِيعَةِ اللَّهِ وَمَنْهَاجِهِ لِعِبَادِهِ، إِذْ يَضَعُونَ الْقَوَانِينَ وَالتَّشْرِيعَاتِ الَّتِي يُحَقِّقُونَ بِهَا أَهْوَاءَهُمْ وَمَصَالِحَهُمْ، دُونَ مُرَاعَاةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالصَّلَاحِ وَالْإِضْلَاحِ فِي الْأَرْضِ، أَوْ يَضَعُونَهَا بِإِيحَاءٍ مِنْ إِبْلِيسَ عَدُوِّ بَنِي آدَمَ، الَّذِي أَخَذَ الْعَهْدَ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنْ يُغْوِيَهُمْ، حَتَّى يَكُونُوا مِنَ الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ، أَوْ مِنَ الْعَصَاةِ الْمُسْتَحْقِقِينَ لِعِقَابِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، عَلَى مَقَادِيرِ مَعَاصِيهِمْ وَمُخَالَفَاتِهِمْ.

وجاء في الدرس الأول من دروس السورة في الآية (٩) بيان أَنَّ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ قَدْ خَسِرُوهَا بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَظْلِمُونَ.

ومشكلة إبليس التي جاء بيانها في الدرس الثاني أَنَّهُ عَصَى مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، وَلَمْ يَتَّبِعْ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ مُشْكَلَةُ آدَمَ وَحَوَاءَ.

وجاء في الدرس الثالث بيان ما أنزل الله لبني آدم الأولين فَمَنْ بَغَدَهُمْ، وَالتَّخْذِيرُ مِنَ التَّكْذِيبِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَالِاسْتِكْبَارِ عَنِ الْعَمَلِ بِمَا جَاءَ فِيهَا.

فجاء الدرس الرابع مُرتَّباً عَلَى عُنَاوَرِ الْخَطِّ الْفِكْرِيِّ الْأَعْظَمِ الَّذِي جَاءَ بِيَانِهِ فِي الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ مِنَ السُّورَةِ تَرْتِيباً مُحْكَمًا.

التدبر:

● قول الله عز وجل:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أَُولَئِكَ يَتْلَوْنَ نَصِيحَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَقًّا إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا إِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاثِبُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

في هذه الآية تفریع ملائم للخط الفكري الأعظم، الممتد من أول السورة حتى آخرها، وهو خط استمرت تتوارد عليه بيانات وأفكار ومفهومات لها علاقة به.

الافتراء: اختلاق الكذب عن عمد، يقال لغة: افترى الحديث، أو الخبر، أو نحوهما، أي: اختلقه كاذباً عامداً.

ويقال: فرى فلان الكذب يفريه، أي: اختلقه واصطنعه كاذباً، والاسم منه: «الفرية» وجمعها: «الفري».

وأضل معنى الفري في اللغة: قطع الجلد، ومنه سمي قطاع الجلود «فراء».

في هذه الآية يبين الله عز وجل أن افتراء الكذب على الله، والتكذيب بآيات الله، يقعان في مستوى أشد أنواع الظلم، فلا يوجد بعدهما أشد منهما، ولكن هذا لا يمنع من وجود ظلم آخر هو في دركتهما من الخسة والإجرام.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ ؟﴾: استفهام عن وجود الأظلم، وهذا الاستفهام يشعر بأنه لا يوجد أظلم ممن افترى على الله كذباً، أو كذب بآياته.

وقد جاء في القرآن مثل هذا التعبير بالنسبة إلى من ذكر بآيات ربه ثم أغرض عنها، وبالنسبة إلى من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، وبالنسبة إلى من كتم شهادة عنده من الله.

وَيَدْخُلُ الزَّانِدَةُ وَالْمَلَايِدَةُ فِي الْمَكْذِبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ.

وقد جاء هذا البيان: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ؟﴾ بأسلوب الاستفهام الاستنكاري التوبيخي، المتضمن التعظيم من شناعة وفضاعة جُرم مَنْ يَفْتَرِي على الله الكذب، وهُمْ مُدْعُو التُّبُوَّةِ الْكَذَّابُونَ، وَالَّذِينَ يُحَدِّثُونَ أَحَادِيثَ يَكْذِبُونَ بِهَا على اللَّهِ ورسوله، مُفْتَرِينَ في دين الله، والتعظيم من شناعة وفضاعة جُرم مَنْ يَسْتَمِيعُ إلى آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ على رسوله، وَيَعْلَمُ أَنَّهَا من كلام الله، أو تَدْمَعُهُ الْحُجَّةُ بِأَنَّهَا من كلام الله، ثُمَّ يَكْذِبُ بِهَا، فَلَا يَقْبَلُهَا اسْتِنْكَافًا عَنْ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا.

وبعد بيان أَنَّ هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ أَظْلَمِ الظَّالِمِينَ الْمَجْرَمِينَ، ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ قَضِيَّتَيْنِ:

القضية الأولى: تتعلَّق بِرَحَلَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَتَّى لَحْظَةِ وَفَاتِهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ فِيهَا:

● ﴿...أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ...﴾ (٢٧).

يَنَالُهُمْ: أي: يَصِلُ إِلَيْهِمْ، يُقَالُ لُغَةً: نَالَهُ الشَّيْءُ، أي: وَصَلَ إِلَيْهِ، وَهَذَا الْمَعْنَى مِنْ مَعَانِي هَذَا الْفِعْلِ هُوَ الْمُنَاسِبُ هُنَا.

وَيُقَالُ لُغَةً: نَالَ فَلَانُ الشَّيْءَ، أي: حَصَلَ عَلَيْهِ، وَأَذْرَكَ وَيَلَّغَهُ، وَيُقَالُ: نَالَ الرَّجُلُ فَلَانًا الشَّيْءَ، أي: أَغْطَاهُ إِيَّاهُ. وَيُقَالُ: نَالَ مِنْ عَدُوِّهِ، أي: وَتَرَهُ، وَنَالَ مِنْ عِرْضِهِ، أي: سَبَّهُ.

نَصِيبٌ مِّنَ الْكِتَابِ: أي: حِظٌّ مِمَّا قَضَاهُ اللَّهُ وَقَدَرَهُ لَهُمْ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فِي رِحْلَةِ ابْتِلَائِهِمْ، وَكَتَبَهُ لَهُمْ ضِمْنًا مَا كَتَبَ مِنْ مَعْلُومَاتٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ عَنْهُمْ.

النَّصِيبُ: هُوَ الْحِظُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْجَمْعُ: «أَنْصِبَاءٌ» وَ«أَنْصِبَةٌ»

و«نُصِبَ». والحِظُّ في الأضِلِّ يَكُونُ في الخير، وهو كذلك في الاستعمال القرآني، والنصيبُ يَسْتَعْمَلُ غالباً في الخير، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ في الشرِّ.

القضية الثانية: تتعلّق ببيان حالّتهم حينما تأتيهم ملائكة الموت يَتَوَفَّوْنَهُمْ، فقال الله عزّ وجل بشأنهم فيها:

● ﴿... حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

إنهم بافترائهم على الله كَذِباً، أَوْ تَكْذِيبُهُمْ بآيَاتِ الله، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا قَدْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله أولياءَ، فَهُمْ يَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ الله، أي: يَغْتَبِرُونَهُمْ آلِهَةً لَهُمْ مِنْ دُونِ الله يَأْتِمِرُونَ بأوامرهم، وَيَنْتَهُونَ عَمَّا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْهُ، وَيَتَّبِعُونَ قَوَائِمَهُمْ وَأَنْظِمَتَهُمُ الطَّاغُوتِيَّةَ، وَيَسْتَمِرُّ حَالُهُمْ كَذَلِكَ حَتَّى تَنْتَهِيَ آجَالُ أَغْمَارِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَتَجِيهِنَّ حِينَئِذٍ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ الَّذِينَ يُرْسَلُهُمُ اللهُ إِلَيْهِمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ.

فإذا جاءَتْهُمْ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ انْكَشَفَتْ لَهُمْ عُنْدُنِذِ حَقَائِقِ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ.

وعندئذٍ تقولُ لَهُمْ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ بِأَمْرِ اللهِ: أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ؟ أي: لِيَذَرُوكُمْ الْعَذَابَ النَّازِلَ بِكُمْ، بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ بِرَبِّكُمْ، وَبِسَبَبِ شُرِكِكُمْ، وَلِيَحْمُوكُمْ مِمَّا سَوْفَ تَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ.

فلا يجدون جواباً إلاَّ أَنْ يَقُولُوا: ضَلُّوا عَنَّا، أي: لَا نَعْلَمُ عَنْهُمْ شَيْئاً، إِذْ لَا نَجِدُ لَهُمْ وَجُوداً، وَلَا نَجِدُ مِنْهُمْ نَفْعاً، إِنَّهُمْ لَا يَدْفَعُونَ عَنَّا الْمَوْتَ، وَلَا يَدْفَعُونَ عَنَّا شَيْئاً مِنَ الْعَذَابِ.

فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: إِذَنْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّكُمْ، فَكَذَّبْتُمُوهُ، وَكَذَّبْتُمْ بآيَاتِ اللهِ.

فيقولون: نَعَمْ، وَيَشْهَدُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ.

● ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا﴾: أي: يَسْتَمِرُّونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَيُكَذِّبُونَ بآيَاتِهِ، وَيَسْتَمْتِعُونَ بِمَا قَضَىٰ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ نَصِيبِ مَنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَتَّىٰ وَقْتُ مَجِيءِ رَسُولِنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِمْ لِقَبْضِ أَزْوَاجِهِمْ، وَإِنْهَاءِ رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

● ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾: أي: يَفْبِضُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَيَتَنَزَّعُونَهَا مِنْ نَفْسِهِمْ، أَوْ يَتَرَقَّبُونَ اسْتِيفَاءَهُمْ كُلَّ نَصِيبِهِمْ مِنْ لِحَظَاتٍ مَا قُضِيَ لَهُمْ مِنْ عُمرٍ، وَمَا قُضِيَ لَهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَإِذَا اسْتَوْفَوْهَا قَبَضُوا أَزْوَاجَهُمْ.

● ﴿.. قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ..؟﴾.

جاء التعبير هنا على طريقة الاستقطاع مما سيَكُونُ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ يَجْرِي الآن، وهي من روائع فُنُونِ الْأَدَبِ الْقُرْآنِيِّ.

أي: قال ملائكة الموت لَهُمْ: أَيْنَ الشُّرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَجْعَلُونَهُمْ شُرَكَاءَ اللَّهِ افْتِرَاءً عَلَيْهِ، حَتَّىٰ يَذْفَعُوا عَنْكُمْ عَذَابَ اللَّهِ، أَوْ يَشْفَعُوا لَكُمْ عِنْدَهُ.

الاستفهام هنا فيه معنى التَّفْرِيعِ والتوبيخ، مع ما فيه من اسْتِجْوَابٍ لِإِبْطَاتِ كُفْرِهِمْ.

● ﴿.. قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ..﴾: أي: قال المفترون عَلَى اللَّهِ وَالْمُكَذِّبُونَ بآيَاتِهِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ: ضَلُّوا عَنَّا.

أي: لَا نَعْلَمُ عَنْهُمْ شَيْئًا، تَقُولُ لُغَةً إِذَا ضَاعَ مِنْكَ شَيْءٌ، فَلَمْ تَهْتَدِ إِلَيْهِ، وَلَا تَعْلَمُ عَنْهُ شَيْئًا: ضَلَّ عَنِّي.

● ﴿.. وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٣٧):

دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهِمْ لِقَبْضِ أَزْوَاجِهِمْ، يَسْأَلُونَهُمْ عَنِ الرُّسُولِ، وَعَنِ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي بَلَّغَهُمْ إِلَيْهَا الرُّسُولُ عَنْ رَبِّهِ،

فُجِيبُونَ إِجَابَاتٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَافِرِينَ، وَهَذِهِ
الإِجَابَاتُ هِيَ شَهَادَةٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ.

قول الله عز وجل:

● ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ
كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُ لِأَوْلَاهُمْ
رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ
(٢٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمُ لِأُخْرَيْنَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)﴾.

● قرأ «رُؤَيْسٌ» عن «يَعْقُوبٍ»: [فَاتِيَهُمْ] بِضَمِّ هَاءِ الضَّمِيرِ وَهِيَ مِنْ
لُغَاتِ الْعَرَبِ.

● وقرأ «شُعْبَةُ» عن «عَاصِمٍ»: [وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ] بِيَاءِ الْغَائِبِينَ، أَمَّا
قِرَاءَةُ جُمْهُورِ الْقُرَّاءِ الْعَشْرَةِ فِيهِ: ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بِتَاءِ الْمُخَاطَبِينَ، وَبَيْنَ
الْقِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي الْأَدَاءِ الْبَيَانِيِّ. إِحْدَاهُمَا لِمُخَاطَبِ أَصْحَابِ الْحَوَارِ،
وَالْأُخْرَى لِمُخَاطَبِ غَيْرِهِمْ عَنْهُمْ.

يُلاحَظُ فِي هَذَا النَّصِّ أَنَّ الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ يَقْفِزُ مِنْ تَصْوِيرِ مَشْهَدٍ مِنْ
مَشَاهِدٍ مَا يَتَعَرَّضُونَ لَهُ حَالَةً قَبْضِ أَزْوَاجِهِمْ، إِلَى بَيَانِ لَقَطَاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ
أَحْوَالِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ الْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَهَذَا أَسْلُوبٌ رَفِيعٌ مِنْ
الْإِبْدَاعِ الْفَنِيِّ.

وقد اشتمل هذا النص على أربع لقطات:

اللُّقْطَةُ الْأُولَى:

دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ
مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ...﴾.

أي: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلُ، هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ وَلَا حَاجَةَ لِلْعُدُولِ عَنْهُ.

● ﴿أَدْخُلُوا﴾: الْخَطَابُ مُوجَّهٌ لِلَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَدْ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَلِلَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ.

● ﴿فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾: أي: ادْخُلُوا حَتَّى تَكُونُوا ضَمَنَ هَذِهِ الْأُمَمِ الَّتِي مَضَتْ سَابِقَةً لَكُمْ إِلَى مَوَاضِعِ عَذَابِهَا فِي النَّارِ، لِيَكُونَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْكُمْ مَعَ نَظِيرِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ إِلَى النَّارِ بِالنَّظَرِ إِلَى إِمَامَتِهَا وَقِيَادَتِهَا لَكُمْ فِي الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ وَالْإِجْرَامِ، وَبِذَلِكَ يُجْمَعُ الْآتِبَاعُ مَعَ مَتَّبِعِيهِمْ وَإِئِمَّتِهِمْ وَقَادَتِهِمْ.

وقد ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهَا أُمَمٌ، لِأَنَّهَا مُخْتَلِفَةُ الْمَذَاهِبِ، وَالطَّرَائِقِ الْكُفْرِيَّةِ وَالْإِجْرَامِيَّةِ.

● ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: أي: قَدْ مَضَتْ وَذَهَبَتْ، وَدَخَلَتْ فِي النَّارِ، بَعْدَ مُحَاكَمَتِهَا، وَفَضْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهَا.

● ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: أي: حُوكِمَتْ وَفُصِّلَ الْقَضَاءُ بِشَأْنِهَا وَأُمِرَتْ بِأَنْ تَدْخُلَ فِي النَّارِ مِنْ قَبْلِكُمْ.

● ﴿يَنْ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾: جَاءَ تَقْدِيمُ الْجِنَّ عَلَى الْإِنْسِ هُنَا لِأَنَّهُمْ أَسْبَقُوا وَجُودًا فِي دَارِ الْامْتِحَانِ مِنَ الْإِنْسِ، وَلِأَنَّ إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ أَوْلَى بِأَنْ يَكُونُوا الْمُحَكَّمِينَ عَلَيْهِمُ بِالْعَذَابِ فِي النَّارِ، لِحِفْلِهِمْ بِجَرِيمَةِ الْإِغْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ وَالْإِنْبِعَادِ وَالْإِخْرَاجِ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ عِنَادًا وَكُفْرًا.

حَرْفُ «فِي» مِنْ عِبَارَتَيْنِ: ﴿فِي أَمْرِ﴾ وَ﴿فِي النَّارِ﴾ عَلَى مَعْنَاهُ الْأَصْلِيِّ الظَّرْفِيِّ، وَلَا دَاعِي لَصَرْفِ الْأَوَّلِ مِنْهُمَا عَنْ هَذَا الْمَعْنَى، وَجَعَلَهُ بِمَعْنَى «مَعَ» لِأَنَّ الْأُمَمَ الْمَذْكُورَةَ قَدْ سَبَقَتْهُمْ فِي دُخُولِ النَّارِ، فَلَا مَصَاحِبَةَ لَهُمْ عِنْدَ الدُّخُولِ، وَأَمَّا مَصَاحِبَتُهُمْ دَاخِلَ النَّارِ فَهِيَ مَصَاحِبَةُ الدَّخِيلِ ضَمْنُهُمْ، الْمَشَارِكُ لَهُمْ فِي أَنْوَاعِ عَذَابِهِمْ.

اللقطة الثانية:

دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾:

هذه اللقطة مقتطعة من وصف توارِدِ الأتباع، ودُخولهم ضمن المتبوعين في النار، إذ يلعن كل فوج داخل من الأتباع أئمتهم وقادتهم الذين أضلّوهم في الدنيا، والذين سيكونون داخلين ضمنهم في العذاب داخل النار.

● ﴿كُلَّمَا﴾: تدل على أن حركة التوافد على النار تتكرّر أفواجا فأفواجا. أي: كلما دخلت أمة تجمعها جامعة ما من الأتباع لعنت أختها السابقة لها إلى النار من الأئمة القادة المتبوعين.

وأعطاهما الله عز وجل وصف الأخوة بينهما، لاشتراكهما في طريقة الكفر وأعمال الكفر، إذ الكفر أنواع ومذاهب شتى، ويجمع الله جلّ جلاله وعظم سلطانه في دار العذاب يوم الدين، كل ذي نوع من الكفر مع أفراد نوعه وأشباهه ونظائره.

فيقول الأتباع الداخلون في النار، لإخوانهم في طريقته الكفريّة من أئمتهم الذين سبقوهم إليها: لعنة الله عليكم، لقد كنتم سبب ضلّالنا وإغوائنا.

اللقطة الثالثة:

دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿... حَتَّى إِذَا أَدْرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَازَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

● ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾: أي: حتى إذا انتهت تلاحقهم وتتابعهم واستقرّوا في مواضعهم في النار جميعاً.

يقال لغة: اذارك القوم، وتداركوا، واذركوا، أي: تلاحقوا وتتابعوا

حَتَّىٰ لِحِقِّ آخِرِهِمْ أُولَهُمْ، ومعلومٌ أَنَّ هذه الغاية تكون مقترنةً باستقرارهم في مواضعهم.

● ﴿قَالَتْ أَذْنَبْتُهُمْ لِأُولَهُمْ﴾: أي: قالت أمُّ الأتباع الذين تلاحقوا بَعْدَ أُمِّ القَادَةِ المتبوعين، فَأُمُّ الأتباع هم الأُخْرَى، وَأُمُّ القَادَةِ هم الأولى الذين سَبَقَ إدخالهم في النار.

اللَّام في: ﴿لِأُولَهُمْ﴾: قالوا: هي للتعليل، أي: لأجل إضلال أولاهم لهم، يسألون الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُضَاعِفَ لَهُم العَذَابَ مِنْ حَرِيقِ النار. أقول: تأتي «اللَّام» الجارّة بمعنى «عَنْ» وحملها هنا على مَعْنَى «عَنْ» أَقْرَبَ وأولى، والمعنى: قالت أخراهم عن أولاهم.

وتأتي أيضاً بمعنى «على» وهذا المعنى مناسبٌ هنا أيضاً، أي: وقالت أَخْرَاهُمْ على أولاهم، أي: قولاً له استعلاءً على أولاهم بُدْعَاءٍ يقتضي أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ عليهم عذاباً زائداً.

● ﴿... رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

الضُّعْفُ: يأتي في اللغة بمعنيين:

الأول: المِثْل.

الثاني: تضعيف الشيءِ مِثْلَيْنِ فأكثر.

استعملت كلمة «ضعف» في هذا النصّ مرّةً بمعنى تضعيف الشيء إلى مِثْلَيْنِ فأكثر، واستعملت أخرى بمعنى مثل الشيء. فالأتباع سألوا ربَّهم أَنْ يُؤْتِيَ قَادَتَهُمْ مِثْلَيْنِ فَأَكْثَرَ مِنَ الْعَذَابِ لَأَنَّهُمْ كَانُوا سَبَبَ ضَلَالِهِمْ.

وأجابهم ربُّهم بأنَّ لكلِّ منكم وممَّن كانوا قادتكم واثمتكم في الدنيا ضِعْفٌ جُزْمِهِ، أي: مثلُ جُزْمِهِ، وهذا لا يُسْتَدْعِي تماثل الجزاء بين

الفريقين، فالجزاء المُمَثِّلُ لِمَن كان في الدنيا ضَالًّا مُضِلًّا، أَغْظَمُ وَأَشَدُّ مِنْ
الجزاء المُمَثِّلِ لِمَن كان في الدنيا ضَالًّا فَقَطْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَسْبٌ مَا فِي
إِضْلَالِ غَيْرِهِ.

● ﴿وَلَيْكِن لَّا تَقْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ : أي: إِنَّكُمْ قَدْ تَكُونُونَ فِي مَوْقِعٍ وَاحِدٍ
مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَيَكُونُ بَغْضُكُمْ أَشَدَّ عَذَابًا مِنْ بَعْضِ، وَنَظِيرُ هَذَا مُشَاهِدٌ
فِي لَذَاتِ الدُّنْيَا وَفِي عَذَابِهَا، فَقَدْ يَكُونُ مَعَذِبَانِ بِنَوْعِ عَذَابٍ وَاحِدٍ وَهُمَا
مُتَجَاوِرَانِ، وَإِحْسَاسُ أَحَدِهِمَا بِالْعَذَابِ أَشَدُّ كَثِيرًا مِنْ إِحْسَاسِ الْآخَرِ.

وَالْعَدْلُ الرَّبَّانِيُّ يَوْمَ الدِّينِ هُوَ الْحَاكِمُ بِتَحْدِيدِ مِقْدَارِ عَذَابِ كُلِّ مُعَذَّبٍ
بِحَسَبِ جُرْمِهِ.

وَاسْتِمَالُ كَلِمَةِ «ضِعْفٍ» فِي هَذَا النَّصِّ بِأَحَدٍ مَعْنِيَّهَا مَرَّةً، وَبِالْمَعْنَى
الْآخَرِ مَرَّةً أُخْرَى، مِنْ بَدِيعِ فُنُونِ الِاسْتِعْمَالَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ.

وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ تَحْكِي الصُّورَةَ الْمُسْتَقْبَلِيَّةَ كَأَنَّهَا صُورَةٌ وَقَعَتْ وَمَضَتْ،
وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ التَّصْوِيرِ الْفَنِيِّ، وَالْغَرَضُ الْفِكْرِيُّ مِنْهُ بَيَانُ تَحْقِيقِ وَقُوعِهِ فِي
الْمُسْتَقْبَلِ.

وَسَبَقَ فِي سُورَةِ (ص/٣٨ مَصْحَف/٣٨ نَزُول) بَيَانُ أَنَّ الْآتِبَاعَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ قَائِلِينَ:

﴿.. رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

لَكِنْ لَمْ يُجِبْهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى دُعَائِهِمُ الَّذِي أَبَانَتْهُ سُورَةُ (ص/٣٨
نَزُول) لِإِشْعَارِهِمْ بِأَنَّ عَذْلَ اللَّهِ قَائِمٌ عَلَى أَنَّ جَزَاءَ السَّيِّئَةِ يَكُونُ بِمِثْلِهَا،
وَمَعْلُومٌ أَنَّ جَرِيمَتِي الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ أَشَدُّ مِنْ جَرِيمَةِ الضَّلَالِ فَقَطْ.

وَيُظْهَرُ أَنََّّهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا مِنْ إِعْرَاضِ اللَّهِ عَنْ إِجَابَتِهِمْ هَذَا الْمَعْنَى.
فَكَرَّرُوا دُعَاءَهُمْ، فَجَاءَ بَيَانُ إِجَابَتِهِمْ فِي سُورَةِ (الأعراف/٣٩ نَزُول).

اللقطة الرابعة:

دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِنَّ لِأَخْرَجَهُنَّ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذَوْقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وَقَالَتْ ﴿أُولَئِهِنَّ﴾ وهم القادة والأئمة السابِقُونَ لدخول دار العذاب: ﴿لِأَخْرَجَهُنَّ﴾ وهم الذين كانوا في الدنيا أتباعاً لهم، لَمْ تَكُنْ حَالُكُمْ فِي الدُّنْيَا أَحْفَ سَوْءاً وَشَرّاً مِنْ حَالِنَا، ولولا أهواؤكم وشهواتكم ورغباتكم مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا اسْتَجَبْتُمْ لِدَعْوَتِنَا، وَمَا اتَّخَذْتُمُنَا قَادَةً وَأَئِمَّةً لَكُمْ ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ مَا، مَهْمَا كَانَ قَلِيلاً، حَتَّى تَسْأَلُوا رَبَّكُمْ أَنْ يَجْعَلَ عَذَابَنَا مُضَاعَفاً. وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَشَارَكَةَ أَتْبَاعِهِمْ لَهُمْ فِي مَوْقعِ الْعَذَابِ، تَقْتَضِي مَشَارَكَتَهُمْ لَهُمْ فِي مِقْدَارِهِ، فَيَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿فَذَوْقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: الْمُمَائِلَ لِعَذَابِنَا ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ.

وَيَعْمَلُونَ عَنْ أَنْ تَشَابِهَ صُورَةُ الْعَذَابِ لَا يَلْزُمُ عَنْهُ تَمَائُلُ الْإِحْسَاسِ بِهِ.

كَسَبُ الشَّيْءِ: فَعَلُهُ، وَكَسَبُ الْإِثْمِ تَحْمُلُهُ بِاخْتِيَارِ الْكَاسِبِ.



قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

• قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو: [لَا تُفْتَحُ] وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَخَلْفُ: [لَا يَفْتَحُ] بِالْيَاءِ وَقَرَأَ الْبَاقُونَ: [لَا تُفْتَحُ] وَهِيَ وَجْهٌ عَرَبِيَّةٌ مُتَكَافِئَةٌ، وَفِي: ﴿لَا تُفْتَحُ﴾ الْمَشْدَدَةُ مَعْنَى أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى فَتْحِهَا، مَهْمَا اتَّخَذْتَ الْوَسَائِلَ الْمَشْدَدَةَ لِذَلِكَ، فَالْتَشْدِيدُ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى تَأْكِيدِ عَدَمِ فَتْحِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ لَهُمْ.

هاتان الآيتان سائرتان على الخطِّ الأعظم من خطوط موضوع السورة: الذي جاء بيانه في الآية (٣) منها.

وجاء قبلهما على هذا الخطِّ الآيتان (٣٦ - و - ٣٧).

● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾.

جاء تأكيد الجملة هنا بمؤكدتين: «إِنَّ - والجملة الأسمية» لرفع توهم أن أزواج الكافرين تَصْعَدُ بها الملائكة إلى السَّمَاءِ بَعْدَ الموت، إذ تُفَتَّحُ أبواب السَّمَاءِ لأرواح المؤمنين التي تَحْمِلُهَا الملائكة. لَكِنْ أرواح الكافرين تُرَدُّ لَحُبِّهَا.

● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾: أي: كَذَبُوا رُسُلَنَا الَّذِينَ بَلَّغُوهم آياتنا الْمَنَزَّلَات من عندنا، فزَعَمُوا أَنَّهَا مُفْتَرِيَاتٌ عَلَى اللَّهِ فَكَذَّبُوا بها.

● ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾: أي: واستكبروا عَلَى طاعةِ رَبِّهم، وامتنعوا عَنِ الْعَمَلِ بما تَضَمَّنَتْهُ آيَاتُهُ لهم.

وقد جاء الخبر في هاتين الآيتينِ مُفَصَّلًا في سِتِّ قضايا من الأخبار الغيبية:

القضية الأولى:

دَلَّ عليها قول الله عزَّ وجل: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾:

إنَّ الحديث عن تَوَفِّي الملائكة لهم الوارد في الآية (٣٧) قرينةً على أن أبواب السماء لَا تُفَتَّحُ لأرواحهم بَعْدَ قَبْضِهَا إِذَا صَعِدَتِ الملائكة بها، بل تُرَدُّ لِمَا حَمَلَتْهُ من حُبِّ نَفْسِ صاحبها، وتثنى أعماله.

وقد وردَ بهذا بيان عن النبي ﷺ في رواياتٍ مختصراتٍ وَمَطَوَّلَاتٍ، وَبَعْضُ المختصرات منها رواه مسلم.

ومن المطوَّلَات بإسناد صحيح، ما رواه أحمد، وأبو داود، وابنُ

حُزَيْمَةَ، وَالْحَاكِمَ، وَالْبَيْهَقِيَّ فِي شُعْبِ الْإِيمَانِ، وَغَيْرِهِمْ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ بَيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ أَكْفَانٌ مِنَ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحُطُوطٌ مِنْ حُطُوطِ^(١) الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مُلْكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتَهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، أَخْرَجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ، فَتَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ^(٢)، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحُطُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مِنْكَ وَجَدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ عَلَى مَلَاٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟

فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشِيعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

اكَتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عَلَيَّيْنِ، وَأَعِيدُوا عَبْدِي إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتُهُمْ تَارَةً أُخْرَى.

فَتَعَادُ رُوحُهُ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ.

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟.

(١) الْحُطُوطُ: كُلُّ مَا يُخْلَطُ مِنَ الطَّيِّبِ لِأَكْفَانِ الْمَوْتَى وَأَجْسَادِهِمْ، مِنْ وَرْدٍ وَمِسْكِ وَعَثِيرٍ وَصَنْدَلٍ وَكَافُورٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

(٢) مِنْ فِي السَّقَاءِ: أَيُّ: مِنْ فَمِ السَّقَاءِ.

فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ.

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟

فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ.

فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عَلِمُكَ؟

فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ.

فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْبُسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وافتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِيْبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.

فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَأْتِي بِالْخَيْرِ.

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ.

فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ. حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.

وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ، إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَاقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ^(١)، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ، فَتَفَرَّقَ فِي جَسَدِهِ^(٢) فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُودُ^(٣) مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ نِيحَ رِيحٍ جَفِيفَةٍ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَضَعُدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا

(١) الْمُسُوحُ: ثِيَابٌ خَشِيبَةٌ مِنْ شَعْرِ يَلْبَسُهَا الرِّهْبَانُ.

(٢) فَتَفَرَّقَ فِي جَسَدِهِ: أَيُّ: فَيَشْتَدُّ خَوْفُهَا.

(٣) السَّفُودُ: عَوْدٌ مِنْ حَدِيدٍ يُنْظَمُ فِيهِ اللَّحْمُ لِيُفْرَى.

عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟! فَيَقُولُونَ:
فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَفْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ،
فَلَا يَفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ ﷻ: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾.

فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى،
فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ.

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَيَقُولُ: هَاهُ، هَاهُ، لَا أَذْرِي.

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟

فَيَقُولُ: هَاهُ، هَاهُ، لَا أَذْرِي.

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟

فَيَقُولُ: هَاهُ، هَاهُ، لَا أَذْرِي.

فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا
لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى
تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ^(١)، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ،
فَيَقُولُ: أَبَشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.

فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهِ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ.

فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ.

وعلى ما جاء في هذا الحديث ينبغي أن يُحْمَلَ قول الله عز وجل:

(١) حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ: أي: تَضَعُ حَتَّى تَتَغَيَّرَ مَوَاضِعُهَا عَنْ سَوَائِهَا. والمراد ما يحصل
لديه من شعورٍ نفسيٍّ مُمَّاثِلٍ لهذا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَا تَفْتَحْ لَهُمُ السَّمَاءِ لَا تَفْتَحْ لَهُمُ.﴾
 وتوجد عند بعض المفسرين آراء أخرى لا تصلح بياناً لكون أبواب السماء لا تفتح لهم.

وجاء في هذا الحديث ذكر «عليين» وذكر «سجّين». أما عليّون فهو كتاب خصّصه الله لتسجيل المؤمنين فيه، ويشهده المقرّبون من الملائكة، ومكانه في موضع سماوي رفيع أخذاً من الحديث. وأما سجّين فهو كتاب خصّصه الله عز وجل لتسجيل الكافرين فيه، وموضعه في الأرض السفلى، أخذاً من الحديث.

وقد جاء بيان هذين الكتابين في سورة (المطففين/ ٨٣ مصحف/ ٨٦ نزول) فقال الله عز وجل فيها:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿٩﴾﴾.

وقال الله عز وجل فيها أيضاً:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمَلَكُونَ ﴿٢١﴾﴾.

القضية الثانية: (بشأن الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها).

دل عليها قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ...﴾.

دلّت هذه العبارة على أنّ الله عز وجل قد أضدّر بشأن هؤلاء أمراً مبرماً مقطوعاً به، لا رجعة فيه، فهو أمر من سنن الله الثابتة التي لا نقض لها ولا تغيير فيها، وهو بمثابة استحالة أن يدخل الشيء الكبير العظيم، مع بقاءه على وضعه عظيم كبيراً، في الثقب الصغير شديد الصغر، كتقب الإبرة، مع بقاءه على وضعه صغيراً شديد الصغر، وهذا الأمر يقضي بأن لا يدخلوا الجنة.

وجاءت العبارة بأسلوب تمثيل أدبي، لتأكيد عدم احتمال دخولهم الجنة، كيف يدخلون الجنة التي أعدها للمؤمنين المتقين، وهم قد كذبوا بآيات الله، واستكبروا على طاعة الله، واستنكفوا عن العمل بها.

﴿حَتَّىٰ يَلِجَ﴾: أي: حتى يدخل، تقول لُجَّ: وَلَجَ الشيءُ في غيره يَلِجُ لِجَةً وُلُوجًا، أي: دخل فيه. وتقول: وَلَجَ البَيْتُ، إذا دخله، فهو وَلِجٌ.

﴿الْجَمَلُ﴾: هو الحيوان المعروف من بهيمة الأنعام.

﴿فِي سَرِّ الْخِيَاطِ﴾: أي: في ثقب الإبرة التي تُخاطُ بها الثياب عادةً. إن من أساليب بيان استحالة وقوع شيء ما، أو التأكيد على أنه لن يقع ولو لم يكن مستحيلًا في ذاته، تغليفه بأمر مستحيل في ذاته، أو مستحيل بمقتضى القانون العام للأسباب والمسببات.

ومن المعلوم أن من المستحيلات أن يدخل هذا الحيوان العظيم المعروف باسم الجمل، وهو على وضعه وعظمه، دون تغيير في خصائصه وصفاته الجسدية والنفسية، في ثقب الإبرة التي يخط بها الخياط من الناس الثياب، مع بقائها على وضعها، وبقاء ثقبها على مقداره كما هو معروف عند الناس.

فالله عز وجل يُخَاطِبُ النَّاسَ في هذا النَّصِّ بِحَسَبِ مَا يَعْرِفُونَ من الجمل وصفاته، وبحسب ما يَعْرِفُونَ من الإبرة وصفاتها ومقدار ثقبها.

وكلُّ تأويل احتمالي يعتمد على تغيير في صفات الجمل المعروف، وصفات الخياط المعروف، هو من التلاعب في دلالة النص، وهو مرفوض عقلاً وشرعاً، فقد أثبتت النصوص القرآنية الكثيرة أن الكافرين خالِدُونَ في دار العذاب النار، وخلودهم فيها يقتضي حتماً أنهم لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال.

ولهذا البيان القرآني نظائر كثيرة في استعمالات الناس الأدبية، وفي

تعبيرات الأدباء من ناثرين وشعراء، كَقَوْلِ الْقَائِلِ لِقَطْعِ أَمَلِ طَامِعٍ بِأَمْرِ مَا:
نُجُومُ السَّمَاءِ أَقْرَبُ لَكَ.

وتوحي هذه الصورة القرآنية، بأنَّ أَمَلَ أصحاب النار الخالدين فيها بأن
يُخْرَجُوا منها، وَيَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، كَأَمَلِ جَمَلٍ لَا عَقْلَ لَهُ، يُرَاقِبُ ثَقَبَ إِبْرَةِ أَنْ
يَنْفَرِجَ لَهُ، فَيَلِجَ فِيهِ، لِيَصِلَ إِلَى حَيْثُ بَجْدٌ مَا يَطْلُبُ، مِمَّا تَشْتَهِي نَفْسُهُ.

وفي هذا إبداع رائع في وصف حال الخالدين في النار إذ يطمعون في
دخول الجنة.

القضية الثالثة:

دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ: ﴿...وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤٥): أَي: وَكَذَلِكَ الْجَزَاءُ الَّذِي نَجْزِيهِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا
وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا، نَجْزِي سَائِرَ الْمُجْرِمِينَ. فَكُلُّ الْمَجْرِمِينَ لَا تَفْتَحُ لِأَرْوَاحِهِمْ
أَبْوَابَ السَّمَاءِ بَعْدَ قَبْضِهَا، وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الدِّينِ، أَمْرًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
مُبَرَّمًا مَقْطُوعًا بِهِ.

الْمُجْرِمُ: هُوَ فِي اللُّغَةِ مُزْتَكِبُ الذَّنْبِ. يُقَالُ لُغَةً: أَجْرَمَ فُلَانٌ، أَي:
ارْتَكَبَ جُرْمًا. وَيُقَالُ: أَجْرَمَ عَلَيْهِمْ، وَأَجْرَمَ إِلَيْهِمْ، أَي: جَنَى جِنَايَةً.

وَالْجُرْمُ: الذَّنْبُ، وَيَجْمَعُ عَلَى «أَجْرَامٍ» وَ«جُرُومٍ».

وقد نظرتُ في الاستعمالات القرآنية فرائثُ أَنْ فَعَلَ «أَجْرَمَ» واسم
الفاعل منه «مُجْرِمٌ» يُقَابِلُ فِعْلَ «أَسْلَمَ» فَهُوَ «مُسْلِمٌ».

فالمجرمون: هم الكافرون كُفْرًا إِرَادِيًّا مع علمهم بالحقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ
المرسلون، فَمَنْ يَأْتِي رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا.

فالإجرامُ في الاصطلاح القرآني خاصٌّ بالذَّنْبِ الَّذِي يُخَلِّدُ فِي النَّارِ،
وَالْمُجْرِمُ هُوَ ضِدُّ الْمُسْلِمِ.

ولمّا كانت الذُّنُوبُ العظمى التي تجعل المتصف بها من الكافرين المخلّدين في عذاب جهنم أنواعاً كثيرة، وكانَ مِنْ أنواعِها التّكذيبُ بآياتِ اللّهِ، والاستكبارُ على طاعته، والاستنكاف عن العمل بما جاء فيها، كان من الحكمة في البيانِ القرآني أن تأتي فيه عبارة عامّة تشمل جميع المجرمين فقال الله تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ۝﴾ (ال) في ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ استغراقية، فالمعنى: وكذلك نَجْزِي جَمِيعَ المجرمين.

القضية الرابعة:

دَلَّ عَلَيْهَا فِي النّصِّ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ ۝﴾. المهادُ في اللُّغَةِ: الْفِرَاشُ، وَالْأَرْضُ الْمُنْخَفِضَةُ الْمُسْتَوِيَّةُ، وَقَاعُ الْبَحْرِ أَوْ النَّهْرِ. أَي: لَهُمْ مِنْ قَاعِ جَهَنَّمَ أُمْكَنَةٌ مَعْدَةٌ مُمَهَّدَةٌ لاسْتِقْرَارِهِمْ فِيهَا. وَتَمْهِيدُ الْأَرْضِ يَأْتِي بِمَعْنَى بَسْطِهَا وَتَسْهِيلِ أَمْرِ الْإِقَامَةِ فِيهَا، لِكُنْهَا جَهَنَّمَ، فَمَاذَا يُخَفَّفُ مِنْ عَذَابِهَا هَذَا التَمْهِيدُ، إِنَّهُ كَتَمْهِيدِ الْجَمْرِ لِتَسْهِيلِ شَيْءٍ اللَّحْمِ عَلَيْهِ، فَالْمَعْنَى مَحْمُولٌ عَلَى التَّحْذِيرِ مِنْ شِدَّةِ الْعَذَابِ عَلَى هَذَا الْمِهَادِ، فَمَنْ كَذَبَ وَكَابَرَ فَلْيَتَلَقَّ عِبَارَةَ التَّهْكُمِ بِهِ بِاسْتِخْدَامِ لَفْظِ «الْمِهَادِ».

القضية الخامسة:

دَلَّ عَلَيْهَا فِي النّصِّ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۝﴾. غَوَاشٍ: جَمْعُ «غَاشِيَةٍ» وَمِنْ مَعَانِي الْغَاشِيَةِ، مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ وَاسِطٍ تَغْذِيبٍ، تُجَلَّلُ الْمَكَانَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ غُلُوبٍ. وَأَضْلُ الْغَاشِيَةِ الْغَطَاءُ، فَالْغَوَاشِي هِيَ الْأَغْطِيَّةُ، وَهِيَ فِي جَهَنَّمَ ظُلُمَاتٌ دُخَانِيَّةٌ حَارَّةٌ تَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْ سَمَائِهَا. جاء لفظ «غواشٍ» منكرأ، للتهويل والتعظيم، والمراد أنها غواشي فيها عذاب أليم.

فهم بين (المهاد) الفراش الجهنمي، و(الغواشي) الحارة الدخانية المائجة في سماء مَواقِعهم، يَتَلَقَّوْنَ العذاب من تحتهم، ومن فوق رؤوسهم.

وفي هذا التعبير لون من ألوان التنكيل بهم، ومقابلة استهزائهم بما أنذروا به من عذاب الله، باستهزاء في التَّغْيِير بأن لهم من جهنم مهاداً، وبأنهم تجلَّلهم فيها غواشي، ولكن ليس المهاد إلا مهاد تغذيب، وليست الأغشية إلا أغشية تغذيب.

القضية السادسة:

دلَّ عليها في النص قول الله تعالى: ﴿... وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۝٤١﴾:

أي: وكذلك الجزاء الذي نجزيه الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها، نجزي سائر الظالمين.

والمراد بالظالمين هنا من كان ظلمهم من دركات الكافرين. وأكثر ما استعمل عنوان الظالمين في القرآن، استعمل في الكافرين المخلدين في النار.

ويحتمل أن يكون المراد بالظالمين، مَنْ كَانُوا من مُرتكبي الكبائر من المؤمنين، إذا استحقُّوا دخول جهنم دخولاً مُؤَقَّتاً، فهؤلاء إذا دخلوا جهنم، كان لهم من جهنم مكان مُعدَّ لهم، وجاءتْهم من فوقهم غواشي دُخَانِيَّة حَارَّة.

وللتفريق بين عُموم المجرمين وعُموم الظالمين، كان نوع العذاب الأول وهو الخلود في جهنم خاصاً بالمجرمين، وكان نوع العذاب الثاني شاملاً كلِّ الظالمين، مُجرِّمين أو من هُم دون المجرمين، لكنهم من مُرتكبي كبائر الإثم من المسلمين.



● قول الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا... ﴿٤٣﴾﴾.

● قرأ ابن عامر الشامي: ﴿مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ بحذف حرف العطف الواو، وقرأ باقي القراء العشرة بإثباتها، وقراءة ابن عامر موافقة للمصحف الإمام الذي أُرسل في عهد عثمان إلى الشام.

والقراءتان أسلوبان في التعبير متكاملان في الأداء البياني، فالعبارة بحذف الواو حالّة وهي تابعة في البيان للجملة التي قبلها، والعبارة بإثبات الواو استثنائية، لإفراد التصريح بمضمونها.

هذا النصّ يتضمّن بياناً بضع لقطات من ثواب المؤمنين، بعد بيان بضع لقطاتٍ من عقاب الكافرين في الآيتين (٤٠ و ٤١) على منهج القرآن في إتباع بيان العقاب ببيان الثواب، أو العكس.

● ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾:

جاءت هذه العبارة في مقابل الذي كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، ومعهم المجرمون والظالمون، للدلالة على أنّهما فريقان متناقضان عقيدة وسلوكاً، ولكلّ منهما دارٌ جزاء، إحداهما دار عقاب، والأخرى دار ثواب.

وهذه العبارة مشتملة على تفصيل لعنوان المتقين، الذين أعدّ الله لهم جنّات النعيم، وهم المسلمون الذين جاء ذكرهم في سورة (القلم ٦٨/ مصحف/ ٤ نزول) بقول الله عز وجل:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفْجَعَلُ السَّالِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾!؟.

وجاء ذكرهم أيضاً في عدد من نجوم التنزيل السابقة نزولاً لسورة (الأعراف) في (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) وفي (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) وفي (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) وفي (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

فالمتمقون الذين هم المسلمون بعنوانين مُجْمَلَيْن، هم بتفصيل ابتدائي: «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» فلا يُوصَفُ الْعَبْدُ بِأَنَّهُ من المتقين، أو بِأَنَّهُ من المسلمِينَ عند الله، حَتَّى يُحَقِّقَ فِي ذَاتِهِ وِبَارَادَتِهِ الْحَرَّةَ أَمْرَيْن:

الأمر الأول: الإيمان بما يجب الإيمان به في دين الإسلام، الذي اصطفاه الله لعباده، والإيمان هو التصديق الإرادي القلبي الذي لا يختلط بشك.

وتفصيل هذا قد جاء في آيات كثيرات موزَّعات في سور القرآن، وجاء أيضاً في بيانات الرسول ﷺ.

الأمر الثاني: الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وهو العمل الإرادي بما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ إلزاماً أو تَرْغِيباً، واجتناب الْعَمَلِ الذي نَهَى الله عنه إلزاماً أو تَرْغِيباً.

ويشْمَلُ الْعَمَلُ الْأَعْمَالُ الجسدية الظاهرة، والأعمال القلبية والنفسية، الموجبة والسالبة، فكف الأذى عَمَلٌ سَالِبٌ، لَأَنَّهُ كَفٌ وَتَرْكٌ إِرَادِيٌّ، وترك الغيبة والنميمة والحسد عَمَلٌ سَالِبٌ، لَأَنَّهُ تَرْكٌ إِرَادِيٌّ فِيهِ حَبْسُ النَّفْسِ عَمَّا تَهْوَى.

ومن الأعمال الإيجابية النفسية النيات، وذِكْرُ اللَّهِ فِي النَّفْسِ، والتفكير في آياتِ اللَّهِ وآلآئِهِ.

وتفصيل هذا وشَرْحُهُ يَطُولُ، إِذْ كُلُّ حَرَكَةٍ إِرَادِيَّةٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ بَاطِنَةٍ، تَدْخُلُ فِي عُمُومِ الْعَمَلِ الذي يَكْسِبُهُ الْعَبْدُ بِإِرَادَتِهِ.

● قول الله تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هذه جملة مُعْتَرِضَةٌ بين المبتدأ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وبين الخبر: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ للمبادَرةِ إِلَى طَمَآنَةِ الْمُتَّقِينَ، بأنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، قَبْلَ أَنْ يُبَشِّرَهُمْ بأنهم أصحاب الجنة، وبأنهم سوف يكونون خالدين فيها.

وهذه الجملة المعترضة تَدُلُّ على قضيتين:

القضية الأولى: أَنَّ التكاليفَ الرِّبَائِيَّةَ الإلزامِيَّةَ الواردة في آيَاتِهِ أو على لسان رَسُولِهِ في بياناته، مَشْمُولَةٌ بأنها مِنْ وُسْعِ المَكْلُوفِينَ على وَجْهِ الْعُومِ. أمَّا أَصْحَابُ الضَّرُورَاتِ والمعاذير، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَخَفِّفُ عَنْهُمْ التكاليفَ تيسيراً عَلَيْهِمْ بمقتضى أحكام التخفيف الوارد في القرآن والسنة، كرفع الحرج عن المريض والأعمى والأعرج في بعض الواجبات، كالقتال في سبيل الله، وكرفع الحرج عن الناسين المعذورين في نسيانهم، وعن الذين تعرضوا لِسَلْبِ أهليَّةِ التكليف منهم، ونحو لك.

القضية الثانية: أَنَّ كُلَّ مَا لَا يَدْخُلُ فِي وُسْعِ المَكْلُوفِ أَنْ يَعْمَلَهُ أو أن يتركه، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُحَاسِبُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَدْخُلُهُ ضِمْنَ المسؤولية أيضاً، وَلَا يتعلَّقُ به ثوابٌ وَلَا عقابٌ.

﴿لَا تُكَلِّفُ﴾: التَّكْلِيفُ: الإلزام بما فيه كُفَّةٌ على فاعِلِهِ أو تاركه، والكُفَّةُ هي المشقَّةُ في الفعلِ أو في التركِ.

﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾: الْوُسْعُ، وَالْوُسْعُ، والسَّعَةُ في اللُّغَةِ: الجِدَّةُ، والطَّاقَةُ. فمعنى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا قَدْرَ طاقَتِهَا واستِطَاعَتِهَا، وإِلَّا قَدْرَ جِدَّتِهَا من مالٍ أو قُوَّةٍ، ومن القوة قُوَّةُ الإرادة.

ومن هذه العبارة نفهم أَنَّ مَا يَجْرِي في الإنسان، أو يَخْدُثُ مِنْهُ بغيرِ

إِرَادَتِهِ، فهو خارجٌ عن دائرة التكليف الربّانيّ، إذ هو خارجٌ عن وسعِهِ، فلا يُعْتَبَرُ مسؤولاً عنه، فعلاً كان أم تركاً، لأنّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ واستُخْدِمَ في هذه العبارة ضمير المتكلم العظيم للإشعار بأنّ عظمة ربوبيةِ الرّبّ جلّ جلاله، تأبى أن تُكَلِّفَ نَفْسًا قَوْفُ وسعها.

فالجبريون الذين يزعمون أنّ الإنسانَ مجبورٌ في رحلتهِ ابتلائه على الإيمان أو الكفر، والمعصية أو الطاعة، ثمّ يُحَاسِبُهُ اللهُ جَلَّ جلاله وعَظَمَ سلطانه على ما جَبَرَهُ عليه، ويُثَبِّتُهُ أو يُعَاقِبُهُ على ما جَبَرَهُ عليه، يُعَارِضُونَ بِمَقُولَتِهِمُ الباطلة صريح قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

إنّه ليس في وسع الإنسانِ مطلقاً أن يَعمَلَ شيئاً جَبَرَهُ اللهُ على خلافه بقضائه وقَدَرِهِ.

إِنَّ اللَّهَ الرَّبُّ قَادِرٌ مُرِيدٌ عَلِيمٌ حَكِيمٌ عَدْلٌ بَرٌّ رَحِيمٌ، وصفاته جلّ جلاله، لا تَتَعَارِضُ ولا تَتَنَاقِضُ، بل تتكاملُ في تناسُقٍ هو غايةٌ في الكمال.

والإنسانُ المكلفُ يفعلُ الخيرَ بإِرَادَتِهِ الحُرّةِ وهو مُذْرِكٌ واعٍ، ويفعلُ الشرَّ بإِرَادَتِهِ الحُرّةِ وهو مُذْرِكٌ واعٍ، والله عزّ وجلّ يُمِدُّه بالقُوّةِ وبِالأسباب، والعَبْدُ يُوَجِّهُها بإِرَادَتِهِ، والله يَخْلُقُ لَهُ ما أَرَادَ، ثمّ يُحَاسِبُهُ وَيُجَازِيهِ على ما أَرَادَ، لا على ما تَمَّ تحقيقُهُ بخلقِ الله.

هذا فهمُ السّلف، وفهمُ أهلِ السُّنّةِ والجماعةِ لهذه القضية، وإنّما يأتي الخطأُ فيها من حَمَلِ النُّصوص على غير المراد بها.

● ﴿.. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

هذه جملة خبر: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ جاءت الإشارة إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين، للإشعار بارتفاع منزلتهم عند ربهم.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾: أي: ملازموها ملازمة الصاحب لصاحبه، ورُبُّما دَلَّ هذا الاستعمالُ على معنى التملك، أي: هم مالِكُوها بتمليك الله لهم، أو مالِكُو التَّعَمُّ بما فيها من نعيم عظيم مقيم، لأنَّ مالِكَ الشيء يُصاحِبُه ويُلازمه.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: أي: هم في الجنة باقون بقاءً أبدياً.

والجنة إذا ذُكِرت في القرآن ثواباً للمتقين، فهي دار النعيم التي أعدَّها الله لهم، فهُمْ يَدْخُلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ.

● قول الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾:

هذه منحة يمنحهم الله إياها فوق مِنتَحَي دُخُول الجنة، وَمَشَاعِرِ الْخُلُودِ فيها، وهي مِنتَحَة إِزَاحَة قُلُوبِهِمْ ونفوسِهِمْ مِنْ كُلِّ مَا يُعَكِّرُ صَفْو سَعَادَتِهِمْ مِنْ غِلٍّ.

الغِلُّ: كُلُّ مَا يَدْخُلُ فِي الصُّدُورِ مِنْ عِدَاوَة، وَضَغْنٍ، وَحَقْدٍ، وَحَسَدٍ، وَبُغْضٍ، وَغِشٍّ، وَإِرَادَة سُوءٍ بِالْآخِرِينَ، ونحو ذلك.

ومادة الكلمة تدور حول معنى الدخول في الأشياء من مَادِّيَّاتٍ ومعنوياتٍ.

فالذين يُثَبِّتُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بدخول الجنة يَنْزِعُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ عواملِ العداة الَّتِي تَغْلَغَلَتْ إِلَى بَاطِنِهَا فِي الدُّنْيَا، فَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ غِلاً عَلَى أَحَدٍ، بَلْ يُظَهِّرُهُمُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ الْأَرْجَاسِ النَّفْسِيَّةِ، وَكُلِّ مَا يُكَدِّرُ بَالَهُمْ، وَيُعَكِّرُ صَفْوَهُمْ.

ولهذه سعادة رَاحَة مِنْ الْأَعْمَاقِ قد تكون أعظم من سعادتهم بما يُصَيَّبُونَ مِنْ لَذَاتِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَنَاجِحِ ونحوها.

● ﴿وَنَزَعْنَا﴾: التَّزْعُ جَذَبُ الشَّيْءِ واقتلاعه من مكانه، وَيَذُلُّ عَلَى أَنْ

هذا الاقتلاع يَكُونُ من الجذور، أي: فَتَخْلُو فِطْرَتُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ من كُلِّ العوامل التي تُخْدِثُ في الصُّدُورِ غُلًّا، يُفْسِدُ عليها مشاعر سعادتها بما تصيبُ من نعيم.

● ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾: أَطْلَقْتَ الصُّدُورُ على ما تحتويه من قلوبٍ ونُفُوسٍ وأفئدةٍ وألباب.

وجاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قول الله عز وجل بشأنهم أيضاً:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧).

فأضافت هذه الآية بيان أنهم يَكُونُونَ بسبب نزاع الغِلِّ من صُدُورِهِمْ إِخْوَانًا مُّتَصَافِينَ متحابين، لا يُعَكِّرُ صَفْوُ أَخَوْتِمُ شيءًا، ولهذا من كُتُبِيَّاتِ عناصر السَّعادة الاجتماعية.

● قول الله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾: أي: ومما يكرمهم الله به من نعيم، أَنَّ الأنهار المتنوعة تجري من تحتهم في الجنة، إذ يَكُونُونَ على سُرُرِهِمْ في شُرُفَاتِ قُصُورِهِمُ المرتفعة.

وجاءت الأنهار معرفةً بأداة التعريف للدلالة على كمالها، ف (ال) هنا للكمال.

وقد تكرر في القرآن المجيد وصفُ جَنَّةِ الخلد بأنها تجري من تحتها الأنهار، إذ لَا كمال لجَنَّةٍ بدون أنهارٍ تجري.

وجاء في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) بيان أنواع أنهار جَنَّةِ الخلد وبغضِ صفات هذه الأنهار، فقال الله عز وجل فيها:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَوْ لَشَّارِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ

وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴿١٥﴾ .

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ : أي: وصف الجنة .

﴿مِن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ : أي: من ماءٍ لم يتغيَّر طعمُهُ بالمتنِّاتِ، أو من طولِ المكث، فهو متَدَقِّقٌ متجدِّد .

● قول الله عزَّ وجل:

﴿.. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَّبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِشْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

إنَّ أهل الجنة يشنَّد فرحهم بالهباتِ الثلاث لهم، وهي:

(١) تَمْلِيكُهُمْ حُظُوظَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ تَمْلِيكًا أَبَدِيًّا وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٢) إِرَاحَةُ قُلُوبِهِمْ وَنَفُوسِهِمْ مِنْ كُلِّ مَا يُعَكِّرُ صَفْوَ سَعَادَتِهِمْ، فَلَا يَجِدُونَ فِيهَا غِلًّا عَلَى أَحَدٍ .

(٣) إِسْعَادُهُمْ بِالْأَنْهَارِ الْجَلِيلَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَتَنَعَّمُونَ بِمَا فِيهَا مِنْ شَرَابٍ مُخْتَلِفٍ الْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ، وَيَتَنَعَّمُونَ بِمُشَاهَدَةِ جَرَّيَانِهَا، وَهُمْ عَلَى سُرُرِهِمْ أَوْ أَرَائِكِهِمْ فِي قُصُورِهِمْ أَوْ فِي شُرَفَاتِهَا .

فَتَنْطَلِقُ أَلْسِنَتُهُمْ بِالنَّشَاءِ الْعَظِيمِ حَتَّى الْغَايَةِ الْقُضُوءِ، عَلَى اللَّهِ الَّذِي هَدَاهُمْ فِي الدُّنْيَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، الَّذِي أَوْصَلَهُمْ بِفَضْلِهِ إِلَى هَذَا النِّعَمِ الْمَقِيمِ . وَتَنْطَلِقُ أَلْسِنَتُهُمْ بِإِعْلَانِ أَنَّ رَسُولَ رَبِّهِمْ قَدْ جَاءُوا بِالْحَقِّ بِلَاغًا عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي هَذَا الْإِعْلَانِ تَمْجِيدٌ لِرَسُولِ اللَّهِ .

فَيُكَافِئُهُمُ اللَّهُ عَلَى حَمْدِهِمْ، وَرَفَعَ ذِكْرَ رَسُولِ رَبِّهِمْ، بِبَدَاءِ عَامٍ يَتَضَمَّنُ أَنَّ رَبَّهُمْ قَدْ أَوْرَثَهُمُ الْجَنَّةَ الْعَظِيمَةَ الرَّفِيعَةَ الْمَنْزِلَةَ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهَذَا مِنْ تَكْرِيمِ اللَّهِ لَهُمْ، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ إِلَّا بِفَضْلِهِ .

وقد جاء هذا البيان بأسلوب حكاية حَدَّثَ مَضَى، مَعَ أَنَّهُ مِنَ
الأحداث التي سوف تَكُونُ مُسْتَقْبَلًا، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ لَا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ
حينما يكون أهل الجنة في الجنة.

● ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ : أي: وقالوا بغد أن تملكَنَّهُمُ الفرحَةُ بهبات
الله لهم: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» أي: كُلِّ الْحَمْدِ الَّذِي يَعْلَمُهُ اللهُ جَلَّ جلالُهُ، هُوَ لِلَّهِ
استحقاقًا ذاتيًا أَصْلِيًّا، إِذْ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ كُلَّ
عِبَارَاتِ الْحَمْدِ الَّذِي لَا نِهَايَةَ لِحُدُودِهِ، نَظَرًا إِلَى أَنَّ صِفَاتِ الْكَمَالِ لِلَّهِ جَلَّ
جلالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ لَا نِهَايَاتٍ لَهَا، وَضِمْنَ هَذَا الْحَمْدِ الْعَامِّ الشَّامِلِ يَدْخُلُ
حَمْدُهُمْ لِلَّهِ عَلَى مَا أَوْلَاهُمْ فِي الْجَنَّةِ مِنْ أَنْوَاعِ نَعِيمٍ لَا يَخْطُرُ فِي أَوْهَامِهِمْ
مَزِيدٌ عَلَيْهِ.

الْحَمْدُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الثَّنَاءُ بِالْجَمِيلِ. وَالْحَمْدُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ تَدُلُّ عَلَى
ذِكْرِ الْمَحْمُودِ بِكَمَالَاتِهِ الْحَسَنَةِ الْجَمِيلَةِ، عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ وَالتَّكْبِيرِ وَبَيَانِ
ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِ وَعُلُوِّ مَقَامِهِ.

● ﴿الَّذِي هَدَيْنَا لِهَذَا﴾ : أي: الذي هَدَانَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَى
الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي سَلَكَنَاهُ، فَأَوْصَلَنَا إِلَى هَذَا النِّعَمِ الْعَظِيمِ الْخَالِدِ،
بِفَضْلِ عَطَاءِ اللَّهِ وَجُودِهِ الَّذِي لَا حُدُودَ لَهُ.

بهذه العبارة يبيّنون الدافع النَّفْسِيَّ الَّذِي دَفَعَهُمْ لِإِطْلَاقِ عِبَارَةِ: ﴿الْحَمْدُ
لِلَّهِ﴾.

● ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَيْنَا اللَّهُ﴾ : أي: وَيُغْلِبُونَ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ
مُعْتَرِفِينَ وَمُؤَكِّدِينَ بِالْكُونِ الْمُنْفِيِّ الْمَتَّبِعِ بِلَامِ الْجُحُودِ، أَنَّهُمْ كَانُوا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَاجِزِينَ عِجْزًا تَامًا عَنْ أَنْ يَتَوَصَّلُوا بِعُقُولِهِمْ وَتَجَارِبِهِمْ إِلَى
مَعْرِفَةِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالِاهْتِدَاءِ إِلَيْهِ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ أَرْسَلَ
رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمْ بَيَانَاتِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْمَوْصِلِ إِلَى جَنَّاتِ النِّعَمِ،
فَهَدَوْا النَّاسَ إِلَى عُنَاصِرِهِ وَأَحْكَامِ اللَّهِ فِيهِ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

● ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾: أي: وَبَعْدَ أَنْ يَحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى هِدَايَتِهِ لَهُمْ، يَذْكُرُونَ بِالتَّمَجِيدِ رُسُلَ رَبِّهِمْ، الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هُمُ الْمُصْطَفَيْنَ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِ اللَّهِ، الْمُتَضَمِّنَةِ مَا فِيهِ هِدَايَةُ النَّاسِ إِلَى سَعَادَتِهِمْ، وَالْمُشْتَمَلَةِ عَلَى بَيِّنَاتٍ كُلِّهَا حَقٌّ، إِذْ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا مُطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ تَمَامًا.

فالبياناتُ الخبريةُ عَمَّا كَانَ وَعَمَّا هُوَ كَائِنٌ وَعَمَّا سَيَكُونُ أَوْ سَوْفَ يَكُونُ، الَّتِي جَاءَ بِهَا رُسُلُ رَبِّهِمْ الصَّادِقُونَ، قَدْ كَانَتْ كُلُّهَا مُطَابِقَةً لِلْوَاقِعِ. وَالْأَخْكَامُ وَالشَّرَائِعُ وَالْوَصَايَا الَّتِي جَاءُوا بِهَا، قَدْ كَانَتْ مُطَابِقَةً لِلْمَنْهَاجِ الْحَقِّ الْمَوْصِلِ إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ.

لَقَدْ كَانَ إِيمَانُهُمْ بِمَا جَاءَ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ فِي الدُّنْيَا إِيمَانًا بِالْحَقِّ الْمُسْتَنَدِ إِلَى أَدَلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، الَّذِي كَانَ أَوَّلَ عَقَبَةٍ امْتِحَانٍ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَلَكِنَّهُمْ يَوْمَ الَّذِينَ يُشَاهِدُونَ بِحَوَاسِهِمْ كُلَّ الْغَائِظِ الَّتِي كَانَ الْمَكَلُّونَ فِي الدُّنْيَا يُطَالِبُونَ بِالْإِيمَانِ بِهَا إِيمَانًا بِالْغَيْبِ مُسْتَنَدًا إِلَى بُرَاهِينٍ عَقْلِيَّةٍ، فَيُغْلِبُونَ تَمَجِيدَ رُسُلِ رَبِّهِمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا صَادِقِينَ، قَدْ جَاءُوا بِالْحَقِّ تَبْلِيغًا عَنْ رَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَاجْتِمَاعُ كُلِّ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَلَى هَذَا الْإِعْلَانِ التَّمْجِيدِيِّ لِكُلِّ رُسُلِ رَبِّهِمْ، يَدُلُّ عَلَى وَخْدَةِ الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرُّسُلُ الصَّادِقُونَ، فِي أَصُولِهَا، وَعَقَائِدِهَا، وَقَوَاعِدِ أَحْكَامِهَا.

أَمَّا مُخَالَفَةُ بَعْضِ الْأَدْيَانِ ذَاتِ الْأَصُولِ الرَّبَّانِيَّةِ، عَمَّا جَاءَ بِهِ خَاتَمُ رُسُلِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي الْأَصُولِ، وَالْعَقَائِدِ، وَالْقَوَاعِدِ الْكُبْرَى، فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ تَحْرِيفَاتِ الْمُحَرِّفِينَ، وَمِنْ ضَيَاعِ بَعْضِ الْأَصُولِ بِالنِّسْيَانِ، أَوْ بِالْإِهْمَالِ.

● ﴿... وَتُؤَدُّوْنَ أَنْ تَلِكُمْ الْجَنَّةُ أَوْرِثَتْهُمَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣): أي: وَبَعْدَ أَنْ يَخْمَدُوا اللَّهَ رَبَّهُمْ، وَيُمَجِّدُوا رُسُلَهُ، عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ، يُكَافِئُهُمُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِتَكْرِيمٍ مِنْهُ، فَيَصْدُرُ فِي أَرْجَاءِ الْجَنَّةِ نِدَاءٌ عَامٌّ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ بِأَمْرِ مِنْهُ، تَفْسِيرُهُ مَا جَاءَ بَعْدَ «أَنْ» التفسيرية.

● ﴿تَلِكُمْ الْجَنَّةُ﴾: جاءت الإشارة إلى الجنة التي يَنْعَمُ أَهْلُهَا بِمَا وَهَبَهُمُ اللَّهُ فِيهَا، بِاسْمِ الإشارةِ الموضوع للمشار إليه البعيد، للإشعار بجلالة قَدْرِهَا وارتفاع منزلتها، وهذا من الأساليب البلاغية المستعملة في القرآن كثيراً.

● ﴿أَوْرِثَتْهُمَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: مُنِحَتْهُمَا بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وسمى الله عز وجل استحقاق أهل الجنة لمنازلهم فيها ميراثاً لِحِكْمَتَيْنِ:

الحكمة الأولى: أَنْ عطاء الله عز وجل لهذه المنازل هو في الحقيقة منحة منه، فهو أشبه بالميراث الذي سببه القرابة أو المصاهرة.

ومنازل الجنة للمتقين سببها العمل الصالح، مع أَنَّ العمل الصالح من العبد مهما بَلَغَ لَا يَكْفِي مَا تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مِنْ الْحَيَاةِ وَالرِّزْقِ وَالتَّكْرِيمِ بِخَصَائِصِ الْإِنْسَانِيَةِ الْعَظْمَى.

فتأتي منازل الجنة فضلاً آخر من الله على عباده المتقين، أمَّا العمل فهو سَبَبٌ غَيْرُ فاعِلٍ، وهو كَسَبَبِ القرابة في استحقاق النِّصِيبِ مِنَ الْإِثْرِ، مع أَنَّ الْقَرِيبَ رَبِّمَا يَكُونُ قَدْ آذَى قَرِيبَهُ وَلَمْ يَنْفَعْهُ بِنَافِعَةٍ.

ويذُلُّ عَلَى هَذَا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ».

وفي رواية:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَدْخُلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»، قالوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ».

الحكمة الثانية: أَنَّ أهل الجنة يَرْتُونَ فيها المنازل التي كانت مُعَدَّة للكافرين لو أَنَّهُم كانوا قد آمَنُوا وأَسْلَمُوا في رحلة امتحانهم.

روى ابن ماجه بإسنادٍ صحيح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾» [المؤمنون: ٢٣، مصحف/ ٧٤ نزول].

● قول الله عز وجل:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا هُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وقرأ الكسائي: [نِعَم] وهي لغة في [نَعَمْ] والكلمة حرف إيجاب.

تمهيد:

في هذا النصَّ عَوْدٌ نَتَقَّلِي في البيان إلى موقف المحشر، لتقديم مشهدٍ

من مَشَاهِدِهِ، بعد أن سَبَقَ تَقْدِيمُ مَشْهَدٍ من مشاهد أحوال أهل الجَنَّةِ في الجَنَّةِ، في الْآيَتَيْنِ (٤٢ و ٤٣)، وهذا على طريقة القرآن البديعة في التنقُّل بين الأزمنة والأمكنة والمواقف، إثارةً لَفَنِيَّةِ الأداءِ المتحرِّكِ الآخذ بمجامع الأذهانِ والأفتدة والنفوس.

وفي هذا المشهد الذي عرَضَتْهُ الْآيَاتُ من (٤٤ - ٤٧) بيانٌ نداءٍ من أصحاب الجَنَّةِ المفروزين في المحشر إلى جهة اليمين جِهَةَ الجَنَّةِ، لأصحاب النار المفروزين في المحشر إلى جهة الشمال جِهَةَ النار، وبيان جوابهم على النداء.

ويعقبُهُ بيان أذان مؤذِّنٍ من الملائكة، ينادي في أجواء المحشر نداءً تفسيره: ﴿لَعَنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وَيَقْتَرِنُ بهذا البيان بيانٌ من الله للناس وهم في عالمِ الابتلاءِ يَبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فيه من هم الظالمون.

وعَقِبَ ذلك يُقَدِّمُ الْبَيَانُ مَشْهَدَ حِجَابٍ حاجزٍ مرتفعٍ بَيْنَ أهل الجَنَّةِ وأهل النار، وعلى الأعراف من هذا الحجاب رجالٌ لَمْ يَضْدِرِ الْقَرَارُ الرَّبَّانِيَّ بَعْدُ بِشَأْنِهِمْ، هل هم من أهل النار أم من أهل الجَنَّةِ، لأنَّهم في مَنْزِلَةِ وَسْطَى تماماً بَيْنَ الفريقين، وهم يترقبون بَيْنَ الخوف والطمع صُدُور القرار بشأنهم، وَيَعْرِضُ الْبَيَانُ مَشْهَداً من مشاهدٍ تَصَرُّفِهِمْ وَهُمْ على الأعراف، إذ يُنَادُونَ أصحابَ الجَنَّةِ أَنْ سَلَامَ عَلَيْكُمْ، وهم ما زالوا في المحشرِ إلى جِهَةِ الجَنَّةِ، وتَبَدُّو عليهم أماراتِ الطَّمَعِ بأنَّ يُسَاقُوا إلى دخول الجَنَّةِ زُمَراً، لعلَّ بَعْضَ أهل الجَنَّةِ كالرُّسُلِ يَرُدُّ عليهم التَّحِيَّةَ بِمِثْلِهَا، فتكون لهم بمثابة بُشْرَى بأنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَرْحَمُهُمْ، فيجعلُهم من أهل الجَنَّةِ، ولو بَعْدَ أَنْ يُعَاقَبُوا على معاصيهم أو بعضها. وإذا صُرِفَتْ أَبْصَارُ الَّذِينَ هم على الأعراف تلقاء أصحاب النار، وَبَدَا لَهُمْ ما هُمْ صَائِرُونَ إليه من خلود في عذاب النار، دَعَوْا رَبَّهُمْ قائلين: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مع الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

التدبر:

● قول الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ...﴾ ﴿٤٤﴾.

هذه الصورة التي جاءت بأسلوب حكاية أمر مضي، مما سوف يتحقق في الآخرة، في موقف الحشر، لتأكيد أنه لا بُدَّ أن يتحقق حتماً، صورة تُعرض لقطعة من لقطات مشاهد يوم الحشر بعد الحساب وفضل القضاء بالنسبة إلى أهل الجنة، وأهل النار الخالدين فيها، وهم في انتظار توجيه أهل الجنة لدخول الجنة، وتوجيه أهل النار لدخول النار.

أما أصحاب الجنة فمجموعون في جهة من أرض المحشر هي جهة اليمين، وحين تُزَلَّفُ الجنة للمتقين تُزَلَّفُ إلى هذه الجهة، وأما أصحاب النار فمجموعون في جهة من أرض المحشر أخرى هي جهة الشمال، ومن هذه الجهة يسمعون تغيط النار وزفيرها. وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب سيأتي إن شاء الله البيان عنه.

ودلّ البيان على أن التخاطب بين الفريقين يكون بأسلوب النداء، الذي يُصاحبه رفع الصوت، لا بأسلوب المحادثة، ولا نذري ماذا يهيئ الله من وسائل لإيصال أصوات المتنادين في ذلك الموقف، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين في مخسر واحد، ويفرز فيه المؤمنين عن الكافرين، ويجعل الفريق الذين هم بين بين على أعراف الحجاب.

يقول أصحاب الجنة الذين صدر القرار بأنهم من أهل الجنة، في ندائهم لأصحاب النار وهم مفروزون في مكان حشرهم كلاماً تفسيره: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾؟

كلمة «أن» في: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ تفسيرية للنداء، أي لما جاء فيه من

كلام.

إِنَّهُمْ يُغْلِبُونَ فِي نَدَائِهِمْ هَذَا أَنَّهُمْ قَدْ وَجَدُوا كُلَّ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ رَبُّهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَلْسِنَةِ رَسُولِهِ بِلَاغًا وَبَيَانًا، وَجَدُوهُ حَقًّا وَاقِعًا كَمَا جَاءَ فِي وَعْدِهِ الْكَرِيمِ، فَالْبَغْتُ قَدْ تَحَقَّقَتْ، وَمَوْقِفُ الْحَشْرِ قَدْ تَحَقَّقَ، وَمَوْقِفُ الْحِسَابِ وَقَضَى الْقَضَاءِ قَدْ تَحَقَّقَ، وَإِضْدَارُ الْحَكَمِ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ قَدْ تَحَقَّقَ، وَهَذِهِ الْجَنَّةُ تَقْتَرِبُ إِلَى مَوْقِفِهِمْ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ الْإِذْنَ بِسَوْفِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمْرًا، كَمَا جَاءَ فِي الْوَعْدِ الرَّبَّانِيِّ.

إِنَّهُ نِدَاءُ الْفَرَحِينَ الْمُبْتَهِجِينَ بِثَوَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ يَتَضَمَّنُ تَخْسِيرًا لِأَصْحَابِ النَّارِ، الَّذِينَ كَانُوا يُكَذِّبُونَ بَيَاتِ اللَّهِ وَيَسْتَكْبِرُونَ عَنْهَا.

وَيَسْأَلُونَ فِي نَدَائِهِمْ أَصْحَابَ النَّارِ قَائِلِينَ لَهُمْ: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟﴾

أي: فهل وجدتم كلَّ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، سواءً أكان وَعْدًا بِالْعَذَابِ وَالْعِقَابِ لِلْكَافِرِينَ الْمَكْذِبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ، أَمْ كَانَ وَعْدًا بِالثَّوَابِ وَالْأَجْرِ الْعَظِيمِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ؟

● ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾:

مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونَ جَوَابُ أَصْحَابِ النَّارِ بِكَلِمَةِ «نَعَمْ» مَعَ ذَلِكِ وَتَحَسُّرٍ وَانْكَسَارٍ، فَلَا مَجَالَ يَوْمِئِذٍ لِلْإِنْكَارِ.

● قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿.. فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝٤٤﴾.

● ﴿فَأَذَّنَ﴾: أي: فنادى مُعْلِمًا، يُقَالُ لَعْنَةُ: أَذَّنَ تَأْذِينًا، وَأَذَانًا، أَي:

أَكْثَرَ الْإِعْلَامِ بِالشَّيْءِ.

● ﴿مُؤَذِّنٌ﴾: الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْمُؤَذِّنَ هُوَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَهُمْ

وظائف يؤدونها يوم الدين والله أعلم، ويدلُ فعلُ «أَذَّن» على أنه يكرَّرُ مقالته، كما يكرَّر المؤذِّن للصلاة عبارات الأذان.

● ﴿يَبْتَئِمُّ﴾ : أي: يَكُونُ هذا المؤذن قائماً بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، فالضمير يعودُ على الفريقين، ويحتمل أن يكون عائداً فقط على أصحاب النار الذين قالوا: ﴿نَعَمْ﴾.

● ﴿..أَنْ لَّعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤) :

﴿أَنْ﴾ تفسيريَّة لمضمون ما جاء في كلماتِ أذان المؤذن.

وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿أَنْ لَّعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ بتشديد النون من [أَنْ] مَعَ نَضْبِ لفظه [لَعَنَهُ] أي: اَعْلَمُوا أَنَّ لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظالمين.

والقراءتان مُتَكَامِلَتَانِ في دلاليتهما، إذ تشعيران بأن المؤذن يقول مُكَرَّرًا: «لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ». ثُمَّ يقول مُكَرَّرًا: «إِنَّ لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ».

اللُّغْنُ: هو في اللُّغَةِ الطَّرْدُ والإبعادُ من الخير، وَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ تدلُّ على طردهم من مواطن تنزلاتِ رَحْمَتِهِ.

والمرادُ بالظالمين هنا الكافرون الذين كذَّبوا في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا بآيات الله، واستَكْبَرُوا عن اتباعها، وعن طاعة أوامر الله ونواهيه فيها، وكانوا يصدُّون عن سبيل الله، وَيَبْغُونَ أن تكونَ السَّبِيلُ عَوجَاءَ مُوَافَقَةً لأهوائهم وشهواتهم ونزواتهم.

● قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ﴾ (٤٥).

هذه الآيةُ يُبَيِّنُ الله عزَّ وجلَّ فيها للناس وهم في الحياة الدنيا، المرادُ بعنوان «الظَّالِمِينَ» في العبارة التي يُرَدِّدها المؤذنُ يَوْمَ الدين، وليست من

توابع عبارة المؤذن، إذ في هذه الآية بيان لما يُمارسه الظالمون في الحياة الدنيا من سُلوِك واعتقاد.

● ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: الصَّدُّ في اللغة يُسْتَعْمَلُ لازماً ومتَعَدِّياً. تقول لغة: صَدَّ فلانٌ عن فلان، أي: هَجَرَهُ وَابْتَعَدَ عَنْهُ، وَاتَّخَذَ جانباً غَيْرَ جانبِهِ، فالفعل بهذا المعنى لازم.

وتقول لغة أيضاً: صَدَدْتُ ابْنِي عن طريق الشَّرِّ، أي: مَنَعْتَهُ من سُلوِكِهِ، وَصَرَفْتَهُ عَنْهُ وَأَبْعَدْتَهُ، والفعل بهذا المعنى مُتَعَدِّ.

وَالظَّالِمُونَ يَصُدُّونَ عن سبيل الله، بمعنى يَهْجُرُونَهُ، وَيَبْتَعِدُونَ عَنْهُ، وَيَتَّخِذُونَ جانباً غير جانبِهِ، وَمَعْلُومٌ بدهاءة أَنَّهُمْ لَا يَصُدُّونَ عن سبيل الله إِلَّا بِسَبَبٍ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا، وَسَبِيلُ اللَّهِ هُوَ دِينُهُ وَشَرَائِعُهُ وَأَحْكَامُهُ وَوَصَايَاهُ لِعِبَادِهِ.

وَفَرِيقٌ مِنَ الظَّالِمِينَ مُضِلُّونَ مُغْوَوْنَ دُعاةٌ كُفَرٍ وضلال، فهم يَصُدُّونَ عن سبيل الله، بمعنى يَضُرِّفُونَ وَيُبْعِدُونَ عَنْهُ من يستجيب لضلالاتهم، أو يَمْنَعُونَ النَّاسَ بِالْإِكْرَاهِ الْمَادِّيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ عن سلوكه مِمَّنْ يَسْتَطِيعُونَ إِكْرَاهَهُ.

● ﴿وَيَتَّبِعُونَ عِوَجًا﴾: أي: وَيَتَّبِعُونَ أَنَّ تَكُونَ سَبِيلَهُمْ وَسَبِيلُ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عِوَجًا، أي: عِوَجًا غير مستقيمة.

الْعِوَجُ بفتح العين اسمٌ لِلْمَيْلِ وَالْإِنْعِطَافِ فِي الْأَشْيَاءِ، وَمُجَانِبَةُ الْاسْتِقَامَةِ فِي الْمَرْتَبَاتِ، كَالْقَضِيبِ الْأَعْوَجِ، وَالْعَصَاةِ الْعِوَجَاءِ.

وَالْعِوَجُ: بِكسر العين عدم الاستقامة في الأشياء المعنوية، كَالْفِكْرِ، وَالْقَوْلِ، وَالْمَذْهَبِ، وَمِنْهَاجِ السُّلُوكِ. وَالْعِوَجُ فِي الْأَرْضِ عدم الاستواء فيها.

● ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ (٤٥): أي: وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَيَكْفُرُونَ وَيَكْذِبُونَ بِقانون الجزاء الَّذِي قَضَاهُ وَقَدَرَهُ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، رَبُّ

العالمين، فلا يجدون في نفوسهم مَشَاعِرَ خوف من العقوبات الربَّانية المقرَّراتِ للظالمين.

● قول الله تعالى: ﴿وَيَبَيِّنُهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

● ﴿وَيَبَيِّنُهُمَا حِجَابٌ﴾: أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار، الذين صَدَرَتْ بِشَأْنِهِمُ الْأَحْكَامُ النَّهَائِيَّةُ فِي الْمَحْشَرِ، بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ حِجَابٍ، وهذا الحجابُ الفاصِلُ بين الفريقين، هو سُورٌ أو جَبَلٌ مُمْتَدُّ فَاصِلٌ مِنْ أَوَّلِ أَرْضِ الْمَحْشَرِ إِلَى آخِرِهَا.

لَقَدْ أَقَامَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمَفْرُوزَيْنِ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ حِجَابًا لَهُ شُرَفَاتٌ يُنَاطَرُ مِنْ يَكُونُ فِيهَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ وَأَصْحَابُ الشُّمَالِ، وَيَسْتَطِيعُ وَهُوَ فِيهَا أَنْ يُخَاطَبَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ نِدَاءً، وَهَذِهِ الشُّرَفَاتُ الْمُطَلَّاتُ سَمَّاها اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْرَافًا.

● ﴿... وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ...﴾:

الأعراف: في اللغة جَمْعُ «عُزْف». قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ: عُزْفُ الْأَرْضِ، مَا اِزْتَفَعَ مِنْهَا، وَجَمْعُهُ «أَعْرَاف».

ويقولون: جَبَلٌ أَعْرَفٌ، إِذَا كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مُرْتَفِعٌ كَعُزْفِ الدِّيكِ. ويقولون: حَزَنٌ أَعْرَفٌ، أَي: أَرْضٌ غَلِيظَةٌ صَعْبَةٌ مُرْتَفِعَةٌ. وَأَعْرَافُ الرِّيحِ وَالسُّحُبِ فِي اللَّغَةِ، هِيَ أَوَائِلُهَا وَأَعَالِيهَا، وَاجِدُهَا «عُزْف».

ويظهر أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مَأْخُودٌ فِي الْأَصْلِ مِنْ «عُزْفِ الدِّيكِ» وَهِيَ اللَّحْمَةُ الْمُسْتَطِيلَةُ الْمُرْتَفِعَةُ فِي أَعْلَى رَأْسِهِ، وَمِنْ عُزْفِ الْفَرَسِ، وَهُوَ الشَّعْرُ الثَّابِتُ فِي أَعْلَى عُنُقِهِ.

فالأعراف: هي الأعالي المشرفة التي تكون فوق الحجاب الفاصل في المحشر، بين أهل الجنة وأهل النار، قبل توجيههم لمصايرهم.

وقد نظرت في أقوال المفسرين حول الأعراف في موقف المحشر، وحول أصحاب الأعراف، ورأيت فيها اختلافاً كثيراً، وعذت إلى تدبر النص بآناة، وإلى ما جاء في المأثور عن الرسول ﷺ، وهي روايات لم ترق الأسانيد فيها إلى مستوى الصحيح، ورأيت أن أجودها مرسلاً حسن كما قال ابن كثير، واستعنت بالله العليم الوهاب، فترجح لدي أن الأعراف شرفات مرتفعت فوق الحجاب، وأن أصحاب الأعراف هم الذين كانت حسنتهم كافية لوقايتهم بفضل الله من عذاب النار، لكن ليس فيها ما يؤهلهم لدخول الجنة بحسب ميزان العدل، فوضعوها على الأعراف بين بين. وقد جاء في عدة أسانيد، قال ابن كثير بشأنها: من المرسل الحسن، عن النبي ﷺ، أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال:

«هُمْ آخِرُ مَنْ يُفْضَلُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعِبَادِ، فَإِذَا فَرَغَ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنَ الْفَضْلِ بَيْنَ الْعِبَادِ قَالَ: أَنْتُمْ قَوْمٌ أَخْرَجْتُكُمْ حَسَنَاتِكُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَمْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَأَنْتُمْ عُقَايِي، فَارْعَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتُمْ».

● ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾: أي: ونساء لأن سنة الله في عباده واحدة، سواء أكانوا رجالاً أم نساء.

وجاء ذكر الرجال دون التصريح بالنساء، لأن الرجال يكونون في مقدمة الصفوف، فهم الذين تقع عليهم الأنظار في المشهد، أو لأن الأسلوب القرآني يعتد بذكر الرجال دون النساء، على اعتبار أن النساء يلحظن بهم في الأحكام، ما لم تكن القضية من خصائص الذكورة، والله أعلم.

● ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾: أي: يعرفون كلًّا من فريق أصحاب الجنة، وفريق أصحاب النار، بعلاماتهم الفارقات بينهم.

السَّيِّمَ وَالسَّيِّمَاءُ: في اللغة: العلامة.

وقد جاء في القرآن المجيد بيان أن سيما الكافرين يوم القيامة، أن تكون وجوههم مسودة، ولو كانت في الدنيا بيضاء البشرة، كأحسن ما تكون الوجوه البيض بياضاً، وأن تكون سيما وجوه المؤمنين يوم القيامة مبيضة مشرقة مبنهجة، ولو كانت في الدنيا سوداء البشرة كأشد ما تكون الوجوه السود سواداً.

■ ففي سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) قال الله عز وجل:

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتَى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝١٠﴾.

■ وفي سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) قال الله عز وجل:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌُ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌُ فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمُ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمُ فَنِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١٧﴾.

● قول الله تعالى: ﴿... وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَعَلَّكُمْ يَدْخُلُونَا وَهُمْ يَطْمَئِنُّونَ ۝٤٦﴾.

إن المشهد يخكى - بصيغة الفعل الماضي لتأكيد أنه سوف يتحقق يوم الدين - لقطات من تصرفات أصحاب الأعراف، ومنها أنهم في مواقعهم على الأعراف يتوجهون بأنظارهم إلى أصحاب الجنة، فينادونهم: سلام عليكم.

وهذا يدل على أنهم قد كان بينهم وبينهم لقاء في الدين، وتجمعهم في دائرة الإسلام تحية السلام.

وسكت النص عن رد أصحاب الجنة هذه التحية بمثلها أو بأحسن منها، ويحتمل هذا السكوت دالتين:

الأولى: الإيجاز، لأنَّ الرَّدَّ مِمَّا يُعْلَمُ بداهةً.

الثانية: أن يكون أصحاب الجنة لم يَعْرِفُوا بَعْدُ مَصِيرَ هؤلاء الَّذِينَ هم على الأعراف، فَهُمْ لَا يَدْعُونَ لَهُمْ بِالسَّلَامِ إِذَا لم يكونوا من أَهْلِهِ حينما يقضي الله قضاءه بِشَأْنِهِمْ.

● ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾: الضمائر في هذه الجملة تعود على أَصْحَابِ الْجَنَّةِ. وهي تبيِّن أنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ما زالوا في موقف الانتظار، وهم عَالِمُونَ بِأَنَّهُمْ قد صَدَرَتْ بِشَأْنِهِم الأحكامُ الرَّبَّانِيَّةُ بِأَنَّهُمْ من أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، لكن لم يَصْدُرِ الأَمْرُ التَّنْفِيزِي بالتَّوَجُّهِ لَهَا، حَتَّى تُسَوِّقَهُم الملائكةُ إِلَيْهَا زُمَرًا. غَيْرَ أَنَّهُمْ يَتَوَقَّعُونَ لحظةَ فَلْحَظَةٍ أن يَصْدُرَ الأَمْرُ التَّنْفِيزِي، وهم كُلُّمَا مَرَّتْ لِحْظَةٌ طَمِعُوا بِأَن تَكُونَ اللَّحْظَةُ التَّالِيَةُ هي الظَّرْفُ لتوجيه أمرِ التَّنْفِيزِ، وهكذا يتجدَّدُ طَمَعُهُمْ لحظةً فليحظةً، فَفَهُمْ هذا من استعمال الفعل المضارع في العبارة، أي: لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بَعْدُ، وهم يَطْمَعُونَ طَمَعًا متجددًا مع اللَّحْظَاتِ بِأَن يَصْدُرَ أَمْرُ التَّنْفِيزِ بِدُخُولِهَا حَتَّى يَدْخُلُوهَا.

ولَيْسَ وَاِرِدًا أن يكون المراد بعبارة ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ، لأنَّ النَّصَّ واضِحٌ في أَنَّهُمْ ما زالوا على الأعراف في المنطقة الوسطى، ولم يُلْحَقُوا بَعْدُ بِأَصْحَابِ الْجَنَّةِ، فلا معنى لأن يقال: لم يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ.

● قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٧):

أي: وَإِذَا حُوِّلَتْ وَجُوهُ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ وَأَبْصَارُهُمْ إِلَى جِهَةِ أَصْحَابِ النَّارِ، على غير رَغْبَةٍ مِنْهُمْ، فَقَلْبُوبُهُمْ وَجِلَّةٌ مِنْ أن يُلْحَقُوا بِهِمْ، دَعَا رَبُّهُمْ فَوْرًا قَائِلِينَ: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، أي: رَبَّنَا لَا تُلْحِقْنَا بِهِمْ حَتَّى نَكُونَ مَعَهُمْ فِي عَذَابِ النَّارِ.

لم يَكْتَفُوا بِأَن يَقُولُوا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَهُمْ، أَوْ: لَا تَجْعَلْنَا مَعَ

هؤلاء. بل ذَكَّرُوهم بالوصف الذي اسْتَحَقُّوا به أن يكونوا من أصحاب النار.

صُرِفَتْ: أي: حُوِّلَتْ، وصُرِفَ الشيء: رُدَّه عن وجهه إلى وجه آخر، واستعمال الفعل المبني لما لَمْ يُسَمَّ فاعله هنا يدلُّ على أنَّ هذا الصرف لم يَزْعَبه أصحاب الأعراف، فهو يجري فيهم حركة غير إرادية.

● ﴿لِقَاءَ أَحْصَى النَّارِ﴾: التَّلَقُّاءُ مضدٌّ مِثْلُ اللَّقَاءِ، أو اسم مصدر للَّقَاءِ كما قال ابنُ سيده.

وتوسَّعَ العربُ في استعمال كلمة «تِلْقَاء» فاستعملوها ظرف مكان بمعنى جِهَةِ اللَّقَاءِ والمقابلة، ونَصَبُها على الظرفية.

● قول الله تعالى: ﴿وَنَادَى الْأَعْرَافَ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٨) أَهْلُؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ...!؟

يُصَوِّرُ هذا البيان مَشْهَدَ حَدَثٍ يكونُ في هذا الموقف، إذ يُشَاهِدُ فيه أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ وَهُمْ على شُرَفَاتِهِمْ، بَغْضِ أَصْحَابِ النَّارِ مِمَّنْ كَانُوا يَعْرِفُونَهُمْ في الحياة الدنيا، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُمْ في ذَلِكَ الْمَشْهَدِ بَعَلَامَاتِهِمْ أَنَّهُمْ من أصحاب النار، فينادونَهُمْ من بُعْدٍ قائلين لهم مقالَتَيْنِ:

المقالة الأولى: يقولون لهم فيها: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ للأموال وللرجال وللقرى في الحياة الدنيا ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ به عن اتباع آيات الله المنزلات التي بَلَّغَكُمْ إِيَّاهَا رُسُلُ رَبِّكُمْ؟

استفهام يُرَادُ به التوبيخ والتفريع والإنكار والتحسير.

هذه المقالة تَدُلُّ على أَنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ مُؤْمِنُونَ، وَلَكِنْ لم تَبْلُغْ حَسَنَاتُهُمْ أَنْ يُفَرِّزُوا ابتداءً مع أصحاب الجنة.

المقالة الثانية: يقولون لهم فيها بشأن بعض المؤمنين، الصائرين إلى جنّات النعيم، وقد كانوا في الدنيا من ضعفاء المؤمنين وفقرائهم ومساكينهم:

● ﴿أَهْتَؤَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ إِذْ كُنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَائِلِينَ: نُقَسِمُ أَنَّ هَؤُلَاءَ الْمُسْتَضْعَفِينَ الْمَسَاكِينَ الْفُقَرَاءَ ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾.

استفهامٌ يراد به أيضاً التوبيخ والتقريع والإنكار والتّخسير، فلا يجيب المسؤولون بشيء، وعَدَمُ الجواب في هذا الموقف هو الجواب، لأنّهم خَزَايَا نادمون شاعرون بالصغار والدّلة.

وينطوي هذا المشهد.



● قول الله تعالى:

﴿... ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

في هذه الجملة انتقالٌ مُفاجئٌ حصل فيه التقاطُ خطابٍ مقتطعٍ ممّا سوف يكون عقب المشهد السابق الذي طوي، وأُنْهِِيَ الكلامُ حَوْلَهُ في النصّ، دون أن يفصل الكلامُ بآيةٍ مُنفردة، إيغالا في إحكام الإبداع في العرض.

إنّ النصّ يَنْتَقِلُ بِصُورَةٍ سَرِيعَةٍ مُفاجئةٍ، لِيَقْدِمَ لِقِطْعَةً توجّيه الأمرِ الرّبّاني لأَصْحَابِ الْجَنَّةِ، الَّذِينَ يَتَرَقَّبُونَ بِطَمَعٍ مع توالي اللّحظات، أَنْ يَصُدَرَ الْأَمْرُ التّكريميُّ لهم بأنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ.

وهذا الأسلوبُ البيانيُّ جارٍ على طريقة عَرْضِ اللَّقَطَاتِ الْمُقْتِطَعَاتِ، من عُمُومِ سلاسل المشاهد المتتابعة، دون التمهيد لها بآيةٍ مُقَدِّمَاتٍ، وهذه الطريقة من روائع الأداء البياني، الذي لم يكن يَعْرِفُهُ الْبُلْغَاءُ وَلَا الْأَدَبَاءُ،

وَصِرْنَا نَعْرِفُهُ الْيَوْمَ فِي فُتُونٍ عَزِيزٍ لِقَطَاتِ الصُّورِ السَّيْنَمَائِيَةِ ذَاتِ الْأَدَاءِ
الْفَنِيِّ الرَّفِيعِ، دون فواصل تُشْعِرُ بالانتقال من لَقْطَةٍ لِأُخْرَى.

وَيَلْزِمُ فِكْرًا من توجيهِ الأمر لهم بأن يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، أن يَكُونَ الرَّبُّ
جَلَّ جَلَالُهُ قد وَجَّهَ الْأَمْرَ لِذَوِي الاختصاص من الملائكة بأن يَسُوقُوهُمْ زُمْرًا
إِلَيْهَا، لتكامل دلالات النصوص الموزعة في القرآن المجيد.

فقد جاء في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) قولُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ
لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

صيغة الأمر في عبارة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ هي صيغة دعوة تكريمية من
الرَّبِّ العظيم الجليل لعباده المتقين الذين قضى لهم بأنهم أَصْحَابُ الْجَنَّةِ.

● ﴿... لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ :

سَبَقَ تدبُّر معنى نفثي الخوف والحزن عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، لدى تدبُّر الآية
(٣٥) من هذه السورة.

وأُضِيفَ هنا أَنَّ هذا التعبير قد جاء في القرآن المجيد (١٤) مَرَّةً،
وتَدَبَّرُهَا ضِمْنَ سَبَاقِهَا وَسِيَّاقِهَا يَحْتَاجُ دراسةً تكامليةً مستقلةً.

وقد طوى النص بيان تَوَجِيهِ الأمرِ بِإِذْخَالِ أَهْلِ النَّارِ النَّارَ إِيجَازًا،
وللِعلم به من السِّيَاقِ ومقتضى التقابل.



● قولُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا
رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ
لَهُمْ وَلَعِبًا وَاغْرَثَهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ

هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هَٰذِهِ
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِي نَسُوهُ
مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ
غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ❖

تمهيد:

هذه الآيات هي الآيات الأخيرة من الدرس الرابع من دروس
السورة، وفيها ما يلي:

● عرض مشهد آخر من مشاهد يوم الدين، إلا أنه مشهدٌ مقتطع من
أحوال أهل النار وهم في النار، إذ يُنادون مُستَجدين أصحاب الجنة وهم
في الجنة، أن يَمُنُّوهم من قَيْضٍ ما عندهم من ماء أو رزقٍ مما رَزَقَهُم
الله.

أما توصيلُ النداء فيكون بوسيلة يُهَيِّئُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ للفريقين وهم في
دَارِنِهِم، دار العذاب، ودار النعيم.

ويجيبُ أهل الجنة بأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ حَرَّمَ ما في الجنة من ماء
وأرزاقٍ على الكافرين.

● بيانُ ربَّانيٍّ قد جاء تعليقاً على ذكر الكافرين يَصِفُ اللهُ فِيهِ
الكافرين بأنَّهم اتَّخَذُوا دينهم لهواً ولعباً، وَغَرَّنَهُمُ الحياة الدنيا، وَعَزَّلُوا عَنْ
تَصَوُّرَاتِهِمُ الآخرة، وما فيها من عقابٍ بِالْعَدْلِ في دار العذاب النار، وما
فيها من ثوابٍ بِالْفَضْلِ في دار النعيم الجنة، وَجَحَدُوا بِآيَاتِ اللهِ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ أَنَّهَا حَقٌّ مِنْ رَبِّهِمْ.

فَجَزَّأُوهُمْ أَنْ يُعَامَلُوا بِمِثْلِ مَا قَدَّمُوا فِي الحياة الدنيا.

● بيانُ ربَّانيٍّ يَكْشِفُ أَنََّّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ عُذْرًا يَعْتَذِرُونَ بِهِ، فقد جاءهم

رَبُّهُمْ بِكِتَابٍ فَضَّلَهُ بِحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ الشَّامِلِ، وفيه هُدًى وَرَحْمَةٌ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، وَيُؤْمِنَ بِالْحَقِّ، الْمَنْزِلِ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ الْحَقِّ.

وفي هذا البيان مُعَالَجَةٌ، تَرْبُويَّةٌ حكيمةٌ بديعةٌ، وهم في الحياة الدنيا، وهذه المعالجةُ يَنْتَفِعُ بها الَّذِينَ يحرصون على سَعَادَتِهِمْ الأبدية، وَلَا يَغْتَرُونَ بزِينَاتِ الحياة الدنيا.

التدبر:

● قول الله تعالى:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

التعبيرُ بالنَّداءِ في هذا وأمثاله يَدُلُّ على بُعْدِ الْمَسَافَةِ بَيْنَ الْمَنَادِي وَالْمَنَادَى، وهو الأمر الذي يَسْتَدْعِي رَفَعَ الصَّوْتِ.

ويَدُلُّ التَّعْبِيرُ بالنَّداءِ في بعض الأحوال على مَشَاعِرِ التَّلَهُّفِ، أو شِدَّةِ الطَّلَبِ، أو شِدَّةِ التَّحَسُّرِ، أو شِدَّةِ الْحُزْنِ، أو نحو ذلك، مع أَنَّ الْمَنَادَى قَرِيبٌ، نظراً إلى أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ طَبِيعَتِهِ أَنْ يَدُلَّ بِرَفْعِ الصَّوْتِ وبعباراتِ النَّداءِ على هذه الأمور.

والصورة هنا تَدُلُّ على أَنَّ النَّداءَ صَادِرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وهم يُعَذِّبُونَ فِيهَا، فَهُمْ بِهِ يَسْتَجِدُّونَ بِتَلَهُّفٍ وَشِدَّةِ طَلَبٍ وَذِلَّةٍ وَانْكِسَارٍ، مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَنْ يُفِضُوا عَلَيْهِمْ شَيْئاً مِنْ مَاءِ الْجَنَّةِ، أو شَيْئاً مِنْ رِزْقِ اللَّهِ لَهُمْ فِيهَا مِنْ مَطَاعِمٍ وَمَشَارِبٍ.

ولَمَّا كَانَ التَّعْبِيرُ هُنَا يُقَدِّمُ مَشْهُداً مُقْتَطِعاً مِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، كَانَ مِنْ رَفِيعِ الْأَدَاءِ الْبَيَانِيِّ الْفَنِيِّ أَنْ يُقَدِّمَ بِصِبْغَةِ حَدِيثٍ وَقَعَ فِعْلاً، وَالتَّعْبِيرُ يُقَدِّمُ صُورَةً لَهُ. وفيه مع هذه الْفَنِيَّةِ التَّصْوِيرِيَّةِ دَلَالَةٌ عَلَى

أَنَّ الْحَدَّثَ سَوْفَ يَقَعُ لَا مُحَالَةً، وَهَذَا الْأَمْرُ يَسْمَحُ بِالتَّعْبِيرِ عَنْهُ بِبَلَاغِيٍّ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمَاضِي.

● ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا﴾: «أَنْ» تفسيرية، فهي هنا تفسر مَضْمُونَ النَّدَاءِ بالتعبير الذي جاء بعدها.

﴿أَفِيضُوا﴾: الإفاضة تَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ الْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ، أَوْ كَثْرَةِ الدَّفْعِ، أَوْ كَثْرَةِ السَّكْبِ، أَوْ كَثْرَةِ التَّدْفِقِ، وَتَكُونُ لِكُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ.

تقول لغة: أَفَاضَ اللَّهُ الْخَيْرَ إِذَا كَثُرَ. وتقول: أَفَضْتُ الْإِنَاءَ، إِذَا مَلَأْتَهُ حَتَّى فَاضَ عَنْهُ، وَخَرَجَ الزَّائِدُ عَنْ حُدُودِهِ. وتقول: أَفَاضَ الْبَاكِي دَمْعَهُ، إِذَا سَكَبَهُ بَغْزَارَةً.

وتقول: فَاضَ الْمَاءُ إِذَا كَثُرَ حَتَّى سَالَ. وَفَاضَ النَّهْرُ أَوْ السَّيْلُ، إِذَا مَلَأَ مَجْرَاهُ وَزَادَ حَتَّى طَفَحَ عَلَى جَانِبَيْهِ.

وصيغة ﴿أَفِيضُوا﴾ صِيغَةُ أَمْرٍ مَعْنَاهَا هُنَا الطَّلَبُ بِاسْتِجْدَاءٍ وَذِلَّةٍ وَانْكِسَارٍ.

فَأَهْلُ النَّارِ بِنَدَائِهِمْ يَسْتَجِدُّونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَتَّصِدَّقُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الزَّوَائِدِ الْكَثِيرَةِ الْفَائِضَةِ عَنْ حَاجَاتِهِمْ، مَاءً فَائِضاً مِنْ مِيَاهِهِمُ الْكَثِيرَةِ، أَوْ رِزْقاً فَائِضاً مِنْ أَزْزَاقِهِمُ الْكَثِيرَةِ، أَوْ مِنْهُمَا مَعاً، لِأَنَّ حَرْفَ الْعَطْفِ «وَأَوْ» يَدُلُّ عَلَى التَّخْيِيرِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، وَلَا يَمْنَعُ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا.

● ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾: أَي: أَفِيضُوا عَلَيْنَا فَيْضاً زَائِداً عَنْ حَاجَاتِكُمْ مِنَ الْمَاءِ الْكَثِيرِ الْوَفِيرِ الَّذِي عِنْدَكُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَيَدَّعُوا بِطَلْبِهِ لَشِدَّةِ ظَمْنِهِمْ فِي دَارِ تَعَذُّبِهِمْ.

● ﴿أَوْ رِزْقًا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: أَي: أَوْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا فَيْضاً زَائِداً عَنْ حَاجَاتِكُمْ مِنَ الرِّزْقِ الْكَثِيرِ الْوَفِيرِ الَّذِي رَزَقَكُمُ اللَّهُ إِيَّاهُ فِي الْجَنَّةِ.

وَيَبْدُو أَنْ لَدَى أَهْلِ النَّارِ فِيهَا وَسِيلَةٌ يَشَاهِدُونَ بِهَا مَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ أَنْهَارٍ جَارِيَةٍ، وَأَزْزَاقٍ كَثِيرَةٍ، وَوَسَائِلٍ نَعِيمٍ عَظِيمٍ، وَوَسِيلَةٌ يَخَاطِبُونَ بِهَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ مِنْ مَنَازِلِهِمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ، كَأَجْهَزةِ صَوْتٍ وَصُورَةٍ، تَقْرُبُهَا إِلَى أَذْهَانِنَا مَا تَوْصِلُ إِلَيْهِ النَّاسُ فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي نَعِيشُهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَجْهَزةِ الصَّوْتِ وَالصُّورَةِ الَّتِي تَنْقُلُ إِلَيْنَا الْأَصْوَاتَ وَالصُّوَرِ مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ إِلَى أَقْصَاهَا الْمَقَابِلِ.

● ﴿... قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٥) ﴿: أَي: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَبَاحَ لَنَا الْإِنْتِفَاعَ بِكُلِّ مَا فِي الْجَنَّةِ بِأَنْفُسِنَا، وَمَلَكْنَا ذَلِكَ، لَكِنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنْ نَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ عَلَى الْكَافِرِينَ أَصْحَابِ النَّارِ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَقْرَبِ الْأَقْرَبِينَ إِلَيْنَا فِي الدُّنْيَا. فَمَا طَلَبْتُمْ مِنَّا مِنْ فَائِضِي مَاءٍ أَوْ رِزْقٍ عَنْ حَاجَاتِنَا قَدْ حَرَّمَهُمَا اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ، فَهُمَا حَرَامٌ عَلَيْكُمْ بِتَحْرِيمِ اللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَعْتَدِيَ عَلَى حَقِّ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ فِي مِلْكِهِ بَدَارَ ضِيَافَتِهِ.

ويضاف إلى هذا المعنى معنى آخر، وهو أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ بِقَوَانِينِ وَأَسْبَابِ جَبْرِيَّةٍ، لَا يُمَكِّنُ اخْتِرَاقَهَا، أَوْ تَجَاوُزَهَا، أَوْ التَّحَايُلُ عَلَيْهَا.



● قول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ﴾ (٥١) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَاهُمْ يَكْتُمُونَ فَصَلَّتْهُ عَلَىٰ عِلٍّ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) ﴿:

هذا بيانٌ من اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ جاءَ بمَثَابَةِ تَعْلِيقِ شَارِحٍ لِبَعْضِ صِفَاتِ

الكافرين، أصحاب النار، الَّذِينَ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ مِّمَّا وَهَبَ فِي الْجَنَّةِ لِأَصْحَابِهَا، وَالْهَدَفُ التَّربُويُّ مِنْهُ تَحْذِيرُ الْكَافِرِينَ وَهُمْ مَا زَالُوا فِي حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ مِنْ أَنْ يَتَّخِذُوا دِينَهُمْ لِهَوَاً وَلِعْباً، وَمَنْ أَنْ تَغْرَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَمَنْ الْإِغْرَاضِ أَوْ التَّوَلَّى عَنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمُتَنَزَّلَاتِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي فَضَّلَهُ جَلَّ جَلَالُهُ، عَلَى عِلْمٍ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَجَعَلَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي النَّفِيسَةِ هُدًى يَهْدِي إِلَى سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، وَرَحْمَةً مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَظُمَتْ مِنْهُ لِعِبَادِهِ، وَهُمَا نِعَمَتَانِ لَا يَسْتَقِي مِنْ نَهْرٍ كُلِّ مِنْهُمَا، إِلَّا قَوْمٌ تَجَدَّدُوا لَدَيْهِمْ دَوَاماً حَرَكَةُ الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ، وَلَا سَيِّمَ الْحَقِّ الَّذِي يَجِيئُهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ، فَلَا تَقِفُ دُونَ إِيْمَانِهِمْ عَقَبَاتٌ مِنْ نَفُوسِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ تَعْلُقُ بِزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاغْتِرَاراً بِهَا.

● ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِهَوَاً وَلِعِباً وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ :

جاء هذا البيان الرباني وصفاً للكافرين أصحاب النار.

أي: هم الذين جعلوا الدين الذي كُلِّفُوا أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيَتَّبِعُوهُ بِالطَّاعَةِ وَالتَّسْلِيمِ الْكَامِلِ وَالْعَمَلِ، بِفِعْلِ مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ أَوْامِرٍ، وَاجْتِنَابِ مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ نَوَاهِي، جَعَلُوهُ لِهَوَاً وَلِعِباً.

اتَّخَذَ عَلَى صِيغَةِ «افْتَعَلَ» مِنْ فَعَلَ «أَخَذَ»، وَأَصْلُ الْأَخْذِ تَنَاوُلُ الشَّيْءِ وَالْقَبْضُ عَلَيْهِ وَحِيَازَتُهُ. وَحَصَلَ تَوْسُّعٌ لِعَوِيٍّ، فَصَارَ فَعَلَ «اتَّخَذَ» يَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى فِعْلٍ «جَعَلَ» وَصَارَ مِثْلَهُ يَنْصَبُ مَفْعُولَيْنِ.

﴿لِهَوَاً وَلِعِباً﴾ : أي: جَعَلُوا دِينَهُمْ شَيْئاً يَلْهُوْنَ بِهِ وَيَلْعَبُونَ، إِذْ يَغْتَبِرُونَهُ شَيْئاً غَيْرَ ذِي أَهْمِيَّةٍ تُفْصَدُ فِي الْحَيَاةِ، فَيَتَعَامَلُونَ مَعَهُ كَتَعَامُلِهِمْ مَعَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا جِدٌّ مِمَّا يَلْهُوْنَ بِهِ وَيَلْعَبُونَ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاهُمْ.

اللَّهُوُ: هُوَ الْإِشْتَغَالُ بِشَيْءٍ غَيْرِ ذِي أَهْمِيَّةٍ عَمَّا يَجِبُ تَوْجِيهُ الْجَهْدِ وَالْعَمَلِ لَهُ.

والكافِرُونَ يَعتَقِدُونَ أَنَّ الاسْتِغَالَ بِبَعْضِ العِبَادَاتِ الدِّينِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ هُوَ مِنَ اللّٰهُ، لَأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ لكَثِيرٍ مِنْهَا ثَمَرَةً عاجِلَةً، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَمَا فِيهِ مِنْ جَزَاءٍ، فَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّ صَرْفَ شَيْءٍ مِنْ طَاقَاتِهِمْ فِيهَا ضَرَبَ مِنَ اللّٰهُ الَّذِي يَضْرِبُهُمْ وَيَشْغَلُهُمْ عَمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُوجِّهُوا طَاقَاتِهِمْ وَأَنْوَاعَ جَهْدِهِمْ لَهُ، مِنْ مَالٍ يَكْسِبُونَهُ وَيَجْمَعُونَهُ، وَمَتَاعٍ مِنْ مَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا يَحَقِّقُونَ بِهِ لَذَاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغْبَاتِهِمْ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ زِينَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا.

يقال لغة: لَهَا يَلْهُوَا لَهَوًا بِكَذَا عَنْ كَذَا. ويقال: التَّهَى يَلْتَهِي التَّهَاءَ. ويقال: أَلْهَاهُ ذَلِكَ، إِذَا شَغَلَهُ، وَالتَّلْهَى: التَّشَاغَلَ.

وطلَّابُ الدُّنْيَا تلهيهم دنياهم عن أمور آخرتهم أو ما يُسَعِدُهُمْ فِيهَا. اللَّعِبُ ضِدُّ الْجَدِّ، وَيَقَالُ لِكُلِّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَا يَجْلِبُ لَهُ نَفْعًا، إِنَّمَا أَنْتَ لَاعِبٌ.

ومن اللَّعِبِ مَا يَفِيدُ فِي رِيَاضَةِ الْجِسْمِ، أَوِ التَّرْوِيحِ عَنِ النَّفْسِ، أَوْ اكْتِسَابِ بَعْضِ الْمَعَارِفِ وَالْمَهَارَاتِ، وَعِنْدئذٍ يَكُونُ لَعِبًا ذَا أَغْرَاضٍ جَادَّةٍ.

فالفرق بين اللّٰهُو واللَّعِبِ أَنَّ اللّٰهُوَ قَدْ يَكُونُ بِأَمْرِ مُفِيدٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَقَدْ يَكُونُ مَجْرَدَ عِبَثٍ يَشْغَلُ عَمَّا يَنْبَغِي الْإِهْتِمَامُ لَهُ وَالْعَنَايَةُ بِهِ، أَمَّا اللَّعِبُ فَهُوَ إِنْفَاقُ الطَّاقَةِ فِي أَمْرٍ لَا يَبْلُغُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجَدِّ الَّذِي يَهْتَمُّ لَهُ وَيَعْتَنِي بِهِ الْعَقْلَاءُ، ذَوُو الْهَمَّةِ الْعَلِيَّةِ، مَا لَمْ يَكُنْ ذَا فَائِدَةٍ لِلْجِسْمِ أَوِ النَّفْسِ أَوِ الْفِكْرِ، لِلْفَرْدِ أَوِ لِلْمَجْتَمَعِ، مُتَيَقِّنَةً أَوْ مَرْجُوءَةً.

والكافرون الذين لا يؤمنون بيوم الدين، يَرَوْنَ أَنَّ الاسْتِغَالَ بِبَعْضِ العِبَادَاتِ الدِّينِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، هُوَ مِنَ اللَّعِبِ الَّذِي قَدْ يَفِيدُ فِي رِيَاضَةِ الْجِسْمِ، أَوْ فِي رَاحَةِ النَّفْسِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ العِبَادَاتِ الدِّينِيَّةِ لَا تَبْلُغُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَدِّ الَّذِي يَهْتَمُّ لَهُ الْعَقْلَاءُ اِهْتِمَامًا ذَاتِيًّا.

﴿وَعَرَّزْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: في هذه الجملة بيان السَّبَب في كون الكافرين اتَّخَذُوا دينهم لهواً ولعباً، وهو أَنَّهم عَرَّزْتَهُمُ الحياة الدنيا، فَحَسِبُوا أَنَّها كُلُّ شيءٍ في وجودهم، وَحَسِبُوا أَنَّهُ لَيْسَ وراءَ هذه الحياة الدنيا حياةٌ أُخْرَى يكون فيها الحسابُ وفضلُ القضاء وتنفيذُ الجزاء، والحياة الدُّنيا هي الحياة القريبة التي نعيشها.

﴿وَعَرَّزْتَهُمُ﴾: أي: وَخَدَعْتَهُم، وَأَطْمَعْتَهُم بِالْبَاطِلِ.
يقال لغة: عَرَّه يَغْرُهُ غَرّاً وَغُروراً وَغِرَّةً، فَهُوَ مَغْرُورٌ، وَغَرِيرٌ، أي: خَدَعَهُ وَأَطْمَعَهُ بِالْبَاطِلِ.

والحياة الدنيا هكذا، تَغُرُّ طالبيها السَّاعِينَ بكُدِّ للحصول على متاعها، وأنواع زِينَتِها، ثُمَّ يَجِدُونَ أَنفُسَهُمْ كَسَاعٍ إِلَى سَرَابٍ، حَتَّى إِذَا بَلَغَهُ لَم يَجِدْهُ شَيْئاً، وَلَمْ يَجِدْ لَدَيْهِ مَطْلُوبَهُ مِنَ الشَّرَابِ، وَتَأْتِيهِ مَنِيَّتُهُ، وَيَجِدُ أَنَّهُ قَدْ خَسِرَ نَفْسَهُ بَعْدَ كَدِّ مُضْنٍ طَوَالِ حَيَاتِهِ، إِذْ يُلَاقِي حِسَابَهُ عَلَى مَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ فِي رِحْلَةِ الحياة الدنيا التي اجْتَازَهَا مُمْتَحَنًا.

وحول هذا الموضوع نجد في القرآن المجيد نَصْنِينِ آخَرَيْنِ غيرَ هذا النَّصِّ من سورة (الأعراف) وبين هذه النصوص تكاملاً في الدلالة على المعاني المرادة.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول)
خطاباً لكل حَرِيصٍ على سعادته، بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ وَعَرَّزْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِمْ أَنْ يُبْسَلَ نَفْسُهُمْ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا سَفِيْعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: وَاثْرُكْ هؤلاء، وَلَا تَكْتَرِثْ لَهُمْ، وَلَا تَغْبَأْ بِهِمْ، فَهُمْ سَادِرُونَ فِي غَيْبِهِمْ، وَسَوْفَ يُلَاقُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ مَصِيرَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً.

● وقول الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول)
خطاباً للذين آمنوا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا هُزُوراً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلَاةِ
اتَّخَذُوا هُزُوراً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ .

فنهى الله عز وجل عن اتخاذهم أولياء، لأنهم باتخاذهم دين الله
لعباً هزواً ولعباً قد أوغلوا في الكفر ومعاداة المؤمنين .

صُور اتخاذ الكافرين دين الله لهواً ولعباً:

ويتساءل متسائل عن صُور اتخاذ الكافرين دين الله لهواً ولعباً؟

وبالتأمل، وبمراجعة طائفة من النصوص القرآنية الموزعة في سور
القرآن المجيد، تبدو لنا الصور الخمس التالية^(١):

الصورة الأولى: الافتراء على الله في مسائل الدين، مفهوماته،
وعقائده، وشرائعه، وأحكامه، كأن دين الله للناس بمثابة لعبة يلعب بها
أصحاب الأهواء والشهوات والأغراض والمصالح الخاصة بهم، أو بمثابة
ملهاة يلهوون بها، غَيْرَ عَائِبِينَ بأن الدين وأحكامه وشرائعه هو مادة امتحان
الناس في الحياة الدنيا، وَغَيْرَ مَكْتَرِثِينَ لأن الامتحان ولوازمه وتوابعه هو
الغاية من خَلْقِ النَّاسِ بخصائصهم التي فَطَرَهُمَ اللهُ عليها، وأنه لَيْسَ لأحدٍ
أَنْ يَتَدَخَلَ في مواد هذا الامتحان، دون إِذْنٍ من صاحب الحق فيه، وهو
الرَّبُّ الخَالِقُ الفاطِرُ المَمْتَحِنُ، ثُمَّ المحاسِبُ وفاصل القضاء ومُحَقِّقُ
الجزاء، بعد الامتحان وَرِخْلَتِهِ التي تنتهي عند الموت الذي ينزل بالمَمْتَحِنِ،

(١) انظر تفصيل النصوص القرآنية في الملحق الرابع من ملاحق السورة «اتخاذ الدين لهواً
ولعباً».

أو بانتهاء ظُروف الامتحان في الحياة الدُّنيا، بظهور علامات السَّاعة الكبرى، كَطُلُوعِ الشمس من مغربها.

وهذه الصورة موصولة بالخطِّ الأعظم الذي سار عليه موضوع السورة، وهو ما دلَّ عليه قول الله عزَّ وجلَّ في أوائلها:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ (٢)

الصورة الثانية: الاستهزاء ببعض الأعمال الدينية، واعتبارها صُوراً غَيْرَ ذاتِ جَدْوَى، فهي من صُور اللُّهو واللَّعب. والاستهزاء بآياتِ الله وإنذاراته ووَغْدِهِ ووَغْدِهِ.

الصورة الثالثة: الدُّخول في الدين على سبيل النفاق، بالتظاهر بالإيمان والإسلام، مع إبطان الكفر، وجعل ذلك وسيلةً لتحقيق مصالح دُنْيَوِيَّة، أو لَطْعَنِهِ وَطْعَنِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ من داخل صفوفهم، كأنَّ دين الله للناس لُعبةٌ أو مَلْهَأَةٌ يَلْعَبُ بها أو يَلْهُوُ بها المنافقون.

الصورة الرابعة: الاستهانة بقضيَّة الدين، وعدم الاكتراث له، والانصراف عنه وعن الدَّاعي إليه، لأمر متاع الحياة الدنيا وَلَهْوِها وَلَعِبِها.

الصورة الخامسة: الاستهزاء بالرُّسُول والاستهانة به، ويُلْحَقُ بالرُّسُولِ المؤمنون به، الذين اتَّبَعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ.

وفي الملحق الرابع من ملاحق تدبُّر السورة تفصيل النُّصوص القرآنية حول هذه الصور الخمس، مع شيءٍ من التدبُّر، إن شاء الله.

كيف تَعُرُّ الحياة الدنيا الإنسان؟

ويتساءل متسائل باحث: كَيْفَ تَعُرُّ الحياة الدنيا الإنسان، فتجعله يُعْرِضُ أو يُدْبِرُ عن الحقِّ الذي يَضْمَنُ له سعادته الأبدية، ويأبى أن تكونَ مَسِيرَةً حَيَاتِهِ على صراطِ الله المستقيم؟

أقول:

لِنَضْرِبَ مَثَلًا تَاجِرَيْنِ سَافِرًا مِنْ بَلَدِهِمَا، وَحَمَلًا مَعَهُمَا رَأْسَ مَالِهِمَا كُلَّهُ، لَمْ يَدْعَا مِنْهُ شَيْئًا، وَأَنْطَلَقَا فِي رِحْلَةٍ تِجَارِيَّةٍ إِلَى بَلَدٍ بَعِيدٍ نَاءً جَدًّا، وَإِقَامَتَهُمَا فِي هَذَا الْبَلَدِ إِقَامَةً قَلِيلَةً مَحْدُودَةً بِحُدُودِ مَا يَشْتَرِيَانِ بِهِ بَضَاعَةً تِجَارِيَّةً، يُمَكِّنُ أَنْ يَحَقُقَ كُلُّ مِنْهُمَا فِيهَا رِبْحًا يُقَدَّرُ بِآلَافٍ آلَافِ الْأَضْعَافِ وَفَوْقَ ذَلِكَ، إِذَا شَحَنَاهَا إِلَى بَلَدِهِمَا، الَّذِي هُوَ مَكَانُ إِقَامَتِهِمَا الدَّائِمَةِ الْبَاقِيَةِ.

أَمَّا أَحَدُهُمَا، فَوَجَّهَ اهْتِمَامَهُ وَعِنَايَتَهُ لَجَمْعِ الثَّقَائِسِ الَّتِي يَتَحَقَّقُ بِهَا رِبْحٌ عَظِيمٌ، تَبْلُغُ الذَّرَّةُ الَّتِي بِذَلِكَ فِي الشُّرَاءِ قَنَاطِيرَ مُقَنْطَرَةً رِبْحًا عِنْدَ الْبَيْعِ. فَجَعَلَ يَشْتَرِي مِنْهَا، وَيَشْحُنُهَا إِلَى بَلَدِهِ تِبَاعًا مَضْمُونَةً الْوُصُولِ.

وَأَمَّا الْآخَرُ، فَوَجَدَ فِي بَلَدِ الرِّحْلَةِ التِّجَارِيَةِ ذَاتِ الْإِقَامَةِ الْمَحْدُودَةِ جَدًّا، وَالْقَصِيرَةِ جَدًّا، مَدِينَةَ أَلْعَابٍ وَمَلَاهِي وَمَسَاحِرٍ، وَفِيهَا دُورُ رَقِصٍ وَغِنَاءٍ، وَأَمَاكِنُ تَسْلِيَةٍ وَضَحِكٍ، وَحَانَاتِ خَمِرٍ وَفَجُورٍ، وَفِيهَا بَعْضُ أَمَاكِنَ لَتَنَاوُلِ مَلَذَّاتِ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَغَيْرِهَا.

وَفِي مَدِينَةِ الْأَلْعَابِ وَالْمَلَاهِي هَذِهِ مَا يَسْتَهْلِكُ كُلُّ مُدَّةٍ إِقَامَتِهِ، وَكُلُّ رَأْسِ مَالِهِ، فَدَخَلَ إِلَيْهَا، وَأَنْفَقَ رَأْسَ مَالِهِ فِيهَا، وَشَغَلَ كُلُّ مُدَّةٍ إِقَامَتِهِ دَاخِلَهَا، وَلَمْ يُوجَّهْ اهْتِمَامُهُ لَجَمْعِ مَا يَشْحَنُهُ لِبَلَدِهِ مِنْ سِلْعٍ تِجَارِيَّةٍ ذَاتِ رِبْحٍ عَظِيمٍ، وَإِنْ جَمَعَ شَيْئًا مَا صَادَفَهُ عَرَضًا فَهُوَ شَيْءٌ قَلِيلُ الْقِيَمَةِ لَا يُحَقَّقُ لَهُ رِبْحًا.

أَفَلَا يَصِحُّ أَنْ يَقُولَ أَهْلُ الْبَصَرِ الْعُقْلَاءُ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ غَرَّتْهُ مَدِينَةُ الْأَلْعَابِ وَالْمَلَاهِي، عَمَّا سَافَرَ مِنْ أَجْلِهِ، فَقَضَى رِحْلَتَهُ فِيهَا، وَعَادَ إِلَى بَلَدِهِ خَائِبًا خَاسِرًا فَاقْدَأْ رَأْسَ مَالِهِ!!؟

هَكَذَا نَحْنُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِنَّ رَأْسَ مَالِنَا فِيهَا عُمْرُنَا وَطَاقَاتُنَا،

ونستطيع برأس مالنا هذا أن نشترى نفائس عظيمة جداً، وأن نشحنها تِباعاً، إلى دار إقامتنا الدائمة، التي تكون يوم القيامة، يوم الدين.

وهذه النفائس هي جواهر الإيمان، وجواهر العمل الصالح الذي يُرضي ربنا كما شرع لنا، وكما بين لنا في آياته المنزلات على رُسوله المجتبى.

أما شحنتها فمضمون قطعاً، لأن حامليها إلى بلد الإقامة الدائمة الخالدة، هم ملائكة كرام أمتاء، لا يعضون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

فمن وجهه هم وعمله لجمع النفائس لدار الإقامة الدائمة الخالدة، أفلح وسعد سعادة أبدية.

ومن شغلته الحياة الدنيا بمتاعها، ولذاتها، ولهوها، ولعبها، وزينتها، وشغلها التفاخر والتكاثر من فانياتها، فقد غرته وأطمعته بالباطل، لأنه متى انتهت فيها إقامته القليلة الضئيلة، أقبل إليه جنود الرب فأخرجوه منها قهراً، دون أن يكون قد اشترى وجمع فيها لنفسه من النفائس التي تُرضي ربه، ما ينفعه في دار إقامته الخالدة.

ولما كان رأس ماله عمره وطاقاته، وهي جُملة ذاته، فإنه يكون باغتراره بالحياة الدنيا قد خسر نفسه، ومن خسر نفسه كان أخسر الخاسرين، وأخيب الساعين.

ولو أن خسارته قد كان مجرد خسارٍ سلبٍ لكان كالبهائم، إذ تكون يوم الدين تراباً، لكنه خسارٌ يتحمل بسببه عذاب النار يوم الدين، يوم البقاء الدائم الأبدي، الذي لا موت فيه، فهو خسارٌ لجئات النعيم، وتحمل لشقاء في عذاب اليم.

وقد حذر الله عز وجل الناس أجمعين من أن تغرهم الحياة الدنيا،

ومن أن يَغْرَهُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورَ وهو الشيطان، الذي يُتَابِعُهُمْ بَوَسَاوِسِهِ
وتَسْوِيلَاتِهِ:

■ فقال الله عز وجل في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْهَيْوَةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرَقَنَّكُم بِاللَّهِ
الْفُرُودُ ⑤ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذَّ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ
السَّعِيرِ ⑥﴾.

السَّعِير: النار، أو لهبها.

أي: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ عز وجل بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وبالْحَيَاةِ الْآخِرَى
الْباقية الخالدة، وبالحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، بالفضل أو
بالعدل، في الجنة دار النعيم المقيم، أو في النار دار العذاب الأليم، وَعْدٌ
حَقٌّ سَوْفَ يَتَحَقَّقُ حَتْمًا، فَلَا تَخْدَعَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، بما فيها من لذات
وشهوات، وَلَهْوٍ وَلَعِبٍ، وَزِينَةٍ وَتَفَاخُرٍ وَتَكَاثُرٍ، وَلَا يَخْدَعَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ الَّذِي
هُوَ الْغَرُورُ بَوَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ وَإِطْمَاعَاتِهِ بِالْبَاطِلِ، فَيَجْعَلَكُمْ تَسْتَهْيِئُونَ وَلَا
تَعْبُورُونَ بَوَعْدِ اللَّهِ، فَيُبْعِدْكُمْ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ اغْتِقَادًا وَعَمَلًا، وَيُبْعِدْكُمْ
عَنْ اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ.

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُنْذُ تَوَجَّهَ لَهُ الْأَمْرُ بِالسُّجُودِ لِأَيِّكُمْ، وهو يَتَّخِذُ
كُلَّ وَسِيلَةٍ مُتَاحَةٍ لَهُ، لِيَخْدَعَكُمْ، فَيَجْعَلَكُمْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ.

فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، وَاخْذَرُوا وَسَاوِسَهُ وَمَكَايِدَهُ وَخُدَعَهُ، وَأِبَاطِيلَهُ، وما
يَغُرُّكُمْ بِهِ، حَتَّى تَكُونُوا مِنْ حِزْبِهِ، فَيَدْعُوَكُمْ إِلَى سُلُوكِ سُبُلِ الضَّلَالَةِ، الَّتِي
تُوصِلُكُمْ إِلَى جَهَنَّمَ، فتكونوا من أصحاب السَّعِيرِ.

■ وقال الله عز وجل في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ

هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدَيْهِ شَيْئًا إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ .

فأضاف هذا النص التّضريح بالتحذير من عقاب الله يوم الدين، يوم لا يستطيع والد أن يقضي ما على ولده من حقوق تجاه ربه، ولا يستطيع مولود أن يقضي ما على والده من حقوق تجاه ربه، بل كل إنسان يكون مسؤولاً عن نفسه وعمله يومئذ.

وبعد هذا التحذير للناس، حذّره الله عز وجل من أن تغرهم الحياة الدنيا، وحذّره من أن يغرهم بالله الشيطان، الذي هو غرور، منذ عاهد نفسه أن يغوي بني آدم، وأعلن عهده هذا لربه، بعد أن أنظره إلى يوم إنهاء ظروف الحياة الدنيا.

غرور: على وزن «فَعُول» صيغة مبالغة لاسم الفاعل «غاز» أي: كثير الغرور والمخادعة والإطماع بالباطل.

وقد وصف الله عز وجل الحياة الدنيا بأنها متاع الغرور، في الآية (١٨٥) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول)، وفي الآية (٢٠) من سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول).

وبعد أن عرّضت ما فتح الله به من تدبر لقلوبه عز وجل في الآية (٥١) من سورة (الأعراف) في وصف الكافرين أهل النار: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...﴾ أتابع تدبر ما جاء بعده في الدرس الرابع من دروس السورة.

● قول الله تعالى:

﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِعَائِنَا

يَجْعَدُونَ ﴿٥١﴾ .

﴿فَالْيَوْمَ﴾: الفاء لترتيب الجزاء على العمل، ومعنى التعقيب بالفاء يراؤ به هنا التعقيب على فَضْلِ الْقَضَاءِ بالإدانة، والمراد باليَوْمَ يومُ الدين.

﴿نَسْنَهُمْ﴾: أضل النسيان في اللُّغَةِ التَّرْكَ، تقول لغة نَسَى فُلَانُ الشَّيْءَ يَنْسُوهُ نَسْوَةً، إِذَا تَرَكَه. وَيَكُونُ هَذَا النِّسْيَانُ تَرْكَاً بِدُونِ تَعَمُّدٍ وَقَضْدٍ، ويكون تركاً بتعمُّدٍ وقَضْدٍ، ومن التَّرْكِ المتعمد الإهمال وَعَدَمُ الاكتراث.

ويأتي النسيان ضِدَّ الذِّكْرِ وَالْحِفْظِ لِلشَّيْءِ فِي الذَّاكِرَةِ، بمعنى أَنَّهُ كَانَ مَذْكُوراً وَمَحْفُوظاً، فغَابَ عَنِ الذَّاكِرَةِ. وهذا المعنى هو المشهور بَيْنَ النَّاسِ، ومن المستحيل عقلاً وشرعاً أَنْ يَتَّصِفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ.

قال ثعلب من أئمة اللُّغَةِ فِي قولِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سُئِلُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ لا ينسى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّمَا مَعْنَاهُ تَرَكَوْا اللَّهَ فَتَرَكَهُمْ، فَلَمَّا كَانَ النِّسْيَانُ ضَرْباً مِنَ التَّرْكِ وَضَعَهُ مَوْضِعَهُ.

وجاء في التهذيب أَنَّ المعنى: تَرَكَوْا أَمَرَ اللَّهَ فَتَرَكَهُمْ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ. وَجَاءَ فِيهِ أَيْضاً تَفْسِيراً لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾، أَي: أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَتَرَكَتُهَا (أَي: لَمْ تُؤْمِنْ بِهَا وَلَمْ تَعْمَلْ بِمَا جَاءَ فِيهَا مِنْ أَحْكَامٍ وَوَصَايَا وَتَكَالِيفٍ) فَكَذَلِكَ تُتْرَكُ فِي النَّارِ (أَي: فَلَا تُخْرَجُ مِنْهَا، وَلَا يُسْتَجَابُ لَطَلِبِكَ مِنْهَا دَعْوَتٌ وَتَضَرَّعَت).

وبناءً عَلَى هَذَا الْمَعْنَى اللَّغَوِيِّ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ مَعْنَى قولِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ نَسْنَهُمْ كَمَا سُئِلُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ دُونَ إِشْكَالِ مَا.

أَي: فِي هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي هُوَ يَوْمُ الدِّينِ نَتْرَكُهُمْ وَنَتْرُكُ إِجَابَةَ طَلِبِهِمْ إِذْ يَطْلُبُونَ تَخْفِيفَ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، أَوْ إِفَاضَةَ شَيْءٍ مِنْ مَاءِ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ، أَوْ شَيْءٍ مِنَ الرِّزْقِ الْوَفِيرِ الَّذِي يَتَنَعَّمُ بِهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ، كَمَا تَرَكَوْا الْاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي جَاءَهُمْ بِهَا رُسُلُ رَبِّهِمْ، وَتَرَكَوْا الْعَمَلَ لِيَوْمِ الدِّينِ، كَأَنَّ أَمْرَ دِينِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ، فَلَا يُهْمُّهُمْ، وَانْدَفَعُوا بِرَتَكْبُونِ

المعاصي الكبرى التي أوعَدَ اللهُ في آياته المنزلات على ارتكابها بالخلود في عذاب النار.

على أن التَّركَ بالنسبة إلى المخلوقين يُولَدُ النَّسيانَ بمعنى غيابِ المتروكِ عن الذاكرة، وهذا ما يَخْصُلُ فِعْلاً لَدَى الَّذِينَ يَتْرُكُونَ آيَاتِ اللَّهِ الْمَنْزَلَاتِ بَعْدَ أَنْ يَتَّبَلَّغُوهَا، وَلَوْ وَعَوْهَا وَحَفِظُوهَا، فَإِنَّهُمْ بَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ تَغِيبُ عَنْ ذَاكِرَتِهِمْ غِيَاباً تَاماً، وَتَكُونُ ذَاكِرَتُهُمْ مَشْغُولَةً تَمَاماً بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَلَا يَخْطُرُ فِي بَالِهِمْ إِلَّا اللَّذَاتِ وَالْأَهْوَاءُ وَالشَّهَوَاتُ وَسَائِرُ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ زِينَاتٍ.

وضمن سُنَّةُ اللَّهِ الْعَدْلِيَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَإِنَّهُمْ يُعَامَلُونَ يَوْمَ الدِّينِ بِالتَّركِ وَالْإِهْمَالِ فِي مَوَاقِعِهِمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَهَذَا النَّسيانُ يَزِيدُ مِنْ عَذَابِهِمْ، لِأَنَّهُ يُشْعِرُهُمْ بِأَنَّ أَحَدًا لَا يَسْمَعُ صُرَاحَهُمْ، وَلَا يَغْبَأُ بِهِمْ، فَهُمْ مَنْسِيُونَ مُهْمَلُونَ مَتْرُكُونَ فِي الْعَذَابِ، كَمَا يُنْسَى بَعْضُ السُّجَنَاءِ مِنْ خُصُومِ السُّلْطَانِ، حِينَمَا يُسَجَّنُ أَمَاداً طَوِيلَةً، فَلَا يَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدٌ، وَلَا يَنْحُتُ بِشَأْنِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَتَّقَدُّ أَحْوَالَهُ أَحَدٌ.

● ﴿كَمَا سَأَلُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾: أي: فالْيَوْمَ تَتْرُكُهُمْ تَرْكاً مُمَازِلاً وَمُشَابِهاً لِتَرْكِهِمْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا، إِذْ تَرَكُوا الْإِيمَانَ بِهِ، وَتَرَكُوا الْعَمَلَ لَهُ، لَا تَهْمُ كَفَرُوا بِاللَّهِ، وَبِرَسُولِهِ، وَبِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ.

● ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: أي: وَكَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ كَافِرِينَ بِهَا مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهَا حَقٌّ وَصِدْقٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ.

والمعنى: فالْيَوْمَ تَتْرُكُهُمْ مُهْمَلِينَ مَنْسِيِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ، مِثْلَمَا سَبَقَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَنْ تَرَكُوا وَأَهْمَلُوا لِقَاءَ رَبِّهِمْ فِي يَوْمِ الدِّينِ هَذَا، وَمِثْلَمَا كَانُوا يُتَابِعُونَ جُحُودَهُمْ بِآيَاتِنَا الَّتِي نُنْزِلُهَا أَوْ نُجَرِّبُهَا تَبَاعاً، مَعَ أَنَّ أَنْفُسَهُمْ كَانَتْ مُسْتَيَقِنَةً لَهَا.

ومن تركهم وإهمالهم تَزَكُّ إجابة مطالبهم، إذ نجعلها بمثابة مطالب لا وجود لها، كما جعلوا في الدنيا آياتنا مرفوضة متروكة غير مقبولة، مَجْحُودَةٌ النسبة إلينا، وبمثابة شيء لا وجود له، وظاهر أن هذا الجزاء الرباني لهم هو من جنس عملهم.

يَخْجِدُونَ: أي: يُنْكِرُونَ آياتنا مع علمهم بأنها حقٌ وصِدْقٌ.

يُقَالُ لغة: جَحَدَ فلان الأمر، وَجَحَدَ بِهِ، جَحَدًا وَجُحُودًا، أي: أنكره مع أنه عالم بأنه حقٌ. ويُقال: جَحَدَ المدينُ الدائنَ حقَّه، وَجَحَدَ بحقه، إذا لم يَعرِفَ له به، مع أنه في الحقيقة واقع الأمر مدين.

فنفوسهم من الناحية العلمية موقنة، وإرادتهم منكرة جاحدة اتباعاً لأهوائهم.

وقد أبان الله عز وجل أن الجحود يكون مقروناً باستيقان الأنفس، فقال الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بشأن فرعون وقومه بالنسبة إلى الآيات التي جاءهم بها موسى عليه السلام:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.



الصفات المذكورة في هذا النص للكافرين أصحاب النار:

من هذا النص نستخلص للكافرين أصحاب النار أربع صفات:

الصفة الأولى: أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا دينهم لهواً ولعباً.

الصفة الثانية: أَنَّهُمْ غَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا.

الصفة الثالثة: أَنَّهُمْ نَسُوا في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، يَوْمَ

الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، نَسِيَانٌ تَزْكٍ وَإِهْمَالٌ، غَيْرَ عَابِثِينَ بِمَا أَتَاهُمْ حَوْلُهُ مِنْ تَرْغِيبٍ وَتَرْهِيْبٍ، فِي آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ وَفِي بَيِّنَاتِ رُسُلِهِ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ.

الصفة الرابعة: أَنَّهُمْ جَحَدُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ، الْمُقْرُونَاتِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا حَقٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، وَأَنَّهَا مُنْزَلَاتٌ لِإِقْنَاعِهِمْ، وَتَعْلِيمِهِمْ، وَتَكْلِيفِهِمْ الْعَمَلَ بِمَطَالِبِ رَبِّهِمْ مِنْهُمْ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَتَرْغِيبِهِمْ فِيْمَا عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْ أَجْرِ عَظِيمٍ وَثَوَابٍ جَزِيلٍ، لِمَنْ آمَنَ وَأَطَاعَ. وَإِنْذَارِهِمْ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ عِقَابٍ أَلِيمٍ، لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَجَحَدَ بِآيَاتِهِ الْمُنْزَلَاتِ عَلَى رُسُلِهِ.

ونلاحظ في النص أن الله عز وجل قد نوع الأسلوب لدى بيان الصفتين الثالثة والرابعة، إيثاراً للجمال الفني، وخروجاً عن النمطية المتواترة، فلم يقل: الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَنَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا، وَجَحَدُوا بِآيَاتِنَا.

بل ذكر جلَّ جَلَالُهُ الصفتين الثالثة والرابعة في معرض بيان سبب نسيان الله لهم، وتركهم مُهْمَلِينَ لَا تُسْتَجَابُ مَطَالِبُهُمْ وَهُمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ، وَهُوَ مُعَامَلَتُهُمْ بِمِثْلِ عَمَلِهِمْ فِي رَحْلَةِ ابْتِلَائِهِمْ.



● قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ ذَسُّوا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

تمهيد

يَجْمَعُ هَذَا النَّصُّ بَيْنَ تَصْوِيرِ حَالِ الْكَافِرِينَ بِكُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ لِبَعْثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَتَصْوِيرِ حَالِ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ بَعْثِهِ، بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ قَبْلَهُ لِقَطَاتٍ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَهُمْ فِي عَالَمِ الْجَزَاءِ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَى، تَصْوِيرًا لِمَا سَوْفَ يَكُونُ عَلَيْهِ شَأْنُهُمْ، كَأَنَّهُ أَمْرٌ وَقَعَ مُنْجَزٌ تَجْرِي أَخْدَانُهُ.

إِنَّ هَذَا التَّنْقُلَ وَالتَّرَاوَحَ فِي الْبَيَانِ بَيْنَ عَالَمِ الْإِبْتِلَاءِ وَعَالَمِ الْجَزَاءِ، عَلَى سَبِيلِ التَّعَاقُبِ فِي النَّصِّ الْقِرَائِيِّ، وَالتَّنْقُلَ بَيْنَ الْمَشَاهِدِ، مِنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ إِلَى مُسْتَقَرِّ الْجَزَاءِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَشَاهِدَ وَمَوَاقِفَ أُخْرَوِيَّةٍ، فإِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا مِنْ أَحْدَاثٍ، أَوْ إِلَى مَا تَسْتَدْعِي الْحِكْمَةَ التَّعْلِيمِيَّةَ أَوْ التَّرْبَوِيَّةَ مِنْ خُطَابٍ، حَتَّى كَأَنَّ الزَّمَانَ كُلَّهُ مَاضِيَهُ وَحَاضِرَهُ وَمُسْتَقْبَلُهُ فِي لَوْحَةٍ وَاحِدَةٍ، تَتَنَقَّلُ عَلَيْهَا عَدَسَاتُ التَّصْوِيرِ أَوْ الْإِعْلَامِ الْبَيَانِيِّ، حَسَبَ مَقْتَضِيَاتِ الْإِثَارَةِ وَلَفَتْ النَّظَرَ وَشَدَّ الْإِنْتِبَاهَ.

إِنَّ هَذَا التَّنْقُلَ وَالتَّرَاوَحَ التَّعَاقُبِيَّ الْمَفَاجِئَ، دُونَ مُقَدَّمَاتٍ تَشْتَمِلُ عَلَى إِشْعَارٍ بِالْإِنْتِقَالِ، هُوَ مِنَ الْإِبْدَاعِ الْفَنِيِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا فِي فُنُونِ الْأَدَبِ مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

فَمِنْ الْمَلَاخِظِ فِي طَائِفَةِ مِنَ النُّصُوصِ الْقِرَائِيَّةِ، أَنَّ النَّصَّ بَيْنَمَا يَكُونُ جَارِيًا عَلَى أَسْلُوبِ مَخَاطَبَةِ النَّاسِ وَهُمْ فِي عَالَمِ الْإِبْتِلَاءِ الدُّنْيَوِيِّ، إِذَا بِهِ يَتَنَقَّلُ مَفَاجَأَةً إِلَى مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِهِمْ وَهُمْ فِي عَالَمِ الْجَزَاءِ الْآخِرِيِّ، فَإِذَا بِهِ يَفَاجِئُ بِالْحَدِيثِ عَنْهُمْ وَهُمْ فِي عَالَمِ الْإِبْتِلَاءِ الدُّنْيَوِيِّ، مَعَ التَّنَوُّعِ فِي الْأَسَالِيبِ، وَالتَّغْيِيرِ فِي مَنَهِجِ الْخُطَابِ، الْأَمْرُ الَّذِي يَشْدُ الْفِكْرَ مِنْ أَعْمَاقِهِ لَدَى مَنْ هُوَ حَرِيصٌ عَلَى تَلْقِي الْمَعْرِفَةِ، وَتَذَوُّقِ جَمَالِ الْبَيَانِ، وَرَوْعَةِ الْكَلَامِ الْبَلِيعِ، فَهُوَ بِسَبَبِ ذَلِكَ يُتَابَعُ التَّدَبُّرُ بِنَشَاطٍ، عَلَى خِلَافِ النَّمْطِيَّةِ

الوَاحِدَةَ فِي أَسْلُوبِ تَقْدِيمِ الْأَفْكَارِ وَالْمَفْهُومَاتِ، وَعَرَضِ الْمَعَارِفِ وَسَرْدِهَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِنَّ هَذِهِ تَجَلُّبُ الْفَتُورِ، وَشُورْدُ الذَّهْنِ، وَرُبَّمَا نَامَ مَعَهَا الْمُتَلَقِّي، وَلَوْ كَانَ رَاغِبًا فِي التَّلَقِّي وَحَرِيصًا عَلَيْهِ، وَتَكُونُ حَالُهُ كَحَالِ مَنْ يَنَامُ عَلَى نَعِيرِ النَّاعُورَةِ، وَجَعَجَعَةِ الرَّحَا.

التدبر:

● قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٧).

● ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ﴾: هذه الجملة هي فيما أرى حالة. (الواو) واو الحال، واللام من ﴿وَلَقَدْ﴾ واقعة في جواب قسم منوي، و«قَدْ» حرف تحقيق مؤكِّد لمضمون الجملة، واحتاج الموضوع كل هذه المؤكِّدات لأن المقصودين بالخطاب في الدنيا منكرون جاحدون.

والمعنى بالنظر إلى الآية السابقة التي تحدت عن صفات الكافرين أَصْحَابِ النَّارِ يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ فِيهِ: إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا، وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَتَرَكُوا التَّفَكِيرَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالْعَمَلَ لِمَا يُنْجِيهِمْ وَيُسْعِدُهُمْ فِيهِ، وَجَحَدُوا بِآيَاتِنَا، فِي حَالِ أَنَّا جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ.

● ﴿جِئْتَهُمْ﴾: يتحدَّثُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، للإشارة إلى عَظِيمِ حِكْمَتِهِ، وإلى عِظَمِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ كِتَابٍ.

يقال لغة: جَاءَ الْقَوْمَ بِكَذَا، أَي: أَتَاهُمْ بِهِ، وَأَخْضَرَهُ لَهُمْ، وَجَعَلَهُ فِي مَتَانٍ أَيْدِيهِمْ، أَوْ أَسْمَاعِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ.

● ﴿بِكِتَابٍ﴾: المراد بِالْكِتَابِ هُنَا كُلُّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ لِهَدَايَةِ النَّاسِ، وَهُوَ يَعُمُّ الْقُرْآنَ وَسَائِرَ الْكُتُبِ الرَّبَّانِيَةِ الْمُنْزَلَةِ قَبْلَهُ عَلَى الْمُرْسَلِينَ السَّابِقِينَ لِلرُّسُولِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، بِدَلِيلِ مَا جَاءَ

في الآية التالية (٥٣) من قول الكافرين جميعاً، وهُمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ:
﴿...لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَتَيْنَا بِالْحَقِّ...﴾ (٥٣).

وقد أبان الله عز وجل مِنْ صفاتِ الكتابِ الذي جاء النَّاسَ به ثلاثُ
صفاتٍ عظمى:

الصفة الأولى: دلَّ عليها قولُ الله تعالى مُتَحَدِّثًا بضمير المتكلم
العظيم:

﴿فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: فَصَلَّنَاهُ: أي: بَيَّنَّاهُ، يُقَالُ لُغَةً: فَصَّلَ يُفَصِّلُ
تَفْصِيلاً، أي: بَيَّنَّ يَبِينُ تَبْيِينًا. وَأَصْلُ التَّفْصِيلِ التَّمْيِيزُ، بِفَضْلِ الشَّيْءِ عَنْ
شَيْءٍ آخَرَ، وَالتَّفْصِيلُ فِي الْمَعْنَى يَكُونُ بِتَمْيِيزِهَا، وَفَضْلُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ،
وإِعْطَاءِ كُلِّ مِنْهَا حُكْمَهُ، وَهَذَا غَايَةُ الْبَيَانِ لِحَقَائِقِ الْمَعَارِفِ.

وَمُسْتَنَدُ هَذَا التَّفْصِيلِ التَّمَكُّنُ الْكَامِلُ مِنَ الْعِلْمِ بِحَقَائِقِ الْمَعْلُومَاتِ،
كُلِّيَّاتِهَا، وَجُزْئِيَّاتِهَا، كِبَارِهَا وَصِغَارِهَا، حَتَّى دَقَائِقِهَا الدَّقِيقَةِ الْبَالِغَةِ الْغَايَةِ فِي
الدَّقَّةِ، وَجَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مُشِيرًا إِلَى مُسْتَنَدِ هَذَا التَّفْصِيلِ. أي:
فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً دَقِيقاً مَبْنِيّاً أَوْ قَائِماً عَلَى عِلْمٍ، فَالْعِبَارَةُ صِفَةٌ لِمَفْعُولٍ مُطْلَقٍ
مَخْذُوفٍ، وَهَذَا فِي نَظَرِي أَجْوَدُ فِي التَّدْبِيرِ مِنْ اِغْتِيَابِ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ خَالِاً مِنْ
الْفَاعِلِ، بِمَعْنَى فَصَلَّنَاهُ عَالِمِينَ، أَوْ خَالِاً مِنَ الْمَفْعُولِ، بِمَعْنَى فَصَلَّنَاهُ
مُشْتَمِلاً عَلَى عِلْمٍ.

وقد اسْتَدْعَى الْبَيَانُ ذِكْرَ هَذَا الْقَيْدِ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لِأَنَّ الْبَاحِثِينَ مِنَ
النَّاسِ قَدْ يُفَصِّلُونَ مَعَارِفَهُمْ، لَكِنْ تَفْصِيلُهُمْ لَا يَكُونُ قَائِماً عَلَى عِلْمٍ بِحَقَائِقِ
الدَّقَائِقِ، فَتُضَيَّفُ تَفْصِيلَاتُهُمْ جِهَالَاتٍ وَأَحْكَاماً بَاطِلَةً فِي الْقَضَايَا الْجَزْئِيَّةِ،
إِلَى جِهَالَاتٍ وَأَحْكَامٍ بَاطِلَةٍ فِي الْقَضَايَا الْكُلِّيَّةِ، وَبِذَلِكَ تَتَرَاكَّبُ الْجِهَالَاتُ
وَصُورُ الْبَاطِلِ، مَعَ الْإِيهَامِ بِالتَّفْصِيلِ الْكَثِيرِ أَنَّهَا حَقَائِقُ قَائِمَةٌ عَلَى الْعِلْمِ
بِالدَّقَائِقِ.

والتَّفْصِيلُ في القرآن المجيد قَدْ جاءَ لقضايا الدين، ولا سِيَّما أُصُولُ الاعتقاد، وأُصُولُ الأخلاق، وأُصُولُ العبادات، وأُصُولُ الحقوق، والأحكام المبيَّنة لحدود الله.

ويشْمَلُ التفصيل أيضاً التفصيلَ في الصِّياغة اللَّفْظِيَّة لِلآيَاتِ في الكتاب المنزل، فهو أيضاً ظاهرة من ظواهر كتاب الله، ذات الأثر الملائم للنفس الإنسانية في التَّلَقِّي، والحفظ، والتَّدْبُر.

الصفة الثانية: دَلَّ عليها قول الله تعالى:

﴿هَدَى﴾: الهُدَى يأتي في اللغة بمعنى الرشاد، وبمعنى الدلالة إلى ما يُوصِلُ إلى المطلوب، وبمعنى الطريق الواضح والصرّاط الذي هو طريق الحق.

وكُلُّ هذه المعاني هي من صفات كتاب الله حقيقةً.

يقال لغة: هَدَاهُ يَهْدِيهِ هُدًى وَهْدَايَةً وَهْدِيَّةً بِمَعْنَى دَلَّهُ وَأَرْشَدَهُ، وَيَبَيِّنُ لَهُ طريق الخير وطريق الشرّ، أو طريق الحق وطريق الباطل، أو طريق السعادة وطريق الشقاء.

فَالْهُدَى على هذا مَصْدَرُ هَدَى يَهْدِي.

وكتابُ الله فيه هذا الهُدَى، ولكنَّ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِهِدَى كتاب الله في آياته، هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا به إيماناً صحيحاً صادقاً عن وَغْيٍ وبصيرة.

أما بالنسبة إلى القرآن إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (الأعراف) فالَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِبَإَعَا بِهِدَى آيَاتِهِ هُمُ الَّذِينَ يَتَابِعُونَ نُجُومَ التَّنْزِيلِ بِإِيمَانٍ جَدِيدٍ، بَعْدَ إِيمَانٍ سَابِقٍ بما كان سَبَقَ أَنْ قد نَزَلَ منه.

وَالآيَةُ تَشْمَلُ حال المتَلَقِّينَ وَقَتَ التَّنْزِيلِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَتَجَدَّدُ لَدَيْهِمُ الْإِيمَانُ بَعْدَ أَنْ اكْتَمَلَ تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ، كُلُّمَا تَلَّوْا مِنَ الْقُرْآنِ آيَاتٍ فِيهَا هُدًى.

ولفظ ﴿هُدًى﴾ في الآية مَنْصُوبٌ على أَنَّهُ مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ، أي: من أَجْلِ هِدَايَتِهِمْ، أو على أَنَّهُ حال من الكتاب المَفْضَل، أي: حالَةٌ كَوْنِ الْكِتَابِ هُدًى.

الصفة الثالثة دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَرَحْمَةً﴾: أي: هو رَحْمَةٌ من اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ للنَّاسِ، إِذْ جَاءَهُمْ بِهِ مُفْضَلًا مُسْتَمِلًا على هُدًى، فَأَبَانَ لَهُمْ صِرَاطَ سَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَصِرَاطَ نَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الدِّينِ فِي الْجَحِيمِ، وَظَفَرَهُم بِالنَّعِيمِ الْخَالِدِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، فَهُوَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ.

وَرَحْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَهِيَ تَسْتَلْزِمُ الْإِنْعَامَ وَالْإِكْرَامَ وَالْإِحْسَانَ، وَيَكُونُ مِنْ آثَارِهَا بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ الْعَفْوُ وَالْعُفْرَانُ.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هَذَا قَيْدٌ لِكَوْنِ الْكِتَابِ هُدًى وَرَحْمَةً، أَي: إِنَّ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ مِنْ كَوْنِ الْكِتَابِ الرَّبَّانِيِّ هُدًى وَرَحْمَةً، هُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ مَا جَاءَ فِيهِ، فَيَتَابِعُونَ آيَاتِهِ بِالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ، الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَدْفَعَهُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِأَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ، فَيَكُونُ فِي الْوَاقِعِ لَهُمْ هُدًى، وَهُمْ يَسْعَدُونَ بِعَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ.

ولدى تحليل كَوْنِ مَا فِي الْكِتَابِ الرَّبَّانِيِّ رَحْمَةً يَظْهَرُ لَنَا أَنَّ بَيَانَاتِهِ وَتَعْلِيمَاتِهِ وَوَصَايَاهُ تُعَرَّفُ بِالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَتَوْضُحُ الْمَسَافَةِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَهُمَا حَتَّى لَا تَخْتَلِطَ حُدُودُهُمَا، فَلَا يَقَعُ مَنْ يَهْتَدِي فِي حِمَاةِ الْبَاطِلِ وَهُوَ يَظُنُّهُ حَقًّا، وَتُعَرَّفُ بِطَرِيقِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَطَرِيقِي الْفُجُورِ وَالتَّقْوَى، وَطَرِيقِي الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ مِنَ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَتَوْضُحُ الْحُدُودِ وَالْفَوَاصِلِ بَيْنَ هَذِهِ الطَّرِيقِ، فَلَا يَقَعُ مَنْ يَهْتَدِي بِهِذِي الْكِتَابِ الرَّبَّانِيِّ فِي أَوْحَالِ الشَّرِّ وَالْفُجُورِ وَالْفَسَادِ وَأَوْضَارِهَا وَأَخْبَائِهَا.

فَهُوَ كَالطَّيِّبِ النَّاصِحِ الرَّحِيمِ الَّذِي يُقَدِّمُ نَصَائِحَهُ بِشَأْنِ الْوَقَايَةِ قَبْلَ
الْإِصَابَةِ بِالذَّاءِ، وبالعلاج بَعْدَ الإِصَابَةِ بِهِ، فَمَنْ عَمِلَ بِهَا رَجِمَ وَسُتِرَ، وَمَنْ
أَعْرَضَ عَنْهَا أَوْ أَذْبَرَ خَابَ وَخَسِرَ.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بكتاب الله وبما جاء فيه من خيرٍ عظيمٍ للناسِ،
قد حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ بِهِ، وَاسْتَكْبَارِهِمْ عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ، مِنْ مَنَافِعِ كَوْنِهِ
هُدًى وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.



● قول الله تعالى:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ
جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي
كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

ما زال الحديثُ القرآني يتناول الَّذِينَ كَفَرُوا وَهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، وَلَقَدْ
جاءهم رَبُّهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلَهُ عَلَى عِلْمِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

● ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾: أي: هَلْ يَنْتَظِرُونَ بَعْدَ الْأَدِلَّةِ الْكَافِيَةِ،
وَالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ الْقَاطِعَةِ، الْمُفْضِيَةِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَفْتَنَعَ، إِلَّا تَحَقُّقَ مَا تَوَوَّلُ
إِلَيْهِ الْأَخْبَارُ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا مِنْ أَنْبَاءِ يَوْمِ الدِّينِ، إِذْ تَحَقَّقَتْ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ فِي
الْوَاقِعِ، وَيَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي أَنْوَاعِ عَذَابٍ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ الْحِسَابِ
وَفَضْلِ الْقَضَاءِ يَتَقَلَّبُونَ.

فعل «نَظَرَ» يأتي بمعنى «انْتَظَرَ». تقول لغة: نَظَرَ فُلَانٌ الشَّيْءَ، أي:
انْتَظَرَهُ، وتقول: جَلَسَ الْمَصْلِيُّ فِي الْمَسْجِدِ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ يَنْظُرُ
الْعِشَاءَ، أي: يَنْتَظِرُهَا. وَنَظَرَ رُكَّابُ الطَّائِرَةِ مَوْعِدَ إِفْلَاحِهَا، أي: انْتَظَرُوهُ.

● ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾: أي: إِلَّا الْوَاقِعَ التَّطْبِيقِيَّ الَّذِي تَوَوَّلُ إِلَيْهِ، بِمَعْنَى

تَصِيرُ إِلَيْهِ أَنْبَاءُ الْوَعِيدِ فِي آيَاتِ كِتَابِ اللَّهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَوُولُ إِلَيْهِ الْآيَاتُ
الَّتِي تَضْمَنْتُ الْأَنْبَاءَ، بِمَا أَعْتَدَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ لِلْكَافِرِينَ الْمَكْذِبِينَ بِعَذَابِ اللَّهِ
يَوْمَ الدِّينِ.

التأويل في اللغة: يأتي بمعنىين:

المعنى الأول: إزجاجُ الشيء إلى مرجع ما كان عليه. تقول لغة: آَلَ الشيءَ يؤولُ أولاً وَمَآلاً إلى كذا، أي: رَجَعَ إليه. وتقول: أَوَّلُهُ إِلَيْهِ، أي: أَرْجَعَهُ إليه.

المعنى الثاني: تَصْيِيرُ الشيء إلى مَصِيرٍ ما، تقول لغة أَوَّلْتُ الشيءَ إلى كذا، أي: صَيَّرْتُهُ إِلَيْهِ، وتقول: آَلَ الشيءَ إلى كَذَا يؤولُ أولاً وَمَآلاً، أي: صارَ إليه، وَلَوْ لم يكن في هذا المصير معنى الرجوع.

وَيُلَاحَظُ أَنَّ مِمَّا جَاءَ مُفَصَّلًا فِيمَا نَزَلَ مِنْ قُرْآنٍ مَا نَزَلَ حَوْلَ الْجَزَاءِ بِالْعَذْلِ وَبِالْفَضْلِ يَوْمَ الدِّينِ، وَحَوْلَ الْبَعْثِ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَى.

والتفصيل الذي جاء من ذلك هو تفصيل أنباء ما سَوْفَ يَخْدُثُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، مِمَّا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي خُطَّةِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَالْخَبْرُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ يُعْتَبَرُ وَاقِعَ الْحَالِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْمَطَابِقُ لَهُ تَأْوِيلًا لَهُ، إِذْ هُوَ الْمَصِيرُ الَّذِي يَصِيرُ إِلَيْهِ مَضْمُونُ الْخَبَرِ.

إِنَّ الْكَلَامَ عَنِ الْوَاقِعِ الْحَاضِرِ، يَكُونُ الْوَاقِعَ الْحَاضِرُ الْمَطَابِقُ لَهُ هُوَ الْحَقِيقَةُ لِلْكَلامِ، وَالْكَلامُ تَعْبِيرٌ عَنْهُ، وَصُورَةٌ كَلَامِيَّةٌ لَهُ.

وإنَّ الْكَلَامَ عَنِ الْوَاقِعِ الْمَاضِي، يَكُونُ الْوَاقِعَ الْمَاضِي الْمَطَابِقُ لَهُ هُوَ الْمَرْجِعُ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْكَلَامُ، وَهُوَ الْحَقِيقَةُ الْمَاضِيَّةُ لَهُ، وَالْكَلامُ تَعْبِيرٌ عَنْهُ، وَصُورَةٌ كَلَامِيَّةٌ لَهُ.

وإنَّ الْكَلَامَ عَنِ الْوَاقِعِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ الَّذِي سَيَكُونُ أَوْ سَوْفَ يَكُونُ فِي

المستقبل القريب أو البعيد، يَكُونُ الواقعُ المستقبليُّ المطابق له هو المصير والمآل الذي يؤول إليه الكلام، وهو الحقيقة المستقبلية له، والكلام تَغْيِيرٌ عنه، وصُورَةٌ كلاميةٌ له.

فالذين يُنْكِرُونَ القرآنَ المجيد، ويكذَّبُونَ بما تنزلَ من آياته، وفيها الإنذارُ المفصلُ بأنواع الوعيدِ بالعذاب الذي سَوْفَ يُلَاقُونَهُ، ماذا يَنْتَظِرُونَ من بَرَاهِينٍ تُفْنِعُهُمْ بَأَنَّ مَا جَاءَ فِي هذا القرآنِ المجيد هو الحقُّ من رَبِّهِمْ، غَيْرَ المشاهدةِ الحسيةِ التي سوف يشاهدونها، وغير أن يَذُوقُوا العذابَ الَّذِي سوف يَذُوقُونَهُ حتماً، إذا أَصْرُوا على ما هُمْ عليه من كُفْرٍ، وماتوا على ذلك.

لقد قَدَّمَ رَبُّهُمْ لهم من الأدلَّةِ والبراهين القواطع، ومن صُورِ الترغيب والترهيب، ما يكفي لإيجاد القناعةِ التامةِ لَدَيْهِمْ، لو صَرَفُوا عن أَنْفُسِهِم الكِبْرَ، والتقليد الأعمى، ورغباتِ الفجور في الأرض.

فإن كانوا يَنْتَظِرُونَ أموراً يُشَاهِدُونَهَا بأعينهم، أو يَذَرِكُونَهَا بحواسهم الأخرى، فإنها لا تَكُونُ إلَّا بَعْدَ انْتِهَاءِ رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدنيا، وعندئذٍ تَبْدَأُ مَصَابِرُهُم الجزائيةُ تَتَابَعُ عليهم، حتَّى مَصِيرُهُم الأخير في عذاب جَهَنَّمَ، هذا ما دَلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾: أي: هَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا المصيرَ الَّذِي تؤولُ إِلَيْهِ نُذُرُ العذابِ الخَبَرِيَّةِ، وحينئذٍ لَا يَنْفَعُهُمْ إيمانٌ وَلَا عَمَلٌ.

قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ...﴾: أي: يَوْمَ يَأْتِي تحقُّقُ نُذُرِ العذابِ يَوْمَ الدين، في الواقعِ المستقبلي، ويَحُلُّ بهم ما كانوا قد كَذَّبُوا به من قَبْل.

● ﴿يَقُولُ الَّذِينَ سَوَّاهُ مِنْ قَبْلُ﴾: أي: يقول الكافرون الَّذِينَ تَرَكُوا الإيمانَ بما جَاءَ في كتاب رَبِّهِمْ لهم، وَتَرَكُوا الْعَمَلَ بأحكامه ووصاياه، ولم

يَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، جُحُودًا، أَوْ إِهْمَالًا.

● ﴿نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾: أي: تركوه في الحياة الدنيا حينما كانوا في رحلة الابتلاء.

● ﴿... قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ...﴾ (٥٣).

دلّت هذه العبارة على أنهم يقولون يومئذ ثلاث مقالات:

المقالة الأولى: دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

في هذه الجملة بيان أنهم سوف يعترفون يومئذ، بأن رُسُلَ رَبِّهِمُ الذين كانوا كذّبوهم في الحياة الدنيا، قد جاءوا بالحق فلم يكونوا كاذبين.

وهذه الجملة تدلّ على أن أمم الرُسُل جميعاً، يقولون قوله واجدة، معترفين بغد ظهور الواقع الخبري بصورة حسية: قد جاءت رُسُلُ رَبِّنَا بالحق.

وهي تدلّ أيضاً على وَحْدَةِ الرُّسَالِ الرَّبَّانِيَّةِ، بالنسبة إلى العقيدة بيوم الدين، وما جعلَ الله عز وجلّ فيه بأصل خُطَّةِ التَّكْوِينِ، وقد أنزل به البيان على جميع المرسلين، في كُتُبِهِ المنزلة جميعاً.

ويلاحظ هنا أن عبارة الكافرين يومئذ: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أقلُّ تأكيداً من عبارة المؤمنين التي جاءت في الآية (٤٣) وهي قولهم: ﴿... لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ...﴾ (٤٣)، ففي عبارة المؤمنين هذه زيادة اللام الواقعة في جواب قَسَمٍ مَنَوِيٍّ قَبْلَ حَرْفِ التَّحْقِيقِ «قَدْ».

المقالة الثانية: دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا؟﴾.

هذه أُمِّيَّةٌ يَتَمَتَّاهَا الكافرون في أنفسهم، وَيُصْرَحُونَ بها في أَلْسِنَتِهِمْ، بعد أن وصلوا إلى حقِّ اليَقِينِ بأنَّهُمْ من أَصْحَابِ النَّارِ، وَهُمْ يَدُوقُونَ عَذَابَهَا في الواقع.

إِنَّهُمْ يَتَسَاءَلُونَ: هَلْ يُوجَدُ لَهُمْ من شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَيُخْرِجُهُم مِنَ النَّارِ، أَوْ يُخَفِّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا.

(مِنْ) حَزَفُ جَرُّ زِيد في الجملة قَبْلَ المبتدأ وبعد «هل» الاستفهامية، والغرض من زيادته تأكيد التعميم في السؤال عن أيِّ شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

المقالة الثالثة: دَلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾؟

وهذه أُمِّيَّةٌ ثانية يَتَمَتَّنُونَهَا على سبيل التَّزْيِيدِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الأُمِّيَّةِ الأولى، فأَيُّهُمَا أَمَكَنَ حُصُولُهُ فَهُمْ سَعْدَاءُ به.

والمعنى: أَوْ هَلْ نُرَدُّ إِلَى حَيَاةِ الابتلاء مَرَّةً أُخْرَى، فَنَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا نَرْضَى به رَبَّنَا، غَيْرَ الْعَمَلِ السَّيِّئِ الَّذِي كُنَّا عَمَلْنَاهُ في رحلة الامتحان الأولى، وهو يَشْمَلُ الأعمالَ النفسية كالإيمان والنِّيَّاتِ، والأعمال ذوات الظواهر الجسديَّة.

وقد جاء في القرآن المجيد نُصُوصٌ كثيرة، تُبَيِّنُ أَنَّ أُمْنِيَّتَهُمْ هذه مَرْفُوضَةٌ التَّحْقِيقِ حَتْمًا، لِأَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لَمَا نُهُوا عنه، إِذْ لَوْ رُدُّوا إِلَى رِحْلَةِ امتحانٍ أُخْرَى، فَإِنَّهُمْ يَرُدُّونَ بَعْدَ أَنْ يُمَسَّحَ مِنْ ذَاكِرَاتِهِمْ كُلُّ شَيْءٍ شَهِدُوهُ يَوْمَ الدِّينِ.

قول الله تعالى: ﴿... قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

هَذَا تَغْقِيبُ رَبَّانِي يَدُلُّ بِالْكِنَايَةِ، لَا بِصَرِيحِ اللَّفْظِ، عَلَى أَنَّ أَمْنِيَّتَيْنَهُمْ تَرْفُضَانِ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِمَا، فَلَا يَأْذَنُ اللَّهُ لِأَيِّ شَافِعٍ بِأَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ، وَلَا يَمْنَحُهُمْ فُرْصَةً اسْتِثْنَاءَ امْتِحَانِهِمْ بِالْعُودَةِ إِلَى مِثْلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ.

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: إِذْ تَسَبَّبُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِأَنْ يَكُونُوا خَالِدِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ.

وَهَلْ يُوجَدُ خُسْرَانٌ أَشَدُّ مِنْ هَذَا الْخُسْرَانِ، وَهُوَ خُسْرَانُ الْأَنْفُسِ؟

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: ضَلَّ عَنْهُمْ: أَي: ضَاعَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ أَثَرًا. مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ: أَي: مَا كَانُوا يَخْتَلِقُونَ مِنْ أَكَاذِيبٍ يَفْتَرُونَهَا عَلَى الْوَاقِعِ وَالْحَقِيقَةِ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ قَبِيلِ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ، لِأَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِخَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ إِلَهِيَّتِهِ.

فَالشُّرَكَاءُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لِيَجْلُبُوا لَهُمْ نَفْعًا أَوْ يَدْفَعُوا عَنْهُمْ ضَرًّا بِمَا جَعَلُوا لَهُمْ مِنْ بَعْضِ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، أَوْ لِيَقْرَبُوهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، أَوْ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَدْ ضَلُّوا عَنْهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ أَثَرًا مَا، أَوْ لَمْ يَجِدُوا لَهُمْ شِفَاعَةً وَلَا تَقْرِيبًا إِلَى رَبِّهِمْ، بَلْ زَادَتْهُمْ خِيبَةً وَخُسْرَانًا.



(٩)

التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس السورة

وهو الآيات من (٥٤ - ٥٨)

قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجُودُ مَسْحُورَتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ

لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا
وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ
بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ
الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾
وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ
نُصْرِفُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴿

القراءات:

(٥٤) • قرأ شعبة، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف يعشي بفتح الغين وتشديد الشين المكسورة، من فعلٍ «عَشَى». وقرأ باقي القراء العشرة: [يُعْشِي] بإسكان الغين وكسر الشين من غير تشديد، من فعل «أعشى».

والقراءتان متكافئتان، إذ هما وجهان عربيان لهذا الفعل، أحدهما جاءت تغديته بالتضعيف، والآخر جاءت تغديته بالهمز، والهمز والتضعيف أخوان.

(٥٤) • قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ بالنصب عطفاً على منصوب خلق، وكلمة «مُسَخَّرَاتٍ» منصوبة على الحال.

وقرأ ابن عامر: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ على أن الجملة مُستأنفة، الشَّمْسُ وما عطفَ عليها مُبتدأ خبره «مُسَخَّرَاتٌ».

وبين القراءتين تكاملٌ بياني، فقراءة الجمهور تُثبِتُ أن الشمس والقمر والنجوم مخلوقاتٌ لله، حالة كونها مسخَّراتٌ بأمره، على طريقة الحال المقدرة، وقراءة ابن عامر تُوجِّه النظر لخصوص تسخيرها لنا مع الناس، تنبيهاً على عناية الله بخلقه، إذ جعل مخلوقات كُبرى في السماء مسخَّرة لمنافعهم في الأرض.

(٥٥) • قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿وَحُفِيَّةٌ﴾ بضم الحاء.

وقرأ شُعْبَةُ: ﴿وَحِيفَةٌ﴾ بكسر الخاء.

حُفِيَّةٌ وَحِيفَةٌ: مَصْدَرَانِ لِفِعْلِ «حَفِيَ الشَّيْءُ يَحْفَى حَفَاءً»، ويقال في المصدر أيضاً حُفِيَّةٌ وَحِيفَةٌ، حَفِي: أي: استتر.

فالقراءتان لغتان متكافئتان.

(٥٧) • قرأ ابنُ كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف، ﴿الرَّيْحَ﴾ بالإنفراد. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الرِّيَّاحَ﴾ بالجمع.

الرَّيْحُ: اسم جنس يَشْمَلُ كُلَّ أنواع الرِّيَّاح، فمؤدَّى القراءتين واحد. وقد يكون بين القراءتين تكاملاً في أداء المعنى المراد، كما سيأتي إن شاء الله.

(٥٧) • قرأ عاصِمٌ: ﴿بُشْرًا﴾: أي: مُعْلِمَةٌ ببشارة بين يَدَي رحمة الله عباده بالغيث.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿تُشْرًا﴾ بِإِسْكَانِ الشين، وهو تخفيف «تُشْرِ» جمع نُشُور.

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: ﴿تَشْرًا﴾: التَّشْرِ: الريح الطيبة. والتَّشُّرُ: التفريق.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿تُشْرًا﴾: جمع «نُشُور» مثل رسول ورُسل، والنُّشُورُ مُبَالِغَةُ «الناشر». النُّشُورُ من الرياح، الَّتِي تُثِيرُ السُّحْبَ وَتَنْشُرُهَا.

ومؤدَّى قراءات «تُشْرًا، وَنَشْرًا، وَتَشْرًا» واحد، فهي الرياح الطيبة التي تَنْشُرُ السُّحْبَ، أو تَنْشُرُ اللَّفَاحَات، أو غير ذلك من نافعات للعباد.

وبين «بُشْرًا» وَبَيْنَ سَائِرِ القراءات تكامل في أداء المعنى المراد.

(٥٧) • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشُعْبة، ويعقوب: ﴿مَيِّتٌ﴾ بإسكان الياء.

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿مَيِّتٌ﴾ بتشديد الياء.

والقراءتان لغتان عَرَبِيَّتَانِ «مَيِّت - مَيِّتٌ» متكافئتان.

(٥٧) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي وخَلَفٌ: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

أصلها «تَتَذَكَّرُونَ» حذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: أصلها «تَتَذَكَّرُونَ» أدغمت التاء

الثانية بالذال فصارت ذالاً مشددة «تَذَكَّرُونَ».

(٥٨) • قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿لَا يُخْرِجُ إِلَّا﴾ من فعل

«خَرَجَ».

وقرأ ابن وردان في إحدى روايتين عنه: ﴿لَا يُخْرِجُ إِلَّا﴾ مِنْ فِعْلٍ

«أَخْرَجَ»، والرواية الأخرى عنه كقراءة الجمهور.

قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبَاتَ فِي الْبَلَدِ الْخَبِيثِ لَا يُخْرِجُ إِلَّا

نَكَدًا. وقراءة ابن وردان تدل على أَنَّ الْبَلَدَ الْخَبِيثَ لَا يُخْرِجُ النَّبَاتَ إِلَّا

نَكَدًا.

فبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد.

(٥٨) • قرأ جُمهُورُ الْقُرَاءِ الْعَشْرَةِ ﴿نَكَدًا﴾: النَّكَدُ: الْعَسِرُ الَّذِي لَا

يُطَاوِعُ إِلَّا بِشِدَّةٍ، وَالشَّحِيحُ.

وقرأ أبو جعفر: ﴿نَكَدًا﴾ مَصْدَرُ نَكَدَ الْأَمْرُ يَنْكَدُ نَكَدًا وَنَكَدًا، أَي:

عَسَرَ وَاشْتَدَّ وَقَلَّ عَطَاؤُهُ.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، فالنباتُ في الأرض

الخبِيثَةُ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكَدًا، أَي: عَسِيرًا، وَالْأَرْضُ الْخَبِيثَةُ لَا تُخْرِجُ نَبَاتَهَا،

إِلَّا نَكَدًا، أَي: إِلَّا إِخْرَاجًا ذَا عُسْرِ.

الربط بموضوع السورة:

هذا الدرس الخامس من دروس السورة، مُرتبّط بالآية الثالثة من الدرس الأول من دروسها، وهي قول الله عز وجل فيها:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

وقد سبق أن عرفنا أنّ مضمون هذه الآية يُمثّل الخطّ الأعظم الذي سارت عليه أكثرُ آيات السّورة، ومعظم فقراتها ودُروسها.

لقد جاء في هذه الآية قول الله عز وجل: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، واختيرَ فيها من أسماء الله جلّ جلاله اسمُ «رَبِّ» إعلاماً بأنّ رُبوبية الله لعباده هي الصّفة الجامعة لكل أسماء الله الحسنى المُتعلّقة بمخلوقاته جلّ وعلا.

إنّ الله جلّ جلاله هو الرّبّ الخالق المصوّر المنشئ خَلَقَهُ وَفَقَ سُنَّتِهِ التّربية، والمتابع لما خَلَقَ مَعَ كُلِّ أَزْمَانٍ وَجُودِهِ بأنواع التربية المختلفة، التي هي الإنشاء المتدرّج، والمتابعة الدائمة مَعَ كُلِّ أَصْغَرِ وَخَدَةِ زَمَنِيَّةٍ، حتّى آخِرِ وَجُودِ المخلوق، إذا كان لوجوده نهاية، أو مَعَ كُلِّ أَزْمَانٍ إيجاده إذا لم يكن لإبقائه في الوجود نهاية.

ولمّا كانت ذاتُ الرّبِّ غَيْرَ مَشْهُودَةٍ بِالْأَبْصَارِ، ولا مُذَرَكَةً بِالْحَوَاسِّ الظّاهرة، كانت الحاجة ماسّةً للتّنبّيه على آياته الدّالّاتِ عليه في الكائنات التي هي خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وخاضعةٌ دوماً لسلطانِ رُبوبيّته وإمداداتها وعطاءاتها، ولولا أنّه جلّ جلاله وعظّم سلطانه يُمِدّها بالتّعهّد والتّربية دوماً، لمّا بقيت في الوجود، ولعادت لِأَصْلِهَا وهو العدم، فالله تبارك وتعالى هو الَّذِي يُنْشِئُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بعطاءات رُبوبيّته دوماً، لتَبَقَّى في الوجود هي وَكُلُّ أَجْزَائِهَا وَصِفَاتِهَا، ولو رَفَعَ اللهُ عَنْهُمَا الْإِنْسَانَ في الوجود لعادتَا إلى أصلهما وهو العدم، وَلَئِنْ زَالَتَا فَلَنْ يُوجَدَ بَعْدَ اللهِ جُلّ جلاله أَحَدٌ يُوجِدُهُمَا وَيُنْشِئُهُمَا.

ولَمَّا كَانَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ﴿٥٤﴾ قد يُشِيرُ سُؤَالَ كَافِرٍ بِوُجُودِ الرَّبِّ أَوْ شَاكٍّ فِيهِ، قَائِلًا: مَنْ رَبُّنَا الَّذِي يَقُولُ لَنَا: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ﴿٥٤﴾؟

كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ التَّرْبُويِّ الْإِجَابَةَ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ، بِمَا يَتَضَمَّنُ التَّنْبِيهَ عَلَى آيَاتِهِ الدَّلَالَاتِ عَلَيْهِ، فِي الْكَائِنَاتِ الَّتِي هِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَالْخَاضِعَةِ دَوَامًا لِسُلْطَانِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْكَائِنَاتِ يَخْضَعُ لِتَخْرِيكِ حَكِيمٍ، لَا يَمْلِكُ تَضَرِيفُهُ إِلَّا رَبٌّ مُدَبِّرٌ عَلِيمٌ خَبِيرٌ حَكِيمٌ قَدِيرٌ.

وَمُضْمُونُ الْجَوَابِ مَهْمَا جَرَى التَّنْوِيعُ فِي عَرْضِ آيَاتِ الرَّبِّ الْكُونِيَّةِ، يَتَلَخَّصُ بِأَنَّ هَذِهِ الظُّوَاهِرَ الْكُونِيَّةَ الْكَثِيرَةَ، كُلَّمَا تَفَكَّرْنَا فِي دَلَالَتِهَا بِإِمْعَانٍ، دَلَّنَا عَلَى أَنَّ إِتْقَانَهَا وَإِحْكَامَهَا لَيْسَ مِنْهَا، بَلْ مِنْ خَالِقٍ رَبِّ عَلِيمٍ حَكِيمٍ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ.

فَخَالِقُهَا وَالْمُهَيِّمُ عَلَيْهَا بِرُبُوبِيَّتِهِ دَوَامًا، هُوَ رَبُّكُمْ الَّذِي يَأْمُرُكُمْ بِأَنْ تَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْهُ، وَبَلَّغَكُمْ إِيَّاهُ رَسُولُهُ الْمَصْطَفَى الْمُؤَيَّدُ مِنْ قِبَلِهِ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ.

التدبر:

- قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْمَرْثِيِّ يُغْثِي أَلْيَلِ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَبِيبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾: أي: إِنَّ رَبُّكُمْ الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ فِي مَطَالِعِ السُّورَةِ بِأَنْ تَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْهُ، هُوَ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ بِاسْمِهِ الْعَلَمَ «اللَّهُ»

الدّال على ذاته الغَيْبِيَّة عن حواسِّكم، والمتَّصِفة بكلِّ صفات الكمال، والمنزَّهة عن كلِّ صفات النقصان، والذي تُدُلُّ عليه آياته وآثاره في كونه، دلالةً عقليةً.

فتعريفهم برَّبِّهم قد جاء أولاً بذكر اسمه العلم على ذاته، المعروف عند العرب بلسانهم، وهو لفظ ﴿اللَّهُ﴾.

● ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: هذا تعريف آخر بوصفٍ كان يؤمن به المخاطَبون من العرب، فإذا سأَلَهُم سائلٌ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، كما قال الله عزَّ وجلَّ بشأنهم في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾﴾.

خَلَقَ: الخَلْقُ: يأتي في اللُّغَةِ للدلالة على ثلاثة معاني:

المعنى الأول: ابتداءُ الشَّيْءِ وإيجاده من العَدَمِ على غيرِ مثالٍ سبق، وهذا لا يكون إلا من الله عزَّ وجلَّ.

المعنى الثاني: التقدير، وهو إعطاء أجزاء الشيء مقاديرها، وهذا يكون من الله، ويكون من غيره، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ لعيسى عليه السَّلام كما جاء في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَهُم بَالِيسَتَ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾.

المعنى الثالث يأتي الخَلْقُ بمعنى الكَذِبِ والإفك، وإنما يفتري الكَذِبَ

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ، ومنه قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٥٨ نزول) حكايةً لمقالة إبراهيم عليه السلام لقومه:

﴿إِنَّمَا تَقْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا...﴾ (١٧)

أي: وتفترون كذباً.

وفعل [خَلَقَ] في العبارة التي نتدبرها يُحْمَلُ على المعنيين، الأول والثاني.

فالله عزَّ وجلَّ أَبَدَ عَزَّ وجلَّ مِنَ العدم على غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، وَقَدَّرَ المقادير كلها بعلمه المحيط بكل شيء، وحكمته البالغة.

والسَّمَاوَاتُ قد ذُكِرَتْ بِالْجَمْعِ، وَذَلَّتِ النُّصُوصُ على أَنَّهَا سَبْعُ سَمَاوَاتٍ. أَمَّا الْأَرْضُ فَقَدْ ذُكِرَتْ فِي كُلِّ الْقُرْآنِ بِالْإِفْرَادِ، فَهِيَ فِي الْكَوْنِ أَرْضٌ وَاحِدَةٌ، وَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ مِنْ جَمْعِهَا، كَحَدِيثِ: «مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شِبْرِ مِنْ أَرْضٍ طَوْقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(١)، فالمراد إلى سَبْعِ طَبَقَاتٍ مِنَ الْأَرْضِ. وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ فِي سُورَةِ (الطَّلَاقِ/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول):

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...﴾ (١٧)

فالمماثلة مَحْمُولَةٌ عَلَى الْعُنَاصِرِ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا الْأَرْضُ، فَهِيَ مِمَّاثِلَةٌ لِلْعُنَاصِرِ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا أَجْرَامُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ.

● ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أي: فِي سِتَّةِ أَقْسَامٍ زَمَنِيَّةٍ، سَمَّى اللَّهُ عَزَّ وجلَّ كُلَّ قِسْمٍ مِنْهَا يَوْمًا. وَلَمَّا كَانَتِ الْأَيَّامُ تَخْتَلِفُ مَقَادِيرُ أَزْمَانِهَا، فَلِأَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمٌ خَاصٌّ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلِكُلِّ كَوْكَبٍ يَوْمٌ بِحَسَبِ دَوَرِّهِ

(١) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد عن عائشة وعن سعيد بن زيد «الجامع الصحيح» رقم (٦٣٨٥).

حول نفسه باتجاه مَنَبَعِ ضَوْئِيٍّ، وله مقدارٌ من الزَّمنِ خاصٌّ به، وللمجرة التي نَحْنُ ومجموعتنا الشَّمْسِيَّةُ جُزْءٌ صَغِيرٌ منها يَوْمٌ، ولهذا اليوم مقدارٌ من الزَّمنِ خاصٌّ به، حتَّى عُمُرُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كُلُّهَا يَوْمٌ، وحتَّى كُلُّ أَزْمَانِ الآخِرَةِ الَّتِي لَا نَهَايَةَ لَهَا يَوْمٌ. لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بَاسِطَاعَتِنَا تَخْدِيدُ مِقْدَارِ زَمَنِ الْيَوْمِ مِنَ الْآيَامِ السَّنَةِ، الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، أَخْذًا مِنَ الْتَّصُوصِ.

● ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: دَلَّ حَرْفُ [ثُمَّ] عَلَى أَنَّ الِاسْتِوَاءَ عَلَى الْعَرْشِ قَدْ كَانَ بَعْدَ مُدَّةٍ مَتَرَاخِيَةٍ عَنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ.

جاء في القرآن: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وجاء فيه ﴿اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾:

الاستِواء لغة الاستقامة والاعتدال. واستوى على كذا، إذا اعتدل واستقام فوقه. واستوى إلى فعل كذا، إذا اعتدل واستقام متوجهاً لفعله، قاصداً إليه لا يُلَوِّي على شيءٍ آخر.

ويقال لغة: استوى فلانٌ على سرير الملك، إذا تولى تَصْرِيفَ شُؤُونِ مَمْلَكَتِهِ.

وقد وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، وقد كَانَ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ، ووصف نفسه بأنه استوى إلى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ. اسْتِوَاءُ وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَتَحْنُ نُثْبِتُهُ ضِمْنَ حُدُودِ مَا أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، ونقول: هو استواءٌ يَلِيقُ بِذَاتِهِ، سُبْحَانَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْوَاصِفُونَ، ضِمْنَ مُذَرِّكَاتِهِمُ الْمَحْدُودَاتِ الضَّئِيلَاتِ الَّتِي لَا تَصِلُ إِلَى إِذْرَاكِ ذَاتِهِ، إِذْ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

وأحسنُ بيان حول الاستواء الذي وصف الله عزَّ وجلَّ به نفسه، ما قاله الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: «الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والاستواءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، والإيمانُ بِهِ واجبٌ، والسؤالُ عَنْهُ بدعة».

العرش: مخلوق أعظم فوق السماوات السَّبع، ومحيطٌ بها.

● ﴿يَغْشَى أَلَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْنًا﴾: أي: يجعلُ الله النَّهارَ يَغْشَى اللَّيْلَ فَيَسْتُرُ سَوَادَهُ بِنُورِهِ، والمرادُ بالنَّهارِ ضياءُ الشَّمْسِ الَّذِي يَمْتَدُّ عَلَى الْأَرْضِ، فيحدثُ بِهِ ما يُسَمَّى بالنَّهارِ.

فِعْلٌ [يُغْشِي] يَنْصُبُ مَفْعُولَيْنِ وهو بمعنى «يُعْطِي وَيَسْتُرُ» تقول: غَشِيَ النَّهَارُ اللَّيْلَ، إِذَا سَتَرَهُ، وَأَغْشَى اللهُ اللَّيْلَ النَّهَارَ، أَي: جَعَلَ النَّهَارَ يَسْتُرُ اللَّيْلَ.

وَحِينَ نَتَفَكَّرُ فِي حَقِيقَتَي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، نَجِدُ أَنَّ اللَّيْلَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ غُرُوبِ ضِيَاءِ الشَّمْسِ عَنِ الْأَرْضِ، فَتَعُمُّ بِانْعِدَامِ ضِيَاءِ الشَّمْسِ الظُّلْمَةُ الَّتِي نُسَمِّيهَا بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ لَيْلًا.

وهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الظُّلْمَةَ هِيَ الْأَصْلُ فِي الْأَشْيَاءِ، وَأَنَّ الضِّيَاءَ أَوْ الثَّوْرُ هُوَ الَّذِي يَغْشَى الظُّلْمَةَ فَيَجْلُلُهَا وَيَسْتُرُهَا، وَكُلَّمَا ذَهَبَ غِطَاءُ الضِّيَاءِ أَوْ الثَّوْرِ وَجِدَتِ الظُّلْمَةُ فِي الْأَشْيَاءِ، لِأَنَّهَا هِيَ الْأَصْلُ فِيهَا. وَلَمَّا كَانَ مَضْدَرُ الضِّيَاءِ فِي الْأَرْضِ خِلَالَ النَّهَارِ آتِيًا مِنَ الشَّمْسِ، إِذْ تَكُونُ مُوَاجِهَةً لِقِسْمِ مِنْهَا، وَكَانَتِ الْأَرْضُ ذَاتَ ظُلْمَةٍ ذَاتِيَّةٍ مُسْتَمِرَّةٍ فِيهَا، إِلَّا إِذَا وَصَلَ إِلَيْهَا ضِيَاءُ أَوْ نُورٌ مِنْ جِهَةٍ مَا، وَهَذِهِ الْجِهَةُ ذَاتُ ضِيَاءٍ أَوْ نُورٍ، كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَقْهَمَ أَنَّ النَّهَارَ هُوَ الَّذِي يَغْشَى اللَّيْلَ فَيَسْتُرُهُ وَيُعْطِيهِ، لِأَنَّ الْغِشَاءَ هُوَ الْغِطَاءُ السَّاتِرُ.

هذه الظاهرة الكونية هي من آياتِ الله في كَوْنِهِ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى عِلْمِ اللهِ الْعَظِيمِ، وَحِكْمَتِهِ الْجَلِيلَةِ فِي إِتْقَانِ الْخَلْقِ، وَتَدُلُّ عَلَى عِنَايَتِهِ بِخَلْقِهِ سُكَّانِ الْأَرْضِ، إِذْ سَخَّرَ لَهُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ تَسْخِيرًا يَحَقِّقُونَ بِهِ مَصَالِحَهُمْ وَكَثِيرًا مِنْ شُؤُونِ حَيَاتِهِمْ فِي الْأَرْضِ.

● ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾: أي: يَطْلُبُ النَّهَارُ اللَّيْلَ لِيَغْشَاهُ، حَالَةً كَوْنِهِ حَيْثُ. الْحَيْثُ: الْمُسْرِعُ الْجَادُّ فِي أَمْرِهِ، الْمَتَابِعُ لِمَا يَطْلُبُهُ.

وفي جَعْلِ النَّهَارِ طَالِباً بَجْدٍ وَسُرْعَةٍ أَنْ يَغْشَى اللَّيْلَ، مَجَازٌ قَائِمٌ عَلَى تَشْبِيهِ ظَاهِرَةِ حَرَكَةِ النَّهَارِ السَّاتِرِ لظُلْمَةِ اللَّيْلِ بَضِيَائِهِ، بِمُتَابِعِ حَيْثُ يَطْلُبُ طَرِيدَتَهُ بِجَدٍّ وَسُرْعَةٍ، كَمُلَاحَقَةِ الْجَيْشِ الْمُنتَصِرِ أَوَاحِرِ صُفُوفِ الْجَيْشِ الْمُنْهَزِمِ.

وقد اِكْتَشَفَ النَّاسُ بِبَحْوثِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ أَنَّ ظَاهِرَتَيِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي الْأَرْضِ نَاتِجَتَانِ عَنْ كَوْنِ الْأَرْضِ قِطْعَةً شَبَهَ كُرَوِيَّةٍ، تَسْبُحُ فِي الْفَضَاءِ عَلَى مَدَارٍ حَوْلَ الشَّمْسِ، فَتُنْهِئُ دَوْرَتَهَا عِنْدَ نَقْطَةِ الْبَدْءِ فِي عَامِ شَمْسِيٍّ كَامِلٍ، وَهَكَذَا تَسِيرُ دَائِباً، وَتَدُورُ أَيْضاً حَوْلَ نَفْسِهَا كُلَّ يَوْمٍ دَوْرَةً كَامِلَةً، فَمَا يُوَاجِهُ الشَّمْسُ مِنْهَا فِي دَوْرَتِهَا حَوْلَ نَفْسِهَا يَظْهَرُ فِيهِ النَّهَارُ، وَكُلَّمَا انْعَدَمَتِ الْمَوَاجِهُةُ فِي جُزْءٍ مِنْهَا يَظْهَرُ فِيهِ اللَّيْلُ.

وَأَنذَهَشَ الْبَاحِثُونَ الْعِلْمِيُّونَ لَدَى دِرَاسَةِ هَاتَيْنِ الظَّاهِرَتَيْنِ مِنَ الظُّوَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ، لَمَّا فِي أَسْبَابِهِمَا مِنَ الدَّقَّةِ الْعَجِيبَةِ، الَّتِي أَحْكَمَتْ حَجْمَ الْأَرْضِ بِالنُّسْبَةِ إِلَى الشَّمْسِ، وَأَحْكَمَتِ الْمَدَارَ الَّذِي تَدُورُ فِيهِ الْأَرْضُ حَوْلَ الشَّمْسِ، وَأَحْكَمَتْ سُرْعَةَ سَيْرِهَا فِي مَدَارِهَا، وَسُرْعَةَ دَوْرَانِهَا حَوْلَ نَفْسِهَا، حَتَّى كَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ بِهَذَا الْإِتْقَانِ الْعَجِيبِ، الْمَلَائِمِ لِلْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ، وَالْمَلَائِمِ لِمَصَالِحِ الْأَحْيَاءِ عَلَيْهَا، وَكَانَتِ السَّنَةُ الشَّمْسِيَّةُ بِفُضُولِهَا الْأَرْبَعِ.

هذه الدِّرَاسَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ كَشَفَتْ لَنَا الْحِكْمَةَ مِنْ تَوْجِيهِ أَنْظَارِ النَّاسِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، لِلتَّفَكُّرِ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْعَجِيبَتَيْنِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ.

وَلَمَّا كَانَ النَّهَارُ هُوَ الَّذِي يَنْهَجُمُ عَلَى اللَّيْلِ لِيَغْشَاهُ فَيَسْتُرُهُ بَضِيَائِهِ، إِذْ يَبْدُو لِلْأَنْظَارِ أَنَّ الشَّمْسَ مَتَى أَشْرَقَتْ سَتَرَتِ اللَّيْلَ، وَإِذَا غَرَبَتْ ذَهَبَ النَّهَارُ وَظَهَرَ اللَّيْلُ. وَلَمَّا كَانَتِ الْحَرَكَةُ حَرَكَةً دَائِبَةً بِتَتَابُعٍ عَلَى تَوَالِي الْأَيَّامِ

والدُّهُور. كَانَ مِنَ الْبَرَاعَةِ فِي الْأَدَاءِ الْبَيَانِي تَصْوِيرُ أَنَّ النَّهَارَ هُوَ الَّذِي يَطْلُبُ
الَّيْلَ دَوَامًا مُسْرِعًا جَادًّا، لِيَغْشَاهُ فَيَسْتُرَهُ.

فَمَا أَبَدَعَ غَشِيَانَ النَّهَارِ لِظُلْمَةِ اللَّيْلِ فِي حَرَكَةِ دَائِبَةٍ دَائِرِيَّةٍ، لَا تَخْرِمُ
أَوْصَافَهَا، وَلَا مَقَادِيرَهَا.

تَبَارَكَ مَنْ اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعًا.

● ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾: أَي: وَخَلَقَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ، حَالَةً كَوْنِيَّهَا مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ،
لَأَدَاءِ وَظَائِفِهَا الْمَفْصَلَةِ الْمِيَنَةِ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ضِمْنَ مجاري سُنَّهِ.

التَّسْخِيرُ: جَعَلَ الشَّيْءَ مُطَاوِعًا مُنْقَادًا بِمَا فُطِرَ عَلَيْهِ مِنْ طَبِيعَةٍ، لِمَا هُوَ
مُسَخَّرٌ لَهُ، أَوْ لِمَنْ هُوَ مُسَخَّرٌ لَهُ، كَتَسْخِيرِ الْمَاءِ وَالنَّارِ وَالْهَوَاءِ.

وَقَدْ تَكُونُ مُطَاوَعَةُ الْمُسَخَّرِ بِالْقُوَّةِ وَالتَّذْلِيلِ، كَتَسْخِيرِ الْعِجَمَاوَاتِ
لِلْإِنْسَانِ. وَقَدْ تَكُونُ بِالِاخْتِيَارِ الْحَرِّ لِمَا فِي الْمَطَاوَعَةِ مِنْ مَصْلَحَةٍ لِلْمَطَاوِعِ،
كَاتِّخَاذِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخْرِيًّا.

وَمِنَ الْمَشْهُودِ أَنَّ الشَّمْسَ تَعْمَلُ مُسَخَّرَةً دَوَامًا فِي حَرَكَتِهَا، وَبَتْ
ضِيَائُهَا إِلَى الْأَرْضِ، وَإِلَى الْقَمَرِ لِمَنَافِعِ سُكَّانِ الْأَرْضِ، وَأَنَّ الْقَمَرَ مُسَخَّرٌ
دَوَامًا فِي حَرَكَتِهِ، وَبَتْ نُورُهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَتَزَايِدُ أَهْلِيَّتِهِ وَتَنَاقُصِهَا، لِمَنَافِعِ
سُكَّانِ الْأَرْضِ، وَأَنَّ النُّجُومَ الْمَشْهُودَةَ لَنَا مُسَخَّرَاتٌ يَهْتَدِي بِمَوَاقِعِهَا وَحَرَكَتِهَا
سُكَّانُ الْأَرْضِ.

إِنَّ الْحَيَاةَ بِكُلِّ مَظَاهِرِهَا فِي الْأَرْضِ مُرْتَبِطَةٌ بِسَبَابِهَا بِضِيَاءِ الشَّمْسِ،
وَهِيَ مُسَخَّرَةٌ بِعَيْنَايَةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ تَسْخِيرًا عَجِيبًا ضِمْنَ
نِظَامٍ دَقِيقٍ لِمَنَافِعِ الْأَخْيَاءِ فِي الْأَرْضِ، فَلَا تَخْرِمُ نِظَامُهَا قَيْدَ شُعْرَةٍ.

وَلِأَنَّ الْقَمَرَ مُسَخَّرٌ ضِمْنَ نِظَامٍ دَقِيقٍ جِدًّا، لَبَتْ نُورُهُ الْمَتَدَرِّجَ مِنْ

الْأَهْلَةَ حَتَّىٰ يَكُونَ بَذْرًا كَامِلًا، وَالْمَتَنَاقِصِ إِلَى الْأَهْلَةِ حَتَّىٰ الْمَحَاقِ.

وبالشمس والقمر يعلم الناس عدد السنين وحساب الأشهر والأيام،
وبالشمس يعلم الناس حساب ساعات اليوم ودقائقها، والقمر مسخر بما فيه
من جاذبية لحركتي المد والجزر في البحار.

وبالنجوم يهتدي الناس في طرقات البر والبحر ليلاً، لأنها مسخرات
ضمن نظام دقيق لا تخرمه.

إلى غير ذلك من تسخيرات يكشفها الباحثون من علماء الظواهر
الكونية، وهذه التسخيرات هي من نعم الله على الناس في الأرض، وعنايته
بهم، وقد تحققت بأمر الله عز وجل، ونحن نعلم من بيانات الله في
كتابه، أنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن، فهو يكون على مراد الله، وقد
أراد جل جلاله وعظم سلطانه، فأمر أمره التكويني، فكان ما هو كائن في
الوجود.

● ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ :

بعد البيان الذي وجه الله عز وجل فيه الناس للتفكير ببعض آثار
صفاته الجلية العظيمة في كونه، لأن هذه الآثار دالات على بعض صفاته،
التي يلزم عقلاً من إثباتها إثبات ذاته، إذ الصفات لا بد لها من موصوف
بها، أبان جل جلاله أن من له الخلق فلا بد أن يكون له الأمر، وهذه
قضية عقلية لا نقض لها.

● ﴿أَلَا﴾ : أداة استفتاح وتنبية، وقد جاءت هذه الجملة مبدوءة بها
إشعاراً بأن ما يأتي بعدها أمر خطير، وعلى المتقين الاهتمام به جداً.

● ﴿لَهُ الْخَلْقُ﴾ : له وحده لا شريك له ملك جميع المخلوقات، إذ
هو خالقها، والمتصرف فيها، والمدير لأمرها، ومن ضمنها الملائكة والجن
والإنس.

لفظ «الْخَلْق» هو في الأصلِ مصدرٌ «خَلَقَ». وَيُطْلَقُ على المخلوق، وبدخول «ال» الاستغرافية صار لفظ «الْخَلْقِ» يَعُمُّ كُلَّ المخلوقات، أي: كُلَّ الكائناتِ سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَيَلْزَمُ عقلاً من كَوْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مالِكاً كُلِّ ما في الوجودِ سِوَاهُ، لِأَنَّ كُلَّ ما في الوجودِ خَلَقَ من خلقه، أَنْ يكونَ له وَخَدَهُ كُلَّ الأمرِ.

ويعُمُّ لفظ «الأمرِ» أمرَ التكوينِ لإيجاداً وإعداماً، وتحريكاً وإسكاناً، وتَضَرِيفاً وَتَبْدِيلًا وتحويلاً، وَجَمْعاً وَتَفْرِيقاً، وغير ذلك من تَصَارِيفَ.

ويعُمُّ لفظ «الأمرِ» أمرَ التكليفِ لذوي الطاعةِ بالفطرة، وهم الملائكة، وَلِمَنْ مَكَّنَهُمْ جَلَّ جلاله بمقتضى الأسبابِ والمسببات، من طاعته ومَعْصِيته، بما سَخَّرَ لَهُمْ، إِذْ خَلَقَهُمْ لِيَمْتَحِنَهُمْ فيما آتَاهُمْ، وهم فيما أَعْلَمَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ.

وبما أَنَّ أَمْرَ التَّكْلِيفِ هو في الأصلِ لَهُ وَخَدَهُ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ على عِبَادِهِ ذَوِي الْعِلْمِ، أَنْ يُطِيعُوهُ في أوامره ونواهيه، وَأَنْ يَطِيعُوا مَنْ يَأْمُرُهُمْ بِطَاعَتِهِ، وَأَنْ يَغْضُوا مَنْ يَأْمُرُهُمْ بِمَعْصِيَتِهِ، فهذا حَقُّ الْخَالِقِ الْمَالِكِ على عِبَادِهِ بَدَاهَةٌ.

● وبما أَنَّ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ ذُوو إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ، لِحِكْمَةِ الْإِبْتِلَاءِ الْمُسْتَتَبِعِ لِلْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، فَإِنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحَقِّقُوا عِبُودِيَّتَهُمْ لِلَّهِ بِإِرَادَتِهِمْ الْحُرَّةِ، في طاعتهم لأوامره ونواهيه، لِيَجْتَازُوا رِخْلَةَ امْتِحَانِهِمْ بِنَجَاحٍ، فَيَنَالُوا مَا وَعَدَهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ مِنْ ثَوَابٍ جَزِيلٍ يَوْمَ الدِّينِ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَحَيَاةٍ طَيِّبَةٍ في الدُّنْيَا، وَيَخْمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ.

ومن تحقيقِ عِبُودِيَّتِهِمْ لَهُ، أَنْ يَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْهُ، إِذْ هُوَ وَخَدَهُ رَبُّهُمْ وَمَالِكُهُمْ وَمَالِكُ أَمْرِهِمْ كُلِّهِ، وَأَنْ لَا يَتَّبِعُوا مِنْهُ دُونَهُ أَوْلِيَاءَ.

وهذا هو الخطُّ الأعظم الذي سارت عليه أكثر آياتِ سورة (الأعراف) ودروسها.

هذا البيان الذي اشتملت عليه عبارة: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، قد جاء بمثابة تعليلٍ عقليٍّ مُتَّصِمِينَ حُجَّةً برهانيَّةً للتكليف الذي جاء في أوائل هذه السورة، بقوله تعالى خطاباً لكلِّ الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

وقد عرفنا أن هذه الآية تُمَثِّلُ الخطَّ الأعظم من خُطوطِ موضوع السورة.

● .. تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ ﴿٥٤﴾ :

بَعْدَ بيان أن مَنْ لَهُ وَحْدَهُ الْخَلْقُ مِلْكاً وَتَصَرُّفاً، فَلَهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ كُلُّ الْأَمْرِ، وَمِنْهُ أَمْرُ التَّكْلِيفِ الشَّامِلِ للتكليف بالفعل والتكليف بالتَّزَكُّ، كَانَ من الحكمة البيانيَّة تأكيدُ القاعدةِ الاعتقاديَّةِ الكُبْرَى، الَّتِي تُبْنَى عليها قضايا السُّلُوكِ الدِّينِيِّ كُلُّهَا.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ : أَي: تَرَايَدَ وتنامى وتعاضَمَ في صفاتِ كماله فوق كُلِّ ما يتصوَّرُ الْمُتَصَوِّرُونَ، وَيَتَوَهَّمُ المتوهمون، وَيَصِفُ الواصفون.

تَبَارَكَ: على وزن «تَفَاعَلَ» من الْبَرَكَةِ، وهي في اللِّغَةِ النَّمَاءُ والزِّيَادَةُ، سواءً أَكَانَتْ مَادِّيَّةً تُذَرَكُ بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ، أَمْ غَيْرَ مَادِّيَّةٍ مِمَّا يُذَرَكُ بِالْحَوَاسِّ الْبَاطِنَةِ.

قال الزجاج من علماء اللِّغَةِ: الْبَرَكَةُ هي الْكَثْرَةُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

أقول:

البركةُ وَكُلُّ تصاريِفِ هذه المادَّةِ في نُصُوصِ الْقُرْآنِ والسُّنَّةِ تَدُلُّ على

الزيادات التي تأتي من وراء المنظور، دون أن تُدرَك لها حدود، فهي فيضٌ من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، أو زيادات في عالم الغيب بلا حدود. وفي عبارة ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ ثناء من الله عز وجل على نفسه لِيَعْلَمَنَا صفاته، وَلِيَقْدَمَ لَنَا الدَّلِيلَ عَلَيْهَا من آياته في كَوْنِهِ، وفيما أُنزِلَ على رسوله، فَيَصِفُ نَفْسَهُ جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سلطانه، بأنه «تَبَارَكَ» أي: تنامى وتزايد وتعاضم بالإطلاق العام، عن كل ما يَصِفُهُ به الواصفون من كمالات. وهذا يدلُّ على أنه مَتَّصِفٌ بِكُلِّ صفات الكمال، وَيَلْزَمُ عقلاً من اتصافه بصفات الكمال تَنَزُّهُهُ عَنِ كُلِّ صفات النقصان.

﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: تبارك الله رَبُّكُمْ الَّذِي هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، والمراد بالعالمين هنا كُلُّ ما سِوَى الله من موجودات حاضرات أو غابرات، أو سَتُوجَدُ أو سَوْفَ تُوجَدُ في المستقبل^(١)، فَمَا يُوَجَدُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَاللَّهُ وَخَدَهُ هُوَ رَبُّهُ جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سلطانه.



● قول الله عز وجل:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْمُتَعَدِّينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

بَعْدَ تَغْرِيفِ المقصودين بالخطاب برَبِّهِمْ، وأنه هو الذي يُسَمُّونَهُ «اللَّهُ»، وَيَعْدُ ذِكْرَ بَعْضِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ، الدَّالَّاتُ على طَائِفَةٍ مِنْ صفاته الجليلة، والثناء العظيم عليه، وبأنه رَبُّ الْعَالَمِينَ، اقتضت الحكمة البيانية ذِكْرَ بَعْضِ تَفْصِيلاتٍ مِمَّا أُنزِلَ لِلنَّاسِ مِنْ رَبِّهِمْ، مِمَّا طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهَا، وهو ما جاء في الآية (٣) من السورة.

(١) وقد يقصد بالعالمين أحياناً الإنس، وقد يقصد الإنس والجن، وقد يُقْصَدُ الإنس والجنُّ والملائكة، والقرائن هي التي تُدَلُّ على المراد.

وقد اشتمل النصُّ في هاتين الآيتين (٥٥ و ٥٦) على بيان أَرْبَعِ قضايا تعليمية يطالبُ الله عباده باتِّباعها، وعلى قضية تَرْغيبية وَعَدَ الله فيها بأن تكونَ رَحْمَتُهُ قَرِيباً من المحسنين.

القضية الأولى: دَلَّ عليها قولُ الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾:

﴿ادْعُوا﴾: أي: اسألوا واطلبوا، يقال لُغَةً: دَعَاهُ يَدْعُوهُ دُعَاءً وَدَعْوَى وَدَعْوًا وَدَعْوَةً، أي: سَأَلَهُ وَرَغِبَ إِلَيْهِ وَطَلَبَ مِنْهُ.

﴿رَبَّكُمْ﴾: أي: الله الذي سَبَقَ بيان بعض آياته في خلقه، فهو خالقكم والمهيمن عليكم دوماً برُبوبِيَّتِهِ التي سبق شرحها.

﴿تَضَرُّعًا﴾: التَضَرُّعُ هو التَذَلُّلُ والخضوع، وأضله من خَفَضٍ وَلَدٍ ذاتِ الضَّرْعِ كالحَمَلِ والفَصِيلِ رَأْسَهُ لِضَرْعِ أُمِّهِ حَتَّى يَرْضَعَ مِنْ ثَدْيَيْهَا، وَهِيَ عِنْدَئِذٍ تَحْنُ عَلَيْهِ فَيَذُرُ لَبَنُهَا.

﴿وَخُفْيَةً﴾: الخُفْيَةُ والخِفْيَةُ بضم الخاءِ وَكسرِها، الإسرار، فمن أدبِ الدُّعاءِ لله عزَّ وجلَّ أن يكونَ دعاءٌ في السِّرِّ، لا في الجَهْرِ، لأنَّ الإسرارَ بالعبادةِ أَبْعَدُ عن الرِّياءِ المُخِيطِ للعمل، ولأنَّ اللهَ جلَّ جلاله عَلِيمٌ بمطالبِ عِبَادِهِ الخُفْيَةِ، سَمِيعٌ لِهَمَسَاتِهِمْ مَهْمَا كَانَتْ خَافِتَةً، لا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ دُعَائِهِمْ شَيْءٌ، فَمِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ أَنْ يُسَارَوْهُ وَيُتَاجَوْهُ فيما يدعونه به.

والمعنى: اسألوا الله الذي هُوَ رَبُّكُمْ يُمِدُّكُمْ دوماً بعهادات رُبوبِيَّتِهِ، في كُلِّ أُمُورِكُمْ، سواءً منها ما تجدون أسبابه مسخرةً لَكُمْ بيسرٍ، أم لا تَتيسَّرُ لَكُمْ أسبابه، فَهُوَ خَالِقُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ، وَدَعَاؤُكُمْ لَهُ هُوَ أَوَّلُ تعبيرٍ تلقائيٍّ عن عبادتِكُمْ لَهُ، مَتَى صَحَّ إيمانُكُمْ به، وبأنَّه مالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وبأنَّه المتَصَرِّفُ بخلقِهِ، وبأنَّه لَا يَكُونُ شَيْءٌ في الوجودِ إِلَّا بأَمْرِهِ وَخَلْقِهِ، أَوْ بِإِذْنِهِ وتمكينِهِ وتسخيره للأسبابِ، وبهديته ومَعُونَتِهِ.

والعبادة لله عزَّ وجلَّ ترجع إلى ثلاثة أصولٍ أساسية.

الأصل الأول: الدعاء.

الأصل الثاني: طاعة الله بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

الأصل الثالث: التقرب إلى الله عز وجل بمحابه من أفعال وتروك، ولو لم يكلفنا التزامها.

والدعاء الذي هو الأصل الأول، هو ثمرة الإيمان بأن الله عز وجل هو خالق كل شيء، والمتصرف في كل شيء، والقدير على كل شيء، والفعال لما يشاء ويختار. وثمره الإيمان بأن كل من سوى الله جل جلاله لا يملك لنفسه جلب نفع ولا دفع ضرر، فضلاً عن أن يملك شيئاً من ذلك لغيره. وثمره الإيمان بأن الله تبارك وتعالى رحيم بعباده، وبأنه سميع مجيب، وبأنه يجيب على وفق مقتضى حكمته، دغوة الداعي إذا دعا، مؤمناً به، مخلصاً له في دغوته، لا يشرك بعبادته له في الدعاء أحداً.

ولما كان الله عز وجل قريباً من عباده، يعلم همساتهم ويسمعهم، ويعلم خاطرات أفكارهم، وحركات نفوسهم وقلوبهم، لم يكن بحاجة إلى مناداته برفع الصوت.

ولما كانت طبيعة الدعاء تتضمن استجداء عطاء من جود الله ورحمته، كان من لوازم أدب الدعاء التضرع لله معه، وخفض الصوت في الطلب، لأنه سبحانه وتعالى ليس بعيداً عن عباده حتى يتأدوه برفع أصواتهم.

ولهذا أبان الله عز وجل أدب عبده النبي زكريا في دُعائه ربه، بأنه ناداه نداء خفياً، فقال تعالى في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ۚ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝﴾

القضية الثانية: دل عليها قول الله تعالى: ﴿... إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ

الْمَعْدِيك ۝﴾

أي: وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. الضمير في إِنَّهُ يَعُودُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَالَّذِي هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وقد أغنَتْ عبارة: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ عن التَّضْرِيحِ بعبارة: «وَلَا تَعْتَدُوا»، فَمِمَّا هُوَ مِنَ اللَّوَاظِمِ الَّتِي تُذَكِّرُ ذَهْنًا بِالْبَدِيهَةِ أَنَّ مَنْ لَا يُحِبُّهُ الرَّبُّ الْخَالِقُ لَصِفَةٍ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَا يُحِبُّهُ لِأَنَّهُ مُخَالَفٌ لِمَا كَلَّفَهُ إِيَّاهُ، فَقَعَلَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ وَأَمَرَهُ بِتَرْكِهِ أَوْ اجْتِنَابِهِ، أَوْ تَرَكَ مَا أَمَرَهُ بِفِعْلِهِ.

المُعْتَدِي: هُوَ الَّذِي يَظْلِمُ غَيْرَهُ فِي حَقٍّ مِنْ حُقُوقِهِ الْمَادِّيَّةِ أَوْ الْمَعْنَوِيَّةِ، فَالظُّلْمُ فِي الْحَقُوقِ الْمَالِيَّةِ مِنَ الْاِغْتِدَاءِ، وَالظُّلْمُ فِي الْحَقُوقِ الْجَسَدِيَّةِ وَالنَفْسِيَّةِ مِنَ الْاِعْتِدَاءِ.

وَفِعْلُ مَا نَهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ فِعْلِهِ، وَتَرَكَ مَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِفِعْلِهِ مَعَ الْاِسْتِطَاعَةِ مِنَ الْاِعْتِدَاءِ عَلَى حَقِّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ.

وشهادة الزور من الاعتداء على حَقٍّ مَنْ كَانَتْ الشَّهَادَةُ ضِدَّهُ.

ومضارة الزوجة بِإِمْسَاكِهَا بَعْدَ طَلَاقِهَا وَقُزْبِ أَجَلِ عِدَّتِهَا لَمَنْعِهَا مِنْ أَنْ تَتَزَوَّجَ زَوْجًا آخَرَ هُوَ مِنَ الْاِعْتِدَاءِ.

وتحريم ما أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ هُوَ مِنَ الْاِعْتِدَاءِ عَلَى حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ وَخَدَهُ الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَلَهُ الْأَمْرُ.

وتجاوزُ حُدُودِ اللَّهِ فِي الْأَخْكَامِ هُوَ مِنَ الْاِعْتِدَاءِ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

والإشراكُ بِاللَّهِ طُلْمٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ مِنَ الْاِعْتِدَاءِ عَلَى حَقِّ اللَّهِ فِي الْإِيمَانِ بِأَنَّهُ وَاحِدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَوَاحِدٌ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَهُوَ مِنْ كِبَائِرِ أَنْوَاعِ الْاِعْتِدَاءِ الشَّدِيدَةِ الْقُبْحِ، وَشَرُّ مِنْهُ جُحُودُ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ وَجُحُودُ إِلَهِيَّتِهِ.

إلى غير ما سَبَقَ ذِكْرُهُ من أنواعِ وَصُورٍ تَدْخُلُ في مفهومِ العُدْوَانِ على الحقوقِ، ومنها الدُّعَاءُ بما لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بالدُّعَاءِ به، ومنها دُعَاءُ غيرِ اللَّهِ في غَيْرِ الْأُمُورِ السَّبِيَّةِ الكُونِيَّةِ، كدُعَاءِ الجِنِّ أو الملائكةِ أو الأوثان أو نحو ذلك.

واجتنابُ الاعتداءِ يَدْخُلُ في عُمومِ الأصلِ الثاني من أصولِ عِبَادَةِ العبادِ لربِّهم، وهو طاعته جلَّ جلاله بفعلٍ ما أَمَرَ به، وترك ما نَهَى عنه.

القضية الثالثة: دَلَّ عليها قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾:

الإصلاح: الإِثْنَانُ بما هُوَ صالحٌ نافعٌ.

والإفساد: الإِثْلَافُ، وتحويلُ الشَّيْءِ من كونه صالحاً نافعاً، إلى كونه غير صالحٍ ولا نافعٍ، بل رُبَّمَا يَصِيرُ ضاراً كَرِيهاً مُفْسِداً لِلْأَشْيَاءِ النافعة.

إِنَّ إِصْلَاحَ الْأَرْضِ الْبُورِ الَّتِي لَا زَرْعَ فِيهَا، يَكُونُ بِزَرَاعَتِهَا، أو تَهْيِئَتِهَا لتَكُونُ صَالِحَةً لِلزَّرَاعَةِ، ويكونُ بَغْرِسِ الشَّجَرِ فِيهَا، وتَمْهيدِ طُرُقِهَا، وإِجْراءِ أَنْهَارِهَا.

ومن إِصْلَاحِ الْأَرْضِ إِقَامَةُ الْجُسُورِ، وبناءُ السُّدُودِ لتجميعِ المياهِ وراءِها، وَحَفْرُ الْآبَارِ، وبناءُ الْمَسَاكِنِ مُزَوَّدَةً بِمُخْتَلِفِ مرافِقِ الْحَيَاةِ، معِ إِنْشَاءِ كُلِّ ما تَتَطَلَّبُهُ الشُّرُوطُ الصَّحِيَّةُ من المجاري، والحدائق التي هي في المَدُنِ والقرى بمثابة رِثَائِ التَّنْفُوسِ، وكذلك المَلَاعِبُ الرِّيَاضِيَّةِ، وميادينِ الفروسيَّةِ، ومراكزُ التدريبِ العسكريِّ، ومراكزُ التدريبِ المهنيِّ، والتدريبِ الصَّنَاعِيِّ والزَّرَاعِيِّ، ومراكزُ التدريبِ على التمرِيزِ والإسعافاتِ الأوليَّةِ، وإنْشَاءِ الْأَسْوَاقِ التِّجَارِيَّةِ المختلفةِ.

وفي مُقَدِّمَةِ إِصْلَاحِ الْأَرْضِ بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ فِيهَا، وبناءُ المدارسِ ودُورِ الْعِلْمِ على اختلافِ مستوياتِها، وعلى مقدارِ الحاجاتِ

المتزايدات مع التكاثر البشري، وإقامة مؤسسات الدَّغْوَةِ إلى الله، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، ومؤسسات الخدمات الاجتماعية.

والنهي عن الإفساد في الأرض بَعْدَ إصلاحها يَدُلُّ بِمَنْطوق اللَّفْظِ على النهي عن كلِّ عملٍ يُفْضِي إلى إفساد آيَةٍ مُنْشَأَةٍ أُقِيمَتْ لخدمَةِ مصالح العباد على الأرض، كتخريب المساكن لا لإعادة بنائها على وَجْهِ أَفْضَلٍ وَأَحْسَنٍ، وكتخريب المزارع والمصانع وخَزَانَاتِ المِيَاهِ، وَكإِخْرَاقِ آبَارِ الثَّقَطِ، وإفساد الطَّرِيقِ.

ومن أَقْبَحِ صُورِ الإفساد في الأرض مَنَعُ مَسَاجِدِ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَالسَّغْيُ فِي خَرَابِهَا، وَإِعْلَاقُ مَدَارِسِ التَّعْلِيمِ، وَلَا سِيَمَا التَّعْلِيمُ الدِّينِي، وَالنَّعَاءُ أَوْ حُلُّ الْجَمْعِيَّاتِ الْخَيْرِيَّةِ النَّافِعَةِ.

وَيَدُلُّ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بِمَفْهُومِهِ مِنْ وَرَاءِ مَنْطوق اللَّفْظِ على الأمرِ بِإِصْلَاحِ الْأَرْضِ بِكُلِّ عَمَلٍ يُؤَدِّي إِلَى إِقَامَةِ مُنْشَأَةٍ مَادِّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ، ذَاتِ وَظِيفَةٍ إِصْلَاحِيَّةٍ نَافِعَةٍ لِلْعِبَادِ، فِي أُمُورِ دُنْيَاهُمْ وَأُمُورِ آخِرَتِهِمْ، فَأَغْنَى النَّهْيُ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ عَنِ الْأَمْرِ بِإِصْلَاحِهَا.

إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ اسْتَعْمَرَنَا فِي الْأَرْضِ، أَي: طَلَبَ مِنَّا أَنْ نَعْمُرَهَا وَنُصْلِحَ فِيهَا، لَدُنْيَانَا وَلآخِرَتِنَا بِحَسَبِ حَاجَاتِنَا، وَحَرَمَ عَلَيْنَا أَنْ نَأْتِيَ إِلَى مَا تَمَّ إِصْلَاحُهُ مِنْهَا فَتُفْسِدَهُ وَنُخَرِّبَهُ، دُونَ تَحْقِيقِ مَصْلَحَةٍ أَرْجَحَ لِلدِّينِ أَوْ لِلدُّنْيَا، وَإِصْلَاحِ الْأَرْضِ إِنَّمَا يَكُونُ مَأْمُوراً بِهِ إلْزَاماً أَوْ تَرْغِيباً، إِذَا كَانَ ضَمِنَ مَنَهِجَ اللَّهِ أَوْ مَا أُذِنَ بِهِ لِعِبَادِهِ.

أَمَّا طُغَاةُ الْأَرْضِ وَجَبَابِرَتُهَا فَإِنَّهُمْ مُفْسِدُونَ غَيْرُ مُصْلِحِينَ، وَكَذَلِكَ فُسَّاقُ النَّاسِ كَالْيَهُودِ فَإِنَّهُمْ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِمُؤَسَّسَاتِهِمُ الْفَاجِرَةِ، كَدُورِ الزَّنا، وَبُيُوتِ الْقَمَارِ، وَالْبُنُوكِ الرِّبَوِيَّةِ.

وَشَرُّ الْمَفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي هَذِهِ عَقَائِدَ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَإِكْرَاهِ النَّاسِ عَلَى تَرْكِ عِبَادَةِ اللَّهِ جُلَّ جَلَالُهُ، وَإِلْزَامِهِمْ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ. وَتَشْرِيقِ الْفِسْقِ وَالْفُجُورِ وَأَنْوَاعِ الْفَوَاحِشِ، وَالْمَجَاهِرَةِ الْوَقْحَةِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وبهذا البيان الرباني نلاحظ أنَّ الأمرَ بعمران الأرض، والنَّهْيَ عن الإفساد فيها بَعْدَ إصلاحها، من قضايا الدين الذي اصطفاه الله للنَّاسِ مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ حَتَّى خاتمة رسالاته لعباده، بِبِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وبما أنزل عليه وأوحى به إليه.

وبالتأمل نلاحظ أنَّ العملَ في استِصلاح الأرضِ على ما يُرضي الله عزَّ وجلَّ، واجْتِنَابِ الإفسادِ في الأرضِ لما استُصْلِحَ مِنْهَا، يَدْخُلُ بَعْضُهُ فِي الْأَصْلِ الثَّانِي مِنْ أَصُولِ عِبَادَةِ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ، وَهُوَ طَاعَةُ اللَّهِ جُلَّ جَلَالُهُ، بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ أَوْ أَمَرَ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ إِلْزَامًا، وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ أَوْ نَهَى عَنْهُ رَسُولُهُ إِلْزَامًا. وَيَدْخُلُ بَعْضُهُ الْآخِرُ فِي عُمومِ الْأَصْلِ الثَّالِثِ مِنْ أَصُولِ عِبَادَةِ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ، وَهُوَ التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَحَابَةِ مِنْ أَعْمَالٍ وَتَرْكِ وَنَزْوٍ لَمْ يُكَلِّفْنَا التَّزَامَهَا.

القضية الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾:

إِنَّ الْأَمْرَ بِدُعَاءِ اللَّهِ الرَّبِّ جُلَّ جَلَالُهُ، الَّذِي جَاءَ فِي الْقَضِيَّةِ الْأُولَى، قَدْ كَانَ مُوجَّهًا لِبَيَانِ أَدَبِ الدُّعَاءِ، وَهُوَ أَنَّ يَكُونَ مَصْحُوبًا بِتَضَرُّعٍ وَتَذَلُّلٍ لِلرَّبِّ الْخَالِقِ الْمُنْعَمِ الْمَتَفَضِّلِ، وَأَنْ يَكُونَ مَنَاجَاةً لَهُ فِي السِّرِّ، دُونَ صِيَاحٍ وَضَجِيجٍ وَرَفْعِ صَوْتٍ، إِلَّا فِي بَعْضِ أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ يُقْصَدُ بِهَا إِشْرَاكُ الْجَمَاعَةِ، وَتَبْلِيغُهُمْ عِبَارَاتِ الدُّعَاءِ، حَتَّى يُرَدِّدُوهَا فِي السِّرِّ، أَوْ يُؤْمِنُوا عَلَيْهَا، فَيَقُولُوا: آمِينَ.

أَمَّا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فَهُوَ مُوجَّهٌ لِبَيَانِ

الْمُخَوَّرِينَ اللَّذِينَ تَدُورُ عَلَيْهِمَا حَرَكََةُ النَّفْسِ، وَهُمَا «مُخَوَّرُ الْخَوْفِ» و«مُخَوَّرُ الطَّمَعِ».

إِنَّ الْإِنْسَانَ فِي حَالَةٍ وَغَيْهِ لَا يَخْلُو غَالِباً مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي إِحْدَى حَالَتَيْنِ: إمَّا أَنْ يَكُونَ خَائِفاً مِنْ شَيْءٍ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ طَامِعاً بِشَيْءٍ، وَقَدْ يَجْتَمِعَانِ الْخَوْفَ وَالطَّمَعُ^(١).

وَتَدُورُ دَوَائِرُ الْخَوْفِ وَالطَّمَعِ بِحَرَكَةِ شِبْنِهِ دَائِمَةٍ، إِذْ تَكَادُ لَا تَنْقَطِعُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ، فَهُوَ غَالِباً إمَّا خَائِفاً وَإِمَّا طَامِعاً، وَإِمَّا خَائِفاً وَطَامِعاً مَعاً، وَكَثِيرٌ مِمَّا يَخَافُهُ الْإِنْسَانُ لَا يَمْلِكُ أَسْبَابَ دَفْعِهِ، وَكَثِيرٌ مِمَّا يَطْمَعُ فِيهِ لَا يَمْلِكُ أَسْبَابَ الْحُصُولِ عَلَيْهِ، وَلَا يَنْتَهِي الْإِنْسَانُ مِنْ تَحْقِيقِ مَرْغُوبٍ لِنَفْسِهِ، إِلَّا تَجَدَّدَ لَدَيْهِ مَرْغُوبٌ فِيهِ آخَرٌ لِلْمُسْتَقْبَلِ.

وقد أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ أَمَرَ تَرْغِيبٍ، بِأَنْ يَدْعُو رَبَّهُمْ عِنْدَ حَاجَتِهِمْ فِي مُخْتَلِفِ أَحْوَالِهِمْ، خَائِفِينَ أَوْ طَامِعِينَ.

وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ لَا تَخْلُو لِحِظَاتٍ وَغَيْهِ غَالِباً مِنْ أَنْ يَكُونَ خَائِفاً أَوْ طَامِعاً، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَكُونَ دَاعِياً رَبَّهُ مَعَ كُلِّ خَوْفٍ وَطَّمَعٍ، طَالِباً مِنْهُ دَفْعَ مَا يَخَافُهُ مِنْ مَكَارِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْحَهُ مَا يَطْمَعُ فِيهِ مِنْ مَحَابِّ الدُّنْيَا الَّتِي لَا مَعْصِيَةَ لِلَّهِ فِيهَا، وَمِنْ مَحَابِّ الْآخِرَةِ، وَهِيَ النِّجَاةُ مِنْ عَذَابِهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَالظَّفَرُ بِالسَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ.

وَإِذَا تَحَقَّقَ الْمُؤْمِنُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ بِالْدُّعَاءِ دَوَاماً، فِي حَالَتِي الْخَوْفِ وَالطَّمَعِ، مُلتَزِماً آدَابَ الدُّعَاءِ، كَانَ فِي عِبَادَةِ الدُّعَاءِ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، إِذْ يَرْتَقِي فِي سُلْمِ هَذِهِ الْعِبَادَةِ إِلَى مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ.

وعِبَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْدُّعَاءِ مِنْ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ، تَدْخُلُ فِي عَمُومِ

(١) هذه القضية تُسَمَّى عند علماء المنطق مانعة خلو.

الأصل الثالث من أصول عبادة العباد لربهم، وهو التَّقَرُّبُ إلى الله بمحابه، فالله جلَّ جلاله يُحِبُّ من عباده أن يَدْعُوهُ، ما تَجَدَّدَتْ لديهم مطالب من مَخَوِرِ الخوف، أو مِنْ مَخَوِرِ الطَّمَع، إذ الدُّعَاءُ هُوَ التَّغْيِيرُ الدائم عن صِحَّةِ الإيمان، وصِدْقِ التَّوَجُّه لِلَّهِ، ولهذا جاء في أقوال الرسول ﷺ أَنَّ الدُّعَاءَ من العبادة، أو هو مُخُّ العبادة.

وفي سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) ذكر الله عزَّ وجلَّ طائفة من الرُّسل، وَبَعَدَ ذلك أثنى عليهم بقوله تعالى:

﴿...إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

القضية الخامسة: هي قَضِيَّةُ تَرْغِيبِيَّةٍ في أن يكونَ المؤمنُ في عبادته لربه مِنَ المحسنين، الَّذِينَ ازْتَقَوْا فَوْقَ سَفَفِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى، واجتازوا سَفَفَ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، وَدَخَلُوا فِي درجَاتِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ.

وقد دَلَّ على هذه القضية الترغيبية قول الله تعالى: ﴿...إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يُفِيضُ عَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ دُونَ إِبْطَاءِ لعباده المحسنين، لِأَنَّ رَحْمَتَهُ جَلَّ جلاله وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ قَرِيبَةٌ مِنْهُمْ. وكلُّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادَاتِ لِلَّهِ، ومنها عبادة الدُّعَاءِ، لَهُ ثلاث مراتب: مرتبة التقوى، وَمَرْتَبَةُ الْبِرِّ، وَمَرْتَبَةُ الْإِحْسَانِ.

والإحسانُ هو أَعْلَى المراتب التي يرتقي إليها الصالحون المؤمنون، ودون مرتبة الإحسان مرتبة البرِّ، وهي التَّوَشُّعُ في مرضي الله من التَّوَافُلِ، ودون مرتبة البرِّ مرتبة التقوى، وَتَحَقُّقُ التَّقْوَى بِفِعْلِ ما أَمَرَ اللَّهُ به إلزاماً، وَتَرْكُ ما نَهَى اللَّهُ عنه إلزاماً.

أما الإحسان الذي هو أعلى المراتب، فهو أن تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ.



• قول الله عز وجل:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ
سَحَابًا نَقَّالًا سَفَقْنَاهُ لِيلًا رَمِيمًا فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّنِيبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ
وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

تمهيد:

في هاتين الآيتين عَوْدٌ إلى عَرْضِ بعض آيات الله في كَوْنِهِ، التي هي
من مظاهر رُبُوبِيَّتِهِ، وَعِزَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ بعبادِهِ، وهذا العَوْدُ موصولٌ بالآية (٥٤)
من هذا الدرس الخامس.

• قرأ ابنُ كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ
الرِّيَّاحَ﴾ بالإنفراد وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الرَّيَّاحَ﴾ بالجمع.

وقد يكونُ بَيْنَ القراءَتَيْنِ تكامل في أداء المعنى المراد، وذلك لأنَّ
الرِّيَّاحَ أنواعٌ وأصنافٌ تَزْجَعُ إلى شِدَّتِهَا، وَسُرْعَتِهَا، وطبقاتٍ حَرَكَتِهَا في
الجوِّ، ومَسِيرَاتِهَا المختلفة، وتَعَدُّ انْطِلَاقَاتِهَا مُتَسَايِرَةً أو مُتَعَارِضَةً،
وَجِهَاتِ انْطِلَاقِهَا مِنْ دَرَجَاتِ الدَّائِرَةِ المحيطةِ بالجهات الأربع.

وقد يُرْسِلُ اللهُ عزَّ وجلَّ الرِّيَّاحَ مُتَنَوِّعَةً وهو الغالب، وقد يُرْسِلُ
الرِّيَّاحَ، أي: نوعاً مفرداً من الرِّيَّاحِ ذوات الأنواع والأصناف.

فأَغْنَتْ القراءتان في الكلمة الواحدة: «الرِّيَّاح - الرِّيَّاح» عن جُمْلَتَيْنِ
تُكْرَرانِ في القرآن، وهذا من عناصر الإبداع في القرآن المجيد المعجز.

وقد سبقَ تَوْجِيهُُ القراءات في لفظة: ﴿بُشْرًا﴾ فلا حاجةً إلى الإعادة،
وكذلك في: [مَيِّت - وتَذَكَّرُونَ - ويَخْرُجُ - ونَكِدًا].

التدبر:

• ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ :

أي: وربُّكم الله هو الذي يُرْسِلُ الرِّيحَ مُبَشِّرَةً بِرَحْمَةِ اللَّهِ عِبَادَهُ بِالْغَيْثِ، وَيُرْسِلُهَا نَاشِرَةً السُّحُبَ وَاللِّقَاحَاتِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ تَتَحَقَّقُ بِبَشْرِهَا مَنَافِعَ وَمَصَالِحَ كَثِيرَةً لِلْعِبَادِ.

إِنَّ لِلرِّيحِ وَظَائِفَ مُتَعَدِّدَةً وَكَثِيرَةً، وَهِيَ حِينَمَا تُؤَدِّي وَظِيفَةً مَا مِنْ وَظَائِفِهَا فِي الْكَوْنِ، فَإِنَّهَا تُقَدِّمُ دَلَالَةً لِّلْمُتَفَكِّرِينَ عَلَى بَعْضِ صِفَاتِ مُرْسِلِهَا بِحِكْمَتِهِ، إِذْ هُوَ الْخَالِقُ الرَّبُّ الْقَدِيرُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، الْمُنْتَقِمُ الْجَبَّارُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي هِيَ لَهُ، وَالَّتِي لَهُ بِهَا الْحَمْدُ كُلُّهُ.

وقد وَزَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيَانَ كَثِيرٍ مِنْ وَظَائِفِ الرِّيحِ فِي الْكَوْنِ عَلَى نَيْفِ وَعِشْرِينَ نَصًّا وَسُورَةً، لِأَنَّ ظَاهِرَةَ الرِّيحِ فِي الْكَوْنِ مِنَ الظَّاهِرَاتِ الْكُبْرَى الَّتِي تَسْتَدْعِي لَفَتْ أَنْظَارِ الْمُتَفَكِّرِينَ إِلَيْهَا، مَعَ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنْوَاعِهَا وَوَظَائِفِهَا الْمُخْتَلِفَةِ، بِصُورَةٍ مُجَزَّاءٍ مُفْصَّلَةٍ، لَا بِصُورَةٍ عَامَّةٍ وَمُجْمَلَةٍ.

فَمِنْ وَظَائِفِهَا أَنَّهَا تَحْمِلُ لِلنَّاسِ الْإِنْعَامَ وَالْإِكْرَامَ، وَمِنْ وَظَائِفِهَا أَنَّهَا تَأْتِي بِنَذْرِ الْقَهْرِ وَالْإِنْتِقَامِ.

وَالنَّصُّ هُنَا فِي هَذَا الدَّرْسِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ، يَلْفِتُ أَنْظَارَ الْمُتَفَكِّرِينَ إِلَى بَعْضِ مَا تَحْمِلُ الرِّيحُ مِنْ إِنْْعَامِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى عِبَادِهِ رَحْمَةً بِهِمْ، فِي تَلْيِيقَةِ أَجَلٍ مُطَالِبِهِمْ فِي الْحَيَاةِ، أَلَّا وَهِيَ قَضِيَّةُ الرِّزْقِ وَتَسْيِيرِ أَسْبَابِهِ.

إِنَّ سَوْقَ الْأَرْزَاقِ لِلْعِبَادِ، وَتَهْيِئَةَ وَسَائِلِهَا وَأَسْبَابِهَا فِي تَصَارِيفِ الْكَوْنِ، هُوَ مِنَ الصِّفَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ ذَوَاتِ الْآثَارِ الْمُتَجَدِّدَةِ الْمُتَكَرِّرَةِ فِي الظَّاهِرَاتِ الْكَوْنِيَّةِ، فَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ الْمُؤَمِّدُ بِأَسْبَابِ بَقَاءِ الْأَحْيَاءِ أَحْيَاءً، وَقَدْ جَعَلَ سَبْحَانَهُ اسْتِمْرَارَ حَيَاتِهِمْ الْمَقْدَرَةَ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ لِكُلِّ مِنْهُمْ مُرْتَبَطًا بِأَرْزَاقِهِمْ،

وبما أنه هو ربُّهم الذي لا شريك له فقد تَكَفَّلَ بِتَهْيِئَةِ أسبابِ رِزْقِهِمْ، ومنها أنه جَلَّ جلاله خَلَقَ في ذَوَاتِهِمْ ما يَفْقِدُونَ به على تحصيل أرزاقهم، ممَّا هيأَ لهم في الأرض من نَبَاتٍ وَحَيوانٍ.

أما النباتُ فقد هيأَ لهم أسبابَهُ بُزُوراً وَتُرْبَةً مُنْبِتَةً، وَشَمْساً تُمدُّ بالطَّاقَةَ الحراريَّةَ التي لا بُدَّ منها بِحَسَبِ نظامِ اللّهِ السَّبَبِيِّ لظُهُورِ النِّبَاتَاتِ وَنُموها. ومن هذه الأسبابِ الماء، وقد جَعَلَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ للماءِ في الأرضِ خَزَاناً عظيماً محفوظاً من التَّغْيِيرِ بما جَعَلَ فيه من أملاح، إِنَّه البحارُ في الأرضِ، وقد جعل اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ نظاماً عجيباً دائِبَ العملِ لِتَحْلِيَةِ الماءِ المخزونِ في البحارِ المالحَةِ حتَّى يكون صالحاً لِلنَّبَاتِ، وَسُقْيَا لِلدَّوابِّ والناسِ.

هذا النظام قائم على أسباب التَّبَخُّرِ بالحرارة، والْحَمَلِ بِالرِّيحِ، والتَّجْمِيعِ بِالسَّحَابِ، والسَّوْقِ في جَوِّ الأرضِ بِالرِّيحِ، وتَلْقِيحِ نوياتِ ذَرَّاتِ الماءِ في السَّحَابِ بوساطة ما تَحْمِلُهُ الرِّيحُ من ذَرَّاتِ لِقَاحٍ.

ويأتي الأمرُ الرَّبَّانِيُّ بِسُقْيَا بِلَدٍ مَيِّتٍ، فيُنْزِلُ اللّهُ الماءَ به، فَتَشْرَبُ الأرضُ والأنعامُ والناسُ وَكُلُّ ما يَدْبُ على الأرضِ من أحياءٍ، فيُخْرِجُ به اللّهُ مِنْ كُلِّ النِّبَاتَاتِ ذَوَاتِ الثَّمَرَاتِ الْمُخْتَلِفَاتِ، بِحَسَبِ ما في الأرضِ من جُذُورٍ وَبُزُورٍ، وَالتّي سقاها اللّهُ بالماءِ المحلّى الذي أنزلَه غيثاً من السَّحَابِ.

وهكذا كان تَدْبِيرُ اللّهِ في الأرضِ برُبوبِيَّتِهِ الحكيمة، رِزْقُ الناسِ وسائرِ الأحياءِ، ضِمْنَ نظامِهِ السَّبَبِيِّ في عالمِ الأسبابِ والمسبباتِ، فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

فَقولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وفي القراءات الأخرى: [نُشْراً - نُشْراً - نُشْراً] يتضمَّنُ لَفْظَ نَظَرِ المتفكرين إلى آثارٍ من آثارِ رُبوبِيَّةِ اللّهِ لعباده، وهي إرسالُ الرِّيحِ لأداءِ وظيفَةٍ من وظائفها، تتعلَّقُ بِتَدْبِيرِ اللّهِ أَرْزَاقَ العبادِ، رَحْمَةً بِهِمْ.

إِنَّ مِنَ الْمَلَاظِحِ دَوَاماً أَنَّ مِنَ الظُّوَاهِرِ الْكُونِيَّةِ أَنَّ تَهَبَّ الرِّيحِ، فَتَسُوقُ السَّحَابَ، وَتُجْمَعُهَا، فَإِذَا شَاءَ اللَّهُ سَقِيَا أَرْضٍ أَغَاثُهَا بِإِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّحَابِ عَلَيْهَا، فَازَوَاهَا وَأَزَوَى أَحْيَاءَهَا.

وَدَلَّتْ كَلِمَةُ: [يُزْسِلُ] عَلَى مَعْنَى التَّوْجِيهِ بِرَفْقٍ، وَعَلَى مَعْنَى حَمْلِ رِسَالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ فِيهَا بَيَانٌ وَتَعْلِيمٌ وَحُجَّةٌ، يَفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ يُذَكِّرُ دَلَالَاتِ الْآثَارِ عَلَى فَاعِلِهَا وَصِفَاتِهِ.

● ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ﴾: أي: يُزْسِلُ الرِّيحَ لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ قُدُومُهَا بِرَفْقٍ مُبَشِّرًا بِأَنَّ الْغَيْثَ مِنَ السَّمَاءِ قَادِمٌ، وَهَذِهِ طَلَائِعُهُ، إِذْ تَحْمِلُ أَيَادِي الرِّيحِ رِسَالَةَ بُشْرَى بِمَقْدَمِ الْغَيْثِ الَّذِي يَسْقِي بِهِ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَظَمَتْ حِكْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ، الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ.

وعلى قراءات: [نُشْرًا - نُشْرًا - نُشْرًا]: أي: يُزْسِلُ الرِّيحَ لِأَجْلِ أَنْ تَنْشُرَ الْأَشْيَاءَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ أَسْبَابًا لِمَنَافِعَ كَثِيرَةٍ، سَبَقَ بَيَانُ بَعْضِهَا، وَمِنْهَا اللَّفَاحَاتُ.

● ﴿بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ﴾: أي: قَبْلَ مَجِيءِ آثَارِ رَحْمَتِهِ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَمِنْ آثَارِهَا فُيُوضُ عَطَاءَاتِهِ، وَمِنْ فَيُوضُ عَطَاءَاتِهِ أَنْ يُنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ طَهُورًا نَقِيًّا مِنَ الشَّوَابِ، هُوَ مِنْ أَسْبَابِ الْحَيَاةِ وَالنَّمَاءِ.

● ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾: أي: حَتَّى إِذَا حَمَلَتِ الرِّيحُ فِي الْجَوِّ سَحَابًا ثِقَالًا بِالْمَاءِ الْمَتَبَخَّرِ.

السَّحَابُ: اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيٍّ يُفَرَّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَاحِدَةٍ بِالتَّاءِ، فمُفْرَدُهُ سَحَابَةٌ.

﴿ثِقَالًا﴾: جَمْعُ «ثَقِيلَةٍ» وَقَدْ جَاءَتْ وَصْفًا لِلْسَّحَابِ، أَي: حَتَّى إِذَا حَمَلَتِ الرِّيحُ سَحَابًا ثَقِيلَةً، وَالَّذِي يَجْعَلُ السُّحُبَ ثَقِيلَةً ذَرَاثُ الْمَاءِ الْمُتَجَمِّعَةِ فِيهَا، وَكُلَّمَا تَقَارَبَتْ كَانَتِ السُّحُبُ أَكْثَرَ ثِقَالًا.

● ﴿سُقْنَهُ لِّلْكَرْمِيتِ﴾: يتحدث ربُّنا بضمير المتكلم العظيم، أي سُقْنَا السَّحَابَ، أعيد الضمير المذكّر على السَّحَابِ، لأنّ لفظ «السَّحَاب» يُذَكَّرُ وَيُؤنَّثُ، أو سُقْنَا المَاءَ الَّذِي تَحْمِلُهُ السَّحَابُ، وهذا فيما أَرَى أولى. والبلد الميت: هي الأرض التي لا نبات فيها، ولا خُضْرَة ولا نُضْرَة، فهي كالجسد الميت.

● ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾: وهنا يتحدث ربُّنا بضمير المتكلم العظيم أيضاً، إشارة إلى عَظَمَة رُبُوبِيَّتِهِ في تصاريفه الحكيمة رحمةً بالعباد، أي: أنزل الله جلّ جلاله بعَظَمَة رُوبِيَّتِهِ بالبلد الميت الماء من السَّحَاب.

● ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾: أي: فَأَخْرَجْنَا بِعَظَمَة الرُّبُوبِيَّةِ وسُلْطَانِهَا، بالماء من كُلِّ الثمرات، وهي ثمرات النباتات المختلفة المُتَشِيرَاتِ هي أو جذورها أو بُزُورُهَا في الأرض التي أنزل بها الماء. إنّ الماء سَبَبٌ من الأسباب التي جَعَلَهَا الله عزّ وجلّ مادّةً لإنبات النباتات وإخراج الثمرات، في عالم الأسباب والمسببات، والله جلّ جلاله هو مُنْبِتُ الثّبات، ومُخْرِجُ الثمرات المختلفة.

ونلاحظ في هذا البيان الرّبّاني، أنّ إرسال الرياح بُشْراً «أو نُشْراً أو نُشْراً أو نُشْراً» بين يَدَي رَحْمَة الله، أمرٌ يتم بأمرِ الله وَخَلْقِهِ، وتوجيه قُدْرَتِهِ، إنفاذاً لإرادَتِهِ التي افْتَضَتْهَا حِكْمَتُهُ الْمُفْتَرَنَةُ بِعِلْمِهِ المَحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، أي: وَلَيْسَ مَجْرَدَ حَرَكَةٍ سَبَبِيَّةٍ فِي الكونِ، تَتِمُّ بِعِلْمِهِ وإِذْنِهِ، بل هو أمرٌ تَدَخَّلَ فِيهِ الإِرادَةُ الرّبّانِيَّةُ أَمْراً، وإرسالاً لتحقيق أمرٍ مقصودٍ ابتداءً.

ولولا تَدَخُّلُ الإِرادَةِ الرّبّانِيَّةِ الْخَاصَّةِ، لَبَقِيَتِ الرِّيحُ ضِمْنَ نِظامِ الإِرادَةِ الْعَامَّةِ، تتحرّك بعِلْمِ الله وإِذْنِهِ، ولهذا قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾.

إنّ قضيّة رِزْقِ العباد وتوجيه أسبابه تتدخّل الإِرادَةُ الرّبّانِيَّةُ بِقِسْمَتِهِ بعناية خاصّة.

ونلاحظ أيضاً أَنَّ الآية هُنا قد جاء فيها بيان إرسال الرِّيح بصيغَةِ الفعل المضارع «يُزْسِل» للدلالة على حركة الإرسال المتكررة المتجددة مع الأزمان، أخذاً من دلالة صيغة الفعل المضارع، وَلَلْفَتْ الأنظار إلى ما سَيَحْدُثُ.

وجاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) استعمال الفعل الماضي في بيان هذا الإرسال، لَلْفَتْ أنظار المتفكرين إلى هذه الظاهرة من آيات الله الكونية بَعْدَ وقوعها فعلاً، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٤٨) لِنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَنُشْقِيَهُمْ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ .
فالنضآن متكاملانِ حَوْلَ موضوعٍ واحد، وَقَدْ وُزَعَتْ أفكارُ الموضوع عليهما، وليسَا بمكرَّرَينِ.

ونلاحظُ أيضاً أَنَّ الله تعالى قال: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وَلَمْ يَقُلْ سُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ، للإشارة إلى أَنَّ السُّحْبَ الَّتِي تَمُوجُ فِي سَمَاءِ إقْلِيمِ ضِمْنِ أَنْظِمَتِهَا السَّبَبِيَّةِ بِالْعِلْمِ وَالإِذْنِ الرَّبَّانِي، قد تتدخلُ عنايةُ الله فيُرْسِلُ الرِّيحَ، فَتَسُوقُ السَّحَابَ الثَّقَالَ بالماء للبلدِ المَقْصُودِ بالعناية، وَهُوَ بَلَدٌ قَرِيبٌ، فيُنْزِلُ به الماء، وَقَدْ لَا يُنْزِلُهُ فِي بَلَدٍ آخَرَ مُجَاوِرٍ لَهُ، وَرُبَّمَا كَانَتْ السَّحَابُ الثَّقَالَ بالماء موجودة فوقه، فَالْأَمُّ تُسْتَعْمَلُ غَالِبًا للقريب، و«إِلَى» تُسْتَعْمَلُ غَالِبًا للبعيد.

إِنَّهَا قَضِيَّةُ أَرْزَاقِي، تتدخلُ فيها العناية الخاصة، والإرادة الربَّانيَّةُ تدخُلًا مُبَاشَرًا.

الْبَلَدُ وَالْبَلَدَةُ: تُطْلَقَانِ عَلَى الأرض، سواءً اخْتَوَتْ عَلَى مسَاكِنٍ أَمْ لَمْ تَخْتَوِ عَلَى مسَاكِنٍ.

ونلاحظُ أيضاً العطفَ بالفاء الَّتِي تدلُّ عَلَى التَّرْتِيبِ مع التعقيب، فِي جُمْلَتِي: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

أما الترتيب فظاهر، وأما التعقيب فيوضحه سَوْقُ السَّحَابِ الثَّقَالِ بالماءِ لِبَلَدٍ قَرِيبٍ مِتَّ مَتَلَهَفٍ للماء، أي: إِنَّ العَنَايَةَ الرَّبَّانِيَّةَ قَدْ تُلَبِّي الحَاجَةَ بِسُرْعَةٍ دُونَ إِبْطَاءٍ.

أما جُمْلَةُ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، فَالتَّعْقِيبُ هُنَا يُرَادُ بِهِ تَعْقِيبُ تَتَابُعِ الأسبابِ التي يَخْصُلُ بِهَا الإِنْبَات، وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الأسبابُ تَأْتِي تَبَاعاً سَبباً بَعْدَ سَبَبٍ دُونَ فَرَاغِ زَمَنِيٍّ بَيْنَ تَوَالِيهَا، إِذِ الْمَاءُ يَتَخَلَّلُ التُّرَابَ، فَيَصِلُ إِلَى الْبُزُورِ، فَيَدْخُلُ فِيهَا شَيْئاً فَشَيْئاً، وَتَبَقَّى الأسبابُ تَعْمَلُ دُونَ إِبْطَاءٍ، حَتَّى تَنْبُتَ الْبُزُورُ، فَتَنْمُو فَتَتَكَامَلُ شَيْئاً فَشَيْئاً، فَتَخْرُجُ الثَّمَرَاتُ الْمُخْتَلِفَاتُ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَكُونُ مُتَتَابِعاً مُتَوَاصِلاً.

ولما كَانَ الْأَمْرُ الْوَاقِعُ كَذَلِكَ، كَانَ مِنَ الدَّقَّةِ الْبَالِغَةِ فِي الْأَدَاءِ الْبَيَانِي اسْتِعْمَالُ الْفَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّرْتِيبِ مَعَ التَّعْقِيبِ هُنَا.

ونلاحظ أيضاً في قول اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ قَضِيَّتَيْنِ:

القضية الأولى: ذكر الثمرات التي هي آخِرُ مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاكِلِ حَرَكَةِ النَّبَاتِ، لِيَدُلَّ ذِكْرُهُ عَلَى الْمَرَاكِلِ السَّابِقَةِ، وَهِيَ تُدْرِكُ بِالْمُشَاهَدَةِ، فَلَا دَاعِيَ لِلتَّصْرِيحِ بِهَا.

القضية الثانية: دَلَالَةُ حَرْفِ «مِنْ» الدَّالِّ عَلَى التَّبَعِيضِ، أَيْ: فَأَخْرَجْنَا بِهِ بَعْضاً مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْبُزُورِ أَوْ الْجُذُورِ لَا تَنْبُتُ بِالْمَاءِ، لِعَوَارِضٍ تَعَرَّضَتْ لَهَا.

وهكذا ظهرت لنا الدَّقَّةُ الثَّامَةُ فِي الْأَدَاءِ الْبَيَانِي الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا النَّصُّ الْقُرْآنِي.

في هذا البيان استفادة من ظاهرة مُتَكَرِّرَة الشهود، ليقس أولو الأبواب عليها أمراً غَيْبِيّاً سَوْفَ يَحْدُثُ مُسْتَقْبَلاً، بقضاء الله وقدره، وَقَدْ أَتَبَأَ اللَّهُ بِهِ، وَجَعَلَهُ غُنْصَراً من عناصر أركان العقيدة الإسلامية، إِنَّهُ نَبَأُ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

أي: كَذَلِكَ الْإِخْرَاجُ الَّذِي تُخْرِجُ بِهِ النَبَاتَاتِ مِنْ بُزُورِهَا، وَنَوِيَاتِهَا الصُّغْرَى الْمُثْبِتَةَ فِي الْأَرْضِ، سَوْفَ تُخْرِجُ الْمَوْتَى، فَتُخَيِّمُهُمْ وَتَبْعَثُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي احْتَفَظَتْ بِنَوِيَاتِ نَشَأَتِهِمْ الْأُخْرَى، إِذْ يُنْزِلُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، عَلَى الْأَرْضِ مَاءً خَاصّاً يَبْعَثُ بِهِ الْمَوْتَى مِنَ الْقُبُورِ، فَتَتَنَامَى النَّوِيَاتُ كَمَا تَتَنَامَى الْأَشْجَارُ مِنْ بُزُورِهَا، وَفِي نَوَاةٍ كُلِّ مَيِّتٍ خَرِيطَةٌ نَفْسِهِ وَجَسَدِهِ، فَإِذَا نَمَا وَنُفِخَتْ فِيهِ رُوحُهُ، رَجَعَ كَمَا كَانَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْمَوْتِ، وَلَكِنْ بِظُرُوفِ حَيَاةٍ أُخْرَى، هِيَ حَيَاةُ يَوْمِ الدِّينِ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: أي: أَعْلَمْنَاكُمْ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ رَاغِبِينَ فِي أَنْ تَتَفَهَّمُوهَا، وَتَحْفَظُوهَا، وَتَتَذَكَّرُوهَا دَوَاماً، فَإِذَا شِئْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ النَّجَاةَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَالْفَوْزَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ، اتَّبِعْتُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَدَعَاكُمْ لِلْإِتِمَامِ بِهِ مِنْ إِيْمَانٍ وَعَمَلٍ.

كلمة: لعل: تُسْتَعْمَلُ لِلتَّرْجِي، وللتعليل، وهي بالنسبة إلى الله جلَّ جلاله يلائمها من المعاني الرغبة، والحب، والرضى.

فالله تبارك وتعالى يُحِبُّ لِعِبَادِهِ أَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْإِيْمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَيَرْغَبُ لَهُمْ أَنْ يَتَذَكَّرُوا دَوَاماً مَا فِيهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، لَكِنَّهُ لَا يُجْزِيهِمْ.



• ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

الطيب من الأرض ما كان خصباً حسن الإنبات. والخبيث من الأرض: ضدّ الطيب. والتكّد: العسر الشحيح القليل النفع.

هذا بيان استدراكي لدفع توهم أنّ جودّة خُروج النّبات في الأرض تَزجُع إلى سببٍ واحدٍ، هو إنزالُ الماءِ من السّماءِ عليها، واختلاطُ هذا الماءِ بها، إذ فيه بيانُ سببٍ آخرَ هو كَوْنُ الأرضِ أرضاً طيّبةً صالحةً لخُروجِ النّباتِ الجيّدِ فيها، فإذا اجتمع السّببانِ معاً، وأذن اللهُ جلّ جلالهُ بتحقيقِ المُسبّبِ، وهو خُروجُ النّباتِ الجيّدِ النافع، خَرَجَ نَبَاتُ الأرضِ جيّداً نافعاً.

أمّا إذا كانت الأرضُ أرضاً خبيثةً غيّرَ صالحةً لخُروجِ النّباتِ الجيّدِ فيها، فإنّ إنزالَ الماءِ الطّهورِ عليها لا يُغيّرُ طيّبتها، فلا يَخْرُجُ نباتُها إذا خَرَجَ إلّا عسيراً شحيحاً قليلَ النّفع.

ويُعطينا اللهُ عزّ وجلّ بهذا البيانِ قانوناً من قوانينِ سننِ الله في كونه، وهو أنّ السّببَ قد يَكُونُ شرطاً لازماً لتحقيقِ المُسبّبِ، ولكنّه شرطٌ غيّرُ كافٍ، بل لا بُدَّ من وجودِ سببٍ آخرَ أو عدّةِ أسبابٍ، حتّى يتحقّقَ المطلوبُ، فكلُّ واحدٍ منها شرطٌ لازمٌ غيّرُ كافٍ، بل لا بُدَّ من اجتماعِها حتّى يتكوّنَ منها جميعاً السّببُ الكاملُ لتحقيقِ النّتيجةِ المطلوبة.

إنّ رؤيةَ السّببِ الناقصِ قد تَكُونُ رؤيةً خادعةً، تُوهّمُ أنّه كافٍ لتحقيقِ النّتيجةِ المطلوبة، فتتوقّعُ أفراداً كثيرين، وجماعاتٍ مُتعدّاتٍ في وزّاتٍ مُهلكاتٍ، أو مُحيطاتٍ لأعمالٍ جليلاتٍ مُضنياتٍ.

وفي هذا البيان لفتُ أنظار المتفكرين في آثارِ صفاتِ الله في واقعِ حالِ الأرض، وكيفَ جعلها اللهُ جلّ جلاله على أقسامٍ، منها الطيبُ ومنها الخبيثُ، ولهما درجتان ودَرَكَاتٌ، فالطيبُ منها متفاوتُ الدَرَجاتِ في الطيبِ، والخبيثُ منها مُتفاوتُ الدَرَكاتِ في الخبثِ.

ولدى تصنيفِ أنواعِ الأرضِ من جهةِ صلاحيتها للإنبات، وجودتها أو

رَدَائِهَا، تَتَكَشَّفُ لَنَا أَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ، يُمَكِّنُ وَضْعُهَا فِي سُلَّمٍ مُتَعَدِّ الْمَنَازِلِ،
ذِي دَرَجَاتٍ صَاعِدَاتٍ، وَذِي دَرَكَاتٍ نَازِلَاتٍ.

فَالصَّاعِدَاتُ يَشْمَلُهَا عَنَوَانُ «أَرْضٍ طَيِّبَةٍ»، وَالنَّازِلَاتُ يَشْمَلُهَا عَنَوَانُ
«أَرْضٍ خَبِيثَةٍ».

وَيَتَسَاءَلُ الْمُتَفَكِّرُ: لِمَ إِذَا جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْأَرْضِ مَا هُوَ طَيِّبٌ
حَسَنُ الْإِنْبَاتِ، عَلَى اخْتِلَافِ الدَّرَجَاتِ فِي الطَّيِّبَةِ، وَجَعَلَ مِنْهَا مَا هُوَ خَبِيثٌ
سَيِّئُ الْإِنْبَاتِ، عَلَى اخْتِلَافِ الدَرَكَاتِ فِي الْخَبِيثِ؟
وَتَجِيبُ الْآيَةُ عَلَى هَذَا التَّسَاوُلِ، إِذْ جَاءَ فِيهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿.. كَذَلِكَ نَصْرِفُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

أَي: كَذَلِكَ التَّصْرِيفُ فِي أَقْسَامِ الْأَرْضِ إِذْ جَعَلْنَاهَا أَنْوَاعاً مُخْتَلِفَةً،
نُصْرِفُ فِي كُلِّ الْآيَاتِ الْمُنْبِئَةِ فِي الْكَوْنِ، فَلَا نَجْعَلُ كُلَّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِنَا صِنْفاً
وَاحِداً.

وَهَذَا مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، لِكُلِّ مَا خَلَقَ مِنْ كَوْنِهِ.

التَّصْرِيفُ: التَّدْبِيرُ وَالتَّوْجِيهُ وَالتَّغْيِيرُ وَالتَّنْوِيعُ، وَاتِّخَاذُ مُخْتَلَفِ الْوُجُوهِ
الْمُمَكِّنَةِ لِتَحْقِيقِ الْغَايَةِ الْمَقْصُودَةِ.

الْآيَاتُ: هِيَ هُنَا آيَاتُ اللَّهِ الْكُونِيَّةُ الدَّلَالَةُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ جَلَّ
جَلَالُهُ، إِذْ جَاءَتْ بَيَاناً لِسُنَّةِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ بِمُنَاسَبَةِ الْحَدِيثِ عَنْ أَنْوَاعِ
الْأَرْضِ.

إِنَّ ظَاهِرَةَ التَّنْوِيعِ فِي الْأَشْيَاءِ ضِمْنُ الْجِنْسِ الْوَاحِدِ، ظَاهِرَةٌ مُنْتَشِرَةٌ،
فِي كُلِّ مَا نُشَاهِدُ مِنْ شَيْءٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ الْكَبِيرِ، وَفِي النَّوْعِ الْوَاحِدِ
أَصْنَافٌ، وَفِي الصَّنَفِ الْوَاحِدِ مُخْتَلِفَاتٌ.

وَمَا لَا يَضْلُحُ لِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ يَضْلُحُ لِغَيْرِهِ، وَحَاجَاتُ الْأَحْيَاءِ كَثِيرَةٌ
عَلَى مَقْدَارِ اخْتِلَافِ الْأَجْنَاسِ وَالْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ.

إِنَّ مِنَ الْأَرْضِ مَا هِيَ طَيِّبَةٌ لِّزِرَاعَةٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ النَّبَاتَاتِ، لَكُنْهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ لِّزِرَاعَةٍ صِنْفٍ آخَرَ.

وإِنَّ الْأَرْضَ السَّيِّئَةَ الَّتِي لَا يَخْرُجُ فِيهَا النَّبَاتُ إِلَّا خُرُوجًا نَكِدًا عَسِيراً، قَدْ تَكُونُ صَالِحَةً ذَاتَ نَفْعٍ عَظِيمٍ لِمَصَالِحٍ أُخْرَى يَخْتَاجُ إِلَيْهَا النَّاسُ، غَيْرَ حَاجَتِهِمْ لِاسْتِنْبَاتِ الزُّرُوعِ، وَاسْتِخْرَاجِ الثَّمَارِ.

فالتنوع في الأرض اختيار في الخلقِ اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ مُطَابَقَةِ المخلوقاتِ المتنوعة، للحاجات المتنوعة لدى الأحياء، ولا سيما الناس.

وهذا من نعم الله على عباده، ونِعَمُ الله على العباد تَسْتَوْجِبُ مِنْهُمْ أَنْ يَشْكُرُوهُ، فقال تعالى: ﴿..كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (٥٨).

أي: مثل ذلك التصريف في أنواع الأرض والتنوع فيها، نُصَرِّفُ وَنُنَوِّعُ الْآيَاتِ فِي كُلِّ أَشْيَاءِ الْكَوْنِ، لَتَكُونَ ذَالَاتٍ عَلَى الرَّحْمَةِ بِهِمْ، والعناية بتهيئة مطالب حياتهم المختلفة والمتنوعة.

أما المؤمنون الذين لديهم الاستعداد لشكر الله على نعمه، فَهُمْ الَّذِينَ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ ملاحظة هذه الآيات، وَيَسْعَوْنَ أَنَا فَنَاءً لِأداء واجب شكر الله على نِعَمِهِ، وَفَضْلِهِ على عباده.

● ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾: أي: والأرض الطيبة الصالحة للنبات، يَخْرُجُ نَبَاتُهَا خُرُوجًا هَيئًا لَيِّنًا سَوِيًّا صَالِحًا، ضَمَّنَ نِظَامَ النَّبَاتِ السَّوِيِّ، وَبَحَسَبِ اسْتِعْدَادِهَا فِي عِنَاصِرِهَا وَمُتَاخِهَا لِنَوْعِ النَّبَاتِ. وهذا الخروجُ ضَمَّنَ قَوَائِينَ اللَّهِ وَسُنَنِهِ النَّابِتَةِ فِي كَوْنِهِ، إِنَّمَا يَخْرُجُ بِإِذْنِ رَبِّهِ، الَّذِي يُرَبِّيهِ وَيُنْمِيهِ وَيَزْعَاهُ، وَالإِذْنُ الرَّبَّانِيُّ مُقْتَرَنٌ بِشُمُولِ عِلْمِ اللَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ.

وهذا يدلُّ على أَنَّ قَوَائِينَ الْكَوْنِ الثَّابِتَةَ إِنَّمَا تُؤَدِّي وَظَائِفَهَا، وَتَتَحَقَّقُ بِهَا آثَارُهَا ضَمَّنَ حُدُودِ أَسْبَابِهَا، بِإِذْنِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ الْمُهِمِّنِ عَلَى كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ فِي الْوُجُودِ.

● ﴿وَالَّذِي حَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾: أي: والبلد الذي حَبِثَ بالنسبة إلى النبات، لَا يَخْرُجُ نَبَاتُهُ إِلَّا خُرُوجًا نَكِدًا عَسِيرًا شَحِيحًا قَلِيلَ الْعَطَاءِ وَالنَّفْعِ.

وعلى قِرَاءَةِ [يُخْرِجُ] يَكُونُ الْمَعْنَى: لَا يُخْرِجُ نَبَاتُهُ إِلَّا إِخْرَاجًا نَكِدًا.

وعلى قراءة أبي جعفر [نَكَدًا] مصدر «نَكِدَ» يكون المعنى: لَا يَخْرِجُ نَبَاتُهُ إِلَّا خُرُوجًا نَكَدًا، على الوصف بِالْمَضْدَرِّ، أو إِلَّا خُرُوجًا ذَا نَكَدٍ.

التَّكِدُ: فِي اللَّغَةِ هُوَ الْعَسِيرُ الَّذِي لَا يُطَاوَعُ إِلَّا بِشِدَّةٍ، يُقَالُ: تَكَدَّ عَيْشُ الْقَوْمِ يَتَكَدَّنْ تَكَدًّا، أَي: اشْتَدَّ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ عَسِيرًا غَيْرَ يَسِيرٍ. وَيُقَالُ: رَجُلٌ نَكِدٌ، أَي: عَسِيرٌ شَدِيدٌ صَغْبٍ. وَقَوْمٌ أَتَكَادَ وَمَنَاكِيدَ.

ويلاحظ في هذه الآية الحذف من أوائلها اعتماداً على دلالة أوإخريها، ففي أوائلها قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ فَلَمْ يُوصَفْ فِيهِ نَبَاتُ الْبَلَدِ الطَّيِّبِ بِشَيْءٍ، لَكِنَّا لَاحِظْنَا أَنَّ الْوَصْفَ مُحذُوفٌ مَقْدَرٌ ذَهْنًا، فَهُوَ نَبَاتٌ هَيِّنٌ لَيْسَ جَيِّدُ الْعَطَاءِ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْبَلَدَ الْخَبِيثَ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ نَكِدًا عَسِيرًا شَدِيدًا شَحِيحًا قَلِيلَ النَّفْعِ، فَدَلَّ وَصْفُ النَّبَاتِ الْمَقَابِلِ بِالتَّكِدِ فِي الْبَلَدِ الْخَبِيثِ، عَلَى أَنَّ نَبَاتَ الْبَلَدِ الطَّيِّبِ ضِدُّ ذَلِكَ.

وإذ كان التنويع والتصريف من نعم الله على عباده، في ظاهرات كونه، فإننا نَرْغَبُ إِلَى رَبَّنَا قَائِلِينَ: رَبَّنَا أَوْزِعْنَا أَنْ نَشْكُرَ نِعَمَكَ الْجَلِيلَةَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيْنَا، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.

وانتهى الدرس الخامس والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته.



(١٠)

التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس السورة وهو الآيات من (٥٩ - ١٧١)

مقدمة

هذا درس طويل يشتمل على لقطاتٍ مختاراتٍ موجزاتٍ أو مُطَوَّلَاتٍ من قِصَصِ سَبْعَةِ رُسُلٍ، وبيانٍ مُجَمَّلٍ عن رُسُلٍ لم تُذَكَّرْ أَسْمَاؤُهُمْ ولم تُذَكَّرْ أَسْمَاءُ أَقْوَامِهِمْ، وقد جاء بيانُهُمْ وَفَقَّ الترتيب التالي:

- (١) نوح عليه السَّلام وقومه .
- (٢) هودّ عليه السَّلام وقومه .
- (٣) صالح عليه السلام وقومه .
- (٤) لوطّ عليه السَّلام وقومه .
- (٥) شُعَيْبٌ عليه السَّلام وقومه .
- (٦) بَيَّانٌ مُجَمَّلٌ عن رُسُلٍ وَأَقْوَامِهِمْ، دون ذكر أَسْمَائِهِمْ .
- (٧) موسى وهَارُونُ عليهما السلام مع فرعون وقومه، ومع بنى إسرائيل .

وَيَحْسُنُ تقسيم هذا الدرس إلى سَبْعَةِ فُصولٍ، يتناول كُلُّ فصلٍ منها واحداً مِمَّنْ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ إلى جانب الأرقام السَّبْعَةِ، فهذا أَدْعَى لِحُسْنِ التدبُّر والاستيعاب والحفظ، إذ التفصيل والتجزئة في الموضوعات، ممَّا يساعدُ على ذلكَ، بحَسَبِ الطَّبيعة البشريَّة في كُلِّ القضايا الفكرية والعملية .



الفصل الأول

التدبر التحليلي للقطات المختارات

في هذه السورة من قصة نوح عليه السلام وقومه
الآيات من (٥٩ - ٦٤)

قال الله عز وجل:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا لِقَوْمِ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي
صَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لِقَوْمِ اللَّهِ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ
عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

القراءات:

(٥٩) • قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ برفع
كلمة «غَيْرُ». وقرأ الكسائي، وأبو جعفر: [غَيْرِهِ] بجرّ كلمة: «غَيْرُ».

والقراءتان جاءتا على وجهين إعرابين جائزين، فالرفع على أن «غير»
صفة للفظ «إليه» روعي فيه المحل وهو الرفع، لأن «مِنْ» حرف جر زائد
للتنصيص على العموم، والجر روعي فيه حركَةُ الجر الظاهرة في لفظ
«إليه».

(٥٩) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: ﴿إِنِّي
أَخَافُ﴾ بفتح ياء المتكلم. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ بإسكان
ياء المتكلم مع المد في الوصل. والقراءتان وجهان لُنطق ياء المتكلم في
اللسان العربي.

(٦٢) • قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿أُبْلَغُكُمْ﴾ بفتح الباء وتشديد اللام. وقرأ أبو عمرو: ﴿أُبْلَغُكُمْ﴾: من فعل «أبلغ المهموز. والقراءتان متكافئتان، فالهمز أخو التضعيف.

تمهيد

هذا هو النص الخامس من النصوص التي تعرّضت لبيان لقطاتٍ من قصة نوح عليه السلام وقصة قومه معه، بحسب ترتيب النزول، من أصل ثمانية وعشرين نصاً موزعة في ثمانٍ وعشرين سورة.

وقد تدبّرناها مجتمعةً تدبراً تكاملياً، في كتاب مُستَقِلٍّ، سمّيته «نوح عليه السلام وقومه في القرآن»، وقد ظهر لي أنّ هذه النصوص متكاملةٌ فيما بيّنها غير مكرّرة، من خلال جداول مفصلةٍ جزأت فيها العناصر الفكرية التي اشتملت عليها، وقابلتُ بعضها ببعض، باستثناء مفاتيح الحديث عن نوح وقومه، وباستثناء التوجيهات العلاجية الدوائية، التي يحسُن فيها التكرار التربويّ الوعظي، كالأمر بالاعتبار، والأمر بالتقوى، والحث على التذكّر.

وقد أضاف هذا النصّ إلى ما سبقه من نصوصٍ في نجوم التنزيل مُوجَزَ دَعْوَةٍ وَجَوَارٍ، بيّن نوح عليه السلام وقومه. وأتبع هذا الموجز ببيان أنّ قومه كذّبوا، واستمروا على تكذيبهم بآيات الله فأهلكوا بالإغراق، عقّب آخر موقفٍ من مواقف عنادهم وتكذيبهم رسول ربهم، وتكذيبهم بآياته.

أمّا مدّة الإمهال الطويل التي أمهلهم الله فيها، فقد اعتبرها الله عز وجلّ جزءاً من المدّة المقرّرة لدعوتهم، وحينما انتهت جاء عقبها مباشرةً إهلاكهم بالإغراق، ولهذا جاء العطف بالفاء الدالة على الترتيب مع التعقيب، فقال الله عز وجلّ في آخر هذا النصّ:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وعرض لقطات من قصة نوح متصل بالخط الرئيسي الذي سارت عليه دروس السورة، المبيّن في الآية الثالثة منها، والمتضمّنة أنّه يجب على الناس أن يتّبعوا ما أنزل إليهم من ربّهم، وأن لا يتّبعوا من دونه أولياء.

التدبر :

● قول الله عزّ وجلّ :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّبِعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩﴾ :

● ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ﴾ :

اللام من ﴿لَقَدْ﴾ واقعة في جواب قَسَمٍ منوِيٍّ، و«قَدْ» حَزَفٌ تحقيق مؤكّد لمضمون الجملة. والداعي لهذا التأكيد أنّ المقصودين الأولين بهذا البَيَان هُمُ المَكْذِبُونَ لرسول الله محمد ﷺ، والمكذّبون بما جاء به من رسالة يُبلّغها عن ربّه، فحالهم تستدعي تأكيد وقوع هذه القصة، بعبارة من عبارات التأكيد في لسان العرب، إذ يُشير مَضْمُونُ هذه القصة إلى أنّ المكذّبين بما جاء به الرسول محمّد ﷺ في عصره، وأمثالهم من بَعْدِهِمْ غُرُضَةٌ لِإِنزَالِ الإهلاك بهم، إذا أَصْرُوا على التّكذيب، كما أَهْلَكَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ، فَذَلِكَ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ.

﴿أَرْسَلْنَا﴾ : الإرسال التّوجيّه لأداء مُهِمّةٍ ما بِتَوْذَةٍ وَتَرْفِقٍ وَأَنَانَةٍ وَتَعَقُّلٍ وَحِكْمَةٍ. والرُّسُولُ هو الذي يُتَابِعُ أخبارَ الذي أرسله. وَيَقُومُ بِمُهِمَّاتِهِ تَبَاعاً. وجاء هنا استعمال ضمير المتكلم العظيم، للدلالة على عِظَمِ الرُّسالة التي حَمَلَهَا نُوحٌ عليه السلام لقومه، وعلى عِظَمِ الحَدَثِ الَّذِي أَهْلَكَ اللَّهُ بِهِ قومه، وأنجى به نوحاً عليه السلام والذين آمنوا معه.

نوحٌ عليه السلام أوّل رسولٍ من أولي العزمِ أَرْسَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ،

والرَاجِحُ ظَنًّا أَنْ قَوْمَهُ كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، أَوْ فِي مَنْطِقَةِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ بِوَجْهِ عَامٍّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وجاء في هذه الآية تلخيص مضمون دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ بِفقراتٍ ثلاثة :

الفقرة الأولى : دلَّ عليها قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: فَبَاشَرَ عَقِبَ إِزْسَالِهِ بِالْقِيَامِ بِمِهْمَاتِ رِسَالَتِهِ، بِدَلِيلِ اسْتِعْمَالِ حَرْفِ الْعَطْفِ «الفاء» الدالَّ على الترتيب مع التعقيب.

﴿يَقَوْمِ﴾: أَضْلَحَهَا «يَا قَوْمِي» حُذِفَتْ ياء المتكلم وبقيت الكسرة على الميم دليلاً عليها، ونظائر هذا الحذف كثيرة، وهو من الوجوه العربية الجائزة.

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أي: اعْبُدُوا اللَّهَ وَخَدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، بِدَلِيلِ الفقرة الثانية: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

وَالْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ يَسْتَدْعِي سَابِقاً لَهُ، هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَخَدَهُ رَبّاً خَالِقاً بِيَدِهِ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَإِذَا كَانَ الْقَوْمُ مُؤْمِنِينَ بِهِ كَذَلِكَ فَالْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَخَدَهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شَيْئاً، وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ تَشْمَلُ كُلَّ صُنُوفِ الطَّاعَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فِي كُلِّ حَرَكَاتِ الْحَيَاةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الدِّينُ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، فِي أَوَامِرِهِ، وَنَوَاهِيهِ، وَشَرَائِعِهِ، وَأَحْكَامِهِ، وَوَصَايَاهُ، وَعِظَاتِهِ.

الفقرة الثانية دلَّ عليها قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: هذه الجملة تدلُّ على نفي وجود إله يُعْبَدُ بِحَقِّ غَيْرِ اللَّهِ جَلَّ جلاله، فَهُوَ وَخَدَهُ فِي الْوُجُودِ كُلُّهُ الرَّبُّ الَّذِي بِيَدِهِ جَلْبُ النَّفْعِ وَدَفْعُ الضَّرِّ عَنْ عِبَادِهِ، وَبِيَدِهِ كُلِّ شَيْءٍ.

أَمَّا الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ، فَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ
وَلَا لِغَيْرِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا.

وهذه الجملة لا تدل على نفي وجود أشياء أو أحياء تُعْبَدُ مِنْ دُونِ
اللَّهِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ مُسْتَحِقَّةً لِأَنْ تُعْبَدَ، فَقَدْ اتَّخَذَ الْمُشْرِكُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ
اللَّهِ، وَعَبَدُوهَا ظُلْمًا لِحَقِّ اللَّهِ الرَّبِّ الْخَالِقِ عَلَيْهِمْ، مَعَ أَنْ مَعْبُودَاتِهِمْ لَا
تَمْلِكُ لَهُمْ وَلَا لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَهِيَ أَسْمَاءُ سَمَّوْهَا آلِهَةً وَأَعْطَوْهَا
صِفَاتِ الْإِلَهِ، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ مِنْ صِفَاتِ الْإِلَهِ بِحَقِّ شَيْئًا.

إِذَنْ: فَدَعَا نُوْحٌ لَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ نَصِيحَةً عَظِيمَةً لَهُمْ، إِنْ
اسْتَجَابُوا لَهَا جَلَبَتْ لَهُمْ سَعَادَةُ هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَمَا بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَدَفَعَتْ
عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ الَّذِي أَعَدَّهُ لِلْكَافِرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ بِهِ.

إِنَّ مُشْرِكِي الْأَوَّلِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ أَوْثَانًا وَقُوًى وَهَمِيَّةً، وَأَزْوَاحًا
لَكَائِنَاتٍ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَقَدْ يَعْبُدُونَ بَشَرًا أَمْثَالَهُمْ.

أَمَّا مُشْرِكُو أَهْلِ حَضَارَتِنَا الْمَعَاصِرَةِ الْيَوْمِ، فَهُمْ يُقَدِّسُونَ قَوَانِينَ
الطَّبِيعَةِ، وَيَجْعَلُونَهَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ الْخَالِقِ إِذَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ، وَلَا يَرَوْنَهَا مِنْ
سُنَنِ اللَّهِ السَّبِيَّةِ الَّتِي جَعَلَهَا هُوَ فِي كَوْنِهِ، وَهُوَ مَتَى شَاءَ خَرَقَهَا، وَعَظَلَ
آثَارَهَا.

وَشَرٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، كُفَّارٌ مُوْغِلُونَ انْحِدَارًا فِي أَوْدِيَةِ الْكُفْرِ،
يَجْحَدُونَ وَجُودَ رَبِّ خَالِقِ مُدَبِّرِ عَالَمٍ حَكِيمٍ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، وَهُمْ
الْمَآذِيُونَ الْحَسِّيُّونَ، الَّذِينَ صَارُوا كَثِيرِينَ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ، وَلَا سِيَّمَا
الشَّيْعِيُّونَ الَّذِينَ فَتَنَتْهُمْ الْمَارْكِسِيَّةُ بِأَوْهَامِهَا، وَزُخْرِفَ أَقْوَالُهَا الْبَاطِلَةَ.

الفقرة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ﴾ (٥٩)، هَذِهِ الْجُمْلَةُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَخْبَرَهُمْ بِنَبَأِ
الْبَعْثِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ حِسَابٍ، وَفَضْلٍ

قضاء، وتنفيذ جزاء بالثواب في جنّاتِ التّعيم، أو بالعِقَابِ في دار العذابِ المعدّة للكافرين الظّالمين المكدّبين.

إنّ نوحاً عليه السّلام ما كان ليُخبرهم بأنّه يخاف عليهم عذاب يومٍ عظيم، ما لم يكن قد أتّباهم بيوم الدين، وبما فيه من دارٍ للثواب ودارٍ للعقاب، وأنّباهم بأنّهم مديّنون، ومُجازون على أعمالهم، بالثواب على الحَسَنَات، وبالعِقَاب على السيّئات، فاللّهُ ربُّهم مُنتَقِمٌ جبارٌ عدلٌ، وهو رَحْمَنٌ رَحِيمٌ، وهو ذو الفضلِ العظيم.

وجاء في هذا النّصّ الاقتصارُ على هذه الفقراتِ الموجزات، لتدريبِ مُتدبّري آيات القرآن المجيد على استخراج اللّوازم الفكريّة، واستنباطِ المعاني المُستَكَنّة في عمقِ النّصوصِ القرآنيّة، التي تدلُّ عليها سلاسلُ لَوَازِمِ الأفكار، والدّلالاتُ الدّقيقَاتُ لبغضِ المفرداتِ والصّيغِ وتراكيبِ الجُمَلِ.

وما فهمناه استنباطاً من هذه الآية، قد دلّت عليه نصوصُ قرآنيّةٍ أخرى، فيها بياناتٌ مُفصّلات حول الموضوع نفسه، بالنسبة إلى نوح عليه السلام وقومه.

ونلاحظُ في هذه الآية أنّ نوحاً عليه السلام قد أشعرَ قومه ببالغِ رَحْمَتِهِ بهم، وعظيمِ شفقتِهِ عليهم، ومن أجل ذلك يَدْعُوهُمْ إلى الإيمان باللّهِ وَخَدَهُ ربّاً خالقاً، ويدعوهم إلى عبادته وَخَدَهُ لا شريكَ له.

﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾: الخَوْفُ: انفعالٌ في النفس يَحْدُثُ عند توقّع مَكْرُوهِ قادم، أو توقّع قَوَاتٍ محبوبٍ أو مَرْغُوبٍ فيه.

يقال لغة: خَافَ من كذا، وخَافَ على كذا. ويُقال: خَافَ كذا على نفسه، أو غيره.



● قول الله تعالى:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ١٦٠:

الْمَلَأُ: هُمْ كُبرَاءُ الْقَوْمِ، ورؤساؤهم، ودَوُّو الوجاهة الَّذِينَ يَمْلَأُونَ عُيُونَ الْعَامَّةِ، وملأ القوم هم اللسان الناطق عن أنفسهم وعن عاقتهم، إلا من أعلن خلاف ذلك.

لقد كان هذا ردّ ملاٍ قوم نوح عليه السلام، في مقابل دعوته لهم إلى عبادة الله وخدّه، وشفقتهم عليهم من عذاب يوم عظيم، هو يوم الدين. وظاهر أن هذا الردّ مشحون بالعنف والغلاظة، وفضاظة المستغليين المستكبرين.

● .. إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٠﴾: أي: إِنَّا لَنَعْتَقِدُ اغْتِقَاداً جازماً مُستنداً إلى رُؤية فكرية قلبية، أنك في ضلالٍ عَنِ الْحَقِّ وَضِياعٍ، وضالّلك هذا مُبينٌ واضحٌ لا يحتاجُ إلى إقامة دليلٍ عليه.

تضمن هذا الردّ ألفظ الغليظ الخشن ادعاءهم أنه في ضلالٍ مُبينٍ واضحٍ، دون تقديم آية حجة، وأكّدوا ادعاءهم هذا بمؤكداتٍ دلّ عليها حرف «إن» و«الجملة الإسمية» و«لام الابتداء المزحلقة للخبر»، ومضمون الرؤية الجماعية، إذ قالوا متواطئين: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

﴿فِي ضَلَالٍ﴾: أي: في داخل ضلالٍ أنت مُحاطٌ به.

﴿مُبِينٍ﴾: أي: واضحٌ جليّ لا يحتاجُ إلى إقامة دليلٍ عليه، ولا يحتاج إلى كشفٍ الأستار عنه.

وظاهر أن هذا الادعاء منهم ليس فيه إلا الشتيمة، ومعلوم أن كل ادعاء فيه تجريح واتهام بنقيصة دون حجة أو بُرهانٍ هو من السبابِ والشتائم.

لقد قابلوا دعوته الرفيقة، المغلفة برحمته بهم، وشفقته عليهم بالطعن والشتيمة، على طريقة السفهاء المستكبرين في أقوامهم.



● قول الله تعالى :

﴿قَالَ يَنْفَوِرَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجَبْتَ أَن جَاءَكَ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكَ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ :

اشتملت هذه الآيات الثلاث على بيان الإجابات التي أجاب بها نوح عليه السلام قومه، مقابل رفضهم دعوته، ومواجهته بالشتيمة، وقذفهم له بأنه في ضلال مبين.

وفي هذا البيان إيجازٌ بديع لست قضايا، بسطها نوح عليه السلام في مقالاته الدعوية لقومه :

القضية الأولى : دلّت عليها عبارة : ﴿يَنْفَوِرَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ : أي : يا قوم ليس بي وصف ضلالة ما، لقد شتمتموني بأني كالعريق في الضلالة، وأقول لكم في الدفاع عن نفسي : ليس بي ضلالة ما قليلة أو كثيرة، صغيرة أو كبيرة، فانا خالٍ وبريء من أية ضلالة.

جواب مُشَبَّع بالتهذيب الذي يتحلّى به الدعاة إلى الله، المحاطون بعناية الله، الملتزمون بمقتضيات الحكمة في الدعوة.

لقد دفع نوح عليه السلام الاتهام بالنفي فقط، ولم يردّ على الشتيمة بمثلها، وخاطبهم بقوله : ﴿يَنْفَوِرَ﴾، فنسبهم إلى نفسه، وأضافهم إلى ذاته، وأضلّ التعبير : يا قومي، بإضافة لفظ قوم إلى ياء المتكلم، كما سبق بيانه.

القضية الثانية : دلّت عليها عبارة : ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ : بعد أن نفى نوح عليه السلام عن نفسه ما اتهمه قومه به، أبان لهم أنه لم يدعهم إلى ما دعاهم إليه من تلقاء نفسه، ولكنه مبعوث مرسّل من رب العالمين، مكلف أن يبلغ رسالاته، ومأمور بأن ينصح لقومه، فهو مسؤول من قبله عن القيام بوظائف رسالته التي أرسله بها.

وأبان لقومه في هذا أنه رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً، وَلَفْظُ الْعَالَمِينَ هنا مرادٌ به ما سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَعَلَيْنِهِمْ أَنْ يُضْغُوا إِلَى مَا يُبْلَغُهُمْ عَنْ رَبِّهِ، وَيَتَفَكَّرُوا فِيهِ، فَرَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ رَبُّهُمْ الَّذِي لَا رَبَّ لَهُمْ سِوَاهُ، وَهُوَ مَالِكُهُمْ وَالْمُتَصَرِّفُ بِمَقَادِيرِهِمْ، وَكُلُّ حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، وَكُلُّ مَا يَزْدَادُ فِيهِمْ أَوْ يَنْقُصُ، وَهُوَ الْمُخَيِّ وَالْمُؤِمِّتِ، وَالْمُمْتَحِنُ وَالْمَحَاسِبُ وَالْمَجَازِي.

القضية الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي﴾: أَي: أُبَلِّغُكُمْ تَبَاعاً رِسَالَاتِ رَبِّي، رِسَالَةً فَرِسَالَةً، بِحَسَبِ مَا يَنْزِلُ عَلَيَّ، وَيُكَلِّفُنِي أَنْ أُبَلِّغَكُمْ إِيَّاهُ.

دَلَّتْ صِيغَةُ الْجَمْعِ فِي كَلِمَةِ ﴿رِسَالَتِي﴾ عَلَى أَنَّ تَنْزِيلَ الْبَيِّنَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ عَلَيْهِ، قَدْ كَانَ عَلَى وَفْقِ سُنَّةِ التَّدْرِجِ نَجْماً فَتَجْماً، فِي أَزْمَانٍ مُتَعَدَّةٍ، وَكُلُّ بَيِّنٍ مِنْهَا كَانَ رِسَالَةً مُضَافَةً إِلَى مَا سَبَقَهَا. وَبَعْدَ أَنْ تَجْتَمَعَ الرِّسَالَاتُ كُلُّهَا، وَيُكْمِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الدِّينَ لِعِبَادِهِ، تَكُونُ جَمِيعُهَا مَنْصُمةً فِي رِسَالَةٍ وَاحِدَةٍ.

فَالْتَعَدُّ هُوَ بِاعْتِبَارِ تَنْجِيمِ التَّنْزِيلِ فِي أَزْمَانٍ، وَالْإِفْرَادُ هُوَ بِاعْتِبَارِ جَمْعِ النُّجُومِ وَضَمِّهَا مُتَكَامِلةً فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ، هُوَ الرِّسَالَةُ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ، مُضَافاً إِلَيْهِ مَا أُوحِيَ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ.

وَقَدْ جَاءَ مِثْلُ هَذَا الِاسْتِعْمَالِ عَلَى لِسَانِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلَى لِسَانِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورَةِ (الأعراف) هَذِهِ الَّتِي نَتَدَبَّرُ آيَاتَهَا:

﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١١٤).

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ قَرَأَتَانِ بِالْإِفْرَادِ وَبِالْجَمْعِ، فَرُوعِي بِعِبَارَةٍ: ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ نُجُومُ التَّنْزِيلِ، وَرُوعِي بِعِبَارَةٍ: ﴿بِرِسَالَتِي﴾ بِالْإِفْرَادِ مَجْمُوعُ النُّجُومِ.

وَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رُسُلَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ يَقُولَ لِقَوْمِهِ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۖ﴾ (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرِيَ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۖ﴾ (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرُسُلَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ﴾ (٢٣).

فجاءت عبارة: ﴿وَرِسَالَاتِهِ﴾ بالجمع، نظرًا إلى نُجُومِ تَنْزِيلِ الْوَحْيِ عَلَى الرُّسُولِ ﷺ، وتكليفه أَنْ يُبَلِّغَ مَا أُوْحِيَ بِهِ إِلَيْهِ لِلنَّاسِ.

ومعلوم أَنَّ تَبْلِيغَ رِسَالَةٍ أَوْ رِسَالَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ الْوِظْفَةُ الْأُولَى لِكُلِّ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وفي إعلان نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ أَنَّهُ يُبَلِّغُ رِسَالَاتِ رَبِّهِ تَبَرُّءً مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِنْدَهُمْ مَصْلَحَةٌ شَخْصِيَّةٌ.

القضية الرابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾: أَي: أَقْدِمُ لَكُمْ مَا فِيهِ خَيْرُكُمْ وَسَعَادَتُكُمْ، خَالِيًا مِنَ الزَّيْفِ، وَخَالِصًا مِنَ الْغُشِّ، وَخَالِصًا مِنَ الشَّوَابِ.

يقال لغة: نَصَحَ فُلَانٌ فُلَانًا، وَنَصَحَ لَهُ، إِذَا وَجَّهَ لَهُ مَشُورَةً، أَوْ رَأْيًا، أَوْ قَدَّمَ لَهُ شَيْئًا أَوْ عَمَلًا مَا خَالِصًا مِنَ الْغُشِّ.

والتَّضَحُّعُ فِي الْإِيمَانِ: خُلُوصُهُ مِنَ الشَّرْكِ. وَالتَّضَحُّعُ فِي الْعَمَلِ الدِّينِيِّ: خُلُوصُهُ مِنَ الشَّرْكِ وَالزَّيْءِ. وَهَكَذَا، وَأَصْلُ التَّضَحُّعِ الْخُلُوصُ مِنَ الشَّوَابِ.

والتَّضَحُّعُ يَشْمَلُ اسْتِخْدَامَ كُلِّ الْوَسَائِلِ الْإِقْنَاعِيَّةِ وَالتَّرْبُوتِيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِ صُورِهَا وَأَشْكَالِهَا الْحَكِيمَةِ.

والتَّضَحُّعُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ فِي الدَّعْوَةِ، وَمَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالْغَيْرِيَّةِ بِحِرْصِ النَّاصِحِ عَلَى خَيْرِ الْمَنْصُوحِ، دُونَ مِلَاحَظَةِ ثَوَابٍ مِنْهُ.

والمُرْسَلُونَ كُلُّهُمْ نَصَحَةٌ لِّأَقْوَامِهِمْ، وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الدُّعَاءُ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ.

والمفروض في المؤمنين أن يكون بعضهم لِبَغْضِ وَاذِينَ نَصَحَةٍ. والذِينَ الْحَقُّ الصَّادِقُ هُوَ النَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ.

القضية الخامسة: ذَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٧٢): أي: وَمَا أُبَيِّنُهُ لَكُمْ، وَأُبَلِّغُكُمْ إِلَيَّاهُ، وَأَنْصَحُكُمْ بِهِ، مُسْتَنِدٌ إِلَى عِلْمٍ يَقِينِي عِلْمِي اللَّهِ إِلَيَّاهُ، وَلَيْسَ مِنْ عِنْدِي، فَإِنِّي أَعْلَمُ عِلْمًا أَنَا نِي وَخِيًا مِنَ اللَّهِ، وَهَذَا الْعِلْمُ الَّذِي يَأْتِينِي مِنَ اللَّهِ لَا تَعْلَمُونَهُ بوسائلكم، فَأَنَا أُبَلِّغُكُمْ إِلَيَّاهُ.

وفي هذا رَدُّ مُهَذَّبٍ عَلَى قَوْمِهِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى اتِّهَامِهِمْ لَهُ بِأَنَّهُ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، بِإِثْبَاتِ أَنَّهُ يَعْلَمُ حَقَائِقَ آيَةٍ إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ، لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْعِلْمِ بِهَا بِوَسَائِلِهِمْ، وَفِيهِ أَيْضًا تَوْجِيهٌ لَهُمْ لِلانْتِفَاعِ بِمَا يُعْلَمُهُمْ مِنْ عِلْمٍ لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَا شَائِبَةَ تَشْوِبِهِ، لِأَنَّهُ وَخِيٌّ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

ومن البدهي أن الْعِلْمَ مُبَايِنٌ لِلضَّلَالِ الَّذِي يُؤَلِّدُهُ، وَيَذْفَعُ إِلَيْهِ الْجَهْلُ، فَلْيَكْفُوا عَنْ اتِّهَامِهِ بِأَنَّهُ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَلْيَتَفَكَّرُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، مِنْ حَقَائِقِ تَقْبُلِهَا الْعُقُولُ وَتُسَلِّمُ بِهَا، وَلَا تَجِدُ فِيهَا بَاطِلًا وَلَا شَكًّا.

وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بعض تفصيل لهذه القضية بقول الله عز وجل فيها حكاية لمقالة نوح عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ يَتِّنٍ مِّن رَّبِّي وَهَٰئِنِّي رَحْمَةٌ مِّن عِندِهِ فَعَبَّيْتُ عَلَيْكُمْ آلَاتٍ مِّمَّا كُنتُمْ تَكَرِّهُونَ﴾ (١٢٨)!

أي: أَفَكَّرْتُمْ فِي اخْتِمَالِ أَنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي تَشْهَدُ لِي بِأَنِّي صَادِقٌ فِيمَا أُبَلِّغُ عَنْهُ؟! فَكَّرُوا وَأَخْبَرُونِي.

﴿إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّي﴾ : أي : إِنْ كُنْتُمْ مَتَمَكَّنًا مِنْ حُجَّةٍ قَاطِعَةٍ بَيِّنَةٍ آتِيَكُم بِهَا مِنْ رَبِّي ، كَمُعْجِزَةٍ بَاهِرَةٍ ، أَوْ بِرَاهِينٍ آسِرَةٍ مُحَاصِرَةٍ .

﴿وَاللَّيْلِ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾ : أي : وَأَتَانِي مَعَ هَذِهِ الْبَيِّنَةِ رَحْمَةً لَّكُمْ مِنْ عِنْدِهِ ، هِيَ الدِّينُ ، وَمَا فِيهِ مِنْ تَعْلِيمَاتٍ وَبَيِّنَاتٍ وَوَصَايَا تَتَضَمَّنُ نَجَاتَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَسَعَادَتَكُمْ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ .

أي : أَفَكَّرْتُمْ فِي مَضْمُونِ رِسَالَاتِ رَبِّي الَّتِي جِئْتُكُمْ بِهَا ، وَالَّتِي هِيَ رَحْمَةٌ عَظِيمَةٌ لَّكُمْ ؟ فَكَّرُوا وَأَخْبَرُونِي .

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ : أي : فَأَخْفِيَتْ عَلَيْكُمْ ، وَالتَّبَسَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُهَا .

﴿أَنزَلْنَاهُمْ مَّا أَنشَأَ لَهَا كَرِهُونَ﴾ : أي : أَنكَرَهُكُمْ عَلَى التَّزَامِ هَذِهِ الرَّحْمَةُ الْعَظِيمَةُ ، الَّتِي هِيَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لَكُمْ ، وَالْحَالُ أَنَّكُمْ كَارِهُونَ قَبُولَهَا وَالِاتِّزَامَ بِمَا جَاءَ فِيهَا !

استفهام إنكاري ، أي : لَا نُلْزِمُكُمْ إِيَّاهَا ، وَلَا نُجْبِرُكُمْ عَلَيْهَا ، إِذْ أَنْتُمْ فِي رِخْلَةٍ امْتِحَانٍ وَابْتِلَاءٍ ، عَنْ طَرِيقِ اخْتِيَارَاتِكُمُ الْحُرَّةِ ، وَالْإِنْكَرَاءِ لَا يُعْقَلُ فِي الدِّينِ ، الْقَائِمِ عَلَى الْإِيمَانِ الَّذِي هُوَ فِي جَذَرِهِ اخْتِيَارٌ إِرَادِيٌّ قَلْبِيٌّ ، ذُو آثَارٍ فِي السُّلُوكِ الظَّاهِرِ .

القضية السادسة : دَلَّتْ عَلَيْهَا آيَةٌ : ﴿أَوْ عَجَبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ نَجْلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَذْكُرُوا لَكُمْ رُحْمًا﴾ ﴿١٣٦﴾ :

فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَلْخِصُ غَايَةُ فِي الْإِثْقَانِ الْبَيَانِيِّ وَالْإِيجَازِ ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ إِبْدَاعَاتٍ بِلَاغِيَّةٍ .

لَمْ يَقُلْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنْ رَفَضْتُمْ لِرِسَالَتِي لَا سَنَدَ لَهُ مِنْ مَوَازِينِ الْفِكْرِ وَمَحَاكِمَاتِهِ ، بَلْ هُوَ تَعْجَبٌ قَائِمٌ عَلَى انْكَارِ مَا لَمْ تَأْلَفُوا .

إِنَّمَا عَرَضَ هَذَا الْمَعْنَى نَفْسَهُ مَغْلَفًا بِصِيغَةِ اسْتِفْهَامٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : ﴿أَوْ

عَجَبْتُمْ﴾ ؟ !

وَدَلَّنَا حَرْفَ العطف بعد همزة الاستفهام في هذه العبارة، على أَنَّهُ يُوجَدُ مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ مُقَدَّرٌ ذَهْنًا بَيْنَ الاستفهام وحَرْفِ العطف (الواو) ومن السَّهْلِ على المتدبِّر أَن يُذَكِّرَكَ هذا المحذوفُ المقَدَّرُ^(١).

إِنَّهُمْ كَرِهُوا تَرْكَ مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَاتَّبَعَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَعَلَّلُوا لِإِنْكَارِ رِسَالَتِهِ بِإِظْهَارِ التَّعَجُّبِ مِنْ أَنَّ يَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا.

وَلَمَّا طَوَّأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا كَرِهُوا مِمَّا يَخَالِفُ أَهْوَاءَهُمْ، وَهُوَ مَائِلٌ فِي أَذْهَانِهِمْ وَفِي قُلُوبِهِمْ، لَمْ يَذْكُرْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي اللَّفْظِ، لَكِنْ أَشَارَ إِلَيْهِ بِحَرْفِ العطف «الواو»، فَأَظْهَرَ مَا أَظْهَرُوا، وَقَدَّرَ مَا أَبْطَنُوا، مُكْتَفِيًا بِالْإِشَارَةِ الْخَفِيَّةِ إِلَيْهِ، وَكَانَ ذَلِكَ بِذِكْرِ حَرْفِ العطف على معطوفٍ عليه مقَدَّرٌ ذَهْنًا.

وَلَدَى إِظْهَارِ هَذَا الْمَقْدَّرِ ذَهْنًا أَقُولُ: أَكْرِهْتُمْ تَرْكَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُمْ بِهِ، وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ!!

أَمَّا الْمُتَعَجِّبُ مِنْهُ فَقَضِيَّتَانِ:

القضية الأولى: أَنَّ يَأْتِيَهُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّهِمْ.

القضية الثانية: أَنَّ يَنْزِلَ هَذَا الذِّكْرُ عَلَى رَجُلٍ بَشَرٍ مِنْهُمْ، وَيَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ رَسُولًا لِلَّهِ يُبَلِّغُ قَوْمَهُ الذِّكْرَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، لِيُبَلِّغَهُ لِقَوْمِهِ.

إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَطْرَحْ فِي هَذَا الْبَيَانِ قَضِيَّةَ بُنْيَانِهِ وَرِسَالَتِهِ، بَلْ طَرَحَ قَضِيَّةَ الذِّكْرِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ، لِيَكُونَ هَذَا الذِّكْرُ سَاحَةً فِكْرِيَّةً مَعْرُوضَةً لِلْمُنَاطَرَةِ وَالْمُجَادَلَةِ حَوْلَ عُنَاصِرِهَا.

وَلَمَّا كَانَ الذِّكْرُ الَّذِي يَبْعَثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ رُسُلَهُ مُشْتَمِلًا عَلَى قَضَايَا

(١) لَدَى تَدَبُّرِي لَكَثِيرٍ مِنَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ تَكْشَفُ لِي أَنَّ الْعُطْفَ عَلَى مُحذُوفٍ مُقَدَّرٍ ذَهْنًا لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مَا يَسْمِيهِ النِّجَاجَةُ «الفاء الفصيحة» بَلْ كُلُّ حُرُوفِ الْعُطْفِ قَابِلَةٌ لِأَنَّ تَكُونَ فَصِيحَةً تُفْصِحُ عَنْ مَعْطُوفٍ عَلَيْهِ مُحذُوفٍ، وَالْوَاوُ هُنَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ.

حَقٌّ، وهذه القضايا تُقَامُ عَلَيْهَا الأدلة البرهانية، والأدلة الإقناعية، كَانَ الْبَدْءُ بِطَرْحِ قِصَّةِ الذِّكْرِ وما جاء فيه مِنْ حَقَائِقِ هُوَ الْأَسْلُوبُ الْأَجْدَى لِلِإِقْتِنَاعِ، أَوْ لِلإِزْجَامِ وَالإِفْحَامِ.

فَالرُّبُوبِيَّةُ وَتَوْحِيدُهَا، وَالْإِلَهِيَّةُ وَتَوْحِيدُهَا، وَصِفَاتُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ، الَّتِي مِنْهَا عِلْمُهُ، وَحِكْمَتُهُ، وَقَضَاؤُهُ وَقَدْرُهُ، وَقُدْرَتُهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَخَلْقُهُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَعَنَائَتُهُ بِعِبَادِهِ، وَرَحْمَتُهُ وَعَدْلُهُ، كُلُّهَا أُمُورٌ مَعَهَا أَدِلَّتُهَا الْعَقْلِيَّةُ الْبَرْهَانِيَّةُ، وَتَشْهَدُ لَهَا ظَوَاهِرُ الْكَوْنِ، وَمُجَرِّيَاتُ الْأَحْدَاثِ.

وَمَتَى ظَهَرَ لَهُمْ أَنَّ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَلَا شَائِبَةَ تَشْوِبِهِ، كَانَ أَمْرُ إِبْرَاهِيمَ ثُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ، وَإِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ يُبَلِّغُ هَذَا الذِّكْرَ عَنْ رَبِّهِ، وَإِبْرَاهِيمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُوجِي بِهِ إِلَيْهِ، أَمْرًا سَهْلًا سَبَقَ التَّمْهِيدُ الْفَكْرِيُّ لَهُ.

وَنَسْتَفِيدُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْبَدْءَ بِالِإِقْنَاعِ حَوْلَ مَضْمُونِ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى قَوْمٍ لَيْسَ لَهُمْ عَهْدٌ قَرِيبٌ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ هُوَ الْأَمْرُ الْحَكِيمُ.

وهذا هو الذي اتَّخَذَهُ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مُجَادَلَتِهِ لِقَوْمِهِ، بِمَقْتَضَى هَذَا النَّصِّ.

وَالْمَرَادُ بِالذِّكْرِ الْبَيَانَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُنْزِلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِاللَّفَظِ تَتَلَّى وَتُفْهَمُ وَتَحْفَظُ، كَسَائِرِ الصُّحُفِ وَالْكِتَابِ الرَّبَّانِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى بَعْضِ الْمُرْسَلِينَ.

وَقَدْ جَاءَتْ تَسْمِيَةُ هَذِهِ الْبَيَانَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ ذِكْرًا لِأَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: أَنَّ بَعْضَ عَنَاصِرِ رِسَالَاتِ الْمُرْسَلِينَ هِيَ مِنَ الْحَقَائِقِ الْمَعْرُوزَةِ فِي عَقُولِ النَّاسِ وَنَفُوسِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ، فَهِيَ لَا تَخْتَاجُ أَكْثَرَ مِنْ كَشْفِ لَهَا، وَتَذْكِيرِ بِهَا.

الأمر الثاني: وهذا هو الأهم، أَنَّ كُلَّ عُنَاوِرِ رِسَالَاتِ الْمُرْسَلِينَ حَقَائِقُ وَتَعْلِيمَاتٌ رَبَّانِيَّةٌ، يُطَلَّبُ مِنَ الْمَكْلُفِينَ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَأَنْ يَتَفَهَّمُوهَا، ثُمَّ يُطَلَّبُ مِنْهُمْ أَنْ يَتَعَهَّدُوهَا بِالتَّذَكُّرِ حِينًا فَحِينًا، عَلَى مَدَى الْآيَامِ وَالسِّنِينَ، وَعِنْدَ كُلِّ عَمَلٍ يَقْتَضِي شَيْئًا مِنْهَا، وَعِنْدَ كُلِّ عَارِضَةٍ، تَسْتَدْعِي شَيْئًا مِنْهَا، لِتَكُونَ الْقَاعِدَةُ الْإِيمَانِيَّةُ حَاضِرَةً فِي الذَّاكِرَةِ، فَتَذْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْإِزَامِ شَرِيعَتِهِ، وَلِتَكُونَ أَحْكَامُهَا وَوَصَايَاها بِرَامِجٍ مَائِلَةً فِي الذَّاكِرَةِ، وَنُورًا مَبِينًا يَهْتَدِي بِهِ السَّالِكُونَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ، وَتَسْوِيلَاتِهِمْ، وَتَضْلِيلَاتِ الْمُضْلِينَ، وَلِيَسْتَرْشِدَ بِهَا مُفْتَحِمُوا عَقَبَاتِ النَّفُوسِ وَالْأَهْوَاءِ وَمَصَاعِبِ الْحَيَاةِ، وَمَا فِيهَا مِنْ صَنُوفٍ ابْتِلَاءٍ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالتَّنْفِيعِ وَالضَّرِّ، وَكُلِّ مَا فِيهِ فِتْنَةٌ لِاخْتِبَارِ الصَّبْرِ وَاخْتِبَارِ الشُّكْرِ.

وطوى البيان في هذا النص عناصر المجادلة الإقناعية، والإلزامية والإفحامية، حول القضيتين اللتين تعجَّب قومُ نوحٍ منهما، وقد سبق بيانهما بتفصيل.

● ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ اشتملت هذه العبارة على بيان الغاية من إنزال الذكر على نوح عليه السلام، وهي تتلخص بثلاثة عناصر:

العنصر الأول: دلَّت عليه جملة: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾: أي: لِيُنذِرَكُمْ بِعِقَابِ اللَّهِ الْمُعْجَلِ وَالْمُؤَجَّلِ إِذَا لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَمْ تَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ.

الإنذار: الإعلام بما هو مخوف منه، والتحذير من مخوف منه مادي أو معنوي، والإخبار بعواقب غير سارة، أو بعواقب مؤلمة، كشرِّ قادم، أو عقوبة على مكتسب إرادي، من قول أو عمل أو اعتقاد.

ولا يكون الإنذار في قضايا الذين إلا بعد البيان التعليمي، واتخاذ الوسائل الإقناعية، ولا يكون أيضاً إلا مصحوباً بالتبشير بالعواقب السارة السعيدة لمن آمن وأطاع.

هذا العُنْصُر لوحظ فيه المَذَكَّرُ، وهو الرُّسُولُ وما أُنْزِلَ عَلَيْهِ من ذِكْرِ.
 العُنْصُر الثاني دَلَّت عليه جملة: ﴿وَلَنَنْفُوْا﴾: أي ولتَذَرِكُوا خطر
 عقاب الله الشديد، فتَجِدُوا في أَنْفُسِكُمْ دافعاً لَأَنْ تَتَّقُوهُ، بالإيمان والعمل
 الصالح الرّشيد، النَّاشِئِينَ، عن اختياركم الحرّ، إذا اخترْتُمْ لأنفُسِكُمْ النّجاة
 عند رَبِّكُمْ من عذابه، والظَّفَر بجَنَّتِهِ يَوْمَ الدِّينِ.

وهذا العُنْصُر لوحظ فيه المتلقُّون، بَعْدَ تَلَقِّيهِمُ الذِّكْرَ المنزَّلَ من رَبِّهِمْ
 على رُسُولِهِ، لِيُبَلِّغَهُمْ إِيَّاهُ.

واللّام في عبارة ﴿وَلَنَنْفُوْا﴾ إمّا أن تكون للدّلالة على الطَّلَب، أي:
 وليُطَلَّبَ فيه منكم أن تَتَّقُوا، وإما أن تكون لتعليل توجيه الأوامر والنواهي
 التي من عمل بها وقى نفسه.

التَّقْوَى: أن تجعلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ما تَحْذَرُ وِقَايَةً حافظةً، من أذى أو
 عقوبة، أي: شيئاً يقي وَيُخِمِّي، ويحفظ.

تقول لغة: اتَّقَيْتُ اتِّقَاءً، وَتَوَقَّيْتُ تَوَقَّيًّا، وَتَقَّيْتُ، وَتَقَّيَّةً، وَتَقَاءً، أي:
 جعلْتُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ما فيه شَرٌّ أو ضَرٌّ ما يقيك ويحفظُكَ.

والاسم: «التَّقْوَى». والتَّقْوَى في السُّلُوكِ الدِّينِيِّ تَكُونُ بِفِعْلِ الواجبات
 وَتَرْكِ المحرّمات، أمّا التوسُّعُ فوق ذلك من الخيرات والصالحات فهو من
 مرتبة البرّ، وأمّا إِحْسَانُ الْعَمَلِ وتجويده ظاهراً وباطناً، مع الإخلاص لله
 وكمال مراقبته، فهو من مَرْتَبَةِ الإحسان.

العُنْصُر الثالث: دَلَّت عَلَيْهِ جُمْلَةُ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: وليَتَحَقَّقَ
 رَجَاؤُكُمْ بِالظَّفَرِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، فَيَدْخِلَكُم جَنَّاتِ النَّعِيمِ، يَوْمَ الدِّينِ، إِذَا اتَّقَيْتُمْ
 فَأَمَنْتُمْ وَأَطَعْتُمْ.

وهذا العُنْصُر لُوحِظَ فيه المتلقُّون بَعْدَ التَّأَثُّرِ بِمَضْمُونِ الذِّكْرِ المنزَّلِ من
 رَبِّهِمْ على رُسُولِهِ، والإيمان به، وتوجيه الإرادة للعمل بمقتضاه.

وُطِيَ مِنَ النَّصِّ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ وَالذَّكَرَ مُبَشِّرَانِ بِالشَّوَابِ الْجَزِيلِ فِي جَنَاتِ النِّعَمِ، لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، اكْتِفَاءً بِإِشَارَةِ عِبَارَةِ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾: أي: وَلِيُبَشِّرَكُمْ، وَلَعَلَّكُمْ تَسْتَجِيبُونَ، فَتُؤْمِنُوا، وَتُطِيعُوا، فَتَرْحَمُوا بِدُخُولِ جَنَاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ، وَاكْتِفَاءً بِالذَّلِيلِ الْفِكْرِيِّ الَّذِي يَغْقُدُ اقْتِرَانًا دَائِمًا بَيْنَ الْجَزَاءِ بِالشَّوَابِ، وَالْجَزَاءِ بِالْعِقَابِ، وَهُوَ مَا جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ فِي أَكْثَرِ النُّصُوصِ.



● قول الله تعالى:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ (١٤):

● ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: أي: فَكَذَّبَهُ الْجُمْهُورُ الْأَعْظَمُ مِنْ قَوْمِهِ، وَكَانَ هَذَا التَّكْذِيبُ عَقِبَ كُلِّ الْإِقْنَاعَاتِ وَالْجَدَلِيَّاتِ، وَمُخْتَلِفِ وَسَائِلِ الْعِلَاجَاتِ التَّربَوِيَّةِ الْحَكِيمَةِ، وَمِنْهَا التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيْبُ، وَعَقِبَ الصَّبْرِ الطَوِيلِ جَدًّا الَّذِي تَحْمَلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَجْلِهِمْ، رَحْمَةً بِهِمْ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَحِرْصًا عَلَى نَجَاتِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ.

وفي عبارة: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ إيجازٌ لِكُلِّ مَا كَانَ مِنْهُمْ تُجَاهَهُ وَتُجَاهَ رِسَالَةِ رَبِّهِ الَّتِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهَا، وَقَدْ جَاءَ بَعْضُ تَفْصِيلِ لَهُ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْأُخْرَى الَّتِي أَنْزَلَتْ بِشَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ.

إِنَّ قَوْمًا كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ، وَهُمْ ذَوُو قُوَّةٍ وَمَنْعَةٍ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ أَحْقَابًا عَدِيدَةً عَامَلَهُمُ اللَّهُ فِيهَا بِالْإِمْهَالِ، نَظْرًا إِلَى أَحْوَالِهِمُ الْبِدَائِيَّةِ، وَإِلَى أَنَّهُمْ أَوَّلُ أُمَّةٍ سَتَهَلَكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ، وَتَهْدِيدِهِمْ إِيَّاهُ بِالرَّجْمِ، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ مِنْ إِيْذَاءِ لِلرَّسُولِ وَمَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ. وَمُقَاوَمَةٌ لِدَعْوَتِهِ، وَإِصْرَارٌ عَلَى الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ، وَالْفِسْقِ وَالْفُجُورِ وَالْعُدْوَانِ.

• ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّكَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾:

أي: فَأَنجَيْنَا نُوحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، من الغرق وَمِنْ مَكَايِدِ قَوْمِهِ الْمَكْذِبِينَ، وَكَانَتْ نَجَاتُهُمْ بِالْحَدِيثِ الْعَظِيمِ، الَّذِي تَمَّ بِهِ إِزْسَالُ الطُوفَانِ الشَّامِلِ، وَإِرْكَابُ نُوحٍ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّكَ، وَإِغْرَاقُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ فِيهَا.

الْفُلِّكَ: مركب البحر، يطلق على الواحد والاثنين والجمع، ويُذَكَّرُ ويؤنَّثُ.

وفي هذا إيجازٌ للحديث الأخير من قصّةِ نوح مع قومه، تضمّن إلماحاً للطوفان العام، الَّذِي أَغْرَقَ اللَّهُ بِهِ الْمَكْذِبِينَ، وَالْمَاحِئاً لِلْأَحْدَاثِ الَّتِي نَتَجَّ عَنْهَا رُكُوبُ نُوحٍ وَمَنْ مَعَهُ وَمَا مَعَهُ فِي الْفُلِّكَ، وَجَزُيْهَا بِعِنَايَةِ اللَّهِ وَحِفْظِهِ، حَتَّى مُسْتَقَرِّ النِّجَاةِ.

• ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾:

في هذه الجملة بيان الصّفة الدائمة الّتي سبّبت لقومِ نوح التّكذيب والعناد والغدوان، والإضرارَ على الكُفْرِ والظُّلْمِ والطغيان، حَتَّى الْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ بِالطُوفَانِ.

﴿عَمِينَ﴾: جَمْعُ «عَمٍ» بمعنى «أَعْمَى»، أي: هُمْ عَمُونَ عَنْ رُؤْيَا الْحَقِّ، وَالْإِهْتِدَاءِ بِآيَاتِهِ وَدَلَالَتِهِ، وَعَنْ رُؤْيَا أَنْوَارِهَا الْبَيَانِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ وَالْوُجْدَانِيَّةِ.

إِنَّ الْعَمَى أَنْوَاعٌ، فَمِنْهُ مَا هُوَ فِي الْبَصَرِ الظَّاهِرِ، وَمِنْهُ مَا هُوَ فِي الْقُلُوبِ وَالْبَصَائِرِ، وَكَذَلِكَ كَانَ قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.



الفصل الثاني

التدبر التحليلي للقطات المختارات

في هذه السورة من قصة هود عليه السلام وقومه
الآيات من (٦٥ - ٧٢)

قال الله عز وجل:

﴿وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُمْ هُدًى قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُومُونَ﴾ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَنْقُومِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُتِلْفَكُم رِسَالَتِي ربي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنِزْنَا بِمَا نَعُدُّكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَیْبٌ أُنْجِلُونَنِي فَمِنْ أَسْمَاءٍ سَبَّيْتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَجَبْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿﴾ (٧٢)

القراءات:

(٦٥) • قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ برفع كلمة «غَيْرُهُ». وقرأ الكسائي، وأبو جعفر: ﴿غَيْرُهُ﴾ بجر كلمة «غَيْر».

والقراءتان جاءتا على وجهين إعرابين جائزين، فالرفع على أن «غير» صفة للفظ «إله» روعي فيه المحل وهو الرفع، لأن «مِنْ» حرف جر زائد للتنصيص على العموم، والجر روعي فيه حركة الجر الظاهرة في لفظ «إله».

(٦٨) • قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿أُبْلَغُكُمْ﴾ بفتح الباء وتشديد اللام من فعل: «بَلَغَ». وقرأ أبو عمرو: ﴿أُبْلَغُكُمْ﴾ من فِعْلٍ «أَبْلَغَ» المهموز. والقراءتان متكافئتان، فالهمز أخو التضعيف.

(٦٩) • قرأ ﴿بَسْطَ﴾ بالسَّيْنِ، قُنْبُل، وأبو عمرو، وهشام، وحفص، وخلف عن حمزة، ورؤيس، وإحدى روايتين عن خلاد، وخلف عن نفسه.

وقرأ: ﴿بَضْطَ﴾ بالصاد، باقي القراء العشرة، وهي الوجه الثاني لخلاد.

وهما وجهان عربيَّان في التَّنْقِطِ.

(٧٠) • قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿أَجِئْنَا﴾ بالهمزة بعد الجيم. وقرأ السُّوسِي، وأبو جعفر في الوقف والوصل، وحمزة في الوقف: ﴿أَجِئْنَا﴾ بإبدال الهمزة ياءً.

والقراءتان وجهان عربيَّان في التَّنْقِطِ.

(٧٠) • قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿فَاتِنَا﴾ بهمزة ساكنة بعد الفاء. وقرأ وزش، والسُّوسِي، وأبو جعفر في الوقف والوصل، وحمزة في الوقف: ﴿فَاتِنَا﴾ بِأَلْفٍ مَدِّيَّةٍ بَعْدَ الْفَاءِ. والقراءتان وجهان عربيَّان في التَّنْقِطِ.

تمهيد

هذا هو النَّصُّ السَّادِسُ بحسب ترتيب النزول، من النصوص المتعلقة بهُودٍ عليه السَّلامُ، وقومه «عاد» من أصل «١٩» نَصًّا عَرَضَتْ لِقَطَاتٍ مُوزَّعَاتٍ على (١٩) سورة.

وقد سبق تدبر النصوص الخمسة الأولى، لدى تدبر السور التالية:
«الفجر - النجم - ق - القمر - ص».

عَادَ قومٌ من العرب كانت مساكنُهُمْ في أرضٍ «الأحقاف» من جنوب شبه الجزيرة العربية، وهي تقع في شمال «حضر موت»، ويقع في شمال «الأحقاف» ما يُسمى «الزبج الخالي» وفي شرقها «عَمَان» وموضعُ بلادهم اليوم رِمَالٌ قاحلةٌ لا أنيس فيها ولا ديار.

وقد أُرْسِلَ اللَّهُ إليهم رسولاً مِنْهُمْ هو «هُودٌ» عليه السلام بنُ عبد الله بن ربّاح بن الخلود بن «عَادٍ» جدُّ هؤلاء القوم، على ما يذكر أهلُ التاريخ، وينتهي نسبُهُمْ إلى «سام» بن «نوح» عليه السلام.

وتُعتبر «عَادٌ» من العرب البائدة، باستثناء الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ، وأنجاهم الله عز وجل مع رسولهم من الهلاك الشامل الذي نزل بكُفَّار قومِهِمْ.

وكان هؤلاء القومُ أشدَّاءَ أقوياءَ ممَّن زادَهُمُ اللهُ عز وجل بَسْطَةً في الخلق، وكانوا مُتَرَفِّينَ في الحياة الدنيا بالنسبة إلى أهل زمانهم، فَقَدْ أَمَدَّهُمُ اللهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ بِإِعْطَائِهِمُ وَبِنِينِ، وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ، وَأَلْهَمَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا مَصَانِعَ لَجَمْعِ المِياهِ فيها، وَأَنْ يَبْنُوا قُصُوراً شامخةً، إلى غير ذلك مِنْ وسائلِ التَّرفِ بحسَبِ أزمانِهِمْ، وَضَمَّنَ حُدُودَ تَقَدُّمِ الناسِ الحضاريِّ حينئذٍ.

وكانوا أهلَ بَطْشٍ، فإذا بَطَّشُوا بَطَّشُوا جَبَّارِينَ، وكانوا أَصْحَابَ آلِهَةٍ مِنَ الْأَوْثَانِ يَغْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وعن ابنِ إسحاق أَنَّ أَضْنامَهُمْ «صَدَاءَ - وَصْموذ - والهباء» كما رَوَى الطَّبْرِي.

وكانوا يُنْكِرُونَ الدارَ الآخرةَ، والبعثَ للحساب وَفَضْلَ القضاء وتحقيقِ الجزاء، كما أخبرَ اللَّهُ عز وجل عنهم، وكانوا يقولون مَا أَبَّاهُ اللَّهُ تعالى عنهم في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حِكْمَانَا الْدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٣٧).

ومع الخط الرئيسي الذي سارت عليه دروس السورة بوجه عام، والمبين في الآية الثالثة منها، وهي قول الله عز وجل:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٨).

عَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِقَطَاةٍ مِنْ قِصَّةِ «عَادٍ» وَرُسُولِهِمْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَبِينًا تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ إِهْلَاكَهُمْ الشَّامِلَ قَدْ كَانَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ، وَعَدَمِ اتِّبَاعِهِمْ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، ذَلِكَ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي آخِرِ النَّصِّ

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَذَيْنَا لَهُمْ دَارَ الْآلِيزِ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧١).

أي: كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْكُونِيَّةِ، وَآيَاتِنَا الْإِعْجَازِيَّةِ، وَآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ الْمَنْزَلَةِ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِهْلَاكَاً جَمَاعِيّاً عَامّاً شَامِلاً، إِذْ صَارُوا مَادَّةَ فُسَادٍ وَإِفْسَادٍ فِي الْأَرْضِ، وَمَا كَانُوا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا، فَاقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ إِهْلَاكَهُمْ وَقَطَعَ دَابِرَهُمْ.

التدبر:

● قول الله تعالى:

﴿وَالِلَّيْلِ عَادٍ لَهَا هُمْ هُودًا﴾: أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَبِيلَةِ «عَادٍ» أَوْ الْقَوْمِ الْمَعْرُوفِينَ بِاسْمِ «عَادٍ» الرَّسُولَ النَّبِيَّ «هُودًا» وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ نَسَبًا وَلُغَةً وَمَوْطِنًا.

وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ، قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: «أَخَاهُمْ»، فَالْأَصْلُ أَنْ يُطْلَقَ هَذَا التَّعْبِيرُ عَلَى مَنْ كَانَ مِنَ الْقَوْمِ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَنْ انْدَمَجَ فِي الْقَوْمِ مِنْ غَيْرِهِمْ، كَأَنْ تَزَوَّجَ مِنْهُمْ، مِثْلَ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ

كان من قَوْمِهِ بالمصاهرة، لا بالنسب، فقال الله عز وجل بشأنِهِ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٦١)؟

● قول الله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥)؟.

مقالة هود عليه السلام هذه لقومه، تُشبه مقالة نوح عليه السلام لقومه، إلا أن نوحاً قال لقومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥٩)، بعد أن أمرهم بعبادة الله وحده.

أما هود عليه السلام فقد قال لقومه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٦٥)؟؟.

إن عبارة نوح عليه السلام فيها إشعارٌ صريح لهم بشفقته عليهم، وخوفه من أن يُعرضوا أنفسهم بسبب كفرهم وعدم اتباعهم ما أنزل إليهم من ربهم، لعذاب يوم عظيم، هو يوم الدين.

أما عبارة هود عليه السلام ففيها تلطفٌ بالعرض، ولم يُشعرهم بصريح العبارة بشفقته عليهم، وخوفه عليهم من عذاب الله يوم الدين، لكن مضمون طلب «أن يتقوا» فيه معنى رغبته في نجاتهم، وخوفه عليهم من عذاب الله.

﴿يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أي: يا قَوْمِي اعْبُدُوا اللَّهَ وَخُدْهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بعبادته شيئاً.

﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾: أي: ما لَكُمْ مِنْ مَعْبُودٍ هُوَ رَبٌّ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُ اللَّهِ عز وجل.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟: أي: أَفَلَا تَخَافُونَ عقابَ اللَّهِ وعذابه الذي أَعْتَدَهُ لِلَّذِينَ يُشْرِكُونَ به، وَيَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا أَوْ إِلَهَةً يُعْبُدُونَهَا، فَتَتَّقُونَ هَذَا

العقاب باجتنابِ الشُّركِ، وباتِّباعِ مَا أُنزِلَ إليكم من ربِّكم، وطاعته فيما يأمرُكم به، وفيما ينهاكم عنه، فَتَوَدُّونَ مَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ، وَتَتْرُكُونَ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ.

● قول الله تعالى :

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (٦٦) :

دلّ قول الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ على أَنَّ بَعْضَ مَلَائِقِهِ قومه قد آمَنُوا به، وَلَوْ كَانَ جَمِيعُ المَلَأِ كافرين به، لَجاءَ التَّعبيرُ كما جاء في قِصَّةِ قومِ نوحٍ عليه السَّلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾.

إِنَّ عبارة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَضُفَّ تَقْيِيدِي يُخْرِجُ الَّذِينَ لَمْ يَكْفُرُوا، ومِثْلُ هذا الإخراجِ يَدُلُّ على وجودهم.

ملأ القوم: هم كُبرائُهُمْ وَسَرَائُهُمْ ورؤساؤُهُمْ وذوو الوجاهَةِ فيهم الَّذِينَ يَمْلَأُونَ عُيُونَ العامة.

وقد قَابَلَ هؤلاء الكافرون من المَلَأِ هُوداً عَلَيْهِ السَّلامُ بِشَتِيمَتَيْنِ

الشتيمة الأولى: ذَلَّتْ عليها عبارة: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾

السَّفَاهَةُ: هِيَ الخَفَّةُ والطَّيْسُ مِنْ نَقْصِ العقل، وهي ضِدُّ الرُّشد. يُقال لغة: سَفَهُ فلانٌ سَفَاهاً وسَفَاهَةً. وَيُقال سَفِهَ سَفْهاً، أي: صار سَفِهاً خَفِيفاً ناقصَ العَقْلِ غَيْرَ رَشِيد.

وأكَّدُوا مَقُولَتَهُمْ هذه بعدةِ مؤكَّدات: «إِنَّ - والجملة الإسمية - ولَاَمَ الابتداء المرحِّلة للخبر - الرؤية الجماعية»، أي: إِنَّا نَعْتَقِدُ اعتقاداً جازماً، مُسْتَنِدّاً إلى رُؤْيِيَةٍ فِكْرِيَّةٍ، أَنَّكَ في سَفَاهَةٍ، بمعنى أَنَّ السَّفَاهَةَ ظَرْفٌ لِه فِهي مُحِيطَةٌ به.

وظاهر أن هذا «الادعاء مِنْهُمْ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا الشَّتِيْمَةُ، ومعلوم أن كُلَّ ادِّعَاءٍ فِيهِ تَجْرِيحٌ وَاتِّهَامٌ بِنَقِيصَةٍ دُونَ حُجَّةٍ أَوْ بُرْهَانٍ، هو من السُّبَابِ والشتائم».

لقد قَابَلُوا دَعْوَةَ رَسُولِهِمُ الْمُسْتَنَدَةَ إِلَى مَنْطِقِ الْعَقْلِ وَحُجَجِهِ وَبِرَاهِينِهِ، بِالطَّغْنِ وَالتَّجْرِيحِ وَالشَّتِيْمَةِ، مع أن مِثْلَ هَذِهِ الْمَقَابَلَةِ لَا يَفْعَلُهَا عَاقِلٌ مُنْصِفٌ طَالِبٌ حَقًّا.

الشَّتِيْمَةُ الثَّانِيَةِ: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَأِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

أَكْدُوا هَذِهِ الشَّتِيْمَةَ الثَّانِيَةَ بِمِثْلِ مَا أَكْدُوا بِهِ الشَّتِيْمَةَ الْأُولَى، لَكِنْ اتِّهَامُهُمْ لَهُ بِأَنَّهُ كَاذِبٌ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَدْ اعْتَمَدُوا فِيهِ عَلَى الظَّنِّ، إِذْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ حُجَّةٌ يَقْدُمُونَهَا صَالِحَةً لِإثْبَاتِ بُطْلَانِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ، وَإِثْبَاتِ صِحَّةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ شِرْكَ.

وَلَدَى تَحْلِيلِ ظَنِّهِمْ بِالْمَوَازِينِ الْفِكْرِيَّةِ السَّلِيمَةِ نَجَدُهُ مِنْ قَبِيلِ الْأَوْهَامِ، الَّتِي لَا قِيَمَةَ لَهَا مُطْلَقًا، فَمَا يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى لِمَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ وَأَجْدَادُهُمْ، وَمِنْ بَدْهِيَّاتِ الْعُقُولِ وَأَصُولِ التَّفَكِيرِ السَّلِيمِ، أَنَّ التَّقْلِيدَ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ حُجَّةً لِإثْبَاتِ أَوْ نَفْيِ قَضِيَّةٍ عَقْلِيَّةٍ، وَلَوْ طَلَبُوا مِنْهُ بُرْهَانًا عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِهِ لَقَدَّمَ لَهُمْ ذَلِكَ وَلَاقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ الْمُفْجِمَةُ.

● قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَيْلِفُكُمْ رَسُولِي رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ إِيجَازٌ لَتَسْعِ مَقَالَاتٍ مُحْكَمَاتٍ أَجَابَ بِهَا هُوَذَا عَلَيْهِ السَّلَامُ كُفَّارَ الْمَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ شَتَمُوهُ بِقَوْلِهِمْ لَهُ: ﴿إِنَّا لَنَرْنَكَ

فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٦﴾.

المقالة الأولى: دَلَّتْ عليها العبارة التالية: ﴿يَقُولُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾: إِنَّهُمْ شَتَمُوهُ بِأَنَّهُ مُنْعِمٌ فِي السَّفَاهَةِ المحيطة به مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ لَا تَوَجُّدَ فِيهِ وَلَا تَلْتَصِقُ بِهِ سَفَاهَةٌ مَا، مَهْمَا كَانَتْ قَلِيلَةً ضَخِيلَةً.

رَدَّ مُشَبَّعٌ بِالْتَهْذِيبِ وَالْأَدَبِ الرَّفِيعِ الَّذِي يَتَحَلَّى بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَحَلَّى بِهِ سَائِرُ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ، التَّزَامًا بِمَا تَتَطَلَّبُهُ الْحِكْمَةُ فِي الدَّعْوَةِ.

لَقَدْ دَفَعَ هُوَذَا عَلَيْهِ السَّلَامُ شَتِيمَةَ قَوْمِهِ لَهُ بِالنُّفْيِ فَقَطْ، وَلَمْ يَرُدَّ عَلَى الشَّتِيمَةِ بِمِثْلِهَا وَلَا بِأَقْلٍ مِنْهَا وَلَا بِأَكْثَرِ.

وخطبهم بقوله لهم: ﴿يَقُولُ﴾ أَضْلَاهَا «يَا قَوْمِي»، فَتَسَبَّهَتْ إِلَى نَفْسِهِ، وَأَضَافَهُمْ إِلَى ذَاتِهِ، وَمِثْلُ هَذَا الْمَوْقِفِ لَا يَسْتَطِيعُهُ إِلَّا مَنْ كَانَ ذَا حَظٍّ عَظِيمٍ مِنَ الْحِلْمِ وَالصَّبْرِ وَسَعَةِ الصُّدْرِ.

إِنَّ رَدَّ الشَّتَائِمِ بِمِثْلِهَا أَوْ بِأَشَدَّ مِنْهَا يُحَوِّلُ سَاحَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ إِلَى سَاحَةِ سَفَاهَةٍ، يَتَقَادُّونَ بِالشَّتَائِمِ، وَالْأَكْثَرُونَ سَفَاهَةً هُمْ الَّذِينَ يَطْفُونَ عَلَى السُّطْحِ، وَيَغْلُو ضَجِيجُهُمْ، وَيَمْلَأُونَ السَّاحَةَ بُبَاحِهِمْ، وَعِنْدَئِذٍ تَتَلَاشَى دَعْوَةُ الْحَقِّ، وَهَذَا مَا يَنْتَغِيهِ الشَّيَاطِينُ.

المقالة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أَي: وَلَكِنْ مَا أَبْلَغْتُكُمْ إِيَّاهُ مِمَّا يُخَالِفُ مُعْتَادَكُمْ، وَيُخَالِفُ تَقَالِيدَكُمْ لِأَبَائِكُمْ، إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ كَوْنِي نَبِيًّا رَسُولًا مَبْعُوثًا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّكُمْ وَرَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعًا.

لفظ «العالمين» يُرَادُّ بِهِ هُنَا مَا سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَلَوْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُمْ بُرْهَانًا يُثَبِّتُ لَهُمْ بِهِ أَنَّهُ نَبِيٌّ رَسُولٌ مِنْ

رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقًّا، لَقَدْ مَّ لَهُمْ آيَةٌ صِدْقِهِ، وَلَكِنَّهُمْ رَفَضُوا أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا رَسُولًا، اعْتِمَادًا عَلَى ظَنِّ ضَعِيفٍ غَيْرِ مُسْتَنَدٍ إِلَى أَيِّ حُجَّةٍ، إِذْ قَالُوا لَهُ: ﴿وَأِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَدَّمَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْمُعْجَزَاتِ مَا هُوَ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ عَلَى صِدْقِهِ.

المقالة الثالثة دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي﴾: أَي: وَبِمَا أَنِّي نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ بِاعْتِبَارِنَا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَأَنَا أُبَلِّغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي.

وَيُفْهِمُ مِنْ صِبْغَةِ الْجَمْعِ فِي كَلِمَةِ ﴿رِسَالَتِي﴾ أَنْ تَنْزِيلَ الْبَيِّنَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ عَلَيْهِ قَدْ كَانَتْ عَلَى وَفْقِ سُنَّةِ التَّدْرِجِ الَّتِي هِيَ السُّنَّةُ الْغَالِبَةُ، فِي تَنْزِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بَيِّنَاتِهِ لِلنَّاسِ، وَقَدْ سَبَقَ شَرْحُهَا لَدَى تَدْبِيرِ قِصَّةِ نُوحٍ وَقَوْمِهِ آتِفًا فِي الْفَضْلِ الْأَوَّلِ.

وَإِعْلَانُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ يُبَلِّغُ رَسُولَاتِ رَبِّهِ يَتَضَمَّنُ الْإِشَارَةَ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ قَوْمِهِ مَضْلَحَةٌ شَخْصِيَّةٌ، فَهُوَ لَا يَسْأَلُهُمْ عَلَى دَعْوَتِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى أَجْرًا قَلًّا أَمْ كَثْرًا.

المقالة الرابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾: فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ أَبَانَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ صِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ، وَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِهِمَا ضِمْنَ صِفَاتِ كُلِّ مَنْ يُبَلِّغُ رَسُولَاتِ رَبِّهِ، وَكُلُّ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ، وَالْأَمْرَيْنِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيَيْنِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

إِنَّ كُلَّ مُبَلِّغٍ رَسُولَةَ دِينِيَّةٍ عَنِ اللَّهِ يُشْتَرَطُ فِيهِ أَوَّلًا أَنْ يَكُونَ أَمِينًا فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، لَا يَزِيدُ فِيهَا شَيْئًا، وَلَا يَكْتُمُ مِنْهَا شَيْئًا، فَإِنْ زَادَ أَوْ نَقَصَ شَيْئًا فَقَدْ خَانَ الْأَمَانَةَ الَّتِي اسْتَأْمَنَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَخَائِنُ الْأَمَانَةِ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا، فَلَا يَضْطَفِيهِ اللَّهُ لِتَبْلِيغِ رَسُولِهِ مَا، وَلَوْ وَقَعَتْ مِنْهُ خِيَانَةٌ مَا

بَعْدَ اضْطِفَائِهِ فَإِنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ تَقْضِي بِقَطْعِ وَتَيْنِهِ حَالًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
بشأن رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَلَوْ نَفَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ
الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ :

أي: لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، فَأَبْعَدْنَاهُ عَنْ أَنْ يَسْتَمِيعَ افْتِرَاءَاتِهِ عَلَيْنَا أَحَدًا،
ثُمَّ لَأَهْلَكْنَاهُ بِقَطْعِ وَتَيْنِهِ.

الْوَتِينَ: عِزْقٌ فِي الْقَلْبِ إِذَا قُطِعَ مَاتَ صَاحِبُهُ.

وَلَمَّا كَانَ مُبْلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ مَسْئُولًا عَنْ بَيَانِهَا وَشَرْحِهَا لِلنَّاسِ،
وَتَرْغِيبِهِمْ فِيهَا، وَاتِّخَاذِ مَخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ لِإِقْنَاعِهِمْ بِهَا، وَإِزَالَةِ شُبُهَاتِهِمْ،
وَكَانَ بِالنُّسْبَةِ إِلَى قَوْمِهِ كَالأَبِ الرَّجِيمِ، كَانَ مِنَ الصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ لَهُ أَنْ يَكُونَ
نَاصِحًا.

النُّصْحُ: هُوَ إِرَادَةُ الْخَيْرِ لِلْمَنْصُوحِ، وَعَدَمُ غَشِّهِ فِي شَيْءٍ، وَالنَّاصِحُ
فِي تَوْجِيهِهِ وَتَرْبِيَّتِهِ وَإِزْشَادَاتِهِ يَتَّخِذُ كُلَّ الْوَسَائِلِ الَّتِي تَجْلِبُ الْخَيْرَ وَالْهُدَايَةَ
لِمَنْ يُوجِّهُهُمْ وَيُرَبِّيهِمْ وَيَعْظُمُهُمْ.

إِنَّ تَبْلِيغَهُ رِسَالَاتِ رَبِّهِ يَتَطَلَّبُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا، فَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَام
أَمِين.

وإِنَّ تَعَامُلَهُ مَعَ قَوْمِهِ بِالذُّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّوْجِيهِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالْقِيَادَةِ إِلَى
نَجَاتِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ يَتَطَلَّبُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا، فَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَام نَاصِح.
وَقَدْ جُمِعَ بِمَقَالَتِهِ هَذِهِ الشَّرْطَيْنِ اللَّازِمَيْنِ لِكُلِّ مُبْلَغٍ عَنْ رَبِّهِ، فَهُوَ نَاصِحٌ
أَمِين.

ونفهم من هذا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَيِّ حَامِلٍ رِسَالَةَ الدُّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالْأَمْرِ
بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَنْ يَخُونُ أَمَانَةَ التَّبْلِيغِ، فَيُفْتِي بِإِبَاحَةِ الْحَرَامِ،

أو بتحريم المباح، أو يتلاعب بدَرَجاتِ أحكامِ الدين، فيُعَظِّمَ الصَّغَائِرَ، ويُصَغِّرَ الكبائرَ، وَيَجْعَلَ المندوبَ واجباً، وَيَجْعَلَ المَكْرُوهَ حراماً، بِغَيْرِ سُلْطَانٍ مِنَ اللَّهِ، وهو الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ الكافي لإثبات الحكم الذي يُثَبِّتُهُ وَنَقْيُ الحكم الذي يَنْقِيهِ.

المقالة الخامسة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿أَوْ عَجَبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾؟

لَمَّا كَانَ مَوْقِف «عَادٍ» من بَشَرِيَّةِ «هُودٍ» عليه السلام، مِثْلَ مَوْقِفِ قوم «نوح» عليه السلام من بَشَرِيَّتِهِ، وَكَانَ لَا حُجَّةَ لِكُلِّ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، غَيْرِ إِطْلَاقِ عِبَارَاتِ الاستغرابِ والتَّعَجُّبِ، كَانَ جَوَابُ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ، مِمَّاثِلاً لِجَوَابِ «نوح» عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ.

إِنَّ كَوْنَ رَسُولِ اللَّهِ لِلنَّاسِ رَجُلًا بَشَرًا، هُوَ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ، لِيَكُونَ مِنْ نُّوعِهِمْ يَحْمِلُ مِثْلَ طَبَائِعِهِمْ، وَلِيَكُونَ فِي سُلُوكِهِ أُسْوَةً لَهُمْ، وَحُجَّةً عَلَيْهِمْ.

وَكُلُّ مَا افْتَرَحَ الْأَقْوَامُ مِمَّا يَخَالِفُ بَشَرِيَّةَ الرَّسُولِ أَمْرٌ يُخَالِفُ مُقْتَضِيَاتِ الْحِكْمَةِ.

وَلَمَّا كَانَ التَّعَجُّبُ الْمَجْرَدُ لَا يَحْمِلُ دَلِيلًا لِرَفْضِ الْمُتَعَجِّبِ مِنْهُ، حَتَّى يُعَالَجَ هَذَا الدَّلِيلُ بِتَقْدِيمِ مَا يُبْطِلُهُ وَيُظْهِرُ فُسَادَهُ، كَانَ الرَّدُّ الْحَكِيمُ عَلَى عِبَارَاتِ التَّعَجُّبِ يَقْتَضِي أَنْ يُرَدَّ التَّعَجُّبُ بِمِثْلِهِ، مَعَ تَوْجِيهِ مَا يُشْعِرُ بِاسْتِنكَارِ تَعَجُّبِهِمْ، فَجَاءَتْ عِبَارَةُ الرَّدِّ مُصَدَّرَةً بِاسْتِفْهَامِ تَعَجُّبِي مَمْرُوجٍ بِالْاسْتِنكَارِ: ﴿أَوْ عَجَبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾: أَي: إِنَّ تَعَجُّبَكُمْ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُتَعَجَّبَ مِنْهُ، وَأَنْ يُوجَّهَ لَهُ الْاسْتِنكَارُ.

إِنَّ مَا جَاءَ مُوَافِقًا لِلْحِكْمَةِ هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَدَ وَيُمَجَّدَ، لَا أَنْ يُتَعَجَّبَ مِنْهُ.

وَدَلَّ تَوَجِيهَ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ عَلَى أَنَّ الْمَخَاطِبِينَ مِنْ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ رَفَضُوا الْإِيمَانَ بِرِسَالَتِهِ، مُسْتَدَلِّينَ بِأَنَّ كَوْنَهُ رَجُلًا بَشَرًا أَمْرٌ مُسْتَغْرَبٌ مَثِيرٌ لِلْعَجَبِ، مُخَالِفٌ لِمَقْتَضِيَّاتِ الْحِكْمَةِ، مَعَ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ هُودٍ قَدْ كَانَ رَجُلًا بَشَرًا، وَكَانَ قَوْمُ هُودٍ يَعْلَمُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ.

وَدَلَّنَا وَجُودُ حَرْفِ الْعَطْفِ «الواو» بَيْنَ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ وَفِعْلِ «عَجِبْتُمْ» عَلَى أَنَّ الْوَائِ تَعَطَّفُ عَلَى مَحذُوفٍ، نَظِيرَ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ لَدَى تَدْبِيرِ مَقَالَةِ نُوحٍ لِقَوْمِهِ، وَالتَّقْدِيرُ: أَكْرَهْتُمْ تَرْكَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ شِرْكٍ، وَاتَّبَاعَ مَا جِئْتُمْ بِهِ، وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ مُنْزَلٌ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ، فَهُوَ يُبَلِّغُكُمْ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَرَبِّكُمْ.

وَدَلَّ لَفْظُ «الذِّكْرُ» عَلَى أَنَّ كِتَابًا رَبَّانِيًّا قَدْ أُنْزِلَ عَلَى هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، تَنْزِيلًا مُنْجِمًا، لِيُبَلِّغَهُ لِقَوْمِهِ.

وَدَلَّتِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّهُمْ تَعَجَّبُوا مِنْ أَمْرَيْنِ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَأْتِيَهُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّهِمْ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنْ يَنْزِلَ هَذَا الذِّكْرُ عَلَى رَجُلٍ بَشَرٍ مِنْهُمْ، وَأَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّجُلُ رَسُولًا لِلَّهِ يُبَلِّغُ قَوْمَهُ الذِّكْرَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَكُلَّفَ أَنْ يُبَلِّغَهُ لِقَوْمِهِ.

وَأَقُولُ هُنَا نَظِيرَ الَّذِي سَبَقَ بَيَانُهُ لَدَى تَدْبِيرِ الْعِبَارَةِ الْمِمَّاثِلَةِ الَّتِي وَجَّهَهَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ.

المقالة السادسة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةُ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾: أَي: ضَعُّوا فِي ذَاكِرَتِكُمْ دَوَامًا أَنَّكُمْ سَلَالَةُ الْقَوْمِ الَّذِينَ آمَنُوا بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنْجَاهُمْ اللَّهُ بِالْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ، حِينَ أَهْلَكَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلَمْ يَتَّبِعُوهَا مِنْ قَوْمِهِ بِالطُّوفَانِ، أَفَلَا تَخَافُونَ أَنْ يُهْلِكَكُمْ اللَّهُ كَمَا أَهْلَكَ أَوْلِيكَ، فَانْتَمِ الْيَوْمَ بِشِرْكِكُمْ وَكُفْرِكُمْ وَمَعَاصِيكُمْ قَدْ جَمَعْتُمْ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةَ الَّتِي بِسَبَبِهَا أَهْلَكَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ كُفَّارَ قَوْمِ نُوحٍ.

وبما أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في عبادِهِ واحدة، فَقَدْ جَعَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
عُرْضَةً لِأَنْ يُجْرِيَ اللَّهُ سُنَّتَهُ فيكم، كما أجراها في الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ.
ففي هذه العبارة تَهْدِيدٌ لَهُمْ بِأَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ عِقَابُهُ، فَيَهْلِكَهُمْ
أَجْمَعِينَ.

المقالة السابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾:
أي: وقد أَمَتَّنَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فزادكم في خَلْقِهِ لِأَجْسَادِكُمْ سَعَةً، فأنْتُمْ أَكْثَرُ
طَوَلًا وَعَرْضًا من قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وهذه المِنَّة تستدعي مِنْكُمْ أَنْ
تَشْكُرُوا رَبَّكُمْ على مَا أَوْلَاكُمْ مِنْ نِعَمٍ، فتَوْمِنُوا بِرَسُولِهِ وَتَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ
إِلَيْكُمْ مِنْهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا من دُونِهِ أولياء.

إِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ ذُرِّيَّةَ نُوحٍ عَلَيْهِمُ السَّلَام كانوا هُمُ الْبَاقِينَ مِنْ قَوْمِهِ بَعْدَ
الطوفان، فعَادَ من سُلَالَتِهِمْ، وهذا يَدُلُّنا على أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَام قَدْ كَانَ
رَجُلًا ذَا بَسْطَةٍ في خَلْقِهِ، فَوَرِثَتْ سُلَالَتُهُ عَنْهُ ذَلِكَ، ضِمْنَ سُنَّةِ اللَّهِ جَلَّ
جَلَالُهُ في العوامل الوراثية، فجاءت «عَادَ» وَاِثْنَةُ ذَلِكَ من آبَائِهِمْ حَتَّى نُوحٍ
عليه السَّلَام.

فهوَذَّ عليه السَّلَام يذكُرُهُمْ في هذا بَجْدِهِمْ نُوح، وَيَسْتَشِيرُ فِيهِمْ
انْتِمَاءَهُمْ لَهُ، وَيُشِيرُ إِلَى بَعْضِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ.

المقالة الثامنة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ﴾: أي: وإِذْ
زَادَكُمْ في الْخَلْقِ بَسْطَةً، وَأَتَاكُمْ نِعَمًا كَثِيرَةً، فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، أي:
نِعْمَةً عَلَيْكُمْ، لِيَكُونَ ذِكْرُكُمْ لَهَا دَافِعًا وَمَحْرُضًا على أَنْ تَحْمَدُوهُ وَتَشْكُرُوهُ،
على مَا أَوْلَاكُمْ مِنْ فَضْلِهِ.

وفي مقدِّمة واجباتِ شُكْرِكُمْ لَهُ، أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ
شَيْئًا، مَاذِيًّا كَانَ أَمْ مَعْنَوِيًّا، حَيًّا أَمْ غَيْرِ ذِي حَيَاةٍ، وَأَنْ تُطِيعُوهُ بِفِعْلِ مَا
أَمَرَكُمْ بِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ.

الآلاء: هي النعم، واحدها ألي، وإلي، وإلي، إلى وآلاء، مثل: معي وأمناء.

المقالة التاسعة: دلّت عليها عبارة: ﴿لَقَلَّكَ تَفْلِحُونَ﴾: في هذه الجملة إطماع من هود عليه السلام لقومه، بأنهم إذا عملوا بما جاءهم في الذكر، الذي بلغهم إياه عن ربّه بأمانة، وعملوا بتصائحه التي وجهها لهم، وذكروا نعم الله عليهم فحمدوه، وشكروه، وعبدوه، ولم يشركوا بعبادته شيئاً، أفلحوا.

«لعلّ» يظهر من معاني لعلّ هنا معنى التعليل، أي: لأجل أن تفلحوا. وأما على أنها للتزجي، فالمعنى: راجين أنتم أن تفلحوا، أو راجياً لكم أن تفلحوا، وراغباً من أجلكم فيه وخريصاً عليه.

الفلاح: النجاة، والفوز بحياة طيبة في الدنيا، وسعادة عظيمة خالدة في الآخرة، وأصل الفلاح البقاء في النعيم والخير.

قال الأزهرى: وإنما قيل لأهل الجنة مُفْلِحُونَ لِقُوزِهِمْ بقاء الأبد.

● قول الله تعالى:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّمُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (٧٥):

دلّت هذه الإجابة على أن معظم قومه قد رفضوا دعوته، وأما الذين آمنوا به واتبعوه فقد كانوا قلة لا يشكّلون قوة ذات بأس.

إنّ الكثرة الكاثرة من قومه قد كذبوه، وكذبوا بالذكر الذي أنزل إليهم من ربهم، فلم يتبعوا ما جاء فيه، ولم يكثرثوا لما وعدهم به من فلاح إذا استجابوا لدعوته واتبعوه، واستهانوا بما أنذرهم به من عذاب إليم خالد يوم الدين، في جهنم دار عذاب المجرمين، وبما أنذرهم به من إهلاك معجل.

نظير الإهلال الذي عاقب الله عز وجل به قوم نوح من قبلهم، ونسوا أنهم سلالة أولاد نوح الناجين معه في الفلك، بسبب إيمانهم بما جاء به نوح عليه السلام من ربه واتباعهم له.

وواجهه ملاً قومه ومن ورائهم جماهيرهم بمقالتين، استنكروا في أولاهما أن يستجيبوا لدعوته لهم أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا ما كان يعبد آباؤهم من أوثان اتخذوها شركاء لله سبحانه وتعالى عما يشركون، وتحدوه في الثانية بأن يأتيهم بما كان يندرهم به من إهلاك عام شامل إن كان من الصادقين.

وقد دلت هذه الآية (٧٠) على بيان موقفهم هذا بغد مدّة كافية من تاريخ دعوته لهم إلى الله، وإلى اتباع ما أنزل إليهم من ربهم. استوفى فيها هود عليه السلام، ضمن منهج الله لرسوله كل ما تحتاج أمة من دعوة وهداية بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة بالتي هي أحسن، وصبر طويل، ومعالجة بمختلف وسائل العلاج التي تكفي للإقناع، وإزالة كل الشبهات، وإصلاح من لديه استعداد إرادي لأن يقبل الحق ويتبعه، وفيما يلي شرح لمقالتى قومه له:

المقالة الأولى: دلت عليها عبارة: ﴿أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَنَذَرُ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾!!!

استفهام إنكاري في معنى الاستهزاء بما يدعوههم هود عليه السلام إليه، من عبادة الله وحده، وأن يذروا ما كان يعبد آباؤهم من شركاء اتخذوها من دون الله شركاء لله في الإلهية، إذ كانوا يرجون من عبادتها نفعاً لهم في دنياهم، إما على أساس مشاركتها، لله في بعض عناصر ربوبيته، وإما على أن الله عز وجل أمر بعبادتها أو أذن به، ورتب على عبادتها نفعاً لعبادها.

وَدَلَّ هَذَا الِاسْتِفْهَامَ عَلَى رَفْضِهِمْ لِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ هُوْدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكُفْرِهِمْ بِهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ لَهُ فِي بُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

المقالة الثانية دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿فَأَنَّا بِمَا نَعِدُّكَ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

هذه المقالة دَلَّتْ عَلَى أَنَّ هُوْدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ كَانَ يُنْذِرُ قَوْمَهُ بِإِهْلَاكِ اللَّهِ لَهُمْ إِهْلَاكًا عَامًّا مُعْجَلًا فِي الدُّنْيَا، كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِهِمْ. وَدَلَّتْ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُمْ يَجْزُمُونَ بَأَنَّهُ رَجُلٌ كَاذِبٌ غَيْرُ صَادِقٍ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ جَلِّ جَلَالِهِ، وَغَيْرُ صَادِقٍ فِي ادِّعَائِهِ أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا تَحَدُّوهُ بِأَن يَأْتِيَهُمْ بِمَا كَانَ يَعِدُّهُمْ بِهِ، أَي: بِمَا كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

الْوَعْدُ الْإِخْبَارُ بِمَا سَيَحْدُثُ خَيْرًا كَانَ أَمْ شَرًّا، وَقَدْ يُخَصُّ الْوَعْدُ فِي الْخَيْرِ، وَالْوَعِيدُ فِي الشَّرِّ، وَلَكِنَّ هَذَا غَيْرُ لَازِمٍ لَعَةٍ.

وَلَمْ يَكُونُوا مُعْتَقِدِينَ بَأَنَّهُ رَسُولٌ صَادِقٌ يُبْلَغُ عَنْ رَبِّهِ، لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُعْتَقِدِينَ صَحَّةَ بُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ لَمَا تَحَدُّوهُ بِأَن يَأْتِيَهُمْ بِمَا كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ هَلَاكِ مُعْجَلٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِذْ لَا يُغْفَلُ أَنْ يَطْلُبُوا إِهْلَاكَهُمْ إِهْلَاكًا عَامًّا لِمَجْرَدِ الْإِصْرَارِ عَلَى عِبَادَةِ أَوْثَانِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ تَجَرَّدُوا عَنْ أَوْهَامِهِمْ وَعَنْ تَقَالِيدِهِمُ الْعَمِيَاءِ، لِأَذْرَكُوا أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لِآلِهَتِهِمُ الْوُثْنِيَّةِ لَا تَجْلِبُ لَهُمْ نَفْعًا، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرًّا.

كَيْفَ يَتَحَدَّى ضَعِيفٌ عَاجِزٌ جَبَّارًا عَظِيمًا، وَهَذَا الْعَاجِزُ يَعْتَقِدُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ أَنَّ الْجَبَّارَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْفِذَ وَعِيدَهُ، لِكُنْهَ قَدْ يَتَحَدَّاهُ حِينَ يُصَدِّقُ أَوْهَامَ نَفْسِهِ بِأَنَّ الْجَبَّارَ عَاجِزٌ عَنْ تَنْفِيزِ وَعِيدِهِ، إِذْ هَذَا الْعَاجِزُ تَحْمِيهِ قُوَّةٌ أَقْوَى مِنْ قُوَّةِ الْجَبَّارِ.



● قول الله تعالى:

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أَنْتَجِدُلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَبَيْتُوهَا أَنْتُمْ وَمَا بَأْسُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾:

تضمن هذا البيان ثلاث مقالاتٍ قالها هودٌ عليه السلام لقومه، بعد تحذيرهم له بأن يأتيهم بما كان يندرهم به من إهلاك شاملٍ مُعجلٍ في الحياة الدنيا.

المقالة الأولى: دلت عليها عبارة: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ﴾:

أي: قد قضى الله بأن يوقع عليكم عقابه بإهلاككم إهلاكاً عاماً شاملاً بعد أن قدر ذلك بمقتضى علمه وحكمته.

ولم يكن هودٌ عليه السلام ليخبرهم بهذا لو لم ينزل عليه به وخي من ربه، مقرّون بالأمر بأن يخبرهم به، أو بالإذن له بذلك.

وما قدره الله وقضاه جلّ جلاله وعظم سلطانه فإنه سيَقعُ لا محالة، فهو بحكم الأمر الذي وقع فعلاً، مع الإشعار بقرب الوقوع، ولهذا أخبرهم عليه السلام بأنه قد وقع، لأنه قد تمّ به قضاء الله، وقرب وقوعه. واستعمال الفعل الماضي للتعبير عن الأمر الذي سيَقعُ في المستقبل لا محالة، من أبلغ أساليب التأكيد لوقوع الأحداث المستقبلية، ويستعمل كثيراً فيما قرب وقوعه مثل: قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، في عبارات الإقامة للصلاة.

الرجس: يُطلق على الأشياء القذرة النجسة التي تحمّل الضر والأذى، أو التي تعافها النفوس، ويُطلق أيضاً على العقاب والعذاب، وهو بهذا المعنى يكون مرادفاً للرجز.

قال الفراء: لعلّ الرجس والرجز لغتان أُبدلت السين زايًا.

الْغَضَبُ: ضِدُّ الرِّضَا، يُقَالُ مِثْلًا: غَضِبَ السُّلْطَانُ عَلَى عَامِلِهِ، أَيْ: سَخِطَ عَلَيْهِ، وَأَرَادَ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُ.

ومن لوازم الغضب الكراهية والمقت، وحِزْمَانُ المغضوب عَلَيْهِ مِمَّا يُحِبُّ، ومع شِدَّةِ الغضب تتوجَّهُ الإرادة للانتقام، ولإِنْزَالِ المكارِهِ وأنواعِ الْعَذَابِ بالمغضوب عليه.

المقالة الثانية: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿أَتَجِدُلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَبَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ...﴾:

استفهامٌ يَسْتَنْكِرُ فِيهِ هُوْدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُجَادَلَةَ قَوْمِهِ لَهُ فِي أَوْثَانِهِمُ الَّتِي يَعْْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، مُتَخَذِينَ إِيَّاهَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَرُبَّمَا يَبْغِضُ عَنَاصِرَ رُبُوبِيَّتِهِ لكونه، وَهِيَ رُمُوزٌ لَيْسَ لَهَا مِنَ الْحَقِيقَةِ شَيْءٌ تَسْتَحِقُّ بِهِ أَنْ تُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَتْ أَكْثَرُ مِنْ أَسْمَاءٍ تُلْفَظُ بِالْأَلْسِنَةِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهَا فِي الْوَاقِعِ حَقِيقَةٌ ذَاتُ أَثَرٍ مَا فِي نَفْعٍ أَوْ ضَرٍّ.

وَإِذَا ادَّعَى أَحَدُ الْمُشْرِكِينَ الْوِثْنَيْنِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ بِعِبَادَتِهَا أَوْ أَذِنَ بِهِ، فَإِنَّهُ مُطَالِبٌ بِأَنْ يَأْتِيَ بِسُلْطَانٍ مِنْ اللَّهِ يُثَبِّتُ ذَلِكَ.

السُّلْطَانُ هُنَا: الدَّلِيلُ الْخَبَرِيُّ عَنِ اللَّهِ، الَّذِي يَصِحُّ أَنْ يُخْتَجَّ بِهِ، وَيُقَامَ بِهِ بُرْهَانٌ خَبَرِيٌّ عَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَلَا وُجُودَ لِمِثْلِ هَذَا الدَّلِيلِ فِي كِتَابِ رَبَّانِيٍّ مُنَزَّلٍ، وَلَا عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ. أَمَّا الْبُرْهَانُ الْعَقْلِيُّ فَيُثَبِّتُ أَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا إِلَهَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا اللَّهُ.

وَيُطْلَقُ «السُّلْطَانُ» فِي اللُّغَةِ: عَلَى الْحُجَّةِ الْمَلْزَمَةِ، وَالْبُرْهَانِ ذِي الْقَهْرِ لِلْعُقُولِ، وَلَفْظُ «السُّلْطَانِ» بِمَعْنَى الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ لَا يُجْمَعُ لِأَنَّهُ أُجْرِي مُجْرَى الْمَصْدَرِ، فَهُوَ مُفْرَدٌ دَائِمًا مِنْ جِهَةِ الْفَلْظِ.

وَالْمَادَّةُ تَدُورُ حَوْلَ الْقَهْرِ وَالتَّغْلِبِ وَالْإِلْزَامِ بِقُوَّةٍ، وَلِهَذَا يُطْلَقُ عَلَى ذِي الْوِلَايَةِ وَالْحُكْمِ سُلْطَانٌ.

المقالة الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٧١):

أي: فانتظروا وقوعَ مَا قَدَّرَ اللَّهُ وقَضَى بِشَأْنِكُمْ، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ لهذا الأَمْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي يُهْلِكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ الْكَافِرِينَ، وَيُنْجِي رَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ.



● قول الله تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٢):

أي: فَعَقِبَ آخِرَ مَرْحَلَةٍ مِنَ إِمْهَالِهِمْ، الْمَصْحُوبَةِ بِعِنَادِهِمْ وَإِضْرَارِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، أَنْجَيْنَا «بِضْمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ جَلَّ جَلَالُهُ» هُودًا، وَالَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مُؤْمِنِينَ بِهِ، وَمُتَّبِعِينَ لَهُ، وَلَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، إِذْ أُنْزِلْنَا بِقَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، وَمَا كَانُوا مُسْتَعِدِّينَ مُسْتَقْبَلًا لِأَن يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، الْعَذَابُ الْمُهِلِكُ الْمَدْمُرُ، وَاسْتَمَرَّتْ وَسَائِلُ إِهْلَاكِهِمْ مُتَتَابِعَةً عَلَيْهِمْ، حَتَّى قُطِعَ دَايِرُهُمْ بِاسْتِثْصَالِهِمْ.

وإنجاء هودٍ والذين كانوا معه مؤمنين قد كان بسبب رحمة من الله لهم، كان من آثارها تدبير أسباب نجاتهم.

وإهلاك سائر قومه الكافرين قد كان بسبب غضبٍ من الله عليهم، كان من آثاره تدبير أسباب إهلاكهم، وتدمير ديارهم.

● ﴿وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾: أي: وَقَطَعْنَا آخِرَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ.

يُقَالُ لُغَةً: قَطَعَ اللَّهُ دَايِرَ الْقَوْمِ، أَي: قَطَعَ آخِرَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، فَأَهْلَكَهُمُ. وَالذَّاكِرُ: فِي اللُّغَةِ التَّابِعُ.

وأبان الله عز وجل بهذه العبارة، أن من أسباب إهلاكه كفار عاد قوم هود عليه السلام، تكذيبهم بآيات الله، فلم يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، الذي هو الخط الأعظم الذي سارت عليه دُروس السورة بوجه عام.

﴿..وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٦): أي: وَمَا كَانُوا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا مَهْمَا أَمَهَلَهُمُ اللهُ وَأَطَالَ مُدَّةَ اخْتِبَارِهِمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. فلفظ [مؤمنين] اسم فاعل بمعنى الفعل المضارع يَدُلُّ على الحال والاسْتِقْبَالِ.



الفصل الثالث

التدبر التحليلي للقطات المختارات

في هذه السورة من قصة صالح عليه السلام وقومه

الآيات من (٧٣ - ٧٩)

قال الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ صَالِحِينَ قَالَ يَنْفَرُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَةٍ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ اتَّعَلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحْ أَثْنَتَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ (٧٨) فَنَوَّلَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْفَرُوا لَقَدْ أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون النصيحة (٧٩)﴾ :

القراءات:

(٧٣) • قرأ جمهورُ القراء العشرة: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ برفع «غَيْرُهُ».

وقرأ الكساني وأبو جعفر: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ] بِجَرِّ «غَيْرِهِ».

وقد سبق توجيه هاتين القراءتين نحوياً في الآية (٥٩) وفي الآية (٦٥) من هذه السورة.

(٧٤) • قرأ وزش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب ﴿يُوتَا﴾ بضم الباء.

وقرأ باقي القراء العشرة [يُوتَا] بكسر الباء.

والقراءتان لُغَتَانِ عَرَبِيَّانِ لِنُطْقِ الْكَلِمَةِ.

(٧٥) • قرأ ابن عامر: [وَقَالَ الْمَلَأُ] بإضافة حرف العطف «الواو».

وقرأ جمهورُ القراء العشرة: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ بدون حَرْفِ عطف.

والقراءتان هاتان تَمَثَّلَانِ وَجْهَيْنِ بَيَانِيَيْنِ فِي الْفَضْلِ وَالْوَصْلِ، فجملة ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ...﴾ إلى آخر مقول القول، جملة لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ، وهي معطوفة على جملة: ﴿فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ...﴾ إلى آخر مقول القول الذي قاله صالح عليه السلام، وهي جملة لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ أَيْضاً، وَلَكِنَّ الْجُمْلَتَيْنِ تَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّهُمَا جُزْأَانِ مِنْ أَجْزَاءِ قِصَّةٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ قِصَّةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ، وَالتَّغَايُرُ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْعُطْفُ بِالْوَاوِ مَوْجُودٌ فِي هَذَيْنِ الْجُزْأَيْنِ مِنْ أَجْزَاءِ الْقِصَّةِ. وَكُلُّ مِنَ الْوَصْلِ وَالْفَصْلِ حَسَنٌ وَجَمِيلٌ بِلَاغِيًّا فِي مِثْلِ هَذَا، فَالْفَضْلُ يُشْعِرُ الْمُتَلَقِّي بِأَنَّهُ حَاضِرٌ مَعَ مُشْهَدِي الْقِصَّةِ، وَالْوَصْلُ يُشْعِرُ الْمُتَلَقِّي بِأَنَّهُ يَسْتَمِعُ إِلَى قَاصِّ يَقْصُ عَلَيْهِ فَيَغِطِفُ مُشْهَدًا عَلَى مُشْهَدٍ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ وَجْهَانِ بِلَاغِيَّانِ جَمِيلَانِ.

ولَعَلَّ الْفَضْلَ أَكْثَرُ تَأْثِيرًا فِي مُشَاعِرِ مُعْظَمِ الْمُتَلَقِّينَ الْبَلْغَاءِ، فَجَاءَتْ قِرَاءَةُ الْوَضِلِ عِنْدَ ابْنِ عَامِرٍ فَقَطْ، وَجَاءَتْ قِرَاءَةُ الْفَضْلِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْقُرَّاءِ الْعَشْرَةِ، وَهَذَا مِنْ إِجْرَاءَاتِ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ اللَّطِيفَةِ.

تمهيد:

هذا هو النص الثامن بحسب ترتيب النزول، من النصوص المتعلقة بتمود قوم النبي الرسول صالح عليه السلام من أصل (٢١) نصاً عرضت لقطات موزعات على (٢١) سورة، من قصتهم مع رسولهم صالح عليه السلام.

وقد سبق مقدار ما من تدبر النصوص السبعة الأولى، لدى تدبر سور «الفجر - النجم - الشمس - البروج - ق - القمر - ص».

وأستعين بالله في هذا الفصل على تدبر هذا النص من سورة (الأعراف).

تمود: قوم من العرب، تكاثروا بعد إهلاك الله عز وجل «عاداً» قوم النبي الرسول «هود» عليه السلام.

ولفظ «تمود» جاء في القرآن مصروفاً مُتَوْنًا مراعاةً لاسم الجد، وجاء مَمْنُوعاً من الصّرف مراعاةً لكونه اسماً للقبيلة المؤنثة.

كانت مساكن «تمود» في أرض «الحِجْر» ولهذا سماهم الله في القرآن أَصْحَابَ الْحِجْرِ.

الحِجْر: أرض بين الشام والحجاز، إلى وادي القرى، وتقع في الطريق البرّي للمسافر من الشام إلى الحجاز، وأثار مدائن هؤلاء القوم ظاهرة حتى الآن، وتسمى «مدائن صالح» وتعرف ديارهم أيضاً باسم «فجّ الناقة».

وتمود قبيلة من القبائل العربيّة التي أهلك الله عز وجل معظمها، ولم يبق منها بعد إهلاكهم إلا من آمن برسولهم صالح عليه السلام.

وسميت «ثُمُودًا» نسبةً إلى أَحَدِ أَجْدَادِهَا، وهو كما ذكر النَّسَابُونَ:
ثُمُودُ بْنُ عَامِرِ بْنِ إِزْمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِذِهِ
الْأَنْسَابَ.

كَانَتْ قَبِيلَةُ ثُمُودٍ صَاحِبَةً أَوْثَانٍ يَغْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ. وَقَدْ تَنَاقَلَ
الْقَصَاصُونَ مِنَ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، أَخْبَارَ قَبِيلَةِ ثُمُودَ، وَكَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ بِعَذْلِهِ وَحُكْمَتِهِ.

تلخيص ما جاء في القرآن بشأن ثمود ودعوة رسولهم صالح:

وَالْخَصْ فِي فِقْرَاتِ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بِشَأْنِ ثُمُودَ وَدَعْوَةِ
رَسُولِهِمْ صَالِحٍ لَهُمْ:

(١) كَانُوا أَهْلَ بَنَاءٍ وَعِمْرَانٍ فِي أَرْضِهِمُ الْحَجَرِ، فَكَانُوا يَقْطَعُونَ
الصَّخْرَ بُوَادِيهِمْ، وَيَبْنُونَ الْقُصُورَ، وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بَيْوتًا لِلرِّفَافِيَّةِ،
وَكَانُوا أَهْلَ زِرَاعَةٍ، فَقَدْ كَانَتْ لَهُمْ جَنَاتٌ وَعُيُونٌ، وَزُرُوعٌ وَنَخْلٌ، وَكَانُوا
فِي دِيَارِهِمْ مُسْتَقَرِّينَ أَمْنِينَ.

(٢) وَكَانُوا مُشْرِكِينَ يَغْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، اتَّخَذُوا لَهَا رُمُوزَ
أَوْثَانٍ، وَقَدْ تَوَارَثُوهَا عَنْ آبَائِهِمْ بِالتَّقْلِيدِ الْأَعْمَى.

(٣) بَعَثَ اللَّهُ لَهُمْ رَسُولًا، وَبَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ رَسُولٍ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَمِنْ
مَعَاصِرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ، فَلَمْ يُقْلِعُوا عَنْ شِرْكِهِمْ، وَطُغْيَانِهِمْ، وَفَسَادِهِمْ
وَلِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ.

(٤) طَعَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ.

(٥) ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا رَسُولًا مِنْهُمْ. هُوَ سَيِّدُنَا صَالِحٌ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَإِلَى تَبَذُّلِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّرِكِ،
وَإِلَى تَرْكِ الطُّغْيَانِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يَتَّقُوا رَبَّهُمْ، وَأَنْ
يُطِيعُوهُ فِي دَعْوَتِهِ، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ رَسُولٌ أَمِينٌ.

(٦) فَكَذَّبُوهُ، وَكَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ ذِكْرِ وَهُوَ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَقَالُوا عَنْهُ: كَذَابٌ أَشِيرٌ، أَي: مُسْتَكْبِرٌ بَطَرٌ يَمْرَحُ وَيَفْرَحُ بِصِنَاعَةِ الْأَكَاذِيبِ لِيَكُونَ لَهُ الْعُلُوُّ فِي الْأَرْضِ.

(٧) وَاعْتَرَضُوا عَلَى كَوْنِهِ إِنْسَانًا بَشَرًا، وَقَالُوا: لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ رَسُولًا، لَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا أَوْ عَدَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

(٨) وَتَابِعَ «صَالِحٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعْوَتَهُ لَهُمْ، وَذَكَرَهُمْ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَخْلَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ عَادِ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمْ بِسَبَبِ شُرْكِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ فِي الْأَرْضِ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ، وَعَدَمِ اتِّبَاعِهِمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأَقَامَ لَهُمُ الْأَدِلَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا، وَدَعَاهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَنْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ وَيَتُوبُوا إِلَيْهِ رَاجِينَ أَنْ يَرْحَمَهُمْ.

وقال عليه السلام لهم: إِنَّكُمْ لَا تُتْرَكُونَ آمِنِينَ فِيمَا وَهَبَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ نِعَمٍ، إِذَا لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَمْ تُطِيعُوا، وَلَمْ تَتَّبِعُوا الذِّكْرَ الَّذِي جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ.

ونهاهم رسولهم صالح عليه السلام عن أَنْ يُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُضْلِحُونَ، وَنَهَاَهُمْ عَنْ أَنْ يَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، وَأَنْذَرَهُمْ بِعِقَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَضَرَبَ لَهُمُ الْأَمْثَالَ بِالْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ.

وَأَعْلَنَ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَبَرُّؤَهُ مِنَ الْمَصْلُحَةِ الشَّخْصِيَّةِ عِنْدَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ.

(٩) اتَّهَمَهُ قَوْمُهُ بِأَنَّهُ مَسْحُورٌ بِسِحْرِ شَدِيدٍ أَثَّرَ فِيهِ، وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ الْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ، وَقَالُوا لَهُ: يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا كَانَ يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا؟!.

(١٠) آمَنَ به فريقٌ مِنْ قومه، وكَفَرَ به الأكثرون منهم، فَأَخَذَ الفريقانِ يَخْتَصِمُونَ ويتجادلون.

قالَ المستكبرونَ من الكافرين به، للمستضعفين من الذين آمَنُوا به، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟!!

قال المستضعفون المؤمنون به: إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ به مُؤْمِنُونَ، فَمَا جَاءَ به حَقٌّ، وهذا يَدُلُّ على أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ رَبِّهِ.

قال المستكبرون الذين كَفَرُوا به: إِنَّا بِالَّذِي آمَنُتُمْ بِهِ وَرَأَيْتُمُوهُ حَقًّا كَافِرُونَ.

لقد هداهم الله هدايةً دَلَالَةً وإرشادٍ وبيانٍ مقرون بالحجة، فاستحبوا العَمَى الَّذِي أَوْصَلَهُمْ إِلَى الكُفْرِ، على البَصَرِ الَّذِي يكشف لهم سبيل الهدى، لأنَّ العَمَى قد كان مُزِينًا بالأهواء والشهوات وزُخْرِفَ الحياة الدنيا.

(١١) تَعَرَّضْتُ «نمود» لعوارض من البلاءِ الرِّبَّانِيِّ بالمكاره، تذكيراً لهم، فقالوا لرسولهم صالح عليه السلام: أَطِيزُنَا بِكَ وَبِمَنْ آمَنَ بك، فأنثتم شُؤْمَ علينا وعلى أرضنا.

فأجابهم عليه السلام بقوله لهم: طائرُكُمْ عندَ اللَّهِ، أي: مقاديرُكُمْ بيدَ اللَّهِ، وليسَ لغيرِ اللَّهِ تأثيرٌ فيها، وما نَزَلَ بكم من بلاءٍ ليسَ من شُؤْمِ أَحَدٍ بَلِ اللَّهُ يَمْتَحِنُكُمْ، ويُنْزِلُ بكم بغضَ ما تَكْرَهُونَ، عُقُوبَةً لَكُمْ على كُفْرِكُمْ، وإنذاراً لَكُمْ بما هو أشدُّ وأقسى.

(١٢) وأَمْلَى اللَّهُ لَهُمْ وأمهَلَهُمْ، كَسَّيْتِهِ في سائر الأمم.

(١٣) جادَلْتُ «نمود» رَسُولَهُمْ في الحقِّ الَّذِي جاءهم به من رَبِّهِ، واتَّهَمُوهُ بأنَّ له غَرَضًا خَاصًّا لديهم، يرجوه من دعوته، وقالوا له: إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ، أي: نَجْعَلُنَا نَرْتَابُ بأمرِكَ، ونَتَّهِمُكَ بالمصلحة الشخصية عندنا.

فقال لهم: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي قَدْ أَثْبَتْتُ لِي الْحَقَّ، وَكُنْتُ أَيْضاً خَائِفاً مِنْ عَذَابِ رَبِّي إِنْ تَزَكْتُ بَيِّنَتُهُ، أَوْ عَصَيْتُ أَمْرَهُ فِي عَدَمِ الْقِيَامِ بِوُظَائِفِ رِسَالَتِي، فَمَنْ يَنْصُرُنِي وَمَنْ يُنَجِّنِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؟؟.

وقال لهم بِشَأْنِ مَضْمُونِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ: أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ!!

وَعَجَزُوا عَنْ رَدِّ حُجَجِهِ الْبِرْهَانِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ.

(١٤) فَطَلَبُوا مِنْهُ آيَةً حِسِّيَّةً مُعْجَزَةً تُثَبِّتُ صِحَّةَ رِسَالَتِهِ وَتُبَيِّنُ. وَهَدَّوْهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ بِالْإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِمْ، أَوْ الْعُودَةِ إِلَى مِلَّتِهِمْ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالثَّبَاتِ فِيهَا، وَقَالُوا لَهُمْ: لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا، أَوْ لِنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا. وَهِيَ الشَّرْكَ وَلِوَاظِمُهُ فِي السُّلُوكِ.

(١٥) فَاسْتَجَابَ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِذْنِ مَنْ رَبُّهُ لَطْلِبِهِمُ الْمَعْجَزَةَ الْحِسِّيَّةَ عَلَى مَا يُحَدِّدُونَ.

وَأَشَارَتْ الدَّلَائِلُ الضَّمْنِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ عَرَضَ عَلَيْهِمْ مَا يَخْتَارُونَ مِنْ آيَةٍ مُعْجَزَةٍ، وَكَانُوا مَعْجَبِينَ بِالْإِبْلِ.

فَطَلَبُوا أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ عَيْنُهَا نَاقَةٌ ذَاتُ أَوْصَافٍ مُعَيَّنَةٍ، فَقَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَعَمْ. وَدَعَا رَبَّهُ فَأَخْرَجَ اللَّهُ لَهُمُ النَّاقَةَ كَمَا طَلَبُوا، فَأَمَّنَ بَعْضُهُمْ وَأَصْرَ أَكْثَرُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ.

وَأَبَانَ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَسْئُولِيَّاتِهِمْ وَوَاجِبَاتِهِمْ نَحْوَهَا، وَقَالَ لَهُمْ: يَكُونُ لِهَذِهِ النَّاقَةِ يَوْمٌ تَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ مِنْهُ، وَالْيَوْمُ الثَّانِي يَكُونُ لَكُمْ، فَالْمَاءُ قِسْمَةٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا عَلَى التَّنَاقُوبِ.

وَقَالَ لَهُمْ: يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَذَرُوهَا تَأْكُلُ مِنْ أَرْضِ اللَّهِ مَا تَشَاءُ، وَأَنْ لَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ، وَأَنْ لَا تَمْسُوا الْمَاءَ الْمَخْصَصَ لَهَا فِي يَوْمِهَا بِسَوْءٍ، وَإِلَّا نَزَّلَ بِكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

وَشَدَّدَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَحْذِيرِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: اخْذَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا أَنْ تَمْسُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ بِسُوءٍ فَقَدْ أَخْرَجَهَا اللَّهُ لَكُمْ، كَمَا طَلَبْتُمْ، وَعَلَى الْأَوْصَافِ الَّتِي حَدَّثْتُمْ، وَمِنَ الصَّخْرَةِ الَّتِي عَيَّنْتُمْ، فَمَعْصِيَتُكُمْ بَعْدَ كُلِّ هَذَا مَعْصِيَةٌ عِنَادٍ وَمُكَابَرَةٌ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ فِيهَا شُبْهَةٌ عُذْرٍ مَا.

(١٦) وَالتَزَمْتُ قَبِيلَةَ ثَمُودَ خَوْفًا، بِالْوَاجِبَاتِ الَّتِي كَانَتْ صَغْبَةً عَلَيْهِمْ مَدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ تَأَثَّرْتُ مَصَالِحُ كَثِيرَةٌ لَهُمْ بِالتَّزَامِهِمْ بِوَاجِبَاتِ النَّاقَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الصَّخْرَةِ عَلَى وَفْقِ مَا طَلَبُوا، فَعَزَمُوا عَلَى أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْهَا بِعَقْرِهَا وَذَبْحِهَا، وَاسْتَهَانُوا بِمَا كَانَ قَدْ أُنْذِرَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاتَّفَقُوا عَلَى عَقْرِ النَّاقَةِ، فَحَرَّضُوا أَشْقَاهُمْ عَلَى قَتْلِهَا، فَأَخَذَ سِلَاحَهُ، وَتَطَاوَلَ مُسْتَكْبِرًا، وَقَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ: حَذَارِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا.

فَلَمْ يَكْتَرِثُوا لِلتَّحْذِيرِ، وَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُسْتِنكِفِينَ عَنْ طَاعَةِ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَانْبَعَثَ أَشْقَاهُمْ، فَعَقَرِ نَاقَةَ اللَّهِ.

(١٧) وَكَانَ فِي مَدِينَتِهِمْ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، فَقَرَّرُوا أَنْ يَقْتُلُوا صَالِحًا وَأَهْلَ بَيْتِهِ لَيْلًا، وَيَتَخَلَّصُوا مِنْهُ، كَمَا تَخَلَّصُوا مِنَ النَّاقَةِ، وَأَنْ يَتَظَاهَرُوا بِأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنْ قَتْلِهِ، وَيُنْكِرُوا أَمَامَ عَشِيرَتِهِ أَنَّهُمْ قَتَلُوهُ إِذَا وُجِّهَ لَهُمُ الْإِتِّهَامُ.

فَاهْلَكَ اللَّهُ الْمَتَامِرِينَ.

(١٨) وَتَأَزَّمُ الْمَوْفِقُ بَيْنَ جُمْهُورِ قَبِيلَةِ ثَمُودَ، وَبَيْنَ رَسُولِهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَيُظْهَرُ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ عَزَمُوا عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُمْ بِالْقُوَّةِ، إِلَّا أَنَّهُمْ تَرَيُّثُوا قَلِيلًا لِحِمَايَةِ عَشِيرَةِ صَالِحٍ لَهُ بِالْحِمَايَةِ الْقَبِيلِيَّةِ.

فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَهَذَا وَغَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ، وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ يُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُمْ عَذَابًا يَهْلِكُكُمْ بِهِ جَمِيعًا.

(١٩) وَلَمَّا اقْتَرَبَ الْمَوْعِدَ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقُوا بِالْإِنْحِيَاظِ عَنْ مَكَانِ نَزُولِ الْعَذَابِ، وَجَاءَ أَمْرُ اللَّهِ بِإِهْلَاكِهِمْ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ سَوْطٌ عَذَابٍ، وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ صِيحَةً وَاحِدَةً مُهْلِكَةً، مَضْحُوبَةً بِصَاعِقَةٍ طَافِغَةٍ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ.

وحين جاءتهم الصَّاعِقَةُ جَاءَتْهُمْ وَهُمْ يَنْظُرُونَ عاجزينَ عن أَنْ يَرُدُّوا عن أنفسهم شيئاً من عذابِ اللَّهِ، وأسبابِ الإهلاكِ الَّتِي سَلَطَهَا عَلَيْهِمْ بِعِزَّتِهِ وَقَهْرِهِ.

وَبُهِتُوا عِنْدَئِذٍ نَادِمِينَ، إِذْ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ، وَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ زِلْزَالًا مُدْمِرًا، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ هَلَكَى.

(٢٠) وَبَقِيَتْ قِصَّتُهُمْ تُرْوَى، وَمَسَاكِينُهُمْ تَدُلُّ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ ذَكَرَ بِهَا مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ حِينَ أَرَادُوا بِمُوسَى وَهَارُونَ شَرًّا.

حكايات تاريخية بشأن ثمود وإهلاك الله لهم:

كان القصاصون من العرب قبل الإسلام يتداولون حكايات تاريخية تتعلق بقبيلة «ثمود» قوم النبي الرسول صالح عليه السلام، وكيف أهلكهم الله جلَّ جلاله.

ويطالع الناظر في مُدَوَّنَاتِ التاريخ حَوْلَ قبيلةِ ثمود وكيف أهلكهم الله، فيَجِدُ عِدَّةَ حكايات مقبولات بوجه عام، وَيَخْسُ أَنْ أُسْتَعْرَضَ خلاصةُ عنها لَمَّا فيها من تفصيلاتٍ تُتِمُّ مَا جاء في القرآن عنهم، ولا تتعارض معه.

فمن هذه الحكايات ما ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، والسُّدِّي، وأبو الطُّفَيْلِ، وغيرهم.

وَأَخْتَارُ فيما يلي لقطات من حكاياتهم المذكورات في كتب التاريخ، والمنقولات في بعض كتب التفسير.

(١) أَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ «عَادًا» إِلَّا مَنْ آمَنَ بالرسول «هُود» عليه السلام منهم، وازْتَحَلَ «هود» وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ عَنْ أَرْضِ الْأَحْقَافِ فِي الْجَنُوبِ الَّتِي كَانَ فِيهَا هَلَاكُ «عاد».

(٢) وَنَشَأَتْ بَعْدَ قَبِيلَةِ «عاد» قَبِيلَةُ «ثمود» فِي الشَّامِ، فِي أَرْضِ «الْحِجْرِ» وَاسْتَخْلَفُوا فِي الْأَرْضِ، وَانْتَشَرُوا، وَرُبَّمَا كَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مِنْ سُلَالَةِ مَنْ آمَنَ بِالرَّسُولِ «هُود» عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهُمْ قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ.

(٣) ثُمَّ ظَهَرَ فِيهِمُ الْفَسَادُ، وَعَبَدُوا آلِهَةً اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَنَسُوا مَا كَانَ آبَاؤُهُمْ قَدْ ذُكِّرُوا بِهِ مِنْذَ عَهْدِ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَمَا تَلَاَهُ مِنْ قُرُونٍ.

(٤) فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا رَسُولًا مِنْهُمْ، وَهُوَ «صَالِحٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ مِنْ أَوْسَطِهِمْ نَسَبًا، وَأَفْضَلِهِمْ مَكَانَةً.

وَكَانَ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولًا رَجُلًا فَاضِلًا، حَسَنَ الْخُلُقِ، حَسَنَ السَّيَرَةِ، مَرْجُوعًا لِكُلِّ خَيْرٍ وَفَضِيلَةٍ وَعَمَلٍ بَرٍّ وَإِحْسَانٍ.

(٥) فَدَعَاهُمْ «صَالِحٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى التَّوْحِيدِ وَنَبَذَ الشِّرْكَ بِاللَّهِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَذَهُ، وَتَرَكَ السَّيِّئَاتِ وَفَعَلَ الصَّالِحَاتِ، وَاجْتَنَبَ الظُّلْمَ وَالْعُدْوَانَ وَالْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ.

وَصَبَرَ «صَالِحٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ، مُتَابِعًا دَعْوَتَهُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ، وَبَشَّرَهُمُ بِالْجَنَّةِ إِنْ اسْتَجَابُوا لِدَعْوَتِهِ، يَدْخُلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ، وَحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ بِعِقَابِ اللَّهِ الْمَعْجَلِ فِي الدُّنْيَا، وَالْمُوجِّلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ إِذَا أَبَوْا.

وَاتَّخَذَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَخْتَلِفَ الْوَسَائِلِ الْمَتَّاحَةِ لِهَدَايَتِهِمْ، مِنْ إِقْنَاعٍ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، وَجِدَالٍ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهيبٍ فِي مَوَاقِعَ حَسَنَةٍ، مَعَ صَبْرِ وَجَلَمٍ وَتَلَطُّفٍ وَأَنَانَةٍ، شَأْنُهُ فِي هَذَا كَشَّانٍ سَائِرِ الْمُرْسَلِينَ.

(٦) فَلَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَتِهِ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً مِنَ الْخَوَارِقِ، يَشْهَدُ اللَّهُ لَهُ بِهَا بِأَنَّهُ صَادِقٌ فِي ادِّعَاءِ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ، لِيُبَلِّغَهُمْ دِينَهُ، وَالكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْهِمْ لِيَتَّبِعُوهُ.

فقال لهم «صالح» عليه السلام: ماذا تَطْلُبُونَ من آيَةٍ خارقة؟

قالوا: تَخْرُجْ معنا إلى عِيدِنَا هَذَا، وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَخْرُجُونَ إِلَيْهِ بِأَصْنَامِهِمْ وَمَا يَغْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ مِنَ السَّنَةِ فَتَدْعُو إِلَهُكَ، وَتَدْعُوا آلِهَتَنَا، فَإِنْ اسْتَجِيبَ لَكَ اتَّبَعْنَاكَ، وَإِنْ اسْتَجِيبَ لَنَا اتَّبَعْنَا.

فقال لهم «صالح» عليه السلام: نَعَمْ، وَقَبْلَ عَرْضِهِمْ.

(٧) فَخَرَجُوا بِأَوْثَانِهِمْ إِلَى عِيدِهِمْ ذَاكَ، وَخَرَجَ مَعَهُمْ «صالح» عليه السلام، مُتَوَكِّلًا عَلَى اللَّهِ، وَمُلْتَجِئًا إِلَيْهِ، دَاعِيًا إِلَى سَبِيلِهِ لِحُضُورِ مَبَارَاةِ الدُّعَاءِ.

أَمَّا «ثَمُودُ» فَدَعَا أَوْثَانَهُمْ، وَسَأَلَهَا أَنْ لَا يُسْتَجَابَ لَصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذَا دَعَا رَبَّهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَدْعُو بِهِ.

ثُمَّ قَالَ أَحَدُ سَادَاتِ «ثَمُودَ» وَعُظَمَائِهِمْ يَوْمَئِذٍ، وَهُوَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: «جُنْدُعٌ»: أَخْرِجْ لَنَا مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، وَعَيْنَهَا لَهُ، نَاقَةٌ مُخْتَرِجَةٌ (أَي: تُشْبِهُ الْبُخْتِ مِنَ الْإِبِلِ) ^(١) جَوْفَاءً (أَي: عَظِيمَةَ الْجَوْفِ) وَبِرَاءً (أَي: ذَاتَ وَبَرٍ كَثِيرٍ) فَإِنْ فَعَلْتَ أَمْنًا بِكَ وَصَدَقْنَاكَ فِي رِسَالَتِكَ، وَشَهِدْنَا بِأَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ حَقٌّ، وَوَأَقَّ سَائِرِ أَفْرَادِ «ثَمُودَ» عَلَى هَذَا الطَّلَبِ.

(٨) وَأَخَذَ رَسُولُهُمْ «صالح» عَلَيْهِمُ الْمَوَاتِيقَ قَائِلًا: لَيْتَنِي دَعَوْتُ اللَّهَ فَاسْتَجَابَ لِي، وَأَخْرَجَ لَكُمْ النَّاقَةَ الَّتِي وَصَفْتُمْ، مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ نَفْسَهَا الَّتِي ذَكَرْتُمْ، لَتَصَدَّقُنِي، وَلَتُؤْمِنُنَّ بِي.

(١) الْبُخْتُ مِنَ الْإِبِلِ هِيَ الْإِبِلُ الْخِرَاسَانِيَّةُ، وَكَانَتْ ذَوَاتُ صِفَاتٍ مُمَيِّزَةٍ.

قالوا: نعم، وأعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم.

(٩) فَدَعَا «صَالِحٌ» عَلَيْهِ السَّلَامَ رَبَّهُ، بِأَنْ يُخْرِجَ لَهُمِ النَّاقَةَ الَّتِي طَلَبُوهَا، مِنَ الصَّخْرَةِ الَّتِي ذَكَرُوهَا وَعَيَّنُوهَا، وَقَوْمُهُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى الصَّخْرَةِ.

فَلَمْ يَلْبَثُوا حَتَّى رَأَوْا الصَّخْرَةَ تَتَمَخَّضُ بِالنَّاقَةِ الْمَطْلُوبَةِ، تَمَخُّضَ النَّاقَةِ التَّنُوجِ بَوْلِدِهَا.

وَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ الْعَظِيمَةُ فَانْصَدَعَتْ، ثُمَّ أَسْقَطَتْ مِنْ بَاطِنِهَا نَاقَةً عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي طَلَبَهُ الْقَوْمُ.

(١٠) فَامَنَّ بِهِ «جُنْدُعٌ» وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَلَى أَمْرِهِ مِنْ رَهْطِهِ.

وَأَرَادَ بَغْضَ أَشْرَافِ ثُمُودَ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيُصَدِّقُوهُ، فَتَنَاهُمُ «ذُؤَابُ بْنُ عَمْرِو بْنِ لَبِيدٍ» وَ«الْحَبَابُ» صَاحِبِ أَوْلَادِهِمْ، وَ«رَبَّابُ بْنُ صَمْعَرٍ» وَكَانُوا مِنْ أَشْرَافِ ثُمُودَ، وَاسْتَطَاعُوا أَنْ يُؤَثِّرُوا عَلَى سَادَةِ ثُمُودَ وَأَشْرَافِهَا.

فَقَالَ أَحَدُ الَّذِينَ آمَنُوا بِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاتَّبَعُوهُ، وَهُوَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: «مُهِوسُ بْنُ عَمَّةٍ» شَيْعَرًا بِشَأْنِ «شِهَابٍ» عَزِيزِ «ثُمُودَ» جَاءَ فِيهِ قَوْلُهُ:

وَكَانَتْ غُضْبَةً مِنْ آلِ عَمْرِو	إِلَى دِينِ النَّبِيِّ دَعَا شِهَابًا
عَزِيزَ ثُمُودَ كُلِّهِمْ جَمِيعًا	فَهُمْ بِأَنْ يُجِيبَ وَلَوْ أَجَابَا
لَأَضْبَحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزًا	وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤَابَا
وَلَكِنَّ الْغَوَاةَ مِنْ آلِ حَجْرٍ	تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمْ ذُؤَابَا

(١١) قالوا: وَلَدَتِ النَّاقَةُ الْمَعْجِزَةُ سَقَبًا (أَي: وَلَدَتْ ذَكَرًا) ثُمَّ لَمَّا أَتَتْهُ مُدَّةُ رَضَاعِهِ فَصَلَ عَنْ أُمِّهِ فَصَارَ فَصِيلًا.

(١٢) وَامْتَحَنَ اللَّهُ ثُمُودًا بِهَذِهِ النَّاقَةِ امْتِحَانًا صَغْبًا، فَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ،

وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ، فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وقال لهم: إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ الَّذِي أَخْرَجَ هَذِهِ النَّاقَةَ لَكُمْ آيَةً كَمَا طَلَبْتُمْ، أَمَرَ بِأَنْ يَكُونَ الْمَاءُ الَّذِي تَشْرَبُونَ مِنْهُ قِسْمَةً بَيْنَكُمْ، وَبَيْنَهَا مَنَاصِفَةٌ، لَهَا يَوْمَ مَعْلُومٌ تَحْضُرُ فِيهِ، وَتَشْرَبُ الْمَاءَ، وَلَكُمْ يَوْمَ مَعْلُومٌ تَحْضُرُونَ فِيهِ، فَتَشْرَبُونَ وَتَمْلَأُونَ آيَتَكُمْ وَأَوْعِيَتَكُمْ.

(١٣) وَكَانَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ تَرْعَى عَلَى مَا تَشَاءُ يَوْمًا، وَتَأْتِي إِلَى مَاءٍ ثَمُودَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، فَتَنْقَرِدُ بِشَرْبِ الْمَاءِ، وَتَفْرُجُ لَهُمْ رِجْلَيْهَا يَوْمَ قُدُومِهَا حَتَّى يَخْلُبُوا مَا شَاءُوا لِبَنَاءٍ مِنْ ضَرْعِهَا، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ مِنْ لَبَنِهَا قَدَرٌ وَسَعِيهِمْ، وَيَدْخِرُونَ مِنْهُ، حَتَّى يَمْلَأُوا آيَتَهُمْ، ثُمَّ تَصْدُرُ مِنْ فَجٍّ غَيْرِ الْفَجِّ^(١) الَّذِي قَدِمَتْ مِنْهُ.

فَإِذَا كَانَ الْغَدُ كَانَ الْيَوْمُ يَوْمَ شُرْبِهِمْ مِنَ الْمَاءِ، فَيَشْرَبُونَ مَا شَاءُوا، وَيَدْخِرُونَ مَا شَاءُوا لِلْيَوْمِ الَّذِي هُوَ يَوْمُ النَّاقَةِ.

(١٤) قالوا: وَكَانَتِ النَّاقَةُ إِذَا اسْتَدَّ الْحَرُّ ارْتَقَتْ إِلَى الْمَرْتَفَعَاتِ فِي أَرْضِ ثَمُودَ، فَتَخَافُ مِنْهَا أَنْعَامُ الْقَوْمِ، فَتَهْرُبُ إِلَى بَطْنِ الْوَادِي حَيْثُ الْحَرُّ وَالْجَذْبُ، وَكَانَتْ إِذَا أَقْبَلَ الْبَرْدُ هَبَطَتْ إِلَى بَطْنِ الْوَادِي، فَخَافَتْ مِنْهَا أَنْعَامُهُمْ فَهَرَبَتْ إِلَى الْمَرْتَفَعَاتِ حَيْثُ الْبَرْدُ وَالْجَذْبُ فَأَصْرَّ ذَلِكَ بِمَوَاشِيهِمْ

(١٥) وَصَعِبَتْ عَلَى ثَمُودَ مَعِيشَتُهُمْ مَعَ هَذِهِ النَّاقَةِ، بِالشُّرُوطِ الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا، وَضَاقَتْ صُدُورُهُمْ مِنْهَا، فَاتَّفَقَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَلَى عَقْرِهَا.

(١٦) وَكَانَ فِي الْقَوْمِ امْرَأَتَانِ ذَوَاتَا شَرٍّ:

الأولى: امْرَأَةُ «ذَوَابِ بْنِ عَمْرٍو» وَهِيَ «أُمُّ غُنَمٍ غُنَيْرَةُ بِنْتُ غُنَمٍ» وَقَدْ كَانَتْ امْرَأَةً عَجُوزًا ذَاتَ بَنَاتٍ حَسَنَاتٍ، وَمَالٍ مِنْ إِبِلٍ وَبَقَرٍ وَغَنَمٍ.

الأخرى: «صَدُوفُ بِنْتُ الْمُحَبِّ» حَفِيدَةُ صَاحِبِ أَوْثَانِ بَنِي عُبَيْدٍ، وَكَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَمَالٍ مِنْ إِبِلٍ وَبَقَرٍ وَغَنَمٍ.

(١) الْفَجُّ: الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ الْبَعِيدُ، جَمْعُ «فَجَاجٍ» وَأَفْجَةٍ.

وكانتا من أشدَّ امرأتين في ثُمود عداوةً للنبيِّ الرُّسول صالح عليه السلام، وأعظم النساءِ كُفراً به.

وإِذْ أَصْرَتِ النَّاقَةُ فِي طَرِيقَةِ حَيَاتِهَا بِإِنْعَامِهَا، فَقَدْ حَرِصَتَا عَلَى التَّخْلِصِ مِنَ النَّاقَةِ بِعَقْرِهَا، وَعَمِلَتَا عَلَى ذَلِكَ بِمَكْرٍ وَخُبْنٍ.

أَمَّا «صَدُوفُ» فَدَعَتْ رَجُلًا مِنْ ثُمود يُقَالُ لَهُ: «الْحُبَابُ» وَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ تُسَلِّمَهُ نَفْسَهَا، مُقَابِلَ عَقْرِ النَّاقَةِ، فَأَبَى.

فَدَعَتْ ابْنَ عَمٍّ لَهَا يُقَالُ لَهُ «مِضْدَعُ» وَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا مُقَابِلَ أَنْ يَغْفِرَ النَّاقَةَ، فَقَبِلَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا «أُمُّ غُنَمٍ» عُنَيْزَةُ بِنْتُ غُنَمٍ فَدَعَتْ «قُدَارَ بْنَ سَالِفٍ» وَكَانَ رَجُلًا أَحْمَرَ أَرْزَقَ قَصِيرًا ذَا شَرٍّ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ تُعْطِيَهُ مَا شَاءَ مِنْ بَنَاتِهَا الْحِسَانِ، عَلَى أَنْ يَغْفِرَ النَّاقَةَ، وَكَانَ «قُدَارُ» هَذَا عَزِيزًا مَنِيعًا فِي قَوْمِهِ.

(١٧) فَأَنْطَلَقَ «قُدَارُ» وَ«مِضْدَعُ» فَاسْتَنْقَرَا غَوَاةً مِنْ ثُمود، فَاتَّبَعَهُمَا سَبْعَةُ نَفَرٍ، فَرَصَدُوا النَّاقَةَ حِينَ صَدَرَتْ عَنِ الْمَاءِ، وَقَدْ كَمَنَ لَهَا «قُدَارُ» فِي أَصْلِ صَخْرَةٍ عَلَى طَرِيقِهَا، وَكَمَنَ لَهَا «مِضْدَعُ» فِي أَصْلِ صَخْرَةٍ أُخْرَى، فَمَرَّتْ عَلَى «مِضْدَعٍ» فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ، فَانْتَضَمَ بِهِ عَضْلَةُ سَاقِهَا، وَأَقْبَلَتْ «عُنَيْزَةُ» وَمَعَهَا إِخْدَى بَنَاتِهَا الْحِسَانِ، فَأَمَرَتْهَا بِأَنْ تُسْفِرَ عَنْ وَجْهِهَا عِنْدَ «قُدَارٍ» لِإِغْرَائِهِ بِعَقْرِ النَّاقَةِ، فَفَتَنَهُ حُسْنُ وَجْهِهَا، وَحَرَضَتْهُ أُمُّهَا عَلَى عَقْرِ النَّاقَةِ، فَشَدَّ عَلَى النَّاقَةِ بِالسَّيْفِ، فَكَشَفَ عُرْقُوبَهَا، ثُمَّ طَعَنَ فِي لَبَّتِهَا فَتَنَحَّرَهَا.

ثُمَّ اتَّبَعُوا فَصِيلَهَا فَعَقَرُوهُ.

(١٨) فَلَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ قَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَبْشِرُوا بِعَذَابِ اللَّهِ وَنِقْمَتِهِ.

وَكَانَ عَقْرُهُمْ لِلنَّاقَةِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ.

قالوا له وهم يَهْزُؤُونَ: وَمَتَى ذَلِكَ يَا صَالِح؟ وما آيَةُ ذَلِكَ؟

قال لهم: تُضْبِحُونَ غَدَاةَ يَوْمِ الْخَمِيسِ وَوُجُوهُكُمْ مُضْفَرَّةٌ، ثُمَّ تُضْبِحُونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَوُجُوهُكُمْ مُحْمَرَّةٌ، ثُمَّ تُضْبِحُونَ يَوْمَ السَّبْتِ وَوُجُوهُكُمْ مُسْوَدَّةٌ، ثُمَّ يَنْزِلُ بِكُمْ عَذَابُ اللَّهِ صَبَاحَ يَوْمِ الْآخِرِ.

(١٩) فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا قَالَ: مُحَدِّدًا مَوْعِدَ عَذَابِهِمْ، قَالَ الثَّقَرُ الثَّنَعَةُ الْمُفْسِدُونَ، الَّذِينَ تَوَاطَّؤُوا عَلَى الْمِشَارَكَةِ فِي عَفْرِ نَاقَةِ اللَّهِ، هَلُمُّوا فَلْنَقْتُلْ صَالِحًا، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا عَجَلْنَاهُ قَبْلَنَا، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا أَلْحَقْنَاهُ بِنَاقَتِهِ.

فَأَتَوْهُ لَيْلًا لِيَقْتُلُوهُ، فَدَفَعَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ بِالْحِجَارَةِ فَأَهْلَكْنَهُمْ، فَلَمَّا أَبْطَؤُوا عَنْ أَصْحَابِهِمْ أَتَوْا مَنْزِلَ «صَالِحٍ»، فَوَجَدُوهُمْ قَتْلَى.

فَقَالُوا لَصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْتَ قَتَلْتَهُمْ.

(٢٠) ثُمَّ هُمْ الْقَوْمُ بِقَتْلِهِ، فَحَمَتُهُ عَشِيرَتُهُ، وَلَبِسُوا السَّلَاحَ، وَقَالُوا لَهُمْ: وَاللَّهِ لَا تَقْتُلُونَهُ، فَقَدْ وَعَدَكُمْ أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِكُمْ فِي ثَلَاثٍ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا لِمَ تَزِيدُوا رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا غَضَبًا.

وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَأَنْتُمْ مِنْ وَرَاءِ مَا تُرِيدُونَ.

فَانْصَرَفُوا عَنْهُمْ لَيْلَتَهُمْ تِلْكَ، فَأَضْبَحُوا وَجُوهَهُمْ مُضْفَرَّةً، فَأَيَقَنُوا بِالْعَذَابِ، وَعَرَفُوا أَنَّ صَالِحًا قَدْ صَدَقَهُمْ، فَطَلَبُوهُ لِيَقْتُلُوهُ فَلَمْ يَتِمَّكَتُوا مِنْ ذَلِكَ، وَشَغَلَهُمْ عَنْ مَلَا حَقَّتِهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ أَمَارَاتٍ ذَكَرَهَا لَهُمْ.

(٢١) وَفِي لَيْلَةِ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ لِإِهْلَاكَهُمْ، خَرَجَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، وَانْحَارُوا إِلَى مَكَانٍ قَرِيبٍ لَا يَنْزِلُ فِيهِ الْعَذَابُ، ثُمَّ تَوَجَّهُوا مُرْتَحِلِينَ مِنْ أَرْضِهِمْ وَدِيَارِهِمْ جِهَةَ أَرْضِ الشَّامِ، حَتَّى نَزَلُوا رَمْلَةَ فِلَسْطِينَ.

وكان ذلك بعد أن تمَّ إهلاك كُفَّارِ ثمود.

(٢٢) لقد أَرْسَلَ اللهُ العزيزَ المنتقمَ الجبارَ على ثمود الصيحةَ صبيحةَ يومِ الأحد، كما ذكر لهم رُسُلُهم صالحَ عليه السلام، وأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ كَبِيرٌ وَلَا صَغِيرٌ إِلَّا هَلَكَ.

وكذلك يفعل الله جلَّتْ حِكْمَتُهُ وعَظَمَ سُلْطَانُهُ بِكُلِّ المجرمين، متى صارَ صلاحُهُم أو صلاحَ بَعْضِهِم مَيُوساً منه تماماً.

تِلْكَ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ فِي دارِ الابتلاء، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا.

التدبر:

● قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ ثَمُودَ آخَاهُمْ صَالِحًا...﴾ (٧٣): أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَبِيلَةِ «ثَمُودَ» أو القوم المعروفين باسم «ثَمُودَ» النبي الرُّسُول «صالحاً» وقد كان مِنْهُمْ نَسَبًا وَلُغَةً وَمَوْطِنًا.

وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام مِنْهُمْ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿آخَاهُمْ﴾ وقد سبق بيان هذا لدى تَدَبُّرِ قِصَّةِ «هود» عليه السلام، عند قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا...﴾ (٦٥).

● قول الله تعالى:

﴿قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ عَزِيزٌ قَدْ جَاءَكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِّنْ شُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٧٤):

نُلاحِظُ في هاتين الآيتين أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ لَخَصَ مَقَالَاتِ «صالح» عليه السلام لقومه بثمانِي فقرات .

وهذه الْفِقَرَاتُ الثَّمَانُ . قَدْ دَلَّتْ عَلَى ثَمَانِي مَقَالَاتٍ مَفْصَّلَاتٍ مُسْتَفِيضَاتٍ ، شَرَحَ «صالح» عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَا لِقَوْمِهِ مَا تَخْتَاجُ دَعْوَتُهُ الْحَكِيمَةُ إِلَى شَرْحِ ، ضِمْنِ عَنَّاوِينَ هَذِهِ الْفِقَرَاتِ .

المقالة الأولى : دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة : ﴿يَقُومُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ . هذه هي فَاتِحَةُ الْمَقَالَاتِ الَّتِي قَالَهَا نُوحٌ وَهُدًى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِأَقْوَامِهِمَا .

وقد بَدَأَ بِهَا صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِ قَوْمَهُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ : كما بدأ بها نُوحٌ وَهُدًى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَشُعَيْبٌ (على ما سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ) عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكُلُّ رَسُولٍ وَجَدَ قَوْمَهُ يَعْْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ .

ومن المعلوم أَنَّ الْأَمَرَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ تَثْبِيتِ الْإِيمَانِ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ فِي قُلُوبِ الْمَدْعُومِينَ ، وَبَعْدَ تَثْبِيتِ الْإِيمَانِ بِحَقِّ الرَّبِّ الْخَالِقِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْْبُدُوهُ .

فإذا كان الْإِيمَانُ بِالرَّبِّ الْخَالِقِ مُوجُوداً لَدَى الْمَدْعُوِّ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ ، فَإِنَّ الْبَدْءَ يَكُونُ بِالْدَّعْوَةِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ الرَّبِّ الْخَالِقِ ، وَالْإِقْنَاعُ بِحَقِّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي أَنْ يَعْْبُدُوهُ .

وَيَظْهَرُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ خَالِقاً لِلْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً يَعْْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، لاعتقادهم أَنَّ آلِهَتَهُمْ تُشَارِكُ اللَّهَ فِي بَعْضِ عَنَاصِرِ رُبُوبِيَّتِهِ ، وَلَا سِيَّمَا مَا يَتَعَلَّقُ مِنْهَا بِمَصَالِحِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ ، كَالرِّزْقِ وَالتَّضَرُّعِ وَالصَّحَّةِ ، وَالتَّوْفِيقِ فِي الْأُمُورِ ، وَهَبَةِ الذُّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

فَهُمْ لَا يَقُومُونَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تَجَاهَ رَبِّهِمْ مِنْ عِبَادَةٍ عَلَى مَا شَرَعَ لَهُمْ ، وَطَاعَةٍ فِيمَا أَمَرَ عِبَادَهُ بِهِ أَوْ نَهَاَهُمْ عَنْهُ .

فاقتضى واقع حال هؤلاء الأقوام، أن تَبْدَأَ دَعْوَةَ رُسُلِهِمْ لَهُمْ بِالْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، الشَّامِلَةِ لِمُخْتَلِفِ وُجُوهِ الطَّاعَةِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ بِمَا يُحِبُّ، وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُحِبُّ وَيَرْضَى.

المقالة الثانية: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾: أي: مَا لَكُمْ مِّنْ مَّغْبُودٍ يَصِحُّ أَنْ تَعْبُدُوهُ لِحَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ لَكُمْ غَيْرِهِ إِذْ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ غَيْرِهِ.

﴿مِّنْ إِلَهِ﴾ «مِنْ» حَرْفُ جَرٍ زِيدَ لِلتَّنْصِصِ عَلَى عُمُومِ النِّفْيِ فِي: ﴿مَا لَكُمْ﴾.

وقد دَلَّتْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ عَلَى أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ، اتَّخَذُوا إِلَهَةً يَغْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَاقتضى واقع حالهم إقناعهم بأنَّهُ لَا إِلَهَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُغْبَدَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِذْ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ، فَلَا يَجُوزُ عَقْلًا، وَلَا يَجُوزُ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ رِّسَالَاتٍ لِّعِبَادِهِ، أَنْ يُغْبَدَ غَيْرُ اللَّهِ الرَّبِّ الْخَالِقِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يُغْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَتَوَجِيهِهُ مِثْلُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ لِقَوْمٍ مُّشْرِكِينَ، يَدُلُّ عَنْ طَرِيقِ اللَّوْازِمِ الْفِكْرِيَّةِ، مَعَ الْاسْتِنَادِ إِلَى مَعْرِفَةِ طِبَاعِ النَّاسِ وَاخْلَاقِهِمْ، عَلَى أَنَّ هَذَا التَّوَجِيهَ لَا بُدَّ أَنْ يَجُزَّ إِلَى مَجَادَلَاتٍ وَمُنَاطَرَاتٍ ذَوَاتِ وُجُوهِ مُتَعَدِّدَةٍ، لِإثْبَاتِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاجِدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَوَاحِدٌ فِي إِلَهِيَّتِهِ.

وقد قام «صالح» عليه السَّلامُ، وَسَائِرُ رُسُلِ اللَّهِ بِوُظُفَةِ اتِّخَاذِ مُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ، لِإِقْنَاعِ أُمَّمِهِمْ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الْكُبْرَى.

إنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْوُجُودِ رَبٌّ خَالِقٌ غَيْرُ اللَّهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، فَلَا يَجُوزُ عَقْلًا أَنْ يُتَّخَذَ إِلَهٌ يُغْبَدُ غَيْرُ اللَّهِ، سِوَاءِ أَكَانَ مَعَ عِبَادَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَمْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ.

المقالة الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

الْبَيِّنَةُ: هي الواضحة الظاهرة التي لا شك فيها ولا غموض ولا غش عليها. من «بَانَ الشَّيْءُ يَبِينُ بَيَانًا» أي: اتَّضَحَ، فَهُوَ «بَيِّنٌ» وهي «بَيِّنَةٌ».

وقَدْ أَطْلِقَتِ الْبَيِّنَةُ في القرآن، على الرِّسَالَةِ الرِّبَّانِيَّةِ الواضحة، وعلى الرُّسُولِ، وعلى الصُّحُفِ والكُتُبِ المنزلة مِنْ عند الله عزَّ وجلَّ، وعلى الآياتِ والمعجزاتِ الواضحاتِ الجليَّاتِ.

ولفظ «بَيِّنَةٌ» أو الْبَيِّنَةُ قد يَأْتِي صفةً لموصوفٍ محذوفٍ ويُقدَّرُ في كُلِّ مَوْضُوعٍ بما يلائمُهُ.

فمن إطلاق «الْبَيِّنَةُ» على الرُّسُولِ والقرآن، قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الْبَيِّنَةُ/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول):

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُنَافِقِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾.

والأوَّلَى فيما أَرَى حَمْلُ لفظ [بَيِّنَةُ] في مَقَالَةٍ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ على معنى الرُّسُولِ والكِتَابِ الذِّكْرِ الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ، لِأَنَّ آيَةَ النَّاقَةِ الْبَيِّنَةَ بِإِعْجَازِهَا، سَيَّأَتِي الْحَدِيثُ عَنْهَا فِي مَقَالَةٍ خَاصَّةٍ، فَالْأوَّلَى حَمْلُ الْجَمَلِ الْمُتَفَاصِلَةِ عَلَى تَأْسِيسِ مَفْهُومَاتٍ لَمْ تُذَكَّرْ سَابِقًا، لَا عَلَى تَكْمِيلِ مَفْهُومَاتٍ فَرَعِيَّةٍ، لِأَنَّ الْمَفْهُومَاتِ الْفَرَعِيَّةَ يُمَكِّنُ إِذْرَاكُهَا عَنْ طَرِيقِ اللَّوْازِمِ الذَّهْنِيَّةِ.

فَقَوْلُ «صَالِحٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يَتَضَمَّنُ إِيجَازًا لِمَقَالَةٍ طَوِيلَةٍ، أَبَانَ لَهُمْ فِيهَا أَنَّهُ نَبِيٌّ رَسُولٌ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّهِمْ، وَيَحْمِلُ لَهُمْ رِسَالَةً وَاضِحَةً بَيِّنَةً مِنْ رَبِّهِمْ، وَكِتَابًا بَيِّنًا وَاضِحًا.

وهذا الوضوح إتما هو وضوح الحق والخير والهدى، إما من براهين الفكر، أو من دلائل الفطرة، أو من دلائل الاختبار والتجربة وما تقدّمه من حقائق علميّة، أو مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ.

المقالة الرابعة: دلت عليها عبارة: ﴿... هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ٧٣﴾: ﴿

أي: هَذِهِ نَاقَةُ أَخْرَجَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكُمْ كَمَا طَلَبْتُمْ، مِنَ الصَّخْرَةِ الَّتِي عَيْنْتُمْ، وَطَبَّقَ الصِّفَاتِ الَّتِي بَيَّنْتُمْ وَحَدَّدْتُمْ حَالَةَ كَوْنِهَا آيَةً مُعْجَزَةً خَارِقَةً، تَشْهَدُ لِي بِأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ.

ولَمَّا كَانَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ آيَةً مِنَ اللَّهِ لَهُمْ، سَمَّاها صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَاقَةُ اللَّهِ» أَي: نَاقَةُ آيَةِ اللَّهِ الْخَارِقَةِ، كَمَا يُقَالُ: «بَيَّنْتُ اللَّهَ» أَي: بَيَّنْتُ عِبَادَةَ اللَّهِ، عَلَى حَذْفٍ مُضَافٍ.

أَمَّا الْإِضَافَةُ بِمَعْنَى الْمَلِكِ فَلَيْسَ لِهَذِهِ النَّاقَةِ خُصُوصِيَّةٌ فِي مِلْكِيَّةِ اللَّهِ لَهَا، لِأَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِلْكُ اللَّهِ، وَكُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عِبْدُ اللَّهِ، وَمِلْكُ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَإِذَا أَخْرَجَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ هَذِهِ النَّاقَةَ طَبَقًا لَطَلَبِهِمْ، فَقَدْ أَلْزَمَهُمْ بِوَاجِبَاتِ تَجَاهِهَا، سَوَاءً آمَنُوا بِرَسُولِهِمْ أَمْ كَفَرُوا بِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ التَّكَالِيفَ مَادَّةً مِنْ مَوَادِّ ابْتِلَائِهِمْ وَفِتْنَتِهِمْ بِمَا يَسُوءُهُمْ وَيُضَايِقُهُمْ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ عَيْنُوا الْآيَةَ، وَلَمْ يُفَوِّضُوا لِلَّهِ بِأَن يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ مَا، تَشْهَدُ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ صَالِحًا رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا.

وَقَدْ جَاءَ فِي النَّصِّ هُنَا فِي سُورَةِ (الأعراف) مِنَ الْبَيَانِ حَوْلَ هَذِهِ الْآيَةِ الْمُعْجَزَةِ، أَنَّ يَتْرَكُوا نَاقَةَ اللَّهِ تَأْكُلُ فِي أََرْضِ اللَّهِ كَمَا تَشَاءُ، وَعَلَى مَا تَشَاءُ، وَأَنَّ لَا يَمْسُوهَا بِسُوءٍ مَا، فِي حُرِّيَّةِ مَرَعَاهَا، فَإِذَا مَسَّوهَا بِسُوءٍ مَا أَخَذَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ، أَي أَخَذَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ بِالْإِسْتِثْصَالِ، مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ يُؤْلِمُهُمْ أَلَمًا شَدِيدًا.

وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَتَرَقِّبِ أَنَّ يَمَسَّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِسُوءٍ بَلِ الَّذِينَ سَيَمَسُّونَهَا بِسُوءٍ إِذَا آذَاهُمْ بِقَاوِهَا عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، هُمُ الَّذِينَ أَصْرَوْا عَلَى

الْكُفْرِ بِرَسُولِ رَبِّهِمْ، بَعْدَ مَا شَاهَدُوا بِأَعْيُنِهِمْ آيَةَ اللَّهِ يُخْرِجُهَا لَهُمْ عَلَىٰ وَفَىٰ مَا طَلَبُوا.

وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بيان أن العذاب الذي يأخذهم إذا مَسَّوْها بِسُوءٍ هو عذاب قريب، أي: يكون قريب الأجل من عُذْوَانِهِمْ عليها، فقال الله عز وجل فيها حكاية لمقالة صالح عليه السلام لقومه:

﴿وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾:

أما الواجب الآخر تُجَاهُ هذه الآية المعجزة، فهو أن ماء شُرْبِهِمْ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا، فَلَهُمْ يَوْمَ خَاصٌّ بِهِمْ يَشْرَبُونَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ، وَيَتَزَوَّدُونَ فِيهِ مَا شَاءُوا، وَلِلنَّاقَةِ يَوْمَ خَاصٌّ بِهَا، تَأْتِي فِيهَا فَتَنْقَرِدُ بِالشُّرْبِ مِنَ الْمَاءِ، وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَمَسُّوْهَا بِسُوءٍ بِالنَّسْبَةِ إِلَى حَقِّهَا فِي الْيَوْمِ الْمَخْصُصِ لَشُرْبِهَا مُنْفَرِدَةً بِالْمَاءِ، فَإِذَا مَسَّوْهَا بِسُوءٍ مَا، لَمْنَعِهَا مِنْ هَذَا الْحَقِّ أَخَذَهُمْ مِنَ اللَّهِ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشَّعْرَاءِ/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالة صالح عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَنَا شَرِبَ وَلَكُمَّ شَرِبَ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾:

الشُّرْبُ: الحِطُّ وَالنَّصِيبُ مِنَ الْمَاءِ، وَقِيلَ: وَقْتُ الشُّرْبِ وَتَوْبَةُ الْإِسْتِيقَاءِ.

أي: لِلنَّاقَةِ شَرِبٌ يَوْمَ مَّعْلُومٍ مِنْ مَائِكُمْ تَنْقَرِدُ بِهِ، وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمٍ آخَرَ مَّعْلُومٍ، يَكُونُ لَكُمْ، لَا تَأْتِي هِيَ إِلَى الْمَاءِ فِيهِ.

وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسُوءٍ مَا، بِالنَّسْبَةِ إِلَى حَقِّهَا مِنَ الْمَاءِ فِي الْيَوْمِ الْمَخْصُصِ لَهَا، فَإِذَا فَعَلْتُمْ مَا نُهِيتُمْ عَنْهُ، أَخَذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ مِنْ رَبِّكُمْ.

فَتَكَامَلَتْ دَلَالَاتُ النُّصُوصِ بِالنُّسْبَةِ إِلَى طَعَامِ النَّاقَةِ وَشَرَابِهَا، وَكَذَلِكَ بِالنُّسْبَةِ إِلَى الْعَذَابِ الَّذِي يَأْخُذُهُمْ إِذَا مَسَّوْهَا بِسُوءٍ، لِلتَّخْلُصِ مِنْ حُرِّيَّةِ مَرْعَاهَا، أَوْ لِلتَّخْلُصِ مِنْ حَقِّهَا فِي الْيَوْمِ الْمَخْصُصِ لَشُرِّهَا، فَجَاءَ فِي النُّصُوصِ: [فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ - فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ - فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ].

إنَّهَا نُصُوصٌ مُتَكَامِلَاتٌ الدَّلَالَاتِ، لَا مُتَطَابِقَاتِ.

وَدَلَّ النُّصُ الَّذِي فِي سُورَةِ (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَبَانَ خُطَّتَهُ لِرَسُولِهِ «صَالِحٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمُ النَّاقَةَ مِنَ الصَّخْرَةِ، وَيُبَيِّنَ لَهُمْ وَاجِبَاتِهِمْ فِي تَعَامُلِهِمْ مَعَهَا، فَقَالَ تَعَالَى لَهُ:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِئْتَةً لَهُمْ فَاتَّقِمْ وَأَصْطِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئِهِمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلَّ شَرِبَةٍ تَحْضَرُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فِئْتَةً لَهُمْ﴾: أَي: ابْتِلَاءٌ لَهُمْ بِشَيْءٍ شَدِيدٍ عَلَى نَفْسِهِمْ، تَضِيقُ بِهِ صُدْرَهُمْ، حَتَّى إِذَا عَصَوْا نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ.

المقالة الخامسة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ... ﴿٧٤﴾﴾:

أَي: وَضَعُوا فِي ذَاكِرَاتِكُمْ دَوَاماً أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ، مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكَ عَاداً أَسْلَافَكُمْ، لِأَنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَى مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا الْيَوْمَ، مِنْ شِرْكِ بَرَبِّكُمْ، وَعِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِهِ، وَإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَأَذْكُرُوا أَنَّ الَّذِينَ نَجُّوا مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي نَزَلَ بِعَادٍ هُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِرُسُولِهِمْ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَبَدَّلُوا شِرْكَهُمْ وَأَوْثَانَهُمْ، وَاتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ.

إِنَّ وَضَعَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فِي ذَاكِرَاتِهِمْ، وَاسْتَخْرَاجِهَا إِلَى سَاحَاتِ تَصَوُّرَاتِهِمْ وَقَتًا فَوْقَتًا، عِنْدَ كُلِّ مَنَاسِبَةٍ دَاعِيَةٍ، يَجْعَلُ اخْتِمَالَ اعْتِبَارِهِمْ وَاتِّعَاطِيَهُمْ أَزْجَى، وَأَسْرَعَ زَمَنًا، وَأَيْسَرَ لِلِاسْتِجَابَةِ وَقَبُولِ التَّضْحِجِ، وَتَرَكَ سُبُلِ الشَّيْطَانِ، وَاتِّبَاعِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، صِرَاطِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ رَبِّهِمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

تأثير ذكريات التاريخ في النفوس:

إِنَّ ذِكْرِيَّاتِ التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيَّ، تُثِيرُ لَدَى مَنْ وَعَاَهَا وَتَدَبَّرَهَا وَأَذْرَكَ سُنَّةَ اللَّهِ فِي أَحْدَاثِهَا، الْمَطَامِيعَ وَالْمَخَافَ.

فَالْمَهْلِكُونَ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ الْأُولَى، بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ أَسْبَابِ اكْتِسَابِهَا بِإِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ، يُثِيرُ اسْتِذْكَارُ قَصَصِهِمِ الْمَخَافَ مِنْ اكْتِسَابِ مِثْلِ مَا اكْتَسَبُوا، لِاتِّقَاءِ مِثْلِ الْهَلَاكِ الشَّامِلِ أَوْ الْجَزْئِيِّ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ.

وَالنَّاجُونَ وَالْمُؤَيَّدُونَ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ، بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ وَخَيْرَاتٍ تَحَلُّوا بِهَا، وَالتَّزَمُوهَا فِي حَيَاتِهِمْ، يُثِيرُ اسْتِذْكَارُ قَصَصِهِمِ الْمَطَامِيعَ بِاتِّبَاعِ طَرِيقَتِهِمْ، وَالْعَمَلِ بِمِثْلِ مَا عَمِلُوا لِلظَّفَرِ بِمِثْلِ مَا ظَفَرُوا بِهِ.

فَفِي نَفُوسِ النَّاسِ اقْتِنَاعٌ مُشْتَرَكٌ عَامٌّ بِأَنَّ سُنَنَ الْكُونِ ثَابِتَةٌ، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا سُنَنُ اللَّهِ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَيَجِدُونَ أَنَّهَا طَبِيعَةٌ ثَابِتَةٌ، فَيَتَنَفَّعُونَ بِهَا.

وَأَمَّا الْحَقَمَى الْمُتَعَجِّلُونَ فَيُغَامِرُونَ رَجَاءَ الْاسْتِفَادَةِ مِنْ خَوَارِقِ السَّنَنِ الَّتِي قَدْ تَخَذَتْ نَادِرًا، لِحِكْمَةِ مَنْ حَكَمَ اللَّهُ الْجَلِيلَةَ، فَيَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ، أَوْ يُضَيِّعُونَ أَعْمَارَهُمْ سُدًى، وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْأَوْهَامَ، ثُمَّ لَا يَقْبِضُونَ مِنْ مَطَامِعِهِمْ إِلَّا كَمَا يَقْبِضُونَ مِنَ الرِّيحِ بِأَكْفِهِمْ.

المقولة السادسة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿...وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْغِدُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا...﴾ (٧٤) ﴿...﴾

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: أي: وأنزلكم، وأعد لكم وهياً المكان والمنزل الملائم لكم. يُقال لغة: بَوَّأَ المكانَ، أي: أنزله فيه. وبَوَّأَ المنزلَ له، أي: أعدّه وهياً له، وأبَاءَ فلاناً منزلاً، أي: هيأه له وأنزله فيه. ويُقال: تَبَوَّأَ المكانَ، وتَبَوَّأَ به، أي: نَزَلَهُ وأقام به.

فَمَعْنَى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ هَيَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَنَازِلَ تَسْكُنُونَهَا، وَمَكَّنَ لَكُمْ فِيهَا، وَجَعَلَكُمْ قَادِرِينَ عَلَى أَنْ تَتَّخِذُوا لَكُمْ فِيهَا الْبُيُوتَ وَالْقُصُورَ وَسَائِرَ الْمَسَاكِينِ وَالْمَنَازِلِ الْمُنَاسِبَةِ لِمَطَالِبِكُمْ وَحَاجَاتِكُمْ.

أي: ولإذ مكنتكم في الأرض هذا التمكين بما وضع وهياً لكم من أسباب، وبما أفدركم على استخدامها والانتفاع بها، حتى صيرتكم تتخذون من سهولها قصوراً، فتقطعون الصخور من الجبال، وتبتنون بها القصور الفخمة، وصيرتكم تنحتون الجبال، فتجوفون غرماً في باطنها، حتى تكون الجبال لكم بيوتاً، تبيتون فيها، فتحتمون بها من مDAHمات أعدائكم.

فَاذْكُرُوا هَذِهِ النِّعَمَ الْجَلِيلَةَ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فِي أَرْضِكُمْ، فَاْمِنُوا بِهِ، وَاعْبُدُوهُ وَخُدُّهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شَيْئاً، وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ، وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ.

إِنَّ مِنْ أَخْيَا فِي نَفْسِهِ تَذَكَّرَ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَمْ تَصْرِفْهُ الْغَفْلَاتُ، أَوْ الْمَفْهُومَاتُ الْبَاطِلَاتُ الصَّارِفَاتُ عَنِ الرَّبِّ الْخَالِقِ، الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ حَمْدِ اللَّهِ وَشُكْرِ لَهُ، بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ الَّتِي تُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ وَتُكْسِبُهُ رِضْوَانَهُ، وَكَانَ أَسْرَعَ إِلَى الْعَمَلِ بِمَرَاضِيهِ، لِيَفُوزَ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ، وَيُظَفَّرَ بِالسَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ الْآبِدِيَّةِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ مَا يُصِيبُ مِنْ حَيَاةٍ طَيِّبَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

المقالة السابعة: دلَّت عليها عبارة: ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ﴾: أي: فإذا

ذَكَرْتُمْ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ كَوْنِهِ بِأَوَّكُنْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ
سُھُولِهَا قُصُورًا، وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا، اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْتَقِلُوا بَعْدَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً
إِلَى تَذَكُّرِ آلَاءِ اللَّهِ الْكَثِيرَةِ، الَّتِي تَتَقَلَّبُونَ فِي نِعْمَائِهَا، فِي أَجْسَادِكُمْ، وَفِي
مَزَارِعِكُمْ، وَفِي أَنْعَامِكُمْ، وَفِي طَعَامِكُمْ وَشَرَابِكُمْ، وَفِي أَمْنِكُمْ، وَفِي كُلِّ مَا
يُقْفِضُهُ عَلَيْكُمْ مِنْ نِعَمٍ فَانْتُمْ مُطَالِبُونَ بِوَضْعِهَا فِي سَاحَاتٍ تَذَكِّرُكُمْ الْمَتَلَاحِقِ
حِينَئِذٍ فَحِينًا، لِتَحْمَدُوا اللَّهَ عَلَيْهَا وَتَشْكُرُوهُ، وَلِتَعْبُدُوهُ وَخَدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ
شَيْئًا، وَلِتُطِيعُوهُ وَتَعْمَلُوا بِمَرْضَاهِ، وَلِتَتَّبِعُوا رِسُولَهُ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ
رَبِّكُمْ.

الآلاء: هي النعم، واجدُها «أَلِيّ» و«إِلِيّ» و«إِلَى».

المقالة الثامنة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿... وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

أَي: وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ إِفْسَادًا شَدِيدًا مُنْكَرًا.

الْعُتُو: أَشَدُّ الْفُسَادِ، يُقَالُ لُغَةً: عَثِيَ يَعْثِي عُثُوًّا وَعَثِيًّا وَعَثِيَانًا، أَي:
أَفْسَدَ إِفْسَادًا شَدِيدًا مُنْكَرًا.

وَيُقَالُ: عَثَا فِي الْأَرْضِ يَعْثُو، أَي: أَفْسَدَ.

وَالْإِفْسَادُ: ضِدُّ الْإِصْلَاحِ، وَيَكُونُ الْإِفْسَادُ بِجَعْلِ الشَّيْءِ الصَّالِحِ لِمَا
هُوَ الْمَقْصُودُ بِهِ غَيْرَ صَالِحٍ لَهُ.

فَقَطَعَ الْأَشْجَارَ عَلَى سَبِيلِ التَّخْرِيبِ، هُوَ مِنَ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ
وَالْقَاءِ الْقَادُورَاتِ وَالنَّجَاسَاتِ وَالْمِكْرُوبَاتِ الضَّارَّةِ فِي مِيَاهِ الشَّرْبِ أَوْ بِالْقُرْبِ
مِنْهَا، أَوْ فِي أَمَاكِنِ سَكَنِ النَّاسِ، أَوْ فِي مَجَالِسِهِمْ هُوَ مِنَ الْإِفْسَادِ فِي
الْأَرْضِ، وَتَخْرِيبُ الْعُمْرَانِ لَا لِبْنَاءٍ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، هُوَ مِنَ الْإِفْسَادِ فِي
الْأَرْضِ، وَقَتْلُ الْأَبْرِيَاءِ وَظُلْمُ النَّاسِ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ أَعْرَاضِهِمْ،
هُوَ مِنَ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ.

إلى غير ذلك من صُورِ وأعمال لا تُحصى ولا تُستقصى.

وَدَلَّتْ مَقَالَةٌ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ لِقَوْمِهِ عَلَى أَنَّ ثُمُودًا قَدْ وَصَلُوا إِلَى ذَرَكَةٍ مِنَ السُّوءِ كَانُوا فِيهَا يَعِيشُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا بَوَاجِهِ عَامٌ، إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ لِعَامِلِهَا، أَي: وَلَا تُفْسِدُوا حَالَةَ كَوْنِكُمْ قَاصِدِينَ الْإِفْسَادَ وَبَاغِينَ الْإِضْرَارَ، وَفَاعِلِينَ لَهَا.



● قول الله عز وجل:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَمْلِكُونَ أَنْ صَالِحًا تُرْسَلُ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿الْمَلَأُ﴾: هُمْ كِبَرَاءُ الْقَوْمِ وَأَعْيَانُهُمْ وَذَوُو الْوِجَاهَةِ فِيهِمْ، الَّذِينَ يَمْلَأُونَ عُيُونَ الْجُمْهُورِ الْأَعْظَمِ مِنَ الْعَامَةِ.

﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾: أَي: الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ ثُمُودٍ عَنِ الْإِيمَانِ بِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَنِ اتِّبَاعِهِ وَاتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، إِذْ رَأَوْا أَنْفُسَهُمْ أَكْبَرَ وَأَعْلَى مِنْ أَنْ يَتَّبِعُوا صَالِحًا، وَيَكُونُوا مَعَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَرُبَّمَا كَانُوا هُمْ ذَوِي السُّلْطَانِ وَالْأَمْرِ النَّافِذِ فِي قَوْمِهِمْ.

لَقَدْ رَفَضَ هَؤُلَاءِ دَعْوَتَهُ وَمَعَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ مِنْ عَامَّةِ ثُمُودٍ، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَلَا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنْ حَقٍّ وَهَدًى.

وَلَمْ يَقْتَصِرْ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَكْبِرُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَرَفْضِ الْإِسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، بَلْ تَوَجَّهُوا لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ قَوْمِهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاتَّبَعُوهُ، لِيَفْتِنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَيَرُدُّوهُمْ عَمَّا آمَنُوا بِهِ، وَيُعِيدُوهُمْ فِي مِلَّتِهِمْ،

وَلِيُسْمِعُوا جَمَاهِيرَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ رِسُولِهِمْ، بُعْيَةَ التَّأْثِيرِ عَلَيْهِمْ،
حَتَّى يَتَوَقَّفُوا عَنْ اتِّبَاعِ نُظَرَائِهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَاسْتَجَابُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، فَمِنْ
شَأْنِ النُّظَرَاءِ أَنْ يَجُرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيُؤْثِرَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.

واختيار عبارة: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ يُشِيرُ بِأَنَّ الْكَفَرَةَ
الْمُسْتَكْبِرِينَ، قَدْ جَمَعُوا جَمَاهِيرَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ
يُؤْمِنْ، وَخَاطَبُوا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُسْمِعُوا الْآخَرِينَ.

هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ وَأَمثَالُهَا تَكُونُ عَادَةً عِنْدَ تَخَوُّفِ كُبَرَاءِ الْكَافِرِينَ، مِنْ أَنْ
يُؤْمِنَ الْمُسْتَضْعَفُونَ الَّذِينَ هُمْ أَتْبَاعُهُمْ وَأَنْصَارُهُمْ، فَيَخْرُجُوا عَنْ سُلْطَانِهِمْ،
وَيَكُونُوا قُوَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَقُوَّةً لِلرُّسُولِ الَّذِي كَذَّبُوهُ، وَخَالَفُوهُ، وَنَاصَبُوهُ
الْعِدَاءَ.

وَكَانَ أَسْلُوبُ هَؤُلَاءِ الْمَضِلِّينَ، يَعْتَمِدُ عَلَى الْإِتِّعَادِ عَنِ الْمَجَادَلَةِ حَوْلَ
مَفْهُومَاتِ الدِّينِ، الَّذِي آمَنَ بِهِ فَرِيقٌ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، لِأَنَّ حُجَّتَهُمْ حَوْلَهَا
قَوِيَّةٌ وَدَامِغَةٌ. فَاخْتَارُوا أَنْ يَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَخْصٍ «صَالِحٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، نَبِيِّهِمْ
وَرِسُولِهِمْ، لِيَجِدُوا فِي شَخْصِهِ شَيْئًا يُعْطِيهِمْ فُرْصَةً لِلتَّشْكِيكِ فِي كَوْنِهِ نَبِيًّا
رَسُولًا مِنْ رَبِّهِ، فَقَالُوا:

• ﴿.. أَتَقْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟ ۝٧٥﴾ •

أي: هل لديكم أدلة قَوِيَّةٌ تُثَبِّتُ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ حَقًّا
وَصِدْقًا.

فَازْدَرَكَ الْمَسْؤُولُونَ الْمَكِيدَةَ الْجَدَلِيَّةَ، فَلَمْ يُجِيبُوهُمْ عَمَّا سَأَلُوا عَنْهُ، بَلْ
رَدُّوا عَلَيْهِمْ بِأَنَّ مَضْمُونَ رِسَالَتِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَتَشْهَدُ لَهُ
الْبَرَاهِينُ، فَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُرْسِلَ بِهِ:

• ﴿.. قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۝٧٥﴾ •

أي: لا تجادلونا في شخص النبي الرسول «صالح» عليه السلام، ولكن نحن مُستعدون لمجادلتكم حول ما أُرسل به، فنحن مُؤمنون به، وإذا كان كل ما جاء به حقاً يجب الإيمان به، فمن الزيف عن جوهر قضية الدين التّشاعُل بالبحث في شخص مُبلّغ عن ربّه، وكوّن ما جاء به حقاً وصدقاً دليل كافٍ لإثبات أنّه نبيّ مُرسَل من ربّه.

وطريقه هؤلاء المؤمنين في هذا الردّ من الحكمة البالغة في أساليب الجدل حول قضايا الحق.

عندئذ لم يجد المستكبرون حُججاً يُبطلون بها مضمون الرّسالة التي أُرسل بها «صالح» عليه السلام، فلجّؤوا إلى أسلوب إضرار المُستكبر المعاند بوقاحة، مغلين كفرهم بما آمن به المؤمنون من حق، دون أن يُقدّموا حُجّة ما، اعتماداً على أنّهم أصحاب القوّة والسّلطان في قومهم، دلّ على موقفهم هذا قول الله تعالى:

• ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

ولاً بُدّ أن يتوقّف الجدل عند هذه المكابرة بالباطل، والإضرار على رفض الحق.

ليكنّ المكابرة تتضمّن في الحقيقة هزيمة المكابر، وإدانتُهُ لدى العقلاء، ولدى كل ذي فِكر سليم.



• قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾﴾.

دَلَّت الآية الأولى (٧٧) من هذه الآيات الثلاث، على أَنَّ كُفَّار «ثمود» قَدْ فَعَلُوا ثَلَاثَةَ تَحْدِيَّاتٍ، تَحَدَّوْا بِهَا رَسُولَ رَبِّهِمْ، بَعْدَ إِمْهَالٍ كَافٍ من الله عز وجل لهم، وبلوغهم حالةً ميؤوساً منها، استكباراً وَعِنَاداً وَإِصْرَاراً على الباطل، وكانت تَحْدِيَّاتُهُمْ تَحْدِيَّاتٍ لِلَّهِ رَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ في حقيقة الأمر.

فَقَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ بِإِهْلَاكِهِمْ جَمِيعاً، كَمَا جَاءَ في الآية الثانية (٧٨) من هذا النص، وَقَضَتْ أَيْضاً بِنَجَاةِ «صالح» عليه السَّلَامُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، أَخْذاً من دَلَالَةِ الآية الثالثة (٧٩) مِنْ هَذَا النِّصِّ.

التَّحْدِي الأول: دَلَّت عليه عبارة ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ...﴾ (٧٧) . إِنَّهُمْ لَمْ يُبَالُوا بِإِنْدَارِ «صالح» عليه السَّلَامُ لَهُمْ بِأَنْ يَأْخُذَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، وَقَرِيبٍ، في يَوْمٍ عَظِيمٍ، إِذَا مَسُّوا نَاقَةَ اللَّهِ بِسُوءٍ مَا، فَكَانَ مِنْهُمْ عَقْرُهَا وَنَحْرُهَا، بِجَرِيْمَةٍ كُبْرَى، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا آيَةُ اللَّهِ لَهُمْ، إِذْ أَخْرَجَهَا لَهُمْ مِنَ الصَّخْرَةِ الَّتِي عَيَّنَّوْهَا، وَعَلَى الْوَضْفِ الَّذِي حَدَّدُوهُ، وَهَذِهِ حِمَاةٌ لَا يَفْعَلُهَا إِلَّا جَبَّارٌ مَغْرُورٌ مُسْتَكْبِرٌ.

التَّحْدِي الثاني: دَلَّت عَلَيْهِ عبارة: ﴿...وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ...﴾ (٧٧) .

لَقَدْ وَجَّهَ «صالح» عليه السَّلَامُ لَهُمْ أَوَامِرَ من الله لَهُمْ تَتَعَلَّقُ بِالْإِيمَانِ، وَبِالْعِبَادَةِ، وَبِأَنْوَاعٍ من السَّلُوكِ. وَالْأَمْرُ يَشْمَلُ مَا يَجِبُ فِعْلُهُ، وَمَا يَجِبُ تَرْكُهُ، فَالْأَمْرُ بِالشَّيْءِ نَهْيٌ عَنْ ضِدِّهِ، وَالتَّهْيُّ عَنْ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضِدِّهِ.

فَيَدْخُلُ في عُمُومِ عَثْوِهِمْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ تَمَادِيهِمْ في الإفساد في الأرض، الَّذِي نَهَاَهُمْ عَنْهُ رَسُولُهُمْ بِقَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿...وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٧٤) .

[عَتَوْا]: أَي: اسْتَكْبَرُوا وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ الْمَعَاصِي الْمَعْتَادَةِ فِي النَّاسِ، وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ الْإِفْسَادِ الَّذِي تَوَجَّدُ نِسْبَةُ مَا مِنْهُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ، وَعَظَمُوا غُلُوءَ

فاحشاً في ذَلِكَ كَمَا وَكَيْفَا، حَتَّى بَلَّغُوا إِلَى حَصِيصٍ تَقْتَضِي حِكْمَةَ اللَّهِ مَعَهُ
أَنْ يُنْزَلَ بِهِمْ عِقَاباً صَارِماً حَازِماً شَامِلاً.

يُقَالُ لُغَةً: عَتَا فُلَانٌ يَغْتُو عُتَوًا وَعِيتِيًا وَعِيتِيًا، أَي: تَجَاوَزَ الْحَدَّ
الْمَحْتَمَلَ الَّذِي قَدْ يُضْبَرُ عَلَيْهِ، إِلَى مَا لَا يُحْتَمَلُ وَلَا يُضْبَرُ عَلَيْهِ، مِنْ
اسْتِكْبَارٍ وَمُعَانَدَةٍ وَعِضْيَانٍ.

وَالْعَاتِي: هُوَ الطَّاعِي الْجَبَّارُ الْمُفْسِدُ.

وَقَدْ ضُمِّنَ فِعْلُ [عَتَوْا] فِي الْعِبَارَةِ مَعْنَى فِعْلِ «ابْتَعَدُوا» أَوْ فِعْلِ «تَوَلَّوْا»
فَعُدِّي تَغْدِيَّتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أَي: فَعَتَوْا مُتَبَعِدِينَ
وَمُتَوَلِّينَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَأَكْثَرُوا الْفَسَادَ وَالْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي بَيَانِ أَسْبَابِ إِهْلَاكِهِمُ الشَّامِلِ الْمَعْجَلِ فِي الدُّنْيَا فِي سُورَةِ
(الْفَجْرِ/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) أَنَّهُمْ طَعَّوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ،
كَمَا فَعَلَتْ «عَاد» وَكَمَا فَعَلَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ.

إِنَّ الطُّغْيَانَ وَكَثْرَةَ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَبْلِ أُمَّةٍ مَا، مِنْ الْأَسْبَابِ
الَّتِي تَقْتَضِي حِكْمَةَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ الْقَهَّارِ مَعَهَا إِهْلَاكُهَا إِهْلَاكاً شَامِلاً، أَوْ
قَرِيباً مِنَ الْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ.

التَّحْدِي الثَّلَاثُ: دَلَّتْ عَلَيْهِ عِبَارَةٌ: ﴿.. وَقَالُوا يَنْصَلِحُ اثْنَتَا يَمَا قَعْدَتَا
إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٧٧ ﴿:

لَقَدْ اسْتَمَرُّوا عَلَى اعْتِقَادِ أَنَّهُ كَذَّابٌ وَلَيْسَ رَسُولًا مِنَ الْمُرْسَلِينَ، عَلَى
الرَّغْمِ مِنْ آيَةِ النَّاقَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الصَّخْرَةِ وَهُمْ شُهُودٌ يَنْظُرُونَ.

وَيُظْهَرُ أَنَّ الَّذِي غَرَّهُمْ فَأَعْلَنُوا هَذَا التَّحْدِي، هُوَ إِمْهَالُ اللَّهِ لَهُمْ زَمَناً
طَوِيلاً عَلَى كُفْرِهِمْ وَعُتُوهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ، وَقُدْرَتُهُمْ عَلَى عَقْرِ
نَاقَةِ اللَّهِ دُونَ إِنْزَالِ الْعِقَابِ الْقُورِيِّ بِهِمْ عَلَى عَقْرِهَا.

وَلَعِبْتِ الْأَوْهَامُ فِي نُفُوسِهِمْ فَأَبْعَدَتْهُمْ عَنْ اسْتِبْصَارِ الْحَقِّ، وَرُبَّمَا تَصَوَّرُوا أَمْرَ النَّاقَةِ نَوْعاً مِنَ السَّخْرِ.

من البدهي أنهم لم يريدوا فعلاً أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ عَذَاباً بِإِهْلَاكِ عَامٍ شَامِلٍ، وَإِنَّمَا تَوَهَّمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ لَصَالِحٍ، إِذْ هُوَ فِي اعْتِقَادِهِمُ الْقَائِمُ عَلَى الْغُرُورِ لَيْسَ رَسُولاً، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُمْ لَهُ: ﴿... إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧)﴾ فقد جاءت العبارة معلّقة على «إِنْ» الشرطية، الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي الْأَمْرِ الْمَشْكُوكِ فِي وُجُودِهِ، أَوِ الْمَجْزُومِ بَعْدَ وَجُودِهِ.

وعقِبَ هذه التحذيراتِ أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعاً.

● قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ (٧٨)﴾:

[فَأَخَذَتْهُمُ]: أي: فَأَهْلَكَتْهُمْ وَأَمَاتَتْهُمْ، وَقَدْ جَاءَ التَّعْبِيرُ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بِالْأَخْذِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى الْإِهْلَاكِ وَالْإِمَاتَةِ مَعَ التَّعْذِيبِ.

لِأَنَّ أَخْذَ النَّاسِ أَفْرَاداً أَوْ جَمَاعَاتٍ أَوْ أُمَّةً كَامِلَةً مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَالِقِهِمْ، يَكُونُ بِأَخْذِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ يَكُونُ بِأَخْذِ حَيَاتِهِمْ، وَلَوْ بَقِيَتْ أَجْسَادُهُمْ، لِأَنَّهَا عِنْدَئِذٍ تَبْقَى سَاكِنَةً هَامِدَةً، أَوْ مُمَرِّقَةً مُحَطَّمَةً مُهَشَّمَةً مُشَوَّهَةً الْمَنْظَرِ.

الرَّجْفَةُ: الزَّلْزَلَةُ، يُقَالُ لَعَةً: رَجَفَتِ الْأَرْضُ تَرْجُفَ رَجْفًا، إِذَا حَصَلَتْ فِيهَا زَلْزَلَةٌ.

وحين تكون الزلزلة في الأرض شديدة فإنها تدمر كل ما عليها من أشياء، وتهلك الناس وكثيراً مما عليها من أحياء.

وإهلاك كُفَّار «ثمود» لم يحتج أكثر من زلزلة واحدة شديدة، رافقتها صيحة شديدة واحدة، دل عليها قول الله عز وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمَخْتَلِرِ ۝٣٩﴾ .

﴿كَهَشِيمٍ الْمَخْتَلِرِ﴾ : الهشيمُ : ما ييس من النباتات وتكسر ونحوها .
والمُختلِرُ : مَنْ يُريد أَنْ يَصْنَعَ حَظِيرَةً لِدَوَابِّهِ ، فَيَعِدُّ أَكْوَاماً مِنَ الهشيم لِيَقِيمَ
مِنْهَا السِّيَاجَ .

أي : صاروا هلكى مُمْتَهِنِينَ كَأَكْوَامِ الهشيم .

فَدَلَّ النَّصَّانُ عَلَى أَنَّ الزَّلْزَلَةَ الَّتِي حَصَلَتْ فِي أَرْضِهِمْ لِإِهْلَاكِهِمْ ، قَدْ
كَانَتْ مَصْحُوبَةً بِصَيْحَةٍ ، أَي : بِصَوْتٍ عَظِيمٍ جَدًّا يَقْتُلُ عَنْ طَرِيقِ السَّمْعِ .
لَقَدْ تَعَوَّدْنَا أَنْ نَسْمَعَ أَصْوَاتَ الرُّعُودِ ، لَكِنْ صَوْتُ الرُّعْدِ إِذَا اشْتَدَّ أَكْثَرَ
مِنْ احْتِمَالِ النَّاسِ قَتْلَهُمْ ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ
(البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بِشَأْنِ الْمُنَافِقِينَ .

﴿أَوْ كَهَشِيمٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَنَارٌ يَمْسِكُونَ ۝٤٠﴾ .
مِنَ الصَّوَغِ حَدَرَ الْمَوْتُ وَاللَّهُ يُحِيطُ بِالْكَافِرِينَ ۝٤١﴾ .

وكانت الصيحةُ التي أهلك الله بها «ثموداً» مَصْحُوبَةً أَيْضاً بِصَاعِقَةٍ ،
دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الذَّارِيَّاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧
نزول) بِشَأْنِ ثَمُودِ قَوْمِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿فَعَتَرُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝٤٢﴾ فَا اسْتَطَاعُوا مِنْ
فَيَّامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ ۝٤٣﴾ .

وكانت هذه الصَّاعِقَةُ مَصْحُوبَةً بِالْعَذَابِ الْهُونِ ، أَي : بِالْعَذَابِ الَّذِي
هُوَ ذُلٌّ وَمَهَانَةٌ وَخِزْيٌ ، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (فُصِّلَتْ/
٤١ مصحف/ ٦١ نزول) :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ
الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٤٤﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ۝٤٥﴾ .

فَتَكَامَلَتِ التُّصُوصُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعَانِي الْمُرَادِ بِبَيَانِهَا.

وَإِذْ أَخَذَتِ الرَّجْفَةُ الْمُصْحُوْبَةَ بِالصَّيْحَةِ، الْمُصْحُوْبَةُ بِصَاعِقَةِ الْعَذَابِ
الْهُونِ، ثُمَّوداً أَخَذَ تَغْذِيْبٍ وَإِهْلَاكِ، أَصْبَحُوا فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ فِي
دَارِهِمْ جَائِئِينَ.

[جَائِئِينَ]: أَي: لَأَصْقِينَ بِالْأَرْضِ عَلَى رُكْبِهِمْ وَوُجُوْهِهِمْ مُلَازِمِينَ
أَمَكَّتَهُمْ وَهُمْ هَلَكَى.

وَسَبَقَ بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ شَبَّهَ جُثُوْمَهُمْ وَهُمْ هَلَكَى بِأَنَّهُمْ كَهَشِيمِ
الْمُخْتَطِرِ، أَي: كَأَعْوَادِ الْأَشْجَارِ وَالْأَخْطَابِ وَالْأَشْوَاكِ الَّتِي يَجْمَعُهَا مَنْ يُرِيدُ
أَنْ يَبْنِيَ حَظِيرَةً لِدَوَابِّهِ، وَيُحِيطُهَا بِسِيَاجٍ مِنْ هَذَا الْهَشِيمِ.

● قَوْلُهُ تَعَالَى بِشَأْنِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ كُفَّارَ قَوْمِهِ
وَنَجَّاهُ وَنَجَّى الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَوْمِهِ وَكَانُوا يَتَّقُونَ فِي الْآيَةِ (٧٩) مِنْ سُورَةِ
(الأعراف):

﴿تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْفُورٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا
تُحِبُّونَ التَّصْحِيْحَ (٧٩)﴾.

﴿تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾: أَي: فَانْصَرَفَ عَنْ أَرْضِ ثَمُودَ مُهَاجِراً بِالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ
وَاتَّبَعُوهُ وَأَنْجَاهُمْ اللَّهُ، إِلَى أَرْضٍ أُخْرَى.

وَدَلَّ الْعُطْفُ بِالْفَاءِ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّوَلَّى قَدْ كَانَ عَقِبَ إِهْلَاكِ كُفَّارِ
قَوْمِهِ.

وَيُظْهَرُ أَنَّ «صَالِحاً» عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ بِأَنْ يَنْحَازَ مَعَ الَّذِينَ آمَنُوا
بِهِ وَاتَّبَعُوهُ إِلَى مَكَانٍ آمِنٍ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ، غَيْرِ بَعِيدٍ عَنْ مَسَاكِينِ ثَمُودَ، وَبَعْدَ
إِهْلَاكِ كُفَّارِ قَوْمِهِ أَمَرَهُ اللَّهُ بِأَنْ يُهَاجِرَ عَنْ كُلِّ أَرْضٍ ثَمُودَ.

وَعِنْدَ تَوَلَّيِهِ بِمَنْ مَعَهُ، خَاطَبَ كُفَّارَ قَوْمِهِ وَهُمْ هَلَكَى بِعِبَارَاتٍ ثَلَاثَ:

العبارة الأولى: ﴿يَقْوَرُ لَقَدْ أَلْفَنُكُمْ رَسُولَ رَبِّي﴾: أي: أَدَيْتُ الْأَمَانَةَ الَّتِي كَلَّفَنِي رَبِّي أَنْ أُبَلِّغَكُمْ إِيَّاهَا، وَقُنْتُ بَوَاجِبِي تُجَاهَكُمْ، لَمْ أَرِذْ عَلَى مَا أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أُبَلِّغَكُمْ إِيَّاهُ شَيْئاً، وَلَمْ أَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئاً.

من الملاحظ أَنَّ «صَالِحاً» عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقُلْ رِسَالَاتِ رَبِّي بِالْجَمْعِ، كَمَا قَالَ «نُوحٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ وكما قَالَ: «هُودٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضاً: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾. وَكَمَا قَالَ «شُعَيْبٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ، بَعْدَ أَنْ أَهْلَكُوا: ﴿يَقْوَرُ لَقَدْ أَلْفَنُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾.

وَيُظْهِرُ أَنَّ هَذَا الْاِخْتِيَارَ الْبَيَانِي فِيهِ دَلَالَةٌ ضَمْنِيَّةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ عَلَى «صَالِحٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، الرِّسَالََةَ جُمْلَةً وَاحِدَةً، وَلَمْ يَجْعَلْهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ مُنْجَمَةً مُجَرَّاةً، لِحُكْمَةٍ خَاصَّةٍ بِقَوْمِهِ.

وَقَدْ يُؤَكِّدُ هَذَا الْفَهْمُ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْقَمَرِ/ ٥٤) مِصْحَفٍ/ ٣٧ (نزول) حِكَايَةً لِمَقَالَةِ قَوْمِهِ بِشَأْنِهِ:

﴿لَقَدْ لَبِئَ الْاِذْكُرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾.

فجاء التعبيرُ بِالْقَاءِ الذَّكْرِ لَا بِانْزَالِهِ وَلَا بِتَنْزِيلِهِ، وَالْإِلْقَاءُ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ كَانَ بِاسْتُلُوبِ الدُّفْعَةِ الْوَاحِدَةِ، لَا بِاسْتُلُوبِ التَّنْزِيلِ الْمُنْجَمِ.

العبارة الثانية: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: أي: وَبَذَلْتُ مِنْ أَجْلِكُمْ كُلِّ مَا اسْتَطَعْتُ مِنْ نُصْحٍ، بِالْإِقْنَاعِ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ بِالْتَرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ، وَالمِجَادَلَةِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، مَعَ الصَّبْرِ، وَسَعَةِ الصُّدْرِ، وَالْجَلْمِ، وَتَحْمُلِ الْأَذَى. يُقَالُ لَعَةً: نَصَحَهُ وَنَصَحَ لَهُ.

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ دَلَّ قَوْمَهُ عَلَى مَا فِيهِ خَيْرُهُمْ، وَرَغَّبَهُمْ فِيهِ، وَأَخْلَصَ لَهُمْ بِتَقْدِيمِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى خَالِصَةً مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ، وَبَرِيئاً مِنْ أَيَّةِ مَصْلَحَةٍ شَخْصِيَّةٍ لَهُ عِنْدَهُمْ، إِنَّمَا يَرْجُو أَجْرَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِ.

العبارة الثالثة: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ : أي: وَلَكِنْ كُنْتُمْ حَتَّى نَزَلَ بِكُمْ الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ، لَا تُحِبُّونَ فِي الْحَالِ وَلَا فِي الْإِسْتِقْبَالِ، النَّاصِحِينَ الَّذِينَ تَرَوْنَ فِي نَصِيحِهِمْ أَنَّهُمْ يَبْعِدُونَكُمْ عَنْ أَهْوَاكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ وَرَغَبَاتِكُمْ، فِي الْفُجُورِ، مَعَ أَنَّهَا سَتَكُونُ أَسْبَابَ شَقَائِكُمْ، وَسَخِطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، وَأَنْتُمْ مُتَشَبِّهُونَ بِهَا، وَتَرَوْنَ فِي تَعَلُّقِكُمْ بِهَا سَعَادَتَكُمْ.

ويُسْعِرُ الفعل المضارع في: ﴿لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَهْلِكْهُمْ اللَّهُ، وَاسْتَمَرُّوا بَاقِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَا سَتَمَرُّوا عَلَى هَذَا الْوَصْفِ لَا يُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ.



الفصل الرابع

التدبر التحليلي للقطات المختارات

في هذه السورة من قصة لوط عليه السلام وقومه

الآيات من (٨٠ - ٨٤)

قال الله عز وجل:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

القراءات:

• قرأ ورش وأبو جعفر: [إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ] بالإثبات، وبالألف اللينة بعد

التاء.

وقرأ قالون وحفص: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ بالإثبات، وبالهَمْزَةُ الساكنة بعد التاء.

وقرأ السُّوسي: [إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ] بزيادة همزة الاستفهام، وبالألفِ اللَّيْنَةِ بعد التاء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ] بزيادة همزة الإستفهام وبالهَمْزَةُ السَّاكِنَةِ بعد التاء.

أما إبدال الهمزة ألفاً لَيْنَةً فهي من اللَّهْجَاتِ العربية.

وأما القراءتان: ﴿إِنَّكُمْ﴾ و[إِنَّكُمْ] فبينهما تكامل في الأداء البياني، فدلَّت قراءة: ﴿إِنَّكُمْ﴾ على أَنَّ لوطاً عليه السَّلَامُ خاطبهم أولاً مثبتاً، ودلَّت قراءة: [إِنَّكُمْ] على أَنَّهُ صار يخاطبهم بعد ذلك مُسْتَنْكِراً ما يَمَازُسونه من فاحشَةٍ شنيعة، فاقوا بها كُلُّ أهل الفواحش، بأسلوب الاستفهام الإنكاري، التشنعي.

● وقرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهِمْ] بضم هاء الضمير.

وقرأ باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمْ] بكسرها الضمير.

والقراءتان وجهان عريان في النطق.

موجز عن لوط عليه السَّلَام وقومه عند المؤرخين:

هو «لوط» ابن أخي «إبراهيم» عليه السلام «هاران بن تارح» وهو «آزر» بن ناحور، وهكذا إلى آخر نسب إبراهيم عليه السلام، على ما ذكر المؤرخون، والله أعلم.

أمن «لوط» بعمّه «إبراهيم» عليهما السلام، وهاجر معه من أرض ما بين النهرين (العراق) إلى كَنْعَانَ (فلسطين) متابعاً له في هجرته، وأرسله الله في حياة عمّه «إبراهيم» إلى أهل «سَدُوم»، وكانوا يعيشون في مكان البَحْرِ المَيِّتِ المَعْرُوفِ الآن في الْأَزْدُن.

ذكر المؤرخون أنَّ أهل «سدوم» كانوا نحواً من أربعمئة ألف، وأنَّ لهم خمسَ قرى، هي «صبغة - عمرة - أذما - صَبُويم - بالع» ورُبَّما كانت «سَدُوم» المركز الرئيس لهذه القرى، واسماً عاماً لكلِّ أرضهم.

وقد جاءت تسميتُهم في القرآن بقوم لوط، وكانت دعوة «لوط» عليه السلام لقومه على مثل دعوة سائر الرُّسل عليهم السلام.

وكان هؤلاء القوم أهلَ شذوذ جنسيٍّ، يأتون الرجال شهوةً من دون النساء، وكانوا يجاهرون بفواحشهم، فيفعلونها وهم مُجتمعون ينظر بعضهم إلى بعض، وكانوا يأتون المنكرَ في نواديهم، وكانوا يقطعون السبيل، فلا يدعون مسافراً أو تاجراً يمرُّ في طريقهم إلاَّ آذوه، واعتدوا عليه، ورُبَّما سلبوه ماله.

ولما أكثر «لوط» عليه السلام في نهيهن عن فواحشهن ومُنكراتهن، لم يكن من قومه إلاَّ أن قالوا: أخرجوا لوطاً وأهله من قريَّتكم إنَّهم أناس يتطهرون.

ويُعجِبني إطلاق كلمة «السُدومية» على فاحشةِ إثيان الذكور، وإماتة كلمة «اللُّوطيَّة» لأنَّ أهلَ سَدُوم هم أقبح الناس في ممارسةِ هذه الفاحشة، وكان رُسولهم «لوط» عليه السَّلام هو المؤنب لهم والمنذر لهم بإهلاك شامل.

ولما صارَ أهل سَدُوم قوماً مَيُؤوساً من إصلاحهم بالدعوة والنصح والترغيب والترهيب، والإنذارِ بعقاب الله المعجل الذي يستأصلُهم بعداب وإهلاك شامل، وأصرُّوا على تكذيبِ رُسولِ ربِّهم إليهم، وعلى ممارسةِهم لفواحشهم ومُنكراتهم، بعثَ الله لهم ملائكةً فقلَّبوا أرضهم كُلَّها عاليها سافلها، وأنظرَ الله عليهم حجارةً من سجيل، وكان بذلك استئصالُهم.

وأنجى الله عزَّ وجلَّ «لوطاً» عليه السلام وأهله إلاَّ امرأته، فقد كانت

كَافِرَةً هَوَاهَا مَعَ قَوْمِهَا، خَائِنَةٌ لِّزَوْجِهَا تَنْقُلُ لِقَوْمِهَا أَخْبَارَ زَوْجِهَا، وَتَنْصُرُهُمْ ضِدَّهُ، فَأَهْلَكَهَا اللَّهُ مَعَ قَوْمِهَا، فَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ.

التدبر:

● قول الله عز وجل:

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

تمهيد:

سبقَ هذا النصّ الذي جاء في سورة (الأعراف) تدبر ثلاثة نصوص جاءت في سور (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) و(القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) و(ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

فهذا هو النصّ الرابع بحسب ترتيب النزول من أصل خمسة عشر نصاً، عرضت لقطاتٍ مُوزَّعات على خمس عشرة سُورَةً، من قصّة «لوط» عليه السلام، وقومه.

● ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾:

جاء في بدء ذكر موجز قصة «نوح» عليه السلام وقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ... ﴿٥٩﴾﴾.

وجاء في بدء ذكر موجز قصة «هود» عليه السلام وقومه: ﴿وَأِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا... ﴿٦٥﴾﴾.

وجاء في بدء ذكر موجز قصة «صالح» عليه السلام وقومه: ﴿وَأِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا... ﴿٧٣﴾﴾.

فيظهر من هذا أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا﴾ هو على تقدير: ولقد أَرْسَلْنَا لُوطًا إلى قومه، فبهذا التقدير ينكشف لنا اتساق البيان القرآني في هذه الموجزات. ويؤكد هذا الفهم ما جاء بَعْدَ هذه الموجزات من ذكر موجز قصة «شعيب» عليه السلام وقومه، فقد جاء في بَدْئِهِ أيضاً: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ ﴿٨٥﴾ فكلُّها على تقدير: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا» كَمَا جاء في أولها.

● ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾: أي: اذكر أيُّها المتَلَقِّي الممتَحَنُ المكَلَّفُ ما نُبِّئُ لَكَ من قصّة لوطٍ مع قومه حينَ قال لقومه... وهكذا إلى آخر القصّة، بمعنى: ضَع هذا في ذَاكِرتَكَ ليَكُونَ هادياً ووَاعظاً ومُنْذِراً، وَحِجَّةً عَلَيْكَ إِذَا لَمْ تَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرُّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالَّتِي اشتمل عليها القرآنُ كِتَابُ رَبِّكَ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

● ﴿... أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٥﴾:

الفَاحِشَةُ: هي عند أهل اللّغة كُلُّ شيءٍ جاوز قَدْرَهُ وَحَدَّهُ. وتُطْلَقُ هذه اللفظة على القبيح من القول والفعل، وعلى كُلِّ خُصْلَةٍ قبيحة.

وقد نظرتُ في الاستعمالات القرآنيّة لهذه المادّة، فوجدتُ أنّها تدور حول الكبائر المتعلّقة بشهوات الفروج، فهذا اصطلاح قرآنيّ قائم على تخصيص الكلمة ببعض دَلالاتها اللّغوية.

ولو طُ عليه السلام أنكر على قومه بشدّة، ما يمارسونه بوقاحة من إتيان الرّجالِ في أذبارِهِمْ شَهْوَةً من دُون النساء، وإسرافهم في القَبِيحَةِ الشَّنيعةِ إسرافاً لَمْ يَفْقَهُمْ فيها أَحَدٌ من العالمين.

والاستفهامُ في عبارة: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾؟! استفهام إنكاريّ، فلو طُ عليه السلام وَجّهَ لقومه عبارة الإنكار عليهم مع التّنهّي والتّلويم، بأسلوب استفهام المتعجب المنكر عليهم كبيرتهم الفَاحِشَةَ، الَّتِي تَوَاطَّؤُوا عَلَيْهَا

بوقاحة وشناعة وإعلان دُونَ استخفاء، فَهُمْ يمارِسُونَهَا مُمارَسَةَ العاداتِ الَّتِي لا يَتَحَرَّجُ منها الناس، وَيَطَالِبُونَ بِهَا، وَيَسْعَوْنَ إِلَيْهَا كما يَسْعَى الجائعُونَ إلى طَعَامِهِمْ، وَالظَّامِثُونَ إلى شَرَابِهِمْ.

فعل «أتى» بمعنى «جاء»، وَحَصَلَ تَوَسُّعٌ لُغَوِيٌّ في دلالة فعل «أتى» فصار يُقالُ: أَتَى العَمَلُ، أي: فَعَلَهُ. واستُغْمِلَ هَذَا الفِعْلُ كِنَايَةً عن الجماع، في قوله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿نَسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ...﴾ ﴿٢٣٣﴾ أي: في موطنِ الحَرْثِ الَّذِي تَخْرُجُ مِنْهُ الْأَجَنَّةُ.

● .. مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ :

﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ : أي: من الناس، فالمراد بالعالمين هنا الناس، هذا ما تدلُّ عليه القرائن^(١).

السَّبْقُ: يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَيَيْنِ: السَّبْقُ الزَّمَانِي، والسَّبْقُ بِمَقْدَارِ كَمِيَّةِ العَمَلِ أَوْ كَيْفِيَّتِهِ. وما أَظُنُّ أَنَّ مُمارَسَةَ فَاحِشَةِ إِيثَانِ الذُّكُورِ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً في تاريخِ البشريَّةِ قَبْلَ قَوْمِ لوط، لَكِنْ لَمْ تَصِلْ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ الفَاجِرَةِ إلى مِثْلِ ما وَصَلَ إِلَيْهِ قَوْمِ لوط، فيما مَضَى من أَهلِ القرونِ السَّابِقَةِ لَهُمْ، وَلَمْ تَزِدْ عَلَيْهِمْ في كَمِّ الفُحْشِ وَلَا في كَيْفِيَّتِهِ أُمَّةٌ غَابِرَةٌ وَلَا مُعَاصِرَةٌ لَهُمْ، فَقَدْ كَانَ قَوْمِ لوطٍ في هَذِهِ القَبِيحَةِ مُسْرِفِينَ جَدًّا، فَأَقْوَا بِهِ جَمِيعَ مُعَاصِرِيهِمْ وَالسَّالِفِينَ مِنَ الأُمَمِ.

وأرى أن المراد بالسَّبْقِ المعنى الثاني، لا السَّبْقُ الزَّمَانِي، وعِبَارَةٌ ﴿مَا سَبَقَكُمْ﴾ تُشْعِرُ بِأَنَّهُمْ أَكْثَرُ وَأَشْنَعُ وَأَفْحَشُ مُعَاصِرِيهِمْ وَمِنْ مَضَى مِنْ فُسَاقِ الأَقْوَامِ وَالشُّعُوبِ في ارتكابِ الفَوَاحِشِ، وَلَا سِيَّما الشَّاذَّةِ مِنْهَا.

(١) لفظ «العالمين» قد يراد به ما سوى الله عز وجل، وقد يراد به الإنس والجن (الملائكة، وقد يراد به الإنس والجن فقط، وقد يراد به الإنس فقط.

وتبادر لأذهان المفسرين المعنى الأول، ولست أراه المعنى المراد، والله أعلم.

و«مِنْ» في عبارة ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ حرف جرّ زائد جيء به لتوكيد عموم النفي، وهو داخل على الفاعل بعد النفي.

• ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ...﴾ (٨١):

بهذا إتيان لهم «لوط» عليه السلام، أنّه يعلّم مِنْ أَمْرِ فَوَاحِشِهِمُ الَّتِي سَبَقُوا بِهَا غَيْرَهُمْ مِنَ الْعَالَمِينَ، أَنَّهُمْ يَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، وتعتبر هذه الجملة تفسيراً للجملة السابقة لها: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَتِحَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠).

﴿شَهْوَةً﴾ هذا اللفظ منصوبٌ على أنه نائب مفعول مطلق لبيان نوع الإتيان، أو على أنه مفعولٌ لأجله. الشَّهْوَةُ: الرغبة في الشيء لما فيه للنفس من لذة جَسَدِيَّةٍ أو نَفْسِيَّةٍ.

﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾: أي: حالة كون إتيان الرجال لأجل الشهوة، هو دُونُ إتيانِ النساء لتحقيق هذه الرغبة، إذ النساء أَطْهَرُ، ولهنّ المكان الصالح للحرث والبذر، أما الأدبارُ فبؤرةٌ جُرْثُومِيَّةٌ قَذِرَةٌ، جالِبَةٌ لِلْأَمْرَاضِ والأوجاع، والفطرة السَّوِيَّةُ تَجْعَلُ الذَّكَورَ ذَوِي مِيلٍ طَبِيعِيٍّ لقضاء شهوات الفروج في فروج النساء، مع الاستمتاع بلبين أجسادهنّ ونُعُومَتِهِنَّ، ومختلِفِ مظاهر أنوثتِهِنَّ. أما مِيلُ الذكور إلى الذكور لقضاء شهواتِ الفروج فَشُدُودٌ عَنِ أَضْلِ الْفِطْرَةِ.

وقد جعل الله عزّ وجلّ إتيان الذكور للذكور لقضاء شهوة الفرج، عملاً مُحَرَّمًا في كُلِّ مَا أَنْزَلَ لعباده من رسالاتٍ على رُسُلِهِ.

وجاء في القراءة الأخرى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ، فدلّ هذا على أن «لوطاً» عليه السلام

خَاطَبَهُمْ أَوَّلًا مُبِينًا قَبِيحَتَهُمْ هَذِهِ، ثُمَّ خَاطَبَهُمْ مُسْتَنَكِرًا بِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ، بَعْدَ أَنْ وَجَدَهُمْ غَيْرَ مُبَالِغِينَ بِإِثْبَاتِ أَنَّهُمْ يَمَارِسُونَ هَذِهِ الْفَاحِشَةَ، وَرُبَّمَا ذَكَرُوا لَهُ أَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ مَانِعًا مِنَ الْاجْتِمَاعِ عَلَيْهَا وَالِاسْتِعْلَانِ بِهَا، فَالْقِرَاءَتَانِ مُتَكَامِلَتَانِ فِي آدَاءِ الْمُرَادِ بَيَانُهُ مِنَ الْمَعَانِي.

● ﴿..بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (٨١): تفصح هذه العبارة عن مطوي لم يُصْرَحْ به في اللفظ، ولكن يمكن استخراجه بالتدبر.

إِنَّ «لُوطًا» عليه السلام لما شدد الإنكار عليهم بشأن قبيحة إتيانهم الرجال شهوةً من دون النساء، لا بُدَّ أن يكونوا قد قالوا له: لَسْنَا الْوَحِيدِينَ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ الَّذِينَ يُمَارِسُونَ إِيَّانَ الرِّجَالِ لِقِضَاءِ شَهَوَاتِنَا، فَغَيَّرْنَا يُمَارِسُ هَذَا الْعَمَلُ أَيْضًا.

فَقَالَ لَهُمُ «لُوطٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (٨١) أي: في ممارسة هذه الفاحشة القبيحة، حتى تفوقتم فيها على مَنْ سِوَاكُمْ مِنْ مَاضِينَ وَمُعَاصِرِينَ، وَتَجَاوَزْتُمْ الْحُدُودَ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا أَكْثَرُ الْأَقْوَامِ فُجُورًا.

الإسراف: تجاوز الحد المحتمل، فإذا كانت المعصية الشاذة موجودة في أمة بنسبة عشرين في المئة من أفرادها، إلى ثلاثين في المئة، فإن الأمة بمجموعها لا تعتبر مُسْرِفَةً، أمّا إذا كانت موجودة بنسبة ستين في المئة من أفرادها إلى سبعين في المئة، فإن الأمة بمجموعها أمة مُسْرِفَةٌ في هذه المعصية الشاذة، فإذا زادت هذه النسبة كانت أكثر إسرافاً وأشنع وأقبح بين الأمم، ولا سيما إذا وصلت إلى حدّ المجاهرة العلنية بقبيحتها.



● قول الله عز وجل:

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظْهَرُونَ﴾ (٨٢):

«الواو» في أول هذه الآية عاطفة على محذوف يمكن بالتأمل إدراكه، أي: فاستهان كُبراء قَوْمِهِ بنصائحهم، وبثريباته لهم على فواحشهم الشاذة، وما كان جوابهم إلا أن وجهوا الأمر لعائمتهم وأتباعهم قائلين لَهُمْ: أخرجوا «لوطاً» وآله من قَرْيَتِكُمْ، لأنَّهُمْ أَنَسَ يَتَشَدَّدُونَ في البُعْدِ عن مواطنِ القذاراتِ التي تَجِدُونَ لَذَائِكُمْ واستمتاعات فروجكم فيها، ويتشددون في التورع عن فعل المنكرات التي يَرَوْنَهَا خَبَائِثَ، فَهُمْ على خلاف طريقتِكُمْ، وَوُجُودُهُمْ بَيْنَكُمْ مع إنكارهم عليكم يُنْغِصُ عليكم عَيْشَكُمْ، وَيَعَكِّرُ عَلَيْكُمْ صَفْوَكُمْ.

إنَّ عملية إخراج المُواطِنِ مِنْ وَطَنِهِ هي ما يُعْرَفُ بعقوبة النّفي، أو سَخْبِ الجنسيّة من مكتسبها مع الطُّرْدِ من البلاد.

وقد كان «لوطاً» عليه السّلام قد اكتسب حقّ المواطنة في أرضِ سدُوم منذ سنين، وصارَ بها وربّما بالمصاهرة مِنْ إخوانهم.



● قول الله عز وجل:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٢)

دلّت عبارة: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ على أَنَّهُ صَدَرَ الأَمْرُ الرّبَّانِيُّ بإهلاك قومه كلهم ومعهم امرأته التي كانت على هوى قَوْمِهَا، وبِمَا أَنَّهُ عليه السّلام هو وأهله المؤمنون، قَدْ كانوا ما زالوا ضِمنَ أرضِ سدُوم فقد كان لا بُدَّ من اتّخاذ وسيلةٍ لنجاتِهِمْ من وسائلِ الإهلاك الشامل التي سَيُنْزِلُهَا اللهُ جَلَّ جلالُهُ في كُلِّ أرضِهِمْ.

وجاء بيان إنجائهم في نَصِّ آخر، أبان أَنَّ الرُّسُلَ من الملائكة المأمورين بإهلاك قومه قالوا له: لَا تَخَفْ وَلَا تَخْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ، ثُمَّ قالوا له عند اقتراب الصُّبْحِ: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ؟.

● ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾: أي: كانت من الباقيين مع قومها في

أَرْضِ الدَّمَارِ، وَمَضَتْ مَعَ الْهَالِكِينَ الْمُعَذِّبِينَ مِنْ قَوْمِهَا حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ
وَسَائِلَ التَّعْذِيبِ وَالْهَلَاكِ.

الغابر: يَأْتِي فِي اللَّغَةِ بِمَعْنَيْنِ:

المعنى الأول: الماكث في موضعه الَّذِي لَا يَتَحَوَّلُ.

المعنى الثاني: الذَّاهِبُ الْمَاضِي الَّذِي لَمْ يَبْقَ لَهُ وَجُودٌ.

وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَعْنَيْنِ يَنْطَبِقَانِ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ وَأَمْرَاتِهِ مَعَهُمْ، فَقَدْ
مَكَثُوا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ وَسَائِلُ التَّعْذِيبِ وَالْإِهْلَاكِ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا
أَنْ يَتَحَوَّلُوا عَنْهُ، وَبَعْدَ إِهْلَاكِهِمْ ذَهَبُوا إِلَى فَنَاءِ أَجْسَادِهِمْ مَعَ الذَّاهِبِينَ،
وَمَضَوْا مَعَ الْمَاضِينَ، فَلَا وَجُودَ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَاسْتِعْمَالَ اللَّفْظِ فِي مَعْنَيْنِهِ أَوْ فِي مَعَانِيهِ الَّتِي لَا تَتَنَاقَضُ بَيْنَهَا وَلَا
تُضَادُّ، مِنَ الْإِيجَازِ الْبَدِيعِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.



● قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤).

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾: الْمَطَرُ: هُوَ الْمَاءُ الَّذِي يَنْزِلُ مِنْ جِهَةِ
السَّمَاءِ عَلَى شَكْلِ قَطَرَاتٍ صَغِيرَاتٍ أَوْ كَبِيرَاتٍ، وَقَدْ يَنْصَبُ انْصِبَابًا شَدِيدًا
كَالْمَاءِ الَّذِي يَنْصَبُ مِنْ أَفْوَاهِ الْقِرَبِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مُعْطَوْفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ:
﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ﴾.

وَقَدْ يُطْلَقُ لَفْظُ «الْمَطَرِ» وَفِعْلُ «أَمْطَرَ»، عَلَى مَا يَنْزِلُ مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ
مِنْ حَصْبَاءٍ أَوْ حَجَارَةٍ، أَوْ وَسَائِلِ تَغْذِيبٍ أُخْرَى، مُشَابِهَةً فِي نَزْوِلِهَا لِأَنْوَاعِ
مَطَرِ الْمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ الْقَائِمَةِ
عَلَى التَّشْبِيهِ، وَقَدْ أَمْطَرَ اللَّهُ عَلَى قَوْمِ «لُوطٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا النُّوعَ مِنَ
الْحَجَارَةِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِمْ كَالْمَطَرِ.

فقد دَلَّتْ نُصُوصٍ أُخْرَى عَلَى أَنَّ الْمَطَرَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى قَوْمِ
«لُوطٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ كَانَ «مَطَرُ السُّوءِ» أَي: مَطَرُ الْعَذَابِ، وَأَنَّهُ كَانَ
«حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ» أَي: مِنْ طِينٍ مُتَحَجَّرٍ مُتَمَاثِلٍ مُتَسِقٍ مُتَقَارِبٍ
بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وَرُبَّمَا كَانَ لِلنَّارِ أَثَرٌ فِي جَعْلِهِ مُتَحَجَّرًا.

فَكَانَ هَذَا الْمَطَرُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ تَغْذِيهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، إِضَافَةً إِلَى
قَلْبِ بِلَادِهِمْ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ النُّصُوصِ الْآخَرَى.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤) : أَي: فَانظُرْ نَظَرَ تَفَكُّرٍ
وَاعْتِبَارٍ بِسُنَّةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ الْمَجْرِمِينَ، كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَتُهُمُ الْوَحِيمَةُ الَّتِي
عَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِهَا، بِمُقْتَضَى عَذْلِهِ الَّذِي هُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ حِكْمَتِهِ جَلِّ
جَلَالِهِ.

وَالْخِطَابُ مُوجَّهٌ عَلَى سَبِيلِ الْخِطَابِ الْإِفْرَادِيِّ لِكُلِّ مُؤَهَّلٍ لِأَنَّهُ يَسْمَعُ
الْخِطَابَ وَيَفْهَمُهُ، وَذُو الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ هُوَ الَّذِي يَتَّعِظُ فَلَا يَكُونُ مِنَ
الْمَجْرِمِينَ، حَتَّى لَا يُعَاقَبَ بِعِقَابٍ يَكُونُ فِيهِ عَذَابُهُ وَهَلَاكُهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ
عِقَابٍ آخَرَ مُدْخِرٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لِلْمَجْرِمِينَ.



الفصل الخامس

التدبر التحليلي للقطات المختارات

في هذه السورة من قصة شعيب عليه السلام وقومه
الآيات من (٨٥ - ٩٣)

قال الله عز وجل:

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوِرَ أَتَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا

الْكَاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبِعُواهُ عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا نَّكَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَخُصِمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي يَلْتِنَا قَالَ أُولَؤُكََا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مَبْنًى وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِن أَتَيْتُمُ شُعَبًا لَّتَكُذَّبُوا إِذَا لَخِيسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَاخَذَتُهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَبًا كَان لَمْ يَخْتَارُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رُبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ .

القراءات:

(٨٥) • قرأ الكِسَائِي، وَأَبُو جَعْفَرٍ: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ] بِجَرِّ الرَّاءِ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ] بِرَفْعِ الرَّاءِ.

جرُّ الرّاءِ رُوْعِي فِيهِ لَفْظُ [إِلَهٍ] إِذْ هُوَ صِفَةٌ لَهُ.

ورفعُ الرّاءِ رُوْعِي فِيهِ مَحَلُّ لَفْظِ [إِلَهٍ] إِذْ هُوَ مَرْفُوعٌ مَحَلًّا عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ مَجْرُورٌ لَفْظًا بِحَرْفِ الْجَرِّ الزَّائِدِ الَّذِي جِيءَ بِهِ لِتَأْكِيدِ عُمُومِ النِّفْيِ وَالتَّنْصِيبِ عَلَيْهِ.

(٨٦) • قرأ قُتَيْبٌ، وَرُوَيْسٌ: [سِرَاطٍ] بِالسِّينِ، وقرأ بالاشمَامِ خَلَفَ

عَنْ حَمْزَةٍ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [صِرَاطٍ] بالصَّادِ.

هَذِهِ الْقِرَاءَاتُ وَجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ لِنُطْقِ الْكَلِمَةِ.

موجز عن شُعَيْبٍ وَقَوْمِهِ عِنْدَ الْمُؤَرِّخِينَ:

أَهْلُ مَدْيَنَ قَوْمُ النَّبِيِّ الرَّسُولِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا قَوْمًا عَرَبًا، وَكَانَتْ مَوَاطِنُهُمْ مَا بَيْنَ الْحِجَازِ وَخَلِيجِ الْعَقْبَةِ بِقُرْبِ سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، شَمَالِي الْحِجَازِ، وَجَنُوبِ فِلِسْطِينَ، وَقَاعِدَةُ أَرْضِهِمْ تَقَعُ مَا بَيْنَ مَعَانَ إِلَى الْعَقْبَةِ قَتْبُوكَ، وَتَمْتَدُّ جِبَالُ مَدْيَنَ فِي الْحِجَازِ امْتِدَادًا طَوِيلًا.

وَمَدْيَنُ «الْمَدِينَةُ» هِيَ الْآنَ مَدِينَةُ خَرَابٍ عَلَى بَحْرِ الْقَلْزَمِ^(١) (= الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ) مُحَازِيَةً لِقَتْبُوكَ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، عَلَى نَحْوِ سِتِّ مَرَاحِلَ مِنْهَا، وَالْأَرْضُ الَّتِي تَقَعُ شَرْقِيَّ خَلِيجِ الْعَقْبَةِ تَسْمَى الْآنَ «مَدْيَانَ».

وَقَدْ سَمِّيَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ بِاسْمِ جَدِّهِمْ «مَدْيَنَ» بَنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ زَوْجَتِهِ «قُطُورَةَ» الَّتِي تَزَوَّجَهَا بَعْدَ مَوْتِ زَوْجَتِهِ «سَارَةَ».

قَالُوا: وَتَزَوَّجَ «مَدْيَنُ» ابْنَتَهُ «لُوطَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَزَقَهُ اللَّهُ مِنْهَا خَمْسَةَ بَنِينَ، وَذَكَرُوا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْكَنَ مَدْيَنَ وَذَرِيَّتَهُ فِي دِيَارِهِمُ الْوَاقِعَةِ وَسَطًا بَيْنَ مَسَاكِنِ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ وَذَرِيَّتِهِ فِي الْحِجَازِ، وَمَسَاكِنِ ابْنِهِ إِسْحَاقَ وَذَرِيَّتِهِ فِي فِلِسْطِينَ.

وَيُسَمَّى أَهْلُ الْكِتَابِ «مَدْيَنَ» بِاسْمِ «مَدْيَانَ».

وظَهَرَ النَّبِيُّ الرَّسُولُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَدْيَنَ بَنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ لِسَانُهُ وَلِسَانُ قَوْمِهِ الْعَرَبِيَّةِ، وَفِي نَسَبِهِ إِلَى مَدْيَنَ عِدَّةُ أَقْوَالٍ أُعْرِضْتُ عَنْ ذِكْرِهَا.

(١) الْقَلْزَمُ: كَانَ مِينَاءَ حُرًّا، وَكَانَتْ قُرْصَةُ مِصْرَ وَالشَّامِ عَلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَكَانَتْ أَشْبَهَ بِسُوقِ دَوْلَةِ. (انظر: أَطْلَسُ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ. د. حُسَيْنُ مُؤَنَسَ).

وَيُطْلَقُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ «أَهْلُ مَدِينٍ» لِأَنَّ أَرْضَهُمْ سُمِّيَتْ بِاسْمِ جَدِّهِمْ «مَدِينٍ».

وَيُطْلَقُ عَلَيْهِمْ أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ، إِذْ كَانَتْ لَهُمْ أَيْكَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ تُقْصَدُ «الْأَيْكَةُ» هِيَ غَيْضَةٌ ذَاتُ أَشْجَارٍ كَثِيرَةٍ مُلْتَفَّةٍ، تُنْبِتُ نَاعِمَ الشَّجَرِ» وَكَانَ فِيهَا شَجَرَةٌ يَغْبُذُهَا بَعْضُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وَكَانَ إِرسَالُ «شُعَيْبٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى قَوْمِهِ قَبْلَ بَعْثَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِزَمَنِ غَيْرِ بَعِيدٍ.

وَمِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ شُعَيْبًا وَقَوْمَهُ كَانُوا عَرَبًا، مَا جَاءَ فِي صَحِيحِ ابْنِ جَبَّانٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ فِي ذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ: هُودٌ، وَصَالِحٌ، وَشُعَيْبٌ، وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ».

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ شُعَيْبًا قَالَ: «ذَلِكَ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ».

وَيُقَالُ: إِنَّ الْفَتَاةَ الَّتِي تَزَوَّجَ بِهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَدِمَ أَرْضَ مَدْيَنَ فَارًا مِنْ مِصْرَ، هِيَ بِنْتُ الرَّسُولِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. بَعْدَ إِهْلَاكِ قَوْمِهِ، وَنَجَاتِهِ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

أَمَّا أَهْلُ مَدْيَنَ فَقَدْ وَرِثُوا الدِّينَ الْحَقَّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي كَانَ دِينَ جَدِّهِمْ مَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانُوا يُتَاجَرُونَ مَعَ أَهْلِ فَلَسْطِينَ وَلُبْنَانَ وَمِصْرَ.

وَلَكِنْ لَمْ يَطْلُبْ بِهِمُ الْعَهْدُ حَتَّى هَجَرُوا دِينَهُمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَدَخَلَتْ فِيهِمُ الْوُثْنِيَّةُ، فَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ وَعَبَدُوا غَيْرَهُ، وَانْحَرَفُوا عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَانْتَشَرَ فِيهِمُ الظُّلْمُ وَالْعُدَاوَةُ عَلَى الْحَقِّ، وَجَعَلُوا يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِضْلَاحِهَا، وَيُطْفَفُونَ فِي الْمَكَائِلِ وَالْمَوَازِينِ، وَيَبْخُسُونَ النَّاسَ

أَشْيَاءَهُمْ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَيَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ، إِذْ كَانُوا يَفْرَضُونَ عَلَى النَّاسِ الْمَكُوسَ، وَيَتَهَدَّدُونَ النَّاسَ وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ، وَيُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ.

فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، فَكَذَّبُوهُم، وَلَمْ يَزِدْهُمْ عَنْ قَبَائِحِهِمْ، وَكَانَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ آخِرَهُمْ، فَكَذَّبُوهُ وَهَدَّوْهُ بِأَنْ يُخْرِجُوهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ مِنْ قَرْيَتِهِمْ حَاضِرَةً مَسَاكِينِهِمْ، إِذَا لَمْ يَعُودُوا عَنِ الدِّينِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي مِلَّتِهِمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَهُمْ عَقِيدَةً وَسَلُوكًا، ثُمَّ هَدَّوْهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ قَائِلِينَ لَهُمْ: لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ.

وَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مِنْهَا، وَأَنَّهُمْ لَنْ يَتْرُكُوا مَا هُمْ فِيهِ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةَ، وَتَخَذُوا نُذْرَ الْعَذَابِ، وَقَالُوا لِرَسُولِهِمْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(١) إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ.

(٢) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا.

(٣) وَإِنْ نَظُنُّكَ لِمَنْ الْكَاذِبِينَ.

(٤) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا^(١) مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُنَجِّيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ، وَأَنْ يُنْزِلَ بِالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا يُعَذِّبُهُمْ بِهِ، وَيُهْلِكُهُمْ إِهْلَاكًا شَامِلًا.

وَنَقَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِرَادَتَهُ الَّتِي افْتَضَتْهَا حِكْمَتُهُ، فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ^(٢).

(١) كِسْفًا: أَي: قَطْعًا فِيهَا إِهْلَاكٌ وَتَغْذِيبٌ.

(٢) الظُّلَّةُ: فِي اللُّغَةِ، هِيَ كُلُّ شَيْءٍ أَظْلٌ وَسَتْرٌ مِنْ فَوْقٍ، وَمَا أَطْبَقَ عَلَى الشَّيْءِ مِنْ قَوْفِهِ.

قالوا: وكانت الظلَّةُ الَّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا الْكَفَرَةَ المجرمين من أهل مَدِينِ أَصْحَابِ الْآيَةِ عَمَامَةً حَارَّةً تَحْتَهَا سَمُومٌ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَعَدَّبَتْهُمْ بِالْحَرَارَةِ وَالْاخْتِنَاقِ، وَأَجْهَزَتْ عَلَيْهِمْ رَجْفَةً فِي الْأَرْضِ بِزَلْزَلَةٍ عَظِيمَةٍ، وَتَبِعَتْهَا صَيْحَةٌ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَصَارُوا فِي دِيَارِهِمْ هَلَكَى جَائِمِينَ.

هذا مُوجِزُ مَا ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ بِشَأْنِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَوْمِهِ أَهْلِ مَدِينِ أَصْحَابِ الْآيَةِ.

التدبر:

قول الله عز وجل:

﴿وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقَوِرَ عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَكُورُكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

تمهيد:

هذا هو النصُّ الثالث بحسب ترتيب النزول من النصوص العشرة الَّتِي جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بِشَأْنِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ^(١).

وقد جاء قبله نصٌّ في سورة (ق/ ٣٤ نزول) ونصٌّ في سورة (ص/

(١) انظر الدراسة التكاملية لهذه النصوص في الملحق السادس من ملاحق هذه السورة.

٣٨ نزول) وإيراد هذا النص في سورة الأعراف دَعَتْ إليه مناسبة إنذارِ الذين كَذَبُوا بآياتِ اللَّهِ المنزلات على رسوله، واستكْبَرُوا عن اتِّباعِ مَا جَاءَ فيها من شرائع وأحكام، وهذا الإنذار يتضمَّن أنَّهم إِذَا أَصْرُوا على موقفِهِم من التكذيب بآياتِ الله المنزلاتِ على رُسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ في كتابِهِ، والاستكبار عنها فَإِنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ أنفسهم للإهلاك، كما أَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ فَعَلُوا مِثْلَ هذا من أهل القرون الأولى.

وفي هذه الآيات من هذا النص إيجازٌ لمعظم عناصر دعوة شعيب عليه السلام لقومه، وهي تشتمل على ثلاث عشرة قضية، بَعْدَ بيان أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا إِلَى مَدِينٍ.

● قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَدِينَتْ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى الْقَوْمِ الْمَعْرُوفِينَ باسم «مَدِينٍ» النبيِّ الرَّسُولِ «شُعَيْبًا» وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ نَسَبًا وَلُغَةً وَمَوْطِنًا، وَوَصَفَهُ اللَّهُ بِأَنَّهُ أَخُوهُمْ وبدأ النصَّ مصدرًا بحرف العطف «الواو» لِأَنَّ قصة شعيب معطوفة على ما سبقها في السورة بدءاً من قصة نوح عليه السلام.

أما القضايا «الثلاث عشرة» التي اشتملت عَلَيْهَا دَعْوَةُ شُعَيْبٍ لقومه والتي جَاءَ بِهَا بيانُ عُثُونَاتِهَا في هذا النَّصِّ، فَأَتَابِعُ تَدْبِيرَهَا فيما يلي إِنَّ شَاءَ اللَّهُ:

القضية الأولى: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿فَقَالَ يَفْقَهُوا اللَّهَ﴾:

نلاحظُ أَنَّهُ عليه السلام نَادَى أَهْلَ مَدِينٍ نِدَاءً تَكْرِيمًا واستعطاف بقوله لهم ﴿يَفْقَهُوا﴾ أَضْلَاهَا «يَا قَوْمِي» حُذِفَتْ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ وَبَقِيَّتِ الْكُسْرَةُ دَلِيلًا عَلَيْهَا، وهذا قياس مُطَرَّد في المنادى غير المعتل وغير الوصف المشبه للفعل.

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: بَدَأَهُم بِالْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، لِأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

هي الواجبُ الأوَّلُ بَعْدَ الإيمان به، وإعلان الإسلام له، وإعلان الحرص على طاعته. وأوَّلُ خُطُواتِ العبادة تكونُ بطاعة اللَّهِ في تَأْذِيَةٍ ما أَمَرَ بِهِ، واجْتِنَابِ ما نَهَى عَنْهُ، وتكونُ بِدُعَائِهِ، ثُمَّ بالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَحَابَةِ.

ويظهر أنَّ هؤلاء القوم كانوا بَعِيدِينَ تماما عن عبادة الله، مستغرقين في أمور دنياهم.

القضية الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾: بَعْدَ خُطوة الأمرِ بِعِبَادَةِ الله، تأتي خُطوة أَمْرِهِمْ بِإِفْرَادِ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ، دُونَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهَا أَيُّ شِرْكَ.

والمعنى ما لَكُمْ في الوجودِ كُلِّهِ مِنْ مَعْبُودٍ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. لِأَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الوجودِ غَيْرُهُ جَلَّ جلالُهُ، فَلَا إِلَهَ يُعْبَدُ بِحَقِّ سِوَاهُ، وَكُلُّ إِلَهٍ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ بَاطِلٌ لَا حَقِيقَةَ لِإِلَهِيَّتِهِ، إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءٌ سَمَّاهَا الْمُشْرِكُونَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا لَهُ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ شَيْءٌ مَا.

وعبارة: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ تَدُلُّ عن طريق اللُّزُومِ الذَّهْنِيَّ على مطوِّى في اللَّفْظِ مُلَاحَظٍ في الذَّهْنِ، بعد عبارة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: أَعْبُدُوا اللَّهَ وَوَحْدُوهُ بِالْعِبَادَةِ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ وَقَدْ سَبَقَ تحليل عبارتي هاتين الْقَضِيَّتَيْنِ لَدَى تَدَبُّرِ موجز قصة نوح وقومه، وموجز قصة هود وقومه، وموجز قصة صالح وقومه.

القضية الثالثة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: لقد ظهر لي أن المراد بكلمة: ﴿بَيِّنَةٌ﴾ هُنَا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على شعيب عليه السَّلَامُ من آيات الكتاب الَّذِي اشتمل على رسالات الله التي كَانَ يُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهَا تَبَاعاً، وما آتاه من آيات تَدُلُّ على أَنَّهُ رسولٌ مِنْ رَبِّهِ لَهُمْ مُؤَيِّدٌ بما يثبت نبوته ورسالته.

البَيِّنَةُ: في اللُّغَةِ هي الواضحةُ الظاهرةُ الَّتِي لَا شَكَّ فِيهَا وَلَا غُمُوضَ،

وَلَا غَبَشَ عَلَيْهَا، من «بَانَ الشَّيْءُ يَبِينُ بَيَانًا» إذا اتَّضَحَ، فهو «بَيِّنٌ» وهي «بَيِّنَةٌ».

وقد أُطْلِقَتِ الْبَيِّنَةُ في القرآنِ على الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الواضحة، وعلى الرُّسُولِ، وعلى الصُّحُفِ والكتبِ المنزَّلَةِ من عند الله عزَّ وجلَّ، وعلى الآياتِ والمعجزاتِ الواضحاتِ الجليَّاتِ.

ولفظ «بَيِّنَةٌ» أو «الْبَيِّنَةُ» قد يأتي صفةً لموصوفٍ محذوفٍ، ويُقَدَّرُ في كُلِّ مَوْضُوعٍ ما يلائمه.

ومن إطلاق لفظ «الْبَيِّنَةُ» في القرآن على الرُّسُولِ والقرآن، قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البَيِّنَةُ/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول):

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رِسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾﴾.

وأرى حَمَلَ لفظ ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ الذي جاء في مقالة شعيب عليه السلام لقومه، على معنى الذِّكْرِ المنزَّلِ عليه مِنْ رَبِّهِ، وعلى كونه رَسُولًا لهم من رَبِّهِمْ مُؤَيَّدًا بِالْآيَاتِ الدَّالَّاتِ عَلَى نُبُوَّتِهِ ورسالته.

وقد يشمل هذا اللَّفْظُ ما آتاه الله من آيَاتٍ دالَّاتٍ على أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا، وعلى ما آتاه الله من حُجَجٍ بُرْهَانِيَّةٍ دامغة.

على أَنَّ المقصود الأول فيما أرى آيَاتُ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ يُوحَى بِهِ إِلَيْهِ مُنْجَمًا، لِأَنَّ خَطَّ السُّورَةِ الْأَعْظَمِ مرتبط بقول الله عزَّ وجلَّ في صدر السُّورَةِ:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾.

وفي اختيار عبارة: ﴿رَبِّكُمْ﴾ إشعارٌ لَهُمْ بما يجب عليهم عقلاً تَجَاةً عطاءاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ واحدٍ مِنْهُمْ، وَالَّتِي لَا تَنْقَطِعُ عَنْهُ أَقْلٌ مُدَّةً زَمَنِيَّةً تَمُرُّ عَلَيْهِ، ما دام في الوجود.

القضية الرابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾: أي فكيّلوا إذا كِلْتُمْ، وزِنُوا إذا وَزَنْتُمْ للناس، كيلاً أو وَزناً وإفياً تاماً غير منقوص، فلا تهضموا حقوق الناس إذا كِلْتُمْ أو وَزَنْتُمْ لهم.

يُقَالُ لغة: أَوْفَى فُلَانٌ الشَّيْءَ يُوفِيهِ إِيفَاءً، أي: أَتَمَّهُ وإفياً كاملاً غير منقوص، وكذلك «وَفَّى». ويُقال: وَفَّى وأَوْفَى الْمَدِينُ الدَّائِنَ حَقَّهُ، أي: أَعْطَاهُ إِياه وإفياً تاماً غير منقوص. ومنه الوفاء بالوعد والعهد.

الكيل: مضدّر «كَالٌ»: تقولُ لغة: كَالَ الحَبُّ كَيْلاً وَمَكَالاً، إِذَا تَعَرَّفَ على مقداره بالمكيال. وهو وعاءٌ مَعْرُوفٌ بين الناسٍ مقدارُ مَا يَسْتَوْعِبُ، تُكَالُ بِهِ الأشياءُ التي توضع فيه، من حبوب أو سوائِل أو غيرها.

الميزان: هو الآلة التي توزن بها الأشياء لِتُعَرَفَ مقاديرُها، وَيُطْلَقَ أيضاً على المِثاقيل ذاتِ المقادير المَعْلُومة، التي توضع في إحدى كِفَافِي الميزان، لِتُوزَنَ بها الأشياء ذاتُ المقادير المَجهولة.

ويُطْلَقُ لفظ «الميزان» ويرادُ به عملية الوزن، وهذا من إطلاق أداة الشيء على المضدّر الذي يَدُلُّ على الحدث.

ونلاحظ في عبارة ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أَنَّهُ ذَكَرَ الْكَيْلَ الَّذِي هو المضدّر الدّالُّ على الحدث، لِيَدُلَّ على إلْزَمِهِمْ بأنَّ يُوفُوا الْمِكْيَالَ حَقَّهُ إِذَا كَالُوا، فلا يَحْتَالُوا بِأَيَّةِ حِيلَةٍ لِلنَّقْصِ ممَّا يَكِيلُونَهُ لِلنَّاسِ، كَتْرِكِ فَرَاحَاتٍ فِي الْمِكْيَالِ لَا تُمَلِّأُ بِالشَّيْءِ الَّذِي يُرَادُ تَقْدِيرُهُ بِهِ مِنْ ذَوَاتِ الْقِيَمَةِ.

وَيُفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْكَيْلَ إِيفَاءُ الْكَيْلِ أَنَّ يَكُونَ الْمِكْيَالُ صَحِيحَ الْمَقَادِيرِ، وَافِيَّ الْفَرَاغِ فِيهِ حَسَبَ التَّحْدِيدَاتِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهَا فِي أَمْثَالِهِ.

أَمَّا فِي الْوِزْنِ فَقَدْ ذَكَرَ اسْمَ آلَتِهِ، فَالْزَمَهُمْ أَنَّ تَكُونَ آلَةُ الْوِزْنِ وَافِيَةً الْإِدَاءَ لَوُظِفَتِهَا، لَا تَنْقُصُ شَيْئاً مِنْ مِقْدَارِ الْمَوْزُونِ بِهَا، وَيُفْهَمُ بِاللُّزُومِ الذَّهْنِيَّ وَجُوبَ إِيفَاءِ عَمَلِيَّةِ الْوِزْنِ، وَعَدَمُ التَّحَايِلِ فِيهَا لِلنَّقْصِ مِنَ الْمَوْزُونِ بِهَا لِلنَّاسِ.

فصارت دَلَالَةُ الكلام بصريح اللفظ ولوازمه الذهنية بَقُوَّة ما لَوْ قَالَ لهم: فاؤفُوا الكَيْلَ والمَكْيَالَ، والوَزْنَ والمِيزَانَ، وهذا الأَمْرُ يَسْتَلْزِمُ عقلاً النهي عن ضِدِّ الإيفاء، وهو النقص.

وَيَدُلُّ أَمْرُ شَعِيبٍ عليه السَّلام لقومه بأن يُوفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ أَنَّهُمْ مُحْتَالُونَ على الناس مُخْسِرُونَ، فيَأْكُلُونَ بذلك أموال الناس بالباطل.

القضية الخامسة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَا يَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾: أي: وَلَا تَنْقُصُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، سَوَاءٌ أَكَانَ ذَلِكَ عن طريقِ الكَيْلِ والوَزْنِ، أَمْ عَنِ طَرِيقٍ آخَرَ.

هذه القضية جاءت على طريقة التعميم بَعْدَ التخصيص، فَبَخَسُ أَشْيَاءِ النَّاسِ أَعْمٌ مِنْ عَدَمِ إيفاءِ الكَيْلِ والمِيزَانَ.

البَخْسُ: هو النقص، وفعلٌ «بَخَسَ» مِثْلُ فِعْلِ «نَقَصَ» يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ.

وظاهرٌ أَنَّ النقصَ عنِ الحقِّ معِ العِلْمِ لَا يَكُونُ إِلَّا بظُلْمٍ، وَقَدْ تَسْتَعْدِمُ فِيهِ وسائلُ الاحْتِيَالِ والكَذِبِ والمَخَادَعَةِ.

وَيَدُلُّ تَدَبُّرُ مُوجَزَاتِ مقالاتِ شَعِيبٍ عليه السَّلام، على أَنَّهُ كَانَ مِنْ فصاحتِهِ وَقُدْرَتِهِ على الخطابةِ يُنَوِّعُ في الكلماتِ، وفي الأساليبِ، على ويأتي إلى المعنى الواحدِ مِنْ وُجُوهِ مُخْتَلِفَةٍ، فمرةً يَأْتِي مِنْ جهةِ الإيجابِ، ومرةً يَأْتِي مِنْ جهةِ السُّلبِ، ومرةً يُخْتَارُ تَغْيِينُ القضيةِ، وأخرى يختار إِدْخَالَهَا ضِمْنَ قَضِيَّةٍ عَامَةٍ، وهكذا تَكُونُ بَرَاعَةُ الخُطْبَاءِ.

إِنَّ التَّلَاعُبَ في الكَيْلِ والوَزْنِ، والمَكْيَالِ والمِيزَانِ، هو مِنْ أَكْلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ، وَأَكْلُ أموالِ الناسِ بالباطلِ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ بَخْسِ النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ، وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ، وَنَهَى عِبَادَهُ جَمِيعاً عَنِ الظُّلْمِ، وجعلَهُ بَيْنَهُمْ مُحَرِّمًا.

القضية السادسة: دلّت عليها عبارة: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾:

لقد كان شعيب عليه السلام ينهي قومه عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، إذ كانت هذه الجريمة من الكبائر والمنكرات التي يمارسونها عذواناً وظلماً.

والإفساد يشمل إفساد الأحياء والأشياء الصالحة، وإفساد العمران الحضاري، وإفساد المدن، وإفساد النباتات والأشجار والجنات، وإفساد أخلاق الناس، وإفساد سلوكهم، وإفساد أفكارهم ومفهوماتهم. ويدخل في عموم الإفساد إفساد الجو، وإفساد البر والبحر بالأوبئة، والأزجاس والأنجاس والقاذورات.

ويظهر أن قوم شعيب علي السلام، كانوا في عدوانهم على عباد الله لإخضاعهم لأوامرهم ونواهيهم وسلبهم أموالهم يخربون بيوتهم، ويثقلون مزارعهم وبساتينهم، ويجعلون مصانعهم وطرقاتهم وجسورهم غير صالحة للانتفاع بها.

الفساد في اللغة: التلف والعطب، وتحول الشيء من كونه صالحاً نافعاً، إلى كونه غير صالح ولا نافع، بل ربما يصير ضاراً كريهاً مفسداً للأشياء الصالحة.

والإفساد: الإثلاف، وتحويل الشيء عن صلاحه، وقد يصل إلى جعل الشيء ضاراً كريهاً مفسداً للأشياء الصالحة.

ومن آثار الإفساد في الأرض، ونشر المنكرات والمعاصي في المجتمع البشري، انتشار المهلكات، وانتشار الأوجاع والأمراض والأسقام، كمرض «الإنديز» وفساد طبقة الأوزون في الجو، من جراء سوء استخدام الناس للمواد الكيميائية والغازات القاتلة للحياة.

ولَمَّا كَانَ الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَخْطَرِ أَنْوَاعِ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِي، ذِي
النَّاتِجِ وَالْآثَارِ الْخَبِيثَةِ، نَهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ فِي كُلِّ الرِّسَالَاتِ الَّتِي كَلَّفَ
رُسُلَهُ أَنْ يُبَلِّغُوهَا لِلنَّاسِ.

ولَمَّا كَانَ أَهْلُ مَدْيَنَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، شَدَّدَ عَلَيْهِمْ رَسُولُهُمْ
شَعِيبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي النَّهْيِ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ فِي
تَحْذِيرِهِمْ مِنْهُ وَمِنْ عَوَاقِبِهِ.

القضية السابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾:

المشار إليه باسم الإشارة ﴿ذَلِكُمْ﴾ الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي الَّتِي جَاءَتْ
فِي سَوَابِقِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ النَّصِّ.

﴿خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أَي: أَغْظَمُ وَأَكْبَرُ فِي جَلْبِ
الْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ لَكُمْ، وَتَحْقِيقِ مَا تُحِبُّونَ فِي عَاجِلِ أَمْرِكُمْ وَآجِلِهِ، إِنْ كُنْتُمْ
سَتَؤْمِنُونَ بِبَيِّنَاتٍ وَرُسُلًا وَتُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَعْمَلُونَ بِهِ،
وَتُطِيعُونَهُ بِالْعَمَلِ بِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وَبِاجْتِنَابِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ.

أَمَّا مَا تَتَصَوَّرُونَ أَنَّكُمْ تَخْضَلُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ، كَزِيَادَةِ أَرْبَاحٍ وَمَكَاسِبٍ
عَاجِلَةٍ، وَاسْتِمْتَاعَاتٍ تَسْتَمْتَعُونَ بِهَا بِمَغْصِيَةِ اللَّهِ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، فَهِيَ
قَلِيلَةٌ ضَائِلَةٌ فِي عَاجِلِ حَيَاتِكُمْ، وَتَجْلِبُ لَكُمْ شَرًّا عَظِيمًا وَعَذَابًا أَلِيمًا فِي
آخِرَتِكُمْ، وَرُبَّمَا فِي دُنْيَاكُمْ أَيْضًا، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ ذَلِكَ.

القضية الثامنة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ
تُوعِدُونَ﴾: فِي هَذَا النَّهْيِ مِنْ شَعِيبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ
كَانَ مِنْ قَبَائِحِهِمُ الْعُدَوَانِيَّةُ الظَّالِمَةُ الْإِثْمَةُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُزَابِطُونَ فِي الطَّرِيقَاتِ
الْعَامَّةِ الْوَاسِعَةِ، الَّتِي تَجْتَازُهَا السَّابِلَةُ، وَيَمُرُّ مِنْهَا الْمُسَافِرُونَ، فَيَقْطَعُونَ
عَلَيْهِمُ الطَّرِيقَ، وَيُلْزِمُونَهُمْ بِدَفْعِ إِتَاوَاتٍ وَمُكُوسٍ ظَالِمَةٍ، حَتَّى يَسْمَحُوا لَهُمْ

بِالاجْتِيَازِ وَالْمُرُورِ، وَإِلَّا كَانُوا غُرْضَةً لِّمَا يَكْرَهُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ أَوْ مُمْتَلَكَاتِهِمْ مِنْ ضُرٍّ وَادًى، وَسَلْبٍ وَنَهْبٍ وَمُصَادَرَاتٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيَتَهَدَّدُونَهُمْ وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا.

فنهاهم رَسُولُهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْإِجْرَامِيَّةِ الظَّالِمَةِ لِعِبَادِ اللَّهِ، الَّتِي يَتَّخِذُونَهَا وَسِيلَةً لِأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَالْإِثْرَاءِ غَيْرِ الْمَشْرُوعِ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الْجَهْدِ وَالْكَدِّ وَالْعَمَلِ، الَّذِينَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُدَافِعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، تُجَاةَ عِصَابَاتِ الْإِجْرَامِ مِنْ أَهْلِ مَدِينِ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ، الْمَتَوَاطِنِينَ عَلَى الشَّرِّ وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا.

المراد بالقعود الذي نهاهم عنه شعيب عليه السلام المراقبة والتربص، لِقَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى الْمَازِنِ مِنَ الْمَجْتَازِينَ وَالْمُسَافِرِينَ، وَرَبِّمَا مِنْ ضَعْفَاءِ قَوْمِهِمْ.

وقد كان زبانية هؤلاء القوم يقعدون مُتَرَبِّصِينَ بِكُلِّ صِرَاطٍ، فَلَا يَدْعُونَ طَرِيقًا عَامًّا مِنْ طُرُقَاتِ أَرْضِهِمْ وَبِلَادِهِمْ، إِلَّا رَابِطَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ فِيهِ، حَتَّى لَا يَجِدَ الْمَجْتَازَ عَنْ طَرِيقِ أَرْضِهِمْ مَهْرَبًا مِنْ عِصَابَاتِهِمْ، عِصَابَاتِ السَّلْبِ وَالنَّهْبِ الْقَاطِعِينَ لَطُرُقَاتِ النَّاسِ.

الصراط والسراط: الطريق الواضح، وقيل: سُمِّيَ «سِرَاطًا» لِأَنَّهُ يَنْتَرِطُ الْمَارَّةُ، أَيْ يَنْتَلِعُهُمْ بَيْسِرٍ وَسَهُولَةٍ دُونَ تَزَاحِمٍ.

﴿تَوَعَّدُونَ﴾: أَي: تَتَهَدَّدُونَ وَتَتَوَعَّدُونَ بِاسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ الْمَسْلُحَةِ لِلْإِكْرَاهِ وَإِنْزَالِ الْبَلَاءِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ.

القضية التاسعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَصَّدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾:

﴿وَصَّدُّونَ﴾: هَذَا الْفِعْلُ مَعْطُوفٌ عَلَى فِعْلِ ﴿تَوَعَّدُونَ﴾ فَهُوَ مِنْ تَوَابِعِ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أَي: حَالَةٌ كَوْنِكُمْ تَتَهَدَّدُونَ

وَتَتَوَعَّدُونَ النَّاسَ بِالشَّرِّ، وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ.

تَصُدُّونَ: أي: تمنعون وتضربون.

﴿عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي: عن طريق الله الجلي الواضح المستقيم الذي لا يتزاحم فيه سالكوه، وليس فيه عوج، وليس فيه أمت، أي: هو مُستَوٍ ليس فيه اختلاف في الارتفاع والانخفاض، والرقة والصلابة، والحزونة والسهولة، وسبيل الله هو دينه الذي اصطفاه لعباده.

﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾: أي: من آمن بسبيل الله، وَلَا يَكُونُ هَذَا الْإِيمَانُ إِلَّا عَلَى أَسَاسِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وبالآياتِ الْمُنْزَلَاتِ الْمُشْتَمَلَاتِ عَلَى بَيَانِ سَبِيلِ اللَّهِ.

إِعَادَةُ الضمير في: ﴿بِهِ﴾ على: ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أولى فيما أرى من اعتباره عائداً على لفظ الْجَلَالَةِ: ﴿اللَّهُ﴾ لأنَّ الإيمان بسبيل الله يقتضي عقلاً الإيمان بسائر أركان الإيمان، بخلاف الإيمان بالله فَقَدْ لَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ.

أما من لم يُؤْمِنْ بِغَدِّ بِهِ مِنْهُمْ، فهو على طريقتهم ومِلَّتِهِمْ، وصار مَيُؤُوساً من إيمانه في هذه المرحلة من مراحل دعوة شعيب عليه السلام لقومه.

الْقَضِيَّةُ الْعَاشِرَةُ: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةُ: ﴿وَتَبْعُونَهَا عِوَجًا﴾: أي: وَتَبْعُونَ السَّبِيلَ الَّتِي تَسْلُكُونَهَا سَبِيلاً عِوَجًا، عَلَى وَفْقِ أَهْوَائِكُمْ، وَشَهَوَاتِكُمْ، وَرَغَبَاتِكُمْ الَّتِي لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَالْفِسْقِ وَالْفُجُورِ وَالْعِصْيَانِ، لِلرَّبِّ الْمَلِكِ الدَّيَّانِ.

وَالسَّبِيلُ الْعِوَجُ لَا بُدَّ أَنْ يَنْحَرِفَ سَالِكُوهَا إِلَى مُتَعَرِّجَاتِ السَّبِيلِ الْهَابِطَةِ إِلَى حَضِيضِ الْفَسَادِ وَالظُّلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَسَخَطِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ وَعَذَابِهِ.

وَالسَّبِيلُ الْعِوَجُ إِنَّمَا هِيَ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ، وَجِيْنُذٍ لَا تَكُونُ سَبِيلًا
وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا تَكُونُ سَبِيلًا عَوَجًا شَتَّى، بَعِيدَةً فِي الْمَهَاوِي عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
بُعْدًا فَاحِشًا.

الْعِوَجُ: بِكَسْرِ الْعَيْنِ عَدَمُ الاستقامة في الأشياء المعنوية، كالفكرات،
والتفسيات، والأقوال والمذاهب، ومناهج السلوك.

أَمَّا عَدَمُ الاستقامة في الأشياء المَرِيَّةِ بِالْبَصَرِ، فَيُقَالُ فِيهِ: «عَوَجٌ» بِفَتْحِ
الْعَيْنِ، وَهُوَ مُضْدَرُّ فَعْلٍ «عَوَجَ يَعْوَجُ» فَهُوَ أَعْوَجُ.

وَقَدْ يُطْلَقُ الْعِوَجُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ عَلَى عَدَمِ الاستواء فِي الْأَرْضِ.

القضية الحادية عشرة: ذَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا
نَكْرُكُمُ﴾:

أَفَادَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ أَنَّ شَعِيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ ذَكَرَ قَوْمَهُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ
عَلَيْهِمْ بِتَكْثِيرِ أَعْدَادِهِمْ فِي مُدَّةٍ وَجِيزَةٍ، وَقَدْ كَانُوا قَلَّةً ضِعْفَاءَ بَيْنَ الْمُضْرِبِينَ،
وَالْفَلَسْطِينِيِّينَ، وَعَرَبِ الْحِجَازِ.

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ تَسْتَدْعِي مِنْهُمْ أَنْ يَشْكُرُوا فَضَلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ،
بِالْإِيمَانِ بِهِ إِيْمَانًا صَاحِحًا صَادِقًا، وَبِعِبَادَتِهِ وَخَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِطَاعَتِهِ فِي
إِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَالْأَتِزَامِ بِالْحَقِّ، وَتَبَذِّ الظُّلْمِ، وَاجْتِنَابِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ،
وَاجْتِنَابِ قَطْعِ طُرُقِ مَجْتَازِي أَرْضِهِمْ، وَاجْتِنَابِ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ
بِهِ، وَالتَّخَلِّيِ عَنْ ابْتِغَاءِ سَبِيلِهِمُ الَّتِي يَسْلُكُونَهَا فِي حَيَاتِهِمْ سَبِيلًا عَوَجًا
مُلْتَوِيَّةً، لِيُحَقِّقُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِعَوَجِهَا وَالتَّوَاتُؤِهَا مَا يَشْتَهُونَ، وَمَا يَهْوَوْنَ مِنْ ظُلْمٍ
وَعُدْوَانٍ، وَأَكْلِ لِأَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَفَسْقٍ وَفُجُورٍ، وَتَفَاخُرٍ وَتَكَاثُرٍ، وَمَا
يَبْتَغُونَ مِنْ مَصَالِحٍ وَمَنَافِعَ خَاصَّةٍ عَنْ طَرِيقِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَنُذِرُكَ ذَهْنًا مِنْ تَذْكِيرِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ بِتَكْثِيرِ اللَّهِ أَعْدَادَهُمْ فِي
مُدَّةٍ وَجِيزَةٍ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ رَجَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ مَخْصِبِينَ

ومُخَصِّبَاتٍ فِي التَّنَاسُلِ، وَحَمَى نَاشِيَهُمْ وَأَجْيَالَهُمْ مِنَ الْعَوَارِضِ الْمُمِيتَةِ، حَتَّى صَارُوا ذَوِي قُوَّةٍ فِي أَرْضِهِمْ، وَصَارُوا قَادِرِينَ عَلَى أَنْ يَفْرَضُوا مُكُوسَهُمْ وَإِتَاوَاتِهِمْ عَلَى مُجْتَازِي أَرْضِهِمْ مِنْ غَيْرِ قِبَلَتِهِمْ.

﴿قَلِيلًا﴾: بمعنى قليلين، لأنَّ صيغة «فَعِيل» إِذَا كَانَتْ بِمَعْنَى «مَفْعُول» اسْتَوَى فِيهَا الْمَذْكُورُ وَالْمُؤَنَّثُ، وَالْمُفْرَدُ وَالْمُثَنَّى وَالْجَمْعُ قِيَاسًا مَطْرَدًا، وَإِذَا كَانَتْ بِمَعْنَى «فَاعِل» فَقَدْ تُعَامَلُ أَيْضًا الْمَعَامِلَةُ نَفْسَهَا، وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا الْإِجْرَاءُ فِي الْقُرْآنِ فِي كَلِمَاتٍ «كَثِيرٌ» و«قَلِيلٌ» و«ظَهِيرٌ» و«رَفِيقٌ» وَرَبَّمَا نَجَدَ غَيْرَهَا أَيْضًا.

القضية الثانية عشرة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦).

أي: وَتَفَكَّرُوا وَانْظُرُوا نَظْرًا عَقْلِيًّا وَاعِيًا مُسْتَبْصِرًا بِتَأْمُلِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي طَعَتْ وَبَعَثَتْ وَأَفْسَدَتْ فِي الْأَرْضِ، وَكَذَّبَتْ رُسُلَ رَبِّهَا، وَكَذَّبَتْ بآيَاتِهِ الْمُنْزَلَاتِ، وَاسْتَكْبَرَتْ عَنْ اتِّبَاعِهَا وَالْعَمَلِ بِمَا جَاءَ فِيهَا، كَيْفَ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَذْلِهِ عَاقِبَتَهَا هَلَاكًا لِأَخْيَانِهَا، وَدَمَارًا لِمَسَاكِينِهَا وَمُمْتَلَكَاتِهَا، أَمَارَةً عَلَى مَا سَتَلْقَاهُ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الدِّينِ.

وَكَأَنِّي بِشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَمَّنَ عِبَارَتَهُ الْعَامَّةَ هَذِهِ، يُشِيرُ إِلَى مَا حَصَلَ لِقَوْمٍ لُوطٍ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، لِقُرْبِ زَمَانِهِمْ وَأَرْضِهِمْ مِنْ زَمَانِ قَوْمِ شُعَيْبٍ وَأَرْضِهِمْ، وَيُؤَكِّدُ هَذَا الْفَهْمُ قَوْلُهُ الصَّرِيحَ لَهُمُ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿...وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩).

القضية الثالثة عشرة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧).

الطائفة: تُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الْوَاحِدِ فَأَكْثَرُ مِنَ الْجَمَاعَةِ، أَوْ الْقَوْمِ، أَوْ الْأُمَّةِ، وَتُطْلَقُ عَلَى الْجَمَاعَةِ، وَالْفِرْقَةِ.

تدلُّ هذه العبارة على أَنَّ أَهْلَ مَدِينٍ قَدْ وَصَلُوا بَعْدَ أَطْوَارٍ مُتَّصِلَةٍ فِي الشَّدَّةِ، إِلَى طَوْرِ إِيقَافِ انْتِشَارِ دَعْوَةِ رَسُولِهِمْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْقُوَّةِ، وَمُوَاجَهَةِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ مِنْهُمْ بِالْقَمْعِ وَالِاضْطِهَادِ.

وَيُظْهِرُ أَنَّهُمْ تَدَعَوْا لِلْقِيَامِ بِأَعْمَالِ الْقَمْعِ بِذُرَائِعِ تَعَتُّدٍ عَلَى خِدَاعِ دِينِي، زَاغِمينَ أَنَّ مِنْ حَقِّهِمْ لِحِمَايَةِ دِينِهِمُ الْمُرُوثِ عَنْ آبَائِهِمْ إِلَى جَدِّهِمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُتَجَاهِلِينَ التَّحْرِيفَاتِ الْبَاطِلَاتِ الدَّخِيلَاتِ وَالشَّرَكِيَّاتِ الَّتِي يَمَارِسُونَهَا، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ، أَنَّ يَمْنَعُوا بِالْقُوَّةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِشُعَيْبٍ عَنْ اتِّبَاعِهِ، وَالِدَّعْوَةَ إِلَى دِينِهِ.

فَقَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنْ كُنْتُمْ كَمَا تَزْعُمُونَ حَرِيصِينَ عَلَى حِمَايَةِ دِينِ اللَّهِ، فَانْزُكُوا أَمْرَ نُصْرَةِ الدِّينِ لِلَّهِ، وَلَا تَجْعَلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْصِيَاءَ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْتَصِرَ لِدِينِهِ.

فَإِنْ كَانَ الدِّينُ الْحَقُّ هُوَ مَا نَدْعُو نَحْنُ إِلَيْهِ، أَوْ مَا تَتَمَسَّكُونَ أَنْتُمْ بِهِ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَيُنْفِذَ حُكْمَهُ الْقَضَائِيَّ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وَلَكُمْ أَوْ عَلَيْنَا، وَلَا تَتَّعَجَلُوا مَنَعَ دَعْوَتِنَا مِنَ الْإِنْتِشَارِ بِالْقُوَّةِ، وَلَا تَقْمَعُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِهَا وَهُمْ مِنْكُمْ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، فَإِنْ كُنَّا نَحْنُ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي يَرْضَاهُ، حَكَمَ لَنَا فَانْصَرْنَا وَإَيْدَنَا، وَإِنْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ هُمْ عَلَى الْحَقِّ نَصَرَكُمْ وَإَيْدَكُمْ.

إِذَا تَفَكَّرْنَا فِي قَوْلِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ ﴿فَاصْبِرُوا﴾ وَحَلَّلْنَا مُقْتَضِيَّاتِ مَوْقِفِ الْمُوَاجَهَةِ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ، طَائِفَةٍ مُؤْمِنَةٍ قَلِيلَةٍ لَا تَسْتَطِيعُ الدَّفَاعَ عَنْ نَفْسِهَا بِقُوَّاهَا الْمَادِّيَّةِ، وَطَائِفَةٍ غَيْرِ مُؤْمِنَةٍ تَمْلِكُ مِنْ أَدَوَاتِ الْقُوَّةِ مَا تَسْتَطِيعُ بِهِ مُعَاقَبَةَ الطَّائِفَةِ الْمُؤْمِنَةِ مِنْ أَجْلِ إِيْمَانِهَا.

وَإِذَا تَفَكَّرْنَا فِي الدَّرَائِعِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَتَّخِذَهَا الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَالَّتِي يُلَائِمُهَا أَنْ يَقُولَ لَهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ وَجَدْنَا أَنَّ الْقَوْمَ أَرَادُوا أَنْ يُعَاقِبُوا الْمُؤْمِنِينَ بِذَرِيعَةِ الْإِنتِصَارِ لِلدِّينِ اللَّهِ الْمُمُوزِوثِ، وَهُوَ دِينٌ مُحَرَّفٌ دَخَلَتْ فِيهِ شُرَكَيَاتٌ كَثِيرَاتٌ، فَقَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنْ كَانَ أَمْرُكُمْ كَذَلِكَ فَاتْرَكُوا الدِّينَ لِلَّهِ، فَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَلَسْتُمْ أَوْصِيَاءَ عَلَى دِينِهِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِي وَاتَّبَعُونِي يَغْتَفِدُونَ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ رِسَالَةَ دَعْوَةِ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ، وَلَا يُؤْذُونَكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ، وَلَا يَقِفُونَ فِي طَرِيقِ مَصَالِحِكُمْ، إِنَّمَا يُقَدِّمُونَ لَكُمْ النُّصْحَ فَقَطْ.

إِنَّ هَذَا الْحَوَارَ الْجَدَلِيَّ حَوَارَ بَارِعٌ جَدًّا مِنْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ وَالْإِلْزَامِ بِالْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْمَوْقِفُ بَيْنَ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ قَدْ تَأَزَّمْ بَعْدَ أَنْ عَجَزُوا عَنْ مُقَابَلَةِ حُجَجِهِ بِمِثْلِهَا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى طَوْرِ تَهْدِيدِهِ بِالْإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِمْ، هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَهُوَ الْآتِي بَيَانُهُ.



● قول الله عز وجل:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتَيْنَا أَوْ لَنَمُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَعَثْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْ كُنْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَبْتَنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَسْتُمْ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

تمهيد:

يُعَبِّرُ هذا المقطع عن المراحل الأخيرة من قصّة شعيب عليه السّلام مع قومه، والتي تمّ في خاتمتها إهلاك الذين كذبوه من قومه، ونجاة شعيب والذين آمنوا به واتّبعوه، وانصرافه عن أرض هلاكهم غير حزين عليهم، بعد أن أبلغهم رسالات ربه ونصح لهم، فقرّروا إخراجه، وتوعّدوا الذين اتّبعوه بالقتل أو بالتعذيب الشديد.

التدبر:

● ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيِنًا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتَنَا.﴾ (٨٨) :

﴿الْمَلَأُ﴾: كِبَرَاءُ القوم وسرّاتهم الذين يملؤون عيون العامة.

﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: أي: الذين اختلّوا في قومهم مراكز السّلطة الإدارية، فهم الذين يُصدّرون قرارات الطرد والإبعاد، والحرمان من الإقامة في البلاد. وكان هؤلاء من الملأ الذين كفّروا به وبما جاءهم به عن ربه.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ﴾: أي: لنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب ولنُخْرِجَنَّ مَعَكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وبما جئت به.

﴿مِن قَرْيِنًا﴾: أي: من مُجمّعاتنا السّكنية، تُطلَقُ القرية في اللغة على كلّ أرض فيها بُيوت ومساكن مُجمّعة قلّت أم كَثُرَتْ، ولو بلغت مَدِينَةً عظيمة جدًا.

لقد أضدّر أصحاب السّلطة في البلاد، قراراً بإكراه شعيب والذين آمنوا بدينه معه على الخروج والابتعاد عن قراهم وكلّ بلادهم وكلّ شعبيهم، أو إكراههم على العودة عن دينهم والدخول في ملّة قوميهم، حتّى يكونوا مشاركين لهم في ملّتهم عقيدة وسلوكاً.

والإخراجُ هُوَ مَا يُعْرَفُ فِي أَنْظَمَةِ الدُّوَلِ بِالنُّفْيِ وَالْإِبْعَادِ، وَالطَّرْدِ مِنَ الْبِلَادِ.

اللَّامُ فِي: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ وَفِي ﴿لَتَعُوذَنَّ﴾ وَاقْعَةُ فِي جَوَابِ قَسَمِ مَنْوِيٍّ مَلَا حِظْ ذَهْنًا، كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ فِي مِثْلِ هَذَا الْاسْتِعْمَالِ، فَالْفِعْلُ فِي كُلِّ مِنَ الْعِبَارَتَيْنِ مُؤَكَّدٌ بِقَسَمٍ مُقَدَّرٍ ذَهْنًا، وَبَنُونَ التَّوَكِيدِ الثَّقِيلَةِ.

لَقَدْ انْهَزَمَ كُبْرَاءُ قَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، تُجَاةً مُنَاطَرَاتِهِ وَبَيَانَاتِهِ وَجَدَلِيَّاتِهِ هَزَائِمَ فِكْرِيَّةٍ مُنْكَرَةٍ، فَلَجَّؤُوا إِلَى قَرَارِ اسْتِعْمَالِ الْقُوَّةِ الْمَادِّيَّةِ الْمُسَلَّحَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، لِلتَّخْيِيرِ بَيْنَ تَرْكِ الدِّينِ الْجَدِيدِ، وَالْعُودَةِ إِلَى مِلَّةِ قَوْمِهِمْ، وَبَيْنَ الطَّرْدِ وَالْإِبْعَادِ مِنَ الْبِلَادِ.

لَقَدْ وَجَّهُوا قَرَارَهُمْ بِصِغَةِ مُؤَكَّدَةٍ بِالْقَسَمِ وَبَنُونَ التَّوَكِيدِ الثَّقِيلَةِ الْمُلَازِمَةِ لَهُ، فَهُوَ قَرَارٌ لَا رَجْعَةَ فِيهِ بِحَسَبِ تَصَوُّرِهِمْ.

﴿أَوْ لَتَعُوذَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: أَي: أَوْ لَتَعُوذَنَّ عَنْ دِينِكُمُ الْجَدِيدِ الَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ، وَتَتَّبِعُونَ تَعْلِيمَاتِهِ، وَلَتَدْخُلَنَّ فِي مِلَّتِنَا.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَصْطَلِحُوا لِهَذَا تَعْلَلَاتٍ مِنْ وَجُوبِ اتِّبَاعِ الدِّينِ الْمُرُوثِ، وَمِنْ فِكْرَةِ الْوَحْدَةِ الْقَوْمِيَّةِ.

لَقَدْ كَانُوا يَرْوُنَ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ إِنْسَانًا سَاكِتًا عَنْ شُرْكَيَاتِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ، فَرُبَّمَا ظَنُّوا أَنَّهُ كَانَ يَدِينُ بِدِينِهِمْ، ثُمَّ تَرَكَ دِينَهُمْ وَابْتَكَرَ الدِّينَ الْجَدِيدَ، لِذَلِكَ صَحَّ مِنْ وَجْهِهِ نَظَرُهُمْ أَنَّ يَطَالِيُوهُ هُوَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ بَأَنَّهُ يَعُودُوا عَنْ مِلَّتِهِمُ الْجَدِيدَةِ، وَيَدْخُلُوا فِي مِلَّةِ قَوْمِهِمْ.

• ﴿قَالَ أُولُو كُنَا كَرِهِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾.

استفاد شعيب عليه السلام من إضدار ذوي السلطان في قومه قرارهم التخييري بين الإخراج بالقوة من أرض مدين، وبين العودة في ملتهم، فأخذ جانب الإكراه على العودة عن دينه الحق والدخول في ملتهم، لينظرهم ولقيهم الحجة عليهم، بأنه لا يصح في العقل، ولا في الوجدان، ولا في أعراف الحرية الإنسانية الشخصية، إكراه الإنسان على اعتقاد واعتناق دين والإيمان به، وهو مقتنع فكرياً بالبرهان القاطع أنه باطل، ويسبب بطلانه يكره أن يعتنقه ويلتزم لوازمه.

فناظر كبار قومه مناظرة جدلية مفرحة، حول هذه القضية، واشتملت مناظرته على ثلاث مقولات جدلية، وأعقبها ببيان ثباته على موقفه من دينه، متوكلاً على الله، مهما كانت النتائج والتدبيرات التي يدبرونها ضده وضد الذين آمنوا معه، وبدعاء سأل الله عز وجل فيه أن يفتح بينه وبين قومه بالحق، مشياً عليه بأنه خير الفاتحين.

المقولة الجدلية الأولى: دلت عليها بإيجاز عبارة: ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾: أي: أتكروهوننا على العودة عن ملتنا والدخول في ملتكم ولو كنّا كارهين ترك ديننا والدخول في ملتكم؟!

إن الكاره لترك الإيمان بقضية يؤمن بها بقلبه، لا يمكن أن يتركه، إذ الإيمان إرادة داخلية لا يعرفها أحد من الناس إلا صاحبها. وإن الإكراه على الإيمان بقضية يعلم المكروه عليها أنها قضية باطلة، لا يمكن أن يوجد إيماناً بها، إذ الإيمان إرادة داخلية لا يعرفها أحد من الناس إلا صاحبها.

لكن قد يكره الإنسان على إعلان الكفر بما هو مؤمن به، فيعلن ذلك وهو كاذب، وقد يكره على إعلان الإيمان بما هو كافر به، فيعلن ذلك وهو كاذب.

فعبارة: ﴿أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ مع ما فيها من إيجاز بالغ تدل على

حقيقة من حَقَائِقِ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِي الدَّاخِلِي، وَهِيَ اسْتِحَالَةُ إِكْرَاهِ ذِي الْإِرَادَةِ الْحُرَّةِ عَلَى أَنْ يَكْفُرَ بِقَضِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ يَرَى أَنَّهَا حَقٌّ، وَيُؤْمِنُ بِأَنَّهَا حَقٌّ، أَوْ عَلَى أَنْ يُؤْمِنَ بِفِكْرَةٍ لَمْ يَقْتَنِعْ بِهَا وَلَا يُرِيدُ أَنْ يُؤْمِنَ بِهَا.

فَمِنْ الْحَقَائِقِ الثَّابِتَةِ الَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ مَا دَامَ الْإِنْسَانُ عَلَى مَا فَطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ذَا إِرَادَةٍ حُرَّةٍ، أَنَّهُ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، إِذْ قَاعِدَةُ الدِّينِ الْحَقِّ جَوْهَرُهَا الْإِيمَانُ بِمَبَادِئِهِ، وَالْإِيمَانُ إِرَادَةٌ دَاخِلِيَّةٌ، لَا يُمَكِّنُ إِكْرَاهَ الْإِنْسَانِ عَلَى إِيجَادِهِ أَوْ نَسْخِهِ، مَا دَامَ ذَا فِكْرٍ خَاصٌّ بِهِ، وَإِرَادَةٌ حُرَّةٌ.

بهذا المنطق العقلي ذي الحجة الدامغة ناقش شعيب عليه السلام قومه .

قَدْ يُكْرَهُ الْإِنْسَانُ عَلَى الْعَمَلِ بِسُلُوكٍ ظَاهِرِيٍّ مُعَيَّنٍ، وَهُوَ لَا يُؤْمِنُ بِصِحَّتِهِ وَلَا بِجَذْوَاهُ، فَيَتَأَفَّقُ فِي سُلُوكِهِ الَّذِي أُكْرِهَ عَلَيْهِ، لَكِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُكْرَهَ عَلَى الْإِيمَانِ بِفِكْرَةٍ يَرَاهَا بَاطِلَةً، أَوْ لَا يُرِيدُ الْإِيمَانُ بِهَا، لِثَلَا يَلْتَزِمَ مَقْتَضِيَّاتِهَا فِي السُّلُوكِ.

إِنَّ الْإِيمَانَ إِرَادَةً قَلْبِيَّةً تَتَضَمَّنُ اعْتِرَافًا بِفِكْرَةٍ مَا، وَيَتَّبِعُ عَنْهُ اسْتِسْلَامُ نَفْسِيٍّ لَهَا، ثُمَّ تَحَرُّكٌ لِلْعَمَلِ بِمَقْتَضَاهَا.

كذلك سائر العواطف القلبية والنفسية.

وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ لَمْ يَكُنْ رُسُلُ اللَّهِ يُكْرِهُونَ النَّاسَ عَلَى الْإِيمَانِ بِالَّذِينَ الرَّبَّانِيُّ، الَّذِي يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى تَفْهَمِ مَبَادِئِهِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ وَالْإِيمَانِ بِهَا بِاخْتِيَارِهِمُ الْحَرَّ، وَلَيْسَ فِي آيَةِ رِسَالَةِ رَبَّانِيَّةٍ صَحِيحَةِ النُّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ مَا يَقْضِي إِكْرَاهَ النَّاسِ عَلَى الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ فِيهَا.

إِنَّ الْإِكْرَاهَ عَلَى الْإِيمَانِ أَوْ عَلَى الْكُفْرِ بِقَضِيَّةٍ مِنَ الْقَضَايَا الْفِكْرِيَّةِ مِنَ الْأُمُورِ الْمَرْفُوضَةِ عَقْلًا وَوَاقِعًا، وَكُلُّ فَهْمٍ عَلَى خِلَافِ هَذَا فَهْمٌ غَيْرُ صَحِيحٍ.

وإنَّ تاريخَ البشريَّة لم يُسجَل على أُمَّةٍ مُؤمَّنةٍ بِرِسَالَةِ رَبَّائِيَّةٍ حَقٍّ، فَاهِمَّةٍ لمُضمونٍ دينٍ رَبِّها وَحَقِيقَتِهِ، أَنَّها كَانَتْ تُكْرَهُ المَخَالِفِينَ لها في الدين، على الإيمان بالدين الَّذي آمَنَتْ به .

لَكِنَّ تاريخَ البشريَّة مَلِيءٌ بالشواهد الدالَّة على أَنَّ أَصْحَابَ المذاهب والأديان الَّتِي هي من أوضاع البشر، أو من تحريفات المحرِّفين لدين ربَّائِي صحيح الأصل، وكذلك سائر قَادَةِ مِلَلِ الكُفْرِ، كانوا هُم الَّذين يُكْرَهُونَ مخالِفِيهم على تَرْكِ أديانهم ومبادئهم ومذاهبهم، والإيمانِ وَالْعَمَلِ بِدينِ المُكْرَهِين، وإلَّا كان العَذَابُ الشَّدِيدُ حَتَّى الموتِ مَصِيرَهُمْ .

إِنَّ مِنْ مبادئ الرِّسَالَاتِ الرِّبَائِيَّةِ كُلِّها أَنَّ الدينَ لِلَّهِ، وَأَنَّهُ لا إِكْرَاهَ في الدين، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ، وَلَكِنْ من اختار لنفسه أَنْ يَكْفُرَ فعَلَيْهِ أَنْ يتَحَمَّلَ تُجَاهَ رَبِّهِ مَسْئُولِيَّةَ اختياره الحرِّ، وعليه أَنْ يَتَرَقَّبَ عَذَابَ اللَّهِ المَعْجَلِ في الدُّنْيَا، إِذَا اقتَضَتْ حَكَمَتُهُ جَلَّ جَلَّالُهُ أَنْ يُذِيقَهُ شَيْئاً من العذاب المَعْجَلِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَرَقَّبَ عَذَابَ اللَّهِ المَوْجَلِ إلى يومِ الدين، وَهَذَا العَذَابُ سَوْفَ يَلْقَاهُ حَتْمًا في جَهَنَّمَ دَارِ العَذَابِ الأَكْبَرِ، خَالِدًا فيها مُخَلَّدًا. وقد أَعْذَرَ مَنْ أُنْذِرَ .

المقولة الجدلية الثانية: دَلَّتْ عليها بإيجاز عبارة: ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهَ مِنهَا﴾

لَمَّا كَانَتْ مِلَّةٌ قَوْمِهِ فيها شِرْكِيَّاتٌ، وفيها استباحةٌ ما حَرَّمَ الله عَزَّ وَجَلَّ في كُلِّ مَا أُنْزِلَ مِنْ دِينٍ عَلَى رُسُلِهِ، كَقَطْعِ الطَّرِيقِ وَظُلْمِ النَّاسِ، والعدوانِ عليهم، وأكلِ أموالهم بالباطل، مع ادِّعاء أَنَّ ذَلِكَ من الدين الَّذي وَرِثُوهُ عن جَدِّهم «مَدين» عن أبيه إبراهيم الخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّبِيُّ الرَّسُولُ حَقًّا وَصِدْقًا.

فإن عَوْدَةَ شُعَيْبٍ عليه السَّلَامُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ عن دينِهِمْ،

وَدُخُولَهُمْ فِي مِلَّةٍ قَوْمِهِمْ، يَجْعَلُهُمْ مِثْلَ قَوْمِهِمْ مُفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا.

الافتراء: اختلاق الكذب عمداً مع العلم بأنه كذب.

الملة: الدين، والشريعة، صحيحة كانت أم باطلة.

﴿بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾: «إِذْ» ظَرَفٌ لِلزَّمَانِ الْمَاضِي، وَهُوَ مُضَافٌ إِلَى جُمْلَةٍ ﴿بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾: أَي: بَعْدَ حِينَ تَنْجِيَةِ اللَّهِ لَنَا مِنْهَا، وَالْمُرَادُ تَنْجِيَتُهُمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ الْمَقَرَّرِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِقَاباً لِمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً، كَافِراً بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُلُ اللَّهِ الْمُبْلَغُونَ عَنْ رَبِّهِمْ دِينَهُ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ.

﴿كَذِبًا﴾ مفعول مطلق مُؤَكَّدٌ لِعَامِلِهِ: ﴿افْتَرَيْنَا﴾ إِذْ هُوَ مُرَادِفٌ لِلْمُضَدَّرِ الَّذِي هُوَ «افْتِرَاءٌ».

المقولة الجدلية الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا بِإِيجَازٍ عِبَارَةٌ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾:

صيغة: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَفْعَلَ كَذَا» وَأَشْبَاهُهَا يُؤْتَى بِهَا لِتَأْكِيدِ النْفْيِ بِأَبْلَغِ تَعْبِيرٍ، إِذْ جَاءَ فِيهَا كَوْنٌ مَنفِيٍّ وَبَعْدَهُ لَأَمْ الْجُحُودُ، كَمَا يَقُولُ النَّحْوِيُّونَ.

والمعنى: إِنَّ عَوْدَنَا عَنْ دِينِ رَبَّنَا وَدُخُولَنَا فِي مِلَّتِكُمْ أَمْرٌ تَرْفُضُهُ رَفْضاً قَاطِعِيّاً، وَلِشِدَّةِ إِصْرَارِنَا عَلَى رَفْضِهِ نُخْبِرُكُمْ مِنَ الْآنَ بِأَنَّهُ مَا يَكُونُ لَنَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِثْلُ هَذَا الَّذِي تَطْلُبُونَهُ مِنَّا، فَهُوَ لَنْ يُوْجَدَ إِلَّا إِذَا أَرَدْنَا إِيجَادَهُ مَا دَامَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَمِدُّنَا بِإِرَادَةِ حُرَّةٍ غَيْرِ مَجْبُورَةٍ، إِذْ إِنَّا نَخْشَى عِقَابَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ، وَهُوَ الْخُلُودُ فِي جَهَنَّمَ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾: أَي: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا أَنْ نُنْظَهَرَ لَكُمْ بِأَلْسِنَتِنَا وَبَعْضِ تَصَرُّفَاتِنَا مَا يُرْضِيكُمْ، لِحِكْمَةِ حِمَايَتِنَا مِنْكُمْ مُؤَقَّتاً، حَتَّى

يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَمَّا قُلُوبُنَا فَسَتَّظَلُّ مُطْمَئِنَّةٌ بِالْإِيمَانِ، وَأَمَّا أَعْمَالُنَا فِي السِّرِّ فَسَتَّبَقَى عَلَى وَفْقِ دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ.

هذا ما فتح الله به عليّ في فهم هذا الاستثناء من كلام شعيب عليه السّلام. وهذا الفهم مطابق لما جاء في الإسلام بشأن مَنْ أُكْرِهَ عَلَى إِعْلَانِ الْكُفْرِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ.

قال الله عزّ وجل في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٦).

وقد أشكّلت عبارة الاستثناء ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ في كلام شعيب عليه السلام على المفسرين:

● فقال بعضهم: ذكّر شعيب عليه السّلام هذا تأديباً مع ربه، إذ لله المشيئة المطلقة، وعلى المؤمن أن يُغْلِنَ خُضُوعَهُ لَهَا دائماً، وإن كَانَ مُتَيَقِّناً من أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَشَاءَ لِعِبَادِهِ أَنْ يَعُودُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ، والدُّخُولِ فِي مِلَّةِ الْكَافِرِينَ.

● وَفِيهِمُ الْجَبَرِيُّونَ مِنْ هَذَا الْإِسْتِثْنَاءِ: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَنَا مُجْبُورِينَ عَلَى أَنْ نَعُودَ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ، والدُّخُولِ فِي مِلَّةِ الْكَافِرِينَ، وهذا الفهم مَرْفُوضٌ حتماً.

وما فتح الله به عليّ في فهم هذه العبارة، هو الحقّ المطابق لقَوَاعِدِ الْإِيمَانِ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ فَلَا يُجْبِرُهُمْ عَلَيْهِ حتماً، وَلَا يَأْذُنُ لَهُمْ بِهِ حتماً، إِلَّا أَنْ يَكُونَ تَقِيَّةً لِسَانِيَّةً وَبِبَعْضِ التَّصَرُّفَاتِ الظَّاهِرَاتِ، لِدَفْعِ شُرُورِ الْمُكْرِهِينَ.

مقولة ثبات شعيب على موقفه متوكلاً على الله: دَلَّتْ عَلَيْهَا بِإِيجَازٍ
عبارة: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾:

﴿عِلْمًا﴾ تَمَيِّيزُ مُحَوَّلٍ عَنِ الْفَاعِلِ، وَالتَّقْدِيرُ: وَسِعَ عِلْمُ اللَّهِ
فَاسْتَوْعَبَ كُلَّ شَيْءٍ، سِوَاءِ أَكَانَ مَوْجُودًا أَمْ مَعْدُومًا، فِي جُمْلَةٍ: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا
كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ثَنَاءً عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِعِلْمِهِ الشَّامِلِ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالمَحِيطُ
بِكُلِّ شَيْءٍ.

وَالْغَرَضُ مِنْ إِيرَادِ هَذَا الثَّنَاءِ التَّوْطِئَةُ لِجُمْلَةٍ: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

أَي: يَا قَوْمِ إِذَا قَرَّرْتُمْ إِخْرَاجِي مِنْ أَرْضِكُمْ وَإِخْرَاجَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعِي،
إِذَا لَمْ نَعُدْ عَنْ دِينِنَا وَنَدْخُلَ فِي مِلَّتِكُمْ، فَإِنَّا نُعْلِنُ لَكُمْ ثَبَاتَنَا عَلَى دِينِنَا،
وَرَفْضَنَا الدُّخُولَ فِي مِلَّتِكُمْ، وَبَيِّنَا وَبَيِّنَكُمْ اللَّهُ الَّذِي وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ،
وَأَحَاطَتْ قُدْرَتُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ الَّذِي يَخْكُمُ بَيْنَنَا، فَإِنْ مَكَّنْكُمْ مِنْ إِخْرَاجِنَا
وَهُوَ الْعَلِيمُ بِنَا وَبِكُمْ، فَلِحَكْمَةٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُمْكِّنْكُمْ فَهُوَ لَنَا مِنْهُ
نَصْرٌ عَلَيْكُمْ، فَذَبُّوْا مَا شِئْتُمْ وَافْعَلُوا مَا شِئْتُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِ وَخَدَهُ تَوَكَّلْنَا.

التَّوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ: الْاسْتِسْلَامُ إِلَيْهِ، وَتَفْوِضُ تَذْيِيرِ الْأَمْرِ وَتَحْقِيقِ مَا
يَزْجُو الْمُتَوَكِّلُ إِلَيْهِ، مَعَ قِيَامِهِ بِالْأَسْبَابِ الْمُسْتَطَاعَةِ الْمَادِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ طَاعَةً
لَأَمْرِهِ.

أَفَادَ تَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ عَلَى عَامِلِهِ: ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ فِي الْجُمْلَةِ
الْقَضْرَ وَالْحَصْرَ، أَي: عَلَى اللَّهِ وَخَدَهُ تَوَكَّلْنَا، فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى حِمَايَتِنَا
وَنَصْرِنَا وَتَذْيِيرِ أُمُورِ نَجَاتِنَا وَتَنْفِيزِهَا بِحُكْمَتِهِ.

مقولة دعاء شعيب أن يفتح الله بينه وبين قومه: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة:

﴿.. رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٨٩):

﴿رَبَّنَا﴾: أَي: يَا رَبَّنَا، حُذِفَتْ أَدَاةُ النِّدَاءِ بِالْدُّعَاءِ، وَهُوَ الْأَكْثَرُ
اسْتِعْمَالًا فِي دُعَاءِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّم سُلْطَانُهُ، وَفِي حَذْفِهَا مَعْنَى عَدَمِ

الحَاجَةِ إِلَى ذِكْرِهَا فِي اللَّفْظِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِهِ، يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ.

﴿أَفْتَحْ﴾: الفتح بين الخَصْمَيْنِ هو القضاء والحكم، ويلزَمُ من قضاء الله وحُكْمِهِ نَصْرُ أَوْلِيَائِهِ عَلَى خُصُومِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ، وقد يراد بالفتح النَّصْر والتأييد.

﴿يَبَيِّنَا قَوْمَنَا بِالْحَقِّ﴾: أي: افصِحِ واحْكُم بيننا وبين قَوْمِنَا الَّذِينَ هَدَدُونَا بِالْإِخْرَاجِ، قَضَاءً بِالْحَقِّ.

إِنَّ شَعِيباً عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ، أَنَّ الْحَقَّ هُوَ مَا عَلَيْهِ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، وَأَنَّ قَضَاءَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِنِجَاتِهِمْ وَنَصْرِهِمْ عَلَى قَوْمِهِمْ، لِأَنَّ الْحَقَّ بِجَانِبِهِمْ، لَكِنَّ الْأَدَبَ مَعَ اللَّهِ فِي الدُّعَاءِ بِالْفَتْحِ يَقْتَضِي تَقْيِيدَهُ بِالْحَقِّ، مَعَ مَا فِي هَذَا التَّقْيِيدِ مِنْ إِشْعَارٍ لِلْخَضَمِ بِأَنَّ الدَّاعِيَ لَا يَدْعُو رَبَّهُ بِأَنْ يَنْصُرَ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ، بَلْ يَدْعُوهُ بِأَنْ يَنْصُرَ الْحَقَّ عَلَى الْبَاطِلِ، وَلَوْ كَانَ الْحَقُّ بِجَانِبِ خَصْمِهِ.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾: أي: وَأَنْتَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، وَالنَّاصِرِينَ، وَفِي هَذَا ثَنَاءٍ عَلَى اللَّهِ فِيهِ مَعْنَى الْاسْتِعْطَافِ لاسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ.

ويظهر أَنَّ شَعِيباً عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْمَعَ قَوْمَهُ دُعَاءَهُ لِرَبِّهِ فَالْقَى الرُّغْبَ فِي قُلُوبِهِمْ.

● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِتَّكُرَ إِذَا لَخِصِرُونَ﴾: ﴿١٦٦﴾

لقد أَلْقَى دُعَاءَ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الرُّغْبَ فِي قُلُوبِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، وَخَافُوا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ بِالْمُهْلَكِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، قَوْمِ نُوحٍ، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَقَوْمَ لُوطَ، وَكَانَ قَدْ حَدَّرَهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذَلِكَ، فَصَرَّفُوا النَّظَرَ عَنْ تَنْفِيذِ قَرَارِ إِخْرَاجِهِ، وَتَوَجَّهُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ مُهْدِدِينَ وَمُتَوَعِّدِينَ بِالْإِضْطِهَادِ وَالتَّعْذِيبِ حَتَّى الْمَوْتِ.

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: وقال الذين كفروا من ملائمة قومه وهم الكبراء والأعيان الذين يملؤون عُيُونَ الْعَامَّةِ، سواءً أكانوا ذوي سُلْطَةٍ إدارية، أم من مستشاريهم وأهل الحل والعقد فيهم، أمّا أصحاب السلطة الإدارية فقد سبق وصفهم بأنهم الذين استكبروا.

ويظهر أن: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَصَفَ تَقْيِيدِي يُشْعِرُ بِأَنْ بَعْضَ مَلَائِكَةِ قَوْمِهِ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

وَطَوَى النَّصُّ الْمُوَاجِهِينَ بِهَذَا الْخِطَابِ، لِلْعِلْمِ بِهِمْ مِنْ مَضْمُونِ مَا خُوطِبُوا بِهِ، فَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاتَّبَعُوهُ.

﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا لِنُكَرَ إِذَا لَخِيرُونَ﴾ أي: نُقَسِمُ: لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا فِي إِضْرَارِهِ عَلَى مَوْقِفِهِ الَّذِي أَغْلَنَهُ، إِنُّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ، أي: إِنُّكُمْ إِذَا لَتَكُونُونَ خَاسِرِينَ، إِذْ سَنَسَلِّطُ عَلَيْكُمْ مِنْ رِجَالِنَا مَنْ يَعْذِبُكُمْ وَيَضْطَهِدْكُمْ وَيَسْلُبُكُمْ مَمْلَكَاتِكُمْ، حَتَّى تَصِيرُوا خَاسِرِينَ كُلَّ شَيْءٍ، وَقَدْ تُقْتَلُونَ فَتَخْسَرُونَ الْحَيَاةَ، وَقَدْ تَخْسَرُونَ أَهْلِيكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ بِالتَّعْذِيبِ وَالتَّشْرِيدِ وَالْقَتْلِ.

أَكْدُوا تَهْدِيدَهُمْ بِالْقَسَمِ، فَالْإِثْمُ فِي: ﴿لَئِنْ﴾ مُوَطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ الْمُنَوِيِّ ذَهْنًا، وَجُمْلَةٌ: ﴿إِنُّكُمْ إِذَا لَخِيرُونَ﴾ الْوَاقِعَةُ فِي جَوَابِ الْقَسَمِ مُؤَكَّدَةٌ أَيْضًا بِالْمُؤَكَّدَاتِ: «إِنَّ» وَالْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ - وَالْإِثْمُ الْمَزْهَلَةُ لِلْخَيْرِ - وَأَعْتَبِرْ «إِذَا» هُنَا مِنَ الْمُؤَكَّدَاتِ أَيْضًا لِأَنَّ مَا قَبْلَهَا مُفْتَقِرٌ لِمَا بَعْدَهَا فَهِيَ زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ.

● ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ (٩١):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾: الرَّجْفَةُ: الزَّلْزَلَةُ، وَالْمَعْنَى: فَتَنَّاوَلَتْهُمُ الزَّلْزَلَةُ بِحَرَكَاتِهَا الْعَنِيفَةِ، ذَاتِ الْخُطُوطِ الْمَمْتَدَّةِ فِي كُلِّ أَبْعَادِ أَرْضِهِمْ، فَجَعَلَتْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ صَرِيحًا هَالِكًا، جَائِمًا لَاصِقًا بِالْأَرْضِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَجْهِهِ. أَخَذَ الشَّيْءُ: تَنَاوَلَهُ وَالْقَبْضُ عَلَيْهِ.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾: أي: فَدَخَلُوا فِي صَبَاحِ يَوْمِ الرَّجْفَةِ الَّتِي أَخَذَتْهُمْ، حَالَةً كَوْنِهِمْ جَائِمِينَ.

﴿جَنِينَ﴾: أي: لاصقين بالأرض على رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ، مُلَازِمِينَ أَمَكَّتَهُمْ هَلَكَى مَيِّتِينَ لَا يَبْرَحُونَ.

وجاء في نُصُوصٍ أُخْرَى بَيَانُ أَنَّهُمْ قَدْ أَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ، وَهِيَ صَوْتُ عَظِيمٍ مُمِيتٍ، وَمِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ النَّصُوصِ نَفْهِمُ أَنَّهُمْ قَدْ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ وَسَائِلُ تَغْذِيبٍ وَإِهْلَاكِ ثَلَاثٍ: (الظُّلَّةُ الْحَارَّةُ الْخَائِفَةُ الْمَهْلِكَةُ - الزُّلْزَلَةُ الْمَهْلِكَةُ - الصَّيْحَةُ الْمُمِيتَةُ).

وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَجَّى شُعْبِيًّا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ «انظر الآية (٩٤) منها».

• ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبِيًّا كَانَ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبِيًّا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٢).

﴿كَانَ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾: أي: كَانَ لَمْ يَسْبِقْ لَهُمْ أَنْ أَقَامُوا فِي أَرْضِهِمْ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى اسْتِثْصَالِهِمْ، وَطَمَسِ كُلُّ آثَارِهِمْ.

يُقَالُ لُغَةً: غَنِيَ بِالْمَكَانِ يَغْنَى، مِثْلُ: رَضِيَ يَرْضَى، أي: أَقَامَ فِيهِ. وَغَنِيَ الْقَوْمُ بِالْمَكَانِ، أَي: طَالَ مَقَامُهُمْ فِيهِ.

وَالْمَغْنَى: الْمَنْزِلُ الَّذِي غَنِيَ بِهِ أَهْلُهُ، وَجَمْعُهُ «مَغَانٍ».

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبِيًّا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾: جَاءَ هَذَا الْبَيَانُ التَّعْقِيبِيُّ الرَّبَّانِيُّ، فِي مُقَابِلِ تَهْدِيدِ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِشُعْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ قَالُوا لَهُمْ: ﴿.. لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعْبِيًّا إِنَّا لَنُخْسِرُونَّ﴾ (٩١).

﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ قَضَرٌ دَلَّ عَلَيْهِ تَغْرِيفُ طَرْفِي الْإِسْنَادِ فِي «هُمْ الْخَاسِرِينَ» أَوْ ضَمِيرِ الْفَضْلِ، إِذَا اعْتَبَرْنَا «هُمْ» ضَمِيرَ

فصل، وهذا القصر هو من قَبِيلِ الْقَصْرِ الإِصْافِي، أي: كان المكذِبُونَ هم وخذهم الْخَاسِرِينَ لَا الَّذِينَ آمَنُوا بِشُعَيْبٍ وَاتَّبَعُوهُ.

لَقَدْ خَسِرَ الْمَكْذُوبُونَ دُنْيَاهُمْ، فَكَانُوا جَمِيعاً هَلَكُوا، وَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ، إِذْ سَوْفَ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ إِلَى الْخُلُودِ فِي عَذَابِ الْحَرِيقِ فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ الْمَجْرَمِينَ يَوْمَ الدِّينِ.

● ﴿فَنُوحِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَيْنَاكُمْ رَسُولًا رَّبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (١٦٣):

أي: فَأَنْصَرَفَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُذْبِراً عَنْ دَارِ إِهْلَاكِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، وَنَادَاهُمْ وَهُمْ هَالِكُونَ قَاتِلًا لَهُمْ:

﴿يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَيْنَاكُمْ رَسُولًا رَّبِّي﴾ أي: مَا كَانَ يَنْزِلُ عَلَيَّ مِنْ صُحُفٍ أَوْ كِتَابٍ تَنْزِيلاً مَنْجِماً، وَمَا كَانَ يُوحَىٰ بِهِ إِلَيَّ لِأَبْلَغَكُمْ إِلَآهَ مِنْ مَعَانٍ وَبَيَانَاتٍ، دَلَّتْ صِيغَةُ الْجَمْعِ ﴿رَسُولًا﴾ عَلَى التَّنْزِيلِ الْمُنْجَمِ.

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: أَيِ وَقَدَّمْتُ لَكُمْ مَا فِيهِ خَيْرُكُمْ وَسَعَادَتُكُمْ خَالِصاً مِنَ الشَّوَابِ. فَلَمَّ آلَ جَهْدًا فِي نُصْحِي لَكُمْ، وَصَبْرِي عَلَيْكُمْ، وَتَحَمُّلِي لِأَذَاكُمْ، لَكُنْتُ لَمْ تَسْتَجِيبُوا لِذَعْوَتِي، مَعَ شِدَّةِ حِرْصِي عَلَى نَجَاتِكُمْ، وَلَمْ تَغْبُؤُوا بِنُصْحِي، بَلْ كَذَّبْتُمُونِي وَكَذَّبْتُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ عَنْ رَبِّي، وَكَفَرْتُمْ مَعَ عِلْمِكُمْ بِأَنَّ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ.

﴿فَكَيْفَ ءَامَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾:

أي: فَكَيْفَ أَخْزَنَ عَلَى هَلَاكِ قَوْمٍ كَافِرِينَ، وَكَيْفَ أَخْزَنَ مِنْ أَجْلِهِمْ إِذْ نَزَلَ فِيهِمْ عَذَابُ رَبِّهِمُ الْمَعْجَلِ، وَسَوْفَ يُعَذَّبُونَ عَذَاباً خَالِداً فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ؟!.

يُقَالُ لُغَةً: أَسِيَّ عَلَيْهِ، وَأَسِيَّ لَهُ يَأْسَى أَسَى، أَي: حَزَنَ، فَهُوَ «آسٍ، وَأَسِيٍّ، وَأَسْوَانٍ، وَأَسْيَانٍ».

أضل: «آسى» آسى.

والمراد بالاستفهام عن الكيفية بيان أنه لا توجد كيفية يصح معها أن أخزن عليهم، فقد اختاروا بإراداتهم الحرّة أن يكفروا، مع علمهم بأن ما جنتهم به هو الحق من ربهم، ولكن غلبت شهوات نفوسهم، وأهواؤهم، عقولهم، وإراداتهم الحرّة، فاستحبوا العمى على الهدى، وآثروا المتاع الزائل الفاني، على النعيم الخالد الباقي، وجعلوا أعينهم في أيدي الشياطين، فما نزل بهم هو نتيجة اختياراتهم وهم عالمون، فلا يصح أن أخزن عليهم في كيفية من الكيفيات، ولو كانوا قومي، وفيهم عشيرتي الأقربون.



الفصل السادس

التدبر التخليئي لبيان مجمل عن أقوام ورسل

لم تذكر أسماءهم مع تعقيب ختامي

الآيات من (٩٤ - ١٠٢)

قال الله عز وجل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ
يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءِآلَهُنَا
الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا
وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيْنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ
أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا
يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن
بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَسْمَعُونَ ﴿١١٥﴾ تِلْكَ الْقُرْآنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتْسِقِينَ ﴿١١٧﴾ .

القراءات:

(٩٤) • قرأ نافع: [مِنْ نَبِيٍّ] بالهمزة بعد الياء مع المد المتصل.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مِنْ نَبِيٍّ] بالياء المشددة دون همزة.

والقراءتان لغتان للكلمة. والمعنى فيهما مُبْتَأً من رَبِّهِ عن طريق الوحي إِلَيْهِ.

• وقرأ السُّوسي وأبو جعفر: [بِالْيَأْسَاءِ] بالألف بعد الباء دون همز، في الوصل والوقف، وقرأها حمزة كذلك في الوقف فقط، وهو وجه عربي في نطق الكلمة.

وقرأها باقي القراء العشرة: [بِالْيَأْسَاءِ] بالهمزة الساكنة بعد الياء.

(٩٦) • قرأ ابنُ عامر، وأبو جعفر، ورؤيس، [لَفَتَّحْنَا] بتشديد التاء المفتوحة.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَفَتَّحْنَا] بفتح التاء دون تشديد.

والقراءتان متكاملتان في دلالتيهما، «فَفَتَّحْنَا» دون تشديد تدلُّ على أحوال الفتح المعتاد دُونَ سَعَةٍ كثيرة فيه، و«فَتَّحْنَا» بالتشديد تدلُّ على أحوال الفتح الزَّائِد على المعتاد، سَعَةٍ كثيرة فيه.

(٩٧) و(٩٨) • وقرأ أبو جعفر والسُّوسي: [بِأَسْنَا] بالألف بعد الياء

في الموضعين، وصلاً ووقفاً، وقرأها حمزة كذلك في الوقف.

وقرأ باقي القراء العشرة: [بِأَسْنَا] بالهمزة بعد الباء.

والقراءتان من اللهجات العربية.

(٩٧) • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر: [أَوْ آمِنْ] بِأَسْكَانِ الْوَاوِ، فحذف العطف هو «أَوْ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَوْ آمِنْ] بِهَمْزَةٍ اسْتِفْهَامٍ وَوَاوِ الْعُطْفِ.

والقراءتان من التفتن في البيان، والمؤدّي واحد.

(١٠١) • قرأ أبو عمرو: [رُسُلُهُمْ] بِأَسْكَانِ السَّيْنِ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [رُسُلُهُمْ] بِضَمِّ السَّيْنِ.

والقراءتان لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ.

تمهيد:

اشتملت آيات هذا الفصل السادس على بيان مجملٍ عن أقوام ورسلٍ لم يَذْكُرِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَسْمَاءَهُمْ، وقد جرى لهم نَظِيرٌ ما جَرَى لِلَّذِينَ ذَكَرَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، وَعَرَضَ لِقَطَاثٍ مِنْ قِصَصِ حَيَوَاتِهِمْ، وما جرى لمكذّبي الرسل من عاقبةٍ وَخِيَمَةٍ مُخْزِيَةٍ يَتَعَطَّ بِهَا أَوْلُو الثُّهَى، أَهْلُ الْعَقْلِ وَالْبَصِيرَةِ، الَّذِينَ يَقْدُرُونَ الْأُمُورَ حَقَّ قَدْرِهَا، وَلَا يُجَازِفُونَ بِمَصَايِرِهِمْ.

واشتملت أيضاً على توجيه التّضح، والموعظة، والتّخدير، والإنذار، لِكُلِّ مَتَلَقٍّ لآيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ حَتَّى آخِرِ مُمْتَحِنٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. بِأَنْ يَتَّبِعُوا وَيَعْمَلُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وَيَتَّخِذُوا عَاقِبَةَ الْكَفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ.

وجاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بَعْدَ ذِكْرِ لِقَطَاثٍ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ، وَلِقَطَاثٍ مِنْ قِصَّةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ، دُونَ ذِكْرِ اسْمَيْهِمَا، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ رُسُلٍ وَأَقْوَامٍ لَمْ تُذْكَرْ أَسْمَاؤُهُمْ.

﴿ثُمَّ أَشْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ۖ آخَرِينَ﴾ (٤٢) مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بِعَصْمِهِمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ۞

﴿قُرُونًا ۖ آخَرِينَ﴾ ۞: الْقَرْنُ من الناس، أهل زمانٍ واحدٍ، سُمُوا في اللُّغَةِ قَرْنًا، لِأَنَّهُمْ اقْتَرَنُوا مَعًا فِي الوجود بِذلك الزَّمان. وَكُلُّ أُمَّةٍ لِرَسُولٍ عَاشُوا فِي زَمَانِهِ هُمْ قَرْنُهُ.

﴿تَتْرًا﴾ ۞: أَي: يَتَّبِعُ بِغَضْضِهِمْ بَعْضًا مَعَ وجود فاصل زَمَنِي بَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَآخَر. قال الأَصْمَعِيُّ: وَاتَّرَتْ كُتَيْبٍ عَلَيْهِ، أَي اتَّبَعَتْ بَعْضُهَا بَعْضًا، إِلَّا أَنَّ بَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَبَيْنَ الْآخَرِ مُهْلَةٌ.

فِيظْهَرُ أَنَّ هَذَا النِّصَّ مِنْ سُورَةِ (المؤمنون) يَتَحَدَّثُ عَنِ الرُّسُلِ وَالْأَقْوَامِ الَّذِينَ جَاءَ كَلَامٌ مُجْمَلٌ عَنْهُمْ فِي هَذَا النِّصِّ الْمَوْضُوعِ لِلتَّدْبِيرِ مِنْ سُورَةِ (الأعراف).

فَبَعْدَ النِّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (الأعراف) جَاءَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا...﴾ (١١٢) ۞.

وَبَعْدَ النِّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (المؤمنون) جَاءَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٤٥) ۞.

التدبیر:

قول الله عز وجل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٩١) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَالَهُنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ۞.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ ۞: دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ كُلَّ

رَسُولٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا، فالنبوةُ سابقةٌ، فإذا شاء الله كَلَّفَ من اصطفاها بالنبوة أن يكون رسولا يُبَلِّغُ الناسَ رسالاتَ ربِّه، ضمنَ حَدُودِ رسالته، ولا يُشْتَرَطُ في كلِّ نبيٍّ أن يكون رسولا، لكن لا يكونُ رسولاً ما لَمْ يَصْطَفِهِ اللَّهُ قبل ذلك بالنبوة.

والمرادُ بالقرية كُلُّ مُجْمَعٍ سَكَنِيٍّ صغيراً كان أم كبيراً، ولو بلغ مدينةً عظمى، ويُلْحَقُ بهذا المجمع السكَّنيُّ كُلُّ توابعه مَهْمَا كَثُرَتْ وامتدَّت.

والرِّسَالَاتُ العظمى تَكُونُ ذاتَ امتدادٍ عالميٍّ، مَحْدُودِ الزَّمَنِ كِرسالةِ موسى، ورسالةِ عيسى عليهما السلام، قبل الرسالةِ العالميةِ الخاتمةِ.

أما رسالةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فهي عالميةٌ للناسِ جَمِيعاً، لا يَحْدُها زَمَانٌ ولا مَكَانٌ، لأنَّها الرِّسالةُ الخاتمةُ، الَّتِي كانَ بها خَتْمُ النُّبُوتِ.

«مِنْ» فِي ﴿مِنْ نَبِيٍّ﴾ حَرْفُ جَرٍّ زِيدَ لِلتَّنْصِيفِ عَلَى الْعُمُومِ.

﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤):

﴿أَخَذْنَا أَهْلَهَا﴾: أَصْلُ الْأَخْذِ هُوَ الْقَبْضُ عَلَى الشَّيْءِ، وَبِالتَّوَشُّعِ فِي الْمَعْنَى صَارَ يُطْلَقُ عَلَى حِيَاظَةِ الشَّيْءِ وَالْحَصُولِ عَلَيْهِ، وَلَوْ دُونَ قَبْضٍ عَلَيْهِ، ثُمَّ صَارَ يُطْلَقُ الْأَخْذُ عَلَى مَعْنَى مَا يُؤْخَذُ لَهُ الشَّيْءُ، فَأَخْذُ الْمَذْنِبِ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى مَعَاقِبَتِهِ بِذَنْبِهِ، وَلَوْ لَمْ يَخْصُلْ أَخْذُ جَسَدِيٍّ، وَأَخْذُهُ بِالْعَذَابِ، يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى إِنْزَالِ الْعَذَابِ بِهِ، كَأَنَّ الْعَذَابَ قَدْ كَانَ السَّبَبَ الَّذِي تَحَقَّقَ بِهِ الْقَبْضُ عَلَيْهِ، بِدَلِّ قَبْضِ الْيَدِ.

إِزْسَالُ النَّبِيِّ رَسُولاً لِقَوْمٍ مَا، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ يَحْتَاجُونَ عِلَاجاً مِنَ الدَّرَجَةِ الْقَضَوِيَّةِ، لِكُفْرِهِمْ وَكَثْرَةِ شُرُورِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ، وَمَعَ إِزْسَالِ النَّبِيِّ رَسُولاً إِلَيْهِمْ تَتَدَخَّلُ الْعِنَايَةُ الرَّبَّائِيَّةُ لِمُعَالَجَتِهِمْ بِوَسَائِلِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّأْدِيبِ.

﴿بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ :

البَّاسَاءُ: الجوعُ والمشقة والفقر وضنكُ العيش، والحزب.

الضَّرَّاءُ: الشَّدةُ، وكلُّ حَالَةٍ تَضُرُّ في الأموال والأنفس.

والغرض من هذا الأخذِ بالبَّاساءِ والضَّرَّاءِ تذكيرُهُمْ بِرَبِّهِمْ لِيَدْعُوهُ مُتَضَرِّعِينَ إِلَيْهِ، سَائِلِينَ أَنْ يَكْشِفَ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِمَّا يَكْرَهُونَ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾: أي: رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَذَكَّرُوا رَبَّهُمْ فَيَتَضَرَّعُوا لَهُ

دَاعِينَ سَائِلِينَ مُعْتَرِفِينَ بِذُنُوبِهِمْ.

لَعَلَّ: أَضْلُ معناها التَّرجي، وَتُخْمَلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَعْنَى الرَّغْبَةِ وَالرَّضَى، فَالْمَرْجُو مِنَ الْأَشْيَاءِ الْحَسَنَةِ مَرْغُوبٌ فِيهِ، وَيُسْتَقْبَلُ بِالرِّضَا، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَلَا يَرْضَى لَهُمُ الْكُفْرَ وَالْعَمَلَ السَّيِّئَ.

يَضُرَّعُونَ: أي: يَتَضَرَّعُونَ، أَدْغَمَتِ التَّاءُ فِي الضَّادِ فَصَارَتْ ضَادًا

مَشْدُودَةً.

التَضَرُّعُ: هُوَ التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ خُضُوعٍ وَلَدِ الْبَهِيمَةِ

الرَّضِيعِ، لِيَمْتَصَّ حَلِيبَ أُمِّهِ مِنْ ضَرْعِهَا.

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ التَّذَكُّيرِيَّةِ التَّأْدِيبِيَّةِ.

الَّتِي يُعَالِجُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عِبَادَهُ، وَقَدْ أَجْرَاهَا جَلَّتْ حِكْمَتُهُ فِي كُلِّ الْأُمَمِ الَّذِينَ كَفَرُوا، أَوْ أَسْرَفُوا فِي الانْحِرَافِ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، بِالْمَعَاصِي وَالْمَخَالَفَاتِ، وَكَثْرَةِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَالْغَرَضُ مِنْ إِنْزَالِ الْمَكَارِهِ فِي هَذِهِ الْأُمَمِ، ابْتِلَاؤُهُمْ بِمَا يُبَيِّرُ فِطْرَتَهُمْ

الْإِيمَانِيَّةَ الَّتِي فِطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَالَّتِي يَوْقُظُهَا فِي النَّاسِ غَالِبًا - وَإِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ بِاللَّهِ - مَسُّ آلَامِ الشَّدَائِدِ وَالْمَصَائِبِ، وَفَقْدُ

الضُّرُورِيَّاتِ للحياة، فَيَضْرَعُونَ لِلَّهِ خَاضِعِينَ مُتَذَلِّلِينَ دَاعِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ ما هم فيه من مصائب وشدائد ومكاره.

أَمَّا النِّعَمُ والمَسَرَّاتُ وتوالي أسباب الرِّخَاءِ، وَسَعَةِ الرِّزْقِ، مع العافية والقوة والنشاط، فَإِنَّهَا تَجْعَلُهَا تَغْطِي فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، وَتَضْرِفُهَا عَنْ تَذَكُّرِ مَحَامِدِ رَبِّهَا وَشُكْرِ نِعَمِهِ، وَتُنْسِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَذْلَهُ، وَقَوَارِعَ عِقَابِهِ وَنِقْمَتِهِ، وَأَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ، وهو على كُلِّ شَيْءٍ قدير، فَتَنْطَلِقُ بِطَرَّةٍ مُسْتَكْبِرَةٍ أَشِرَّةٍ فَاجِرَةٍ مُفْسِدَةٍ فِي الْأَرْضِ.

ومن سُئِلَ اللَّهُ فِي الْأَمَمِ أَنَّهُمْ إِذَا تَضَرَّعُوا لِرَبِّهِمْ خَاضِعِينَ دَاعِينَ مُسْتَغْفِرِينَ، بَعْدَ أَنْ يُنْزَلَ بِهِمُ الْمَصَائِبُ لِيَتَذَكَّرُوا فَيَضْرَعُوا، أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ ما ابتلاهم به من المصائب والمكاره، وَأَنْ يَجْعَلَ بَدَلَ الْمَصَائِبِ الَّتِي سَاءَتْهُمْ نِعْمًا تُسَرُّهُمْ.

● ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾: أي: وَبَعْدَ مُدَّةٍ مُتَرَاخِيَةٍ اسْتَمَرَّتْ خِلَالَهَا الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ الَّتِي هِيَ سَيِّئَةٌ غَيْرُ حَسَنَةٍ، وَهِيَ مِنَ الْمَكَارِهِ الَّتِي تَسُوءُ الْمَبْتَلِينَ بِهَا، بَدَّلْنَا مَوَادَّ الْإِبْتِلَاءِ، فَجَعَلْنَا الْحَسَنَةَ فِي مَكَانِ السَّيِّئَةِ، فَكَشَفْنَا الْجُوعَ، وَالْمَشَقَّةَ، وَالْفَقْرَ وَضَنَّاكَ الْعِيشِ، وَوَيْلَاتِ الْحَزَبِ، وَالْمَكَارِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ، وَجَعَلْنَا مَكَانَهَا وَفَرَةَ الْأَرْزَاقِ، وَالرَّاحَةَ، وَالْغِنَى، وَسَعَةَ الْعِيشِ، وَالْأَمْنَ، وَالرِّخَاءَ، وَالْمُمْتِنَاتِ السَّارَاتِ، وَكَلِمَةُ «الْحَسَنَةِ» عنوانٌ عامٌّ يَشْمَلُ كُلَّ هَذِهِ وَأَشْبَاهِهَا.

ويظهر أَنَّ كَشْفَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ عَنْهُمْ قَدْ كَانَ اسْتِجَابَةً لِتَضَرُّعَاتِهِمْ لِرَبِّهِمْ.

وتحليل العبارة: ثُمَّ بَدَّلْنَا جَاعِلِينَ فِي مَكَانِ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ.

﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾: أي: حَتَّى كَثُرُوا بِالْمَوَالِيدِ وَالذَّرِيَةِ، وَهُمْ أَهْلُ الْقَرْيَةِ الَّذِينَ ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ أَوَّلًا بِالسَّيِّئَةِ، ثُمَّ رَفَعَهَا وَكَشَفَهَا عَنْهُمْ، وَابْتَلَاهُمُ بِالْحَسَنَةِ.

يُقَالُ لُغَةً: عَفَا الْقَوْمُ، أَي: كَثُرُوا. وَعَفَا النَبْتُ أَوْ الشَّعْرُ، يَغْفُو فَهُوَ «عَافٍ» أَي: كَثُرَ وَطَالَ.

● ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءِآلَاءُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾:

طَوَى النِّصُّ فِي مَثَانِيهِ ذَكَرَ إِعَادَةَ ابْتِلَاءِ الْخُلُوفِ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَتَضَرَّعُوا لِرَبِّهِمْ كَمَا فَعَلَ آبَاؤُهُمْ، بَلْ تَوَهَّمُوا أَنَّ مَا نَزَلَ بِهِمْ هُوَ أَحَدُ مَظَاهِيرِ التَّقَلُّبَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي الدَّهْرِ، وَقَالُوا: هَذِهِ ظَاهِرَاتٌ طَبِيعِيَّةٌ لَيْسَ مِنْ وَرَائِهَا قَضْدٌ تَأْدِيبِيٌّ أَوْ تَذْكِيرِيٌّ أَوْ تَرْبِيَّةٌ.

عَبَّرُوا بِالْمَسِّ، لَتَهْوِينَ الْأَمْرَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَعَلَى جَمَاهِيرِهِمْ مِنَ الْإِتْبَاعِ، وَلِيَضْرِبُوا عَنْ أَذْهَانِهِمْ فِكْرَةَ تَأْدِيبِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ، فَلَمْ يُعْبَرُوا عَمَّا نَزَلَ بِهِمْ بِالْإِصَابَةِ الْبَالِغَةِ الْعُمُقِ.

وَاسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ، وَانْطَلَقَ فَاجِرٌ فِي كِبَائِرِ الْإِثْمِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، دُونَ خَوْفٍ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ الْجَبَّارِ الْقَهَّارِ الْمَلِكِ الدِّيَّانِ.

السَّرَّاءُ: التَّغَمُّةُ وَالرِّخَاءُ وَالْمَسْرَّةُ.

● ﴿فَاخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٩٥):

أَي: فَاخَذْنَاهُمْ أَخَذَ تَغْذِيبٍ وَإِهْلَاكِ شَامِلَيْنِ مُبَاغِتَيْنِ، دُونَ إِشْعَارٍ لَهُمْ بِمَقْدَمَاتٍ فِيهَا إِنْدَارٌ، لِأَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَى قَاعِ الْحُضِيِّضِ، كُفْرًا وَإِسْرَافًا فِي الْفُجُورِ وَازْتِكَابِ الْآثَامِ، مَعَ تَفْسِيرِهِمْ ظَوَاهِرَ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي تَصَارِيفِ كَوْنِهِ، بِأَنَّهَا ظَوَاهِرٌ طَبِيعِيَّةٌ، لَيْسَ مِنْ وَرَائِهَا قَضْدٌ رَبَّانِيٌّ.

﴿بَغْتَةً﴾: أَي: فَجْأَةً. يَقَالُ لُغَةً: بَغْتَةً يَبْغْتُهُ بَغْتًا وَيَبْغَتُهُ، أَي: فَجْأَهُ وَيَبْهَتُهُ. وَالْكَلِمَةُ عَلَى تَقْدِيرٍ: أَخَذًا بَغْتَةً، أَوْ عَلَى تَقْدِيرِ مُبَاغِتَيْنِ، بِاسْتِعْمَالِ الْمَصْدَرِ بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أَي: وَالْحَالُ أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ هَذَا الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ الْمُبَاغِتِ.

الشعور بالشيء: هو العلم به ولو مِنْ أَذْنَى دَرَجَاتِ الإحساس به .

المعنى العام للآيتين (٩٤ - ٩٥):

كان من سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ أَنْ يُرْسِلَ رُسُلًا مِنَ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ
بِالنُّبُوَّةِ، لَهْدَايَةِ الضَّالِّينَ الْغَاوِينَ مِنَ الْأَقْوَامِ، قَبْلَ خَتْمِ الثُّبُوتِ وَالرُّسَالَاتِ
بِمُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

ولقد أرسل الله جلَّ جلاله رُسُلًا مَتَّعِدِينَ، إِلَى أَقْوَامٍ مَتَّعِدِينَ، فِي
حَوَاضِرِ ذَوَاتِ تَوَابِعٍ مِنَ الْقُرَى وَالْبَوَادِي، لِأَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَاتٍ مِنَ
الضَّلَالِ وَالْغَيِّ وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، تَسْتَدْعِي أَنْ يُرْسِلَ اللَّهُ لَهُمْ رُسُلًا.

فكان هؤلاء الرُّسُلُ يُبَلِّغُونَ أَقْوَامَهُمْ دِينَ اللَّهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ،
وَيُبَشِّرُونَ مَنْ آمَنَ وَاتَّقَى بِالْأَمْنِ وَالرِّخَاءِ، وَبِالسَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ يَوْمَ الدِّينِ،
وَيُنْذِرُونَ مَنْ كَفَرَ وَفَجَرَ بِعَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، وَبِعَذَابٍ دُونَ ذَلِكَ فِي
الدُّنْيَا، عَلَى وَفْقِ حِكْمَةِ اللَّهِ فِيهِمْ، وَبِعَذَابٍ لِنَفْسِهِمْ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ.

وكان هؤلاء الأقوامُ يَقَاوِمُونَ دَعَوَاتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، وَيَعَانِدُونَ الْحَقَّ
الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ، فَلَا يُرْغَبُهُمْ تَبْشِيرٌ، وَلَا يُرْهَبُهُمْ إِثْذَارٌ.

وكان من سُنَّةِ اللَّهِ أَنْ يُعَالِجَ تَأْدِيبَهُمْ وَتَذَكِيرَهُمْ بِأَخْذِهِمْ بِالْبُأْسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ، رَغْبَةً فِي أَنْ تَضْحُو فِيهِمْ فِطْرَةُ الْإِيمَانِ بِرَبِّهِمْ، فَيَتَضَرَّعُوا لَهُ دَاعِينَ
تَائِبِينَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ رَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْبُأْسَاءَ وَالضَّرَّاءَ، وَبَدَّلَ أَحْوَالَهُمْ،
فَجَعَلَ مَا يُحِبُّونَ مِنَ الْحَسَنَةِ، فِي مَكَانِ مَا كَرِهُوا مِنَ السَّيِّئَةِ، وَتَجَرَّى أُمُورُ
امْتِحَانِ أَفْرَادِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِصُورَةٍ كَافِيَةٍ لِكَشْفِ مَا فِي نَفْسِ كُلِّ مِنْهُمْ.

حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ، وَكَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ وَأَنْسَالُهُمْ، وَنَمَتْ
أَمْوَالُهُمْ وَزُرُوعُهُمْ وَثِمَارُهُمْ، طَغَوْا وَبَغَوْا وَكَفَرُوا، وَقَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ أَنْ
يَأْخُذَهُمْ بِالمَصَائِبِ مِنَ الْبُأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، لِيَتَضَرَّعُوا كَمَا فَعَلَ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ
وَلِيُعْلِنُوا تَوْبَتَهُمْ، فَيَرْفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ.

لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْخَلَائِفَ كَانُوا يُفَسِّرُونَ مَا نَزَلَ بِهِمْ تَفْسِيرًا مَقْطُوعًا عَنْ قَضْدِ حَكِيمٍ، مِنْ رَبِّ عَظِيمٍ، فَيَقُولُونَ: إِنَّهَا عَوَارِضُ الدَّهْرِ وَتَقْلِبَاتُهُ، وَظَوَاهِرُ طَبِيعَةٍ مُتَكَرِّرَةٍ، فَمِنْ ظَوَاهِرِ الطَّبِيعَةِ أَنْ تَأْتِيَ فِيهَا الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ أحيانًا، وَمِنْ ظَوَاهِرِهَا أَنْ تَأْتِيَ فِيهَا النُّعَمُ وَالْمَسَرَّاتُ وَأَسْبَابُ الرِّفَاهِيَةِ وَالرِّخَاءِ، وَهَذِهِ الظَّوَاهِرُ الْمُتَضَادَّةُ تَتَعَاقَبُ عَلَى النَّاسِ تَعَاقُبًا لَا يَدُلُّ عَلَى تَذْيِيرٍ وَقَضْدٍ مِنْ رَبِّ عَالِمٍ حَكِيمٍ قَدِيرٍ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ.

فَإِذَا بَلَغُوا هَذَا الْحُضِيضَ الْمُنْحَطَّ مِنَ الْكُفْرِ الَّذِي لَا تَرُدُّهُمْ مَعَهُ الشَّدَائِدُ وَالْمَصَائِبُ، وَلَا تُوقِظُ فِي أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ وَنَفُوسِهِمْ فِطْرَةَ الْإِيمَانِ، وَلَا تَحْيِيهَا مِنْ سُبَاتِهَا، رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَسْبَابَ النُّعَمِ الْوَفِيرَةِ، وَتَرَكَهُمْ كَذَلِكَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، حَتَّى إِذَا زَادُوا فِي الطَّغْيَانِ وَالْبَغْيِ، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِنُصْحِ نَاصِحٍ، وَلَا لِتَذْكَيرِ مُذَكِّرٍ، فَاجَّأَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ شَامِلٍ مُهْلِكٍ، قَصَمَ بِهِ ظُهُورَهُمْ، وَقَطَعَ بِهِ دَابِرَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

هَذِهِ السُّنَّةُ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادِهِ سُنَّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ، وَتَكُونُ غَفْلَةُ النَّاسِ عَنْهَا بِسَبَبِ طُولِ الْأَمَدِ فِي النُّعْمَةِ، وَبِسَبَبِ رَبْطِ الظَّوَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ بِأَسْبَابِهَا الطَّبِيعِيَّةِ الْقَرِيبَةِ الْمَادِّيَّةِ، دُونَ النَّظَرِ الْعَمِيقِ إِلَى أَسْبَابِهَا الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي تَسْتَبْدُ إِلَى حِكْمَةِ الرَّبِّ الْخَالِقِ فِي تَصَارِيفِ الْكُونِ.



قول الله عز وجل:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾: أي: ولو أَنَّ أَهْلَ الْمَجْمُوعَاتِ السَّكْنِيَّةِ لِلنَّاسِ، صَغِيرَةً كَانَتْ أَمْ كَبِيرَةً، وَلَوْ بَلَغَتْ مُدُنًا عَظِيمَةً جِدًّا، مَعَ لَوَاحِقِهَا وَتَوَابِعِهَا.

فَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ أَنَّهُ يُلَحَقُ بِالْقُرَى تَوَابِعُهَا مِنْ سُكَّانِ الْبُوَادِي، فَهَمَّ فِي
مَعْظَمِ أَحْوَالِ التَّجْمُعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ مُلْحَقُونَ إِدَارِيًّا وَسِيَاسِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا بِحَوَاضِرِ
الْمَجْمُعَاتِ السَّكْنِيَّةِ، وَمَعْظَمُ الْبَشَرِ تَكُونُ لَهُمْ مَجْمَعَاتٌ سَكْنِيَّةٌ يَتَعَاوَنُونَ فِيهَا
عَلَى تَبَادُلِ الْمَعْرِفَةِ وَالْأَعْمَالِ وَنَوَاتِجِهَا، وَتَبَادُلِ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ، وَأَنْ
تَكُونُ لَهُمْ مَوْسَسَاتٌ مُشْتَرَكَةٌ يَتَعَاوَنُونَ عَلَى إِقَامَتِهَا، وَهَذِهِ إِنَّمَا تَكُونُ غَالِبًا
فِي الْحَوَاضِرِ لَا فِي الْبُوَادِي.

«لو» هنا حرفُ شرطٍ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ وَجُودِ جَوَابِ الشَّرْطِ، لَعَدَمِ
وَجُودِ الشَّرْطِ.

● ﴿ءَامِنُوا وَاتَّقُوا﴾: هَذَا هُوَ الشَّرْطُ، وَهُوَ مُؤَلَّفٌ مِنْ عَنَصَرَيْنِ هُمَا:
الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى، أَيْ: الْإِيمَانُ الصَّحِيحُ بِعُنَاوَرِ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ الَّتِي
أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِيمَانِ بِهَا فِيمَا أُتْرِلَ عَلَى رُسُلِهِ.

وَإِتْقَاءُ عِقَابِ اللَّهِ بِأَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي أَوْجَبَهَا عَلَيْهِمْ، وَبِتَرْكِ
الْمَحْزَمَاتِ الَّتِي حَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ، فِي أَحْكَامِ الدِّينِ الَّتِي اصْطَفَاهُ لَهُمْ.

﴿لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: وَفِي الْقِرَاءَةِ الْآخَرَى:

﴿لَفَنَحْنَا﴾ بِتَشْدِيدِ التَّاءِ، وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ تَدُلُّ عَلَى الزِّيَادَةِ فِي الْفَتْحِ،
فَالْقِرَاءَتَانِ مُتَكَامِلَتَانِ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ، أَيْ: فَمَنْ كَانَ إِيْمَانُهُمْ وَكَانَتْ
تَقْوَاهُمْ مِنْ دَرَجَةِ الْمَقْبُولِ، أَوْ مِنْ دَرَجَةِ الْجَيِّدِ، فَتَنَحْنَا، أَمَّا مَنْ بَلَّغُوا فِي
ذَلِكَ دَرَجَةَ الْجَيِّدِ جِدًّا، أَوْ الْمَمْتَازِ فَتَنَحْنَا تَفْتِيحًا زَائِدًا مُضَاعَفًا.

﴿بَرَكَتٍ﴾: أَيْ: زِيَادَاتٍ كَثِيرَاتٍ، جَمْعُ «بَرَكَةٍ» وَهِيَ الزِّيَادَةُ مِنْ
الْخَيْرِ، سِوَاءِ أَكَانَتْ مَادِيَّةً تُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ، أَمْ غَيْرَ مَادِيَّةٍ، مِمَّا يُدْرِكُ
بِالْحَوَاسِّ الْبَاطِنَةِ.

قَالَ الزَّجَاجُ: الْبَرَكَةُ، هِيَ الْكَثْرَةُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

أقول: البرَكَةُ وكلُّ تصريفات هذه المادّة في نُصُوصِ القرآن والسُنّةِ، تَدُلُّ على الزيادات التي تأتي من وراء المنظور، دون أنْ تُذَرِكَ لها حُدُود، فَهِيَ فَيَضُ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ إِلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ، أو زيادات في عَالَمِ الْغَيْبِ بِلَا حَدٍّ.

والمرادُ بفتح البركات فتح أبوابها المَعْنَوِيَّةِ والمَادِّيَّةِ، حَتَّى تَتَدَقَّقَ نِعْمُ اللَّهِ الزائدة، وخيراته الحَسَنَاتُ، على الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقُوا.

﴿مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ بَرَكَاتٍ تَأْتِيهِمْ مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ، وتَأْتِيهِمْ مِنْ جِهَةِ الْأَرْضِ.

فَمِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ تَأْتِيهِمُ الطَّاقَةُ الضَّوْئِيَّةُ والحراريّة، وأشياءُ أُخْرَى تُمِدُّهُمْ لِغَذَائِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ الْكَثِيرَةِ، وَمِنْهَا مَا يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السُّحُبِ الَّتِي هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ سَمَاءٌ لَهُمْ، بِحَسَبِ مَفْهُومِ كَلِمَةِ السَّمَاءِ فِي اللُّغَةِ.

وَمِنْ جِهَةِ الْأَرْضِ يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ أَنْوَاعَ النِّبَاتَاتِ ونواتجها من ثمراتٍ وَمَطَاعِمٍ ومشاربٍ وَحَيَوَانَاتٍ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ، إِلَى سَائِرِ مَا يَسْتَخْرِجُونَ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ بَرَكَاتٍ كَثِيرَاتٍ لِمَنَافِعِهِمُ الْمُتَعَدِّدَةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي لَا تُحْصَى مِنْ قَبِيلِ الْمُخْصِيَيْنَ مِنَ النَّاسِ، مِنْهَا الْمَعَادِنُ وَأَشْبَاهُهَا، وَالْعَضَوِيَّاتُ وَأَشْبَاهُهَا، وَعُنَاصِرُ الطَّاقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ.

فَإِذَا مَنَحَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ النَّاسَ زِيَادَاتٍ مِنْ فَيُوضِ عَطَائِهِ، فَهِيَ بَرَكَاتٌ مِنْهُ يُنْزِلُهَا لَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ يُخْرِجُهَا لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ.

وَالْمُؤْمِنُ يُذَرِّكُ بِبَصِيرَتِهِ، وَيَعْلَمُ مِنْ دَلَالَاتِ النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَنَّ كُلَّ مَا يَنَالُهُ النَّاسُ مِنْ نِعَمٍ، هِيَ مِنْ عَطَاءَاتِ الرَّبِّ الْخَالِقِ لِعِبَادِهِ، يَتَفَضَّلُ بِهَا عَلَيْهِمْ.

وظاهرٌ ما في العبارة من حذف للإيجاز، واستعارة قائمة على تشبيهه عطاء الله الكثير بفتح الأبواب.

﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦) ﴿

أي: ولكن لم يُحَقِّقُوا الشَّرْطَ بِالْإِيمَانِ والتقوى، فَلَمْ نَفْتَحْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ دَوْماً دُونَ انْقِطَاعِ، ودُونَ أَنْ نَأْخُذَهُمْ بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَضَرَّعُوا، ودُونَ أَنْ نَأْخُذَهُمْ أَخيراً بِالتَّغْذِيَةِ وَالْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ الْعَامِ. بل كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وكَذَّبُوا بما جاءَهم به عن رَبِّهِمْ، فلم يُؤْمِنُوا ولم يَتَّقُوا، والمرادُ مُعْظَمُ أَهْلِ الْقُرَى لَا كُلُّهُمْ. لهذا اسْتَحَقُّوا أَنْ نَأْخُذَهُمْ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

وأخَذَ اللَّهُ لَهُمْ يَكُونُ عَلَى وَفْقِ سُنَّتِهِ، وهي ذات مرحلتين: المرحلة الأولى: أَنْ يَأْخُذَهُمْ بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، تذكيراً لَهُمْ بِرَبِّهِمْ وتأديباً، وهذا لا يكون معه إهلاك شامل.

وَيَتَّبِعُ هَذَا رَفْعَ قَوَارِعِ التَّذْكِيرِ وَالتَّأْدِيبِ عَنْهُمْ، حَتَّى إِذَا تَمَادَوْا فِي غَيِّهِمْ، وَاسْتَعْمَلُوا نِعَمَ اللَّهِ فِي الطُّغْيَانِ وَالْفُسَادِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، جَاءَ دَوْرُ تَنْفِيزِ الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ ذَلِكَ فِيهِمْ، يَبْلُغُهُمْ دَرَكَةٌ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسَادِ وَالْإِفْسَادِ، مَيُؤُوساً مَعَهَا أَنْ يَصْلُحَ مِنْهُمْ بَارِئَةُ الْحُرَّةِ عَدَدٌ كَافٍ لِإِمْنَالِهِمْ، أَكْثَرَ مِمَّا أُمِّهَلُوا.

المرحلة الثانية: أَنْ يَأْخُذَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ وَإِهْلَاكِ شَامِلِينَ بَغْتَةً، فَيَفْاجِئَهُمْ بِهِ لَيْلاً وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوْ ضَحَى وَهُمْ يَلْعَبُونَ، وَيُنْزِلُ بِهِمْ دُونَ أَنْ يَكُونُوا فِي حَالَةٍ شُعُورٍ بِمَقْدَمَاتِ مُنْذِرَةِ الْعَذَابِ الَّذِي سَيُنْزِلُ بِهِمْ، وَلَا بِالْهَلَاكِ الَّذِي يَسْتَأْصِلُهُمْ.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: أي: بما كانوا يَفْعَلُونَ، أَصْلُ الْكَسْبِ الْعَمَلُ لِلْحَصُولِ عَلَى مَرْغُوبٍ فِيهِ، كَالرِّزْقِ وَالْمَالِ، وَاللَّذَّةِ، وَالِاسْتِمْتَاعِ بِشَيْءٍ مِمَّا هُوَ مَحْبُوبٌ لِلنَّفْسِ. يُقَالُ لُغَةً: كَسَبَ الْمَالُ يَكْسِبُهُ كَسْباً، أَي: رِبْحَهُ. وَكَسَبَ الشَّيْءَ، أَي: جَمَعَهُ، وَكَسَبَ الْإِثْمَ، أَي: فَعَلَهُ وَتَحَمَّلَهُ بِاخْتِيَارِهِ الْحَرِّ.



قول الله عز وجل:

• ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

﴿أَفَأَمِنَ﴾: همزة استفهام، وبعدها «الفاء» العاطفة، وهي هنا الفاء الفصيحة التي تعطف على محذوف يمكن إدراكه بالتدبر.

أَمِنَ: أي: اطمأنَّ ولم يخفْ فهو «أَمِنٌ» و«أَمِنٌ» و«أَمِينٌ».

﴿أَهْلُ الْقُرَى﴾: أي: أهل المجمعات السكنية مهما عظمت، ومن هم ملحقون بهم من أهل البوادي.

﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾: أي: أن يأتِيَهُمْ عَذَابُنَا وَمَا يُلْقِي فِي قُلُوبِهِمُ الخوفَ والذعرَ الشديدين. البأس في اللغة: العذاب الشديد، والشدة في الحزب، والحرب، والخوف.

ولا يخفى ما في استعمال ضمير المتكلم العظيم من إثارة المهابة والخوف في نفوس أولي الألباب.

﴿بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾: بَيِّنًا: مَضْرُوبَاتٌ بمعنى أَدْرَكَهُ اللَّيْلُ، سواء أكان نائماً أم غَيْرَ نَائِمٍ، فجاءت جملة ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ قيدا لازماً لعموم البيات، وهذه الجملة حالية، أي: حالة كَوْنِهِمْ نَائِمِينَ.

والمعنى: أَلَدَّى أَهْلُ الْقُرَى الكافرين عِلْمٌ بَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ عَذَابَهُ عَلَى مَا يَكْسِبُونَ مِنْ آثَامٍ، فَأَمِنُوا وَاطْمَأَنَّنُوا وَلَمْ يَخَافُوا أَن يَأْتِيَهُمْ، بِأَسْرِ رَبِّهِمْ فِي اللَّيْلِ وَهُمْ نَائِمُونَ، فَيُبَاغِتَهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِمُقَدَّمَاتِ الْعَذَابِ الَّذِي سَيَكُونُ بِهِ إِهْلَاكُهُمْ.

والاستفهام في الآية استفهام إنكاري، تعجيب من أمر استغراقهم في

آثَامِهِمْ، الْجَالِبَ لِسَخَطِ رَبِّهِمْ عَلَيْهِمْ، وَإِنْزَالِهِ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِهِمْ، وَإِهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكًا شَامِلًا إِذَا اقْتَضَتْ حُكْمُهُ ذَلِكَ بَعْدَ إِمْهَالِهِمُ الْإِمْهَالَ الْكَافِيَ الْقَاطِعَ لِأَعْذَارِهِمْ.

﴿أَوْ أَمِنْ﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿أَوْ أَمِنْ﴾ بِإِسْكَانِ الْوَاوِ، فَتَكُونُ «أَوْ» كُلُّهَا حَرْفَ عَطْفٍ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ. وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الَّتِي بَفَتْحِ الْوَاوِ، فَالْهَمْزَةُ هَمْزَةٌ اسْتِفْهَامٍ وَالْوَاوُ حَرْفُ عَطْفٍ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَالْمُؤَدَّى وَاحِدٌ، وَالْقَرَاءَتَانِ مِنَ التَّقْنِ فِي أَسْلُوبِ الْأَدَاءِ الْبَيَانِيِّ.

﴿ضُحًى﴾: الضُّحَى: هُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ، مُنْذُ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ إِلَى الزُّوَالِ، وَهَذَا الْوَقْتُ هُوَ الْوَقْتُ الْمَفْضَّلُ الَّذِي كَانَ النَّاسُ يُقِيمُونَ فِيهِ مُنَاسَبَاتِ الْأَلْعَابِ وَمُبَارَاةَاتِهَا، فَيَجْتَمِعُونَ فِي مَلَاعِبِهِمْ غَافِلِينَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يَجْرِي خَارِجَ سَاحَاتِ اللَّعْبِ.

أَوِ الْمَرَادُ أَنَّهُ الْوَقْتُ الَّذِي يَكُونُ النَّاسُ فِيهِ بِحَسَبِ الْعَادَةِ مُتَشِيرِينَ فِي الْأَرْضِ، يَمَارِسُونَ أَعْمَالَهُمْ لِمَصَالِحِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَسَمَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اسْتِغَالَ الْكَافِرِينَ بِأَعْمَالِهِمْ فِي مَصَالِحِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِعِبَاءٍ، لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَغْلُونَهَا فِيمَا يَجْلِبُ لَهُمْ سَعَادَةٌ خَالِدَةٌ يَوْمَ الدِّينِ، وَلَا فِيمَا يَكُونُ سَبَبَ سَعَادَتِهِمْ الْحَقِيقِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِأَنَّ تَحْقِيقَ هَاتَيْنِ السَّعَادَتَيْنِ إِنَّمَا يَكُونُ حِينَمَا يَحَقِّقُ الْإِنْسَانُ فِي ذَاتِهِ شَرْطًا مُؤَلَّفًا مِنْ غُنُصَرَيْنِ:

العنصر الأول: الإيمان الصحيح الصادق بأركان القاعدة الإيمانية وفروعها.

العنصر الثاني: الالتزام بتقوى الله بفعل ما أَمَرَ بِهِ، وَتَرْكُ مَا نَهَى عَنْهُ.

وَالْكَافِرُونَ لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يَتَّقُوا عَذَابَ رَبِّهِمْ، فَأَعْمَالُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا جَدِيرَةٌ بِأَنْ تُسَمَّى لِعِبَاءٍ.

والمعنى: أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى الكافرون بسبب ما لديهم من عِلْمٍ، فاطْمَأْنَنُوا وَلَمْ يَخَافُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُ رَبِّهِمْ فِي وَقْتِ الضُّحَى، وَهُمْ غَارِقُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُمَكِّنُ أَنْ يُفَاجِئَهُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ.

والاستفهام فيه معنى استشارة التَّعَجُّبِ مِنْ حَالِهِ عَدَمِ اخْتِرَائِهِمْ لِمُفَاجَأَتِ عَذَابِ رَبِّهِمْ، وفيه معنى الإنكار على تَمَادِيهِمْ فِي غِيهِمْ، وَعَدَمِ اعتبارهم بِالَّذِينَ سَبَقُوا مِمَّنْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ أَنْ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ أَوَّلًا لِيَتَضَرَّعُوا، فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يَتَّقُوا رَبَّهُمْ، فَأَمَدَّهُمْ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ مُنْتَقِمٍ، فَعَذَّبَهُمْ عَذَابًا عَآمًا شَامِلًا، وَأَهْلَكَهُمْ إِهْلَاكَ مُسْتَأْصِلًا.

فَمَا الَّذِي جَعَلَ الْمَكْذِبِينَ فِي الْأَجْيَالِ الْمُتَتَابِعَةِ غَيْرَ عَابِثِينَ بِسُنَّةِ اللَّهِ الَّتِي جَرَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ، وَلَا مُكْتَرِثِينَ لَهَا، وَلَا خَائِفِينَ مِنْ أَنْ يُجْزِيَ اللَّهُ فِيهِمْ سُنَّتَهُ الَّتِي أَجْرَاهَا فِي الْمَكْذِبِينَ الْأَوَّلِينَ لِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وَبِمَا جَاءُوا بِهِ لِهَدَايَةِ النَّاسِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، وَلِبَيَانِ وَاجِبَاتِهِمْ تُجَاهَهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أَآمِنُوا اخْتِمَالَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ أَنْوَاعُ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ وَالْمُهْلِكَاتِ الْقَاصِمَاتِ بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوْ ضَحَى وَهُمْ يَلْعَبُونَ!!

مَا الَّذِي يَجْعَلُهُمْ يَأْمَنُونَ هَذَا الْأَمْنَ، مَعَ أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ الْمَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاحِدَةٌ، لَا تَبْدِيلَ فِيهَا وَلَا تَخْوِيلَ لَهَا!!

إِنَّ طَرَحَ هَذَا السُّؤَالِ يَفْتَحُ بَابَ مُنَاطَرَةٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، وَبَيْنَ الْكَافِرِينَ الْفَاجِرِينَ، غَيْرِ الْمَكْتَرِثِينَ لِنُذْرِ الْإِهْلَالِ الشَّامِلِ، فَهَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ:

● إِمَّا أَنْ يَقُولُوا كَمَا قَالَ خَلْفُ الْمُهْلَكِينَ الْأَوَّلِينَ، الَّذِينَ نَزَلَ بِهِمُ الْإِهْلَاكُ الشَّامِلُ أَيْضًا مِنْ بَعْدِ أَسْلَافِهِمْ، إِذْ قَالُوا:

إِنَّ إِهْلَاكَ السَّابِقِينَ قَدْ كَانَ بِتَأْثِيرِ ظَوَاهِرِ طَبِيعِيَّةٍ فِي الْكَوْنِ، وَلَمْ يَكُنْ أَثَرُ قَضْدِ حَكِيمٍ، وَعِقَابٍ وَانْتِقَامٍ مِنْ رَبِّ قَاهِرٍ جَبَّارٍ مُهَيِّمٍ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ فِي الْكَوْنِ وَأَخْدَائِهِ عَلِيمٍ قَدِيرٍ، لَا يَجْرِي شَيْءٌ فِي الْكَوْنِ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَأَمْرِهِ، أَوْ إِذْنِهِ وَتَمَكُّنِهِ.

فَهُمْ إِذَنْ يَجْحَدُونَ رُبُوبِيَّةَ الرَّبِّ الْخَالِقِ، أَوْ يَجْحَدُونَ بَعْضَ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَمُنَاطَرَتُهُمْ تَنْتَقِلُ إِلَى إِبْثَابِ مَا يَجْحَدُونَهُ مِنْ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

● وَإِنَّمَا أَنْ يَقُولُوا: لَقَدْ غَيَّرَ اللَّهُ سُنَّتَهُ، بَعْدَ أَنْ أَضْبَحَتِ الْأُمَمُ أُمَمًا حَضَارِيَّةً ذَوَاتَ عِلْمٍ بِقَوَانِينِ الطَّبِيعَةِ، وَقُدْرَةٍ عَلَى تَنْظِيمِ أُمُورِهِمُ الْمَعَاشِيَّةِ، وَمُكَافَحَةِ الْأَمْرَاضِ وَأَسْبَابِهَا، وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تَنْجُمُ عَمَّا كَانَ يُسَمَّى مُحَرَّمَاتٍ وَمَحْظُورَاتٍ فِي الْأَدْيَانِ الْقَدِيمَةِ، وَلَمْ يَبْقَ حَالُهَا كَأَحْوَالِ الْأُمَمِ الْبَدَائِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، الَّتِي كَانَتْ تَأْتِيهَا الْكَوَارِثُ وَالْمُهْلِكَاتُ الْعَامَّاتُ الشَّامِلَاتُ.

وَالرَّدُّ عَلَى هَذَا يَكُونُ بِإِبْثَابِ أَنَّ سُنْنَ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ فِي عِبَادِهِ ثَابِتَةٌ، لَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَحْوِيلَ، وَأَنَّ الْأُمَمَ الْحَضَارِيَّةَ تَتَعَرَّضُ دَوَامًا لِأَنْ تُطَبَّقَ فِيهَا سُنَنُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَوْ عَلَى أَيْدِي النَّاسِ، كَمَا حَصَلَ فِي الْحَزْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى، وَالْحَزْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ، وَالْحُرُوبِ الْقَارِيَّةِ وَالْإِقْلِيمِيَّةِ غَيْرِ الشَّامِلَةِ، وَالْكَوَارِثِ الَّتِي تَخْذُلُ حِينًا فَحِينًا، وَالْأَمْرَاضِ وَالْأَوْجَاعِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، وَتَحَارُّ الدُّوَلِ الْحَضَارِيَّةِ فِي أَنْ تَجِدَ وَسِيلَةً لِلْقَضَاءِ عَلَيْهَا، فَلَا تَجِدُ إِلَّا بِالْإِتِّزَامِ أَحْكَامَ دِينِ اللَّهِ لِلنَّاسِ.

عَلَى أَنَّ تَارِيخَ الْبَشَرِيَّةِ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ وَسُنَنِهِ الدَّائِمَةِ لَا يُقَاسُ بِعَشْرَاتِ السِّنِينَ، وَلَا بِمِثَالِهَا أَخْيَانًا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْيَوْمَ فِي حِسَابِ الْإِنْمِهَالِ وَالْجِلْمِ الرَّبَّانِيِّ، قَدْ يَكُونُ يَنْخَوِ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا يَعُدُّ النَّاسُ بِحَسَبِ نِظَامِ الْأَرْضِ، فَالسَّاعَةُ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ تُقَدَّرُ بِنَحْوِ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

وَإِذَا كَانَ إِهْلَاكُ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَدْ حَصَلَ بَعْدَ إِنْهَالِهِمْ مَعَ

نوحَ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ الْإِمْهَالِ الرَّبَّانِي، الْمَعَادِلِ لِنَحْوِ أَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا يَعُدُّ النَّاسُ، فَقَدْ جَرَى إِهْلَاكُ أَقْوَامٍ مِنْ بَعْدِهِمْ بَعْدَ إِمْهَالِهِمْ سَاعَاتٍ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ الرَّبَّانِي.

وقد أَسْقَطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الدَّوْلَةَ الشُّيُوعِيَّةَ الرُّوسِيَّةَ الْعَظْمَى، بَعْدَ أَنْ أَمْهَلَهَا قُرَابَةَ أَقَلِّ مِنْ سَاعَتَيْنِ مِنْ سَاعَاتِ أَيَّامِهِ الَّتِي يُعَامَلُ بِمُقْتَضَاهَا عِبَادَهُ.

● وَإِنَّمَا أَنْ يَقُولُوا أَقْوَالًا أُخْرَى، وَلِكُلِّ قَوْلٍ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْكُفْرِ رَدٌّ يُسْقِطُهُ وَيُظْهِرُ بُطْلَانَهُ.

فَمِنْ الْغِبَاءِ، وَقِلَّةِ الْعَقْلِ، مَعَ انْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ بِاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَوَسَاوِسِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، أَنْ يَكُونَ النَّاسُ بِسَبَبِ إِمْهَالِ اللَّهِ لَهُمْ، فِي أَمْنٍ مِنْ أَنْ يُجْرِيَ فِيهِمْ سُنَّتُهُ التَّذْكِيرِيَّةَ التَّأْدِيبِيَّةَ أَوَّلًا، ثُمَّ الْإِهْلَاكِيَّةَ الشَّامِلَةَ الْمَقْرُونَةَ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ، كَمَا أَجْرَاهَا فِي أَهْلِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ.

إِنَّ سُلُوكَ الْكَافِرِينَ هَذَا سُلُوكٌ يُسْتَنَارُ حَوْلَهُ الْعَجَبُ الشَّدِيدُ، وَيُوجَّهُ لَهُ الْاسْتِنْكَارُ وَالتَّأْنِيبُ، قَبْلَ تَسْلِيْطِ عَصَا التَّأْدِيبِ، فَقَوَارِعِ الْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ الْمَقْرُونِ وَالْمُسَبُّوقِ بِعَنِيْفٍ مِنَ التَّعْذِيبِ.

● ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ١٩٩؟!

هَذَا الْاسْتِفْهَامُ نَظِيرُ الْاسْتِفْهَامَيْنِ فِي الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ فِي دَلَالَتِهِ، إِلَّا أَنَّهُ يَلْفِتُ النَّظَرَ إِلَى قَضِيَّةِ الْمَكْرِ الرَّبَّانِيِّ، الَّذِي مِنْ عَنَاصِرِهِ أَنْ يُنْهَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَهُ، وَأَنْ يَزِيدَهُمْ مِنْ عَطَائِهِ النِّعَمِ الْوَفِيرَةِ، بَعْدَ أَنْ يَذْكُرَهُمْ بِعَوَارِضِ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَضَرَّعُوا وَيَتُوبُوا إِلَى بَارئِهِمْ، فَإِذَا لَمْ يَفْعَلُوا رَفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ بِحُكْمَتِهِ هَذِهِ الْعَوَارِضَ وَأَمْلَى لَهُمْ، وَأَمَدَّهُمْ بِوَافِرِ النِّعَمِ، حَتَّى إِذَا تَمَادَوْا فِي غِيهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ أَخَذَهُمْ بَغْتَةً بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ، وَبِالْمُهْلِكَاتِ الشَّامِلَاتِ، فَقَطَعَ دَابِرَهُمْ.

لَقَدْ آمَنُوا بِغَبَائِهِمْ وَعَدِمَ إِيْمَانَهُمْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ مَكَرَ اللّهِ إِذْ أَمْهَلَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ، وَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ حَتَّى صَارُوا مُتَشَرِّفِينَ، مُشْرِفِينَ فِي غَيْبِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ، فَبَاعَتْهُمْ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ، وَالْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ، فَصَارُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ لِكُلِّ شَيْءٍ، خَسِرُوا دُنْيَاهُمْ وَحَيَاتِهِمْ وَأَنْفُسَهُمْ، وَسَيَكُونُونَ خَاسِرِينَ أَنْفُسَهُمْ يَذْقُونَ عَذَابَ الْحَرِيقِ يَوْمَ الدِّينِ، فِي جَهَنَّمَ وَبَشَّ الْمَصِيرَ، خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُقْتَرُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ.

المَكْرُ: هو تدبير أمرٍ في خفاء، ويكون مَكْرًا في الخير، واللَّهُ خَيْرُ الماكِرِينَ، وَتَذْيِيرُ عُقُوبَاتِ المَجْرِمِينَ بِسِرِّيَّةٍ وَخَفَاءٍ هُوَ مِنَ الْخَيْرِ حَتْمًا.

وقد يكون المَكْرُ فِي الشَّرِّ وَالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وهو مَكْرُ المَجْرِمِينَ والعصاةِ وَالْفَاسِقِينَ، وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ.

فلفظ المَكْرِ عامٌ يَشْمَلُ الْمَكْرَ فِي الْخَيْرِ، وَالْمَكْرَ فِي الشَّرِّ.

وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ.



قول الله عز وجل:

• ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٣٠﴾﴾:

• ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ جُمْلَةٌ مُصَدَّرَةٌ بِاسْتِفْهَامٍ يَحْمِلُ مَعْنَى اسْتِثْنَاءِ التَّعْجُبِ وَالِاسْتِنْكَارِ، وَهِيَ مَغْطُوفَةٌ بِحَرْفِ الْعِطْفِ «الواو» عَلَى الْجُمْلَةِ الْاسْتِفْهَامِيَّةِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَاتِ: ﴿أَفَأَيْنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ - ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾.

كلمة ﴿لَمْ﴾ حرفٌ يَجْزِمُ الْفِعْلَ الْمَضَارِعَ وَيَقْلِبُ زَمَنَهُ إِلَى الْمَاضِي، فَالْمَعْنَى: أَوْ مَا هَدَى؟ وفعل «يَهْدِي» فِي الْعِبَارَةِ ضَمَّنَ فِعْلَ «يُبَيِّنُ» فَعَدَّى

تَغْدِيَّتِهِ، فَحَمَلَتْ العبارة دَلَالَتِي الفعلَيْن معاً، والتقديرُ أَوْ مَا هَدَى حَالُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مُبَيَّنًا لِلأُمَمِ الْوَارِثَةِ لَهَا فِي سُكْنَى الْأَرْضِ، سُنَّةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الثَّابِتَةُ، الَّتِي لَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَحْوِيلَ.

إِنَّ تَكَرَّرَ إِجْرَاءَ هَذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، مَعَ التَّذْكِيرِ بِهَا فِيمَا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ، ثُمَّ فِيمَا نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، مَعَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهَا بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ فِي مُنَاسَبَاتٍ كَثِيرَاتٍ، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ تَحْصُلَ بِهِ قَنَاعَةٌ تَامَةٌ بِثَبَاتِ هَذِهِ السُّنَّةِ، لَدَى الْأُمَمِ الْحَاضِرَةِ إِبَّانَ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ، وَالْأُمَمِ الَّتِي سَتَأْتِي بَعْدَهَا، بِاعْتِبَارِهِمْ مِنَ الَّذِينَ وَرِثُوا الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا السَّابِقِينَ الْمُهْلَكِينَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وَعَدَمِ اتِّبَاعِهِ، وَبِسَبَبِ إِسْرَافِهِمْ فِي الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ، وَالْبَغْيِ وَالْفُجُورِ وَالْعِصْيَانِ، وَتَمَادِيهِمْ فِي الْغَيِّ وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ.

● ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ : أَي: لِكُلِّ سَاكِنِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ الَّذِينَ سَكَنُوهَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ وَالْأَقْوَامِ وَالشُّعُوبِ السَّالِفَةِ، الَّذِينَ أُجْرِيَتْ عَلَيْهِمْ سُنَّةُ اللَّهِ الثَّابِتَةُ، الْخَاضِعَةُ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ الَّتِي لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ.

● ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ : أَي: أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا وَيَقْتَنِعُوا افْتِنَاعًا تَامًا، أَنْ لَوْ نَشَاءُ - إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُنَا - لِأَجْرَيْنَا عَلَيْهِمْ سُتْنًا الَّتِي أَجْرَيْنَاهَا عَلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي عَذَّبْنَاهَا وَأَهْلَكْنَاهَا إِهْلَاكَاً عَاماً شَامِلاً، فَأَصَبْنَاهُمْ بِسِهَامِ التَّعْذِيبِ وَالْإِهْلَاكِ الْعَامِ الَّتِي أَصَبْنَا بِمِثْلِهَا الَّذِينَ سَلَفُوا مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي أَهْلَكْنَاهَا.

جاء التَّعْظِيرُ بِالْإِصَابَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ وَسَائِلَ التَّعْذِيبِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا تَدْخُلُ إِلَى أَعْمَاقِهِمْ، وَلَا تَكْتَفِي بِمَسِّ جُلُودِهِمْ.

ولا يخفى ما في استعمال ضمير المتكلم العظيم هنا من ضَغْطٍ قَوِيٍّ عَلَى مَخَوَرِ الْخَوْفِ فِي نَفُوسِ أُولِي الْأَلْبَابِ.

الدُّنُوبُ: يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ مَا يَسْتَحِقُّ فاعِلُهُ الْعِقَابُ مِنْ أَشَدِّ الدُّنُوبِ
وَأَكْبَرِهَا حَتَّى أَخْفَهَا وَأَصْغَرَهَا.

«لَوْ» حَزَفَ شَرْطِيٍّ لِلتَّعْلِيقِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَهُوَ يَرَادُفُ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةَ،
وَإِذَا وَلِيَهَا فِعْلٌ مَاضٍ، قَلَبَتْ دَلَالَتَهُ مِنَ الْمَاضِي إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ، وَإِذَا وَلِيَهَا
فِعْلٌ مُضَارِعٌ كَمَا فِي الْعِبَارَةِ هُنَا تَخَلَّصَ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى الْحَالِ، وَصَارَ يَدُلُّ
عَلَى الْإِسْتِقْبَالِ.

وجاء في الآية بيان قانون رَبَّانِيٍّ مُؤَلَّفٍ مِنْ ثَلَاثِ مَوَادَّ:

المادة الأولى: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْتَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾: أَي: أَنَّ الشَّأْنَ
الْعَظِيمَ الَّذِي هُوَ مِنْ سُنَّتِنَا الثَّابِتَةِ: لَوْ نَشَاءُ مُسْتَقْبَلًا إِصَابَتَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ضِمَّنَ
مُقْتَضِيَّاتٍ حِكْمِيَّةً، فَإِنَّا نُصِيبُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ.

وهذه الإِصَابَةُ تَبْدَأُ بِأَخْذِهِمْ بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، كَمَا فَعَلْنَا فِي الْأَمَمِ
السَّابِقَةِ رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَضَرَّعُوا وَيَتُوبُوا.

فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَلَمْ يَسْتَغْفِرُوا وَلَمْ يَتُوبُوا، وَلَمْ يَتَّقُوا عِقَابَنَا، رَفَعْنَا عَنْهُمْ
الْبَاسَاءَ وَالضَّرَّاءَ، وَوَسَّعْنَا عَلَيْهِمْ أَسْبَابَ النِّعَمِ الْوَفِيرَةِ، لِتَقُومَ الْحِجَّةُ عَلَيْهِمْ
فِي التَّمَادِي فِي الْغَيِّ وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ.

المادة الثانية: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: أَي: وَإِذَا تَمَادَوْا فِي غِيِّهِمْ
وَزَلَمِهِمْ وَكُفِّرَهُمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ رَفْعِ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ عَنْهُمْ،
وَأَمْدَادِهِمْ بِأَسْبَابِ النِّعَمِ الْوَفِيرَةِ، فَإِنَّ قَانُونَ التَّكْوِينِ الْقَدَرِيَّ الْعَامَّ سَيَنْطَبِقُ
عَلَيْهِمْ، فَيَتِمُّ بِمُقْتَضَاهُ الطَّبْعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، أَي: إِقْفَالُهَا إِقْفَالًا تَامًا فَلَا
تَدْخُلُهَا مَوَثِّرَاتُ الْهَدَايَةِ.

الطَّبْعُ فِي الْمَادِّيَّاتِ الَّتِي تُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ، حَتَّمُ يُطْبَعُ عَلَى طِينِ
خَاصٍّ، يُوضَعُ عِنْدَ مَكَانِ إِقْفَالِ الرِّسَائِلِ، أَوْ إِقْفَالِ الْأَبْوَابِ، لَضَمَانِ عَدَمِ
فَتْحِهَا.

ثُمَّ جَرَى التَّوَسُّعُ فِي التَّعْبِيرِ فَصَارَ يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَعْنَوِيَّاتِ، وَمِنْهُ الطَّنْبُغُ عَلَى الْقُلُوبِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهَا صَارَتْ مَخْجُوبَةً عَنْ إِذْرَاكِ أَيِّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِمَا هِيَ مَخْجُوبَةٌ عَنْهُ.

وَطَنِبُغُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى قُلُوبِ النَّاسِ يَكُونُ نَتِيجَةً قَدَرِيَّةً لِمَا يَكْسِبُهُ النَّاسُ بِإِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ، كَمَنْ يَشْرَبُ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةِ السَّمَّ الْقَاتِلَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَظُمَتْ حِكْمَتُهُ، يَقْتُلُهُ بِسَمِّهِ ضِمْنَ قَانُونِهِ الْقَدَرِيِّ الْعَامِّ، وَكَمَنْ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي النَّارِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحْرِقُهَا لَهُ ضِمْنَ قَانُونِهِ الْقَدَرِيِّ الْعَامِّ.

وكَذَلِكَ فَإِنَّ مَنْ يُمَعِنُ فِي إِعْرَاضِهِ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمَذْكُورَاتِ لَهُ، وَيَسْتَهِينُ بِهَا، وَلَا يَغْبَأُ بِالْمَذْكُورِينَ، وَلَا بِالِدُّعَاةِ الرُّبَانِيِّينَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنْذِرِينَ، وَلَا يَسْتَمِعُ لِلْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ الْإِقْنَاعِيَّةِ الدَّامِغَةِ، وَيُسَلِّمُ عَنَانَ إِرَادَتِهِ لِأَهْوَاةِ وَشَهَوَاتِهِ وَرَغَبَاتِهِ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَطْبَعُ عَلَى قَلْبِهِ ضِمْنَ قَانُونِهِ الْقَدَرِيِّ الْعَامِّ، إِذْ صَارَ مَيُؤُوساً مِنْ اسْتِقْبَالِهِ بِاخْتِيَارِهِ وَالْحُرِّ لِأَنْوَارِ الْهَدَايَةِ الرُّبَانِيَّةِ.

المادة الثالثة: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: أي: فَهُمْ بَعْدَ الطَّنْبُغِ عَلَى قُلُوبِهِمُ الَّذِي كَانَ بِأَسْبَابٍ مِنْهُمْ، لَا يَسْمَعُونَ مَوْعِظَةً وَاعِظًا، وَلَا تَذْكَيرَ مُذَكَّرًا، وَلَا نَصِيحَةً نَاصِحًا.

فَإِذَا بَلَغُوا هَذِهِ الدَّرَكَةَ الْعَمِيقَةَ فِي الْإِنْحِطَاطِ، فَإِنَّهُمْ حِينَئِذٍ يَسْتَحِقُّونَ إِنْزَالَ عَذَابٍ فِيهِمْ، وَإِهْلَاكَ شَامِلٍ لَهُمْ، تَطْبِيقاً لِسُنَّتِهِ الَّتِي لَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَحْوِيلَ لِمَجْرَاهَا.

مراحل سنن الله في الأمم الأربع:

وقد جاء ترتيب هذه الآية بَعْدَ بَيَانِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَبَيَانِ سُنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ، وَهَذِهِ السُّنَّةُ قَدْ كَانَتْ تَشْتَمِلُ دَوَاماً عَلَى أَرْبَعَةِ مَرَاهِلٍ:

المرحلة الأولى: أَنْ يُعْلِمَ اللَّهُ مُجْتَمَعًا بَشَرِيًّا عَنْ طَرِيقِ رُسُلِهِ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ الْمُبَلِّغِينَ لِرِسَالَاتِهِ مِنْ أَتْبَاعِهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ، مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مِنْ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ، عَلَى مَا جَاءَ فِيهَا أَنْزَلَ لِعِبَادِهِ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، تُبَيِّنُ لَهُمُ الدِّينَ الَّذِي ارْتَضَاهُ لَهُمْ، الشَّامِلَ لِشَرِيعَتِهِ لَهُمْ، وَمِنْهَاجِهِ الَّذِي أَمَرَهُمْ أَنْ يَلْتَزِمُوهُ فِي سُلُوكِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ.

فَإِنْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا فَتَحَ رَبُّهُمْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَمْنًا وَاسْتِقْرَارًا، وَإِلَّا فَلَانَّهُ يَجِيءُ دَوْرُ الْمَرَحَلَةِ الثَّانِيَةِ.

المرحلة الثانية: أَنْ يَأْخُذَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْبَاسِ وَالضَّرَاءِ إِذَا كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَكَذَّبُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ شَرِيعَةٍ وَمِنْهَاجٍ لِحَيَاتِهِمْ، تَأْدِيبًا وَتَذْكِيرًا، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَضَرَّعُوا إِلَى بَارِئِهِمْ، وَيَتُوبُوا، وَيَتَّقُوا عِقَابَهُ، بِفِعْلِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَاَهُمْ عَنْهُ.

فَإِنْ اتَّعَظُوا فَتَضَرَّعُوا وَتَابُوا وَاتَّقَوْا، رَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ بَاسٍ وَضَرَاءٍ، وَفَتَحَ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَبَرَكَاتٍ تَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِلَّا فَلَانَّهُ يَجِيءُ دَوْرُ الْمَرَحَلَةِ الثَّالِثَةِ.

المرحلة الثالثة: أَنْ يَرْفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ مِنْ بَاسٍ وَضَرَاءٍ، وَأَنْ يُنْهَلَهُمْ وَيُمْلِيَهُمْ لَهُمْ، وَيُفْتَحَ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، حَتَّى إِذَا طَعَوْا وَبَعَّوْا وَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، وَصَارَ صَلَاحُهُمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ بِالْحَرَّةِ مَيُّوسًا مِنْهُ، فَلَانَّهُ يَجِيءُ دَوْرُ الْمَرَحَلَةِ الرَّابِعَةِ.

المرحلة الرابعة: أَنْ يُبَاغِتَهُمُ اللَّهُ بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوْ ضَحَى وَهُمْ يَلْعَبُونَ، أَوْ فِي وَسْطِ النَّهَارِ وَهُمْ قَائِلُونَ، بِالْمُعَذِّبَاتِ الْمَهْلَكَاتِ، فَيَقْطَعَ دَابِرَهُمْ، وَيُدْمِرَ عَلَيْهِمْ مَسَاكِنَهُمْ، وَيُنْهِيَ وُجُودَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِذْ قَدْ انْتَهَى دَوْرُ امْتِحَانِهِمْ.

وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمْثِلَةً مُتَعَدِّدَةً مِنْ تَحْقِيقِ سُنَّتِهِ فِي إِهْلَاكِ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى الْمَرَحَلَةِ الرَّابِعَةِ.

وهذه الأمثلة كافية لأن تُقدّم هداية للأُمم اللاحقة، التي أوزنها الله أَرْض الأُمم السابقة التي أهلكها، وأن تُقدّم لهم بياناً إقناعياً لا يستهين به إلا الذين لا عقول لهم، ولا يعرض عنه إلا المجرمون الذين يستحقّون أن يُجرى الله فيهم سُنّة التي أجراها في المهلكين السابقين.

ولما كان في الناس من بعد تنزيل القرآن واشتيماله على هذه البيانات، جماعات كثيرون لم يؤمنوا ولم يتّقوا كأنّ حالهم مُشبهاً حال من لم تأت به هذه الهداية، ولم تأت به هذه البيانات، فكان من أسلوب البيان الرفيع طرح السؤال التالي:

أَلَمْ يَأْتِ هَؤُلَاءِ النَّاسَ مَا يَهْدِيهِمْ وَيُبَيِّنُ لَهُمْ سُنَّةَ اللَّهِ، حَتَّى كَانَ مِنْهُمْ هَذَا الْإِهْمَالُ وَعَدَمُ الْاِكْتِرَافِ، وَحَتَّى سَلَكَوا السُّبُلَ الْمُؤَدِّيَةَ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللَّهِ إِلَى تَغْذِيهِمْ فَأَهْلَاكَهُمْ، كَمَا حَصَلَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَجَاءَ التَّعْبِيرُ الْقِرَائِيُّ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

• ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْتَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٦٠﴾﴾:

جاء تقديم ﴿أَصَبْتَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ لأنه هو النتيجة. وهنا يأتي سؤال لماذا يستحقّون هذه الإصابة؟ والجواب: لأنهم لم يستفيدوا ممّا جاءهم من هداية وبيان عمّا جرى من تغذيب وهلاك للذين من قبلهم من مكذّبي القرون السابقة بما جاءهم عن ربهم. وهنا يأتي سؤال: لماذا لم يستفيدوا من ذلك؟ والجواب: لأنهم مطبوع على قلوبهم فهم لا يسمعون بيان مبين ولا تذكير مذكّر. وهنا يأتي سؤال: لماذا طبع على قلوبهم؟ وهنا يجيب التدبّر الفكريّ المستند إلى بيانات قرآنية متعدّدة في غير هذا النّص، مع التحليل النفسي لظواهر السلوك الإنساني، فيقول: لأنهم اتّبّعوا أهواءهم وشهواتهم ورغباتهم من الحياة الدّنيا، فانطلقوا يكدحون لتحقيق لذاتهم،

مُغْرِضِينَ وَمُذْبِرِينَ عَنْ كُلِّ مَنْطِقٍ عَقْلِيٍّ، وَطَالَ عَلَيْهِمُ الزَّمَنُ، وَهُمْ مُسْتَعْرِقُونَ لَا يُفَكِّرُونَ إِلَّا فِيمَا يُحَقِّقُ لَهُمْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا، وَيَكْذَحُونَ لَاهِثِينَ لَتَحَقِيقِهَا، فَجَرَى عَلَيْهِمْ قَانُونُ الطَّبَعِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، أَحَدَ أَنْظَمَةِ التَّكْوِينِ الْعَامِّ لِلْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ، وَمَنْ أَقْفَلَ قَلْبُهُ عَنْ اسْتِقْبَالِ بَيِّنَاتِ الْهُدَايَةِ بِعَقْلِ وَرُشْدٍ، فَإِنَّ مَرَاكِزَ سَمْعِهِ فِي دِمَاغِهِ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا مَا تَتَلَقَّاهُ أُذُنَاهُ مِنْ هَذِهِ الْبَيِّنَاتِ، وَكَذَلِكَ مَرَاكِزُ إِبْصَارِهِ لَا تَرَى مَا تُشَاهِدُهُ عَيْنَاهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي آثَارِ الْمَهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، وَمِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.



قول الله عز وجل:

● ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٧١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ :

تمهيد:

يتحدث ربُّنا جلُّ جلاله في هاتين الآيتين بتعقيب ختاميٍّ عن أهل القُرَى الغابرة، وَهُمْ سُكَّانُ كُلِّ مُجْمَعٍ سَكْنِيٍّ وَتَوَابِعِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي، الَّذِينَ قَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا بَعْضَ أَنْبَاءِهِمْ، فِي سُورَةِ (الأعراف) وفيما نَزَلَ قَبْلَهَا مِنْ سُورٍ، سِوَاهُ مِنْهُمْ الَّذِينَ ذَكَرَ أَسْمَاءَهُمْ وَأَسْمَاءَ رُسُلِهِمْ، أَمْ الَّذِينَ تَحَدَّثَ عَنْهُمْ بِعِبَارَاتٍ عَامَّاتٍ مُجْمَلَاتٍ، دُونَ ذِكْرِ أَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ رُسُلِهِمْ، أَمْ الَّذِينَ قَصَّ عَلَيْنَا أَيْضاً بَعْضَ أَنْبَاءِهِمْ بِالتَّذْرِجِ التَّكْمِيلِيِّ فِيمَا أُنْزِلَ بَعْدَ هَذَا النَّصِّ فِي نَجُومِ التَّنْزِيلِ الْقُرْآنِيِّ عَلَى الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقد جاء في هذا التعقيب الختامي لهذا الفصل السادس، من الدرس

السادس من دُرُوس سورة (الأعراف) بَيَّانُ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى الْغَابِرَةِ وتوابعها كَانُوا فَرِيقَيْنِ:

أَمَّا الْفَرِيقُ الْأَوَّلُ مِنْهُمْ: فقد كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وكَذَّبُوا ما جاءَهُمْ بِهِ عنه جلّ جلاله، فَأَمْهَلَهُمُ اللَّهُ إِمْهالاً طَوِيلًا كافيًا لإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَوَصَلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى حَالَةٍ مَيُوسٍ معها من إِيْمَانِهِمْ وإِغْلَانِهِمْ إِسْلَامَهُمْ، عن طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةَ، وَعَلِمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَقَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يُهْلِكَهُمْ إِهْلَاكًا عَامًّا بِالْمُهْلِكَاتِ الْمَضْحُوبَاتِ، بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ بِالْعَدْلِ على ما كَانَ مِنْهُمْ من كُفْرٍ وَفُجُورٍ، وَبَغْيٍ وَعَدْوَانٍ، وَفَسَادٍ وَإِفْسَادٍ فِي الْأَرْضِ، إِذْ انْتَهَى دَوْرُ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَغَدَا بَقَاؤُهُمْ فِيهَا غَيْرَ ذِي جَذْوَى لِلْغَايَةِ الَّتِي خُلِقُوا مِنْ أَجْلِهَا، وَهِيَ الْإِبْتِلَاءُ.

بِاسْتِثْنَاءِ قَلِيلَةٍ قَلِيلَةٍ مِنْهُمْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ لو أَمْهَلُوا أَنْ يُؤْمِنُوا وَيَتَّبِعُوا الْهُدَى، وَلَكِنْ قَضَى النِّظَامُ الْعَامُّ بِأَنْ يَشْمَلَهُمُ الْإِهْلَاكُ. وهؤلاء سَوْفَ يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الدِّينِ على مَقَادِيرِ مَا فِي قَلْبِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ خَيْرٍ، وَلَا نَعْلَمُ كَيْفَ تَكُونُ رَحْمَةُ اللَّهِ لَهُمْ، وَهَذِهِ الرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ تَشْمَلُهُمْ إِذْ لَمْ تَنْتَهَ بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ جَلَّ جلالُهُ مُدَّةَ امْتِحَانِهِمْ، وَلَكِنْ قَضَى نِظَامُ الْإِهْلَاكِ الْعَامِّ لِمَجْمُوعِ قَوْمِهِمْ إِهْلَاكَهُمْ مَعَهُمْ، وَقَدْ جَاءَتْ الْإِشَارَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ لِهَذَا فِي عِبَارَاتٍ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٩﴾ في سورة (الشعراء) فِي الْآيَاتِ (٦٨ - ١٠٤ - ١٢٢ - ١٤٠ - ١٥٩ - ١٧٥ - ١٩١) فقد جاءَ قَبْلُهَا بَعْدَ بَيَانِ إِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ مِنَ السَّابِقِينَ قولَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أَيِ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُسْتَعِدًّا لِأَنْ يُؤْمِنَ مُسْتَقْبَلًا مِمَّا أَمِهُلَ، فَاللَّهُ يَعْمَلُهُمْ بِمَقْتَضَى اسْمِهِ، «الْعَزِيزُ» أَمَّا مَنْ كَانَ لِدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ لِأَنْ يُؤْمِنَ مُسْتَقْبَلًا فِيمَا لَوْ أَمِهُلَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ، وَعَظَّمْ سُلْطَانَهُ، وَعَمَّتْ رَحْمَتُهُ، سَوْفَ يَعْمَلُهُ بِمَقْتَضَى اسْمِهِ: «الرَّحِيمُ».

■ وَأَمَّا الْفَرِيقُ الثَّانِي مِنْهُمْ: فَقَدْ أُنْجَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِإِلْطَافِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَمِنَ الْإِهْلَاكِ الَّذِي شَمِلَ أَقْوَامَهُمْ، لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وَاتَّبَعُوهُمْ، وَعَاهَدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ الَّذِي جَاءَهُمْ، وَعَلَى طَاعَةِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاصِي، مَعَ تَفَاضُلِ كَثِيرٍ فِيمَا يَبْتَغِيهِمُ فِي الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ.

ثُمَّ تَكَثَّرَ فَرِيقُ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ بَعْدَ فَرِيقِ الْمُهْلِكِينَ، وَوَرِثَ الْأَوْلَادُ وَالْأَخْفَادُ الدِّينَ عَنْ آبَائِهِمْ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ الْخَلَائِفَ لَمْ يَقُوا بِعُهُودِهِمْ وَمَوَاقِفِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ، بَلْ ظَهَرَ بَعْدَ اخْتِبَارِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الْمَقْدَّرَةِ لَامْتِحَانِهِ، أَنَّ أَكْثَرَهُمْ كَانُوا فَاسِقِينَ، أَيْ: خَارِجِينَ بِالْمَعَاصِي وَالْمُخَالَفَاتِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ.

وَحَتَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيَانَ هَذِهِ الْقَضَايَا آيَاتِ هَذَا الْفُضْلِ السَّادِسِ، مِنْ فُضُولِ الدَّرْسِ السَّادِسِ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الأعراف).

التدبر:

● قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَقْرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾: أي: تِلْكَ الْأَقْرَى السَّالِفَةُ وَتَوَابِعُهَا نَقُصُّ بِأَحَادِيثٍ تَتَّبِعِيَّةٍ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَيَا كُلَّ مُتَلَقٍّ أَوْ قَارِئٍ لِلْقُرْآنِ، بَعْضُ أَنْبَائِهَا، فِيمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ وَفِيمَا سَنُنْزِلُ فِي نَجُومِ التَّنْزِيلِ، لِيَكُونَ مَا نَقُصُّهُ عَلَيْكَ عِظَةً وَعِبْرَةً، لِمَنْ يَتَّعِظُ وَيَعْتَبِرُ بِمَا جَرَى لِلْأَمَمِ السَّالِفَةِ، مِنْ تَطْبِيقِ مُفْتَضِيَّاتِ سُنَّتِنَا فِي عِبَادَتِنَا الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ.

يُقَالُ لُغَةً: قَصَّ الشَّيْءَ يَقْصُهُ قَصًّا وَقَصَصًا، أَيْ: تَتَّبَعَ أَثَرَهُ شَيْئًا فَشَيْنًا. وَقَصَّ عَلَيْهِ الْخَبَرَ، أَيْ: حَدَّثَهُ بِهِ عَلَى وَجْهِ الْحَقِّ.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: يُؤَكِّدُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ، أَنَّ الْمُهْلِكِينَ مِنَ الْأَمَمِ السَّالِفَةِ، لَمْ يُعَذِّبْهُمْ عَذَابًا مُهِلِكًا لَهُمْ إِهْلَاكَ شَامِلًا، إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُمْ بِإِزْسَالٍ مِنْهُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ : أي : بالوَصِيحَاتِ الْجَلِيلِيَّاتِ ، وَهِيَ تَشْمَلُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ
الآيَاتِ الْمَعْجَزَاتِ الَّتِي تُثَبِّتُ أَنَّهُمْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ وَرُسُلُهُ حَقًّا وَصِدْقًا ، وَتَشْمَلُ
الآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الْمَنْزِلَاتِ صُحُفًا تُتْلَى ، أَوْ كِتَابًا كَبِيرًا يُتْلَى ، وَهِيَ تَدُلُّ النَّاسَ
عَلَى شِرْعَةِ اللَّهِ ، وَمِنْهَا جِهَةٌ لَهُمْ ، فِي الدِّينِ الَّذِي اضْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ ، وَتَشْمَلُ
الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ الْوَاضِحَاتِ اللَّوَاتِي تُثَبِّتُ مَبَادِيءَ الدِّينِ ، وَأَزْكَانَ الْإِيمَانِ ،
وَأَزْكَانَ الْإِسْلَامِ ، وَفَضَائِلَ السُّلُوكِ الَّذِي يُطَالِبُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ .

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلِ الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ بِالْمَهْلَكِينَ السَّابِقِينَ ،
إِلَّا بَعْدَ أَنْ رَفُضُوا الْبَيِّنَاتِ الَّتِي جَاءَتْهُمْ بِهَا رُسُلُهُمُ الْمُرْسَلُونَ إِلَيْهِمْ مِنْ
رَبِّهِمْ ، وَقَطَعَ بِالْبَيِّنَاتِ اخْتِمَالَ اعْتِدَارِهِمْ بِالْجَهْلِ .

● قول الله تعالى : ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ :

أي : إِنَّ الَّذِينَ أَهْلَكُوا بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، قَدْ أَمْهَلُوا إِمْهَالًا
طَوِيلًا كَافِيًا لِقَطْعِ كُلِّ أَعْدَارِهِمُ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَعْتَدِرُوا بِهَا ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا
بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ إِهْلَاكِهِمْ ، مَهْمَا تُرْكُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ، وَمَهْمَا أَمْهَلُوا .

ولهذا كان إهلاكهم ، وإنهاء رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ ، هُوَ الْأَمْرُ الْحَكِيمُ ، إِذْ إِنَّ
إِنْقَاءَهُمْ فِي الْحَيَاةِ أَمْرٌ غَيْرُ ذِي جَذْوَةٍ ، فَهُوَ لَا يُعْطِيهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ فُرْصَةً
لِكَيْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ .

فَلَقَدْ وَصَّلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مِنْهَا ، فَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، بِقَانُونِهِ
الْقَدَرِيِّ الْعَامِّ ، الَّذِي كَانُوا هُمْ السَّبَبُ فِي الْوَصُولِ إِلَيْهِ ، وَتَحَقُّقِهِ فِيهِمْ .

اللَّامُ فِي : ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ : هِيَ لَامُ الْجُحُودِ لِمَجِيئِهَا بَعْدَ كَوْنِ مَنْفِيٍّ ،
وَمِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ هُوَ مَنْ أَبْلَغَ أَسَالِيبِ التَّنْفِي فِي الْعَرَبِيَّةِ .

● قول الله تعالى :

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ : أي : كَذَلِكَ الطَّبْعُ الَّذِي

طَبَعَ عَلَى قُلُوبِ الْمُهْلَكِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، بِسَبَبِ كُفْرِهِم الَّذِي تَمَكَّنَ مِنْ أَفِيدَتِهِمْ، فَحَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنْ كُلِّ أَنْوَارِ الْهَدَايَةِ، يَطْبَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَانُونِهِ الْقَدَرِيِّ الْعَامِّ عَلَى قُلُوبِ سَائِرِ الْكَافِرِينَ، الَّذِينَ تَصِلُ أَحْوَالُهُمْ إِلَى مِثْلِ أَحْوَالِ الْمَعْدِيَّينِ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَقَانُونُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاحِدٌ، وَسُنَّتُهُ ثَابِتَةٌ لَا تَتَبَدَّلُ.

الْمَمْتَحِنُونَ الْآخِرُونَ مِنَ النَّاسِ، كَالْمَمْتَحِنِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ، وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ الْآخِرِينَ، كَسُنَّتِهِ فِي عِبَادِهِ الْأَوَّلِينَ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا.

● قول الله تعالى:

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (١٧٢): أي وما وَجَدْنَا لِأَكْثَرِ الْفَرِيقِ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوا الرُّسُلَ، وَالَّذِينَ وَرِثُوا الدِّينَ عَنْهُمْ وَكَانُوا خُلَفَاءَهُمْ، وَعَاهَدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ، مَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ وِفَاءٍ وَالتَّزَامِ بِعَهْدِهِمُ الَّذِي عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، بِإِعْلَانِهِمُ الْإِسْلَامَ وَالطَّاعَةَ. وَنُؤَكِّدُ أَنَّنَا وَجَدْنَا بِالِاخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ الطَّوِيلِ أَنَّ أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ فَاسِقُونَ، أَي: خَارِجُونَ عَنِ الطَّاعَةِ، عَاصُونَ مُذْنِبُونَ، إِذْ لَمْ يَلْتَزِمُوا بِالْوَفَاءِ بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ.

[إِنْ] مِنْ ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا﴾ هِيَ الْمَخْفَفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَتَفِيدُ التَّوَكِيدَ، وَالتَّحْقِيقَ، كَمَا تَفِيدُ «قَدْ». وَاللَّامُ فِي: ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ هِيَ اللَّامُ الْمَزْحَلَقَةُ وَالْفَارَقَةُ بَيْنَ «إِنْ» النَّافِيَةِ، وَبَيْنَ «إِنْ» الْمَخْفَفَةِ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَهَذِهِ اللَّامُ تُفِيدُ التَّوَكِيدَ أَيْضًا.

والتعبير بنفي الوجود في عبارة: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ يُفِيدُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ وَفَاءٌ بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ مِنْهُمْ مُوجُودًا لَوَجَدَهُ اللَّهُ وَعِلِمَهُ، فَقَدْ عِلِمَ اللَّهُ بِهِ دَلِيلَ قَطْعِيٍّ عَلَى عَدَمِ وَجُودِهِ لَدَيْهِمْ.

وقاعدة: «عَدَمُ الْوُجْدَانِ لَا يَسْتَلْزِمُ عَدَمُ الْوُجُودِ» خَاصَّةٌ بِالمَخْلُوقَاتِ الَّذِينَ لَا يُحِيطُونَ عِلْمًا بِمَا تَوَجَّهَتْ لَهُ حَوَاشُهُمْ، أَوْ أَدَوَاتُ إِدْرَاكَاتِهِمْ. أَمَّا اللَّهُ جَلُّ جَلَالِهِ فَلَا تَنْطَبِقُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ، بَلْ هُوَ سَبْحَانَهُ إِذَا لَمْ يَجِدْ شَيْئًا لَزِمَ عَقْلًا أَنْ يَكُونَ هَذَا الشَّيْءُ غَيْرَ مَوْجُودٍ حَتْمًا.

و«مِنْ» فِي ﴿مَنْ عَهْدٌ﴾ زِيدَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِغْرَاقِ الْعُمُومِ وَالتَّنْصِصِ عَلَيْهِ.

وَأُطْلِقَ لَفْظُ «عَهْدٍ» وَأُرِيدَ الْوَفَاءُ بِهِ، لِأَنَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ وَفَاءٌ بِعَهْدِهِ، يَكُونُ كَمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ أَضْلًا، وَهَذَا مِنْ نَفْيِ السَّبَبِ وَإِرَادَةِ نَفْيِ الْمَسَبِّبِ، فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ.



الفصل السابع

التدبر التحليلي للَقَطَاتِ الْمُخْتَارَاتِ

من قصة موسى وقومه عليه السلام في سورة الأعراف
الآيات من (١٠٣ - ١٧١)

فهو فصل طويل يمكن تقسيمه إلى (١٢) فقرة

الفقرة الأولى

الآيات من (١٠٣ - ١٢٦)

بَعَثَ اللَّهُ مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَمُ بَأَيْتِي الْعَصَا وَالْيَدِ

قال الله عز وجل:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُ بِهَارُونَ مُوسَى يَتْلُو آيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَنْفِرُونَ إِلَيَّ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ

رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٥٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٥٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٥٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَوَّارُوا وَتَنَادَوْا ﴿١٦٠﴾ قَالُوا آتِنَاهُ وَلَآئِهٖ وَأَنصِرْهُ وَارْتَدَّ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٦١﴾ يَا تُوَكُّ يَا كُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١٦٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٦٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرَبِينَ ﴿١٦٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١٦٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١٦٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٦٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ﴿١٦٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٧١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٧٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا ءَٰهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُنْجِلُكُمْ مِنْ خِلْفِ ثَمِّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَتَجْعَلُ ﴿١٧٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٧٥﴾ وَمَا نَنقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴿١٧٧﴾

القراءات:

• (١٠٥) • قَرَأَ جُمْهُورُ الْقِرَاءِ الْعَشْرَةِ: [حَقِيقٌ عَلَى].

وقرأ نافع: [حَقِيقٌ عَلَى].

• وقرأ جمهورُ القراء العشرة: [مَعِينٍ] بِاسْكَانِ ياء المتكلم.

وقرأ حفص: [مَعِينٍ] بِفَتْحِ ياء المتكلم.

والقراءتان وجهان عَرَبِيَّانِ لِنُطْقِ ياء المتكلم.

• (١١١) • كلمة [أَرْجِهْ] فِيهَا عِدَّةُ قِرَاءَاتٍ تَرْجِعُ إِلَى اخْتِلَافِ الْأَدَاءِ فِي

النُّطْقِ.

(١١٢) • قرأ جمهور القراء العشرة [سَاحِرٍ] على وزن «فاعل» اسم فاعل.

وقرأ حَمْزَةً، وَالْكَسَائِيُّ، وَخَلَفٌ: [سَحَّارٍ] على وزن «فَعَّال».

وبين القراءتين تَكَاوُلٌ في أداء المعنى المراد، إذ كان المطلوب حَشَرَ كُلِّ سَاحِرٍ عَادِيٍّ، وَكُلِّ سَحَّارٍ مِنْ أَيْمَةِ السَّحَرَةِ وَرُؤَسَائِهِمْ فِي قُوَّةِ السَّحَرِ والمهارة فيه.

(١١٣) • قرأ نافع، وابنُ كثير، وحفص، وأبو جعفر: [إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا] دُونَ ذِكْرِ هَمْزَةِ الاستفهام قبل «إِنَّ» مع ملاحظتها في المعنى.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ لَنَا لَأَجْرًا] بذكر همزة الاستفهام.

(١١٤) • قرأ الكسائي: [نَعِم] بِكَسْرِ الْعَيْنِ، وَهِيَ لَعَنَةٌ فِي «نَعَم».

وقرأ باقي القراء العشرة: [نَعَم] بِفَتْحِ الْعَيْنِ.

(١١٧) • قرأ حفص: [فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ] بفتح التاء وإسكان اللام وفتح القاف دون تشديد.

وقرأ جمهور القراء العشرة: [فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ] أَصْلُهَا «تَتَلَقَّفُ».

وقرأ البزّي: [فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ].

تخفيف القاف في قراءة التخفيف، وتشديدها في قراءة التشديد، يُعْبَرَانِ عَنْ حَرَكَتَيْنِ ظَهَرَتَا فِي عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ انْقَلَبَتْ حَيَّةً.

إِحْدَاهُمَا: فِيهَا سُزْعَةٌ حَرَكَةُ الْإِبْتِلَاعِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْحَرَكَةُ الْأُولَى.

وَالْآخَرَى: فِيهَا ابْتِلَاعٌ بِتَمْهُلٍ، وَيُظْهَرُ أَنَّ هَذِهِ قَدْ كَانَتْ الْحَرَكَةُ الثَّانِيَّةَ.



التدبر التحليلي:

قال الله عز وجل:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنظَرْتَهُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١١٣﴾:

جاء العطف في صدر هذه الآية بحرف العطف [ثُمَّ] الذي يدل على الترتيب مع التراخي، للدلالة على أنه مرّت مدّة من الزمن مُتَرَاخِيَةً بالنسبة إلى تَقْدِيرَاتِ الناس، بينَ آخرِ الرُّسُلِ المذكورين سَابِقاً في السُّورَةِ، وَهُوَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَام، وَبَيْنَ إِرْسَالِ مُوسَى وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَام إلى المَضْرِيّين وَمَنْ حَوَّلَهُمْ بِوَجْهِ عَامٍّ، وإلى بَنِي إِسْرَائِيلَ على وَجْهِ الخصوص.

﴿بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: أي: أَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِ الرُّسُلِ الَّذِينَ سَبَقَ فِي السُّورَةِ الْحَدِيث عَنْهُمْ وَعَنْ أَقْوَامِهِمْ.

البعثُ: في اللّغة، الإرسال: بَعَثَهُ يَبْعُثُهُ بَعْثًا وَبِغْثَةً، يقال: بَعَثَهُ إِلَيْهِ، وَبَعَثَهُ لَهُ.

﴿مُوسَى﴾: هو الرُّسُولُ مُوسَى عليه السلام، بن عمران (عمرام بالعبري) بن قاهت (قهاث بالعبري) بن لاوي، بن يَغْقُوب، بن إِسْحَاق، بن إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ.

وهارون عليه السلام شقيقه، وهو أَسْبَقُ مِيلَاداً من موسى بثلاث سنين.

قالوا: معنى كلمة «مُوسَى» المُتَشَلُّ من الماء، أصل الكلمة في اللُّغَةِ المَضْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ «موريس» أَخْذاً من لَفْظِ «مُو» بِمَعْنَى «ماء» و«أوريس» بِمَعْنَى «مُتَشَلُّ». فَسَمَّاهُ الَّذِينَ التَّقَطُّوهُ طِفْلاً من الْيَمِّ في قِصْرِ «فِرْعَوْنَ» «مُوريس» بِمَعْنَى: مُتَشَلُّ ماء، ثُمَّ دَرَجَ اسْمُهُ بِلَفْظِ مُوسَى.

﴿يَايُنْتَا﴾ : أي : أرسلنا موسى مضحوباً بآياتنا . وآيات الله التي أرسل الله موسى مضحوباً بها نوحان :

النوع الأول : آيات الله البَيَانِيَّةُ المنزلةُ، التي فيها بيان دينه عَقِيدَةٌ وعملاً، وهو الدين الذي اضْطَفَعاه ربُّ العباد، لعباده الذين وضعهم موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وفيها عَرْضُ الْحَجَجِ والبراهين ذات الإقناع الكافي .

النوع الثاني : آياتُ الله الإعْجَازِيَّةُ، وهي : العلامات المعجزاتُ الباهرات، ومن معجزات موسى معجزة العصا التي تنقلب ثُغْبَاناً مخيفاً، ومعجزة اليد، التي تصيرُ بَيْضَاء مُتَلَاثَةً من غير سوء .

الآية في اللُّغَةِ : العَلَامَةُ والأَمَارَةُ الدَّالَّةُ . وَأُطْلِقَتْ على المعْجَزَةِ البَاهِرَةِ الخارقة للعادة، وعلى فِقْرَةٍ من كتاب الله، مَفْصُولَةٍ عن فِقْرَةٍ سابقة لها، وفِقْرَةٍ آتِيَةٍ بَعْدَهَا في السُّورَةِ، إِذَا وُجِدَتْ .

والباء الجارة في ﴿يَايُنْتَا﴾ معناها المصاحبة، أي : أرسلنا موسى مضحوباً بآياتنا .

وجاء في العبارة استعمال ضمير المتكلم العظيم، لتربية المهابة من عِظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ جَلِّ جَلَالُهُ، وَعِظَمِ سُلْطَانِهِ، وَسَمَتْ حِكْمَتُهُ .

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ : لفظ «فِرْعَوْنَ» كان يُطْلَقُ على كُلِّ مَنْ مَلَكَ مِصْرَ قديماً، قبل أن يستولي عليها اليونان .

قالوا : وكان يُطْلَقُ لفظ «كِسْرَى» على مَلِكِ مُلُوكِ الفرس، وكان يُطْلَقُ لفظ «قَيْصَر» على مَلِكِ الرُّوم، وكان يُطْلَقُ لَفْظُ «النَّجَاشِي» على مَلِكِ الحبشة، وكان يُطْلَقُ لَفْظُ «تُبَّع» على مَلِكِ مُلُوكِ الْيَمَن، وكان يُطْلَقُ لفظ «خان» على مَلِكِ التُّرك .

﴿وَمَلَأُوهُ﴾: الملاء، هم عَلَيْهِ الْقَوْمُ ورؤساؤهم، وأهل الحلّ والعقد فيهم، وهم في العادة دَوو السُّلْطَةِ الإداريّة، والهالة الاجتماعيّة المحيطة بهم من الأثرياء المترفين.

وَيُطْلَقُ عَلَيْهِمْ لَفْظ «مَلَأَ» لِأَنَّهُمْ يَمْلَأُونَ عُيُونَ الْعَامَّةِ.

وَيُلْحَقُ بِفِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ جَمَاهِيرُ الشَّعْبِ المصري كُلُّهُمْ، وَخُصَّ بِالذِّكْرِ فِرْعَوْنُ وَمَلَأُوهُ، لِأَن مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ أَنْ يَبْدَأَ لَدَى تَبْلِيغِ رِسَالَاتِهِ لِلنَّاسِ بِأَصْحَابِ السُّلْطَةِ الإداريّة والمترفين من حَوْلِهِمْ، بِإِغْتِبَارِ أَنَّ جَمَاهِيرَ الشَّعْبِ الَّذِينَ هُمْ مِنْهُ، تَابِعُونَ لَهُمْ وَمُطِيعُونَ لأوامرهم، وَيَسِيرُونَ مَسِيرَتَهُمْ، وَيَدِينُونَ بِدِينِهِمْ.

﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾: أي: فَظَلَمُوا كَافِرِينَ بِهَا، ضَمَّنَ فَعْلُ «ظَلَمُوا» مَعْنَى فَعْلٍ «كَفَرُوا» فَعْدِي تَعْدِيَّتِهِ، فَأَغْنَتِ الْجُمْلَةُ الْوَاحِدَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا ذَكَرَ فِعْلُهَا فَقَطْ، وَالْأُخْرَى ذَكَرَ مَعْمُولُ الْعَامِلِ فِيهَا فَقَطْ، وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾: أي: فَانظُرْ نَظْرًا تَفَكُّرِيًّا تَأْمِلِيًّا لاسْتِخْرَاجِ الْعِبَرِ وَلِلاتِّعَاطِ بِهَا. وَالْأَمْرُ بِالنَّظَرِ مُوجَّهٌ لِكُلِّ صَالِحٍ لِلخُطَابِ تَقْتَضِي حَالَتِهِ أَنْ يَنْظُرَ وَيَتَفَكَّرَ لِيَعْرِفَ سُنَّةَ مَنْ سَنَّ اللَّهَ فِي عِبَادِهِ، وَلِيَتَّعِظَ بِهَا، فَلَا يَكُونُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، كَمَا كَانَ فِرْعَوْنُ وَمَلَأُوهُ مُفْسِدِينَ.

عَاقِبَةُ عَمَلِ الْعَامِلِ: جَزَاؤُهُ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ عَمَلِهِ، وَيَأْتِي عَقِبَهُ مُبَاشَرَةً، أَوْ بَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ، وَالْأَصْلُ فِيهِ مَا يَأْتِي عَقِبَهُ مُبَاشَرَةً، لِأَنَّ الْعَاقِبَةَ أَخْرَجَ كُلُّ شَيْءٍ أَوْ خَاتِمَتَهُ.

الْمُفْسِدُونَ: أي: فاعلوا الفساد. الْفَسَادُ: التَّلَفُ وَالْعَطَبُ. وَتَحَوَّلَ الشَّيْءُ مِنْ كَوْنِهِ صَالِحًا نَافِعًا، إِلَى كَوْنِهِ غَيْرَ صَالِحٍ وَلَا نَافِعٍ، بَلْ رُبَّمَا يَصِيرُ ضَارًّا كَرِيهًا مُفْسِدًا لِمَا هُوَ صَالِحٌ. وَالْإِفْسَادُ إِتْلَافُ الْأَشْيَاءِ، أَوْ تَحْوِيلُهَا إِلَى أَشْيَاءٍ ضَارَّةٍ.

والمراد بالمُفْسِدِينَ هُنَا فِرْعَوْنُ وَمَلَأُوهُ وَجُنُودُهُمْ، وَضِعَ الاسم الوصفِي الظاهرُ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ هُنَا، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ عَاقِبَتَهُمُ الْإِهْلَاكِيَّةُ بِالْإِغْرَاقِ، قَدْ كَانَتْ بِسَبَبِ إِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ.



قول الله عز وجل:

• ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٤﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٤٥﴾﴾ :
العطف بالواو لهذه الفقرة يتبادر أنه من قبيل عطفها على الجمل التي قبلها.

لكن يظهر لي أن الغرض من هذا العطف الإشارة إلى كلام مطوي جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعون، ومن هذا الكلام المطوي ما يدل عليه قول الله عز وجل في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْأَوَادِ الْقَدَسِ طَوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَّا أَن تَرْكَأَ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ :

فعبارة: ﴿فَقُلْ هَلْ لَّكَ﴾ معطوفة بالفاء التي تدل على الترتيب مع التعقيب، فيها تعليم من الله عز وجل لموسى عليه السلام، بأن يبدأ فرعون بهذه العبارة اللَّيْنَةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى مُقَدِّمَةِ غَرَضٍ طَوِيلٍ دَلَّتْ عَلَيْهِ عبارة: ﴿أَلَا أَن تَرْكَأَ﴾ قبل أن يذُكَّرَ لَهُ المطلوب وهو التزكية، والهداية إلى ربه.

وإذا جمعنا ما جاء في هذا النص مع ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ :

فَإِنَّهُ يَظْهَرُ لَنَا أَنَّ أَوَّلَ مَا بَدَأَ بِهِ مُوسَىٰ خُطَابَهُ لِفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، هُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لِيُعَرِّفَ بِالْمُهِّمَةِ الَّتِي دَخَلَ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ مِنْ أَجْلِهَا، بِدَلِيلِ «الفاء» فِي: ﴿فَقَالَ﴾.

وَيُذَلُّ التَّرْتِيبُ الطَّبِيعِيُّ عَلَى أَنَّ التَّعْلِيمَ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (النَّازِعَاتِ) قَدْ كَانَ عَقِبَ بَيَانِهِ أَنَّ رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

إِنَّ النَّظْرَةَ التَّكَامُلِيَّةَ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمَوْزَعَةِ فِي السُّورِ، يَجِبُ أَنْ لَا تَفَارِقَ الْمَتَدَبِّرَ لِكِتَابِ اللَّهِ الْمَجِيدِ.

﴿يَفِرْعَوْنُ﴾: خَاطَبَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِرْعَوْنَ بِلَقَبِهِ التَّكْرِيمِيِّ الْمَلِكِيِّ، وَنَادَاهُ بِنِدَاءِ الْبَعِيدِ تَكْرِيمًا لَهُ أَيْضًا، فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُ: يَا مَلِكُ، أَوْ يَا سُلْطَانُ، أَوْ يَا عَظِيمَ.

﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾: دَلَّ النَّصُّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ الزُّخُرْفِ الْآنْفِ الذِّكْرَ عَلَى أَنَّهُ عَرَّفَ أَوَّلًا بِنَفْسِهِ وَبِالْمُهِّمَةِ الَّتِي حَضَرَ مِنْ أَجْلِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: إِنِّي حَامِلُ رِسَالَةٍ أَرْسَلَنِي بِهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ وَيَجِبُ عَلَيَّ تَبْلِيغُهَا، وَالْإِضَافَةُ عَلَى مَعْنَى اللَّامِ، أَي: رَسُولٌ لِّرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ دَعَاهُ إِلَى أَنْ يَتَزَكَّى، وَيَهْدِيَهُ إِلَى رَبِّهِ فَيَخْشَىٰ عِقَابَهُ طَامِعًا بِثَوَابِهِ مُجْلَأً، وَبَعْدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَأَضَافَ فِي الْعِبَارَةِ حَرْفَ «مِنْ» لِلتَّنْبِيهِ عَلَى عِظَمِ مَسْئُولِيَّتِهِ، وَأَنَّ رِسَالَتَهُ الَّتِي يَحْمِلُهَا لَيْسَتْ رِسَالَةً مِنْ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ، وَلَا سُلْطَانٍ مِنْ دُوِي السُّلْطَانِ فِيهَا، وَإِنَّمَا هِيَ رِسَالَةٌ لَهُ وَلِمَلَئِهِ وَلِقَوْمِهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا فِيهِمَا وَمَنْ فِيهِمَا، وَالْمَتَصَرِّفِ فِيهِمَا بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَوَامًا، فِي كُلِّ أَصْغَرٍ وَخَدَةٍ زَمْنِيَّةٍ.

وَالْمَعْنَى: إِنِّي نَبِيٌّ أَخْمِلُ رِسَالَةً كُلِّفْتُ أَنْ أُبَلِّغَهَا مِنْ قِبَلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْخَالِقِ لِكُلِّ الْمَوْجُودَاتِ الْكُونِيَّةِ، وَالْمُمِدِّ لَهَا دَوَامًا بِعِطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

والمراد بالعالمين هُنا كُلُّ ما سِوَى الله عز وجلّ .

﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ وفي قراءة نافع: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ :

كلمة ﴿حَقِيقٌ﴾ على صيغة «فَعِيل» صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ باسم الفاعل، أو باسم المفعول، أو صيغة مبالغة، وهذه الصيغة مشتقة من فعل «حَقَّ يَحِقُّ حَقًّا» بمعنى ثَبَتَ واستَقَرَّ، فحقيق هو بمعنى ثابت.

ويُقَالُ لُغَةً: حَقٌّ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، أي: وجبَ عليه.

فالعبرة على قراءة نافع: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ ظاهرة الدلالة، والمعنى: واجبٌ عليّ وجوباً إلزامياً مؤكداً، أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، فَأَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْذِبَ عَلَى رَبِّي وَأَنَا رَسُولُهُ الْمُؤَيَّدُ بِالآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ مِنْهُ، كَيْفَ يُجْرِي لِي جَلُّ جَلَالِهِ الْآيَاتِ الْخَوَارِقَ إِنْ كَذَبْتُ عَلَيْهِ؟!

وكلمة «حَقِيقٌ» على هذه القراءة هي بمعنى اسم الفاعل.

وأما العبارة على قِراءة جُمهور القراء العشرة: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ﴾... فقد ذكر لها المفسرون تخريجاتٍ متكلّفاتٍ دعاها إليها وجود حرف الجزر «عَلَيَّ» دون ياء المتكلم.

والَّذِي ظهر لي أَنَّ كلمة «حَقِيقٌ» في قراءة الجمهور هي بمعنى اسم المفعول، كالفعل المبني للمجهول، وهي خَبَرٌ ثانٍ لحرف «إِنْ» المشبّه بالفعل من عبارة ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إِنِّي رَسُولٌ مَخْفُوقٌ، وعبارة: ﴿عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ نائب فاعل، أي: إِنِّي رَسُولٌ مُثَبَّتٌ إِنْبَاتٌ إِلْزَامٌ، فَأَنَا مُلْزَمٌ إِلْزَاماً لَا خِيَارَ لِي فِيهِ، عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِذْ إِنِّي مَعْصُومٌ بِعِصْمَةِ اللَّهِ مِنْ أَنْ أَفْتَرِيَ عَلَيْهِ.

وهكذا شَأْنُ كُلِّ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقد قال الله عز وجلّ

بشأن سيدنا محمد ﷺ، في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤١﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا آفَاقِيلٌ ﴿٤٥﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ ﴿٤٨﴾﴾.

الْوَتِينَ: هو الشريان الرئيس الذي يُمدُّ الجسمَ بالدمِ النقي الخارج من القلب.

أي: لقتلناه بسرعة فائقة، ولم نمكِّنه من الكذب علينا.

وهذه الحجة التي قدّمها موسى عليه السلام من الحجج العقلية القوية الدامغة.

وبهذا الفهم ظهر لنا تكامل القراءتين في دالّتيهما.

فقراءة نافع قال فيها: واجب عليّ بالزّام شديد أنّ لا أقول على الله إلا الحقّ، فأنا لا أخرج عن طاعة ربي بحالٍ من الأحوال.

وقراءة الجمهور دلّت على أنّه قال: أنا مُبْتَبِعٌ بِعِصْمَةِ مِنْ رَبِّي إثباتاً لا خيارٍ لي معه، على أنّ لا أقول على الله إلا الحقّ.

﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: المراد بالبيّنة هنا ما أمره الله بتبليغه من أمور الدين إيماناً وعملاً.

أما البيّنة بمعنى الآية المعجزة الخارقة للعادة، فسأتّي في الآية التالية بيان أنّ فرعون طالبه بأن يأتي بها إن كان من الصادقين فيما يُبلّغ عن ربه من أمور الدين.

... ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: أي فاستجب لدعوتي، واسمَحْ لبني إسرائيل أن يخرجوا معي إلى أرض فلسطين، التي جاءوا منها في عهد

يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام، الفاء في [فَارْسِلِ] فاء فصيحةٌ تعطف على محذوف تقديره: فاستجب لدعوتي.

فكان لموسى عليه السلام مطلبان:

المطلب الأول: دَعْوَةُ الْمَضْرِيَيْنِ وَمَنْ حَوَّلَهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ.

المطلب الثاني: الخروج ببني إسرائيل من مصر إلى فلسطين، لإقامة دولة الإسلام لله فيها، عن طريق التبليغ، فإن لم يُجِدِ التبليغُ، فعُنْ طريق القتال في سبيل الله.



قول الله عز وجل:

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ حِجَّتَ بِتَايَةٍ فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٧٦)

يَخْكِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَضْمُونٌ مَا قَالَ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، عَقِبَ دَعْوَتِهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَأَهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، وَطَلَبِهِ بِأَنْ يَسْمَحَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ مِنْ مِصْرَ إِلَى فِلَسْطِينَ.

جاء في هذه العبارة اختيار حرف الشرط «إِنْ» للإشعار بأنه من المستبعد أن يكون قد جاء بآية معجزة من ربه، ومن المستبعد أن يكون من الصادقين، فهذا الحرف يستعمل غالباً في القضايا المشكوك في حصولها، أو في صدقها، بخلاف حرف الشرط «إِذَا».

﴿حِجَّتَ بِتَايَةٍ﴾: أي: بعلامة خارقة للعادة مُعْجِزَةً، تَشْهَدُ لَكَ بِأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا، إِذْ لَا بُدَّ لِكُلِّ رَسُولٍ مِنْ آيَةٍ خَارِقَةٍ تَكُونُ بِمِثَابَةِ الشَّهَادَةِ لَهُ مِنَ اللَّهِ بِصِدْقِهِ.

﴿فَأَتِ بِهَا﴾: أي: فَقَدَّمَهَا، وَأَظْهَرَهَا لَنَا، وَأَخْضَرَهَا أَمَامَنَا، لِتَرَاهَا، وَنُشَاهِدَ مَبْلَغَ قُوَّتِهَا فِي إِثْبَاتِ مَا تَدَّعِيهِ.

يقال لغة: جاء بالشَّيء، وأتى بالشَّيء، أي: أخْضَرَهُ معه.

﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: أي: إِنْ كُنْتَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الصَّادِقِينَ.



قول الله عز وجل:

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٧٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِينَ ﴿١٧٨﴾﴾:

أي: فَأَسْرَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِسْرَاعَ الْوَاقِعِ بِمَا آتَاهُ رَبُّهُ مِنْ آيَتِي الْعَصَا وَالْيَدِ، فَأَلْقَى عَصَاهُ الَّتِي فِي يَدِهِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ السُّرْعَةِ الْعَطْفُ بِالْفَاءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى التَّرْتِيبِ مَعَ التَّعْقِيبِ، فَإِذَا هِيَ قَدْ فَاجَأَتْهُمْ بِأَنْ تَحَوَّلَتْ ثُعْبَانًا وَاضِحًا حَقِيقِيًّا، لَا أَمْرًا تَخِيلِيًّا إِيهَامِيًّا.

وَأَسْرَعَ فَأَدْخَلَ يَدَهُ السَّمَرَاءَ فِي جَنْبِ قَمِيصِهِ، فَنَزَعَهَا بِسُرْعَةٍ وَشِدَّةٍ، فَإِذَا هِيَ قَدْ فَاجَأَتْهُمْ بِأَنْ تَحَوَّلَتْ بَيْضَاءَ بَيَاضًا بَاهِرًا رَائِعًا، لَا بِيَاضَ بَرَصٍ كَمَا لِلْمَرْضَى بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ أَعْطَاهُ آيَتِي صِدْقِ نَبُوْتِهِ وَرِسَالَتِهِ مَا أَبَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ... ﴿١٧٢﴾﴾.

وما جاء بيانه في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ... ﴿٢٧٢﴾﴾.

قال المفسرون: المراد من «بَيْضَاءَ» أَنَّهَا تَخْرُجُ كَاللُّوْلُؤَةِ الْبَيْضَاءِ تَتَوَهَّجُ نُورًا يَظْهَرُ لِلْمُبْصِرِينَ.

ورُوي عن ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الثُّغْبَانَ الَّذِي تَحَوَّلَ عَنْ عَصَا مُوسَى فِي مَجْلِسِ فِرْعَوْنَ، فَتَحَ فَمَهُ فَكَانَ فَكُّهُ الْأَسْفَلُ فِي الْأَرْضِ، وَفَكُّهُ الْأَعْلَى فِي السَّقْفِ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ ثُّغْبَاناً رَهيباً جداً.

الثُّغْبَانُ: هو الذكر من الحيات.

● ﴿فَإِذَا هِيَ بِبَيْضَاءَ لِلنَّاظِرِينَ﴾ : [إذا]: فُجَائِيَّةٌ ومعناها الحال. فَتَوَوَّلَ باسم فاعل يُمكن أن يَعْمَلَ عَمَلَ الفعل. والمعنى فِيهِ بَيْضَاءُ حَالَةٌ كَوْنِهَا مُفَاجِئَةٌ لِلنَّاظِرِينَ.

عندئذٍ حَصَلَتْ دَهْشَةٌ لِفِرْعَوْنَ وَلَمَلَأَ قَوْمِهِ الْحَاضِرِينَ مَجْلِسَهُ الْفِرْعَوْنِي السُّلْطَانِي مِمَّا شَهِدُوا.

مَلَأَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ هُمْ وَزُرَاؤُهُ وَمُسْتَشَارُوهُ وَاللَّهُ الْمَالِكُونَ لِمَضَرِّ يَوْمئِذٍ.

وعلى الرُّغْمِ مِمَّا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ دَهْشَةٍ فَقَدْ رَأَوْا أَنْ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنْ جَنْسٍ مَا يَفْعَلُهُ سَحَرُهُ مِضَرٌّ يَوْمئِذٍ.



قول الله عز وجل:

● ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا نَأْمُرُوكَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٢١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴿١٢٢﴾﴾ :

دلَّت هذه الآياتُ على جِوَارٍ تَشَاوُرِيٍّ جَرَى بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ الْحَاضِرِينَ مَجْلِسَهُ سَاعَتِيذٍ.

ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِرْعَوْنُ قد بدأ الحديث، قائلاً لحاضري مجلِسِهِ مِنْ مَلَأٍ قَوْمِهِ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا الَّذِي عَرَضَهُ مُوسَى، إِلَّا أَنْ تُنْصَ قَدْ طَوَاهُ لِإِمْكَانِ اسْتِخْرَاجِهِ مِنْ قَبْلِ أَهْلِ التَّدَبُّرِ، إِذْ مِنْ التَّقَالِيدِ الْمُتَّبَعَةِ لِحَاضِرِي

مجالس الملوك، لَا يَتَكَلَّمُوا وَلَا يُبْذُوا آراءَهُمْ في مثل هذه المواقف حتَّى يَسْأَلَهُمُ الْمَلِكُ.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ :

لَمْ يَذْكُرُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاسْمِهِ، وَإِنَّمَا أَشَارُوا إِلَيْهِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ «هَذَا» لِلإِشْعَارِ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِلْيَةِ الْقَوْمِ الَّذِينَ تُذَكِّرُ أَسْمَاؤُهُمْ أَوْ أَلْقَابُهُمْ.

وَوَصَّفُوا الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَذْهَشَتَاهُمْ، بِأَنَّهُمَا مِنْ قَبِيلِ السَّحَرِ المعروف والمنتشر في أيامهم بِمِصْرَ، وَلَذَهَشْتَهُنَّ بِعِظَمِ الْآيَتَيْنِ قَالُوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ : أي: كثير العلم بالسحر.

وجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قول الله عز وجل:

﴿قَالَتِي عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُمَّبٌ مُمِينٌ ﴿٢٦﴾ وَرَزَّ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِينَ ﴿٢٣﴾﴾
قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾.

أي: يريد أن يخرج ببني إسرائيل من مصر، وَيَكُونُ مِنْهُمْ جَيْشاً وَيَعُودَ بِهِمْ مُقَاتِلِينَ طَالِبِينَ مُلْكٍ مُضَرٍ.

ومن الجفم بين النَّصْنَيْنِ نُذْرَكَ أَنَّ الْمَلَأَ سَكَنُوا فَلَمْ يَجِيبُوا فِرْعَوْنَ عَلَى سُؤَالِهِ، خَشْيَةً أَنْ يَطْرَحُوا رَأْيَا لَا يُوَافِقُ هَوَاهُ، فَتَرَيْتُمَا حَتَّى يَتَحَسَّسُوا رَأْيَهُ.

عندئذِ قَالَ فِرْعَوْنُ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ، كما جاء في سورة (الشعراء).

فَرَدَّدَ الْمَلَأُ قَائِلِينَ بِإِجْمَاعٍ: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ، كما جاء في سورة (الأعراف).

قَالَ فِرْعَوْنُ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ أي: فما هي المشورة التي تَقْتَرِحُونَهَا تُجَاهَ هَذَا السَّاحِرِ الْعَلِيمِ؟

والأمر هنا مستغملٌ للدلالة على عموم الطلبِ وتقديم المشورة المناسبة، وليس مستغماً بمعنى التكليف، لأنَّ مثلَ فِرْعَوْنَ لا يقبلُ ممَّن هم دونه أوامرُ التكليف، إنَّما يقبل طلباتِ الاستجداء والالتِماسِ وتقديم المقترحاتِ الشُّوريَّة التي يَطْلُب هو منهم إبداءها.

فتشاوَرَ الملأ فيما بينهم، واستَقَرَّ رأيُهُم على أن يغقَدَ فِرْعَوْنُ مَبَاراةَ بين مُوسَى عليه السلام، وبين كلِّ سَحَرَةٍ مِصْر، مُتَوَهِّمِينَ أنَّ اجتماعَ سَحَرَةٍ مِصْرَ كافٍ لإبطالِ سِخْرِ مُوسَى والتَّغْلِب عليه مهما كان سحراً عظيماً.

• ﴿قَالُوا أَزِجُهُ وَآخَاهُ وَارْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحِيرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الأعراف).

وفي القراءة الأخرى: [سَحَارٍ] بصيغة المبالغة.

﴿قَالُوا أَزِجُهُ وَآخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الشعراء).

في نُطْقٍ [أَزِجُهُ] خَمْسُ قَرَاءَاتٍ مُتَوَاتِرَاتٍ: «أَزِجُهُ» بِإِسْكَانِ هَاءِ الضمير. «أَزِجُهُ» بِكَسْرِ هَاءِ الضمير من غير صلة لها بِمَدٍّ. «أَزِجِيهِ» بِكَسْرِ هَاءِ الضمير مع صلة لها بِمَدٍّ. «أَزِجُهُ» بِذِكْرِ الهمزة الساكنة بعد الجيم، وَضَمِّ هَاءِ الضمير. «أَزِجِيهِ» بِذِكْرِ الهمزة الساكنة بعد الجيم، وَكَسْرِ هَاءِ الضمير. يقالُ لغة: أَرْجَاهُ، أَي: أَخْرَهُ، أَوْ جَعَلَ لَهُ أَجْلاً.

والمعنى: أَخْرَهُ وَأَجَلَّهُ، أَي: اجْعَلْ لِمُوسَى وَأَخِيهِ أَجْلاً تُقِيمُ فِيهِ مَبَاراةَ بَيْنِ مُوسَى وَبَيْنَ سَحَرَةِ مِصْر، تَشْهَدُهَا الْجَمَاهِيرُ فِي مَكَانٍ جَامِعٍ، فَإِذَا تَغَلَّبُوا عَلَيْهِ بِالسَّخْرِ انْتَهَتْ الْمَشْكِلَةُ مَعَهُمَا، وَسَقَطَتْ دَعْوَتُهُمَا، وَأَمَكَنَ التَّخْلُصُ مِنْهُمَا.

﴿وَارْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحِيرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿يَكْلُ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ في القراءة الأخرى. (الأعراف).

﴿وَأَبَعَثَ فِي الدِّائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ يَكْلُ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾
(الشعراء).

[أَبَعَثَ] مرادف [أَرْسَلَ].

[الْمَدَائِنُ]: جَمْعُ مَدِينَةٍ، وَهِيَ الْمَضَرُّ الْجَامِعُ، وَالْقِيَاسُ أَنْ يُقَالَ
مَدَائِنُ.

[حَاشِرِينَ]: أَي: سَائِقِينَ وَجَامِعِينَ، اسْتُغْنِيَ بِالْوَصْفِ عَنِ الْمَوْصُوفِ،
وَالْمُرَادُ: وَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ جُنُوداً حَاشِرِينَ.

الحشر في اللغة: الجمعُ والسُّوق.

والمعنى: وَأَرْسَلَ جُنُوداً مِنْ جُنْدِكَ الْمَوْجُودِينَ فِي كُلِّ مَدَنٍ مِضْرٍ،
مَكْلُفِينَ بِأَنْ يَنْطَلِقُوا بِأَحْثِينَ عَنْ كُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ بِالسُّخْرِ مَاهِرٍ فِيهِ، وَعَنْ كُلِّ
سَاحِرٍ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ عَلِيماً شَدِيدَ الْمَهَارَةِ وَالْمَكْرِ فِيهِ، فَيَجْمَعُوهُمْ وَيَسُوقُوهُمْ،
وَيَأْتُوا بِهِمْ إِلَيْكَ.

وَوَجَّهَ فِرْعَوْنَ أَمْرَهُ، وَقَامَ الْجُنْدُ فِي الْمَدَائِنِ بَاحْثِينَ عَنْ كُلِّ سَحَّارٍ
وَسَاحِرٍ، فَحَشَرُوا جَامِعِينَ سَائِقِينَ مَنْ وَجَدُوا فِي الْمَدَائِنِ الْمَصْرِئَةَ مِنْ
سَحْرَةٍ، وَكَانَ عَصْرُهُمْ عَصْرَ ازْدِهَارِ السُّخْرِ التَّخْيِيلِيِّ، وَجَاءُوا بِهِمْ إِلَى
فِرْعَوْنَ.

فَلَمَّا حَضَرُوا عِنْدَ فِرْعَوْنَ عَرَضَ عَلَيْهِمُ الْمُهَمَّةَ الَّتِي حَشَرَهُمْ مِنْ
أَجْلِهَا، وَهِيَ مُبَارَاةُ سَاحِرٍ كَبِيرٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ اسْمُهُ مُوسَى، وَمَعَهُ أَخُوهُ
هَارُونَ.



قول الله عز وجل:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى: [إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ] بإثبات همزة الاستفهام، والمعنى في القراءة تبيين على الاستفهام، إذ يجوز حذف همزة الاستفهام من اللفظ، وتبقى مقدرة ذهنًا.

بين ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ وبين: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ كلام مطوي في مثاني النص، ومن السهل على المتدبر أن يذكر معنى الكلام المطوي، أي: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ فَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْمِهُمَّةُ الَّتِي حَشَرَهُمْ مِنْ أَجْلِهَا بالتفصيل، وهي مُبَارَاةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَاحِرٍ كَبِيرٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ اسْمُهُ مُوسَى وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ، فَقَبِلُوا أَنْ يَدْخُلُوا هَذِهِ الْمُبَارَاةَ عَلَى شَرْطٍ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ أَجْرًا كَبِيرًا إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ وَجَاءَ التَّصْرِيحُ بِهَمْزَةِ الاسْتِفْهَامِ فِي الْقِرَاءَةِ الْآخَرَى، وَأَجَابَهُمْ فِرْعَوْنُ بِالْإِيجَابِ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ وَزَادَهُمْ عَلَى طَلِبِهِمْ قَائِلًا: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

«نَعَمْ» حَزَفَ جَوَابَ، يَأْتِي لِلتَّضَدِيقِ، وَيَأْتِي لِلوَعْدِ، وَيَأْتِي لِلإِعْلَامِ، وَالْمَعْنَى هُنَا عَلَى الْوَعْدِ وَالإِعْلَامِ، أَي: إِنْ لَكُمْ لَأَجْرًا كَبِيرًا كَمَا تَرْغَبُونَ. جَاءَتْ عِبَارَةُ الاسْتِفْهَامِ الَّتِي قَدَّمَهَا السَّحَرَةُ مُؤَكَّدَةً بِالْمُؤَكَّدَاتِ: «إِنْ» - وَالْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ - وَاللَّامُ الْمَزْحَلْقَةُ لِلْخَبَرِ» وَفِي تَقْدِيمِ «لَنَا» عَلَى «لَأَجْرًا» إِشْعَارًا بِاسْتِفْهَامِ عَنْ أَجْرِ يَخْصُهُمْ بِهِ.

فجاء الجواب بعبارة «نَعَمْ» مُتَضَمِّنًا كُلَّ هَذِهِ الْمُؤَكَّدَاتِ.

وَزَادَهُمْ عَلَى الْوَعْدِ الْمَالِي الَّذِي اسْتَفْهَمُوا عَنْهُ، فَوَعَدَهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا عَنْده من المقربين الَّذِينَ يَدْعُمُ بِهِمْ سُلْطَانُهُ، وَيَسْتَجِيبُ لِمَطَالِبِهِمْ كَمَا يَسْتَجِيبُ لِمَطَالِبِ وَزَرَانِهِ وَأَهْلِ الشُّورَى وَمَلَائِقَتِهِ مِنْ حَوْلِهِ.

وقال فِرْعَوْنُ لِمُوسَى عليه السلام كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ ۖ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشَرَ النَّاسُ خُشًى ﴿٥٩﴾﴾.

● ﴿مَوْعِدًا﴾: يطلق المَوْعِد على «الوَعْدِ» وعلى «زَمَانِهِ» وعلى «مَكَانِهِ» فهو مصدر ميمي، ويصلح أن يكون «اسم زمان» و«اسم مكان». ويظهر أن هذه المعاني الثلاثة مرادةً معاً هنا.

أي: أعط وعداً حَدَّد فيه زَمَانٌ وَمَكَانٌ لإجراء المباراة بَيْنَكَ وَبَيْنَ سَحَرَتِنَا، وَنَحْنُ نَعْطِيكَ هذا الوَعْدَ وفق الزَّمان والمكان اللَّذَيْنِ تُحَدِّدُهُمَا، فَلَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ.

● ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ وقُرِئ «سُوًى» وهما لغتان والمعنى فيهما واحد، أي: واجعل المكان الذي تُحَدِّدُهُ عَدْلًا، يكون فيه المتباريان مُتَعَادِلَيْنِ في كُلِّ شَيْءٍ.

● ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾: يوم الزينة هذا كَانَ يوم عيدٍ معروفٍ لهم زَمَانُهُ ومكانه، وكانوا يَتَزَيَّنُونَ فيه، وَيَجْتَمِعُ فيه عَامَّةُ النَّاسِ وخاصَّتُهُمْ بحَسَبِ العادة.

● ﴿وَأَنْ يُخَشَرَ النَّاسُ خُشًى﴾: أي: وأن يُجْمَعَ النَّاسُ وَيُسَافُقُوا إليه حتَّى يَكُونُوا حَاضِرِينَ فيه وَقْتَ الضُّحَى، وهو الوقتُ ما بَعْدَ اِرْتِفَاعِ الشَّمْسِ حتَّى الزَّوالِ، وهذا هو الوقتُ المفضَّل لحضورِ الناس في المكان الجامعِ لأعيادهم واستعراضاتهم.

فوافق فرعون على هذا الموعد الذي وعده موسى عليه السلام، وحدد

زَمَانَهُ وَمَكَانَهُ، وَانْصَرَفَ وَأَعَدَّ لَهُذِهِ الْمُبَارَاتِ كُلَّ مَا يُلْزَمُ مِنْ تَدَابِيرِ كَيْدِيَّةٍ رَجَاءً أَنْ يَكُونَ سِخْرُ سَحَرَتِهِ أَقْوَى مِنْ سِخْرِ مُوسَى فِيمَا تَوَهَّمُ أَنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى هُوَ مِنْ قَبِيلِ السُّخْرِ، وَلَيْسَ آيَةً مُعْجِزَةً مِنْ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَآتَى هُوَ وَمَلَأُوهُ بِحَسَبِ الْمَوْعِدِ إِلَى الْمَكَانِ الْجَامِعِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَنَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ۝٦٠﴾ .

وكانت الدَّعَوَاتُ غَيْرُ الْإِلْزَمِيَّةِ قَدْ وُجِّهَتْ لِلْجُمَاهِيرِ الْمَصْرِيَّةِ بِحُضُورِ هَذِهِ الْمُبَارَاتِ، رَجَاءً أَنْ يَتَّبِعُوا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۝٢٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ۝٢٩ لَعَلَّنَا نَبْجِ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ۝٤٠﴾ .
وجاء السَّحَرَةُ لِمَكَانِ الْمُبَارَاةِ فِي الْوَقْتِ الْمَحْدَدِ وَهُوَ يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَمَعَهُمْ أَدَوَاتُهُمُ السُّخْرِيَّةُ.

وَاجْتَمَعَ الْفَرِيقَانِ لِلْمُبَارَاةِ، فَرِيقُ السَّحَرَةِ الَّذِينَ جُمِعُوا مِنَ الْمَدَائِنِ الْمَصْرِيَّةِ، وَالْفَرِيقُ الْآخَرُ مُوسَى وَخَدُّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، تُؤَيِّدُهُ الْقُوَّةُ الرُّبَانِيَّةُ الْغَيْبِيَّةُ، وَيَقِفُ إِلَى جَانِبِهِ أَخُوهُ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ الْمُبَارَاةَ تَوَجَّهَ مُوسَى لِلْسَّحَرَةِ، فَحَذَّرَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَقَالَ لَهُمْ: لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ اسْتَأْصَلَكُمُ بَعْدَابٌ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَبَانَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ خَابَ، ذَلِكَ عَلَى هَذَا الْإِعْدَادِ النَّفْسِيِّ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْسَّحَرَةِ، قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَانْصَرَفَ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ۝٦١﴾ .

﴿وَلَيْكُم مِّنْ عَذَابٍ لَّكُم مِّنَ اللَّهِ أُحْذَرُكُمْ مِنْهُ﴾ : أي: عذاب لَكُمْ مِنَ اللَّهِ أُحْذَرُكُمْ مِنْهُ .
 ﴿فَيَسْجُجْكُمْ بِعَذَابٍ﴾ : أي: فَيَسْجُجْكُمْ بِعَذَابٍ اسْتِصْلَاً بِعَذَابٍ .

فَلَمَّا سَمِعَ السَّحَرَةُ هَذَا مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، دَبَّ الْخِلَافَ بَيْنَهُمْ، فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ مُتَنَاجِينَ فِي السِّرِّ، ثُمَّ أَفْنَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَائِلِينَ: إِنَّ مُوسَى وَهَارُونَ سَاحِرَانِ، يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا، لِتَكُونَ خَالِصَةً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيُرِيدَانِ أَنْ يَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى الَّتِي يَخْكُمُ بِهَا فِرْعَوْنُ أَرْضَ مِصْرَ، فَأَجْمِعُوا كُلَّ مَا لَدَيْكُمْ مِنْ كَيْدٍ سِحْرِيٍّ، ثُمَّ أَتَوْا صَفًّا وَاحِدًا غَيْرَ مُتَنَازِعِينَ، وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى .

دلّ على هذا قول الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى﴾ (٦٢) ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ (٦٣) ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ (٦٤) .

﴿بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ : أي: بطريقَتُكُمُ الْمُفْضَلَةِ عَلَى سَائِرِ الطَّرَاقِقِ .
 ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ : أي: فَقُومُوا بِعَمَلِكُمْ الْكَيْدِيَّ مُجْتَمِعِينَ غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ .

الكيد: التَّدْبِيرُ، والحيلة، وكلّ ما يَحَقِّقُ لِلْمَدْبُرِ النَّصْرَ أَوْ النِّجَاةَ ضِدَّ خَصْمِهِ .

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ : أي: وَقَدْ ظَفِرَ وَفَارَ مَنْ كَانَ هُوَ الْغَالِبَ .

ووقف الفريقان للمباراة، وبدأ السَّحَرَةُ بِالْعَرَضِ التَّخْيِيرِيِّ حَوْلَ مَنْ يَكُونُ الْبَادِيءُ، كَمَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الأعراف) وهو:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿قَالُوا يَمْشِيْ اِيْمًا اَنْ تُلْقَىٰ وَاِيْمًا اَنْ تَكُوْنَ نَحْنُ الْمُلْقِيْنَ ﴿١١٥﴾ قَالَ اَلْقُوا فَلَمَّا اَلْقَوْا سَحَرُوْا اَعْيُنَ النَّاسِ وَاَسْتَرْهَبُوْهُمْ وَجَاءُوْا بِسِحْرِ عَظِيْمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

• ﴿وَاِيْمًا اَنْ تَكُوْنَ نَحْنُ الْمُلْقِيْنَ﴾: أي: نحن الملقين أدوات سحرنا أولاً، كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالُوا يَمْشِيْ اِيْمًا اَنْ تُلْقَىٰ وَاِيْمًا اَنْ تَكُوْنَ اَوَّلَ مَنْ اَلْقَىٰ ﴿١١٥﴾﴾.

فاختار موسى عليه السلام أن يكونوا هم البادئين بإلقاء أدوات سحرهم والقيام بأعمالهم.

فقال لهم: ﴿اَلْقُوا﴾ كما جاء في سورة الأعراف وقال لهم أيضاً مُسْتَهِنًا بأدواتهم وبكل أعمالهم السحرية ﴿اَلْقُوا مَا اَنْتُمْ مُّلقُونَ﴾ كما جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول).

عندئذ ألقى السحرة جبالهم وعصيهم مستعينين بعزة فرعون، كما قال الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَالْقَوُّا جِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ اِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

فكان لسحرهم تأثير تخيلي في أعين الناس، وإحداث رعب في قلوبهم، كما قال تعالى في سورة (الأعراف):

﴿قَالَ اَلْقُوا فَلَمَّا اَلْقَوْا سَحَرُوْا اَعْيُنَ النَّاسِ وَاَسْتَرْهَبُوْهُمْ وَجَاءُوْا بِسِحْرِ عَظِيْمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿سَحَرُوْا اَعْيُنَ النَّاسِ وَاَسْتَرْهَبُوْهُمْ﴾: أي: لم يقلب سحرهم حقائق الجبال والعصي، بل كان في حدود رؤية العيون فقط، وبهذا الخداع البصري أوقعوا الرعب في قلوب الناس مما رأوا من ثعابين كثيرة منتشرة في ساحة المباراة.

وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ ونزول):

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابٌ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾
فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾﴾.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾: أي: لا أُلْقِي أنا أولاً، بل أنتم ألقوا أولاً. فألْقُوا حِجَابَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ، وقاموا بِسِحْرِهِمْ.

﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ﴾: أي: يُضَنِّعُ في خَيَالِهِ صُورَ تَخَيُّلِيَّةٍ وَطُيُوفٍ ليس لها حَقِيقَةٌ في الواقع، وإنما هي تأثيرات سِحْرِيَّةٌ على الْعَيْنِ، تجعلها ترى خيالاتِ أشياء لا وجود لها، فتنتقلها الْعَيْنُ إلى المَخِيلَةِ كَمَا رَأَتْهَا بالتأثير السحري.

﴿مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾: أي: يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ تَأْثِيرِ سِحْرِهِمْ لِلْعُيُونِ أَنَّهَا تُعَايِنُ تَسْعَى.

﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾﴾: أي: فأَحَسَّ مُوسَى عليه السَّلَامُ في نَفْسِهِ خِيفَةً ما لَيْسَتْ بالقُوَّةِ، من أَنْ يكون سِحْرُهُمْ قَلْبَ الْحَبَالِ والعَصِيِّ إِلَى تُعَايِنِ حَقِيقَةً، فَيُكَافِتُوا بِهَا أو يَغْلِبُوا آيَتَهُ.

عِنْدَئِذٍ ثَبَّتَهُ اللَّهُ وَشَدَّ عَزِيمَتَهُ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ مُثَبِّتًا. ما جاء بيانه في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ ونزول):

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾﴾.

وأَوْحَى إِلَيْهِ أَمْرًا وَمَطْمَئِنَّا:

﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَحَرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى ﴿٦٩﴾﴾.

● قرأ حفص: ﴿تَلَقَّفَ﴾ من فعل: «لَقِفَ الشيء يَلْقَفُهُ لَقْفًا وَلَقْفَانًا» أي: تَنَاولَهُ بِسُرْعَةٍ، وَأَخَذَهُ بِقَمِيهِ فَأَبْتَلَعَهُ.

وقرأ جمهور القراء العشرة [تَلَقَّفَ] أضل الكلمة «تَتَلَقَّفُ» حُذِفَتْ

إحدى التاءين تخفيفاً، من فعل: «تَلَقَّفَ الشَّيْءَ يَتَلَقَّفُهُ تَلَقُّفًا» وفي هذه الصيغة دلالة على شدة السُرْعَةِ في تناول، والأخذ بالفم والابتلاع.

وبين القراءتين تكامل في الدلالة على المعنى المراد، فصِيغَةُ: [تَلَقَّفَ] بفتح اللام وتشديد القاف، تَدُلُّ عَلَى حَرَكَةِ ثُعْبَانٍ عَصَى مُوسَى الْفَائِثَةِ السُّرْعَةَ عَقِبَ التَّحَوُّلِ، وصِيغَةُ: [تَلَقَّفَ] بِإِسْكَانِ اللَّامِ وفتح القاف من غير تشديد، تَدُلُّ حَرَكَةَ الثُّعْبَانِ بَعْدَ أَنْ ابْتَلَعَ الْقِسْمَ الْأَعْظَمَ مِنْ أَدَوَاتِ سِخْرِ السَّحَرَةِ بِسُرْعَتِهِ الْمَذْهَلَةِ، وَأَخَذَ يَبْتَلِعُ بِهَذِهِ الْبَقَايَا الْمَتَاثِرَةَ.

وجاء في سورة (الأعراف) التي نتدبرها:

● ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

فلَمَّا تَلَقَّى مُوسَىٰ مِنْ رَبِّهِ هَذَا الْوَحْيَ الَّذِي شَدَّ عِزَائِمَهُ، قَالَ لِلَّسَّحَرَةِ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (يُونُس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطٌ لَهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ يَكَلِّمُنِيهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾: أي: فَلَمَّا قَدَّمُوا كُلَّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ كَيْدِ سِحْرِي، وَاسْتَفْقَدُوا كُلَّ طاقاتهم، وَأَشْعَرُوا بِأَنَّهُمْ قَدْ انْتَهَوْا.

﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: أي: لِلَّسَّحَرَةِ.

﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾: أي: كُلَّ مَا جِئْتُمْ بِهِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ السُّخْرِ الَّذِي سَحَرْتُمْ بِهِ أَغْيُنَ النَّاسِ، فَجَعَلْتُوهُمْ يَرَوْنَ بِأَعْيُنِهِمْ خِيَالَاتٍ لَا حَقِيقَةَ لَهَا فِي الْوَاقِعِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَابِطٌ لَهُ﴾: أي: سَيَكْشِفُ أَنَّهُ بَاطِلٌ بِآيَةٍ مِنْ عِنْدِهِ آتَانِيهَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ﴾: أي: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْضِي بِإِبْقَاءِ عَمَلِ الْمُفْسِدِينَ صَالِحًا فِي آثَارِهِ، حَتَّى لَا يَفْتِنَ بِهِ النَّاسُ فَتَنَةً تُغْطِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ أَنَّهُ حَقٌّ.

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٧): أي: وَيُبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحَقَّ وَيُثَبِّتُهُ، وَيُظْهِرُ ثَبَاتَهُ بِكَلِمَاتِهِ التَّكْوِينِيَّةِ، وَبِكَلِمَاتِهِ الْبَيَانِيَّةِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ إِحْقَاقَ الْحَقِّ وَإِبْطَالَ الْبَاطِلِ.

ومن إحقاف الحق بكلمات الله التكوينية، ابتلاع الثعبان المُنْقَلِبِ عن عصا موسى كل أدوات سحر سحرة فزعون، فأنكشف أن سحرهم قد كان عملاً باطلاً، لا حقيقة له تدل على مكافأته للآية الربانية التي آتاها الله عز وجل نبيه ورسوله موسى عليه السلام.

وَيَعْدُ أَنْ وَجَّهَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْسَّحَرَةِ هَذَا الْبَيَانَ الدَّعَوِيَّ الْقَوِيَّ، الصَّادِرَ عَنْ قَلْبٍ مُؤْمِنٍ وَاثِقٍ بِرَبِّهِ، أَلْقَى عَصَاهُ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهَا مَا أَبَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

• ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١١٧)
فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَقُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾: ﴿

أي: فَأَلْقَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ.

وجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾: ﴿

• قرأ حفص: [تَلْقَفُ] بإسكان اللام، وفتح القاف دون تشديد، في التَّصْنِينِ السَّابِقِينَ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [تَلْقَفُ] بفتح اللام وفتح القاف المشددة، في التَّصْنِينِ السَّابِقِينَ.

وقد سبق بيان التكامل بين القراءتين في الدلالة على المعنى المراد.

• [فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ «تَلْقَفُ» مَا يَأْفِكُونَ]: أي: وألقى موسى عصاه فانقلبت حية رهيبة عظيمة، وفاجأت الجماهير المحتشدة لشهود المبارة، بأنها صارت تتناول بقمها وتبتلع بسزعة عجيبة كل أدوات السحرة، وهم يعملون أعمالهم السحرية، لإيهام المشاهدين وإزاعة أعينهم أن جبالهم وعصيتهم حيأت تسعى في ساحة المبارة.

جاء استعمال الفعل المضارع في «تَلْقَفُ» وفي «يَأْفِكُونَ» للدلالة على حركة المتابعة المتجددة في عمل حية موسى، وفيما كان السحرة يأفكونه، حتى ابتلعت كل ما لديهم من وسائل كانوا يتابعون تقديمها.

يَأْفِكُونَ: أي: يكذبون به على الحقيقة، إذ كانوا بسحرهم يرون أعين الناس أخيلة حيأت وتعاين تسعى، وهي في الحقيقة جبال وعصي تتحرك ولكن لا حياة لها، ولم تنقلب إلى حيأت وتعاين حقيقة.

بخلاف عصا موسى عليه السلام فقد كانت آية معجزة من آيات الله، وانقلبت حية عظيمة بخلق الله جل جلاله وعظم سلطانه، لأنما أمره إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾: أي: فثبت الحق الذي جاء به موسى عليه السلام، لدى الذين شهدوا المبارة، وعلموا أن آيته معجزة ربانية، وليست من قبيل سحر السحرة. فالمراد بوقوع الحق ظهوره واكتشافه وإذراكه بالجبر.

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أي: وظهر للجماهير الذين كانوا يشهدون المبارة، أن ما كان يعمل السحرة باطل لا حقيقة له، إنما كان إيهاماً وخداعاً للأعين فقط.

﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ (الأعراف).

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ (الشعراء).

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا...﴾ (طه).

جاء التعبيرُ بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ فِي فِعْلِ «أَلْقِي» لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ السَّحْرَةَ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ بَعْدَ مُشَاهَدَةِ آيَةِ اللَّهِ الْمُعْجَزَةِ، مَذْفُوعِينَ ذَاتِيًّا لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالسُّجُودِ لَهُ، بِتَلْقَائِيَّةِ اخْتِيَارِيَّةِ تَشْبِيهِ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ مَنْ يُلْقَى مُكْرَهًا.

ولدى المقارنة بين النصوص التي جاءت في (يونس وطه والشعراء والأعراف).

نجد أن النص الذي جاء في سورة (الأعراف) قد أضاف التصريح بأفكار لم يأتِ التصريح بها في النصوص الأخرى.

الفكرة الأولى: دل عليها قول الله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ وقد سبق بيان هذه الفكرة.

الفكرة الثانية: دل عليها قول الله تعالى: ﴿وَبَطَّلَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾:

أي: وظهر بطلان ما كان السحرة يصنعونه من حيل سحرية يخدعون بها أغنيى الناس، وظهر لكل حاضري مشهد المبراة أن ما جاء به موسى عليه السلام حق، إذ هو آية من آيات الله رب العالمين.

الفكرة الثالثة: دل عليها قول الله تعالى: ﴿فَقُلِبُوا هُنَالِكَ﴾: أي:

فُعِلِبَ هُنَالِكَ فِي سَاحَةِ الْمُبَارَاتِ سَحْرَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَا حَصَلَ لَهُؤْلَاءِ السَّحْرَةِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ قَدْ حَصَلَ لِفِرْعَوْنَ، فَالْمَغْلُوبُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ فِرْعَوْنُ وَمَلُؤُهُ وَطَرِيقَتُهُمُ الْكَافِرَةُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبِرُسُلِهِ، وَبِمَا جَاءَهُمْ عَنِ اللَّهِ، وَمَنْ لَوَازِمِهَا اتِّبَاعُهُمْ غَيْرَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَاتَّخَاذَهُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ.

الفكرة الرابعة: دل عليها قول الله تعالى: ﴿وَأَنقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾: أي:

وَأَنقَلَبُوا انْقِلَابًا مَعْنَوِيًّا، مِنْ مَكَانِهِمُ الْعَالِي الَّذِي كَانُوا مُسْتَكْبِرِينَ فِيهِ، حَالَةَ كَوْنِهِمْ أَذِلَاءَ، يَشْعُرُونَ بِصِغَرِ مَكَانَتِهِمْ، وَضَالَّةَ قِيَمَةِ نُفُوسِهِمْ، وَبُطْلَانِ طَرِيقَتِهِمْ، أَمَامَ عَظَمَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي أَجْرَاهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، آيَةً لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَضَافَ النَّصُّ الَّذِي فِي سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ) وَالنَّصُّ الَّذِي فِي سُورَةِ (طه) مَا دَلَّ عَلَى أَنَّ سُجُودَ السَّحَرَةِ قَدْ كَانَ عَقِبَ ابْتِلَاعِ آيَةِ مُوسَى الرَّبَّانِيَّةِ أَدَوَاتِ سِحْرِهِمْ مُبَاشَرَةً، بِدَلِيلِ الْفَاءِ فِي النَّصِّينِ :

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِيدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الشعراء).

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا. ﴿٧١﴾﴾ (طه).

مع ما في هَذَيْنِ النَّصِّينِ اللَّذَيْنِ مِنْ سُورَةِ (طه) وَمِنْ سُورَةِ (الشعراء) مِنْ تَفَنُّنٍ فِي التَّعْبِيرِ لِمَلَأَمَةِ رُؤُوسِ الْآيِ فِي كُلِّ مِنْهُمَا.

• فِي سُورَةِ (طه): ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾﴾.

• وَفِي سُورَةِ (الشعراء): ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وَفِي هَذَا النَّصِّ إِضَافَةُ عِبَارَةٍ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَيُظْهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ أَضَافُوهَا حِينَمَا كَرَّرُوا إِعْلَانِ إِيمَانِهِمْ، بَعْدَ أَنْ هَدَّأَتْ نَفُوسَهُمْ مِنْ هَوْلِ الْمَفْجَأَةِ، وَأَذَرَكُوا أَنَّ رَبَّ هَارُونَ وَمُوسَى، هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً، وَالْمُرَادُ بِالْعَالَمِينَ هُنَا كُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

أَمَّا النَّصُّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (يُونُس) فَقَدْ طَوَى ذِكْرَ كُلِّ الْأَخْدَاتِ بَدَأَ مِنْ إِلْقَاءِ مُوسَى عَصَاهُ، وَانْتَقَلَ إِلَى بَيَانِ أَنَّهُ مَا آمَنَ بِمُوسَى بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ضَمَّنَ الْمَنْهَجَ الْقُرْآنِي فِي التَّكَامُلِ بَيْنَ النُّصُوصِ حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ.



قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي (الأعراف) الَّتِي نَتَدَبَّرُهَا:

• ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَادَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي

الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٢﴾ لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافِ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمُعًا ﴿١٢٣﴾﴾.

وقول الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۖ﴾ (٧١)

وقول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ۖ﴾ (٤٩)

هذه النصوص الثلاثة تُعَبِّرُ عَنْ ثَلَاثَةِ مَوَاقِفَ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ، وهي مواقف مُحَاسَبَةٍ وَتَقْرِيرِ عِقَابٍ.

لَمَّا رَأَى فِرْعَوْنُ مَبَادِرَةَ السَّحَرَةِ بِإِعْلَانِهِمْ إِيْمَانَهُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ، عَقِبَ انتصارِ مُوسَى بِالْآيَةِ الْمُعْجِزَةِ الَّتِي آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، غَضَبَ غَضَبًا شَدِيدًا، إِذْ كَانَ إِعْلَانُ إِيْمَانِهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ إِعْلَانًا مِنْهُمْ أَنَّ مُوسَى انْتَصَرَ عَلَى سَيِّدِهِمْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَانْتَصَرَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ عَلَى مِلَّتِهِمْ وَطَرِيقَتِهِمُ الْبَاطِلَةِ، فَأَعْلَنَ إِتِهَامَهُمْ بِالتَّأْمُرِ مَعَ مُوسَى، لَتَنْفِيزِ مُحْطَطٍ تَمْلِكُ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ حُكْمَ مِصْرَ، وَإِخْرَاجِ الْأَسْرَةِ الْمَالِكَةِ وَسَائِرِ الْقَبْطِ مِنْهَا، وَتَوَعَّدَهُمْ بِأَنْ يَقْطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خَلْفٍ وَيَأْنُ يُصْلَبَهُمْ أَجْمَعِينَ.

لَقَدْ أَرَادَ بِهَذَا الْإِعْلَانِ أَنْ يُعْطِيَ هَزِيمَتَهُ الْحَقِيقِيَّةَ، بِأَنَّهَا لَيْسَتْ انتصاراً لِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَى سِحْرِ السَّحَرَةِ، بَلْ هِيَ مُؤَامَرَةٌ مُدْبَرَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُوسَى.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ﴾ : أَي: قَالَ فِرْعَوْنُ حِينَ اشْتَدَّ غَضَبُهُ مِنْ إِعْلَانِ سَحَرَتِهِ إِيْمَانَهُمْ بِنُبُوَّةِ مُوسَى وَرِسَالَتِهِ: ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ﴾ ؟ : أَي: أَلَمْ تَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ بِذَلِكَ، كَيْفَ تَفْعَلُونَ هَذَا وَتَعْصُونَنِي؟! اسْتَفْهَامُ انْكَارِيٍّ يُشْنَعُ بِهِ عَلَيْهِمْ، إِذْ يَغْتَبِرُهُمْ مِنَ الْمَجْرَمِينَ الْكِبَارِ بِذَلِكَ.

والمعنى: كَيْفَ آمَنْتُمْ بِبُيُوتِ مُوسَى وَبِرِسَالَتِهِ، وبدعوته، قبل أَنْ آدَنَ لَكُمْ بِأَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ، والقانونُ الفرعونيُّ يَمْنَعُ مِنَ الْإِيمَانِ بِعَقِيدَةٍ تُخَالِفُ الدِّينَ الْعَامَّ الْمَسْمُوحَ بِهِ قَانُونًا، وَالَّذِي يَجْعَلُ فِرْعَوْنَ هُوَ الْإِلَهَ الْمَعْبُودَ فِي مِصْرَ، دَلٌّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَتُّهَا الْمَلَائِكَةُ لَعَلَّيُنَالِي مَا كُنْتُ لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرِي...﴾ (٣٨)

وفي جَلَسَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ قَالَ لَهُمْ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَتِي (الشُّعْرَاءِ) و(طه):

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لِي؟﴾: أَيِ آمَنْتُمْ بِهِ مُسْلِمِينَ لَهُ، عَلَى طَرِيقَةِ التَّضْمِينِ ﴿قَبْلَ أَنْ ءَادَنَ لَكُمْ؟﴾ وهو أَيْضًا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ تَشْنِيعِيٌّ، يُشْنَعُ بِهِ عَلَيْهِمُ ارْتِكَابُهُمُ الْجَرِيمَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهَا أَشَدَّ الْعِقَابِ حَتَّى الْمَوْتِ.

وفي الجلسة الأولى التي جَاءَ بَيَانُهَا فِي سُورَةِ (الأعراف) أَتَاهُمُ بِالتَّأَمَّرِ مَعَ مُوسَى فِي الْمَدِينَةِ قَبْلَ حُضُورِ الْمُبَارَاةِ لِإِسْقَاطِ الْحُكْمِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَتَسْلِيمِ السُّلْطَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ فِيهَا:

﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنَهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٤)

المكر: تدبير أمرٍ في خفاء. ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾: أَيِ قَبْلَ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَكَانِ الْمَخْتَارِ لِلْمُبَارَاةِ.

﴿فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ﴾: تَهْدِيدٌ مِنْ فِرْعَوْنَ لَهُمْ بِمَا سَوْفَ يُنْزِلُهُ بِهِمْ مِنْ عِقَابٍ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَعْجِلٍ لِانْزَالِ الْعِقَابِ الشَّدِيدِ بِهِمْ، بِدَلِيلِ اسْتِعْمَالِ حَرْفِ التَّسْوِيفِ «سَوْفَ».

وَالْوَعِيدِ الَّذِي أَعْلَنَهُ فِرْعَوْنَ هُوَ «قَطْعُ أَيْدِي السَّحَرَةِ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ

خَلَّافٌ» وهذا الوعيد مقرونٌ بِقَسَمٍ مَثْوِيٍّ، وجاءت اللَّامُ ونون التوكيد الثقيلة دليلاً عليه، كما قال الخليل.

﴿مِنْ خَلْفٍ﴾: أي: إذا قطع اليد اليمْنَى قطعَ معها الرجل اليسرى، وإذا قطعَ اليَدَ اليسرى قطعَ معها الرجل اليمنى.

﴿ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أي: وبعْدَ مُدَّةٍ أَدْعُكُمْ تَتَعَذَّبُونَ فيها بَقَطْعِ الأيدي والأزجل من خلاف أَقْسَمُ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ في مكانٍ واحدٍ وَوَقْتُ واحدٍ، لتكونوا عِبْرَةً لِمَنْ يَغْتَبِرُ.

الصُّلْبُ: شَدُّ أطراف الجِسْمِ وتَغْلِيْقُهُ على خَشَبَةٍ قائِمة، أو على جِذْعِ شجرة ذاتِ ساقٍ مُرْتَفَعَةٍ كالنخلة وشجر السَّرو.

الجِذْعُ: ساق الشجرة، وهو ما بَيْنَ جَذْرِها وَمَا تَفَرَّعَ من فورعها.

وفي الجِلْسَتَيْنِ الآخرَتَيْنِ اتَّهَمَهُمُ بأنَّهُنَّ تلاميذُ مُوسَى، فهو كبيرهم الَّذي عَلَّمَهُمُ السَّحْرَ.

وفي الجلسة الثالثة التي جاء بيائها في سورة (طه) أَبَانَ لَهُمْ أَنَّ صَلْبَهُمْ سَيَكُونُ في جُذُوعِ النَّخْلِ، إِذْ يَجْعَلُ المسامير الطَّوَالَ تُضْرَبُ في أطرافِهِمْ وَتُثَبَّتُ دَاخِلَ جُذُوعِ النَّخْلِ، حَتَّى يَمُوتُوا وَهُمْ مَصلُوبُونَ، يَذوقون عَذَابَ آلامِ أَجْسَامِهِمْ، وعذابِ التَّشْهِيرِ بهم، إِذْ يُشَاهِدُهُمُ القاصِدُونَ، والمارُّونَ إلى جانبِ مجمعِ نخيلِ الصُّلْبِ.

وَأَبَانَ لَهُمْ أَيْضاً أَنَّهُمْ لَيَعْلَمَنَّ حِينَئِذٍ أَنَّ عَذَابَهُ أَشَدُّ وَأَبْقَى من عذابِ إلهِ مُوسَى الَّذي خافوا منه فامْتَنُوا بِمُوسَى، وَأَسْلَمُوا لَهُ، وَاتَّبَعُوا دينه، فقال لَهُمْ: ﴿... وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (٧١).

وهكذا جاء في النصوص توزيعٌ للمعاني المراد بيائها، حَتَّى تتكاملَ الدَّلَالَاتُ فيما بَيْنَها، بطريقةٍ إعجازيةٍ عَجِيبَةٍ وتُوجَدُ دَقَائِقُ أُخْرَى يَكْشِفُهَا التَّدَبُّرُ المتأنِّي.

رَدُّ السَّحَرَةِ عَلَى اتِّهَامَاتِ فِرْعَوْنَ لَهُمْ وَوَعِيدِهِ

(١) جاء في سورة «الأعراف» التي نتدبرها قول الله عز وجل بشأن رَدِّهِمْ:

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِمَا كُنَّا نَكْفُرُ بِمَا كُنَّا نَكْفُرُ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنْكَ﴾: أي: وما تعيب علينا، وتُبغض منا، وتريد مُعاقبتنا عليه. يقال لغة: «نَقَمَ يَنْقِمُ» و«نَقِمَ يَنْقِمُ» أي: عَابَ وَأَبْغَضَ وعَاقَبَ.

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾: أي: رَبَّنَا املأ لَنَا مِكْيَالًا مِنَ الصَّبْرِ بِمَقْدَارِ مَا نَحْتَاجُ لِتَحْمُلِ الْعَذَابِ، وَأَفْرِغْ كُلَّهُ عَلَيْنَا، حَتَّى لَا نَتَشَكَّى، وَلَا نَتَذَمَّرَ، وَلَا نَتَرَجَعَ عَنْ مَوْقِفِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ الَّذِي هَدَيْتَنَا إِلَيْهِ.

(٢) وجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن ردهم أيضاً:

﴿قَالُوا لَا صَبْرٌ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿لَا صَبْرٌ﴾: أي: لَا يُؤْتَرُ عَلَيْنَا تَغْذِيكَ لَنَا بِمَا يَضِيرُنَا. يُقَالُ لغة: ضَارَهُ يَضِيرُهُ ضَيْرًا، أي: أَضْرَبَهُ.

﴿مُنْقَلِبُونَ﴾: أي: رَاجِعُونَ.

﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: لِأَجْلِ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِمُوسَى وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

(٣) وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بشأن ردهم أيضاً:

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾: أي: لَنْ نُفْضَلَكَ.

﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾: أي: لَنْ نُفْضَلَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ الْإِعْجَازِيَّةِ وَالْبَيَانِيَّةِ الْمُبَيِّنَاتِ لِلْحَقِّ، وَلَنْ نُفْضَلَكَ عَلَىٰ رَبِّنَا الَّذِي فَطَرَنَا.

﴿فَطَرْنَا﴾: أي: أَوْجَدْنَا وَخَلَقْنَا عَلَىٰ نِظَامِ الْفَطْرِ، بعد أن لم نكن شيئاً مذكوراً. الْفَطْرُ: الشُّؤ. وخلق الله عز وجل قائم على نظام الْفَطْرِ وَالْفَلْقِ، لَأَن نُّقْطَةَ الْعُمُقِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ هِيَ الْعَدَمُ، فالله هو الموجدُ من العدم، جلَّ جلالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ.

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: أي: فَاْمُضِ مَا أَنْتَ مُمَضِّيهِ مِنْ أَحْكَامِكَ الْإِنْتِقَامِيَّةِ، فَإِنَّمَا مُسْتَعِدُّونَ لِتَحْمِلِ تَعْذِيبِكَ لَنَا بِصَبْرٍ. إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ أَكْثَرَ مِنْ تَعْذِيبٍ تُنْهِي بِهِ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَهِيَ مُنْتَهِيَةٌ لَا مَحَالَةَ فِي آجَالِنَا.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾

أي: إِنَّمَا آمَنَّا بِرَبِّنَا، فَلَا تَطْمَعُ فِي أَنْ نَرْجِعَ إِلَىٰ مِلَّتِكَ وَطَرِيقَتِكَ، مَهْمَا تَوَعَّدْتَنَا بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَإِنَّمَا وَاقِفُونَ مِنْ أَنْ إِيمَانُنَا سَبَبٌ يَغْفِرُ بِهِ رَبُّنَا خَطَايَانَا، فَالْإِيمَانُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، وَيَغْفِرُ بِهِ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ فِي الْمُبَارَاةِ الَّتِي عَقَدْتَهَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ نَبِيِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾: أي: وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ وَمِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَفَضْلُهُ وَعَطَاؤُهُ أَبْقَىٰ، أي: لِأَنَّهُ الْحَيُّ الْبَاقِي الْأَزَلِيُّ الْأَبَدِيُّ الْقَيُّومُ.



هذه النصوص الثلاثة تُعَبِّرُ عَنْ مَوَاقِفَ ثَلَاثَةِ وَاجِهٍ بِهَا السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ، فِي مَقَابِلِ مَوَاقِفَ ثَلَاثَةِ وَجْهٍ فِيهَا فِرْعَوْنُ لَهُمُ التَّشْرِيبُ وَالتَّعْنِيفُ وَالتَّجْرِيمُ، وَالْوَعِيدُ بِمُعَاقِبَتِهِمْ عِقَاباً أَلِيماً حَتَّى الْمَوْتِ.

ويظهر أنَّ فرعون كان حريصاً على أن لا يخسر سحرته، على شرط أن يعودوا إلى ملته وطريقته، ويكونوا بالسحر قوةً لسلطانه، تدعم في نفوس جماهير العامة من شعب مصر قواته العسكرية.

ولهذا كان يُنهلهم، ويُراوضهم ويُراجعهم بالوعيد، ويُشدّد فيه مرّة بعد مرّة، عسى أن يراجعوا أنفسهم، ويكفروا بموسى وهارون، وبما جاء به عن الله، ويجدّدوا ولأهم للبلأط الفرعوني.

ويظهر أنهم بدّوا بالتلمذة الدينية على موسى وهارون، حتّى صارت ألسنتهم في مواجهة فرعون ألسنة دُعاة إلى الإيمان بالله وبينوم الدين، وإلى الإسلام لله بالعمل الصالح، على ما جاء به موسى عن ربه.

● ويظهر أن أوّل ردودهم على فرعون هو ما جاء بيانه في سورة (الأعراف) فقد ردّوا فيه على وعيد فرعون لهم بعبارات إيمان، وتبرؤٍ ممّا يوجب عقابهم قانوناً، ودُعاءً لربهم أن يصبرهم ويتوفاهم مسلمين.

قالوا له: إذا قتلنا بأية وسيلة فإننا راجعون إلى ربنا، الذي سوف يُثبنا على أننا قُتلنا من أجله، فنحن شهداء في سبيله، على أننا في كلّ الأحوال سنرجع إليه، إذ يبعثنا بعد الموت إلى يوم الدين، يوم الحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

وقالوا له: إنك ما تُعاقبنا إذا فعلت ما توعدتنا به إلا على أمرٍ لا يستحق في قواعد العدل والجزاء العقاب، إنك تريد أن تُعاقبنا لأننا آمنّا بآيات ربنا الإعجازية والبيانية لما جاءتنا، والآيات البيانية قد بلغنا إيّاها رسول أيده ربنا بمُعجزة باهرة حقيقة، ليست من قبيل السحر الذي نصنعه ونخدع به أغين الناس.

ودعوا ربهم أمام فرعون بأن يُفرغ عليهم مكيالاً من الصبر بقدر حاجتهم، حتّى يتحمّلوا ما توعدهم به فرعون من عذاب وقتل، وبأن يتوفاهم مسلمين.

وغرضهم من إعلان هذا الدعاء إغلاَنُ ثباتهم على إيمانهم، وعدم تأثرهم بالعقاب الذي توعدّهم به فزعون، وأنهم سيَتَلَقَّون عقابه لهم بالصبر، وأنهم يسألون ربهم أن يتوفاهم مسلمين، أي: مؤمنين مسلمين، لأنَّ الإسلام الحقيقي عند الله، لا بُدَّ أن يكون مبنياً على قاعِدة الإيمان الصحيح.

● أمّا ثاني رُدودهم على مواقف الوعيد التي وجَّهها فزعون لهم، فيُظهِرُ أَنَّهُ الرُّدُّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول).

فَبَعْدَ أَنْ سَمِعُوا تَأْكِيدَ وَعِيدِهِ لَهُمْ بِتَقْطِيعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافٍ، وَجَعَلِهِمْ مُصَلِّينَ يَمُوتُونَ صَبْرًا، رَدُّوا عَلَيْهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ اكْتِرَائِهِمْ لَهُ، وَعَلَى اسْتِعْدَادِهِمْ لِتَحْمِلِ تَغْذِيهِ بِصَبْرٍ، إِذْ هُوَ هَيِّنٌ بِجَانِبِ مَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَنَالُوهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مَغْفِرَةٍ وَكَرَامَةٍ وَأَجْرٍ عَظِيمٍ، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا أَوَّلَ مَنْ آمَنَ مِنَ الْمَضْرِيِّينَ بِدَعْوَةِ الرُّسُولَيْنِ مُوسَى وَهَارُونَ.

● وأمّا ثالث رُدودهم على مواقف الوعيد التي وجَّهها فزعون لهم، فيُظهِرُ أَنَّهُ الرُّدُّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

إِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا تَوَعَّدَهُمْ بِقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافٍ، وَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۖ﴾ (٧١) رَدُّوا عَلَيْهِ بِجُرْأَةِ الصَّامِدِينَ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ، دُونَ اكْتِرَائِ لَوَعِيدِهِ، وَلَا تَرَاجُعٍ عَنِ الْمَوْقِفِ الْإِيمَانِيِّ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي سَبَقَ أَنْ وَاجَّهُوه بِهِ.

لَقَدْ أَيَّاسُوهُ مِنْ أَنْ يُؤْثَرَ عَلَيْهِمْ بِوَعِيدِهِ الشَّدِيدِ لَهُمْ، فَقَالُوا لَهُ: لَنْ نُؤْثَرَ بِأَطْلَکَ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي جَاءَنَا مِنْ رَبِّنَا، وَلَنْ نُؤْثَرَكَ عَلَى رَبِّنَا الَّذِي فَطَرَنَا، فَلَا تَطْمَعُ بِتَهْدِيدَاتِكَ، وَوَعِيدِكَ لَنَا، فِي أَنْ نَتَرَاجَعَ عَنْ مَوْقِفِنَا، فَأَمْضِ مَا أَنْتَ مُمَضِّيه مِنْ أَوَامِرٍ يُتَفَقَّدُهَا جُنُودُكَ، وَلَا تُفَاوِضْنَا بِشَأْنِ إِيْمَانِنَا وَإِسْلَامِنَا، إِنَّ غَايَةَ مَا تُمَضِّيه بوسائلِكَ، أَنْ تُنْهِيَ مِنْ دَوَاتِنَا هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا الَّتِي

نَعِيشُهَا، وَأَنْ تَكُونَ سَبَبًا فِي مَوْتِنَا، وَنَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ لَتَحْمِلِ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاةِ رَبِّنَا.

وسكت البيان القرآني عن مصير هؤلاء السحرة، ويظهر أن فرعون قد
نُفِّذَ فِيهِمْ وَعِيدَهُ.



الفقرة الثانية

الآيات من (١٢٧ - ١٣٧)

تَمْزُدُ فِرْعَوْنَ وَمُلْتَهُ وَعَنَادَهُمْ وَاسْتِكْبَارَهُمْ حَتَّىٰ إِغْرَقَهُم

قال الله عز وجل:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَالْهَيْكَلُ قَالَ سَتَقْبَلُونَ أَتْنَاهُمْ لِنُسَخِّيهِمْ إِنَّهُمْ قَوْمُكَ يَهُودُكَ ۖ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا
جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ۝١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ
يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَلَيْهِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
۝١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا
مُجْرِمِينَ ۝١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَىٰ اادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ
لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝١٣٤﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ۝١٣٥﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ

الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَمُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّتِي بَلَغْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٢٧﴾ .

القراءات:

(١٢٧) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر: [سَنَقُتْلُ] من الفعل غير المضغف.

وقرأ باقي القراء العشرة: [سَنَقُتْلُ] من الفعل المضغف.
وبين القراءتين تكاملاً في أداء المعنى المراد، فالظاهر أن فِرْعَوْنَ قَالَ أَوْلَا قَبْلَ أَنْ تَشْتَدَّ ثَوْرَةُ غَضَبِهِ: [سَنَقُتْلُ] من غير تشديد.
ثُمَّ لَمَّا اشْتَدَّ غَضَبُهُ قَالَ: [سَنَقُتْلُ] بالتشديد، أي: سَنَقُتْلُ أَبْنَاءَهُمْ بِشِدَّةٍ وَعُتْفٍ وَقَسْوَةٍ.

(١٣٣) و(١٣٤) • في لفظ [عَلَيْهِمْ] في الآيتين ثلاث قراءات:

قرأ أبو عمرو: بِكَسْرِ الهاء والميم. وقرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب وخلف: بِضَمِّ الهاء والميم. وقرأ باقي القراء العشرة: بِكَسْرِ الهاء وضم الميم.

وهي وجوه عَرَبِيَّةٌ فِي النُّطْقِ.

(١٣٧) • قرأ ابن عامر، وشعبة: [يَغْرِشُونَ] بِضَمِّ الرَّاءِ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَغْرِشُونَ] بِكَسْرِ الرَّاءِ.

وهما وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ لِنُطْقِ الْكَلِمَةِ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرْتُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ

وَاللَّهْتُكَ قَالَ سَنُقِيلُ آثَاءَهُمْ وَنَسَخْنَاهُمْ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٧٧﴾ :

تمهيد :

بعد خيبة فرعون وملئه في المباراة التي أجروها بين موسى عليه السلام، وصفوة السحرة الذين حشروهم من مدائن مصر كلها، إذ انقلبت المباراة ضد السُلْطَةِ الفرعونية، وآمن وأسلم السحرة الذين جاءوا بهم، وكانت المباراة لمصلحة دغوة موسى، وانتصاراً لها أمام الحشود الغفيرة من القبط.

عندئذ لم يبقَ أمام الجبهة الفرعونية إلا أن يَمْعُوا دغوة موسى وأخيه هارون عليهما السلام بالقوة، وأن يَزِيدُوا اضطهاد بني إسرائيل باستخدام الأسلحة العسكرية، وبما لَدِينَهُمْ من جُنُودٍ يَتَّقُونَ أَوْمِرَهُم بِالطَّاعَةِ الْعَمِيَاءِ، وهذا ما دَلَّت عليه هذه الآية :

وَيَرِدُ هنا سؤال : ما الداعي لأن يُحَرِّضَ الملأ من قوم فرعون، سَيِّدَهُمْ ومليكَهُم على التخلص من موسى وهارون، وعلى قَمْعِ قَوْمِهِ بني إسرائيل واضطهادهم، أكثر ممَّا هُمْ فيه من اضطهادٍ وتسخير، مَعَ أن فرعونَ مَلِكٌ طاعيةٌ مستبِدٌّ جبارٌ، لا يتساهل مع خصومه، ولا مَعَ من يَرَاهُمْ يَتَّزِعُونَ سُلْطَانَهُ وجبروته؟! :

ويمكن أن نجيب بأن آية عصا موسى قَدْ خَلَعَتْ قلبه، وجعلته شديد الحذر من أن يَمَسَّ موسى عليه السلام بسوءٍ، فيُسَلِّطَ عليه العصا التي تنقلب ثُغْبَاناً فتبتليعه، ولا سيما بعد أن ابتلع هذا الثُغْبَانُ حبالَ سحرته وعصيئهم وجميع أدواتهم السحرية، فجعل يطاول ويأخذ الأمر بالحكمة والرؤية.

إن فرعونَ لَمْ يَشَأْ أن يتابع موسى، فيؤمن به ويُسلم له، خوفاً من أن

يَخْسَرَ بِذَلِكَ سُلْطَانَهُ وَجَبْرُوتَهُ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَسْتَشِيرَهُ الْغَضَبُ فَيَتَعَرَّضَ لِمُوسَى بِسُوءٍ فَيَخْسَرَ بِذَلِكَ سُلْطَانَهُ وَحَيَاتَهُ أَيْضاً، إِذْ أَدْرَكَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى شَيْءٌ هُوَ فَوْقَ قُدْرَاتِ النَّاسِ، وَيَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ فِرْعَوْنَ أَدْرَكَ أَنَّ مُوسَى عَلَى حَقٍّ، وَلَكِنْ صَعَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وَيُغْلِبَ إِسْلَامَهُ لَهُ.

فَلَمَّا طَالَ تَرْيُّهُ دُونَ أَنْ يُضْدِرَ أَوَامِرَهُ الْقِمَيعِيَّةَ الْمَعْتَادَةَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ مَنْ تَبَدَّرَ مِنْهُمْ بَوَادِرُ الْخُرُوجِ عَلَى طَاعَتِهِ وَنِظَامِ مُلْكِهِ، وَأَخَذَ مُوسَى يَنْشُرُ دَعْوَتَهُ مَعَ أَخِيهِ هَارُونَ، وَبَدَأَ بَعْضَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ يَغْتَرِّزُونَ بِمُوسَى وَهَارُونَ، وَيَفَاجِرُونَ بِدِينِهِمْ وَدِينِ آبَائِهِمْ، وَيَدْعُونَ الْقَبْطَ لَاعْتِنَاقِهِ، لَكِنَّ الْمَصْرِيِّينَ كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ سَطْوَةِ فِرْعَوْنَ وَبَطْشِهِ، إِذَا هَجَرُوا دِينَهُ، وَاعْتَنَقُوا الدِّينَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ مُوسَى وَهَارُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ الدُّعَاةَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

لَمَّا حَصَلَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ وَخَافَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْ يَنْتَشِرَ فِي مِصْرَ الدِّينَ الْجَدِيدِ، وَيَقْوَى الْإِسْرَائِيلِيُّونَ عَلَى الْقَبْطِ، أَهْلُ مِصْرَ الْأَصْلِيِّينَ، فَيَسْقُطُوا الْحُكْمَ الْفِرْعَوْنِيَّ، وَكُلَّ أَنْصَارِهِ الْمُسْتَفِيدِينَ مِنْهُ، وَقَدْ اعْتَبَرُوا هَذَا إِفْسَاداً فِي الْأَرْضِ، وَلَمْ يَكُنْ لَدِينِهِمُ الْحَذَرُ الَّذِي أُلْجِمَ فِرْعَوْنَ عَنْ أَنَّ يُمَارِسَ جَبْرُوتَهُ الْمَعْرُوفَ، عِنْدَئِذٍ أَخَذُوا يَحْرِضُونَ فِرْعَوْنَ عَلَى قَمْعِ مُوسَى وَقَوْمِهِ.

التدبر:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ؟﴾!

استفهامٌ فيه معنى التعجب من أناة فِرْعَوْنَ وَتَرْيُّهِ، وَمُطَاوَلَتِهِ لِمُوسَى وَهَارُونَ عَلَى خِلَافِ عَادَتِهِ، مِنْ انتقامه الشديد من مخالفِي طريقتِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَفِيهِ مَعْنَى التَّحْرِيزِ عَلَى أَنْ يَسْتَخْدِمَ وَسِيلَةَ الْعَنْفِ وَالْبَطْشِ، قَبْلَ أَنْ يَسْتَفْجِلَ الْأَمْرَ، وَيُقْلِتَ الزَّمَامَ مِنْ أَيْدِيهِمْ.

لقد رَأَوْا أَنَّ انْطِلَاقَ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ، وَمَعَهُمَا قِسْمٌ مِنْ
بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَدْعُونَ إِلَى الدِّينِ الْمَخَالَفِ لِلَّذِينَ الَّذِينَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَأُوهُ
وَقَوْمُهُ هُوَ مِنَ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَقَالُوا لِسَيِّدِهِمْ فِرْعَوْنُ:
﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ؟﴾ أَتَذَرُ: أَتُتْرَكُ.

أي: أَتُتْرَكُ مُوسَى وَقَوْمُهُ يَعْمَلُونَ بِحُرِّيَّةٍ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِهِمْ، حَتَّى
يُشَوِّشُوا أَفْكَارَ النَّاسِ، وَيَجْعَلُوهُمْ شَيْعَاءَ وَأَحْزَابًا، وَيُفْسِدُوا وَخَدَتَهُمُ الْفِكْرِيَّةُ
وَالْإِعْتِقَادِيَّةُ الْمُؤْتَلِفَةُ عَلَى عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ، وَعَلَى جَعْلِكَ فِي مِصْرَ أَنْتَ الْإِلَهَ
وَالرَّبُّ الْأَعْلَى، إِذْ حَلَّتْ فِيكَ رُوحُ الرَّبِّ الْأَعْلَى بِاعْتِبَارِكَ مِنْ سُلَالَتِهِ، إِنَّ
هَذَا إِفْسَادٌ فِي الْأَرْضِ لَا يُحْتَمَلُ، فَمِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُسْقِطَ نِظَامَ الدَّوْلَةِ
الْفِرْعَوْنِيَّةَ، وَيَسْلُبَنَا سُلْطَانَنَا وَأَمْلَاكَنَا فِي أَرْضِ مِصْرَ.

اللام فِي ﴿لِيُفْسِدُوا﴾: هِيَ لَامُ الْعَاقِبَةِ، أَي: حَتَّى تَكُونَ عَاقِبَةُ
أَمْرِهِمُ الْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ.

﴿وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ﴾: أَي: وَلِيُنْبِذَكَ مُوسَى مَعَ آلِهَتِكَ مَغْزُولِينَ، فَلَا
تَجِدُونَ مُطِيعِينَ عَابِدِينَ لَكُمْ، وَلَا أَنْصَارًا يَنْصُرُونَكُمْ.

وَسَيَأْتِي قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَعْضُ بَيَانٍ عَنْ مُعْتَقَدَاتِ الْفِرَاعِيَّةِ فِي الْآلِهَةِ،
وَعَنْ تَطَوُّرِ هَذِهِ الْمَعْتَقَدَاتِ كَمَا ذَكَرَ مُؤَرِّخُو مُعْتَقَدَاتِهِمْ، وَهُمْ بِوَجْهِ عَامٍّ
يَرَوْنَ أَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْعَظِيمُ الْمُطَاعَ، الَّذِي تَجِبُ طَاعَتُهُ وَالْخُضُوعُ لَهُ فِي
حُدُودِ إِلَهِيَّتِهِ، وَلَهُ حَقُّ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالتَّصَرُّفِ ضِمْنَ دَائِرَتِهَا.

مَادَّةُ «يَذَرُ» فِيهَا مَعْنَى التَّرِكَ وَالْإِهْمَالِ، وَقَدْ تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى التَّنْبِذِ
وَالْإِبْعَادِ، كَوَذَرَةِ اللَّحْمِ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي يَقْطَعُهَا الْجَزَارُ وَيُنْبِذُهَا
كَرَاهِيَةً لَهَا.

هَذَا الْقَوْلُ التَّحْرِيزِيُّ مِنْ مَلَأَ قَوْمٌ فِرْعَوْنَ اسْتَحْتَهُ عَلَى أَنْ يُضَدِّرَ أَمْرًا
بِالنَّسْبَةِ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، دُونَ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ، فَقَالَ لَمَّا
اسْتُشِيرَ غَضَبُهُ:

﴿سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَسَتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾ :

بَعْدَ أَنْ قَالَ: [سَنَقُولُ...] مِنْ غَيْرِ تَشْدِيدٍ.

ويظهر أنه عُرِضَ عَلَى فِرْعَوْنَ اقْتِرَاحُ تَغْدِيلِيٍّ، بِالِاقْتِصَارِ عَلَى قَتْلِ أَبْنَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَ مُوسَى، وَاسْتِثْنَاءِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَصْدَرَ أَمْرَهُ بِذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (غَافِرٍ/ ٤٠) مِصْحَفٍ/ ٦٠ (نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ وَقَرُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أَمَّا الْأَمْرُ بِقَتْلِ الْمَوَالِدِ الذَّكُورِ، فَالْغَايَةُ مِنْهُ إِيْقَافُ الْقُدْرَاتِ الْقِتَالِيَّةِ عَنِ التَّكَاثُرِ لَدَى مَنْ يُؤْمِنُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَقَدْ كَانَ هَذَا إِجْرَاءً مَعْرُوفاً لَدَى الْفِرَاعِنَةِ، لِإِيْقَافِ تَكَاثُرِ الْأَقْلِيَّاتِ غَيْرِ الْقِبْطِيَّةِ. وَلَوْلَا عَنَايَةُ اللَّهِ لَقَتَلَ مُوسَى مَعَ مَنْ قَتَلَ مِنْ مَوَالِدِ بَنِي إِسْرَائِيلِ الذَّكُورِ أَيَّامَ مِيلَادِهِ.

وَأَمَّا الْأَمْرُ بِاسْتِيقَاءِ الْمَوَالِدِ الْإِنَاثِ أَحْيَاءَ مِنْهُمْ، فَالْغَايَةُ مِنْهُ اتِّخَاذُهُنَّ مَتًى كَبِيرَ مَسْخَرَاتٍ فِي الْخِدْمَةِ وَالِاسْتِمْتَاعِ، إِذْ لَسَنَ مُؤَهَّلَاتٍ لِتَكْوِينِ جَيْشٍ يُقَاتِلُ جُنُودَ السُّلْطَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ.

وَقَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾ يَتَضَمَّنُ تَهْوِيناً مِنْ أَمْرِ إِفْسَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَرْضِ.

أَي: لَا تَخَافُوا مِنْ إِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّا لَا نُمَكِّنُهُمْ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّا فَوْقَهُمْ قُوَّةً وَسُلْطَاناً، وَنَحْنُ قَاهِرُونَ لَهُمْ، نَسُوقُهُمْ بِالْقُوَى الْقَاهِرَةِ كَمَا نَشَاءُ، وَلَا نَدْعُ لَهُمْ إِمْكَانِيَّاتٍ عَمَلٍ وَتَحَرُّكٍ تَجْعَلُهُمْ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ.

الْقَهْرُ: الغلبة، يقال: «قَهَرُهُ يَفْهَرُهُ قَهْرًا» أي: غلبه، والقاهر، الغالب، ومبالغة القهار، ويقال أخذهم قهراً، أي: بالغلبة من غير رضاهم، ففي القهر معنى الجبر ضد الاختيار.

وبهذا الإجراء رأى فرعون أنه حلّ مُشْكِلَتُهُ حلاً يَضْمَنُ فيه سَلَامَتَهُ، وسَلَامَةَ نظام دولته.

عقيدة القبط في عهود الفراعنة:

أما عقيدة القبط في عهود الفراعنة، فقد كانت عقيدة شريكية، وكانت عقيدتهم بالرّب الأعلى عقيدة حُلُولِيَّة.

كانت لهم آلهة مُتَنَوِّعة مِنَ الكواكب ومن العناصر، وقد صَوَّرُوا لها صُوراً عَدِيدَةً مختلفة باختلاف العصور والأقطار.

وكانت العقيدة الرّسميّة عِنْدَ قُدَمَاءِ المِصْرِيِّين تَعْتَمِدُ على أُسْطُورَةِ عَرِيقَةٍ في القِدَم بالنسبة إليهم، وهذه الأسطورة الخرافية تزعم أن إله الإنبات والخضوبة، أو إله النيل، واسمُهُ: «أوزيريس» قد عَمِلَ على تأسيس مملكة إلهيّة، مِنْهُ ومن زَوْجَتِهِ الّتي هي أختُهُ، إلهة الحِكْمَةِ والتَّشْرِيعِ والسَّحَرِ، واسمُها: «إيزيس» ومن وزيرِهِ إله التَّدْبِيرِ والعِلْمِ، واسمُهُ: «توت» ومن غَيْرِهِم مِنَ الإلهة.

ثم ظهر أخو «أوزيريس» إلهاً للشَّرِّ والقَحْطِ، واسمُهُ: «سيت» وقام بين الأخوين الصِّراعُ، وَقَتَلَ إلهُ الشَّرِّ والقَحْطِ أخاه «أوزيريس» ثم قام الصِّراعُ بَيْنَ النِّعَمِ وابنِ أخيه الإله: «هوروس» وصار الإلهُ بَعْدَ ذَلِكَ ثَالِثاً مِنَ الأبِّ والأُمِّ والابنِ.

ثم نَشَأَتْ لَدَيْهِم عقيدةُ أَنَّ رُوحَ الإله: «هوروس» ذَاتُ ثَلَاثِ شُعَبٍ:

● شعبةٌ دُنْيَا تَحُلُّ في فِرْعَوْنَ الرُّمَّانِ.

● وَشُعْبَةً عَلَيْنَا تَخْكُمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .
 ● وَشُعْبَةً تَبْقَى فِي جَسَدٍ فِرْعَوْنَ الْمَيِّتِ، وَتَقُومُ بِالنُّصْحِ لِفِرْعَوْنَ الْحَيِّ، وَلَا تَبْقَى هَذِهِ الشُّعْبَةُ فِي فِرْعَوْنَ الْمَيِّتِ إِلَّا إِذَا بَقِيَ جِسْمُهُ مُتَمَاسِكًا .
 ثُمَّ صَارَ فِرْعَوْنُ فِي عَقِيدَتِهِمْ تَحُلُّ فِيهِ رُوحُ «رَغ» وَهُوَ كَبِيرُ الْإِلَهِةِ، ثُمَّ تَحَوَّلَتِ الْعَقِيدَةُ عِنْدَهُمْ مِنْ إِلَهٍ مُثَلَّثٍ، إِلَى إِلَهٍ ذِي تِسْعِ عَنَاصِرٍ، وَهِيَ: (الشمس - الهواء - الماء - الفراغ - الأرض - السماء - الأرض الخصبة - الصحراء - الأرض القاحلة).

وَقَدَّسُوا مَجْمُوعَةً مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فِي خُرَافَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ .
 وَكَانَتْ «الطَّوَاطِمُ» شَائِعَةً لَدَى قَبَائِلِهِمْ وَمُذُنِهِمْ، وَهِيَ فِي بَدَايَاتِهَا شَعَارَاتُ جَمَاعَاتِهِمْ، ثُمَّ صَارَتْ بَعْدَ أَزْمَانٍ مُقَدَّسَةً لَدَيْهِمْ .

وَيُظْهِرُ أَنَّ فِرْعَوْنَ مُوسَى كَانَ فِي مَرَحَلَةٍ اعْتِقَادِ الْمَصْرِيِّينَ حُلُولَ رُوحِ الْإِلَهِ الْأَعْلَى، أَوْ الرَّبِّ الْأَعْلَى فِي سَلَالَةِ الْفِرَاعِيَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ لَمَلِكِهِ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...﴾ (٢٨)

وَقَالَ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (النَّازِعَاتِ/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) بَعْدَ أَنْ حَسَرَ جَمَاهِيرُ الْمَصْرِيِّينَ:

﴿فَحَسَرَ فَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤)﴾



قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٧٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٧٩)﴾

علم موسى وهارون عليهما السلام وبَنُوا إِسْرَائِيلَ بِالْأَمْرِ الْفِرْعَوْنِي،
الَّذِي صَدَرَ بِقَتْلِ الْمَوَالِيدِ الذَّكَورِ لِلَّذِينَ آمَنُوا مَعَ مُوسَى مِنْهُمْ، وَبِاتِّخَاذِ
سِيَاسَةِ الْقَهْرِ ضِدَّ كُلِّ مَنْ يَتَحَرَّكُ مِنْهُمْ لِنَشْرِ دِينِ اللَّهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى فِي
مِضْرٍ، وَعَظَّمَ هَذَا الْأَمْرَ عَلَى مَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَوَجَّهَ لَهُمْ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصِيَّتَيْنِ، وَمَقُولَتَيْنِ أَبَانَ لَهُمْ بِهِمَا سُنَّتَيْنِ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادِهِ:

● أَمَّا الْوَصِيَّتَانِ فَهُمَا:

الوصية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾.

أي: اطلبُوا الْعَوْنَ مِنَ اللَّهِ رَبِّكُمْ فِي كُلِّ أَمْرٍ كُمْ، سواءً ما كان منها
لِصَرْفِ أَدَى عَدْوِكُمْ عَنْكُمْ، أَمْ مَا كَانَ مِنْهَا لَجَلْبِ الْمَنَافِعِ لَكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ
وَفِي آخِرَتِكُمْ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْمَمْدُ بِالْقُوَى الْمَسْخَرَةِ لِعِبَادِهِ، مَا كَانَ
مِنْهَا دَاخِلُ أَجْسَادِهِمْ وَنَفْسِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ مِنْهَا خَارِجُ
أَجْسَادِهِمْ، فَإِذَا شَاءَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ زَادَ فِي عَطَاءَاتِ الْإِمْدَادِ،
وَإِذَا شَاءَ نَقَصَ مِنْهَا، وَإِذَا شَاءَ سَلَبَهَا.

وقد تَعَلَّمَ النَّاسُ الْآنَ مِنْ قَانُونِ الطَّاقَةِ الْكَهْرَبَائِيَّةِ، أَنَّ بِالْإِمْكَانِ إِقَافَهَا
عَنْ مَجَارِيهَا فِي الْأَسْلَاكِ، فَتَقِفُ كُلُّ حَرَكَةٍ لِلْأَجْهَزَةِ الَّتِي تَعْمَلُ بِهَا، وَيُمْكِنُ
أَنْ نَفْهَمَ مِنْ هَذَا بِصُورَةٍ تَقْرِيبِيَّةٍ كَيْفَ يُمِدُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ ذِي طَاقَةٍ فِي
الْوُجُودِ بِالطَّاقَةِ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى.

والاستعانةُ بِاللَّهِ مِنَ التَّعْبِيرَاتِ الْإِيمَانِيَّةِ الْعَظْمَى، الَّتِي تَسْتَدِرُّ نَفَحَاتِ
عُظْفِ اللَّهِ وَخَنَائِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَإِمْدَادَاتِ عَطَاءَاتِهِ الْفَيْضِيَّةِ.

الوصية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَأَصْبِرُوا﴾.

لقد أَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، بِأَنْ
يَصْبِرُوا، لِأَنَّ الصَّبْرَ مَعَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالثِّقَةِ بِهِ، مِفْتَاحُ الْفَرَجِ، وَعُدَّةُ النَّصْرِ،

وقَاعِدَةُ التَّوْفِيقِ فِي الْأَعْمَالِ، وَمَرْكَبَةُ الظَّفَرِ بِالْغَايَاتِ، وَالْوُصُولُ إِلَى بَعِيدِ الْأَمَالِ.

وَلَا حِيلَةَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ إِلَّا الصَّبْرُ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ، يَتَوَلَّاهُمْ وَيَرْعَاهُمْ، وَيُؤَيِّدُهُمْ بِعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ وَنَصْرِهِ.

وَالصَّبْرُ أَحَدُ مَجَالِي الْامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَمَّا الْمَجَالُ الْآخَرُ فَهُوَ الشُّكْرُ. وَبَيْنَ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ تُبْتَلَى النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ، فَتَدُورُ عَلَى مِحْوَرَيْهِمَا دَوَالِبُ الْامْتِحَانِ وَدَوَائِرُهُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْمُتَحَرِّكَةُ مَعَ مَسِيرَةِ الزَّمَنِ.

● وَأَمَّا السُّنَّتَانِ الرَّبَّانِيَّتَانِ فَهُمَا:

السُّنَّةُ الْأُولَى: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾:

أَي: إِنَّ الْأَرْضَ كُلَّهَا هِيَ مِلْكٌ لِلَّهِ رَبِّهَا الَّذِي خَلَقَهَا، فَالْأَقَالِيمُ وَالْبُلْدَانُ، وَالْقِطْعُ مِنْهَا كَبُرَتْ أَمْ صَغُرَتْ هِيَ مِلْكٌ لَهُ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ يَهَبُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لِيَمْتَحِنَهُمْ بِامْتِلَاقِهَا مُوقِفًا صُورِيًّا، أَوْ بِالتَّسْلُطِ عَلَيْهَا، فَإِذَا أَفْسَدُوا فِيهَا وَانْتَهَى دَوْرُ امْتِحَانِهِمْ بِمَا وَهَبَهُمْ مِنْهَا، نَزَعَهَا مِنْهُمْ، أَوْ نَزَعَهُمْ مِنْهَا، وَجَعَلَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ مِيرَاثًا مِنْ فَضْلِهِ لِآخِرِينَ مِنْ عِبَادِهِ، لِيَنْلَوْهُمْ بِهَا أَيْضًا.

وَأَلَمَحَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعِبَارَتِهِ هَذِهِ إِلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ وَآلَهُ وَمَلَائِهِ وَجُنُودَهُمْ قَدْ طَعَوْا فِي أَرْضٍ مِصْرَ وَبَعَوْا، وَأَذَنْتْ أَيَّامُ امْتِلَاقِهِمْ لِأَرْضِ مِصْرَ بِالزَّوَالِ، بِمُقْتَضَى سُنَّةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، وَأَشْرَفَتْ دَوْلَتُهُمْ عَلَى الْإِنْهِيَارِ، فَإِذَا ضَرَبَهُمْ بِسَوْطِ عَذَابِهِ جَعَلَ أَرْضَ مِصْرَ مِنْ فَضْلِهِ مِيرَاثًا لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ.

السُّنَّةُ الثَّانِيَّةُ: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَالْعَنَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

أي: وَإِذَا قَامَ صِرَاعٌ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ مِنَ النَّاسِ، أَوْ بَعَى جَبَّارُونَ ظَالِمُونَ عَلَى مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ، فَالْعَاقِبَةُ فِي آخِرِ مُدَّةِ امْتِحَانِ اللَّهِ لِلْفَرِيقَيْنِ، سَتَكُونُ بِمُقْتَضَى سُنَّةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ لِلْمُتَّقِينَ، أي: لِمُصْلَحَةِ الْمُتَّقِينَ وَنُصْرِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَهِيَ إِذَا لَا تَكُونُ إِلَّا خَيْرًا لِلْمُتَّقِينَ.

الْمُتَّقُونَ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ، وَالْمُسْلِمُونَ لَهُ، الْمُجْتَهِدُونَ فِي الْعَمَلِ بِأَحْكَامِ دِينِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، الَّذِينَ يُؤَدُّونَ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَيَنْتَهُونَ عَمَّا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ.

وللتقوى دَرَجَاتٌ أَعْلَاهَا فِعْلُ كُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِفِعْلِهِ، وَتَرْكُ كُلِّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْ فِعْلِهِ. واذنَّهَا الْقِيَامُ بِمَا يَبْقَى مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ. وَلَكِنَّ الْعَاقِبَةَ الْحَسَنَةَ فِي الدُّنْيَا تَكُونُ لِلْمُرْتَقِينَ فِي دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى إِرْتِقَاءً يُقَرِّبُهُمْ مِنَ الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا فِيهَا، مَعَ الْاسْتِغْفَارِ عَنِ التَّقْصِيرَاتِ وَالْمُخَالَفَاتِ، وَالْعَزْمِ عَلَى الْإِتِّزَامِ بِكُلِّ حَقِّقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى. بعد هذا البيان الذي قَدَّمَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ الَّذِينَ آمَنُوا، قَالُوا له كما جاء في قول الله تعالى:

● ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾

من بديع الاختيار في بدائل الكلمات المترادفات، أن العبارة هُنَا جِيءَ فِيهَا: ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ لا «وَمِنْ بَعْدِ مَا أَتَيْتَنَا» فالمجيء والأتيان مترادفان، لكن التنويع هنا في البدائل أَعَذَّبَ فِي السَّمْعِ وَالْأُذُنِ فِي النُّطْقِ.

أي: آذَانَا فِرْعَوْنُ وَدَوْلَتُهُ وَقَوْمُهُ مِنَ الْقَبْطِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا نَبِيًّا رَسُولًا، فَكَانُوا فِي مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَنَا مِنَ الْمَوَالِيدِ، وَيُبْقُونَ مَوْلِدَاتِنَا مِنَ الْبَنَاتِ فَلَا يَقْتُلُونَهُنَّ، وَكَانُوا يَضْطَهِدُونَنَا، وَيَكْلَفُونَا الْأَعْمَالَ الشَّاقَّةَ، وَيَغْتَبِرُونَنَا بِمَثَابَةِ الْعَبِيدِ لَهُمْ. وَمَا زَالُوا بَعْدَ مَا جِئْتَنَا يُؤَدُّونَنَا، فَقَدْ صَدَرَ الْقَرَارُ الْفِرْعَوْنِيُّ بِتَقْتِيلِ الذَّكَورِ مِنْ مَوَالِيدِنَا، إِضَافَةً إِلَى إِيْذَانِهِمْ لَنَا بِالتَّسْخِيرِ وَالْإِضْطِهَادِ.

وتتضمن هذه الشكوى حث موسى عليه السلام على سؤال ربه أن يرفع عنهم ما هم يعانونه من الأذى، وهذا المعنى يفهم من لازم عبارة الشكوى.

الأذى: نوع من الضرر لا يصل إلى الدرجات السفلى منه.

فأجابهم موسى عليه السلام بما يطعمهم بأن المَرْجُو أن يتفضل الله عليهم بتحقيق أمرين:

الأمر الأول: أن يهلك عدوهم.

الأمر الثاني: أن يجعلهم خلفاء في الأرض لقوم هم الآن أهل الملك والسلطان فيها.

وأطلق موسى عليه السلام لفظ الأرض، ولم يعين أرض مضر، لأن الخطئة تقضي بأن يخرج بهم من مضر، ويدخلوا فلسطين مقاتلين، ليجعلهم الله فيها خلفاء ملوكها القائمين، ويؤسسوا فيها الدولة الدينية الربانية، فهي الأرض التي جعلها الله مقدسة، ووعد عباده المؤمنين الصادقين المتقين أن تكون لهم، ما داموا متحققين بشروط الاستخلاف فيها، فإذا أخذوا بشروط الاستخلاف نزعها منهم، فقال لهم كما جاء في النص:

• ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٩).

أطمعهم موسى عليه السلام، وفتح لهم باب الرجاء دون جزم منه، بتحقيق الأمرين الأنفي الذكر.

[عسى] فعل غير متصرف، معناه المقاربة على سبيل الترجي والتوقع دون جزم ولا قطع.

أي: أَرْجُو متوقعاً أَنْ يُهْلِكَ رَبُّكُمْ عَدُوَّكُمْ فِرْعَوْنَ وَآلَهُ وَمَلَأَهُ وَجُودَهُ الكَافِرِينَ، وَيُخَلِّصَ أَرْضَ مِصْرَ مِنْ ظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، وَيَجْعَلَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ مِيراثاً لِقَوْمٍ آخَرِينَ.

ولم يجزم عليه السلام لقومه بهذا المرجو، مع اِحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ عِلْمٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، لثَلَاثٍ يَتَكَلَّوْا، وَتَفْسُدَ نَفُوسُهُمْ، وَيَتَصَرَّفُوا تَصَرُّفَاتٍ هَوَاجَاءَ حَمَقَاءَ، وَلَيْسَتْ مِيراثاً فِي دَائِرَةِ الْإِبْتِلَاءِ بِمَا يَكْرَهُونَ طَوَالَ مُدَّةٍ إِمْهَالِ اللَّهِ لِعَدُوِّهِمْ.

وَأَرْجُو متوقعاً أَنْ يَسْتَخْلِفَكُمْ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَجْعَلَكُمْ فِي بَعْضِ الْأَرْضِ خُلَفَاءَ الَّذِينَ هُمْ الْآنَ فِيهَا أَهْلُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ. وَيَتَحَقَّقُ هَذَا بِأَنْ يَجْعَلَهُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي كَانَ قَدْ وَعَدَ بِهَا جَدَّهُمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ فِي فِلِسْطِينَ، وَعَلَى هَذَا فَالْأَلْفُ وَالْأَمُّ فِي «الْأَرْضِ» لِلْعَهْدِ.

وَلَكِنْ لَا يَسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا لِمَجَرَّدِ تَكْرِيمِكُمْ بِأَنْ يَمْنَحَكُمْ إِيَّاهَا لَكُونُكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، إِنَّمَا يَسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا لِيَبْلُوكُمْ فِي هَذَا الْاِسْتِخْلَافِ «فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» فَيَحَاسِبَكُمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِكُمْ.

أَنْقِيْمُونَ دِينَ اللَّهِ كَمَا أَمَرَ؟ أَمْ تُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، وَتَبْغُونَ فِيهَا بَغْيَ الْحَقِّ، وَتُكَرِّزُونَ سُنَنَ الْأُمَمِ الظَّالِمَةِ الْبَاغِيَةِ مِنْ قَبْلِكُمْ، فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ نَزَعَ اللَّهُ مِنْكُمْ الْاِسْتِخْلَافَ، وَجَعَلَ الْأَرْضَ مِيراثاً لِقَوْمٍ آخَرِينَ، تَحْقِيقاً لِسُنَّتِهِ فِي عِبَادِهِ فِي حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ.



قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

«وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٥﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ. وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ

مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا ظَلَمُوا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴿١٧٣﴾

بعد إصدار فرعون قراره باضطهاد الإسرائيلتين، الذين يؤمنون بموسى وبما جاء به عن ربه، ويقتل مواليدهم الذكور، حتى لا يكثر رجالهم المقاتلون، قضت حكمة الله جلّت قدرته وعظم سلطانه، بأن يأخذ آل فرعون بالبأساء والضراء، وفق سنته في معاملته أهل القرى الذين يكذبون رسل ربهم، ويكذبون بما جاءهم به عن الله من آيات إعجازية ذوات دلالات برهانية، وآيات منزلات فيها شرائع الله وبيان منهاجه لعباده.

وَمِنْ تَطَبِيقَاتِ هَذِهِ السُّنَّةِ مَا أَبَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ:

• ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

أي: ولقد قبضنا على آل فرعون قبضة موجهة بالسنين التي أنزلناها بهم، وهي سنوات القحط والجذب، ليتذكروا سنتنا في عبادتنا، فيتضرعوا ويستغفروا ويراجعوا أنفسهم، فيتوبوا إلى بارئهم مؤمنين به وبرسوله وبآياته.

﴿بِالسِّنِينَ﴾: يُقَالُ لُغَةً: أَصَابَتِ الْقَوْمَ السُّنَّةُ، أَيْ: سَنَةُ الْقَحْطِ وَالْجَذْبِ فِي الزَّرَاعَاتِ الْأَرْضِيَّةِ السَّنَوِيَّةِ، وَدَلَّ الْجَمْعُ عَلَى أَنَّ مَصَائِبَ الْقَحْطِ وَالْجَذْبِ فِي الزَّرَاعَاتِ الْأَرْضِيَّةِ قَدْ نَزَلَتْ بِهِمْ عِدَّةٌ سِنِينَ.

ولما كان آل فرعون هم ملاك معظم الأراضي الزراعية في مضر كانوا أعظم المتضررين بسنوات القحط التي أنزلها الله في أرض مضر آنئذ.

• ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: أي: ونقص من ثمرات الأشجار المزروعة في الجئات والحدائق والبساتين التي يملكها فرعون وآله.

• ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾: أي: لأجل أن نهىء لهم ما يكون باعثاً لهم ليتذكروا إن شاءوا أن يتذكروا، مع رغبتنا في أن يتذكروا، والمراد من

التذكُّر لازِمُهُ الْفِكْرِي، وهو الاستجابةُ لِلْمَذْكُرَاتِ، وَالْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهَا.

وَلَكِنْ هَلْ أَفَادَهُمْ هَذَا الْمَذْكُرُ، فَرَدَّ فِرْعَوْنُ وَآلَهُ عَنْ غَيْبِهِمْ، وَجَعَلَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمُوسَى وبما جاء به عَنْ رَبِّهِ؟

دَلَّ النَّصُّ عَلَى أَنَّ مَوْقِفَهُمْ كَانَ كَمَا يَلِي:

● ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ :

أَي: فَإِذَا جَاءَتْ الْبِلَادَ الْمَضْرِيَّةَ الْعَطَايَا الرَّبَّانِيَّةُ الْحَسَنَةُ، مِنَ النِّعَمِ وَالْخَيْرَاتِ وَالْخَضْبِ وَالْأَرْزَاقِ وَإِقْبَالِ مِنَ الدُّنْيَا لَامْتِحَانِهِمْ بِهَا، قَالُوا: هَذِهِ لَنَا، جَاءَتْ مِنْ أَجْلِ إِكْرَامِنَا مِنْ آلِهَتِنَا، إِذْ نَحْنُ أَهْلُهَا وَمُسْتَحِقُّوْهَا، لِأَنَّا مُسْتَمْسِكُونَ بِعَقَائِدِنَا فِيهَا، وَقَرَابِينِنَا لَهَا.

وَإِنْ تُصِيبُهُمْ وَلَوْ نَادِرًا نَوَازِلُ رَبَّانِيَّةٍ سَيِّئَةٍ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُذَكِّرَهُمْ بِرَبِّهِمْ وَبِوَجَابَاتِهِمْ تُجَاهَهُ، كَجَذْبٍ وَقَحْطٍ وَأَمْرَاضٍ، وَنَحْوِهَا، قَالُوا: لَسْنَا الْمَقْصُودِينَ بِهَا، إِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِهَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، فَيَطَّيَّرُونَ بِمُوسَى وَبِمَنْ مَعَهُ مِنْ مُؤْمِنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَيُرَوِّجُونَ فِي جَمَاهِيرِ الشُّعْبِ الْمَصْرِيِّ أَنَّ هَذِهِ النَوَازِلَ السَّيِّئَةَ إِنَّمَا جَاءَتْ بِسَبَبِ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَدَعْوَتِهِمُ الدِّينِيَّةَ، فَهُمْ الْمَقْصُودُونَ بِهَا أَسَاسًا وَإِنْ جَاءَتْ عَامَّةً.

أَي: إِنَّ شُؤْمَ دَعْوَةِ مُوسَى وَهَارُونَ، وَشُؤْمَ أَعْمَالِ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُمَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، هُوَ الَّذِي جَلَبَ هَذِهِ السَّيِّئَةَ، إِذْ أَغْضَبَتْ آلَ فِرْعَوْنَ، فَأَنْزَلَتْ بِهِمْ هَذِهِ النَّوَازِلَ السَّيِّئَةَ الْعَامَّةَ.

لَقَدْ عَكَّسُوا عَنْ قَصْدِ دَلَالَةِ الْمَذْكُرَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، فَجَعَلُوا مَا يَجِيئُهُمْ مِنْ حَسَنَاتٍ، إِنَّمَا كَانَ بِفَضْلِ رِضَى آلِهَتِهِمْ عَنْهُمْ، وَجَعَلُوا مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ نَوَازِلَ سَيِّئَاتٍ، إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ سَخَطِ آلِهَتِهِمْ عَلَى مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، وَدَعْوَتِهِمُ الْمُخَالَفَةَ لِعَقَائِدِ آلِ فِرْعَوْنَ.

ومثل هذه التعليقات التي تُقَلَّبُ بها حقائق الأمور، تُوجَدُ دوماً لدى الكافرين والفاسقين في كُلِّ أمة، لِيُبْعِدُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ تَصَوُّرَ أَنَّهُمْ هُمُ السَّبَبُ فيما يُنْزِلُ اللَّهُ من سَيِّئَاتٍ يَكْرَهُونها.

﴿يَطَّيِّرُوا﴾: أي: يَنْطَيرُوا، أَذْغَمَتِ النَّاءُ بِالطَّاءِ فَصَارَتْ طَاءً مُشَدَّدةً.

التَّطْيِيرُ بالشَّيْءِ: هو التَّشَاوُمُ منه، على تَصَوُّرٍ أَنَّهُ بِسَبَبِ شُؤْمِهِ وَسُوْرِهِ نَزَلَتِ السَّيِّئَةُ الْمَكْرُوهُ نُزُولُهَا.

وَيُسْتَعْمَلُ التَّطْيِيرُ أَيْضاً في التَّفَاوُلِ، وَلَكِنَّهُ مُسْتَعْمَلٌ في النِّصِّ هُنَا بِمَعْنَى التَّشَاوُمِ.

وجاء التعقيبُ الرَّبَّانِيُّ على تَطْيِيرِهِمْ، بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْهِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿أَلَا﴾: لِلتَّنْبِيْهِ. ﴿إِنَّمَا﴾: أَذَاهُ حَضَرٍ، مَعْنَاهَا النِّفْيُ وَالْإِسْتِثْنَاءُ.

﴿طَلَيْهِمْ﴾: أي: عَمَلُهُمُ الَّذِي إِذَا عَمِلُوهُ انْطَلَقَ طَائِراً فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا رَدَّهُ، وَإِذَا طَارَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عِلْماً وَتَسْجِلاً وَحِسَاباً، فَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يَحَاسِبُ عَلَيْهِ وَيَجَازِي. أَمَّا إِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ فَلَا تَذَرِي عَنْ أَعْمَالِ النَّاسِ شَيْئاً.

وَكُلُّ طَائِرٍ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ مَرْتَبِطٌ بِعُنُقِهِ لِمَحَاسِبَتِهِ وَمَجَازَاتِهِ عَلَيْهِ. وَخُصَّ الْعُنُقُ لِأَنَّ الْمَرْتَهَنَ بِحَقِّ كَانَ يُغْلُ عُنُقُهُ بِغُلٍّ وَيُقَادُّ بِهِ، حَتَّى يُؤَدِّيَهُ أَوْ يُجَازِي عَلَيْهِ.

أي: فَمَا نَزَلَ بِهِمْ هُوَ مِنْ إِجْرَاءَاتِ اللَّهِ فِيهِمْ رَغْبَةً فِي أَنْ يَنْصَرَّعُوا لَهُ، وَيَتَذَكَّرُوا سُنَّتَهُ فِي عِبَادِهِ، وَيَتَعَطَّوْا بِهَا، فَيَتُوبُوا مِنْ شُرْكَهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَيُؤْمِنُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وَيَتَّبِعُوا آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ إِلَيْهِمْ.

وَمِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ تَطْيِيرَتْ ثُمُودُ بِرُسُولِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِمَنْ مَعَهُ

من الَّذِينَ آمَنُوا به وَاتَّبَعُوهُ، فَكَانَ بَيْنَهُم وَبَيْنَهُ الْحَوَارِ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي
سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بقول الله تعالى فيها:

﴿قَالُوا أَطِيعُوا يَا مَعْكَ قَالَ طَاعُواكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: لَيْسَ أَمْرٌ مَا نَزَلَ بِكُمْ مِنْ بَأْسَاءٍ وَضُرَاءٍ مِنْ شُؤْمِنَا وَشُؤْمٍ دَعَوْتَنَا،
بَلْ هُوَ بِسَبَبِ أَعْمَالِكُمْ وَكُفْرِكُمْ وَشِرْكِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ رَسُولَ رَبِّكُمْ وَعَدَمِ اتِّبَاعِ
آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ إِلَيْكُمْ.

لِكَيْتُمْ عَكُسْتُمْ دَلَالَتَهَا، وَجَعَلْتُمُوهَا عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا تَزْيِفاً وَتَزْوِيراً،
فَزَعَمْتُمْ رَسُولَكُمْ وَمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَسَارَ مَعَهُ مَسِيرَتَهُ الْإِيمَانِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ،
سَبَباً فِي نَزُولِ مَا نَزَلَ بِكُمْ مِنْ بَأْسَاءٍ وَضُرَاءٍ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّ إِلَهَتَكُمْ الَّتِي لَيْسَ
لَهَا تَأْثِيرٌ فِي شَيْءٍ، قَدْ غَضِبَتْ مِنْ دَعْوَةِ رَسُولِكُمْ فَانْزَلَتْ مَا نَزَلَ بِكُمْ مِمَّا
تَكْرَهُونَ، مَعَ أَنَّ أَعْمَالَكُمْ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ سَبَبُهَا، لِأَنَّهَا عِنْدَ اللَّهِ عِلْمًا
وَتَسْجِيلًا وَحِسَابًا.

وكرر هذا التَّشَاوُفَ مِنْ بَعْدِ عَضْرِ فِرْعَوْنَ وَحَاشِيَتِهِ الْمَجْرِمِينَ، أَصْحَابِ
الْفَرْزَةِ الَّتِي أَرْسَلَ اللَّهُ لَهَا رُسُلًا ثَلَاثَةً (وَذَكَرَ أَنَّهَا أَنْطَاكِيَّةٌ) إِذْ قَالُوا لِرُسُلِهِمْ مَا
جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (يَس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿قَالُوا إِنَّا نَطِيعُكَ يَا مَعْكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١٨﴾ قَالُوا طَاعُواكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُتْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: عَمَلُكُمْ الَّذِي سَبَبَ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَا أُنْزِلَ بِكُمْ هُوَ مَعَكُمْ مُلَازِمٌ
لَكُمْ.

وقد دلَّ على مُلَازِمَةِ عَمَلِ الْإِنْسَانِ لَهُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ
(الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَاعَتَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

أَمَّا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَاتِّبَاعِهِمْ: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا طَلَبْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَلِيلِينَ مِنْهُمْ يَعْلَمُونَ بِأَنَّ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِمَّا يَكْرَهُونَ مِنْ سَيِّئَةٍ، هُوَ بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الْإِجْرَامِيَّةِ الَّتِي يُعَانِدُونَ بِهَا الْحَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَكَابِرُونَ، وَيُحَاوِلُونَ بِالتَّضْلِيلِ وَتَزْيِينِ الْأَقْوَالِ الدَّعَائِيَّةِ تَغْطِيَةَ الْحَقِّ عَلَى جَمَاهِيرِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ الْجَمَاهِيرُ يُقْلِدُونَهُمْ بِتَأْثِيرِ ثِقَتِهِمُ السَّابِقَةِ بِهِمْ، وَيُسَلِّمُونَ لَهُمْ مَا يَقُولُونَ ثُمَّ يَرَدُّونَ أَقْوَالَهُمْ تَرْدِيداً بِيْغَاوِيّاً، فَلَا ينفردون عنهم بقول يعلنونه، وَلَا يخالفونهم في رأي.

وهؤلاء القليلون همُّ الملأ من حول فرعون وأهل مشورته الذين إذا قالوا قولاً تبعهم فيه الجماهير فقالوا مثلاً مقالتهم، ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ وَجَّهُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَقُولَةَ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ مِنْ سُورَةِ (الأعراف):

● ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾.

هذه المقولة منهم لموسى، تَدُلُّ عَلَى اغْتِرَافِهِمْ بِأَنَّ الْأَخْدَاثَ الَّتِي تَجْرِي فِي مِصْرَ، هِيَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلَى أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ مَعَارَضَتَهَا أَوْ إِيقَافَهَا، مَا لَمْ يَزْجِعُوا إِلَيْهِ وَيَطْلُبُوا مِنْهُ أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَهُهُ عَنْهُمْ.

وَتَدُلُّ أَيْضاً عَلَى أَنَّهُمْ مُسْتَيْقِنُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ كَافِيَاتٌ لِأَنَّ يُؤْمِنُوا بِمُوسَى نَبِيّاً وَرَسُولاً، وَلَأنَّ يُسَلِّمُوا لِلَّهِ وَيَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ أَظْهَرُوا تَعَتُّتَهُمْ، وَاعْتَبَرُوا الْآيَاتِ مَظَاهِرَ لِأَعْمَالِهِ السُّحْرِيَّةِ، فَقَالُوا لَهُ:

مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ مَهْمَا بَلَغَتْ فِي دَلَالَتِهَا الْبُرْهَانِيَّةِ فَخْنُ لَا نَعْتَبِرُهَا إِلَّا عَمَلًا سِحْرِيّاً، وَمَا نَخْنُ بِمُؤْمِنِينَ بِكَ، وَلَا بِمُسْلِمِينَ لَكَ.

وأرادوا بهذا أَنْ يَتَوَقَّفَ عن إجراء الآيات، إِذْ لَنْ تَكُونَ لها فائدة في إيمانهم ولا في إسلامهم.
لكنَّهُ لم يَنْتَهِ دَوْرُ إِمْنِهِمْ، وَمَا زَالَتْ لَدَيْ مُوسَى عليه السَّلَامُ آيَاتٌ لم يُجْرِها اللَّهُ له.

فقال الله عز وجل:

● ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (١٧٣):

﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: الإرسال التوجيه لأداء مُهِمَّةٍ ما بِتُوْدَةٍ وَأَنَاةٍ وَحِكْمَةٍ، وفيه معنى توجيه الأحداث المرسلة حدثاً بَعْدَ حَدَثٍ مع فواصل زمنية، كَتَوَجِيهِ القطعان من الإبل أو الغنم قطعياً فقطعياً أَوْ ثُمَّ قَطِيعاً.

﴿ءَايَاتٍ﴾: أي: عِلَامَاتٍ كُبْرِيَّاتٍ ذَوَاتِ دَلَالَاتٍ مُذَكِّرَاتٍ بِسُنَّةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ الْمَذْنِبِينَ، وَمُذَكِّرَاتٍ بِسُلْطَانِ الْبَارِيَّ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا شَاءَ أَنْ يَسْتَأْصِلَهُمْ أَهْلَكَهُمْ بِصِيْحَةٍ وَاحِدَةٍ، إِذْ هِيَ مِنْ أَحْدَاثِ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَيَتَضَرَّعُوا.

﴿مُفَصَّلَاتٍ﴾: أي: مَبَيَّنَاتٍ، وَمُتَتَابِعَاتٍ مع فواصل زمنية بَيْنَ كُلِّ آيَةٍ وَبَيْنَ الَّتِي قَبْلَهَا وَبَيْنَ الَّتِي بَعْدَهَا.

﴿فَاسْتَكَبَرُوا﴾: أي: فَاشْتَدَّ فِي نَفُوسِهِمُ الْكِبَرُ، فَعَانَدُوا دَلَالَاتِ آيَاتِ اللَّهِ الْمَذَكِّرَاتِ، فَلَمْ يَتَضَرَّعُوا لِلَّهِ وَلَمْ يَتُوبُوا مِنْ كُفْرِهِمْ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِرُسُولِ رَبِّهِمْ، وَكَبَرَ فِي نَفُوسِهِمْ أَنْ يُسَلِّمُوا لَهُ، وَيَتَّبِعُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ اللَّهِ.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: أي: وَكَانُوا فِي تَصَرُّفَاتِهِمْ النَّفْسِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ قَوْمًا عُصَاةً مِنْ أَحْسَنِ الدَّرَكَاتِ، طَوَالَ مُدَّةِ ابْتِلَائِهِمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ.

المجرم: في اللغة هو المتعدي بذنب كبير، واستُغِيل لفظ «المجرمين» في القرآن وضفاً لمستحقّي الخلود في عذاب النار يوم الدين.

لقد كانوا في كلِّ واحدةٍ من الآيات التي أرسلها الله إليهم يُغَطُّونَ العَهْدَ لموسى عليه السلام، لِيُنْ دَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ مَا أُنْزِلَ بِهِمْ لِيُؤْمِنُوا بِهِ، فإذا دَعَا مُوسَى رَبَّهُ حَسَبَ طَلِبِهِمْ، مُحَدِّداً لَهُمُ الزَّمَنَ الَّذِي يَزْتَفِعُ فِيهِ الضُّرُّ النازل بهم، واستجاب الله له عَادَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى قَسْوَتِهَا، واستكبروا وَنَكَّثُوا عَهْدَهُمْ.

شَرْحُ الْآيَاتِ الْمُفَصَّلَاتِ:

آيَةُ الطُّوفَانِ: هي آيَةُ أَغْرَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا أَرْضَهُمْ، بِحُكُولِهَا وَمَزَارِعِهَا، وَجَنَاتِهَا وَبَسَاتِينِهَا، بِمِيَاهٍ زَائِدَةٍ فَاضَتْ كَثِيراً عَنْ حَاجَةِ الزَّرْعِ وَالضَّرْعِ فَأَتْلَفَتْ وَأَغْرَقَتْ وَجَرَقَتْ.

الطُّوفَانُ: اسم جنس جمعي، وإِجْدُهُ «طوفانة» وقيل هو مصدر. صيغته كصيغة الرُّجْحَانِ والنَّقْصَانِ.

وقد جاء لفظ الطوفان في القرآن مَرَّتَيْنِ:

الأولى: مَا جَاءَ فِي هَذَا النَّصِّ مِنْ سُورَةِ (الأعراف).

والأخرى: مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) فِي الْآيَةِ (١٤) بِشَأْنِ الطُّوفَانِ الَّذِي أَغْرَقَ اللَّهُ بِهِ قَوْمَ نُوحٍ.

«جاء عند اليهود في الإصحاح التاسع من سفر الخروج. أَنَّ الرَّبَّ قَالَ لِمُوسَى مَدَّ يَدَكَ نَحْوَ السَّمَاءِ لِيَكُونَ بَرْدٌ فِي كُلِّ أَرْضٍ مُضَرَّ عَلَى النَّاسِ وَالبَهَائِمِ وَعَلَى كُلِّ غُشْبِ الْحَقْلِ فِي أَرْضِ مِصْرَ. فَمَدَّ مُوسَى عَصَاهُ نَحْوَ السَّمَاءِ فَارْسَلَ اللَّهُ رَعْدًا شَدِيدًا مُتَوَاصِلًا، وَبَرْقًا شَدِيدًا، وَنَارًا وَصَوَاعِقَ، وَأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ بَرْدًا عَلَى أَرْضِ مِصْرَ لَمْ تَشْهَدْ مِصْرَ قَبْلَ ذَلِكَ مِثْلَهُ،

وَضَرَبَ الْبَرْدُ النَّاسَ وَالْبَهَائِمَ وَالزُّرُوعَ وَالْأَشْجَارَ فِي كُلِّ أَرْضٍ مَضْرٍ،
بِاسْتِثْنَاءِ أَرْضِ جَاسَانَ الَّتِي كَانَ يُقِيمُ فِيهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ.

فَدَعَا فِرْعَوْنُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَيْهِ، وَسَلَّاهُمَا أَنْ يُصَلِّيَا لِرَبِّهِمَا وَيَدْعُوَاهُ
لِيَرْفَعَ عَنْهُمَا مَا نَزَلَ بِهِمَا، وَوَعَدَهُمَا أَنْ يَسْتَجِيبَ لَطَلِبَهُمَا، وَحَدَّدَ مُوسَى
لِفِرْعَوْنَ مَوْعِدَ رَفْعِ مَا نَزَلَ بِهِمَا.

آيَةُ الْجَرَادِ: هِيَ آيَةٌ أَنْذَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَا فِرْعَوْنَ وَآلَهُ. فَلَمَّ
يَغْبُؤُوا بِإِنْذَارِهِ، فَسَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ جُنْدَهُ مِنَ الْجَرَادِ
الْمَجْلَلِ الْمُطْبِقِ، فَكَانَ لَا يَدْعُ شَيْئًا يَقْضِيهِ بِحَنْكِهِ إِلَّا أَكَلَهُ.

«جاء عند اليهود في الإصحاح العاشر من سفر الخروج: أَنَّ مُوسَى
مَدَّ عَصَاهُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ، فَجَلَبَ الرَّبُّ عَلَى الْأَرْضِ رِيحاً شَرْقِيَّةً كُلَّ ذَلِكَ
النَّهَارِ وَكُلَّ اللَّيْلِ. وَلَمَّا كَانَ الصُّبْحُ حَمَلَتِ الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ الْجَرَادَ، فَصَعِدَ
الْجَرَادُ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ... وَغَطَّى وَجْهَ كُلِّ الْأَرْضِ حَتَّى أَظْلَمَتِ
الْأَرْضُ، وَأَكَلَ جَمِيعَ عُشْبِ الْأَرْضِ، وَجَمِيعَ ثَمَرِ الشَّجَرِ.

فَدَعَا فِرْعَوْنُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَيْهِ - وَسَلَّاهُمَا كَمَا سَأَلَهُمَا فِي آيَةِ
الطُوفَانِ، وَوَعَدَهُمَا بِأَنْ يَسْتَجِيبَ لَطَلِبَهُمَا.

فَدَعَا مُوسَى رَبَّهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنِ الْمِصْرِيِّينَ مَا نَزَلَ بِهِمَا، فَأَرْسَلَ اللَّهُ رِيحاً
غَرْبِيَّةً شَدِيدَةً، فَحَمَلَتِ الْجَرَادَ وَطَرَحَتْهُ فِي بَحْرِ سُوفَ.

آيَةُ الْقُمَّلِ: قِيلَ: هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْحَشَرَاتِ تَأْكُلُ السَّنَابِلَ وَهِيَ غَضَّةٌ،
وَهِيَ ذَاتُ رَائِحَةٍ خَبِيثَةٍ، وَهِيَ لَا تَأْكُلُ أَكْلَ الْجَرَادِ، وَلَكِنْ تَمْتَصُّ مَا فِي
الْحَبِّ مِنْ غِذَاءٍ، فَتَذْهَبُ قُوَّتُهُ وَخَيْرُهُ. وَقِيلَ: هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْحَشَرَاتِ مِنْ
جِنْسِ الْقِرْدَانِ، وَاحِدُهَا «قِرَادَةٌ» وَاسْمُ الْجِنْسِ «قُرَاد» وَهَذِهِ الْحَشْرَةُ مُتَطَفِّلَةٌ،
ذَاتُ أَزْجُلٍ كَثِيرَةٍ تُدْخِلُهَا فِي جِلْدِ الْحَيَوَانِ، ثُمَّ تَمْتَصُّ مِنْ دَمِهِ، وَهِيَ
أَنْوَاعٌ.

«جاء عند اليهود في الاضحاح الثامن من سفر الخروج، أن الله آتى موسى وهارون آية البعوض وآية الذباب، فأقضى البعوض والذباب مضاجع المضربين، وجرى بين فرعون وبين موسى وهارون نظير ما سبق بيانه في آيتي الطوفان والجراد».

والقرآن ذكر القمل، ولعله يشمل كل الحشرات المؤذيات المتطفلات على الإنسان والحيوان، والله أعلم.

آية الضفادع: هي آية أُنذِرَ بِهَا موسى عليه السلام فرعون وآله، مبيناً أن الضفادع الكثيرة جداً ستنعص عليهم وعلى المضربين معيشتهم، مؤكداً دعوته الإيمانية، ومطلبه بالسماح لبني إسرائيل بأن يخرجوا معه إلى أرض غزبتهم الأولى فلسطين.

جاء عند اليهود في الإضحاح الثامن من سفر الخروج:

«فقال الرب لموسى قل لهارون مَدَّ يَدَكَ بِعَصَاكَ عَلَى الْأَنْهَارِ وَالسَّوَاقِي والآجام^(١). وأضعد الضفادع على أرض مصر، فمد هارون يده على مياه مصر، فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر».

وجرى في هذه الآية نظير ما جرى في الآيات السابقات، ونكث فرعون وآله بعهودهم ووعودهم.

آية الدم: قيل: سلط الله عليهم الرعاف، وقيل: سال النيل عليهم دماً.

«وجاء عند اليهود في الاضحاح السابع من سفر الخروج: أن موسى توعد فرعون بأن يضرب بعصاه الماء فيتحول دماً، ويموت السمك الذي في النهر ويئتن، إذا لم يستجب لطلبه، فأبى فرعون».

(١) الآجام: جمع أجمة، وهي الشجر الكثير الملتف.

فأَجْرَى اللهُ الْآيَةَ لِمُوسَى، فَتَحَوَّلَ كُلُّ الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ دَمًا، وَمَاتَ السَّمَكُ فِيهِ، وَأَنْتَنَ النَّهْرُ، وَكَانَ الدَّمُ فِي كُلِّ أَرْضٍ مُضِرًّا، وَحَفَرَ الْمَصْرِيُّونَ حَوَالِي النَّهْرِ لِأَجْلِ مَاءٍ لِيَشْرَبُوا».

وَاسْتَكْبَرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُوسَى وَهَارُونَ وَيَسْتَجِيبُوا لَطَلِبِهِمَا، وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ كُلِّ الْآيَاتِ السَّابِقَاتِ اللَّاتِي ذَكَرَهُنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ (١٣٣) مِنَ السُّورَةِ، فَاسْتَحَقُّوا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ رِجْزًا أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ، دَلٌّ عَلَى هَذَا:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدُعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۚ﴾ (١٣٤)

[الرَّجْزُ]: الْعَذَابُ. وَأَرَى أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا أَشَدَّ مِنَ الضَّرَأِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهِمْ، بِسَبَبِ الْآيَاتِ الْخَمْسِ الَّتِي سَبَقَ شَرْحُهَا، فَهُوَ آيَةٌ سَادِسَةٌ أَشَدُّ مِمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ قَبْلَهَا.

• رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

«كُلُّ شَيْءٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الرِّجْزِ يَغْنِي بِهِ الْعَذَابَ».

أَقُولُ: وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَذَابُ بَأْيٍ وَسِيلَةً، كَالطَّاعُونَ، وَالْجُدَرِيُّ وَغَيْرُهُمَا.

• وَرَوَى مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، وَخَزِيمَةَ بْنِ ثَابِتٍ، قَالُوا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ رِجْزٌ، وَبَقِيَّةُ عَذَابٍ عَذَّبَ بِهِ أَنْاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ».

• ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾: يَفْتَضِي عَطْفُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بِالْوَاوِ تَأْسِيسَ بَيَانٍ جَدِيدٍ، غَيْرِ الْبَيَانِ الَّذِي جَاءَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، الَّتِي ذَكَرْتُ فِيهَا

الآيات الخمس، يُضَاف إلى هذا أَنَّ الآيات الْخَمْس (الطوفان والجراد والقُمَّل والضَّفَادع والدَّم) قَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهَا أَنَّهُ أَرْسَلَهَا. أي: وَجَّهَهَا حَامِلَةً رِسَالَةً رَبَّانِيَّةً إِنْذَارِيَّةً، فَهِيَ تُؤَدِّي وَظَائِفَهَا بِتَوْذَةٍ وَأَنَاءٍ وَتَمَهُّلٍ.

أَمَّا الرُّجُزُ فَقَدْ ذَكَرَ اللهُ بِشَأْنِهِ أَنَّهُ وَقَعَ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ بِمَثَابَةِ عَصَا قَوِيَّةٍ غَلِيظَةٍ عِقَابِيَّةٍ وَتَأْدِيبِيَّةٍ، وَقَعَتْ ضَرْباً عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَظُهُورِهِمْ وَالْأَمَكِنَةِ الَّتِي تَتَأَلَّمُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ، بِلَا أَنَاءٍ وَلَا تَمَهُّلٍ.

وَهَذَا مَا أَلْجَأَ فِرْعَوْنَ وَآلَهُ وَمَلَاقَوْمِهِ أَنْ يَلْجَأُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَرْجُوهُ أَنْ يَدْعُو رَبَّهُ لِيُكْشِفَ عَنْهُمْ الرُّجُزَ، وَأَقْسَمُوا لَهُ وَأَكْذَبُوا لَهُ بِأَشَدِّ عِبَارَاتِ التَّكْيِيدِ، أَنَّهُ إِذْ كَشَفَ عَنْهُمْ الرُّجُزَ بِدُعَائِهِ لِرَبِّهِ، أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيُسَلِّمُوا، وَيَأْذَنُوا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ مِنَ الدِّيَارِ الْمَضْرِيَّةِ مُتَوَجِّهِينَ إِلَى فِلِسْطِينَ مَكَانِ غُرَبَتِهِمْ الْأُولَى.

● ﴿قَالُوا يَمُوسَى آدُعْ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾: أي: بِالدُّعَاءِ الَّذِي عَلَّمَكَ إِيَّاهُ رَبُّكَ، وَأَوْصَاكَ بِأَنْ تَدْعُو بِهِ عِنْدَ الْمَلَمَّاتِ، وَخَصَّكَ بِهِ فَجَعَلَهُ عِنْدَكَ، إِذَا دَعَوْتَهُ بِهِ أَجَابَكَ. يُقَالُ لُعَّةٌ: عَهْدٌ فَلَانٌ إِلَى فَلَانٍ بِالْأَمْرِ، أي: أَوْصَاهُ بِحِفْظِهِ، وَالْعَهْدُ: كُلُّ مَا بَيْنَ النَّاسِ مِنْ مَوَائِيقَ، وَكُلُّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَوْ نَهَى عَنْهُ، وَالْوَصِيَّةُ، وَالْمَوْثِقُ، وَالْيَمِينُ، وَالْوَفَاءُ، وَالْحِفَاطُ، وَرِعَايَةُ الْحُرْمَةِ، وَالْأَمَانُ.

فعبارة: ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ نفهم منها من خلال المعاني اللغوية ما يلي: بِمَا عَهِدَ بِهِ إِلَيْكَ وَأَوْصَاكَ بِهِ وَجَعَلَهُ عِنْدَكَ.

وبما أَنَّ المطلوب أَنْ يَدْعُو لَهُمْ رَبَّهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ المرادُ بالذي عَهِدَ بِهِ إِلَيْهِ وَأَوْصَاهُ بِهِ، صِيغَةُ دُعَاءٍ خَاصَّةٍ، أَوْ اسماً مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى، أَوْ اسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

• ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ : أي: نَقِسمُ لَكَ لَئِنْ أَرَلْتَ عَنَّا بُدْعَائِكَ رَبِّكَ الْعَذَابَ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْنَا. «اللَّامُ فِي ﴿لَئِنْ﴾ مَوْطِئَةٌ لِلْقِسْمِ الْمَحذُوفِ والملاحظ ذهناً.

• ﴿لَتُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ : أي: لَتُؤْمِنَنَّ بِكَ وَلَتُنْسَلِمَنَّ لَكَ. ضُمِّنُ فِعْلُ: «تُؤْمِنُ» مَعْنَى فِعْلٍ «تُسَلِّمُ» فَعْدِي تَعْدِيَّتُهُ، فَأَعْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ. «اللَّامُ فِي ﴿لَتُؤْمِنَنَّ﴾ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ الْقِسْمِ».

﴿وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ﴾ إِذْ نَسَمَحُ لَهُمْ بِالْخُرُوجِ مَعَكَ إِلَى الْأَرْضِ الْمَقْدَسَةِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ جَوَابِ الْقِسْمِ السَّابِقَةِ.

فَلَمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرِّجْزَ بِدُعَاءِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَقَضُوا عَهْدَهُمْ، وَنَكُتُوا أَيْمَانَهُمْ، فَاسْتَحَقُّوا بِحُكْمَةِ اللَّهِ وَتَذْيِيرَاتِهِ الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ بِالْغُرُقِ.

أَصْلُ الْكَشْفِ رَفْعُ الْغَطَاءِ الْمُجَلَّلِ عَنِ الشَّيْءِ، ثُمَّ اسْتَعْمِلَ بِمَعْنَى الْإِزَالَةِ، مَعَ مِلَاحِظَةِ أَنَّ الشَّيْءَ الْمَزَالَ قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلُ مُجَلَّلًا عَامًّا، حَسْبًا أَوْ مَغْنَوِيًّا.

قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١١٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١١٦﴾﴾:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ﴾ : أي: فَلَمَّا أَرَلْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي أَوْقَعْنَاهُ عَلَيْهِمْ، وَقَضَيْنَا أَنْ يَكُونَ رَفْعُ الْعَذَابِ عَنْهُمْ مُحَدَّدًا بِأَجَلٍ قَدَرْنَاهُ وَقَضَيْنَا بِهِ، فَإِذَا جَاءَ الْأَجَلُ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، فَلَمَّا مَعَهُمْ أَمْرٌ عِقَابِيٌّ آخَرٌ..

﴿إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ : أي: إِذَا هُمْ يُفَاجِئُونَ بِمَا لَا يَتَوَقَّعُ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ، وَهُوَ نَكْتُ عُهُودِهِمْ وَأَيْمَانِهِمُ الَّتِي أَقْسَمُوهَا، أَيْ: نَقَضُوهَا وَعَدَمُ الْوَفَاءِ بِهَا.

بعد ذَلِكَ اسْتَحَقُّوا أَنْ يُغْرَقَهُمُ اللَّهُ إِغْرَاقًا شَامِلًا، إِذْ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى بِأَنْ يَخْرُجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْلًا عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَجُنُودِهِمْ مِنْ مِصْرَ، وَيَتَّجِهَ بِهِمْ شَطْرَ سِينَاءَ.

فَلَمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنُ بِأَمْرِ خُرُوجِهِمْ قَرَّرَ اتِّبَاعَهُمْ وَمُقَاتَلَتَهُمْ، وَاسْتِعَادَةَ مَنْ يَبْقَى مِنْهُمْ أَحْيَاءَ أَسْرَى، فَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ مَنْ يَخْشُرُ الْجُنُودَ، لَتَكْوِينِ جَيْشٍ يُتَابِعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِقِتَالِهِمْ، فَسَارَ الْجَيْشُ الْفِرْعَوْنِي مُتَابِعًا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقِيَادَةِ مُوسَى وَهَارُونَ، فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْرُكُونَ، فَطَمَأْنَنَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ الْبَحْرُ أَمَامَهُمْ وَالْعَدُوُّ وَرَاءَهُمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَفَلَقَ اللَّهُ الْبَحْرَ، وَمَشَى بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى الْيَابَسَةِ، وَلَحِقَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، وَدَخَلُوا مَكَانَ فَلَقِ الْبَحْرَ، وَلَمَّا انْتَهَى خُرُوجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مَكَانِ الْبَحْرِ، ضَمَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَاءَ الْمُنْفَلِقَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، فَأَغْرَقَ جَيْشَ الْمِصْرِيِّينَ بِقِيَادَةِ فِرْعَوْنَ، وَانْتَقَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُمْ.

وَقَدْ أَوْجَزَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأعراف) التعبيرَ عن هذا الحدث، بقوله:

● ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٣٦).

﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: أي: فَعَاقَبْنَاهُمْ عِقَابًا مُعْجَلًا بِإِهْلَاكِهِمْ إِغْرَاقًا فِي الْبَحْرِ. وَكَانَ ذَلِكَ بَآيَةٍ عَظِيمَى آتَاهَا اللَّهُ رَسُولَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فِي الْيَمِّ﴾: الْيَمُّ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْبَحْرِ لَا يُثْنَى وَلَا يُجْمَعُ، وَيُطْلَقُ عَلَى النَّهْرِ الْعَظِيمِ وَلَوْ كَانَ مَآوَهُ عَذْبًا.

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: أي: بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالْآيَاتِ الْإِعْجَازِيَّةِ ذَوَاتِ الدَّلَالَاتِ الْبِرْهَانِيَّةِ الْمُنَزَّلَاتِ لِبَيَانِ الدِّينِ إِيْمَانًا وَعَمَلًا.

﴿وَكَاْنُوا عَنْهَا غَافِلِيْنَ﴾: أي: وكاْنُوا عن دَلَالَاتِ آيَاتِنَا فِي غَفْلَةٍ، لَأَنَّهُمْ كَانُوا مَشْغُوْلِيْنَ بِأَسْبَابِ مَجْدِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَاسْتِغْلَاثِهِمْ فِي الْأَرْضِ.

وهذا الموجز قد جاء بعض تفصيل له في عدة سور من القرآن المجيد، ودراسْتُهَا دِرَاسَةً تَكَامِلِيَّةً، ضِمْنَ دِرَاسَةِ قِصَّةِ مُوسَى وَهَارُونَ، وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، فِي الْقُرْآنِ، تَحْتَاجُ فِي ظَنِّي قُرَابَةَ سِفْرِ أَوْ سِفْرَيْنِ كَامِلَيْنِ وَعَسَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ لِي بِذَلِكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَاللَّهُ هُوَ الْمَوْفِقُ وَالْمُسَدِّدُ وَالْمَعِينُ، وَهُوَ جَلُّ جَلَالِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



قول الله عز وجل:

﴿وَأَرْزَأْنَا الْقَوْمَ الَّذِيْنَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٣٧):

فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَفْزَةٌ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ، إِلَى زَمَنِ دُخُولِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ فِي عَهْدِ طَالُوتَ، وَإِقَامَةِ دَوْلَةِ رَبَّانِيَّةٍ فِي عَهْدِ طَالُوتَ، وَعَهْدِي دَاوُدَ وَسَلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَتَحْقِيقِ الْوَعْدِ الَّذِي كَانَ وَعَدَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الْمَشْرُوطَ بِإِقَامَةِ مَنْهَجِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَاتِّبَاعِ آيَاتِهِ الْمُنَزَّلَاتِ عَلَى رُسُلِهِ.

وَالْحِكْمَةُ الْبَيَانِيَّةُ مِنْ هَذَا الْقَفْزِ فِي الْقِصَّةِ هُنَا الْمَحَافَظَةُ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ عَلَى التَّقَابُلِ بَيْنَ الْجَزَاءِ بِالْعِقَابِ وَالْجَزَاءِ بِالثَّوَابِ فِي الْمَوَاقِفِ، لِثَلَا يَطُولَ الْفَضْلُ لَدَى اتِّبَاعِ التَّسْلُسْلِ التَّارِيخِيِّ، فَتَغْفُلُ أَذْهَانُ الْمُتَدَبِّرِينَ عَنْ مِلَاحَظَةِ أَنَّ الْجَزَاءَ بِالثَّوَابِ وَالْجَزَاءَ بِالْعِقَابِ يَسِيرَانِ عَلَى خَطَّيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ دَوَامًا، فِي سُنَّةِ اللَّهِ الثَّابِتَةِ الَّتِي يُعَامِلُ بِهَا عِبَادَهُ.

وَتَأْخُزُ زَمَنَ الْجَزَاءِ بِالثَّوَابِ قَدْ تَقْتَضِيهِ أُمُورٌ مِنَ الْمَوْعُودِينَ بِهِ أَنْفُسِهِمْ،

كَعَدَمِ تَحْقِيقِ مَا طُلِبَ مِنْهُمْ مِنْ شُرُوطٍ، وَمِنْ أُمُثْلِيَّتِهِ رَفُضُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ مُقَاتِلِينَ بِقِيَادَةِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وَزَمَنَ تَأْخُرَ الْجَزَاءِ بِالْعِقَابِ قَدْ تَقْتَضِيهِ حُكْمَةُ الْأَمْهَالِ الَّذِي يَقْطَعُ اللَّهُ بِهِ كُلَّ عُذْرٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَغْتَذِرَ بِهِ مُسْتَحِقُّوا الْعِقَابِ.

● ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرْنَا فِيهَا﴾:

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾: أي: مَلَكَتْهُمْ بِوَسِيلَةِ الْمِيرَاثِ، إِذْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْمُلُوكَ الْكَافِرَةَ الْجَبَارِينَ بِأَيْدِيهِمْ، فَصَارَتِ الْأَرْضُ الَّتِي كَانَ الْجَبَارُونَ يَحْكُمُونَهَا مِيرَاثًا مِنَ اللَّهِ لِلْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَعْبِدِينَ فِي مِصْرَ.

﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾: أي: الَّذِينَ كَانُوا يُرَوْنَ ضِعْفَاءَ غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى الْمَقَاوِمَةِ، فَيَذَلُّونَ، وَيُضْطَهُدُونَ، وَيُسْتَعْبَدُونَ.

﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرْنَا فِيهَا﴾: أي: مَشَارِقَ أَرْضِ الشَّامِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، إِذْ زِدْنَا فِي خَيْرَاتِهَا الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ.

المَشَارِقُ وَالْمَغَارِبُ، هِيَ الْمَوَاضِعُ الَّتِي تَشْرُقُ الشَّمْسُ عَلَيْهَا وَتَغْرُبُ عَنْهَا، وَالْمَعْنَى: وَأَوْرَثْنَاهُمْ كُلَّ أَرْضِ الشَّامِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، لِأَنَّهُ مَا مِنْ سَطْحٍ أَرْضٍ فِيهَا إِلَّا وَقَعَ إِلَى جِهَةِ شُرُوقِ الشَّمْسِ أَوْ إِلَى جِهَةِ غُرُوبِهَا.

وَقَدْ حَصَلَ هَذَا فِي عَهْدِي دَاوُدَ وَابْنِهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وَالْمَعْنَى: وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ فِي مِصْرَ، عَلَى تَعَاقِبِ أَرْزَامٍ وَعُهُودٍ مُتَعَدِّدَةٍ، بَاغْتِبَارِهِمْ غُرَبَاءَ عَنْ أَهْلِيهَا مِنَ الْقَبْطِ، إِذْ كَانُوا قَدِمُوا إِلَيْهَا فِي عَهْدِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي كَانَ ذَا حُظْوَةٍ عَظِيمَةٍ عِنْدَ فِرْعَوْنَ زَمَانِهِ، فِي قِصَّةٍ جَاءَ بَعْضُ تَفْصِيلِهَا فِي سُورَةِ (يُوسُفَ).

فَلَمَّا صَارَتْ لَهُمْ أَمْوَالٌ وَصَنَاعَاتٌ وَمَزَارِعُ وَتُرُوتَاتٌ، انْقَلَبَ عَلَيْهِمْ

الفراعنة والقبط سَكَّانُ مصر الأَضْلِيُّونَ، فصاروا يضطهدونهم وَيُسَخَّرُونَهُمْ فِي الأَعْمَالِ كَالْعَبِيدِ.

● ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾

أي: وقضى الله عز وجل الذي هو ربك أيها المتلقي أيًا كنت، بِكَلِمَتِهِ الْقَدِيرَةِ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ، أَنْ يُورِثَهُمُ الْأَرْضَ الَّتِي بَارَكَ فِيهَا، وَهِيَ الْقُدْسُ وَمَا حَوْلَهُ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، إِذَا حَقَّقُوا بِأَنْفُسِهِمْ شُرُوطَ اسْتِحْقَاقِ هَذَا الْمِيرَاثِ.

فَلَمَّا حَقَّقُوهُ بَدْءًا مِنْ عَهْدِ طَالُوتَ، وَمُرُورًا بِعَهْدِي دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، أَوْرَثَهُمُ اللَّهُ هَذِهِ الْأَرْضَ فِعْلًا، وَتَمَّتْ بِذَلِكَ فِي الْوَاقِعِ التَّنْفِيزِي كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ.

إِذْ كَانَ مِنْ آثَارِهَا مُكَافَأَةٌ مَنْ أَحْسَنَ حِينَئِذٍ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ، وَظَهَرَ إِحْسَانُهُمْ بِصَبْرِهِمْ عَلَىٰ مَا تَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ أَدَىٰ، دَلٌّ عَلَىٰ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصْرِ: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾: أي: بسبب صبرهم.

﴿عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: أي: تفضلاً من الله على بني إسرائيل.

قول الله تعالى:

● ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٢٧):

﴿وَدَمَّرْنَا﴾: التدمير، الإهلاك باستئصال، وَمَخُو الْمَبَانِي وَآثَارِهَا حَتَّى لَا يُرَىٰ مِنْهَا شَيْءٌ.

وَأَضْلُ التَّدْمِيرِ، تَخْطِيمُ الشَّيْءِ عَلَىٰ وَجْهِ لَا يُزَجَّى بَعْدَهُ إِصْلَاحُهُ، وَيَكُونُ تَدْمِيرُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا يُلَاقِيهِ.

﴿مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾: أي: ما كانوا يَصْنَعُونَ مِنْ مَبَانٍ وَأَدَوَاتٍ سَطَوٍ وَتَسْلُطٍ، وَمِنْهَا عَرَبَاتُهُمْ وَأَسْلِحَتُهُمْ، فَقَدْ دَمَّرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْبَحْرِ.

﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾: يُقَالُ لُغَةً: عَرَشَ يَعْرِشُ وَيَعْرِشُ، أَي: بَنَى بناءً من خَشَبٍ، أَوْ مِنْ حَجَرٍ، أَوْ مِنْ طِينٍ، أَوْ مِنْ آجُرٍ، وَجَعَلَ لَهُ سَقْفًا مِنْ خَشَبٍ.

وَيُقَالُ: عَرَشَ الْكَرَمَ، أَي: صَنَعَ لَهُ عَرِشًا أَوْ عَرِيشًا مِنْ خَشَبٍ لَتَمْتَدَّ فِرْعَوْنُهُ عَلَيْهِ.

أما كيف حصل هذا التدمير لما كان يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وما كانوا يَعْرِشُونَهُ، فلم يَأْتِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَيَانٌ تَفْصِيلِيٌّ عَنْهُ.

ولعلَّ الجماهير المصرية بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَجُنُودِهِ عَرَقًا فِي الْبَحْرِ، قَدْ عَمِلَتْ عَلَى تَدْمِيرِ ذَلِكَ بِمُخْتَلَفِ الْوَسَائِلِ.

وقد يسأل سائل: لم اعتَبَرَتِ الْأَرْضُ الَّتِي أَوْرَثَهَا اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، هِيَ مَكَانُ مُلْكِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ؟!

والجواب: أَنَّ دَلِيلِي عَلَى مَا ذَكَرْتُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: نَظَرْتُ فِي التَّارِيخِ لِمَعْرِفَةِ مَا هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي أَوْرَثَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ سُكَّانِهَا الْأَصْلِيِّينَ، فَرَأَيْتُ أَنَّ الْمُؤَرِّخِينَ يَذْكُرُونَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ دَخَلُوا فِلَسْطِينَ مُنْتَصِرِينَ فِي عَهْدِ طَالُوتَ، وَأَنَّهُمْ اسْتَوْلَوْا عَلَى مُلْكِ الْقُدْسِ وَمَا حَوْلَهُ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، فِي عَهْدِي دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ.

ثُمَّ انْقَسَمَتْ مَمْلَكَتُهُمْ، ثُمَّ فَسَدُوا فَسَلَبَهُمُ اللَّهُ الْمُلْكَ، وَتَعَرَّضُوا لِأَنْوَاعٍ مِنَ الْأَضْطِهَادِ وَالشُّتَاتِ، بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ، وَفِسْقِهِمْ، وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ، وَتَبَذَّهِمْ أَتْبَاعُ آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ، وَتَخْرِيفِهِمْ فِيهَا، وَافْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ.

الوجه الثاني: نَظَرْتُ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ فَوَجَدْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِيهَا

بيان أن الأرض التي بارك الله فيها، هي المسجد الأقصى وما حوله من بلاد الشام:

(١) ففي سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) وصف الله عز وجل المسجد الأقصى بأنه المسجد الذي بارك حوله، فقال الله عز وجل:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ...﴾ (١٦) ﴿

(٢) وفي سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أبان الله عز وجل أنه أنجى إبراهيم ولوطاً عليهما السلام من طغيان نمرود وقومه، وأوصله إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وجعلها مهجرة، وقد كان إبراهيم عليه السلام في أور العراق، وبعد أن تعرض لإلقائه في النار، وتسليمه منها إذ جعلها بزداً وسلاماً عليه، هاجر مع أسرته، وهاجر معه ابن أخيه لوط مؤمناً به، إلى بلاد الشام، وأقاما في فلسطين، فقال الله عز وجل فيها:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٨) ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧٠) ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧١) ﴿

(٣) وفي سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أيضاً أبان الله عز وجل أنه سخر لسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي بارك فيها، وهي أرض الشام، القدس وما حوله، فقال تعالى فيها:

﴿وَأَسْلَمْنَا الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ (٨١) ﴿

(٤) وفي سورة (سبا/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) في معرض الحديث عن أهل سبا في اليمن قال الله عز وجل:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّبْتَ سَبْتًا فِيهَا لِيَالِي وَيَأْمَأْمِئِينَ﴾ (٧٨).

والقُرَى الَّتِي بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا هِيَ مِنْ قُرَى بِلَادِ الشَّامِ بِاتِّفَاقٍ.

هذا كُلُّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ عَنْ أَرْضِ بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا، فَتَعَيَّنَ مِنْ دَلَالَاتِ هَذِهِ النُّصُوصِ أَنَّ الْأَرْضَ الَّتِي أَوْرَثَهَا اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بَعْدَ إِهْلَاكِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ هِيَ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، وَكَانَ ذَلِكَ بَدْءاً مِنْ عَهْدِ طَالُوتَ إِلَى آخِرِ عَهْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وبهذا الفهم تَنَحَّلُ إِشْكَالَاتُ سَبَبِهَا تَصَوُّرُ أَنَّهُمْ وَرَثُوا أَرْضَ الْفِرْعَانِيَّةِ، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مِصْرَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا سُلْطَانٌ بَعْدَ إِهْلَاكِ فِرْعَوْنَ مُوسَى وَجُنُودِهِ.



الفقرة الثالثة

الآيات من (١٣٨ - ١٤١)

عبور بني إسرائيل البحر وقولهم لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة

قال الله عز وجل:

﴿وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ (١٣٨) **إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَهُمْ لَا يَحْكُمُونَ** (١٣٩) **قَالَ أَغْوَيْتَنِي اللَّهُ أَتَّبِعُكُمْ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ فَإِنَّكُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ** (١٤٠) **وَإِذْ أَخْبَرْنَا نِسَاءَ كَافَّةً فِي ذَلِكَ أَنَّ كُنَّ يَكْفُرْنَ** (١٤١).

القراءات:

(١٣٨) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [يَعْكُفُونَ] بِكَسْرِ الْكَافِ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَعْكُفُونَ] بضم الكاف.
والقراءتان وجهان عريان لنطق كلمة «يَعْكُفُونَ».

(١٤١) • قرأ ابن عامر: [وَلِإِذْ أَنْجَاكُمْ] على أن الفاعل ضمير مستتر يعود على الله.

وقرأ باقي القراء العشرة [وَلِإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ] على أن الفاعل ضمير المتكلم العظيم.

وبين القراءتين تكامل في التعبير عن الواقع وفي التعبير عما يُراد توجيهه لبني إسرائيل بعد نزول القرآن، فموسى قال لنبي إسرائيل: واذكروا إِذْ أَنْجَاكُمُ اللَّهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ... والله عز وجل خاطبهم بما أنزل على موسى بما معناه: واذكروا إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وخاطب كل بني إسرائيل بعد نزول القرآن ليؤمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به عن ربه.

(١٤١) • قرأ نافع [يَقْتُلُونَ] من الفعل الثلاثي.

وقرأ باقي القراء العشرة: [يُقْتَلُونَ] من الفعل الرباعي مضعف التاء.
وبين القراءتين تكامل في الدلالة على الواقع، إِذْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ كَانُوا يُقْتَلُونَ بِشِدَّةٍ وَعُنْفٍ، ثُمَّ بَرَدَتِ الْحَدَّةُ شَيْئاً فشيئاً فصاروا يُقْتَلُونَ دُونَ شِدَّةٍ وَلَا عُنْفٍ.

التدبر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾.

﴿وَجَوَزْنَا﴾: فعل: «جَاوَزَ» مثل فعل: «جَازَ» يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ واحد. تقول لغة: جُزْتُ الطَّرِيقَ وَجَاوَزْتُهُ، إِذَا سَلَكَتَهُ وَمَشِيتَ فِيهِ حَتَّى انْتَهَيْتَ مِنْهُ، وَابْتَعَدْتَ عَنْ آخِرِ جِزْءٍ مِنْهُ.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾: الباء الجارّة هُنَا مَعْنَاهَا المصاحبة .

يُحَدِّثُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ نَفْسِهِ بضمير المتكلم العظيم، فَيَبَيِّنُ لَنَا أَنَّهُ كَانَ مَصَاحِبًا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الْجَلِيلَةِ، حِينَ أَمَرَهُمْ بِغُورِ الْبَحْرِ حَتَّى جَعَلَهُمْ يُجَاوِزُونَ مَكَانَ الْفَلَقِ مِنَ الْبَحْرِ، وَيَصِلُونَ إِلَى الْبَرِّ بَعِيداً عَنْ سَاحِلِ الْبَحْرِ.

أَسْنَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ الْمَجَاوِزَةَ مَصَاحِباً مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقِيَادَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ كَانَ يَجْتَازُ مَعَهُمْ بِعَيْنَاتِهِ، وَمَعُونَتِهِ، وَحَفَظِهِ لَهُمْ، مَعَ كُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ، هُوَ وَرَكَائِبُهُ وَمَاشِيَتُهُ.

أي: وَسَرَّنا بِالْعَنَاءِ وَالْحَفَظِ وَالْمَعُونَةِ مُصَاحِبِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الطَّرِيقَ الْيَبَسَ الَّذِي فَلَقْنَا الْبَحْرَ عَنْهُ، حَتَّى قَطَعْنَاهُ، وَخَرَجْنَا مِنْهُ إِلَى الْبَرِّ، وَأَوْصَلْنَاهُمْ إِلَيْهِ آمِنِينَ.

هَذَا التَّعْبِيرُ الْبَدِيعُ دَلٌّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، مَنَحَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقِيَادَةِ مُوسَى وَوَزِيرِهِ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، حِينَ غُورِ الطَّرِيقِ فِي الْبَحْرِ، شَرَفَ الْمَعِيَةِ الرَّبَّانِيَّةَ لَهُمْ، مُغْتَنِيًا بِهِمْ، وَحَافِظًا وَمُعِينًا لَهُمْ.

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿فَاتَّوَا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ...﴾ (١٢٨)

أي: وَعَقِبَ أَنْ انْتَهَى بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ غُورِ الْبَحْرِ، وَاطْمَأَنَّنُوا عَلَى الْأَرْضِ خَارِجَ مَكَانِ الْبَحْرِ، وَفَرَحُوا بِأَنَّ اللَّهَ أَنْجَاهُمْ وَأَهْلَكَ عَدُوَّهُمْ، سَارَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِداً لَهُمْ بِاتِّجَاهِ سِينَاءَ، فَلَمْ يُبْعِدُوا كَثِيراً فِي سَيْرِهِمْ، إِذْ اتَّوَا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ.

﴿يَعْكُفُونَ﴾: أي: يُلَازِمُونَ مُلَازِمَةً الْمُقِيمِ الَّذِي أُعْطِيَ كُلُّ نَفْسِهِ وَحَوَاسِهِ لِمَا هُوَ عَاكِفٌ عَلَيْهِ.

وهذا الْعُكُوفُ بِسُكُونٍ وَمُلَازِمَةٌ وَصَمْتٌ وَتَوَجُّهُ قَلْبِي وَنَفْسِي وَجِسِّي،
هو لَوْنٌ من ألوانِ عِبَادَةِ الْعَاكِفِ لِلْمَعْكُوفِ عَلَيْهِ.

﴿عَلَى أَضْنَامٍ لَهُمْ﴾: أي: على أضنام ذات صفاتٍ خاصّة، فهي لَهُمْ
يُؤْمِنُونَ بِنَفْعِ الْعُكُوفِ عَلَيْهَا، سواءً أشاركَهُمْ في الإيمان بها غيرهم أم كانوا
مُتَفَرِّدين في عبادتها.

قيل: كان هؤلاء القوم من الكنعانيين، وكانت أضنامهم على صورِ
البقر. قال قتادة: هُمْ لَحْمٌ وَجَذَامٌ، ورؤي عن ابنِ جُرَيْجٍ قال: تماثيل بقرٍ
من نحاسٍ، واللّه أعلم.

فاستنار عكوف هؤلاء القوم على أضنام لهم إعجاب جُفهور بني
إسرائيل. عندئذ:

• ﴿.. قَالُوا يَتُومَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ...﴾ (٢٨)

أي: اجعل لنا معبوداً واحداً نَعْكُفُ عَلَيْهِ، كما لهؤلاء القوم آلِهَةٌ
مُتَعَدِّدَةٌ يَعْكُفُونَ عَلَيْهَا عَابِدِينَ لَهَا.

تصوّر أصحاب هذه المقالة من بني إسرائيل، أنّ هؤلاء القوم لما
كانوا يؤمنون بأزباب متعدّدين، اتَّخَذُوا لَهُمْ صُوراً مِنَ الْأَضْنَامِ مُتَعَدِّدَةً
يَعْبُدُونَهَا، فهي آلِهَةٌ لَهُمْ، أي: مغبودات يعبدونها باعتبارها رُموزاً لأزبابهم.

ولما كان ربّ موسى وهارون وبني إسرائيل ربّاً واحداً، فليَتَّخِذْ موسى
لَهُ رَمْزاً مَادِّياً من الحجارَةِ أَوْ غَيْرِهَا، ليَكُونَ لَهُمْ إِلَهًا، أي: مغبوداً يعبدونه
وهم يُشَاهِدُونَهُ بِأَعْيُنِهِمْ.

وهذه أُولَى الْجِبَلِ الشَّيْطَانِيَّةِ لِإِذْخَالِ الشَّرِّ بِاللّهِ فِي النَّاسِ، وهي
اتِّخَاذُ الرُّمُوزِ الْمَادِّيَّةِ لِلّهِ الرَّبِّ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يُضَافُ إِلَى هَذَا أَنَّ بني إسرائيل عَاشُوا فِي اسْتِعْبَادِ الْمَضْرِبِينَ الْوَثْنِيِّينَ

لهم زمناً طويلاً، ولعلَّ عبادة الأوثانِ صَارَتْ مألُوفَةً لهم، وَغَيْرَ مُسْتَنَكِرَةٍ،
إِنَّمَا الْمُسْتَنَكِرُ مِنْهَا تَعَدُّدُهَا، وَكَوْنُهَا لَا تُمَثِّلُ فِي نَظَرِهِمُ الرَّبَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ
أَنْبِيََاؤُهُمْ وَرُسُلُهُمْ، مِنْذُ عُهُودِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ.

ولهذا رَدَّ عَلَيْهِمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ لَهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ
جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْآيَةِ.

﴿... قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

أي: إِنَّكُمْ مَا زِلْتُمْ تَجْهَلُونَ حَقِيقَةَ دِينِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، الَّذِي لَا يَسْمَحُ
بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ يُزَمَزَ لِدَاتِ اللَّهِ الرَّبِّ الْخَالِقِ بِجَسَدٍ مِنَ الْأَجْسَادِ
الْمَحْسُوسَةِ الْمَلْمُوسَةِ، وَلَا يَسْمَحُ بِأَنْ يُتَّخَذَ هَذَا الرُّمُزُ إِلَهًا يُعْبَدُ، وَلَوْ كَانَ
الْمَقْصُودُ مِنْ عِبَادَتِهِ بِأَيِّ لَوْنٍ مِنَ أَلْوَانِ الْعِبَادَاتِ عِبَادَةُ اللَّهِ الرَّبِّ مِنْ خِلَالِهِ.

فعبادة الله يَجِبُ أَنْ تَكُونَ تَوَجُّهًا لَهُ وَخَدَهُ، وَهُوَ غَيْبٌ عَنْ كُلِّ
الْحَوَاسِّ، كَمَا كَانَ الْإِيمَانُ بِهِ وَبِوُجُودِهِ بِالْدَّلِيلِ الْفِكْرِيِّ، وَهُوَ غَيْبٌ عَنْ كُلِّ
الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

أَمَّا الْقِبْلَةُ فَهِيَ الْمَكَانُ الْمَخْصُصُ لِتَوْجِهِ الْعَابِدِينَ فِي الصَّلَوَاتِ،
وَتَحْدِيدِ مَكَانِ الطَّوَافِ لَدَى عِبَادَةِ اللَّهِ بِهِ.

وَأَمَّا الْمَسَاجِدُ وَبُيُوتُ اللَّهِ فَهِيَ الْأَمْكِنَةُ الَّتِي تُخَصَّصُ لِتَكُونَ مِلْكَاً عَامًّا
يُعْبَدُ فِيهِ أَتْبَاعُ الدِّينِ رَبَّهُمْ بِحُرِّيَّةٍ تَامَّةٍ، فَلَا يَمْنَعُهُمْ عَنْهَا مَانِعٌ.

وَلِتَحْذِيرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ اتِّخَاذِ رُمُوزٍ مِنَ التَّمَاثِيلِ وَالصُّوَرِ يَتَوَجَّهُونَ
لَهَا بِالْعِبَادَةِ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ بَيَانًا مُفْصَّلاً دَوَّنَهُ كُتَابُهُمْ فِي سِفْرِ
الْخُرُوجِ، خَاطَبَ اللَّهُ فِيهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَتَضَمَّنُ خُطَابَ كُلِّ شَعْبٍ
بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَجَاءَ فِي الْإِصْحَاحِ الْعِشْرِينَ مِنْهُ:

﴿٢﴾ أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضٍ مُضَرٍّ مِنْ بَيْتِ الْعَبُودِيَّةِ ٣

لَا يَكُنْ آلِهَةٌ أُخْرَىٰ أَمَامِي ٤ لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْنَالًا مَّنْحُوتًا وَلَا صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقَ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ تَحْتٍ وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ ٥ لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدُهُنَّ لِأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ إِلَهٌ غَيْرٌ...».

وَبَعْدَ أَنْ قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ﴾ لِلَّذِينَ قَالُوا لَهُ مِنْ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ﴾ أَتَبَعَ بَيَانَهُ فَقَالَ لَهُمْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٣٩):

﴿مُتَّبِعُونَ﴾: أي: مُكْسِرٌ مُحْطَمٌ حَتَّى يَكُونَ فُتَاتًا صَغِيرَةً هَالِكَةً.

التَّبْهِيلُ: فِي اللُّغَةِ هُوَ التَّكْسِيرُ الشَّدِيدُ لِلشَّيْءِ حَتَّى يَكُونَ فُتَاتًا صُغْرَى، فَهُوَ بِمَعْنَى التَّحْطِيمِ وَالتَّقْطِيتِ وَالْإِهْلَاكِ.

أي: إِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الْعَاكِفِينَ عَلَى أَصْنَامَ لَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّ مَا هُمْ فِيهِ إِلَّا التَّكْسِيرَ وَالتَّحْطِيمَ وَالْإِبَادَةَ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَشْتَدُّ غَضَبُهُ عَلَى فَاعِلِهِ.

هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحَالَةِ الْقَائِمَةِ الْآنَ، وَلَوْ كُنَّا مَأْذُونِينَ الْآنَ بِقِتَالِهِمْ، لَحَطَمْنَا كُلَّ أَوْثَانِهِمْ وَأَصْنَامِهِمْ غَضَبًا لِلَّهِ، وَسَحَقًا لِلْأَعْمَالِ الشَّرَكِيَّةِ.

أَمَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ قَبْلِ مِنْ هَذِهِ الْعِبَادَاتِ الشَّرَكِيَّةِ، فَقَدْ كَانَ عَمَلًا بَاطِلًا لَمْ يَنْتَفِعُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ، لِأَنَّ أَصْنَامَهُمْ لَا تَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعًا، وَلَا تَذْفَعُ عَنْهُمْ ضَرًّا، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْفَعَهُمْ عِبَادَتُهُمْ لَهَا بِنَافِعَةٍ.

وَلَا حَظَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ اخْتِمَالًا أَنْ يَقَعَ فِي تَصَوُّرٍ بَعْضِ قَوْمِهِ وَجُودَ آلِهَةٍ تُعْبَدُ مَعَ اللَّهِ، وَيَكُونُ لَهَا نَفْعٌ مَا لِعَابِدِيهَا، فَقَالَ لَهُمْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ مِنَ السُّورَةِ:

• ﴿قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٠):

أَبْغِي: أَي: أَطْلُبْ، يُقَالُ لُغَةً: بَغَى الشَّيْءَ إِذَا طَلَبَهُ.

﴿أَبْيَعُكُمْ﴾: أي: أبغي لكم، فهو على حذف حرف الجر وإيصال مفعوله بالفعل مباشرة.

والاستفهام في الجملة استفهام تعجبي إنكاري، أي: أغير الله أطلب إلهاً تعبدونه؟! إن هذا أمر شنيع مستنكر.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: أي: وهو جل جلاله فضلكم بعقيدة التوحيد التي حافظتم عليها على العالمين من أهل زمانكم الذين عبدوا غير الله، واتخذوا أوثاناً وأصناماً وإلهة يعبدونها من دون الله افتراء على الحق، وكفراً بالله خالقهم وبارئهم، وكفراً بما أنزل على رسله من آيات بيانية، كلفهم فيها أن يؤمنوا به رباً لا شريك له، ويعبدوه وخذه إلهاً لا يشركون بعبادته شيئاً.

ويحسن بهذه المناسبة أن أورد حديثاً تضمن أن بعض أصحاب الرسول محمد ﷺ طلب منه طلباً مشابهاً لطلب بعض بني إسرائيل من موسى عليه السلام، فاستعظم الرسول ﷺ طلبهم، وقال: هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

روى ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن أبي واقد الليثي قال:

خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ حُنَيْنٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا هَذِهِ السِّدْرَةَ ذَاتَ أَنْوَاطٍ، كَمَا لِلْكَفَّارِ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، وَكَانَ الْكَفَّارُ يَتَوَطَّؤُنَ^(١) سِلَاحَهُمْ بِسِدْرَةٍ، وَيَعْكُفُونَ حَوْلَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

(١) يتطؤون: أي: يُعْلَقُونَ، يُقَالُ لُغَةً: نَاطَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ، وَنَاطَهُ عَلَيْهِ نَوَاطٌ، إِذَا عَلَّقَهُ بِهِ. فَالْنَوَاطُ: التَّعْلِيقُ، وَذَاتُ أَنْوَاطٍ: أَي: ذَاتُ تَعْلِيقَاتٍ بِهَا.

«اللَّهُ أَكْبَرُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ».



قول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ أَتَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾:

تمهيد:

وفي قراءة ابنِ عامر: ﴿وَإِذْ أَنْجَاكُمْ﴾ وَيُمْكِنُ أَنْ تكونَ هذه القراءة دالةً على أن موسى قال لبني إسرائيل مضمونَ ما جاء في هذه الآية.

أما على قراءة جمهور القراء العشرة فيحمل دالَتين:

الدلالة الأولى: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيَانًا خَاطَبَ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَعَانِي مَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

الدلالة الثانية: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَخَاطَبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، خُطَابًا يَذْكُرُهُمْ فِيهِ بِوَأَجِبِهِمْ تَجَاهَ رَبِّهِمْ، الَّذِي سَبَقَ أَنْ فَضَّلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، أَيَّامَ مُحَافَظَتِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ بِالرَّبِّ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَدَمِ الْإِشْرَاكِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ مِنْ شَرَائِعٍ وَأَحْكَامٍ، وَيُذَكِّرُهُمْ فِيهِ بِنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، إِذْ أَنْجَاهُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ بِآيَةٍ عَظِيمَةٍ خَارِقَةٍ، هِيَ آيَةُ قَلْقِ الْبَحْرِ لَهُمْ، وَإِعْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَجُنُودِهِ الَّذِينَ تَابَعُوهُمْ لِيُذَرِّكُوهُمْ، فَكَانَتِ الْوَسِيلَةُ الَّتِي أَنْجَاهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا هِيَ الْفُخَّ الَّذِي اسْتَدْرَجَ بِهَا فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مَعَهُ لِيُهْلِكَهُمْ غَرَقًا.

والغرض من هذا التذكير تَحْذِيرُهُمْ مِنْ مَعَانِدَةِ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمِنَ الْكُفْرِ بِهِ وَرَفْضِ اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ شَرَائِعٍ وَأَحْكَامٍ، فِي آيَاتِ

القرآن المجيد، فهم أَكْثَرُ النَّاسِ مَعْرِفَةً بِسُلْطَانِ اللَّهِ وَجَبْرُوتِهِ، وإِمْهَالِهِ لِعِبَادِهِ الجَاحِدِينَ، ثُمَّ بَطْشِهِ بِهِمْ، إِذْ هُمْ يَتْلُونَ فِي كُتُبِهِمْ كَيْفَ أَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، انْتِصَاراً لِمُوسَى وَهَارُونَ وَمَنِ اتَّبَعَهُمَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

ومن أَسْلُوبِ اللَّهِ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ فِي الْبَيَانِ أَنْ يُخَاطَبَ الْأَجْيَالُ اللَّاحِقَةُ مِنَ الْأُمَّةِ، بِالتَّغْيِيرِ الَّذِي تُخَاطَبُ بِهِ الْأَجْيَالُ السَّالِفَةُ، كَأَنَّهُمْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ، إِذَا كَانَتْ الْأَجْيَالُ اللَّاحِقَةُ تَرَى أَنَّهَا امْتِدَادٌ لِلْأَجْيَالِ السَّالِفَةِ فِي عَقَائِدِهَا، وَمَقْهُومَاتِهَا، وَشَرَعِيَّعِهَا، وَكُلُّ مَا لَهَا وَمَا عَلَيْهَا.

وقد تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ خِطَابُ أَجْيَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، كَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ جَرَتْ لَهُمُ الْأَخْدَاثُ الَّتِي جَرَتْ لِأَسْلَافِهِمْ، مِثْلَ مَا جَاءَ فِي الْآيَاتِ التَّالِيَةِ مِنْ سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

• ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْشُومَنِ لَنْ نَضِرَ عَلَى طَعَامٍ وَجَدٍ...﴾ (٦١)

• ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ...﴾ (٦٢)

• ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَيْنَاكُمْ فِيهَا...﴾ (٧٧)

• ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ...﴾ (٨٤)

وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْأَحْقِقِينَ الَّذِينَ لَمْ يُسْلِمُوا وَلَمْ يَتَّبِعُوا رَسُولَ اللَّهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ، قَدْ صَارَ وَلَاؤُهُمْ لِلْقَوْمِيَّةِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ، وَلِلْحِزْبِ الْإِسْرَائِيلِيِّ، لَا لِلَّهِ وَلِرُسُلِهِ وَآيَاتِهِ الْمُنْزَلَاتِ عَلَى رُسُلِهِ الْمُتَلَاَحِقِينَ، حَتَّى خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَجَعَلَهُمْ هَذَا الْوَلَاءُ الْقَوْمِيَّ الْحِزْبِيَّ التَّعَصُّبِيَّ يَرْفُضُونَ مَا يَنْبَغُ لِلَّهِ لَهُمْ مِنْ رَسُولٍ، وَمَا يُنْزَلُ عَلَى رُسُلِهِ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِيهَا شَرَائِعٌ وَأَحْكَامٌ. لِذَلِكَ كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي تَوْجِيهِ الْخِطَابِ أَنْ يُخَاطَبَ اللَّهُ الْأَحْقِقِينَ كَأَنَّهُمْ هُمْ أَغْيَانُ السَّابِقِينَ.

التدبر:

قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أُنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (١٤١):

• ﴿وَإِذْ أُنْجَيْنَاكُمْ﴾: أي: وضَعُوا في ذَاكِرَاتِكُمْ دَوَاماً وَفَتْ تَخْلِيصِنَا إِيَّاكُمْ. النَّجَاةُ فِي اللُّغَةِ: الْخَلَاصُ مِنَ الْمَكْرُوهِ.

وعلى أَنَّ الخطابَ مُوجَّهٌ لِبنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، فَالْمُرَادُ: وَإِذْ أَنْجَيْنَا أَصُولَكُمْ، وَهُمْ أَجْدَادُكُمْ الَّذِينَ تُفَاخِرُونَ بِهِمْ، وَتَرُونَ أَنَّكُمْ مَعَهُمْ كَجَسَدٍ وَاحِدٍ، فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ تَفْضِيلٍ هُوَ لَكُمْ أَيْضاً، لِأَنَّكُمْ أَحْفَادُهُمْ. فَلْيَكُنْ تَخْلِيصُ اللَّهِ لَهُمْ ذِكْرِي لَكُمْ دَافِعَةً لِلتَّزَامِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ. وَاتَّبَاعِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

• ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: أي: مِنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ الَّذِينَ كَانُوا حُكَّامَ مِصْرَ، وَالْمُسَيِّطِرِينَ سَيِّطَرَةً عَظْمَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِيهَا، مَعَ امْتِلَاكِهِمْ مُعْظَمَ مُقَدَّرَاتِ مِصْرَ وَأَمْوَالِهَا.

• ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾: أي: يُكَلِّفُونَكُمْ وَيُحْمَلُونَكُمْ الْمَشَقَّاتِ وَالْمَتَاعِبَ الَّتِي فِيهَا عَذَابٌ سَيِّئٌ لَكُمْ.

يقال لغة: سَامَهُ الْأَمْرَ، أي: كَلَّفَهُ إِيَّاهُ، وَحَمَلَهُ إِيَّاهُ. السَّوْمُ: تَجَشُّيْمٌ إِنْسَانٍ مَشَقَّةً، أَوْ سُوءاً أَوْ ظُلْماً.

وسوءُ الْعَذَابِ شَدِيدُهُ وَشَاقُّهُ وَمُؤْلِمُهُ، وَأَضْلُ الْكَلَامِ الْعَذَابُ السُّوءُ، فَأُضِيفَ الْوُضْفُ إِلَى الْمَوْصُفِ بِهِ، فَصَارَ التَّعْبِيرُ: ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾. وجملة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾: حَالِيَّةٌ.

• ﴿يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾: أي: يُقْتَلُونَ مَوَالِيدَكُمْ مِنَ الذُّكُورِ، لثَلَا يَكْثُرَ رِجَالُكُمْ فَيَكُونُوا خَطِراً عَلَى قُوَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ الْعَسْكَرِيَّةِ.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ : أي : وَيَسْتَبْقُونَ مَوَالِدَكُمْ مِنَ الْبَنَاتِ اللَّوَاتِي سَيَكُونُ مَصِيرُهُنَّ أَنْ يَكُنَّ نِسَاءً أَحْيَاءَ، فَلَا يَقْتُلُونَهُنَّ.

يُقَالُ لُغَةً : اسْتَحْيَا الْأَمِيرُ الْأَسِيرَ، أَي : اسْتَبْقَاهُ حَيًّا فَلَمْ يَقْتُلْهُ.
وَالْغَرَضُ مِنْ اسْتَحْيَائِهِنَّ اسْتِعْبَادُهُنَّ، وَتَكْلِيفُهُنَّ الْخِدْمَاتِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَكَثْرَةُ النِّسَاءِ لَا تُشْكِلُ خَطَرًا عَلَى قُوَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ الْعَسْكَرِيَّةِ فِي مِصْرَ.

إِطْلَاقُ كَلِمَةِ «نِسَاء» عَلَى الْمَوَالِيدِ مِنَ الْبَنَاتِ، هُوَ مِنَ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ، وَهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ اللَّفْظِ عَلَى الشَّيْءِ بِاعْتِبَارِ مَا سَيُؤُولُ إِلَيْهِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢١) : أَي : سَيُؤُولُ أَمْرُهُ إِلَى الْفَنَاءِ بَعْدَ مَوْتِهِ.

وعبارة : ... ﴿يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ : ... بَدَلٌ مِنْ
عبارة : ﴿يُسْؤُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وهو بَدَلٌ بَعْضٍ مِنْ كُلِّ.

• ... ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ : أَي : وَفِي ذَٰلِكُمْ
الَّذِي كَانَ يَجْرِي لِأَجْدَادِكُمْ فِي مِصْرَ امْتِحَانٌ لَّكُمْ عَظِيمٌ مِنْ رَبِّكُمْ، الَّذِي
كَافَأَكُمْ عَلَى الصَّبْرِ عَلَيْهِ بِأَنْ فَضَّلَكُمْ عَلَى أَهْلِ تِلْكَ الْقُرُونِ، وَأَنْجَاكُمْ
بِالْمُعْجَزَةِ الْخَارِقَةِ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْكُمْ رُسُلًا وَأَنْبِيَاءَ وَمُلُوكًا، كَمَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي
نُصُوصِ قُرْآنِيَّةٍ أَنْزَلْتَ بَعْدَ هَذَا النَّصِّ.



الفقرة الرابعة

الآيات من (١٤٢ - ١٤٧)

ميعاد الميقات الأول وهو ميقات كِتَابَةِ الْأَلْوَا ح

قال الله عز وجل :

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ

وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَوُنَّيْ فَلَمَّا جَحَلَىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ
 جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتِ لِيْلِكَ وَأَنَا أَوَّلُ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَمُْوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَىٰ فَخُذْ مَا
 ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ
 مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ
 الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا
 كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا
 سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾
 وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴿١٤٧﴾

القراءات :

(١٤٢) • قرأ أبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [وَوَاعَدْنَا] من الفعل

الثلاثي المجرد.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَوَاعَدْنَا]: على وزن «فَاعَلَ» الدال على

المشاركة.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذ يدل هذا الإجراء
 على أن الله عز وجل وَعَدَ موسى أولاً، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَكَّدَ لَهُ هذا الوعد،
 وأَعْلَنَ موسى طاعته لِتَنْفِيذِ الحضور في الميقات المحدد، فكانت بَيِّنَةٌ وَبَيِّنَ
 رَبِّهِ مُوَاعِدَةً، حُدِّدَ فِيهَا الميقاتُ الزَّمَانِي والميقات المَكَانِي، فجاءت القراءتان
 للدلالة على الحاليتين، الوعد من اللّه أولاً، والوعد التأكيدي المقرون
 بإعلان موسى طاعته أن يحضر.

(١٤٣) • قرأ ابن كثير، والسُّوسِي، ويعقوب: [أَرْنِي] بإسكان الراء.

وقرأ الدُّورِي باختِلَاسٍ كَسْرَةَ الراء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أرني] بكسر الراء .

وهي وجوه عريضة لنطق الكلمة .

(١٤٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [دكأ].

وقرأ باقي القراء العشرة: [دكأ].

وبين القرائتين تفنن في الأداء البياني:

فمعنى: [دكأ] مذكوكاً، من فعل ذك الشيء ذكاً، أي: دقه ودفعه، فسأخ الجبل في الأرض، وصار مكانه مساوياً لما حوله من الأرض المتبسطة.

ومعنى: [دكأ]: أرض مستوية، أو كثافة لاسنام لها، على تشبيه الجبل بالسنام، وتشبيه الموقع بظهر الناقة. فالدكأ في اللغة الناقة التي لا سنام لها. أي: صار مكان الجبل كثافة لا سنام لها، والدكأ في اللغة الأرض المستوية.

(١٤٣) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [وَأَنَا أَوَّلُ] بألف ذات مد بعد نون «أنا».

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَأَنْ أَوَّلُ] بنون مفتوحة فقط دون ألف بعدها.

والقراءتان وجهان عريان لنطق ضمير المتكلم «أنا».

(١٤٤) • قرأ ابن كثير وأبو عمرو: [إِنِّي اضْطَفَيْتُكَ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [إِنِّي اضْطَفَيْتُكَ] بإسكان ياء المتكلم.

والقراءتان وجهان عريان لنطق ياء المتكلم.

(١٤٤) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، ورّوح: [بِرِسَالَتِي] بالإفراد.

وقرأ باقي القراء العشرة: [بِرِسَالَتِي] بالجمع.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، فالإفراد لوحظ فيه مجموع الرسالة، والجمع لُوَحِظَ فيه ما كان ينزل على موسى من رِسَالَاتٍ أَنَا فَأَنَا.

(١٤٦) • قرأ ابن عامر، وحمزة: [آيَاتِي الَّذِينَ] بإسكان ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [آيَاتِي الَّذِينَ] بفتح ياء المتكلم.

وهما وجهان عربيان كما سبق بيانه لنطق ياء المتكلم.

(١٤٦) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [الرُّشْدُ] بفتح الراء المشددة وفتح الشين.

وقرأ باقي القراء العشرة: [الرُّشْدُ] بضم الراء المشددة وإسكان الشين.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق كلمة: «الرُّشْد».

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

• ﴿وَوَعَدْنَا﴾ وفي القراءة الأخرى: [وَوَعَدْنَا] هاتان القراءتان «وَوَعَدْنَا» و«وَعَدْنَا» جاءتا أيضاً في الآية (٥١) من سورة (البقرة)، وفي الآية (٨٠) من سورة (طه).

الْوَعْدُ: هو الإخبار بما تَمَّ الْعَزْمُ على فعله في المستقبل، يقال لغة: وَعَدَهُ الْأَمْرَ، وَعَدَهُ بِالْأَمْرِ، عِدَّةً، وَوَعْدًا، وَمَوْعِدًا، وَمَوْعِدَةً.

ويكون الوعد بالخير وبالشر، أما الوعيد والإيعاد فهما في الشر خاصة.

والمواعدة مُشَارَكَةٌ في الوعد، ويكون فيها كُلُّ من الطَّرَفَيْنِ وَاِئِدًا وَمَوْعُودًا.

● ﴿مُوسَى﴾: أي: وأن يكون بنو إسرائيل معه أخذًا ممَّا جاء في سورة (طه) وخصَّ الله موسى بهذا الوعد التكريميِّ التشريفيِّ، لِيُكَلِّمَهُ وَيُنَاجِيَهُ، وَيَكْتُبَ لَهُ فِي الْأَلْوَحِ الْوَصَايَا التَّعْلِيمِيَّةَ، فِي الْوَادِي الْمَقْدَسِ طُوًى، عِنْدَ جَبَلِ الطُّورِ.

● ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾: يتخلَّلُهَا تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا، رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا شَهْرُ ذِي الْحِجَّةِ، أَي: بَعْدَ أَحَدِ عَشَرَ شَهْرًا إِلَّا عَشْرَةَ أَيَّامٍ مِنْ يَوْمِ النِّجَاةِ، إِذَا كَانَ هَذَا فِي السَّنَةِ نَفْسِهَا الَّتِي تَمَّتْ فِيهَا النِّجَاةُ.

● ﴿وَأَتَمَمْنَا ثَلَاثِينَ لَيْلَةً بِعَشْرِ لَيَالٍ أُخْرَى﴾: أي:

﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ مُوسَى قَالَ لِقَوْمِهِ: «إِنَّ رَبِّي وَعَدَنِي ثَلَاثِينَ لَيْلَةً أَنْ أَلْقَاهُ وَأُخْلَفَ هَارُونَ فِيكُمْ، فَلَمَّا فَصَلَ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ زَادَهُ اللَّهُ عَشْرًا، فَكَانَتْ فَتَنَتُهُمْ فِي الْعَشْرِ الَّتِي زَادَهَا اللَّهُ».

أي: فَكَانَتْ زِيَادَةُ الْعَشْرِ لِيُخْتَبَرَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذَا لَمْ يَعُدْ مُوسَى إِلَيْهِمْ، عَقِبَ انْتِهَاءِ اللَّيَالِي الثَّلَاثِينَ مُبَاشَرَةً، مَاذَا يَفْعَلُونَ، وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُونَ، وَهُمْ بِقِيَادَةِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَوَزِيرِ مُوسَى مِنْ أَهْلِهِ.

وَبِإِضَافَةِ اللَّيَالِي الْعَشْرِ إِلَى اللَّيَالِي الثَّلَاثِينَ كَانَ الْمِيقَاتُ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً.
وَاللَّهُ يُعْطِينَا بِهَذَا الْبَيَانِ مِفْتَاحَ ضَبْطِ الْحِسَابِ بِالْجَمْعِ.

المِيقَاتُ: هو الْوَقْتُ الْمَحْدَدُ لِأَمْرِ مَا، فِعْلاً كَانَ أَمْ تَرْكَاً، وَالْمَوْعِدُ
الَّذِي حُدِّدَ وَقْتُ لَهُ بَدَايَةٌ وَلَهُ نِهَآيَةٌ، هَذَا هُوَ الْمِيقَاتُ الزَّمَانِي.

وَيُطْلَقُ: «المِيقَاتُ» أَيْضاً عَلَى الْمَكَانِ الْمَخْصُصِ لِأَمْرِ مَا، فِعْلاً كَانَ
أَمْ تَرْكَاً، وَهَذَا هُوَ الْمِيقَاتُ الْمَكَانِي.

● ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
الْمُفْسِدِينَ﴾:

كَانَ مَقْتَضَى الْوَعْدِ لِمُوسَى وَلِقَوْمِهِ الْحُضُورُ جَمِيعاً إِلَى جَانِبِ الطُّورِ،
وَلَكِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَغِبَ أَنْ يَسْبِقَ قَوْمَهُ ابْتِغَاءً مَرْضَاةَ رَبِّهِ، فَقَوَّى
عَلَيْهِمْ أَخَاهُ هَارُونَ، عَلَى أَنْ يَسِيرُوا إِلَى جِهَةِ الطُّورِ مُتَابِعِينَ لَهُ وَسَاطِرِينَ
عَلَى أَثَرِهِ، وَجَاءَ فِي سُورَةِ (طه) أَنَّ اللَّهَ سَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ تَعَجُّلِهِ، فَقَالَ لَهُ:
﴿هُمْ أَوْلَاءَ عَلَى أَثَرِي وَعَصَيْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِرِضَى﴾ (٨٤).

وَقَدْ دَلَّ قَوْلُ مُوسَى لِأَخِيهِ، عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَضْدَرَ أَمْرَ
اسْتِخْلَافِ أَخِيهِ هَارُونَ، لِيَتَوَلَّى أُمُورَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ قَائِداً رَشِيداً حَكِيماً،
سَاطِراً بِهِمْ عَلَى أَثَرِهِ، إِذْ انْطَلَقَ إِلَى لِقَاءِ رَبِّهِ فِي الْمِيقَاتِ الزَّمَانِي، وَالْمِيقَاتِ
الْمَكَانِي، اللَّذَيْنِ وَعَدَهُ اللَّهُ فِيهِمَا.

وَقَدْ اشْتَمَلَ أَمْرُ الاسْتِخْلَافِ هَذَا عَلَى ثَلَاثِ مَوَادِّ:

المَادَّةُ الْأُولَى: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي﴾:

أَي: كُنْ وَلِيَّ أَمْرِ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مُدَّةَ غِيَابِي عَنْهُمْ، فِي رِخْلَتِي لِلِقَاءِ
رَبِّي حَسَبَ الْوَعْدِ الَّذِي وَعَدَنِي.

المَادَّةُ الثَّانِيَّةُ: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَأَصْلِحْ﴾:

فعل: «أُضْلِحْ» يَسْتَعْمَلُ لَازِماً، وَيَسْتَعْمَلُ مُتَعَدِّياً.

يُقَالُ لُغَةً: أَضْلَحَ الرَّجُلُ فِي عَمَلِهِ، أَوْ فِي أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ، أَي: أَتَى بِمَا هُوَ صَالِحٌ نَافِعٌ.

وَيُقَالُ أَيْضاً: أَضْلَحَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ، أَي: أَزَالَ فَسَادَهُ، وَيُقَالُ: أَضْلَحَ بَيْنَ الْخُضَمَيْنِ، أَوْ أَضْلَحَ ذَاتَ بَيْنِهِمَا، أَي: أَزَالَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ عداوةٍ وَشِقَاقٍ، أَوْ أَزَالَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ خِلَافٍ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ تَكْلِيفُ مُوسَى أَخَاهُ هَارُونَ بِأَنْ يُضْلِحَ عَلَى الْمُغْتَنِينَ، أَي: اِغْمَلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةَ فِي إِدَارَتِكَ وَسِيَاسَتِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ تَتَوَلَّى قِيَادَتَهُمْ مُدَّةً غِيَابِي، وَأُضْلِحْ مَا يُفْسِدُ الْمُفْسِدُونَ إِنْ حَصَلَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، بِحُسْنِ السِّيَاسَةِ، وَبِإِقْفَافِ انْتِشَارِ الْفَسَادِ، وَالْأَخْذِ عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ، وَبِعَادَةِ الْأَمْرِ إِلَى الصَّلَاحِ مَا وَجَدْتَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً، وَلَا تَدَعِ الْمُفْسِدِينَ يَغْبُثُونَ دُونَ زَجَرٍ أَوْ عِقَابٍ.

وَمِنَ الْإِصْلَاحِ الْأَخْذُ بِالْحَزْمِ أَخِيَاناً، وَالْأَخْذُ بِالرَّفْقِ وَالتَّسَامُحِ أَخِيَاناً أُخْرَى.

وَمِنَ الْإِصْلَاحِ عِقَابُ مُسْتَحِقِّي الْعِقَابِ، وَمُكَافَأَةُ مُسْتَحِقِّي الثَّوَابِ، وَإِكْرَامُ مُسْتَحِقِّي الْإِكْرَامِ.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ تَدْخُلُ فِي حُسْنِ الْإِدَارَةِ وَالسِّيَاسَةِ.

المادة الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾:

أَي: وَإِذَا كَوَّنَ الْمُفْسِدُونَ تَجْمُعاً كَثِيراً ضَاغِطاً، حَتَّى صَارَتْ قُوَّتُهُمْ هِيَ الْقُوَّةَ الْمَسْطُورَةَ فِي جُمْهُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَا تَلِنْ لَهُمْ، وَلَا تُسَايِرْهُمْ، وَلَا تُدَارِهِمْ، مُتَّصِوَرًا أَنَّ اتِّبَاعَ سَبِيلِهِمْ قَدْ يَكُونُ هُوَ الْأَخْكَمُ فِي السِّيَاسَةِ، مَحَافِظَةً عَلَى وَحْدَةِ الْقَوْمِ، وَعَدَمِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ صُفُوفِهِمْ.

فَالْأَخْذُ بِالْحَزْمِ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَضْعِ هُوَ وَاجِبٌ قَائِدُ الْأُمَّةِ وَوَلِيَّ أَمْرِهَا، أَمَّا مُدَارَاةُ الْمَفْسِدِينَ، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِهِمْ، فَهُوَ أَمْرٌ يُفْضِي إِلَى شَرٍّ مُسْتَطِيرٍّ، وَعَوَاقِبَ وَخِيمَةٍ، وَيَنْتَهِي بِالْأُمَّةِ إِلَى مَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ الْأُمَمُ قَبْلَهَا، فَتَسْتَحِقُّ عَذَابَ اللَّهِ، وَرُبَّمَا اسْتَحَقَّتْ الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ إِذَا تَمَادَتْ فِي غِيَّهَا وَفَسَادِهَا وَإِفْسَادِهَا.



قول الله عز وجل:

● ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَتُحِبُّ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تُرِنِّي وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنُنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾:

● ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾: أي: ولَمَّا جَاءَ مُوسَى لِأَجْلِ مُقَابَلَتِنَا فِي مِيقَاتِنَا الْمَكَانِي وَالزَّمَانِي، وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، وَالْمَعْنَى: لَمَّا حَصَلَ هَذَانِ الْأَمْرَانِ.

يَتَحَدَّثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ نَفْسِهِ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، إِشْعَاراً بِقِيَمَةِ هَذِهِ الْمَقَابَلَةِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي كَرَّمَ اللَّهُ بِهَا مُوسَى فَكَلَّمَهُ فِيهَا تَكْلِيماً مُبَاشِراً دُونَ وَاسِطَةِ رَسُولٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَنْقُلُ لَهُ كَلَامَ رَبِّهِ.

وجاء في العبارة وَضْعُ الْأَسْمِ الظَّاهِرِ فِي ﴿رَبُّهُ﴾ موضع الضمير، إِذْ كَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يَأْتِيَ فِي الْعِبَارَةِ: «وَكَلَّمْنَاهُ» فَعَدِلَ عَنْهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّكْلِيمَ يَتَعَلَّقُ بِخَصَائِصِ صِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، الَّتِي تَسْتَدْعِي أَنْ يَعْبُدُوهُ وَخَذَهُ إِلَهاً لَا شَرِيكَ لَهُ، فِي حُدُودِ شَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ وَوَصَايَاهُ وَبَيِّنَاتِهِ الَّتِي يُنْزِلُهَا إِلَيْهِمْ.

﴿لَمَّا﴾: ظَرْفُ زَمَانٍ بِمَعْنَى «الْحِينَ» وَتَخْتَصُّ بِالْدُخُولِ عَلَى الْمَاضِي،

وَيَكُونُ جَوَابُهَا فِعْلاً مَاضِياً، أَوْ جُمْلَةً اسْمِيَّةً مَقْرُونَةٌ بِالْفَاءِ، أَوْ بِـ «إِذَا» الْفَجَائِيَّةِ.

● ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾: أي: لَمَّا حَصَلَ الْأَمْرَانِ اللَّذَانِ سَبَقَ بَيَانُهُمَا، قَالَ مُوسَى رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، هَذَا جَوَابُ «لَمَّا».

لَقَدْ تَجَرَّأَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ التَّكْلِيمِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي كَلَّمَهُ إِيَّاهُ رَبُّهُ دُونَ أَنْ يُرِيَهُ ذَاتَهُ جَلَّ جَلَّالُهُ، فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْ رُؤْيَا ذَاتِهِ بِبَصَرِهِ.

أي: رَبِّ ارْزُقْ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ ذَاتِكَ الْحِجَابَ وَمَكِّنِي مِنْ رُؤْيَاكَ أَنْظُرْ إِلَيْكَ.

فَفِعَلَ: «ارْنِي» سَأَلَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ شَيْئاً يَفْعَلُهُ رَبُّهُ لَهُ، وَهُوَ رَفْعُ الْحِجَابِ، وَتَمَكِينُهُ مِنْ رُؤْيَا ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ.

وَفِعَلَ: «أَنْظُرْ» دَلَّ عَلَى عَمَلٍ يَقُومُ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِمَعُونَةِ اللَّهِ لَهُ، بَعْدَ أَنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ لَهُ مَطْلُوبَهُ، فَهُوَ جَوَابُ الطَّلَبِ فِي «ارْنِي».

وَالْمَعْنَى: رَبِّ إِنْ رَفَعْتَ الْحِجَابَ وَمَكَّنْتَنِي وَأَعْتَنَيْتَنِي عَلَى النَّظَرِ إِلَيْكَ، فَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْكَ.

● ﴿... قَالَ لَنْ تَرِنِّي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي...﴾ (١٤٣).

دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَّالُهُ، قَدْ أَبَانَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَجَزَ تَكْوِينِهِ الْبَشَرِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَنْ رُؤْيَا رَبِّهِ، فَقَالَ لَهُ: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾.

وَلَعَلَّأَ يَتَصَوَّرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَمْنَحَهُ فَضْلَ هَذِهِ الرُّؤْيَا، مَعَ وُجُودِ الْإِسْتِعْدَادِ التَّكْوِينِيِّ لَدَيْهِ الَّذِي يُؤْهِلُهُ لِرُؤْيَا رَبِّهِ، اسْتَدْرَكَ فَوَضَعَهُ فِي تَجَرِبَةٍ عَمَلِيَّةٍ، أَظْهَرَ لَهُ فِيهَا عَجْزَهُ بِحَسَبِ تَكْوِينِهِ

البشري عَنْ مُشَاهَدَةِ بَعْضِ تَجَلِّيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَبَلِ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْجَبَلَ إِنِ اسْتَقَرَّ فِي مَكَانِهِ فَسَيَكُونُ لَدَى مُوسَى فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْبَعِيدِ قُدْرَةً عَلَى رُؤْيَةِ رَبِّهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَسَوْفَ يَرَى رَبَّهُ وَلَوْ عِنْدَ آخِرِ حَيَاتِهِ، وَهَذَا الْوَعْدُ مُعَلَّقٌ بِشَرْطِ اسْتِقْرَارِ الْجَبَلِ فِي مَكَانِهِ، لَكِنَّ التَّجَرِبَةَ أَثَبَّتَتْ أَنَّ الْجَبَلَ لَمْ يَسْتَقِرَّ فِي مَكَانِهِ، وَأَنَّ مُوسَى لَمْ يَقَوْ عَلَى رُؤْيَةِ مُنْعَكِسِ التَّجَلِّيِ الرَّبَّانِيِّ عَلَى الْجَبَلِ، إِذْ صَبَقَ فَخَرٌ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، دَلٌّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

● ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا...﴾ (١٤٣) ﴿

● ﴿فَلَمَّا﴾ : أي : فحين : ﴿تَجَلَّى﴾ : أي : أزال الربُّ بَعْضَ مَا بَيْنَ ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ الْجَلِيلَةِ وَمَا بَيْنَ الْجَبَلِ - وَهُوَ جَبَلُ الطُّورِ - مِنْ حُجُبٍ، لَمْ يَقَوْ الْجَبَلَ عَلَى تَحْمِلِ هَذَا التَّجَلِّيِ، بَلْ جَعَلَهُ هَذَا التَّجَلِّيَ دَكًّا، أي : مَذْكُوكًا، مَذْفُوعًا، سَائِخًا فِي الْأَرْضِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ مَرْتَفِعٌ عَمَّا حَوْلَهُ مِنَ الْأَرْضِ. أَقِيمِ الْمَضَدَّ «دَكًّا» مَقَامَ اسْمِ الْمَفْعُولِ، وَهَذَا عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ.

وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ : [دَكَّاءَ] عَلَى التَّأْنِيثِ، فَلَهَا فِي اللَّغَةِ مَعْنِيَانِ :

المعنى الأول : جَعَلَهُ أَرْضًا مُسْتَوِيَّةً، يُقَالُ : أَرْضٌ دَكَّاءٌ، أي : مُسْتَوِيَّةٌ، وَجَمْعُهَا دَكَاوَاتٌ، كَحَمَرَاءَ وَخَمَرَاوَاتٍ، أوردته المفسرون.

المعنى الثاني : جَعَلَهُ غَيْرَ ذِي وَجُودٍ ظَاهِرٍ، كَالثَّاقَةِ الدَّكَّاءِ، وَهِيَ الَّتِي لَا سَنَامَ لَهَا، يُقَالُ لُغَةً : ذَكَ الْبَعِيرُ يَذُكُ دَكَّاءً، إِذَا ذَهَبَ سَنَامُهُ، فَهُوَ أَذْكٌ، وَالثَّاقَةُ دَكَّاءٌ.

وَلَا بُدَّ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَبْقَى الْحُجُبَ دُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ تَجَلِّيهِ.

روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قَالَ :

«هَكَذَا بِأُضْبَعِهِ، وَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْإِبْهَامَ عَلَى الْمِفْضَلِ الْأَعْلَى مِنَ الْخُنْصَرِ فَسَاخَ الْجَبَلُ» قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ غريب، وقال الحاكم: حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم.

أي: كان مقدارُ التجلّي قليلاً جداً، بمقدارِ وضعِ الإبهامِ على شيءٍ ما.

● ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَوْغًا﴾: أي: وسَقَطَ مُوسَى عليه السّلام بدُونِ تَوَقُّفٍ على الأرض، من أثرِ مُشَاهَدَتِهِ لِلْجَبَلِ وَهُوَ يَنْدَكُ، إِذْ لَمْ يَتَحَمَّلْ أَثَرَ انْعِكَاسِ الثُّورِ الرَّبَّانِيِّ عَنِ الْجَبَلِ الْمُنْدَكِ، وَيُظْهَرُ أَنَّهُ خَرَّ فِي اتِّجَاهِ وَجْهِهِ.

﴿صَوْغًا﴾: أي: مَغْشِيًا عَلَيْهِ فِي حَالَةِ إِغْمَاءٍ، وَقِيلَ: مَيِّتًا، وَلَعَلَّ الْأَوَّلَ أَزْجَحُ.

يُقَالُ لُغَةً: صَعِقَ الرَّجُلُ يَصْعَقُ صَعَقًا، وَصُعَقًا، وَصُعَاقًا، أَي: غُشِيَ عَلَيْهِ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى هَلَكَ، فَهُوَ صَعِقٌ، وَهِيَ صَعِقَةٌ.

وَتَبَيَّنَ فِي صَحِيحِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَذْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ الطُّورِ».

«لَا تُخَيِّرُونِي»: أي: لَا تَجْعَلُونِي الْأَخِيرَ مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى سَبِيلِ الْمَنَافَسَةِ.

«فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»: أي: حِينَ يَتَجَلَّى اللَّهُ لَهُمْ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ.

وقد دَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ أُعْطِيَ لِمُوسَى

فَضَلَ السَّبْقَ لِلْإِمْسَاكِ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، إِمَّا لِأَنَّهُ يُفِيقُ مِنَ الصَّعْقَةِ قَبْلَهُ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَضَعُقْ مُكَافَأَةً لَهُ، إِذْ سَبَقَ أَنْ ذَاقَ هَذِهِ الصَّعْقَةَ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ جَبَلِ الطُّورِ.

● ﴿... فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٤٣ ﴿:

أي: فَحِينَ أَفَاقَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ صَعْقَتِهِ، قَالَ يُخَاطَبُ رَبُّهُ، مُنْزَهًا إِيَّاهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَعُلُوِّ شَأْنِهِ، قَائِلًا: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: أَتَزْهَكُ تَنْزِيهًا تَامًا عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِكَ.

وقائلاً: ﴿تُبَّتْ إِلَيْكَ﴾ أي: رَجَعْتُ إِلَيْكَ تَائِبًا مِنْ أَنْ أَسْأَلَكَ مِثْلَ هَذَا السُّؤَالِ الَّذِي لَا يَلِيْقُ بِمِثْلِي أَنْ يَسْأَلَهُ.

أقول: إِنَّ تَوْبَةَ الرُّسُلِ هِيَ تَوْبَةٌ عَمَّا لَا يَخْسُنُ أَنْ يَضْدَرَ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُمْ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ.

وقائلاً: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ إِيمَانًا بِالْغَيْبِ عَنْ حَوَاسِي الظَّاهِرَةِ، وَلَمْ أَطْلُبْ رُؤْيَا دَاتِكَ لِإِيمَانِ بِكَ إِيمَانًا كَامِلًا، فَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ مِنْ قَوْمِي، وَلَوْ لَمْ أَشْهَدْ ذَاتَكَ بِعَيْنِي.



قول الله عز وجل:

● ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ١٤٤ ﴿:

بعد إعلان موسى عليه السلام تنزيهه لذاته، وتوبته من سؤاله ربه ما لا يليق بمثله، وأنه أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ:

● ﴿قَالَ﴾ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ:

● ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي﴾:

نَادَى اللَّهُ مُوسَىٰ بِنْدَاءِ الْبَعِيدِ ﴿يَمْوَسَّىٰ﴾ مَعَ كَمَالِ الْقُرْبِ، لِلإشْعَارِ بِبُعْدِ الْمَسَافَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ بَيْنَ الرَّبِّ وَبَيْنَ الْعَبْدِ، مَهْمَا قَرَّبَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ نَجِيًّا، أَيْ: مُنَاجِيًّا لَهُ مِنْ دُونِ سَائِرِ النَّاسِ.

● ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾: أَيْ: إِنِّي اخْتَرْتُكَ، وَانْتَقَيْتُكَ، وَفَضَّلْتُكَ عَلَى النَّاسِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِكَ، وَيَحْمِلُ الْإِصْطِفَاءُ مَعْنَى انْتِقَاءِ صَفْوَةِ الْعِبَادِ.

جاء في هذه الجملة تأكيد اصطفاء الله له وامتنانه عليه بـ «إِنَّ - والجملة الاسمية - وجعل الخبر جملة فيها ضمير المتكلم» ليستحبه الله جلَّ جلاله عَلَى الْمُطْلُوبِ مِنْهُ.

● ﴿عَلَى النَّاسِ﴾: أَيْ: مُؤَثِّرًا وَمُفَضِّلًا إِيَّاكَ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِكَ بِمَزَيَّتَيْنِ:

الْمَزِيَّةُ الْأُولَى: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿بِرِسَالَتِي﴾ بِالْجَمْعِ مُرَاعَةً لِمَا كَانَ يُكَلِّفُهُ إِيَّاهُ أَنَا فَأَنَا، حَامِلًا بِهِ رِسَالَاتٍ لِلنَّاسِ بِصُورَةٍ مُنْجَمَةٍ. أَمَّا عَلَى الْقِرَاءَةِ الْآخَرَى: [بِرِسَالَتِي] بِالْإِفْرَادِ، فَقَدْ رُعِيَ فِيهَا عُمُومُ رِسَالَتِهِ مُنْذُ بَعَثْتِهِ حَتَّى وَفَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْمَزِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: [وَبِكَلَامِي] أَيْ: وَبِكَلَامِي الْمُبَاشِرِ لَكَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، دُونَ وَسَاطَةِ رَسُولٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَنْقُلُ إِلَيْكَ كَلَامِي، وَالْمُرَادُ مُنَاجَاتُهُ لَهُ فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي نَاجَاهُ فِيهَا، أَمَّا فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ فَقَدْ كَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ السَّفِيرُ الرَّبَّانِيُّ الَّذِي كَانَ يَنْقُلُ مَا يُوحِي اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ.

ونلاحظ في رسالة موسى الجامعة لرسالاتٍ متعدّدة مُتَفَرِّقَاتٍ، أَنَّهَا امْتَاَزَتْ عَنْ سَائِرِ رِسَالَاتِ الرُّسُلِ بَعْدَهُ مِيزَاتٍ:

● أَنَّهَا حَمَلَتْ مُهِمَّةَ مُعَالَجَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنَ الْقَبْطِ.

● ومُهَمَّةٌ قيادة بني إسرائيل وتَرْبِيَتِهِمْ ومعالجتهم بالصَّبْرِ والتَّثْبِيتِ، وَشَحْنِ القُوَى، لاستخراج مَشَاعِرِهِمْ من الخنوع والرضا بالمدلَّةِ والعبوديَّةِ لآل فرعون، وَرَبِّطُهُمْ بدين الله الحق.

● ومُهَمَّةٌ تَبْلِيغُ دين الله للمصريين ولبني إسرائيل.

● والآياتِ التُّسْعُ الَّتِي آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، وكيف يتعامل معها في معالجة المعاندين المجرمين، ذوي الجبروت والسلطان، والدولة الاستبدادية الظَّالِمة المستَغْبِدة.

ومعلومٌ أَنَّ معالجةَ فِرْعَوْنَ وآلِهِ وسائرِ المضْطَّهَرِينَ، مع معالجة بني إسرائيل المنفصلين أعراقاً وأنساباً وَعَقَائِدَ ومفاهيمات عن المصريين، والمتشابهين معهم في بيئة اجتماعية واحدة، والمستعبدين لَهُمْ، تتطلَّبُ خصائصَ نَفْسِيَّةٍ عالية، وإرادةً قويَّةً حازمة، وحِكْمَةً رفيعة في تَضْرِيْفِ الأمور، وقدراتٍ جَسَدِيَّةٍ تتحمَّلُ المشقات، ومُؤَهَّلَاتٍ إِدَارِيَّةً فَدَّةً.

كُلُّ هَذِهِ الرِّسَالَاتِ، قد كانت ذوات ميزات تحتاج أن يَضْطَفِيَّ اللهُ لَهَا إِنْسَاناً من أولي العزم، يَتَمَتَّعُ بخصائص وميزات تُؤَهِّلُهُ لحملها.

وأؤكدُ أَنَّ التَّمْيِيزَ بِبَعْضِ الْخَصَائِصِ لَا يَقْتَضِي التَّفْضِيلَ الْعَامَّ عَلَى جَمِيعِ الرُّسُلِ، فالاصطفاء لحملِ مُهَمَّاتٍ تَتَطَلَّبُ مِيزَاتٍ خَاصَّةً قَدْ يَنْفَرِدُ بِهِ مُضْطَفًى بَعِيْنِهِ، وَقَدْ تُوجَدُ مُهَمَّاتٌ أُخْرَى يَضْطَفِيَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهَا مُضْطَفًى آخَرَ، لَهُ مِيزَاتٌ يَنْفَرِدُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ.

وقد أَعْلَمَنَا اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ، فقال تبارك وتعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَةً وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْكِتَابَ وَآيَدْنَاهُ رُوحَ الْقُدُسِ...﴾ (١٥٦) ﴿

ومع أن محمداً ﷺ قَدْ فَضَّلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ، فَإِنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَسْمَحْ لِأُمَّتِهِ بِأَنْ يُفَاخِرُوا بِرَسُولِهِمْ، وَيُخَيِّرُوهُ عَلَى سَائِرِ الرُّسُلِ، لَمَّا فِي هَذِهِ الْمَفَاخِرَةِ مِنْ تَنَافُسٍ دَافِعُهُ الْأَنَانِيَّةُ فِي دَوَائِرِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ، وَالرُّغْبَةُ فِي الِاسْتِعْلَاءِ فِي الْأَرْضِ، مَعَ أَنَّ الْأَمْرَ يَرْجِعُ إِلَى فَضْلِ اللَّهِ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، لَا إِلَى الْمَكْتَسَبَاتِ الْإِرَادِيَّةِ الَّتِي قَدْ يُسَمَّحُ فِيهَا بِالتَّنَافُسِ.

إِنَّ التَّنَافُسَ بِالرُّسُلِ هُوَ نَظِيرُ التَّنَافُسِ بِالْأَعْرَاقِ، وَبِالْأَقَالِيمِ، وَبِالْهَبَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي لَا كَسْبَ لِلنَّاسِ فِيهَا، فَتَنْهَى الرَّسُولَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى.

وَبَعْدَ أَنْ أَبَانَ اللَّهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ اصْطَفَاهُ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ، قَالَ لَهُ:

• ﴿.. فَخُذْ مَا آتَيْنَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝﴾

أي: فَازَعْ يَا مُوسَى حُقُوقَ هَذَا الْاصْطِفَاءِ، فَخُذْ مَا آتَيْنَكَ مِنْ تَعْلِيمَاتٍ، وَبَيِّنَاتٍ، وَمَا آتَيْنَكَ فِي الْأَلْوَحِ الَّتِي كَتَبْتُهَا لَكَ بِأَمْرِي مِنْ شَرَائِعٍ وَأَحْكَامٍ وَوَصَايَا، وَالْمَرَادُ بِأَخْذِهَا الْمَحَافَظَةُ عَلَيْهَا، وَتَذْكُرُهَا، وَالْعَمَلُ بِمَا جَاءَ فِيهَا، وَعَدَمُ إِهْمَالِهَا.

وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ لِمَا أَنْعَمْنَا بِهِ عَلَيْكَ، وَلِمَا فَضَّلْنَاكَ بِهِ، وَلِمَا اصْطَفَيْنَاكَ لَهُ.

وَالْمَعْنَى: وَكُنْ شَاكِرًا مِنَ الشَّاكِرِينَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَاهُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَفِي هَذَا الْإِمَّاخِ لَهُ بِأَنْ يَقْتَدِيَ بِالشَّاكِرِينَ مِنْ قَبْلِهِ، كِابِرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ إِنْعَامِ الْمُنْعِمِ بِمَا يُرْضِيهِ، مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ، أَوْ أَيْ شَيْءٍ مَادِّيٍّ يَسْرُهُ، وَقَدْ يَشْمَلُ الْقَوْلَ الَّذِي فِيهِ مَا يُرْضَى الْمُنْعِمُ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْقَوْلِ يَخْتَصُّ بِعِنَانِ الْحَمْدِ وَالثَنَاءِ.

إِنَّ زِيَادَةَ الْمَنْحِ وَالْعَطَايَا الرُّبَائِيَّةَ فِي حَيَاةِ الْابْتِلَاءِ، وَلَوْ كَانَتْ لِلْمُضْطَّفِّينَ الْأَخْيَارِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، تَقْتَضِي زِيَادَةَ التَّكَالِيفِ، وَتَحْمِيلِ الْأَعْيَاءِ الثَّقَالِ، وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثُمَّ الْأُمَثُلُ فَلِلْأُمَثُلِ، أَي: الْأَشْبَهِ فَلِلْأَشْبَهِ.

فَأَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ بَلَاءَ (أَي: امْتِحَانًا بِالتَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ) هُمْ أَكْثَرُهُمْ اصْطِفَاءً وَتَفْضِيلًا، وَتَمَيِّزًا بِالْعَطَايَا وَالْهَبَاتِ الرُّبَائِيَّةِ، مِنْ خِصَائِصِ النَّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ، لَمَّا تَسْتَتَبِعُ مِنْ تَفْضِيلٍ عَظِيمٍ يَوْمَ الدِّينِ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ، وَفِي جَنَاتِ النَّعِيمِ.

وَهَذِهِ إِحْدَى السُّنَنِ الرُّبَائِيَّةِ الْحَكِيمَةِ فِي التَّفَاوُلِ بَيْنَ الْعِبَادِ، الْقَائِمِ عَلَى الْقَوَانِينِ الْقَدَرِيَّةِ الْجَبَرِيَّةِ.

دَلَّنَا عَلَى هَذِهِ الْمَفَاهِيمِ مِنَ الْآيَةِ هُنَا تَرْتِيبَ التَّكْلِيفِ عَلَى الْاِمْتِحَانِ بِالْاِصْطِفَاءِ الْخَاصِّ، وَتَدُلُّ عَلَيْهَا أَيْضًا نُصُوصٌ أُخْرَى مَوْزَعَةٌ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

وَيَعْدُهَا جَاءَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السُّورَةِ:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَمَاقُورًا وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأُوذِيكُمْ دَارَ الْفَنَاقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

يُحَدِّثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ نَفْسِهِ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، أَنَّهُ كَتَبَ لِمُوسَى فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً، وَكَتَبَ لَهُ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ، وَكِتَابَةً لِلَّهِ فِي الْأَلْوَابِ تَتِمُّ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ.

اللُّوحُ: كُلُّ صَفِيحَةٍ عَرِيضَةٍ مِنْ خَشَبٍ أَوْ عَظْمٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، كَصَفَائِحِ الْحِجَارَةِ.

جَاءَ فِي سِفْرِ الْخُرُوجِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمَا كَانَا لَوْحَيْنِ مِنْ حِجَارَةٍ.

أقول: ولا يَبْعُدُ أَنَّ موسى عليه السَّلام كان قد أَعَدَّ اللَّوْحَيْنِ من الحجارة، لِيَكْتُبَ الله له عليهما ما كان قد وَعَدَهُ، من أن يسجِّل له ولقومه من الدِّينِ مَا يَأْتُونَهُ وَمَا يَذْرُونَهُ، ولهذا عَرَّفَ الله في الآية الألواحَ بأداة التعريف التي تفيد التعيين، إذ هي «ال» التي للعهد.

وجاء في سفر الخروج أيضاً أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ له اللَّوْحَيْنِ بِأَصْبَعِهِ عَلَى الوُجْهَيْنِ من كلِّ لوحٍ منهما.

أقول: فتكون بذلك أربعة ألواح باعتبار وجوه الكتابة.

قال ابنُ كثير: «ففي الصحيح أَنَّ الله كَتَبَ له التوراة بِيَدِهِ، وفيها مواضع عن الآثام، وتفصيل لكلِّ ما يَخْتاجُونَ إِلَيْهِ من الحلال والحرام».

● ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةٌ﴾ أي: كَتَبَ لَهُ مَوْعِظَةٌ من كلِّ شيءٍ هو من مَطْلُوبَاتِ الدِّينِ الَّذِي اصطفاه لهم يومئذٍ، ويظهر أَنَّ المراد أَنَّهُ كَتَبَ له مَوْعِظَةٌ من كلِّ نوعٍ، أو قِسْمٍ من أقسام الموعاظ، التي من شأنها أن تدفع المستجيب، للاستمساك بالدين وتعليماته.

الموعظة: ما يكون به الوعظُ من قولٍ أو فعلٍ. والوعظُ: هو النَّصْحُ بالفعل أو بالتَّرك، المقرون بما يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أو الرَّهْبَةَ في النفس، للانتفاع بالنَّصح، واتباع ما هَدَى إِلَيْهِ فِعْلاً أو تَرْكاً.

● ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: وَتَبْيِيناً مُفَصَّلَ الْعَنَاصِرِ بَغْضَها عن بَغْضٍ، لكلِّ شيءٍ من شرائع الدين وأحكامه، ممَّا هو مطلوبٌ مِنْهُمْ أن يَأْتُوهُ أو يَتْرَكَهُ، فالقرائن الفكرية، وقرائن السَّبَاق والسِّيَاق، تدلُّ على أَنَّ العموم في عبارة: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مُرَادٌ به ما يَشْمَلُ الأحكام الدِّينِيَّة، التي قَضَى اللَّهُ جَلَّ جلاله أن يُنْزِلَها إِلَيْهِمْ وَيُبَيِّنَها لهم في ذلك الوقت.

جاء في الآية تَفْذِيم: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على: ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ وتأخير: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ عَنْ: ﴿وَتَفْصِيلاً﴾ لإحكام الْفَضْلِ بَيْنَ الْقَضِيَّتَيْنِ.

● ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِكُوْا دَارَ الْفٰسِقِيْنَ ﴾ (١٤٥) :

هذه العبارة من الآية جاءت كلاماً مقتطعاً من الحدثِ إِبَّانَ حَدُوْثِهِ في إبداعِ فَنِّيْ أَلْفَنَاهُ في كثيرٍ من نُصُوصِ القرآنِ المجيدِ، فالكلامُ المقتطعُ من الحدثِ إِبَّانَ حَدُوْثِهِ، والمقدَّمُ في أثناءِ البيانِ الخبريِّ بصيغَتِهِ الإنشائيَّةِ من الإبداعاتِ البيانيَّةِ الَّتِي اشتمل عليها القرآنُ في كثيرٍ من نُصُوصِهِ.

وقد تكون هذه العبارة مرتبةً على كلامٍ مطويٍّ يُمكن إدراكُ مَعْنَاهُ بالتأمل، مثل: وهذه الألواحُ كَتَبْنَاهَا لَكَ، فيها من كُلِّ شيءٍ مَوْعِظَةٌ، وتفصيلٌ لكلِّ شيءٍ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ....

● ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ : أي: فَخُذِ الْأَلْوَاَحَ، وَاخْمِلْهَا إِلَى قَوْمِكَ، وَبَلِّغْهُمْ مَا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ، وَاسْتَمْسِكْ بِمَا جَاءَ فِيهَا مِنْ أَوَامِرٍ وَنَوَاهِي وَتَكَالِيفٍ وَبَيِّنَاتٍ وَتَعْلِيمَاتٍ، بِقُوَّةٍ تُكَافِيُ الْمَطْلُوبَ الرَّبَّانِيَّ مِنْكَ فِيهَا، بِحَسَبِ نَوْعِ التَّكْلِيفِ، وَلَا تَأْخُذْهَا بِضَعْفٍ وَتَكَاسُلٍ وَتَهَاوُنٍ وَقِلَّةٍ مُبَالَاتٍ، فَالْأَمْرُ جِدٌّ وَلَيْسَ بِالْهَزَلِ، فَقَدْ اصْطَفَيْنَاكَ وَآثَرْنَاكَ بِهَذَا الْاصْطِفَاءِ الْعَظِيمِ، لِتَحْمِلَ رِسَالَاتِ رَبِّكَ، وَأَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ بِقُوَّةٍ تُكَافِيُ الْمِهْمَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي كُفِّلَتْهَا.

أي: إِنَّكَ لَسْتَ كَأَحَادِ النَّاسِ حَتَّى تَضْعُفَ أَوْ تُقْصِرَ تُجَاةً وَاجِبَاتٍ رِسَالَتِكَ، إِنَّكَ الْقُدُوَّةُ وَالْأَسُوَّةُ الْحَسَنَةُ فِي قَوْمِكَ، فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ النَّمُوْدَجَ الْأَعْلَى فِي تَطْبِيقِ تَعْلِيمَاتِ رَبِّكَ، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْمُسْلِمَ الْأَوَّلَ الْمُنْفَذَ لَهَا.

والقُوَّةُ ذاتُ أنواعٍ متعدِّدةٍ فمنها ما يلي:

(١) قوة الجسم على تحمُّلِ المشقاتِ الجسديَّةِ.

(٢) وقوة الإرادة في التوجُّهِ لِتَنْفِيْذِ الْأُمُورِ الْكِبَارِ وَتَحْمُلِ مَصَاعِبِهَا.

(٣) وقوة الهِمَّةِ وَالْعَزَمِ.

(٤) وقوة الصَّبْرِ والصُّمُودِ على تحمُّلِ المشَقَّاتِ المَادِيَّةِ والمَعْنَوِيَّةِ.

(٥) وقوة المَغَامَرَةِ الحَكِيمَةِ جهاداً في سبيلِ اللَّهِ.

(٦) وقوة الحُجَّةِ وبيانِ الحَقِّ والدِّفاعِ عنه.

(٧) وقوة ضَبْطِ العواطف، وَعَدَمِ التأثيرِ بها والاستجابة لها، إذا كانت سائِرةً في اتِّجَاهِ مُعَاكِسٍ لِلْمَطْلُوبِ الرَّبَّانِيِّ.

● ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾:

أي: وَأْمُرْ يَا مُوسَى قَوْمَكَ لِيَأْخُذُوا بِأَحْسَنِ مَا كَتَبْنَا لَكَ فِي الْأَلْوَحِ.

والمرادُ بِالْأَخْذِ المَحَافَظَةَ عَلَى الْأَحْسَنِ، وَتَذَكُّرُهُ، والعمل به.

وقد يشكّل على المتدبِّرِ التَّغْيِيرُ بِعِبَارَةٍ: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ فِيهَا حَسَنًا، وَأَنَّ فِيهَا مَا هُوَ أَحْسَنُ، وَأَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ إلْزَامًا بِأَن يَأْخُذُوا بِمَا هُوَ الْأَحْسَنُ مِنْهَا.

وقد جاءَ نظيرُ هذا التعبيرِ في القرآنِ المجيدِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا جَاءَ فِي القرآنِ نفسه.

● فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

● وقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها أيضاً:

﴿وَالَّذِينَ أَحْبَبُوا الظَّلْمَ أَنْ يَبْذُوهَا وَانَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾.

فكيف نفهم أن بعض ما جاء في الألواح التي كتَبها الله لموسى أحسن من بعض، وأن بعض ما جاء في القرآن المجيد أحسن من بعض؟

أقول: تتوارد على أذهاننا في الإجابة على هذا السؤال عدة احتمالات، أولها بالاعتبار أن الأوامر والنواهي الدينية في القرآن، وفيما كتب الله عز وجل في الألواح لموسى عليه السلام، قسمان بالنسبة إلى المطلوب فيها:

القسم الأول: هو الأحسن، وقد أمر الله به أمر إيجاب وإلزام فعلاً كان أم تركاً، فأحب الأعمال إلى الله أن يُطيعوه فيما فرض عليهم أن يفعلوه، وفيما فرض عليهم أن يتركوه، فهي الأحسن.

القسم الثاني: هو الحسن، وقد أمر الله به أمر نذير وتزغيب، دون إيجاب وإلزام، فعلاً كان أم تركاً.

فهذه نوافل حسنة يتقرب بها العبد إلى ربه، وفي هذا القسم يتسابق ويتنافس طالبو المراتب العلية عند ربهم من الأبرار والمحسنين.

وعلى هذا فمعنى قول الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وأمر قومك أمر إلزام وإيجاب ليأخذوا بأحسنها، وهي الفرائض التي ألزمهم الله بفعلها، والمحرمات التي ألزمهم بتركها.

أما الأشياء الحسنة الأخرى، فاذعهم إلى الأخذ بها تزغيباً ونذراً، ليتسابق المتسابقون منهم في الخيرات على اختلاف رغباتهم وهمتهم، وتطلعاتهم بشوق إلى المراتب العلية عند الله.

أما موسى عليه السلام فقد كان مكلفاً إلزاماً بأن يأخذ بالأحسن وبالحسن، لأن الله عز وجل قال له: ﴿فَخُذْهَا يَقْوَى﴾ أي: فخذها جميعاً بقوة.

● ﴿سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: أي: سأريكم أرضَ الشَّامِ، إذ كانت يومئذٍ دار الفاسقين، فقد كان يملكها ملوكٌ مُتَعَدِّدُونَ كَافِرُونَ فَاسِقُونَ، وشُعُوبٌ وَثْنِيَّةٌ فَاسِقَةٌ.

جاء في سفر الخروج أنَّ الله عزَّ وجلَّ كَشَفَهَا لموسى عليه السلام فأراه إيَّاهَا، دون أن يَدْخُلَهَا.

أما مَنْ بقي من بني إسرائيل بعد أن تاهوا في الأرض أربعين سنةً، فقد أدخلهم الله إيَّاهَا فاتحين بعد أن تَوَقَّى الله عزَّ وجلَّ هَارُونَ وموسى.

وجاء التعبير بفعل: ﴿سَأْرِيكُمْ﴾ كِنَايَةً عن دُخُولِهِم بلاد الشَّامِ، وانتصارهم على أهل البلاد الفاسقين، والاستيلاء عليها بِنَصْرِ اللهِ لهم، وتمكينهم من طَرْدِ الكفرة، ولكن فيه إشعارٌ بأنهم لَنْ يَسْتَقِرُّوا فيها طويلاً، إذ سَتَنْزِلُ في أجيالهم عقوبة الله بسبب انحرافهم عن دين الله، وَفَسَادِهِمْ وفسادهم في الأرض، وهذا ما حصل لهم فعلاً.

وجاء عند أهل الكتاب في الاصحاح الثالث والعشرين، من سفر الخروج، أنَّ الله عزَّ وجلَّ بَشَّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بأنَّه سَيَنْصُرُهُم على جميع الشعوب الذين سيقاثلونهم في الأرض التي وَعَدَهُمْ أَنَّ يُرِيَهُمْ إيَّاهَا، فقد جاء فيه خطاباً لشُعْبِ إِسْرَائِيلَ:

«٢٧ أَرْسِلْ هَيْبَتِي أَمَامَكَ وَأُزْعِجْ جَمِيعَ الشُّعُوبِ الَّذِينَ تَأْتِي عَلَيْهِمْ وَأُعْطِيكَ جَمِيعَ أَعْدَائِكَ مُذْبِرِينَ ٢٨ وَأَرْسِلْ أَمَامَكَ الزَّنَابِيرَ فَتَطْرُدَ الْحَوِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيَّينَ مِنْ أَمَامِكَ».

وجاء فيه أيضاً:

«فَإِنِّي أَرْفَعُ إِلَى أَيْدِيكُمْ سُكَّانَ الْأَرْضِ فَتَطْرُدُهُمْ مِنْ أَمَامِكَ ٣٢ لَا تَقْطَعْ مَعَهُمْ وَلَا مَعَ آلِهِمْ عَهْداً ٣٣ لَا يَسْكُنُوا فِي أَرْضِكَ لئَلَّا يَجْعَلُوكَ تُخْطِيءُ إِلَيَّ. إِذَا عَبَدْتَ آلِهَتَهُمْ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ فُخًّا».

ونحو ذلك جاء في الإصحاح الرابع والثلاثين .

لَكِنَّ أَجْيَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَحْفَظُوا وَصَايَا الرَّبِّ، لَمَّا سَلَطَهُمْ عَلَى
بِلَادِ الشَّامِ، فَأَجْرَى فِيهِمْ سُنَّتَهُ الَّتِي أَجْرَاهَا فِي الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَشَتَّتَهُمْ،
وَاسْتَذَلَّهُمْ، وَقَضَى عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْبَعَثَ عَلَيْهِمْ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَهْمَا عَلَوْا فِي الْأَرْضِ، لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَ اللَّهِ اللَّاحِقِينَ،
وَكَفَرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كُتُبِ بَغْدِ التَّوْرَةِ، إِذَا لَمْ تُوَافِقْ هَوَاهُمْ، وَغَيَّرُوا
وَبَدَّلُوا فِي الْكُتُبِ الَّتِي اغْتَرَفُوا بِهَا.



قول الله عز وجل :

﴿سَامِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَكْذِبُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا
ءَايَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ ارْتُدٍّ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكُذِّبُوا
الَّذِي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَسِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ :

الذي يظهر أن هاتين الآيتين من تَوَابِعِ خِطَابِ اللَّهِ عز وجل لموسى
عليه السلام، في رحلة لقائه رَبُّهُ بجانب جبل الطور كما واعدَهُ.

● ﴿سَامِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَكْذِبُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ :

هذه العبارة تدل على سُنَّةٍ من سُنَنِ اللَّهِ الدَّائِمَةِ في عباده، وهي
إِحْدَى أَنْظَمَةِ التَّكْوِينِ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

أي: سَاحْوَلٌ وَأَرْدٌ عَنْ إِذْرَاكِ آيَاتِي، أَوْ عَنِ الِاسْتِجَابَةِ لِمَا تُوجِّهُ لَهُ،
الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ مُتَعَاظِمِينَ عَلَى نُظَرَائِهِمْ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَكَبُّرًا بِدَوَافِعِ نَفْسِيَّةٍ
بَاطِلَةٍ، لَاحِقٌ فِيهَا يُسَوِّغُ لَهُمْ أَنْ يَتَكَبَّرُوا، إِذْ لَيْسَ لَهُمْ كِبَرٌ حَقِيقِي يُثَبِّتُونَهُ

لأنفُسِهِمْ، بل هم مُدْعَوْنَ ادِّعَاءَ كاذِباً في أقوالهم وأَعْمَالِهِمْ أَنَّهُمْ كُبراء، مع أَنَّهُمْ صِغَارٌ ضَيَّلُونَ في ذوات أنفسهم.

● ﴿عَنْ آيَتِي﴾: الآية في اللُّغَةِ العلامةُ ذَاتُ الدَّلَالَةِ على أمرٍ ما، بتكوينها وصِفَاتِهَا الدَّائِيَّةِ، أو بالوضع الاصطلاحي، ومنهُ الكلامُ ذو الدَّلالاتِ الحَقِيقَةِ والمجازِيَّةِ.

وآياتُ الله عزَّ وجلَّ تنقسم إلى أربعة أنواع.

النوع الأول: الآياتُ الكلاميَّةُ المنزلةُ على رُسُلِ الله، كآيات التوراة، وآيات الإنجيل، وآيات القرآن المجيد.

وهذا النوع يشتمل على بَيانِ الحجج والبراهين العقلية، والأخبارِ عَمَّا كان أو هو كائن أو سيكون أو سوف يكون، وعلى بيانِ مَطْلُوبِ الله من عباده في رحلة امتحانهم في ظروف الحياة الدنيا.

النوع الثاني: الآياتُ الإعجازية التي يجريها الله عزَّ وجلَّ لِرُسُلِهِ عجائبَ وخوارقَ للعَادَاتِ، ليشهد الله لهم عن طريق دَلالَتِهَا أَنَّهُمْ صادقون في نُبُوَّتِهِمْ ورسالاتِهِمْ، وأنَّ ما جاءوا به مُبَلِّغِينَ إِيَّاهُ عن اللّهِ هو من عند الله حقّاً وَصِدْقاً، كعصا موسى عليه السلام، وآية يَدِهِ، إلى سائر الآيات التَّنْصِيعِ الَّتِي أجراها له، وكآية إحياءِ المَوْتَى لِعِيسَى عليه السلام، وكآية إخراج الناقة من صَخْرَةٍ عَيْنِهَا قوم النبي الرُّسُولُ صالح عليه السلام، وكالمعجزات الَّتِي آتاها الله محمداً ﷺ، ومنها معجزة انشِقاق القمر.

النوع الثالث: الآياتُ الجزائية، وهي الآيات الَّتِي تأتي عِقَاباً لِلظَّالِمِينَ على مَا كَانَ منهم من ظلم، أو بغي وفساد وإفساد في الأرض. والآياتُ الَّتِي تأتي ثَوَاباً لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَصَبَرُوا ابتغاءَ مرضاة الله، كالنصر الذي يحققه الله عزَّ وجلَّ، للفتنة المؤمِنَةِ القليلةِ المجاهدة في سبيله، على الفِتْنَةِ الكافرة الكثيرة، المتفوقة في أعداد مُقَاتِلِهَا وفي أسلِحَتِهَا.

النوع الرابع: الآيات الكونية الدالات على صفات الله رب خالقها، والمتصرف في أحداثها وتغيراتها، وهي كل ما خلق الله من شيء في هذا الكون الفسيح، والإنس والجن بأجسادهم وأنفسهم جزء من هذه الآيات الجليات.

وقد يأتي التعبير بالآيات في القرآن شاملاً لكل هذه الأنواع الأربعة، وقد يأتي خاصاً أحياناً ببعضها، وقد يُعَادُ الضمير على الآيات مُراداً بها نوع آخر غير النوع الذي أريد بها عند ذكرها بالاسم الظاهر، باعتبار أن اللفظ شامل بدلالته العامة لكل الأنواع، وعلى متدبر كلام الله عز وجل أن يكون لمآح الإذراك يُعطي كل تعبير ما يلائمه من المعنى.

قد يقول قائل: لماذا يضرِفُ الله عز وجل عن إدراك دلالات آياته، أو عن الاستجابة لما توجّه له، الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق؟! أليس هذا من أسباب الجبر على الضلال؟!

والجواب: أن الله عز وجل قد نظم كونه تنظيمًا محكمًا في أسبابه ومُسَبَّباته، وجعل له قوانين ثابتة لا تتغير إلا إذا أَرَادَ هو تغييرها لأمر اقتضته حكيمته، وهذه القوانين تعمل بقضاء الله وقدره وخلقِه، وهذه القوانين ذات مفاتيح من اهتدى إليها من ذوي الإرادات الحرة، وجدّ القوانين مُسَخَّرَةً له، تُطِيعُهُ وَفَوْقَ أَنْظِمَتِهَا الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ لَهَا، مع أنها لا تعمل إلا بقضاء الله وقدره وخلقِه.

إن الآلة التي تتحرك بالطاقة الكهربائية، إذا فتحت مفتاحها فدخلت إليها الطاقة الكهربائية أخذت تعمل وفق قوتها ونظامها، ولا تستطيع إيقاف حركتها إلا ضمن قانون إيقافها، ومن وسائل إيقافها بحسب قانونها أن تفصل عنها الكهرباء.

إن مدينة عظيمة تحرك آلياتها ومعاملها الكهربائية بوصل الكهرباء، وتوقفها بفضله.

وَصَارُوهُ عَابِرٌ لِلْقَارَاتِ، إِذَا ضَغَطَ الْقَائِمُ عَلَى أَمْرِهِ، وَالْعَالِمُ بِنِظَامِهِ عَلَى الزَّرِّ الْخَاصِّ بِدَفْعِهِ ضَغْطَةً بِأَضْبَعِهِ، انْطَلَقَ ضِمْنُ قَانُونِهِ الرَّبَّانِيِّ وَضِمْنُ نِظَامِهِ، وَلَمْ يَسْتَطِيعَ رَدُّهُ وَلَا إِيقَافَهُ، إِلَّا إِذَا اهْتَدَى إِلَى مَفَاتِيحِ رَدِّهِ أَوْ إِيقَافِهِ، الَّتِي جُعِلَتْ لَهُ، ضِمْنَ قَوَانِينِ اللَّهِ وَأَنْظَمَتِهِ الْعَامَّةِ.

وَهَكَذَا لِكُلِّ عَمَلٍ وَلِكُلِّ نَتِيجَةٍ فِي قَوَانِينِ اللَّهِ وَأَنْظَمَتِهِ أَسْبَابٌ وَمَفَاتِيحٌ، جَعَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُسَخَّرَةً لِمَنْ اهْتَدَى إِلَيْهَا، مِنْ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحَرَّةِ، الَّذِينَ لَمْ يَجْعَلْهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، بَلْ جَعَلْهُمْ مَخِيرِينَ لِنَبْلُوهُمْ وَيَخْتَبِرَهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ الْمَفَاتِيحِ الْعَادِيَّةِ الَّتِي يَنْتُجُ عَنْ اسْتِعْمَالِهَا بِاخْتِيَارِ الْإِنْسَانِ، أُمُورٌ تَحْجُبُهُ عَنِ الْخَيْرِ أَوْ الْهَدَايَةِ، أَوْ تَجْلِبُ لَهُ شَرًّا، ضِمْنَ أَنْظَمَةِ اللَّهِ وَقَوَانِينِهِ الْعَامَّةِ فِي مَجَارِي مَقَادِيرِهِ، مَا يَلِي:

● مِنْ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ أَوْ جَعَلَ عَلَيْهِمَا عِصَابَةً سَوْدَاءَ، فَاللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ يَخْجُبُ عَنْهُ الرُّؤْيَا، ضِمْنَ قَوَانِينِهِ وَأَنْظَمَتِهِ الْقَدْرِيَّةِ.

● وَمَنْ شَرِبَ بِإِرَادَتِهِ سُمًّا قَاتِلًا، قَتَلَهُ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ، بِالسُّمِّ الَّذِي شَرِبَهُ، ضِمْنَ قَوَانِينِهِ وَأَنْظَمَتِهِ الْقَدْرِيَّةِ الْعَامَّةِ.

● وَمَنْ أَلْقَى جَسَدَهُ مِنْ شَاهِقٍ عَلَى أَرْضٍ بَعِيدَةٍ صُلْبَةٍ، فِيهَا صُخُورٌ وَقِطَعٌ مِنَ الْحَدِيدِ الْجَارِحِ الْقَاتِلِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ يُحْطِمُهُ وَيُمَزِّقُ جَسَدَهُ، بِالصُّخُورِ وَبِقِطَعِ الْحَدِيدِ الَّتِي رَمَى ذَاتَهُ مِنْ شَاهِقٍ عَلَيْهَا، ضِمْنَ قَوَانِينِهِ وَأَنْظَمَتِهِ الْقَدْرِيَّةِ الْعَامَّةِ.

● وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ كِبْرًا أَوْ عِنَادًا أَوْ رَغْبَةً فِي الْفُجُورِ، لَمْ يُحَرِّكِ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلطَّاعَةِ، وَلَمْ يَشْرُخْ صَدْرُهُ لِلْأَعْمَالِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَمْ يُثِرْ عَاطِفَتُهُ لِغَلِّ الْخَيْرِ، ضِمْنَ قَوَانِينِهِ وَأَنْظَمَتِهِ الْقَدْرِيَّةِ الْعَامَّةِ.

● وَمَنْ يَتَكَبَّرُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، لَظَلِمَ النَّاسَ وَاسْتَغْبَاهِهِمْ،

والاستِثْناءُ الشَّرِّ بِمَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وزينتها، واستغلالِ سُلْطَانِهِ لشهواتِ نفسه وأهوائها، انْظَمَسَتْ أَدَوَاتُ الإِذْرَاكِ فِيهِ عَنْ إِذْرَاكِ آيَاتِ اللَّهِ، أَوْ فَقَدَتْ مَرَاكِزَ اسْتِجَابَتِهِ النَفْسِيَّةَ قُدْرَتَهَا عَلَى الاسْتِجَابَةِ لِمَا تَوَجَّهَ لَهُ آيَاتُ اللَّهِ، ضَمِنَ قَوَانِينُ اللَّهِ وَأَنْظَمَتِهِ الْقَدَرِيَّةَ الْعَامَّةَ.

فإذا كانت الآيات من نوع الآيات الكلامية المنزلة على رُسُلِ اللَّهِ، لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، وَلَمْ يَتَوَجَّهْ لَتَدْبُرِ مَعَانِيهَا، وَفَهَمَ دَلَالَاتَهَا، وَلَكِنْ فَهَمَ مَعَانِيهَا لَمْ يَسْتَجِبْ لِمَا تَوَجَّهَ لَهُ.

وإذا كانت الآيات من نوع الآيات الإعجازية، اغْتَبَرَهَا ضَرْباً مِنَ السَّخَرِ الَّذِي يَمَارِسُهُ السَّحَرَةُ، كَمَا حَصَلَ لِإِفْرَعُونَ وَآلِهِ، بِالنَّسْبَةِ إِلَى الآياتِ الَّتِي آتَاهَا اللَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وإذا كانت الآيات من نوع الآيات الجزائية، اغْتَبَرَهَا مِنْ قِبَلِ التَّقْلِبَاتِ الْكُونِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ، أَوْ مِنَ الْمَصَادِفَاتِ الَّتِي هِيَ جُزْءٌ مِنَ الْعَوَارِضِ الْعَامَّةِ، الَّتِي لَمْ تَأْتِ عَنْ قَضْدِ وَإِرَادَةِ رَبَّانِيَّةٍ، لِلْجَزَاءِ بِالْعِقَابِ أَوْ بِالثَّوَابِ.

وإذا كانت الآيات من نوع الآيات الكونية العظمى، ذَوَاتِ الدَّلَالَاتِ عَلَى طَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ، مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ الْجَلِيلَةِ، وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، كَانَ غَافِلاً عَنْهَا، غَيْرَ مُبَالٍ بِهَا، وَكَانَ مَشْغُولاً بِمَا يُهْمُهُ مِنْ أُمُورِ شَهَوَاتِهِ وَأَهْوَائِهِ وَلَذَائِهِ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَزُخْرُفِهَا.

فَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ عَائِنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يُضَرِّفُونَ عَنْهَا ضَمْنَ الْقَانُونِ الرَّبَّانِيِّ الْعَامِّ، الَّذِي يَكُونُ سَبَبَهُ الْإِنْسَانُ الَّذِي اسْتَعْمَلَ مَا سَخَّرَ اللَّهُ لِلنَّاسِ فِي كَوْنِهِ مِنْ مَفَاتِيحٍ وَأَسْبَابٍ، فَجَلَبَ لِنَفْسِهِ بِاخْتِيَارِهِ الْحَرَّ الْمُسَبِّبَاتِ.

وَيَسَبَّبُ الْإِنْصِرَافَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بِعَامِلِ التَّكَبُّرِ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، تَحْدُثُ لَدَى الْمَضْرُوفِينَ عَنْهَا عِدَّةُ ظَوَاهِرَ ضَمْنَ قَوَانِينِ اللَّهِ وَأَنْظَمَتِهِ الْعَامَّةِ، وَهَذِهِ الظَّوَاهِرُ دَلُّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ:

• ﴿...وَلَا يَرْوُوا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَلَئِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَلَئِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا...﴾ (١٤٦).

الظاهرة الأولى: دلت عليها عبارة: ﴿وَلَا يَرْوُوا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾:

أي: وإن وجهوا أبصارهم على سبيل النذرة لرؤية كل آية من آيات الله التي تُرى، الإعجازية، أو التكوينية الكبرى، لا يؤمنوا بها.

أما الآيات الإعجازية التي يُجريها الله لرسله، فلا يعتبرونها آيات خوارق، وإنما يتتجلون لها تفسيرات أخرى، كادعاء أنها من قبيل السحر.

وأما الآيات الكونية الكبرى في أنفسهم وفي السموات والأرض، فيعتبرونها أشياء طبيعية، لا دلالة فيها على صفات خالقها.

الظاهرة الثانية: دلت عليها عبارة: ﴿وَلَا يَرْوُوا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾:

الرُّشد والرُّشد: السلوك الفكري والنفسي والعملي والخلقي الموافق للحق والصواب، أو الموافق لما هو الأفضل والأحسن والأكثر نفعاً، والأبعد عن الضرر، وأضل الرُّشد في اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد، وهو ضد الخيبة.

والمعنى: وإن يوجهوا أبصارهم على سبيل النذرة لرؤية سبيل الرُّشد، لا يتخذوه سبيلاً لهم، لأن سبيل الرُّشد مبين لسبل أهوائهم وشهواتهم ونزعاتهم ونزغاتهم وتكبرهم في الأرض بغير الحق، واستئثارهم بمتاع الحياة الدنيا وزينتها وزخرفها.

الظاهرة الثالثة: دلت عليها عبارة: ﴿وَلَا يَرْوُوا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾:

الغِي: الضلال، والخيبة، والفساد.

والمعنى: وإن يَرَوْا وَلَوْ عَلَى سَبِيلِ التُّدْرَةِ سَبِيلًا مِنْ سُبُلِ الْغِيِ الْمَشْتَمِلِ عَلَى الضلال والفساد والعاقبة الوخيمة يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، لَأَنَّهُ يُحَقِّقُ لَهُمْ رَغَبَاتِ أَهْوَائِهِمْ، وشهواتهم، ونزعاتهم، الضَّالَّةَ البعيدة عن الحق، وعن صراط الله المستقيم.

هذه الظواهر الثلاث تُوجَدُ فِيهِمْ بِسَبَبِ انْصِرَافِهِمْ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ، الذي كَانُوا هُمُ السَّبَبُ فِي حُدُوثِهِ، إِذْ تَكَبَّرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، كَمَا حَصَلَ لِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ.

● ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ :

دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّهُمْ لَمَّا اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَكَانُوا عَنْ إِذْرَاكِ دَلَالَتِهَا غَافِلِينَ، فَكَانَ مِنْ آثَارِ ذَلِكَ الظَّاهِرَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي سَبَقَ شَرْحُهَا.

الغفلة: انصرافُ الذهن عن ملاحظة الشيء ومراقبته، مع وجوده في مجال الإدراك، أو وجود أدلته، وإمكان إدراكه، لولا وجود الصَّارِفِ، أو السَّهْوِ الذي هو بمثابة إطباقِ الجفنتين على العَيْنَيْنِ.

يقال لغة: غَفَلَ عَنِ الشَّيْءِ يَغْفُلُ غُفُولًا وَغَفْلَةً.

● ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤٧﴾ :

جاءت هذه الآية رَدًّا عَلَى سُؤَالِ مَطْوِيِّ لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ فِي اللَّفْظِ، لِكِنَّهُ وَارِدٌ وَمُلَاحَظْ ذَهْنًا، وَهُوَ: قَدْ يَعْمَلُ الْكَافِرُونَ الْمَكْذُوبُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَالْمَكْذُوبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، أَعْمَالًا صَالِحَةً فِيهَا نَفْعٌ وَخَيْرٌ، وَهِيَ مِنْ جِنْسِ أَوْ نَوْعِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي يَثِيبُ اللَّهُ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنِينَ ثَوَابًا جَزِيلًا يَوْمَ الدِّينِ

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، أَفَلَا يُثِيبُ اللَّهُ الْكَافِرِينَ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ يَوْمَ الدِّينِ
كَمَا يُثِيبُ الْمُؤْمِنِينَ؟؟

والجواب: هؤلاء لَمْ يَعْمَلُوا أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ،
وَطَلَباً لثَوَابِ الْآخِرَةِ، بَلْ عَمِلُوهَا لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ لِهْمِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،
وَمِنْهَا سِتْرُ جَرَائِمِهِمْ، أَوْ عَمِلُوهَا لِتَجْمِيعِ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ، أَوْ لِكَسْبِ
الشُّهُرَةِ وَالْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ بَيْنَ النَّاسِ، فَهِيَ بِالنُّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ أَعْمَالٌ بَاطِلَةٌ لَا
قِيَمَةَ لَهَا، لِأَنَّهَا غَيْرُ قَائِمَةٍ عَلَى الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، وَثَوَابُ الْآخِرَةِ لَا يَتَحَقَّقُ
إِلَّا عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ الَّتِي مِنْهَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَالتَّصْدِيقُ
بِآيَاتِهِ، وَالْعَمَلُ بِوَصَايَا اللَّهِ فِيهَا، وَالْإِيمَانُ بِلِقَاءِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ لِلْحَسَابِ،
وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقُ الْجَزَاءِ.

أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَلِلَّهِ فِيهَا سُنَنٌ حَكِيمَةٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِيهَا صَالِحاً بِقَصْدٍ
تَحْقِيقِ مَصَالِحٍ لَهُ فِيهَا، أُجْرِيَ اللَّهُ لَهُ مِنْ سُنَّتِهِ مَا يُحَقِّقُ لَهُ مِنَ الْمَصَالِحِ
عَلَى مِقْدَارِ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ. وَمَنْ عَمِلَ فِيهَا عَمَلًا صَالِحًا، بِقَصْدٍ
أَنْ يَنَالَ الشُّهُرَةَ وَالْمَدْحَ وَالثَّنَاءَ بَيْنَ النَّاسِ، أُجْرِيَ اللَّهُ لَهُ مِنْ سُنَّتِهِ، مَا يُحَقِّقُ
لَهُ مِنَ الشُّهُرَةِ وَالْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ، عَلَى مِقْدَارِ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ نَافِعٍ،
وَهَذَا خَاضِعٌ لِسُنَنِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّاتِ فِي الدُّنْيَا.

وَالْآيَةُ الَّتِي نَتَدَبَّرُهَا تُبَيِّنُ، أَنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَكَذَّبُوا بِلِقَائِهِ
يَوْمَ الدِّينِ، تَكُونُ أَعْمَالُهُمُ الصَّالِحَةُ الَّتِي كَانُوا قَدْ عَمِلُوهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،
بَاطِلَةً لَا قِيَمَةَ لَهَا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ، إِذْ لَمْ تَكُنْ غَايَتِهِمْ نَيْلَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ،
بَلْ نَيْلَ ثَوَابِ الدُّنْيَا، وَلَوْ كَانَتْ غَايَتُهُمْ نَيْلَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ لَحَقَّقُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
الشُّرْطَ اللَّازِمَ لِنَوَالِهِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَالْإِيمَانُ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
يَوْمَ الدِّينِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الْإِيمَانَ يَدْفَعُ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَالظَّفَرِ بِثَوَابِهِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الدِّينِ.

ولمّا كان الكافرون مُكذِّبين بآيات الله، ومُكذِّبين بقاء الله في الآخرة للحساب، وفَضَّلَ القضاء، وتحقيق الجزاء، كانَ من العدل الواضح أن تكون أعمالُهُم الصالحة التي عَمِلُوها في الدنيا لَأَغِيَّةً لا قيمة لها عند الله مُطلقاً يَوْمَ الدين.

● ﴿حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: أي: بَطَلَتْ أَعْمَالُهُم الصالحة التي كانوا قَدْ عَمِلُوها في الحياة الدنيا، مَهْمَا عَظُمَتْ وَكَثُرَتْ.

﴿.. هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾!؟

هذا بيان بأسلوب الاستفهام الذي ليس له إلا جواب واحد، وهو: لا يُجْزَوْنَ إِلَّا جزاء ما كانوا يعملون في الحياة الدنيا للآخرة من صالحات الأعمال.

لكنهم كانوا غير عابئين بيوم الدين، ولا بقاء الله فيه، فكأنوا يَسْلُكُونَ سُبُلَ الْغَيِّ، التي أَنْذَرَهُم رَبُّهُمْ بالمعاقبة عليها يَوْمَ الدين، وكأنوا يَكْفُرُونَ وَيُكْذِبُونَ بآيات الله، وَقَدْ أَنْذَرَهُم رَبُّهُمْ بالعقاب الأبدي في عذاب النار يَوْمَ الدين، إذا كَفَرُوا بما يجب عليهم الإيمان به في الدين الذي اصطفاه لعباده.

فَكُفَرُوهُمْ وَعِصْيَانُهُمْ مُرَادٌ بهما تَمَرُّدُهُمْ على طاعة الله ربهم، وَمُعَانَدَةٌ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ التي رَتَّبَ عليها العقاب يَوْمَ الدين، فَمَنْ الْعَدَلَ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي الآخرة عَلَى ذَلِكَ، بِالْعِقَابِ الَّذِي أَبَانَهُ فِي الوعيد الذي أَوْعَدَهُمْ به في الدنيا دار الامتحان.

وبهذا تنتهي هذه الفقرة الرابعة من قصة موسى وهارون في سورة (الأعراف).



الفقرة الخامسة

اتخاذ بني إسرائيل العجل

الآيات من (١٤٨ - ١٥٤)

قال الله عز وجل:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَدْعِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورًا أَلَدَ بَرًا
 أَنَّهُمْ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ
 فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ
 مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ
 بَدْعٍ أَعْمَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ
 إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوكُنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْعِزْنِي بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا
 إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ
 الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

القراءات:

(١٤٨) • قرأ حَمْزَةً، وَالْكِسَائِيُّ: [مِنْ حُلِيِّهِمْ] بِكَسْرِ الْحَاءِ وَاللَّامِ

وتشديد الياء المكسورة، وهو جمع «حَلِيَّةٍ».

وقرأ يَغْقُوبُ: [مِنْ حَلِيهِمْ] بفتح الحاء وإسكان اللام وكسر الياء،

وهو اسم جنسٍ لِمَا يُتَزَيَّنُ بِهِ مِنْ مَصْنُوعِ الذَّهَبِ وغيره.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مِنْ حُلِيِّهِمْ] بضم الحاء وكسر اللام وتشديد

الياء المكسورة، وهو جَمْعُ «حَلِيٍّ».

ومؤدَّى القراءات واحد، وهي من التَّفَنُّنِ فِي الْوُجُوهِ اللَّغَوِيَّةِ ذَاتِ

المؤدِّي الواحد.

(١٤٨ - ١٤٩) • قرأ يَعْقُوبُ بضم هاء الضمير في: [لَا يَهْدِيهِمْ] و[فِي أَيْدِيهِمْ].

وقرأ باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير فيهما.

والقراءتان وجَّهان من الأداء في اللسان العربي.

(١٤٩) • قرأ حمزة، والكسائي وخلف: [لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا] عَلَى أَنَّهُ خَطَابٌ مِنْهُمْ ونداءٌ لِرَبِّهِمْ دَاعِيْنَ بِالرَّحْمَةِ والغفران.

وقرأ باقي القراء والعشرة: [لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا] بضمير الغائب.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، فهم قالوا في أنفسهم كما جاء في قراءة جمهور القراء، ودَعَوْوا الله رَبَّهُمْ كما جاء في القراءة الأخرى.

(١٥٠) • قرأ وزش، والسوسي، وأبو جعفر: [بِيسَمًا] بإبدال الهمزة ياءً في الوصل والوقف. وقرأها كذلك حمزة في الوقف فقط.

وقرأها جمهور القراء العشرة: [بِثَسَمًا] في الوصل والوقف.

وبإبدال الهمزة ياءً وجهٌ من وجوه النطق العربي لهذه الكلمة.

• وفتح ياء المتكلم من: [بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ] نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر. أما باقي القراء العشرة فقرأوها بالاسكان مع المد في الوصل.

• وقرأ السوسي، وأبو جعفر: [بِرَاسٍ أَخِيهِ] بإبدال همزة «رأس» ألفاً وصلًا ووقفًا، وقرأها كذلك حمزة في الوقف، أما باقي القراء العشرة فأثبتوا همزة «بِرَاسٍ» دون إبدال، والإبدال وجهٌ في النطق العربي.

• وقرأ ابن عامر، وشعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [ابن أم]

بالميم المشددة المكسورة. وقرأها الباقون بالميم المشددة المفتوحة.

وهما وجهان عربيان لُنطق الكلمة، وأصلها: ابْنُ أُمِّي، أي: يا ابْنَ أُمِّي، حذفَت أداة النداء لفظاً، وهي منوِيَّة ذهناً.

تمهيد:

ذهب موسى عليه السّلام لمناجاة رَبِّهِ وتَلَقَّى الألواح، وتولَّى أخوه هارونَ عليه السّلام قيادةَ بني إسرائيل مُدَّة غِيابه، وزاد الله عزَّ وجلَّ مُوسَى عليه السّلام عشرَ ليالٍ على الثلاثين الَّتِي كانت في الوعد الذي أخبر به موسى قومه، دون إعلام بني إسرائيل بها، لِأَنَّها حصلت بعد ابتعاده عن قومه في رحلة المناجاة، وقد جعلها الله عزَّ وجلَّ كَذَلِكَ لِيَمْتَحِنَ بني إسرائيل في قضيَّة الإيمان بالغيب، بعد أن كان ما كان منهم من مطالبتهم موسى بأن يجعلَ لهم وَثْناً إِلَهاً يَعْبُدُونَهُ كما لِلْوَثْنَيْنِ آلهة.

إِنَّ الجمهور الأعظم من بني إسرائيل، لَمْ يَتَحَرَّروا حَتَّى ذَلِكَ الحين من التعلُّق بأن يكون لَهُم إِلَه مَعْبُودٌ وَثْنٌ، يشاهدُونَهُ وَيَلْمُسُونَهُ وَيَعْبُدُونَهُ.

وكانت صورة العجل من البقر صورةً شائعةً في أَصْنام أهل الأوثان، ومنهم المصريون والشاميون الوثنيون، وعجلُ المضريَّين الَّذي كانوا يَعْبُدُونَهُ أَيَّامَ الفراعنة يُدْعَى «إيبيس».

فلَمَّا انتهت اللَّيالي الثلاثون ولم يَعُدْ إِلَيْهِم موسى عليه السّلام، لِأَنَّ الله جَلَّتْ حِكْمَتُهُ أَتَمَّ مِيعَادَهُ إِلَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، كَمَا هو في أضل الخطَّة المقدَّرة المكتومة، لابتلاء بني إسرائيل وتربيتهم، استَبْطَأَ جُمْهُورُ بني إسرائيل عودةَ موسى عليه السّلام، وَلَعِبَتْ بِهِم الظُّنُونُ والشُّكُوكُ، وَكَثُرَ بينهم اللَّغَطُ خِلالَ اللَّيالي العشرِ الأخيرة المضافة.

وكان بينهم رجلٌ مِنْهُمْ لَقَبُهُ «السَّامِرِيُّ» وهذا الرَّجُلُ قد لاحظ أنَّ

الْمَلَكَ الَّذِي هُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى مَا جَاءَ عِنْدَ الْمَفْسِّرِينَ رَوَايَةً عَنْ الْحَسَنِ، كَانَ إِذَا وَقَعَ حَافِيزُ فَرَسِهِ عَلَى الْأَرْضِ بَقِيَ مِنْهُ أَثَرٌ فِي تَرَابِ الْأَرْضِ، ذُو طَبِيعَةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنْ طَبِيعَةِ سَائِرِ الْأَرْضِ، فَقَبْضَ قَبْضَةً مِنْ هَذَا الْأَثَرِ، وَاخْتَفَظَ بِهَا عِنْدَهُ.

فَسَوَّلْتُ لَهُ نَفْسَهُ أَنْ يُجَرِّيَ تَجْرِيَةً، فَيُصْنَعَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ صَنْمًا عِجْلًا، وَيُلْقَى فِي بَاطِنِهِ شَيْئًا مِنَ الْقَبْضَةِ الَّتِي اخْتَفَظَ بِهَا مِنْ أَثَرِ الرُّسُولِ جَبْرِيلَ، فَعَسَى أَنْ تُحْدِثَ أَمْرًا غَرِيبًا.

فَجَمَعَ مِنْ عَامَّتِهِمْ جَمْعًا، وَقَالَ لَهُمْ: أَلَا أَصْنَعُ لَكُمْ صَنْمًا عَلَى صُورَةِ الْعِجْلِ مِنْ ذَهَبٍ؟

وكَانَ فِيهِمْ مَاهِرُونَ فِي صَهْرِ الذَّهَبِ وَصِيَاغَتِهِ، إِذْ كَانَتْ هَذِهِ الصَّنْعَةُ مَهْنَةً بَعْضُهُمْ فِي مَضَرٍ.

قَالُوا: مِنْ أَيْنَ تَأْتِي بِالذَّهَبِ؟

ثُمَّ رَأَوْا أَنْ يَجْمَعُوا مَا لَدَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ حُلِيِّ كَانُوا قَدْ اسْتَعَارُوهُ مِنَ الْمَصْرِيِّينَ لَيْلَةً خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ، وَأَوْهَمُوا كُلَّ مَنْ لَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهُ، إِذْ لَيْسَ لَهُمْ بِهِ حَقٌّ، بَاغْتِبَارِ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَعَارًا فَلْيَكُنْ لِلَّهِمَّ.

فَأَلْقَى الْقَوْمُ مَا كَانَ لَدَيْهِمْ مِنْ حُلِيِّ الْمَضْرِبِينَ الْمُسْتَعَارِ، وَاجْتَمَعَ الصُّنَّاعُ بِقِيَادَةِ السَّامِرِيِّ، وَصَهَرُوا مَا اجْتَمَعَ لَدَيْهِمْ مِنْ حُلِيِّ الذَّهَبِ، وَصَبُّهُ فِي قَوَالِبَ عَلَى صُورَةِ عِجْلِ مِنَ الْبَقَرِ، فَلَمَّا أَتَمُّوا صَنْعَتَهُ بِمَهَارَةٍ صَانِعِي الذَّهَبِ، أَقْبَلَ السَّامِرِيُّ فَأَلْقَى فِي جَوْفِ الْعِجْلِ الذَّهَبِيَّ مَا لَدَيْهِ مِنَ الْقَبْضَةِ الَّتِي كَانَ قَدْ احْتَفَظَ بِهَا مِنْ أَثَرِ الرُّسُولِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَصَارَ يَصْدُرُ عَنِ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ بِخَلْقِ اللَّهِ خُورًا كَخُورِ الْعُجُولِ.

وَعَجِبَ جُمْهُورُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ، وَانْطَلَقَتْ بَيْنَهُمْ شَائِعَةٌ

رَاجَتْ عِنْدَ مُعْظَمِهِمْ قَائِلِينَ: هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى، وَإِنَّ مُوسَى لَمَّا ذَهَبَ لِمُنَاجَاتِهِ نَسِيَ مَكَانَهُ، فَهُوَ تَائِهٌ عَنْهُ، فَاجْتَمَعُوا يَعْكُفُونَ عَلَيْهِ وَيَرْقُصُونَ حَوْلَهُ.

فنهاهم هارون عليه السلام، وقال لهم: يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ، فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي.

فقالوا له: لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى، فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، وَدَفَعُوهُ عَنْهُمْ بِالْقُوَّةِ، وَكَادُوا يَقْتُلُونَهُ.

وَأَعْلَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا فَعَلَ قَوْمُهُ مِنْ بَغْيِهِ، فِي غِيَابِهِ عَنْهُمْ، مِنْ اتِّخَاذِهِمُ الْعِجْلَ الذَّهَبِيَّ إِلَهًا وَثَنًا يَعْبُدُونَهُ، فَعَضِبَ فِي نَفْسِهِ مِنْهُمْ وَمِمَّا صَنَعُوا.

وَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهِمْ وَرَأَى بَعِيْنَهُ الْعِجْلَ الذَّهَبِيَّ الَّذِي اتَّخَذُوهُ، اسْتَشَاطَ غَضَبًا وَحُزْنًا، وَقَالَ لِقَوْمِهِ: بِشْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي، أَمِنْ أَجْلِ عَشْرِ لَيَالٍ زَادَتْ فِي مِيقَاتِ رَبِّي لَعِبَتْ بِكُمْ الظُّنُونُ، وَاتَّخَذْتُمْ وَثَنًا إِلَهًا، وَالْقَى الْأَلْوَحَ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحَاسِبُ أَخَاهُ بَعْنَفٍ إِذْ لَمْ يَكُنْ قَوِيًّا حَازِمًا مَعَهُمْ، فَاعْتَذَرَ هَارُونُ بِأَعْدَارِ صَحِيحَةٍ أَبَانَ لَهُ فِيهَا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّهُمْ عَمَّا فَعَلُوا، فَقَبِلَ مُوسَى عُذْرَ أَخِيهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ عَلَى قَنَاعَةٍ تَامَّةٍ، وَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَلِأَخِيهِ وَأَنْ يُدْخِلَهُمَا فِي رَحْمَتِهِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِأَنَّهُ أَزْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وَلَمَّا هَدَأَ غَضَبُهُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَلْقَاهَا فِي الْأَرْضِ عِنْدَ شِدَّةِ غَضَبِهِ، وَقَامَ بِتَحْرِيقِ الْعِجْلِ وَنَسْفِهِ فِي أَلِيمٍ، وَطَرَدَ السَّامِرِيَّ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ، وَتَرْتِيبَ رِحْلَةِ الْاِعْتِذَارِ وَالتَّوْبَةِ مَعَ سَبْعِينَ رَجُلًا اخْتَارَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي نَاجَى بِهِ رَبَّهُ فِي الرِّحْلَةِ السَّابِقَةِ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَهُ فِيهَا الْأَلْوَحَ.



التدبر:

قول الله تعالى:

﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورًا ۖ﴾ .

الروا العاطفة في صدرِ هذا البيان تَعَطُّفُ هذا الحدث على الأحداث التي سبق بيانها من قصة موسى عليه السلام وقومه من بني إسرائيل في السّورة.

● ﴿وَأَتَّخَذَ﴾: على وزن «افعل» من الأخذ، ومن معاني هذه الصّيغة التّكَلُّفُ والتّصنُّع على خلافِ الحقّ، أو طبيعة الأمر السّويّ.

● ﴿قَوْمُ مُوسَىٰ﴾: المراد بهم جمهور بني إسرائيل الذين كانوا معه، وخَرَجُوا بقيادته من مصر.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾: أي: من بَعْدِ غيابه عنهم في مُدَّةٍ رِحَلَتْهُ إِلَى جَانِبِ الطَّوْرِ لمناجاة ربّه، وتَلَقَّي مَا كَتَبَ لَهُ فِي الْأَلْوَحِ.

هذه القُيُود تُفَهِّمُ من قرائن السُّبَاقِ والسِّيَاقِ.

وليس المُرَادُ بِقَوْمِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَمِيعَ أَفْرَادِهِمْ، إِذْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَمْ يَرْضَ مَا اتَّخَذَهُ الْقَوْمُ، وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مَا فَعَلُوا، وَاشْتَدَّ فِي مَخَاصِمَتِهِمْ كَهَارُونَ أَخِيهِ وَوَزِيرُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

● ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾: أي: من مَصُوعَاتِ الذَّهَبِ الَّتِي كَانَتْ مَعَهُمْ يَتَحَلَّلُونَ بِهَا، وَهِيَ مَصُوعَاتٌ اسْتَعَارُوهَا مِنَ الْمَصْرِيِّينَ قُبَيْلَ سَاعَاتِ خُرُوجِهِمْ لَيْلًا مِنْ مِصْرَ.

﴿عِجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورًا﴾: أي: وَصَيَّرُوا الْمَسْبُوكَ مِنْ ذَهَبِ الْحَلِيِّ عَلَى صُورَةِ عِجَلٍ ذِي جَسَدٍ مَرْتَبِيٍّ مَلْمُوسٍ لَهُ صَوْتٌ يُشَبِّهُ صَوْتَ عُجُولِ الْبَقَرِ.

وَكُذِّبَ كُتَابُ سِفْرِ الْخُرُوجِ عَلَى هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي صَنَعَ لَهُمُ الْعِجْلَ الذَّهَبِيَّ مَسْبُوكًا.

جاء في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج عند أهل الكتاب ما يلي:

« ١ - وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي التَّزُّوْلِ مِنَ الْجَبَلِ اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ قُمْ اضْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا لِأَنَّ هَذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَضَعَدَنَا مِنْ مِصْرَ لَا نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ. ٢ - فَقَالَ لَهُمْ هَارُونَ انزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَيْنَكُمْ وَأَتُونِي بِهَا. ٣ - فَتَنَزَّعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى هَارُونَ. ٤ - فَأَخَذَ ذَلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالْإِزْمِيلِ وَصَنَعَهُ عِجْلًا مَسْبُوكًا فَقَالُوا هَذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَضَعَدْتِكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ... ».

هكذا كَذَّبُوا عَلَى هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما جاء في القرآن يُناقض ذلك. وحاول بعض المفسرين أن يجعل هارون هذا الاسم العَلَمَ للسامري، لكنَّ مَا جَاءَ فِي مَكْتُوباتِ التَّوْرَاتِيِّينَ فِي إِضْحَاحَاتِهِمْ لَا يُسَاعِدُ عَلَى هَذَا الْفَهْمِ، لِأَنَّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ هَارُونَ أَخِي مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، لَا عَنْ شَخْصٍ آخَرَ.

وجاء بِشَأْنِ إِعْلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي غِيَابِهِ عَنْهُمْ، بَعْدَ أَنْ سَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ تَعَجُّلِهِ عَنْ قَوْمِهِ، قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ وَمَا أَعْجَلَك عَنْ قَوْمِكَ يٰمُوسَى ﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾.

أي: فَإِنَّا قَدْ امْتَحَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِ مُفَارَقَتِكَ لَهُمْ، وَغِيَابِكَ عَنْهُمْ، وَأَنَّ الَّذِي أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ.

فغضب موسى عليه السلام وَخَزَنَ بِسَبَبِ مَا جَرَى.

وجاء عند أهل الكتاب، في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج ما يلي:

«٧ - فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى أَذْهَبِ انْزِلْ لِأَنَّهُ قَدْ فَسَدَ شَعْبُكَ الَّذِي أَضَعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. ٨ - زَاغُوا سَرِيعاً عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتَهُمْ بِهِ. صَنَعُوا لَهُمْ عِجْلاً مَسْبُوكاً وَسَجَدُوا لَهُ وَذَبَحُوا لَهُ وَقَالُوا: هَذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَضَعَدْتِكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. ٩ - وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى رَأَيْتُ هَذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرِّقَةِ».



قول الله تعالى:

• ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (١٧١).

هذه المقولة الربّانية تَغْلِيْقُ تَوْجِيهِي لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ يَتْلُو الْقُرْآنَ، أَوْ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ، يَكْشِفُ سَفَاهَةَ الَّذِينَ يَتَعَلَّقُونَ بِالْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، وَيَتَّخِذُونَهَا مَعْبُودَاتٍ لَهُمْ، يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهَا بِمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُرْضِي هَذِهِ الْأَلِهَةَ الْوَثْنِيَّةَ، فَتَجْلِبُ لَهُمْ نَفْعًا أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرًّا.

• ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾: أي: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّ هَذَا الْعِجْلَ الذَّهَبِيَّ الَّذِي صَنَعُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَا يُكَلِّمُهُمْ.

الرُّؤْيَةُ هُنَا رُؤْيَةُ عَقْلِيَّةٌ فِكْرِيَّةٌ، لَا رُؤْيَةُ بَصَرِيَّةٌ، لِأَنَّ الْكَلَامَ يُسْمَعُ بِالْأَذَانِ وَلَا يُرَى بِالْأَبْصَارِ، وَعَدَمُ ذَلِكَ يَكُونُ عَنْ طَرِيقِ الْإِدْرَاكِ الْفِكْرِيِّ.

• ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾: أي: وَالْمَ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُبَيِّنُ لَهُمْ سَبِيلًا يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ، لَا مِنَ السَّبِيلِ الْمَادِّيَّةِ، وَلَا مِنَ السَّبِيلِ الْمَعْنَوِيَّةِ.

والرؤية هنا أيضاً رؤية فكرية عقلية.

وهذا البيان موجه أيضاً لكل متخذي الأوثان، في كل العصور والأزمان. وقد استغلّت المناسبة لتقديمه، حتى تكون القصص القرآنية ذات هدف توجيهي لكل من يستمع إليها.

﴿اتَّخِذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾: أي: اتَّخَذُوا الْعِجَلَ إِلَهًا مُشْرِكِينَ ظَالِمِينَ، وَكَانُوا قَبْلَ اتَّخَاذِهِ ظَالِمِينَ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا قَدْ تَحَرَّرُوا بَعْدَ مِنْ مَفْهُومَاتِ الشُّرْكَ وَالتَّعَلُّقِ بِالْأَوْثَانِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ مَا شَهِدُوهُ مِنْ مَعْجَزَاتٍ وَخَوَارِقِ عَادَاتٍ، ضِدَّ شِرْكَائِيَّاتِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ نَهْيِ مُوسَى الْمَشْدِّ لَهُمْ عَنْ اتَّخَاذِ آلِهَةٍ مِنَ الْأَصْنَامِ.



قول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٤٩):

• ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾: قَالَ الْمَفْسَرُونَ: أي: وَحِينَ نَدِمُوا وَتَحَيَّرُوا. قَالَ الزَّجَّاجُ: هُوَ نَظْمٌ لَمْ يُسْمَعْ قَبْلَ الْقُرْآنِ وَلَمْ تَعْرِفْهُ الْعَرَبُ. وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ سِرَاجٍ: هَذَا الْقَوْلُ مِمَّا أُعْيَانِي مَعْنَاهُ^(١).

أقول: هذه العبارة كناية بديعة عن ندمهم وشدة خوفهم، وأضلها أن الذي يُسْقَطُ في أيدي المجرمين بسرعة وغنم، هي الأغلال والأصفاد والقيود التي يُسَاقُونَ بها لمُعَاقَبَتِهِمْ، وَحِينَ تَكُونُ هذه من الحديد الثقيل فإنها قد تُسْقِطُهُمْ إِلَى الْأَرْضِ، فَيَكُونُونَ بِذَلِكَ نَادِمِينَ سَاكِنِينَ، لَا يَمْلِكُونَ إِلَّا الاعتراف بجرائمهم.

(١) كذا نقل ابن عاشور في تفسير: «التحرير والتنوير».

وكان جُمهُورُ بني إسرائيل قَدْ تَمَرَّدُوا على هَارُونَ وِقِيَادَتِهِ عليه السلام، إذ اسْتَضَعُفُوهُ، فَلَمْ يُوَافِقُوا على التَّوَجُّهِ مُرْتَجِلِينَ لجهةِ جَبَلِ الطُّور، حَيْثُ المِيقَاتِ الَّذِي حَدَّدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى عليه السلام، وَخَشِيَ هَارُونَ عليه السَّلَامُ أَنْ يَكْتَفِيَ بِمَنْ وَافَقَهُ على الازتِحَالِ على أثرِ مُوسَى، أَنْ يَقُولَ له مُوسَى: فَرَّقْتُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

ولمَّا رَأَى هؤلاء الجمهور من بني إسرائيل أَنَّ مُوسَى عليه السَّلَامُ قد أَبْطَأَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ إِكْمَالِ اللَّهِ مِيعَادَهُ إِلَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، بَعْدَ أَنْ كَانَ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً، وَهُمْ لَمْ يَظْلَمُوا بِهِذِهِ الزِّيَادَةِ، قَالُوا: لَا نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَ مُوسَى فِي رِخْلَيْهِ لِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ، فَصَنَعُوا بِقِيَادَةِ السَّامِرِيِّ العَجَلَ الذَّهَبِيَّ إِلَهًا لَهُمْ يَغْبُدُونَهُ، وَيَسِيرُ أَمَامَهُمْ حَامِيًا وَرَاعِيًا لَهُمْ، تَحْمِلُهُ كَهَنَتُهُمْ أَيْتِمَا سَارُوا.

ثُمَّ رَأَوْا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَادِمًا إِلَيْهِمْ مِنْ بَعِيدٍ، بَعْدَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، بِتَأْخِيرِ عَشْرِ لَيَالٍ عَمَّا كَانَ أَضَلُّ الْمَوْعَدِ، وَرَأَوْهُ يَحْمِلُ الْوَحَا، فَأَخَذَتْ المَخَافُ مِنْ سَطَوَتِهِ تَدْبُ إِلَى قُلُوبِهِمْ، وَحِينَ اقْتَرَبَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ رَأَوْا عِلَامَاتِ الغَضَبِ والحِزْنِ بَادِيَةً عَلَيْهِ، وَكَانُوا يَهَابُونَهُ مَهَابَةً عَظِيمَةً، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ شَاهَدُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قد أَعْطَاهُ قُوَى فَلَقِيَ الْبَحْرَ بَعْصَاهُ، وَأَغْرَقَ لَهُ فِرْعَوْنَ وَآلَهُ وَجُنُودَهُ.

فَعَظَّمَ الأمرَ عَلَيْهِمْ، وَأَذَرَكُوا أَنَّهُمْ عَصَوْا بِتَمَرُّدِهِمْ عَلَى أَخِيهِ هَارُونَ، إِذْ أَبُوءَا أَنْ يَزْتَجِلُّوا عَلَى أَثَرِ مُوسَى إِلَى جِهَةِ جَبَلِ الطُّورِ، فَأَخْلَفُوا الْمَوْعَدَ الَّذِي وَعَدُوهُ مُوسَى، أَخَذًا مِمَّا جَاءَ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْبَيْنَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدَنَّاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ...﴾ (٨١) ﴿.

وقول موسى لهم كما جاء فيها أيضاً: ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ (٨١) ﴿.

وَأَذَرَكُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَجْرَمُوا بِاتِّخَاذِهِمُ الْعِجْلَ، وَأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، سَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ لَا مُحَالَةَ، فَقَدْ نَهَاَهُمْ سَابِقًا عَنْ اتِّخَاذِ إِلَهٍ مِنَ الْمَحْسُاتِ الْمَادِيَةِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ اتِّخَاذِ إِلَهٍ أَوْ آلِهَةٍ مِنَ الْأَوْثَانِ يَغْبُدُونَهَا، وَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ الْوَعْدَ أَنْ لَا يُغَيِّرُوا وَلَا يُبَدِّلُوا فِي الدِّينِ شَيْئًا.

عندئذٍ سَقَطَ بِأَشْيَاءَ مَعْنَوِيَّةٍ فِي أَيْدِيهِمْ، وهذه الأشياء المعنوية هي بمثابة قِيُودٍ وَأَصْفَادٍ وَأَغْلَالٍ ثَقِيلَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، تَجْعَلُ قُورَاهُمْ عَاجِزَةً عَنِ الدَّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، كَالْمُجْرِمِ الْقَاتِلِ أَوِ السَّارِقِ أَوِ الْخَائِنِ خِيَانَةً عَظُمَى، إِذَا رَأَى أَنَّهُ مُحَاطٌ بِالْجُنُودِ الَّذِينَ سَيَقْبِضُونَهُ عَلَيْهِ لَا مُحَالَةَ، فَلَا مَهْرَبَ لَهُ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ تَنَحَّلَ قِوَاهُ مِنَ الرُّغْبِ، وَتَرْتَخَى أَعْصَابُهُ، وَتَتَدَلَّى يَدَاهُ، وَتَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ رِجْلَاهُ، كَأَنَّ حَدِيدًا ثَقِيلًا قَدْ أَسْقَطَ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ غُلًّا أَوْ صَفْدًا أَوْ قِيدًا فِي يَدَيْهِ، فَكَانَتَا مَشْدُودَتَيْنِ نَحْوِ الْأَرْضِ مِنْ ثِقَلِ مَا سَقَطَ عَلَيْهِمَا، لِإِثْبَاتِهِ، فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ حَرَكَاتًا.

● ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾: أي: وَرَأَوْا رُؤْيَا عِلْمِيَّةً بَعْدَ شَهَادَتِهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَادِمًا إِلَيْهِمْ، أَنَّهُمْ قَدْ تَسَرَّعُوا بِاسْتِبْطَانِهِمْ عَوْدَتَهُ، وَأَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا بِاتِّخَاذِهِمُ الْعِجْلَ الذَّهَبِيَّ إِلَهًا يَغْبُدُونَهُ، فَقَالُوا:

● ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٤٩):

لَقَدْ جَعَلُوا يُرَدِّدُونَ نَظِيرَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى حَيْثُ يَنْزِلُونَ، وَقَبْلَ أَنْ يُوَاجَهُهُمْ بِالْمَحَاسِبَةِ عَلَى مَا فَعَلُوا.

وَجَعَلُوا يَدْعُونَ رَبَّهُمْ كَمَا جَاءَ فِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى، قَائِلِينَ: [لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ] (١٤٩).

وهذا اغترافٌ مِنْهُمْ لِرَبِّهِمْ بِكِبَرِيَّتِهِمُ الشَّرَكِيَّةِ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا، طَامِعِينَ بِأَنْ يَرْحَمَهُمْ وَيَغْفِرَ لَهُمْ.

الرَّحْمَةُ: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ الْجَلِيلَةِ، وَهِيَ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ، تُثَبِّتُهَا لِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَمِنْ آثَارِهَا الْعَطَاءُ، وَالْمَعُونَةُ، وَالتَّوْفِيقُ،

وإِزَالَةَ الْبُؤْسِ، والغفران، والتجاوزُ عن السيئات، والعفو والصّفح.

المغفرة: مَصْدَرُ غَفَرَ الشَّيْءَ، أي: سَتَرَهُ، يُقَالُ لُغَةً: غَفَرَ يَغْفِرُ غَفْرًا وَغُفْرَانًا وَمَغْفِرَةً الشَّيْءِ، أي: سَتَرَهُ.

والمراد بِسِتْرِ الذَّنْبِ عَدَمُ الْمُواخَذَةِ عَلَيْهِ.

كُلُّ هَذَا كَانَ قَبْلَ وُصُولِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَنَازِلِ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.



قول اللّهِ تَعَالَى:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ لِئَسْمَا خَلَقْتُهُنِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ...﴾ (١٥٠)؟!:

أي: وَحِينَ وَصَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِلَى مَنَازِلِ قَوْمِهِ، حَالَةً كَوْنِهِ غَضْبَانًا مِمَّا فَعَلَ قَوْمُهُ، وَحَالَةً كَوْنِهِ حَزِينًا بِسَبَبِ ظُهُورِ نَزْعَاتِ الشُّرْكِ الشَّيْطَانِيَةِ فِيهِمْ بِهَذِهِ السَّرْعَةِ، إِذْ لَمْ يَزِدْ غِيَابُهُ عَنِ الْمَوْعِدِ الَّذِي كَانُوا عَالِمِينَ بِهِ إِلَّا عَشْرَ لَيَالٍ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ النَزْعَاتُ الْخَبِيثَاتُ قَدْ ظَهَرَتْ فِي أَوَائِلِهَا، بَعْدَ انْتِهَاءِ اللَّيَالِيِ الثَّلَاثِينَ.

الْغَضَبُ: انْفِعَالٌ نَفْسِيٌّ مِنَ الْكَرَاهِيَةِ مَضْحُوبٌ بِإِرَادَةِ الْإِنْتِقَامِ.

يقال لغة: غَضِبَ عَلَيْهِ يَغْضَبُ غَضَبًا، أي: سَخَطَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ مَعْصِيَةٍ أَوْ مَخَالَفَةٍ أَوْ أَمْرٍ يَكْرَهُهُ مِنْهُ، وَأَزَادَ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُ، فَهُوَ غَضِبَ وَغَضْبَانٌ، وَصِيغَةُ «غَضْبَانٍ» تَدُلُّ عَلَى حَرَكَةٍ فِي النَّفْسِ تُشَبِّهُ غَلِيَانًا مَا فِي الْقَدْرِ بِالنَّارِ.

الْأَسْفُ: الْحُزْنُ، يُقَالُ لُغَةً، أَسِفَ عَلَيْهِ يَأْسِفُ أَسْفًا، أي: حَزَنَ مِنْ أَجْلِهِ، فَهُوَ أَسِيفٌ، وَأَسِيفٌ، وَأَسِيفٌ، وَهَاتَانِ صِيغَتَا مُبَالَغَةٍ.

فعبارة: ﴿أَيْقَا﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ شَدِيدَ الْحُزَنِ، بسبب انْجِرَافِ جَمْهُورِ قَوْمِهِ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ.

● ﴿قَالَ يٰٓأَيُّهَا خَلْقْتُوبِي مِنْ بَعْدِي﴾ يَظْهَرُ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْذُ وَصَلَ إِلَى مَنَازِلِ قَوْمِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ كُبْرَاؤُهُمْ، قَالَ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرَّ جَالِسًا، وَقَبْلَ أَنْ يُحَدِّثَهُمْ بِشَيْءٍ، هَذِهِ الْمَقَالَةُ التَّثْرِييَّةُ، وَقَالَ لَهُمْ أَيْضًا:

﴿أَعْمَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ ١٩: فَهُمَا مَقَالَتَانِ وَاجَهَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِمَا قَوْمَهُ، فِي أَوَّلِ خُطَابٍ خَاطَبَهُمْ بِهِ، مِنْذُ وَصُولِهِ إِلَيْهِمْ.

الجملة الأولى: ﴿يٰٓأَيُّهَا خَلْقْتُوبِي مِنْ بَعْدِي﴾: أي: بِثَسْتِ خِلَافَةٍ خَلَقْتُمُونِيهَا مِنْ بَعْدِي خِلَافَتَكُمْ.

«مَا» مِنْ «بِسْمَا» تَمِيِيزُ مَنْصُوبٌ، وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ فِي «خَلَقْتُمُونِي» وَالتَّقْدِيرُ: خَلَقْتُمُونِيهَا، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: خِلَافَتَكُمْ.

هَذَا أَحَدُ وُجُوهِ إِعْرَابِ هَذَا الِاسْتِعْمَالِ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ النُّحَاةُ الْمُتَأَخَّرُونَ.

لَقَدْ ذَمَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَمًّا شَدِيدًا مَا صَنَعَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَفِي هَذَا الذَّمِّ شَتِيمَةٌ لَهُمْ، وَتَقْبِيحٌ لِمَا فَعَلُوا مِنْ كَبِيرَةِ الشَّرْكِ.

يُقَالُ لُغَةً: خَلَفَ فُلَانٌ فُلَانًا، وَخَلَفَ قَوْمٌ قَوْمًا، خَلْفًا، وَخِلَافَةً، إِذَا أَقَامُوا بَعْدَهُمْ فِي الْمَكَانِ أَوْ فِي الزَّمَانِ أَوْ فِي الْأَشْيَاءِ، فَهُمْ خُلَفَاءُ، وَالوَاحِدُ خَلِيفَةٌ، وَلَا يَجْتَمِعُ الْخَلِيفَةُ وَالْمُخْلُوفُ فِيمَا حَصَلَتِ الْخِلَافَةُ فِيهِ.

● ﴿مِنْ بَعْدِي﴾: أي: مِنْ بَعْدِ مُفَارَقَتِي لَكُمْ لِمَنَاجَاةِ رَبِّي.

قَدْ يُقَالُ: هَذِهِ الْبَغْدِيَّةُ مَفْهُومَةٌ مِنْ مَضْمُونِ مَعْنَى الْخِلَافَةِ، فَمَا الْحَاجَةُ لِأَنْ يُصْرَحَ بِهَا.

أَقُولُ: فِي هَذَا التَّصْرِيحِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ قِيَادَتَهُ لَهُمْ وَهُوَ بَيْنَهُمْ، قَدْ

كانت هي السَّبَب في ضَبْطِهِمْ عن الانحرافِ والتغيير في الدين، وهذا يَدُلُّ على أنهم لم يَصِلُوا بَعْدُ إِلَى مُسْتَوًى تَرْكِهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ يُقِيمُونَ دين الله، فالإيمانُ الحقُّ لَمَّا يَدْخُلُ في قُلُوبِهِمْ، إِنَّمَا هُمْ كَقَطِيعٍ يَتَّبِعُ رَاعِيًا ضَابِطًا حَازِمًا قَوِيًّا يَرْهُبُونَهُ.

الجملة الثانية: ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟! : قال الفراء: تقول: عَجَلْتُ الشيءَ، أي: سبقته. فالمعنى على هذا: أَسَبَقْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ. وَالْمُرَادُ: أَتَجَاوَزْتُمْ حُدُودَ أَمْرِ رَبِّكُمْ، إِذْ أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَةً أَوْثَانًا تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ، وهذا التجاوزُ الَّذِي سَبَقْتُمْ بِهِ مَسِيرَةَ أَمْرِ رَبِّكُمْ يُعَرِّضُكُمْ لِعِقَابٍ شَدِيدٍ مِنْ لَدُنْهِ.

فالاستفهامُ في العبارة استفهامٌ إنكاريٌّ توبيخيٌّ على ما كان منهم من اتِّخَاذِهِمُ الْعِجْلِ.



قول الله تعالى:

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخِذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ :

● ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ﴾ : أي: وألقى موسى عليه السلام الألواح التي كان يَحْمِلُهَا مِنْ شِدَّةِ انْفِعَالِهِ الغضبي، إِذْ شَاهَدَ قَوْمَهُ قَدْ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ، وكان هذا عِنْدَ وُضُوعِهِ إِلَى قَوْمِهِ غَضَبًا أَسِفًا، وقوله لهم: ﴿يَنْسَأَ خَلْقَتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟! :

وليس في القرآن بيانٌ أَنَّهَا انكسرت عِنْدَ إلقاءه لَهَا، لَكِنْ ثبت في الحديث النبوي أَنَّهَا انكسرت.

وأهل الكتاب من بني إسرائيل يذكرون أَنَّهُ كَسَرَهَا، وَأَعَادَ اللَّهُ لَهُ كِتَابَةً

الْوَاَحِ أَخْرَجْنِي بِدَلْهَآ، نَحْتَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْحَجَارَةِ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمَا لَوْحَانِ كَتَبَهُمَا اللَّهُ لَهُ عَلَى وُجُوهِهِمَا الْأَرْبَعَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وجاء في بيان الرسول محمد ﷺ، تَعْلِيلُ كَوْنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُنْقَلِ الْأَلْوَاَحَ مِنْ يَدَيْهِ، حِينَما أَخْبَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ قَوْمَهُ اتَّخَذُوا عِجْلًا وَعَبَدُوهُ، لِكَيْتُهُ لَمَّا قَدِمَ إِلَى قَوْمِهِ وَشَاهَدَ الْأَمْرَ بِبَصَرِهِ، أَخَذَتْهُ الْحِدَّةُ، فَلَمْ يَتِمَّاكَ نَفْسَهُ، فَأَلْقَى الْأَلْوَاَحَ، فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ».

روى الإمام أحمد، والحاكم وصححه على شرط الشيخين، وابن جبان في صحيحه، عن ابن عباس رضي الله عنه، أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ:

«لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ، إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ، فَلَمْ يُنْقَلِ الْأَلْوَاَحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الْأَلْوَاَحَ فَأَنْكَسَرَتْ».

● ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ :

كان موسى عليه السلام شديداً قوياً ذا حدة، لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد وقع في ظنه أَنَّ أَخَاهُ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَانَ لِنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يَزَعْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ حَزْمٍ وَشِدَّةٍ، حِينَ رَأَوْهُمُ انْحَرَفُوا عَنْ أَصْلِ الدِّينِ، فَبَدَأَ بِهِ يُرِيدُ مُؤَاخَذَتَهُ وَمُعَاقِبَتَهُ عَلَى تَهَاوُنِهِ، وَقَدْ جَعَلَهُ خَلِيفَتَهُ فِي قَوْمِهِ، وَأَوْصَاهُ بِأَنْ يُضْلِحَ وَلَا يَتَّبِعَ سَبِيلَ الْمَفْسِدِينَ، فَقَبَضَ عَلَى شَعْرِ رَأْسِهِ، وَجَعَلَ يَجُرُّهُ.

فأخذ هارون علي السلام يدافع عن نفسه، وَيَعْتَذِرُ بِمَالِهِ بِهِ عُذْرٌ حَقِيقَةٌ، ضِمْنَ حُدُودِ اسْتِطَاعَتِهِ، وَطَبِيعَةِ نَفْسِهِ.

● ﴿قَالَ ابْنَ أُمٍّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتُ بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلُنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥٠) :

لقد اشتملَ اغْتِذَارُ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَمَّا دَلَّ عَلَيْهِ فِعْلُ مُوسَى

عليه السّلام، إِذْ أَخَذَ بِرَأْسِهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ، مِنْ اتِّهَامِهِ بِالتَّقْصِيرِ وَالتَّهَوُّنِ، عَلَى ثَلَاثِ مَقُولَاتٍ، مَضْحُوبَاتٍ بِهُدُوءٍ، وَجَلَمٍ، وَصَبْرٍ، وَتَحَمُّلٍ، تُنَاسِبُ طَبِيعَتَهُ، إِذْ هُوَ لَيْنٌ، حَلِيمٌ، هَادِيٌّ، وَصَبُورٌ، لَا تَأْخُذُهُ الْحَدَّةُ.

المقولة الأولى: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿أَبْنُ أُمٍّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾:

بدأ أخاه في هذه المقولة باستغطفه بأُمِّه الَّتِي هِيَ أَثَمُّهُمَا، مَعَ أَنَّهُمَا شَقِيقَانِ، وَلَكِنَّ حَيَاتَهُمَا كَانَتْ بِرِعَايَةِ أَثَمُّهُمَا الَّتِي كَانَتْ تَرْعَاهُمَا بِالْحَنَانِ وَالشَّفَقَةِ دَوَامًا.

[أَبْنُ أُمٍّ]: أَضْلُ الْكَلَامِ: يَا أَبْنُ أُمِّي، وَمِثْلُ هَذَا الْإِسْتِعْمَالِ تُحَذِّفُ مِنْهُ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ، فَإِذَا حُذِفَتْ جَازَ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَجْهَانِ: إِبْقَاءُ الْكُسْرَةِ عَلَى آخِرِ الْكَلِمَةِ، فَيَقَالُ: يَا أَبْنُ أُمٍّ. وَحُذْفُ حَرْفِ النِّدَاءِ، وَهُوَ جَائِزٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ إِذَا كَانَ نِدَاءً بِ«يَا».

وَسَبَقَ بَيَانُ أَنَّهُ قُرِئَ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا مِنْ «أَبْنِ أُمٍّ».

● ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي﴾:

﴿اسْتَضَعُّونِي﴾: أَي: وَجَدُونِي ضَعِيفًا لَا أَمْلِكُ قُوَّةَ أَغْلِبُهُمْ بِهَا.

وَتَدَلُّ هَذِهِ الْعِبَارَةُ بِلَوَازِمِهَا الْفِكْرِيَّةِ، عَلَى أَنَّ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ نَهَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ اتِّخَاذِ الْعِجْلِ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، ثُمَّ حَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ فَلَمْ يُبَالُوا، وَقَدْ جَاءَ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ بِشَأْنِ الْعِجْلِ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ (٩١).

أَي: إِنَّمَا امْتَحَنْتُمْ بِخَوَارِ هَذَا الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ، لِيُكْشِفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

أَنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ لَمْ يَصِلْ إِلَى قُلُوبِكُمْ، وَلَمْ يَسْتَقِرَّ فِيهَا، وَأَنَّ الْمَفْهُومَاتِ الْوُثْنِيَّةَ مَا زَالَتْ عَالِقَةً فِي نَفُوسِكُمْ.

فَاتَّبِعُونِي وَلَا تَتَّبِعُوا السَّامِرِيَّ الَّذِي أَضَلَّكُمْ، وَأَطِيعُوا أَمْرِي، فَإِنِّي خَلِيفَةُ أَخِي مُوسَى الْمَسْئُولِ عَنْكُمْ، فَقَدْ جَعَلَنِي بِأَمْرِ الْإِسْتِخْلَافِ خَلِيفَةً عَنْهُ عَلَيْكُمْ.

فَمَا كَانَ مِنْ جُمْهُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا الْعِنَادُ وَالْإِضْرَارُ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ، دَلٌّ عَلَى هَذَا الْآيَةِ التَّالِيَةِ مِنْ سُورَةِ (طه) أَيْضاً:

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾:

﴿لَنْ نَبْرَحَ﴾ أي: لَنْ نَزُولَ، وَلَنْ نَتْرَكَ الْعِجْلَ كَمَا تَطْلُبُ مَثًا، وَسَنَبْقَى مُحَافِظِينَ عَلَيْهِ، حَالَةً كَوْنِنَا عَاكِفِينَ عَلَيْهِ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى.

عِنْدئِذٍ أَقْبَلَ هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَازِماً عَلَى أَنْ يُنْكِرَ الْمُنْكَرَ بِيَدِهِ، وَيَأْخُذَ الْعِجْلَ وَيُحْطِمْهُ، وَيَمْنَعَ عِبَادَتَهُ بِالْقُوَّةِ، فَتَكَاثَرَ عَلَيْهِ الْعَوْغَاءُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَدَفَعُوهُ عَنْ عِجْلِهِمْ بِالْقُوَّةِ، وَكَادُوا يَقْتُلُونَهُ دِفَاعاً عَنْهُ، يُفْهِمُ هَذَا مِنْ عِبَارَةٍ: ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ الْوَارِدَةِ فِي النَّصِّ الَّذِي فِي سُورَةِ (الأعراف).
أي: وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي دِفَاعاً عَنْ عِجْلِهِمْ لِأَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَنْكَرَ الْمُنْكَرَ بِيَدِي، وَأَنْ أَسْتَعْمِلَ الْقُوَّةَ لِتَحْطِيمِ الْعِجْلِ، وَمَنْعِهِمْ وَدَفْعِهِمْ عَنْ عِبَادَتِهِ.

المَقُولَةُ الثَّانِيَّةُ: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿فَلَا تُشْمِتْ فِي الْأَعْدَاءِ﴾:

ذَكَرَ هَارُونُ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بَأَنَّ لَهُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَعْدَاءً، يَخْشُدُونَهُ عَلَى اخْتِيَارِهِ نَبِيًّا وَرَسُولاً مَعَ أَخِيهِ مُوسَى صَاحِبِ الرِّسَالَةِ الْأَوَّلِ، وَيَخْشُدُونَهُ عَلَى مَكَانَتِهِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ يَحْتَلُّ مَقَامَ الْوَزِيرِ الْأَوَّلِ لِمُوسَى، فَإِذَا غَابَ مُوسَى كَانَ هُوَ خَلِيفَتُهُ فِي قَوْمِهِ.

وَيُشْعِرُ هَارُونُ أَخَاهُ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ، بِأَنَّهُ إِذَا حَاسَبَهُ حِسَاباً شَدِيداً عَسِيراً كَانُوا بِهِ شَامِتِينَ.

والمعنى: فلا تجعلهم يَشْمَتُونَ بي.

الشَّمَاتة: فَرَحُ الْعَدُوِّ بما يُصِيبُ عَدُوَّهُ مِنْ مَكْرُوهِه، وقد تكون بين المتنافسين والمتخاصمين، ولو لم يكونوا أعداء.

المقولة الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٥٩﴾:

أي: وَإِنَّكَ إِنِ اخَذْتَنِي عَلَى مَا فَعَلَ الظَّالِمُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ، فَقَدْ جَعَلْتَنِي مَعَهُمْ فِي الْإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ، مَعَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَثِمًا، وَلَا مَقْصُرًا أَوْ مُتَهَاوِنًا، فَمُؤَاخَذَتِي مَعَهُمْ أَمْرٌ مُنَافٍ لِلْعَدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي عبارة هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ رِقَّةٍ وَتَلَطُّفٍ فِي غَرَضِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ.

معترضة حول مَا جَاءَ فِي سورة (طه) بشأن هذا الموضوع:

يَذُلُّ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، كَانَ لَهُ مَوْقِفٌ آخَرُ مَعَ قَوْمِهِ وَأَخِيهِ هَارُونَ، إِذْ كَانَ هَادِئًا غَيْرَ ثَائِرٍ الْغَضَبِ، فَقَدْ جَاءَ فِيهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَتَقَوَّمُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَمْ خُورُوا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرْؤْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ﴿٨٩﴾.

• ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾: سَبَقَ تَدْبِيرُ نَظِيرِ هَذِهِ العبارة فِي النَّصِّ الَّذِي مِنْ سورة (الأعراف).

• ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾؟! أي: أَلَمْ أُبَلِّغْكُمْ

وَعَدَ رَبُّكُمْ أَنْ تَخْضَرُوا إِلَى جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ، وَتَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ لِي،
وهذا وعد حسن، فيه تكريم لكم، وتشريف، وإقناع لكم بالغيب، وتثبيت
على الإيمان الصحيح، فَمَا اسْتَجَبْتُمْ لِأَخِي هَارُونَ حِينَ أَمَرَكُمْ بِأَنْ تَسِيرُوا
عَلَى أَثَرِي، وَعَصَيْتُمْ وَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي إِذْ كُنْتُمْ وَعَدْتُمُونِي أَنْ تَلْحَقُوا بِي إِلَى
جَانِبِ الطُّورِ.

وقد سبق أن وعدهم الله أن ينجيهم من فرعون وآله، ووفى وعده
بمعجزة خارقة.

● ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ؟﴾! أي: أمرٌ عليكم زمنٌ طويل يُعدُّ
بالقرون فطال عليكم العهد، أي: الزمن، فلفظ «العهد» يُطلق على الزمن،
وهذا المعنى هو المناسب هنا.

وفي هذا الاستفهام إنكارٌ شديدٌ عليهم، إذ لم يطلْ عَلَيْهِمُ الزَّمَنُ،
حَتَّى يَدِبَ إِلَيْهِمْ دَاءُ نِسْيَانِ قَضَايَا الدِّينِ الْكُبْرَى، وَحَتَّى تَتَسَلَّلَ إِلَيْهِمُ
المفهُومَاتُ الشَّرَكِيَّةُ، وَيَتَّخِذُوا الْأَوْثَانَ آلِهَةً يَغْبُدُونَهَا، كَمَا حَصَلَ لِأُمَّمِ الرُّسُلِ
من قبلهم الذين دَخَلَتْ إِلَيْهِمُ الشَّرَكِيَّاتُ الْوُثْنِيَّةُ، بَعْدَ أَنْ طَالَ عَلَيْهِمُ الزَّمَنُ
قُرُونًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رُسُلِهِمْ، وَجَاءَتْ أَجْيَالٌ فِيهِمْ مُتَتَابِعَةٌ لَمْ يُشَاهِدُوا الرُّسُلَ
وَلَا الَّذِينَ عَاصَرُوهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَخَذَتِ الْوَصَايَا الدِّينِيَّةُ تَنْمِجِي آثَارَهَا
بَطُولِ الزَّمَنِ.

ومعلومٌ أنَّ بني إسرائيل يومئذٍ ما زالوا في عَصْرِ الرِّسَالَةِ، وَقَدْ شَاهَدُوا
المعجزات العظام، وَيَقُودُهُمْ رَسُولٌ، فَأَمْرُ دُخُولِ الشَّرِكِ الْوُثْنِيِّ فِيهِمْ أَمْرٌ
بَالِغُ الاستِنكَارِ، وَبَالِغُ العَجَبِ فِي سُلُوكِ الْأُمَمِ.

● ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ؟﴾: أي: بل أَرَدْتُمْ أَنْ
تَغْضُوا، وَتُخَالِفُوا أَوَامِرَ اللَّهِ لَكُمْ، اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِكُمْ وَمَفْهُومَاتِكُمُ الْبَاطِلَاتِ،
الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ حُلُولِ غَضَبِ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ، الَّذِي يَسْتَدْعِي انْتِقَامَهُ مِنْكُمْ،
وَعِقَابَهُ وَعَذَابَهُ لَكُمْ.

﴿أَنْ يَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾: أي: أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ حَالاً بِكُمْ حُلُولُ النَّازِلِ بِالْمَكَانِ حُلُولُ إِقَامَةٍ وَاسْتِقْرَارٍ.

يُقَالُ لُغَةً: حَلَّ الْمَكَانَ، وَحَلَّ بِهِ يَجِلُّ حُلُولاً، أَي: نَزَلَ بِهِ.
وَيُقَالُ: حَلَلْتُ الْقَوْمَ، وَحَلَلْتُ بِهِمْ، وَحَلَلْتُ عَلَيْهِمْ.

أُطْلِقَ حُلُولُ الْغَضَبِ، وَالْمَرَادُ حُلُولُ مَا يُسَبِّهُ، وَهُوَ الْعَصِيانُ وَاتِّبَاعُ الْهَوَى عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ، وَهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْمَسَبِّبِ وَإِرَادَةِ السَّبَبِ.
وَجَاءَ التَّعْبِيرُ أَيْضاً بِحُلُولِ الْغَضَبِ كُنَايَةً عَنْ حُلُولِ عِقَابِ اللَّهِ وَانْتِقَامِهِ. فَالْعِبَارَةُ فِيهَا مَجَازٌ مُرْسَلٌ وَكُنَايَةٌ مَعاً.

● ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾: يَشْمَلُ الْمَوْعِدُ هُنَا مَوْعِدَ اللَّحَاقِ بِمُوسَى عَلَى أَثَرِهِ، لَشُهُودِ مَكَالَمَةِ اللَّهِ لَهُ، إِذْ يَكُونُونَ فِي جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ. وَمَوْعِدَ الثَّبَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ، وَعَدَمِ اتِّخَاذِ إِلَهٍ يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

إِخْلَافَ الْوَعْدِ: عَدَمُ الْوَفَاءِ بِهِ.

﴿مَوْعِدِي﴾: أَي: مَوْعِدُكُمْ إِنِّي، فَهُوَ مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ.

الموعِد: مَصْدَرٌ مِنْ مَصَادِرِ فِعْلِ: «وَعَدَ». يُقَالُ لُغَةً: وَعَدَهُ يَعِدُهُ وَغَدَاً، وَعِدَّةً، وَمَوْعِداً، وَمَوْعِدَةً.

وَالِاسْتِفْهَامُ الَّذِي جَاءَ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ كَانَ غَايَةً فِي الْحَصَارِ الْفِكْرِيِّ الَّذِي حَاصَرَهُمْ فِيهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَسْئَلَتِهِ لَهُمْ.

● ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾: تَجَاهَلُوا إِخْلَافَهُمْ مَوْعِدَ اللَّحَاقِ بِهِ عَلَى أَثَرِهِ بِقِيَادَةِ هَارُونَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ مَا يُوْهَمُونَ بِأَنَّهُ عُذْرٌ يَعْتَذِرُونَ بِهِ. وَأَمَّا إِخْلَافُهُمْ مَوْعِدَ الثَّبَاتِ عَلَى الدِّينِ الَّذِي تَرَكَهُمْ عَلَيْهِ مُوسَى

عليه السّلام، وَعَدَم اتّخاذ إِلَهٍ يَغْبُدُونَهُ من دون الله، فقد وَجَدُوا لَدَيْهِمْ ما يُلْفَقُونَ مِنْهُ كلاماً يُوْهِمُونَ أَنَّهُ عُذْرٌ.

﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾: لفظ: ﴿بِمَلِكِنَا﴾ فيه ثلاث قراءات:

- بفتح الميم، وهي قراءة نافع، وأبي جعفر، وعاصم.
- وبضمّ الميم، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.
- وبكسر الميم، هي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، ويعقوب. وهي وجوه عربية لنطق الكلمة، والمعنى فيها واحد.

أي: ما أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ الَّذِي وَعَدْنَاكَ إِيَّاهُ بِإِرَادَتِنَا واختيارنا، لكنهم في الحقيقة كانوا كاذبين فيما ادَّعَوْهُ من أَنهم كانوا مُكْرَهِينَ، أو كانوا قَدْ عَمِلُوا بما يجبُ عَلَيْهِمْ ديناً.

فَمَا هُوَ هَذَا الْأَمْرُ الدِّينِيُّ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَفْعَلُونَ مَا فَعَلُوا؟!

قالوا كما جاء في النص:

● ﴿وَلَكِنَّا حُمَلَاءُ أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْتَهُ﴾:

وقرأ شُعْبَةُ عن عاصم، وحمزة، وأبو عمرو، والكسائي، وروُح عن يَعْقُوب: [حَمَلْنَا] بفتح الحاء والميم غير المشددة.

﴿أَوْزَارًا﴾: أي: أَحْمَالاً لَاحِقٌ لَنَا بِهَا.

﴿مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾: أي: من حُلِيِّ المصريين استعاروها ليلة خروجهم من مصر، فَأَخَذُوهَا بِحِيلَةٍ الاستعارة، فكلُّ شخص منهم استعار من معارفه وجيرانه من المصريين قطعةً أو أَكْثَرَ من الْحُلِيِّ الذهبية النفيسة، فاستلبوها، وخرجوا بها.

جاء في الإصحاح الثاني عشر من سفر الخروج:

«أَنَّ الشَّيْطَانَ وَشَوَّسَ لَهُمْ فِي غَيْبَةِ مُوسَى لَمِيقَاتِ رَبِّهِ، أَنَّ هَذِهِ الْحُلِيِّ لَيْسَتْ مِلْكَهُمْ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْهَا بِأَنْ يُلْقَوْهَا فِي النَّارِ، وَأَنْ يَجْعَلُوهَا كُتْلَةً وَاحِدَةً مُنْصَهَرَةً».

ولعلَّ ذَلِكَ كَانَ بِتَزْيِينٍ مِنَ السَّامِرِيِّ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ جَاءَ السَّامِرِيُّ فَأَلْقَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْحُلِيِّ، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

● ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (٨٧):

فَفَعَلَ مِثْلَمَا فَعَلُوا لِيُوهِمَهُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ التَّخَلُّصَ مِمَّا لَيْسَ لَهُ بِهِ حَقٌّ مِمَّا اسْتَعَارَ مِنَ الْمَضْرِبِينَ مِنْ حُلِيِّ الذَّهَبِ.

ويظهر أَنَّ السَّامِرِيَّ صَاغَ الْمَسْبُوكَ بِمُعَاوَنَةِ خُبَرَاءِ صَيَاغَةِ الذَّهَبِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ.

قِيلَ: وَكَانَ السَّامِرِيُّ مِنْ قَوْمٍ يَغْبُدُونَ الْبَقَرَ، فَأَعْلَنَ إِيمَانَهُ بِمُوسَى وَهَارُونَ، وَدَخَلَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَلَمَّا تَمَّتْ صَيَاغَةُ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ عَلَى مَا زَيَّنَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ، أَلْقَى فِي جُوفِهِ الْقَبْضَةَ الَّتِي كَانَ قَدْ قَبَضَهَا مِنْ أَثَرِ حَافِرِ فَرَسِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَصَارَ الْعِجْلُ الذَّهَبِيُّ يُخْرِجُ مِنْ فَمِهِ صَوْتًا كَصَوْتِ عُجُولِ الْبَقَرِ، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

● ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ﴾:

فَلَمَّا رَأَى جَمْهُورُ بَنِي إِسْرَائِيلَ هَذَا الْعِجْلَ الذَّهَبِيَّ لَهُ خَوَارٌ، تَحَقَّقَ لَهُمْ مَطْلُوبُهُمْ الَّذِي كَانُوا قَدْ طَالَبُوا بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ قَالُوا لَهُ: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. عِنْدئِذٍ قَالُوا بِإِيْحَاءٍ مِنَ السَّامِرِيِّ عَلَى مَا يَظْهَرُ كَمَا جَاءَ فِي النَّصِّ:

● ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ (٨٨):

أي: نَسِيَ مُوسَى أَنْ إِلَهَهُ الذي ذهب لمناجاته موجودٌ بينهم، في المكان الذي تَرَكَه، لذلك ضلَّ عَنْهُ فهو يفتشُ عنه باحثاً في جبل الطورِ فلم يجده، فأبْطأ بالرجوع إلينا.

ويظهر أن مرادهم روح الإله الذي دخل في العجل، ودلَّ عليه خوارُه العجيب.

هكذا كانت تصوُّراتهم عن الإله الذي يستحقُّ أن يُعبد تصوُّراتٍ بدائيةٍ ساذجة، نظير تصوُّرات عبَّاد الأوثان.

وجاء التعليق الربانيُّ الحكيم الذي يبيِّن سفاهتهم، وفساد مفهوماتهم عن الإله الرَّبِّ المعبود، فقال الله عزَّ وجلَّ في النصِّ:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩﴾:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ ۝﴾: أي: أَنْطَمَسَتْ بصائرهم فلا يَرَوْنَ بأفكارهم وعقولهم، فالمراد بالرؤية الرؤية الفكرية العلمية.

﴿أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾: «أن» هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وهو محذوف وجوباً كما يقول النحاة.

والمعنى: أفلا يَرَوْنَ أَنَّ العجلَ الَّذِي صَنَعُوهُ من الذهب لَا يَرْجِعُ إليهم قولاً، أي: لَا يَرُدُّ عليهم جواباً إذا سألوه سؤالاً ما.

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾: أي: وأفلا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُمْ ضَرًّا، وَلَا أَنْ يجلب لهم نفعاً، لأنَّهُ لَا يَمْلِكُ مَا يَدْفَعُ بِهِ عَنْهُمْ الضَّرَّ، أو يجلبُ بِهِ النفع.

وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) أيضاً بيان مُسَاءَلَةِ مُوسَى لأخيه هارون، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۝٩٣

قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾

لقد ذهبت فورة الغضب الأولى، التي دفعت موسى عليه السلام إلى أن يأخذ برأس أخيه يجره إليه، وبدأ دُور المحاسبة التي فيها هدوء ما، ولعل ذلك كان وهم جلوس، وهارون عليه السلام على يمين موسى، وموسى عليه السلام يقبض على لحيته أخيه يسأله، وقد يقبض على شعر رأسه يهزه أخياناً.

﴿قَالَ يَهْزُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾

أي: مَا مَنَعَكَ مِنْ أَنْ تَتْرَكَهُمْ وَتَتَّبِعَنِي إِذْ رَأَيْتَ جَمَاهِيرَهُمْ ضَلُّوا، وَمَعَكَ أَهْلُ الثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ؟!

وَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ لَا تَتَّبِعَنِي فِي هَذِهِ الْحَالَةِ؟!

لقد سأل موسى أخاه هارون عن المانع له من اتباعه إلى جانب الطور، إذا كان في الواقع أمر مانع. وسأله أيضاً عن الحامل له على عدم اتباعه إذا كان يوجد في الواقع أمر حامل.

واختصاراً في التعبير ضُمِّنَ فِعْلُ «مَنَعَ» مَعْنَى فِعْلِ «حَمَلَ» فَعُدِّي تَعْدِيتهُ، فَأَعْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ، وَالتَّقْدِيرُ: مَا مَنَعَكَ عَنْ اتِّبَاعِي، وَمَا حَمَلَكَ عَلَى عَدَمِ اتِّبَاعِي.

﴿تَتَّبِعَنِ﴾: أَضْلَاهَا: تَتَّبِعَنِي، حَذَفَتْ يَاءَ الْمُتَكَلِّمِ إِبْجَازاً فِي اللَّفْظِ،

وَنظِيرُ هَذَا الْحَذْفِ كَثِيرٌ فِي اللَّسَانِ الْعَرَبِيِّ.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾؟! أي: الَّذِي أَمَرْتُكَ بِهِ إِذَا اسْتَخْلَفْتُكَ عَلَى بَنِي

إِسْرَءِيلَ.

• ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ

بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾: أضاف هارون في هذه الإجابة حَرْف النداء، للتشديد على استعطافه وتثبيبه.

﴿لَا نَأْخُذُ بِلِحَاقِي وَلَا بِرَأْسِي﴾: دلت هذه العبارة على أن موسى عليه السلام في مجلس المساءلة الثاني، كَانَ يَقْبِضُ على لِحَاةِ أَخِيهِ هَارُونَ، وقد يأخذ برأسه فيَهْزُهُ، وهذا مِنْ حِدَّةِ موسى في مُسَاءَلَتِهِ.

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾

اقتصر هارون في هذه الإجابة على القضية التي سألَهُ موسى عنها، وَلَمْ يُشِرْ إلى مَا سَبَقَ أَنْ اعْتَدَرَ به في مُسَاءَلَتِهِ الأولى.

أي: إِنِّي خَشِيتُ إِذَا اتَّبَعْتُكَ مع الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لي من بني إِسْرَءِيلَ، أَنْ تَقُولَ لي: فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ، وَخَشِيتُ أَنْ تُحَاسِبَنِي وَتُؤَاخِذَنِي على هَذَا التفريق، فتعارض لَدَيَّ أَمْرَانِ، وقد اجْتَهَدْتُ فَتَرَجَّحَ لَدَيَّ أَنْ أَبْقَى فيهِمْ مُنْتَظَرًا عَوْدَتِكَ، ولا أترك الظالمين وَخَدَهُمْ، وَكُنْتُ لا أَرَى أَنْ غَيَّبَتَكَ سَتَطُولَ. وخشيتُ أيضاً أَنْ تَقُولَ لي:

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾: أي: لَمْ تَحْفَظْ وَلَمْ تُرَاعِ قَوْلِي الَّذِي قُلْتُهُ لَكَ حين اسْتَخْلَفْتُكَ، إِذْ قُلْتُ لي: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فقد اجْتَهَدْتُ أَنْ أَصْلِحَ بِقَدْرِ اسْتَطَاعَتِي، وَلَمْ أَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ.

فَقَدَّمَ هَارُونَ عليه السلام بما أَبَانَهُ لأَخِيهِ عُذْرَهُ كامِلاً، وَأَوْضَحَ لَهُ أَنَّهُ لَمْ يَأَلْ جُهْدًا وَاجْتِهَادًا في رِعَايَةِ الْأَصْلَحِ الَّذِي رَآهُ.

وجاء في سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بيان مُحَاسِبَةِ موسى عليه السلام لِلسَّامِرِيِّ فقال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرِي﴾ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ

فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ
إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾
إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ❖ :

تضمنت هذه الآيات بيان محاكمة موسى عليه السلام للسامري،
صاحب فتنة العجل الذهبي الذي له خوار، وما أثبتته موسى من تعليق حول
أنه لا إله إلا الله.

❖ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِيُّ ﴿٩٧﴾ ❖ : أي: قال موسى عليه السلام
للسامري ما شأنك وما حالك يا سامري، والمعنى: ما الذي حملك على
أن تقوم بهذه الفتنة التي أفسدت بها جمهور بني إسرائيل، وجعلتهم يعبدون
وثنًا ذهبيًا على صورة عجل؟ وما الذي جعلك تفتري هذه الفرية العظيمة
على الله؟

الخطب في اللغة: الأمر والشأن والحال الذي تقع فيه المخاطبة.

❖ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ. ﴿٩٨﴾ ❖ وفي قراءة أخرى لحمزة،
والكسائي، وخلف، [بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا بِهِ] بناء المخاطبين.

والمعنى: أدركتُ أمرًا عجيبيًا إذرًا جليًا صارَ لديّ علمًا ثابتًا، وهذا
الأمر الذي علمته لم تعلموا به، ولم يعلم به سائر بني إسرائيل.

ذكر المفسرون أنه رأى جبريل عليه السلام على فرس الحياة، فوقَّع
في نفسه أن الأثر الذي يبقى في الأرض من حافر فرس جبريل لا يُلْقَى
على غير حي إلا صار حيًا. أقول: ولعل السامري أجرى تجربة مُصَغَّرَةً بينه
وبين نفسه، قبل أن يدعو بني إسرائيل لصنع العجل من الذهب.

❖ فَفَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ... ﴿٩٩﴾ ❖ ظاهر هذه العبارة يدلُّ
على أنه قبض قبضة تُرابٍ مِنْ مَوْطِئِ قَدِيمِ جَبْرِيلَ رَسُولِ الْوَحْيِ إِلَى مُوسَى
عليهما السلام. القَبْضَةُ: مَا أَخَذْتَ بِجُمُعِ كَفِّكَ كُلَّهُ.

وعلى ما ذكر المفسرون تحتاج العبارة إلى تقدير مضاف محذوف،
أي: من أثر فرس الرسول، أو من أثر حافر فرس الرسول، والله أعلم.

﴿قَبَذْتُهَا﴾: أي: فطَرَحْتُ هذه القبضة كما تُنْبَذُ الثَّوَاءُ بِسُرْعَةٍ
وخَفَّةٍ، في جَوْفِ الذهبِ المسْبُوكِ على صورة عِجَلٍ، فصَارَ لَهُ خُورًا
كخُورِ الْعُجُولِ من البقر.

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (٩٦): التَّسْوِيلُ: التحسين والتزيين،
والتحبيبُ بالشيء.

يقال لغة: سَوَّلَ لَهُ يَسْوُلُ تَسْوِيلًا، أي: حَسَّنَ لَهُ وَزَّيَّنَ، وَحَبَّبَ لَهُ
الأمر الذي دَعَاهُ إِلَيْهِ، وَأَغْرَاهُ بِهِ، وَسَهَّلَهُ لَهُ.

والمعنى: وكان ذلك الذي فَعَلْتُهُ في جَسَدِ الْعِجَلِ مُمَآثِلًا لِلَّذِي سَوَّلْتُهُ
لِي نَفْسِي، فَاغْتَرَفَ السَّامِرِيُّ عَلَى نَفْسِهِ بِجَرِيمَتِهِ، وَرُبَّمَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ
يَكُونَ مُقَدِّمًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، ذَا مَكَانَةٍ وَرِيَاسَةٍ دِينِيَّةٍ.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا
لَنْ تُخْلَفَهُ...﴾ (٩٧):

تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ حُكْمَ مُوسَى عَلَيْهِ بِالطَّرْدِ مِنْ مَجْتَمَعِ بَنِي
إِسْرَائِيلَ، وَإِعْلَامُهُ بِبِلَاءٍ يَنْبَلِيهِ اللَّهُ بِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ أَنْ يَمَسَّ أَحَدًا أَوْ أَنْ
يَمَسَّهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ طَوَالَ حَيَاتِهِ، وَإِعْلَامُهُ بِمَوْعِدِ يَوْمِ الدِّينِ الَّذِي يُلَاقِي
فِيهِ عِنْدَ اللَّهِ جَزَاءَهُ، وَيُظْهِرُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَفْتَى مُوسَى بِهَذَا الْعِقَابِ.

ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ انْطَلَقَ هَائِمًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْ أَحَدٍ مِنَ
النَّاسِ.

﴿فَازْهَبْ﴾: هَذِهِ عِبَارَةُ الطَّرْدِ مِنْ مَجْتَمَعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾: هَذِهِ عِبَارَةُ إِعْلَامِهِ بِأَنَّ اللَّهَ

سَيَبْتَليهِ بِدَاءٍ لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ أَنْ يَمَسَّ أَحَدًا، أَوْ أَنْ يَمَسَّهُ أَحَدٌ، وهذا عقابٌ بعُزْلَةٍ جَبْرِيَّةٍ عَنْ كُلِّ النَّاسِ، فَإِنْ اقْتَرَبَ مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ اشْتَدَّتْ بِهِ أَوْجَاعٌ وَأَلَامٌ لَا يَطِيقُهَا.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ﴾: هُوَ مَوْعِدُ يَوْمِ الدِّينِ، لِلْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقِضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ.

وبعد إصدار الحكم على السامريّ أراد موسى عليه السلام أن يُري السامريّ، ويُرِي عِبَادَ الْعِجْلِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَهَانَةً وَضَعْفَ إِلَهُهِمُ الْعِجْلِ، فَقَالَ لِلْسَّامِرِيِّ:

• ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (١٧):

أي: وانظر إلى عِجْلِكَ الَّذِي اتَّخَذْتَهُ إِلَهًا، وَأَقَمْتَ عِنْدَهُ، مَلَاذِمًا عِبَادَتَهُ، وَدَعَوْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى عِبَادَتِهِ، انظر بعَيْنِكَ ماذا سَتَفْعَلُ بِهِ.

﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾: أي: بَقِيتَ مَلَاذِمًا لِعِبَادَتِهِ كُلَّ نَهَارٍ مَضَى عَلَيْكَ مِنْ يَوْمِ صُنْعِهِ أَنْتَ وَمَنْ عَبْدُهُ مَعَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتْرَكُونَهُ لَيْلًا.

يُقَالُ لُغَةً: ظَلَّ نَهَارَهُ يَفْعَلُ كَذَا، وَظَلَّلْتُ، وَظَلْتُ، وَظَلْتُ، لَا يُقَالُ ذَلِكَ إِلَّا فِي النَّهَارِ.

عَاقِبًا: أي مُقِيمًا مُلَازِمًا مَلَاذِمَةَ عِبَادَةِ لَهُ.

﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾: أي: حَتَّى يَنْصَهَرَ، وَيَرَى بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنَّ هَذَا إِلَٰهَهُ الَّذِي عَبْدُوهُ لَمْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يُدَافِعَ عَنْ نَفْسِهِ.

﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ نُفِثَتْهُ إِلَى أَجْزَاءِ صُغْرَى كَذَرَاتِ الرَّمْلِ، لَنَنْسِفَنَّهُ مُتَفَرِّقَ الذَّرَاتِ فِي الْبَحْرِ.

يقال لغة: نَسَفَ فُلَانٌ الشيءَ، أي: فَرَّقَهُ وَأَذْرَاهُ، وَنَسَفَتِ الرِّيحُ الترابَ، أي: حملتْ أجزاءَهُ الصُّغْرَى وَفَرَّقَتْهُ حَيْثُ اتَّجَهَتْ.

ويظهر أن موسى عليه السلام أَمَرَ بإيقادِ نارٍ شديدة، أمامَ السَّامِرِيِّ، وأمام جماهير بني إسرائيل، حَوْلَ هذا الإله المصنوع المفتري به على الله، فلَمَّا حَرَّقَهُ وانطَفَأَتِ النَّارُ حَوْلَهُ وَبَرَدَ، أَمَرَ بِتَفْتِيَّتِهِ إِلَى أَجْزَاءِ صُغْرَى دَقِيقَةٍ.

جاء في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج، ما يلي:

« ٢٠ - ثُمَّ أَخَذَ الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعُوهُ وَأَحْرَقَهُ بِالنَّارِ وَطَحَنَهُ حَتَّى صَارَ نَاعِمًا وَذَرَّاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَسَقَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ».

لكنَّ القرآن أبان أن موسى عليه السلام تَوَعَّدَ بني إسرائيل بأن يَنْسِفَهُ في اليمِّ نَسْفًا، أي: في الْبَحْرِ، وَذَكَرُ الْيَمِّ يُبْعِدُ أَنْ يَكُونَ ذَرَّاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَسَقَاهُ مَعَ الْمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

ولعل نُسَاخَ السُّفْرِ، وَجَدُوا في الأصل أن بني إسرائيل أَشْرَبُوا في قُلُوبِهِمْ حُبَّ الْعِجْلِ، كَمَا جَاءَ في القرآن، فَفَسَّرُوا ذَلِكَ من عندهم أن موسى عليه السلام سَقَى ذَرَاتِ الْعِجْلِ مَعَ الْمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

بعد أن أبان موسى عليه السلام، بالتطبيق العملي، أن العجل الذي أَحْبَبُوهُ وَعَبَدُوهُ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ صُورَةٌ مَصْنُوعَةٌ مِنْ مَادَّةٍ مِنْ مواد الأرض الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ، وَأَنَّ خَوَازِئَهُ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ مِنْ ظَاهِرَةٍ مِنْ ظَوَاهِرِ تَأْثِيرَاتِ الْأَشْيَاءِ فِي الْأَشْيَاءِ، كَتَأْثِيرِ مُرُورِ الرِّيحِ فِي بُوقٍ إِذْ يُخْدِثُ صَوْتًا نَاعِمًا رَقِيقًا أَوْ غَلِيظًا خَشِنًا.

بعد ذلك أبان لَهُمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ بِحَقٍّ في الوجود إِلَّا اللَّهُ الرَّبُّ الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حَضَرٍ، تَدُلُّ على ما يَدُلُّ عليه النَفْيُ والاستثناء.

﴿إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: هو الذي لَا يُعْبَدُ في الوجود بحقٍ إِلَّا هو.

﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: أي: لَا بُدَّ أَنْ يكون من صِفَاتِ إِلَهِ المعبود، أَنْ يكون قد وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا، وفي هذا إِمَّاخٌ لهم إلى أَنَّهُ مُطَّلِعٌ على ما في قلوبهم من إيمان أو شرك، عليم بأعمالهم ما ظهر منها وما بطن، لذلك فهو يجازيهم بِحُكْمَتِهِ وَعَذْلِهِ.

وبهذا قطع موسى دابر التطلع لاتخاذ إِلَهٍ وَثْنٍ من نفوس بني إِسْرَائِيلَ يَوْمَئِذٍ.



عَوْدٌ إِلَى اسْتِكْمَالِ تَدْبِيرِ الْفَقْرَةِ الْخَامِسَةِ من قصة موسى وهارون من سورة (الأعراف).

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٦﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٧﴾﴾.

جاء هذا التعليق الرَّبَّانِيُّ بياناً بِشَأْنِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ من بني إِسْرَائِيلَ، مُتَضَمِّناً الْحُكْمَ الْجَزَائِيَّ بِشَأْنِهِمْ، لإعطاء الْحَدِيثِ الْفَائِدَةِ الدِّينِيَّةِ من ذكر، والموعظة لكل مَنْ يَتْلُو الْقُرْآنَ أو يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ، حَتَّى آخِرِ مُمْتَحِنٍ في ظُرُوفِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أَبَانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في هَذَا التَّغْلِيْقِ حُكْمَهُ الْجَزَائِيَّ الَّذِي حَكَمَ بِهِ عَقِبَ حَدِيثِ اتِّخَاذِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ، وَأَبَانَ فِيهِ أَيْضاً حُكْمَهُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى التَّائِبِينَ.

ويظهرُ أَنَّ اللهَ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ قَدْ أَوْحَى بِهِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ مُوسَى قَدْ بَلَغَهُ لِقَاؤُهُ، وَهُوَ بَيَانٌ لَهُ مَعَ ذَلِكَ صِفَةُ الْحُكْمِ الْمُسْتَمِرِّ، لِكُلِّ مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ وَثَنًا أَوْ غَيْرَهُ، وَلِكُلِّ مَنْ يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فِي الدِّينِ، مَا دَامَ فِي الْأَرْضِ مُتَمَحِّثُونَ مُكَلَّفُونَ، وَلِكُلِّ مَنْ يَتُوبُ مِنْ كُفْرِهِ وَيُؤْمِنُ فَإِنَّهُ يَلْقَى اللَّهَ غُفُورًا رَحِيمًا مَا دَامَ فِي رَحْلَةِ الْامْتِحَانِ، وَلَمْ يُقْفَلْ بَابُ التَّوْبَةِ.

إِنَّ الْعُقُوبَةَ الْمَعْجَلَةَ فِي الدُّنْيَا الَّتِي قَضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عَلَى الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ذَاتُ أَثَرَيْنِ:

الأثرُ الأول: أَنَّهُمْ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

الأثرُ الثاني: أَنَّهُمْ سَتَنَالُهُمْ ذِلَّةٌ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيْضًا.

دَلٌّ عَلَى هَٰذَيْنِ الْأَثَرَيْنِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي النَّصِّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (١٥٢)

أَي: سَيَصِلُهُمْ حَتَّى يَمْسِكَ بِهِمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

يُقَالُ لُغَةً: نَالَ الشَّيْءُ فُلَانًا، أَي: وَصَلَ إِلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا الشَّيْءُ مِمَّا يُمْسِكُ وَيَعْلَقُ أَمْسَكَ بِهِ وَعَلِقَ.

الغَضَبُ: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ النَّفْسِ مِنْ آثَارِهَا الْإِنْتِقَامُ وَالْعُقُوبَةُ.

الذِّلَّةُ: الضَّعْفُ وَالْهَوَانُ.

وَقَدْ أُنْزِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عَهْدِ مُوسَى الْعُقُوبَةَ الشَّدِيدَةَ، وَهِيَ الْقَتْلُ، وَأُنْزِلَ بِهِمُ الضَّعْفُ وَالْهَوَانُ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (١٥٢)

دَلَّتْ هَذِهِ الْجَمْلَةُ عَلَى سُنَّةٍ ثَابِتَةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي الْجَزَاءِ، فَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ الْمَعْجَلَةُ الَّتِي نَالَتْ مُتَخَذِي الْعِجْلِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، سَتَنَالُ أَمْثَالَهُمْ مِنَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ فِي دِينِ اللَّهِ شِرْكَاً، وَيَتَّخِذُونَ أَوْثَاناً.

أَيُّ: وَكَذَلِكَ الْجَزَاءُ سَنَجْزِي كُلَّ الْمَفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ فِي أَصُولِ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ، فَسَيَنَالُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ.

وهذا العقاب المعجل غير العقاب المؤجل إلى يوم الدين، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ مُشْرِكُونَ، وَلَمْ يَتُوبُوا إِلَى رَبِّهِمْ، مُؤْمِنِينَ إِيْمَاناً صَاحِحاً صَادِقاً.

﴿وَالَّذِينَ عَلِمُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٢﴾﴾:

لَمْ يَتْرِكِ اللَّهُ جَلَّتْ حُكْمَتُهُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا بِاتِّخَاذِ الْعِجْلِ دُونَ إِطْمَاعِ لَهُمْ بِالتَّوْبَةِ، مَا دَامَتْ مُدَّةُ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَمْ تَنْتَهِ، لِيُنْقِذُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ.

بَلْ فَتَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ، كَشَّاهُ مِنْ كُلِّ الْعَصَاةِ وَالْكَفَرَةِ الْمَجْرِمِينَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ، وَفِي كُلِّ حَادِثَةٍ.

السَّيِّئَاتِ: جَمْعُ السَّيِّئَةِ، وَهِيَ فِي اللُّغَةِ مُؤَنَّثُ السَّيِّءِ بِمَعْنَى الْقَبِيحِ وَالشَّيْءِ الْمَكْرُوهِ، فَالسَّيِّئَةُ كُلُّ فَعْلَةٍ أَوْ خَضَلَةٍ أَوْ عَادَةٍ قَبِيحَةٍ مَكْرُوهَةٍ، وَكَذَلِكَ كُلُّ نَازِلَةٍ مَكْرُوهَةٍ تَسُوءُ مَنْ نَزَلَتْ بِهِ، وَلَوْ كَانَتْ مِنَ الْعُقُوبَاتِ وَالْبَلَايَا الرَّبَّانِيَّةِ.

وَأُطْلِقَتِ السَّيِّئَةُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ ذَنْبٍ مِنَ الْكِبَائِرِ فَمَا دُونَ ذَلِكَ حَتَّى الصَّغَائِرِ. وَأُطْلِقَتِ عَلَى النِّوَازِلِ وَالْعُقُوبَاتِ الَّتِي تَسُوءُ مَنْ نَزَلَتْ بِهِ.

﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ أَيُّ ثُمَّ رَجَعُوا عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ مُسْتَغْفِرِينَ رَبَّهُمْ.

فَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ وَلَوْ كَانَتْ مِنَ الْكِبَائِرِ كَالْكَفْرِ بِاللَّهِ وَالْإِشْرَافِ بِهِ، ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا، وَلَوْ أَبْطَأَتْ تَوْبَتُهُمْ، بدلالة حرف العطف «ثُمَّ» ما داموا في مُدَّةِ امتحانهم في الحياة الدنيا، لم يُقْفَلْ دُونَهُمْ باب التوبة، وَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى التَّوْبَةِ السَّلْبِيَّةِ كَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، بَلْ قَامُوا بِعَمَلٍ إيجابِيٍّ صَالِحٍ، وهو الإيمان الصحيح الخالي من أي شرك، لأنَّ الشرط الأساسُ لِلنَّجَاةِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَغْفِرُ لَهُمْ بِرَحْمَتِهِ.

دَلَّ عَلَى هَذَا الْمَطْوِيِّ فِي مِثَالِي الْآيَةِ، الشَّاءُ عَلَى اللَّهِ بِجُمْلَةٍ:

... ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ :

أي: إِنَّ رَبَّكَ أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ أَيُّا كُنْتَ، إِذَا اتَّبَعْتَ سَبِيلَكَ بِحَسَنَةِ التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ، لَغَفُورٌ لِلَّذِينَ سَبَقَ أَنْ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ، رَحِيمٌ بِهِمْ، كَمَا هُوَ غَفُورٌ رَحِيمٌ دَوَامًا.



قول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي شَجَنَهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (١٥٩).

بعد التعليق الرَّبَّانِي بِشَأْنِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ، أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا غَضَبُهُ، فَأَخَذَ الْأَلْوَاحَ مِنَ الْأَرْضِ، وَكَانَ قَدْ أَلْقَاهَا مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ.

● ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ...﴾ (١٥٩).

شَبَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا حَرَكََةَ الْغَضَبِ فِي نَفْسِ مُوسَى بِثَائِرِ ذِي مَطَالِبٍ يُطَالَبُ بِهَا، وَيَصِيحُ مُتَحَدِّثًا بِهَا، وَمِنْ آثَارِ هَذِهِ الْمَطَالِبِ الْغَضَبِيَّةِ تَوْجِيهُ التَّلْوِيمِ وَالتَّشْرِيبِ وَعِبَارَاتِ التَّذْمُرِ، وَمِنْ آثَارِهَا تَحْرُكُ الْجُمْلَةِ الْعَصِيَّةِ لِلْمُعَاقَبَةِ وَالْإِنْتِقَامِ:

فإذا هدأت ثَوْرَةُ الْعُصْبِ كَانَ مِنْ أَثَرِ هَدْوِهَا السُّكُوتُ النَّفْسِي عَنْ
تِلْكَ الْمَطَالِبِ، وَلَوْ بِصُورَةٍ مُوقَّتَةٍ، فَكَانَ هُدُوءُ الْغَضَبِ بِمِثَابَةِ سَكُوتِهِ.

وهذه من الاستعارات البديعة، الَّتِي تُصَوِّرُ فِيهَا الْحَرَكَاتِ النَّفْسِيَّةُ
الِدَاخِلِيَّةُ بِأَمْثَلَةٍ تُذَكِّرُ بِالْحَسِّ الظَّاهِرِ.

أي: وحين هدأت نَفْسُ مُوسَى، وَذَهَبَتْ عَنْهَا ثَوْرَةُ الْعُصْبِ الشَّدِيدِ،
أَخَذَ الْأَلْوَحَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَهُ فِيهَا بَعْضَ تَعْلِيمَاتِ الدِّينِ، وَمِنْهَا الْوَصَايَا
الْعَشْرَ.

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾: أي: وَفِي الْمَكْتُوبِ فِيهَا. النُّسْخُ^(١) فِي اللَّغَةِ: يَأْتِي
بِمَعْنَى أَنْ تَكْتُبَ كِتَابًا عَنْ كِتَابٍ حَرْفًا بِحَرْفٍ. وَالنُّسْخَةُ: الشَّيْءُ الْمَكْتُوبُ
فِيهِ، الْمُنْسُوخُ عَنْ مَكْتُوبٍ آخَرَ. وَيُطْلَقُ عَلَى الْمُنْسُوخِ عَنْهُ نُسْخَةٌ أَيْضًا.

وَقَدْ ذَلَّتْ عِبَارَةٌ: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ عَلَى أَنَّ مَا كُتِبَ فِي الْأَلْوَحِ
الْحَجَرِيَّةِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُسْتَنْسَخٌ عَمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ
عِنْدَ اللَّهِ.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾: أي: وَفِيهَا كُتِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْأَلْوَحِ لِمُوسَى
مُسْتَنْسَخًا عَمَّا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَمْرَانِ مُمْتَزَجَانِ
مُخْتَلَطَانِ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: هُدًى.

وَالْأَمْرُ الثَّانِي: رَحْمَةٌ.

● أَمَّا كَوْنُهُ هُدًى فَلِأَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَى أَحْكَامٍ تَهْدِي النَّاسَ إِلَى سَبِيلِ
سَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى مَوَاعِظٍ تَسْتَثِيرُ فِيهِمُ الرَّعْبَ
وَالرَّهْبَ، فَتَجْعَلُهُمْ يَسْلُكُونَ سَبِيلَ هِدَايَتِهِمْ إِلَى سَعَادَتِهِمْ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى

(١) وَالنُّسْخُ يَأْتِي بِمَعْنَى الْإِزَالَةِ.

معارف وبياناتٍ تُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَالضَّلَالَاتِ وَوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ، وَتَضَعُهُمْ فِي طَرِيقِ النُّورِ وَالْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ وَالرَّشَادِ.

● وَأَمَّا كَوْنُهُ رَحْمَةً، فَلِأَنَّ هِدَايَةَ الضَّالِّ إِنَّمَا تَكُونُ أَثَرًا مِنْ آثَارِ الرَّحْمَةِ بِهِ، وَكَذَلِكَ إِزْشَادُهُ وَتَعْلِيمُهُ، وَدَلَالَتُهُ عَلَى صِرَاطِ سَعَادَتِهِ وَنَجَاتِهِ وَقَلَاجِهِ. وَلِأَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَى بَشَارَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ، الْمَغْمُورَاتِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ. وَيَشْتَمِلُ عَلَى بَشَارَةِ لِلْعَصَاةِ الْمَذْنِبِينَ بِالْمَغْفِرَةِ وَالْعَفْوِ، إِذَا تَابُوا إِلَى بَارئِهِمْ وَاسْتَغْفَرُوهُ، وَكِلَاهُمَا مِنْ آثَارِ صِفَةِ الرَّحْمَةِ. وَيَشْتَمِلُ عَلَى تَحْذِيرٍ مِنْ شِقَاءِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، اللَّذِينَ يُسَبِّهُمَا الْكُفْرَ وَالشِّرْكَ بِاللَّهِ، وَازْتِكَابُ كِبَائِرِ الْإِثْمِ، وَهَذَا أَيْضاً مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ.

﴿... هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ (١٥٤):

هذه العبارة تُبَيِّنُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ وَيَسْتَفِيدُونَ مِمَّا فِي نُسْخَةِ الْأَلْوَابِ مِنْ هُدًى وَرَحْمَةٍ، وَهُمْ الَّذِينَ يَزْهَبُونَ عَذَابَ رَبِّهِمْ، وَمَنْ زَهَبَ عَذَابُ اللَّهِ أَتَقَاهُ، فَالْمُسْتَفِيدُونَ هُمُ الْمُتَقُونَ.

وَدَخَلَتِ اللَّامُ عَلَى لَفْظِ ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ لِتَقْوِيَةِ عَمَلِ فِعْلٍ ﴿يَزْهَبُونَ﴾ إِذْ تَقَدَّمَ الْمَفْعُولُ بِهِ عَلَى الْفِعْلِ لِلتَّخْصِصِ، وَلِمَرَاعَةِ رُؤُوسِ الْآيِ.



الفقرة السادسة

ميعاد الميقات الثاني ميقات التوبة والاعتذار والشفاعة

الآيات من (١٥٥ - ١٥٧).

قال الله عز وجل:

﴿وَأَخَذَ مَوْسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِن قَبْلُ وَلَئِنِّي أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْأُسْفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (١٥٥)

﴿وَاصْتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا عَلَيْنَا﴾ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴿

القراءات:

(١٥٦) • قرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ﴾: بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [عَذَابِي أُصِيبُ]: بإسكان ياء المتكلم مع المد في الوصل. وفتح ياء المتكلم وإسكانها وجهان عربيان في النطق.

(١٥٧) • قرأ نافع: [النَّبِيِّ] مع المد المتصل.

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿النَّبِيِّ﴾ بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ.

والقراءتان لُعْنَانِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ.

(١٥٧) • قرأ ابن عامر: [ءَاَصَارَهُمْ]: بالجمع، وهو جمع «إِضْرَ».

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿إِضْرَهُمْ﴾: بالإفراد، وهو اسم جنس. ومؤدى القراءتين واحد، لأنَّ اسم الجنس المضاف إلى المعرفة يُعْمُ، فيكون بمثابة الجمع.

تمهيد:

ترجح لديَّ أَنَّ الميقاتَ الواردَ في هذا النصِّ هو ميقاتُ آخر، بعد

مِيقَاتِ كِتَابَةِ الْأَلْوَحِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَعْتَبِرَهُ مِيقَاتِ التَّوْبَةِ وَالْإِعْتِذَارِ، وَالشَّفَاعَةِ لِلَّذِينَ أَجْرَمُوا بِاتِّخَاذِ الْعِجْلِ وَعِبَادَتِهِ مِنْ جَمَاهِيرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَيُظْهِرُ مِنْ دَلَائِلِ النُّصُوصِ وَإِشَارَاتِهَا، أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَأْتِي لِمُنَاجَاتِهِ عِنْدَ جَبَلِ الطُّورِ، حَيْثُ كَانَ الْمِيعَادُ السَّابِقُ، وَمَعَهُ فِي هَذَا الْمِيعَادِ الْآخِرِ الثُّخْبَةُ الْمَخْتَارَةُ مِنْ كُلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ خَرَجُوا مَعَهُ مِنْ مِصْرَ، لِيَسْجُدُوا لِرَبِّهِمْ، وَيُغْلِنُوا تَوْبَتَهُمْ وَاسْتَغْفَارَهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، إِذْ لَمْ يَقُومُوا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَنَعَ جَمَاهِيرِهِمْ عَنْ اتِّخَاذِ الْعِجْلِ وَعِبَادَتِهِ وَلَوْ بِالْقُوَّةِ، فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِيعُوا فَارَقُوهُمْ وَهَجَرُوهُمْ وَاعْتَزَلُوهُمْ، وَلِيُغْلِنُوا لِرَبِّهِمْ فِي الْوَادِي الْمَقْدَسِ طُوبَى تَوْبَةِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ وَعَبَدُوهُ، مَعَ الشَّفَاعَةِ لَهُمْ أَنَّ لَا يَهْلِكَهُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ شَامِلٍ، فَهِيَ رَحْلَةُ مُنَاجَاةٍ، وَاعْتِذَارٍ، وَتَوْبَةٍ، وَاسْتَغْفَارٍ، وَشَفَاعَةٍ.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْإِضْحَاحِ الْعَاشِرِ مِنْ سِفْرِ الْأَوَّيْنِ، ذِكْرُ لِقَاءَيْنِ فِي مِيقَاتَيْنِ لِمُوسَى مَعَ رَبِّهِ عِنْدَ جَبَلِ الطُّورِ، بَعْدَ خُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ، وَأَنَّهُ كَانَ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَحَدِ هَذَيْنِ اللَّقَاءَيْنِ أَخُوهُ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ«نَادَابُ» وَ«أَبِيهَوُ» ابْنَا هَارُونَ. وَ«يَشُوعُ» وَسِبْعُونُ مِنْ شِيُوخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وبناء على هذا الذي ترجح لَدَيَّ فِي النِّظَرَةِ الْكَلِمَةِ الْعَامَّةِ، أَشْرَعُ فِي تَدْبِيرِ فِقَرَاتِ هَذَا النِّصِّ.

التدبير:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا...﴾ (١٥٥)

يقال لغة: اخْتَارَ الشَّيْءَ مِنْ أَشْيَاءٍ، أَي: انتقاه وفضَّله عليها واصطفاه.

أورد المفسرون في تحليل هذه العبارة عدّة تخریجات:

- فقيل: أصل الكلام: واختار موسى من قومه سبعين رجلاً. وحذفت كلمة «من» للإيجاز، فانتصب لفظ «قومه» على أنه مفعول به ثانٍ، والمفعول الأول المتأخر ترتيباً في الجملة هو لفظ: «سبعين».
- وقيل: لفظ «سبعين» بدل من لفظ «قومه» على أنه بدل بغض من كل.

● وذكر الرازي وجهاً آخر، وهو أن يكون لفظ «سبعين» عطف بيان، على اعتبار أن القوم الذين رأى موسى أنهم قومه المتابعون له حقيقة هم السبعون الذين اختارهم، أي: أما بقية بني إسرائيل فهم أعداء صورية، مألثة فراغات في السواد الأعظم.

وهذا الوجه الذي ذكره الرازي ذو مضمون فكري جدير بالاعتبار، أما الوجهان الأخيران فتخریجان نحوياً فقط.

جاء في الإصحاح الثاني عشر من سفر الخروج، أن بني إسرائيل كانوا حين خروجهم من مصر بقيادة موسى عليه السلام، ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد.

فمن هذا العدد الكثير اختار موسى عليه السلام للميقات الثاني، ميقات الاعتذار، والتوبة، والاستغفار، والشفاعة، سبعين رجلاً فقط، ولا يدخل هارون عليه السلام في السبعين المختارين، لأنه مثل أخيه نبي ورسول، وقد يكون «نآداب» و«أبيهو» و«يشوع» غير السبعين أيضاً، لأنهم كانوا مقدّمين إيماناً وصدقاً وبراً وإحساناً، عند موسى قبل هذا الاختيار الذي اختاره لهذا الميقات.

وانطلق موسى عليه السلام مع الذين اضطفأهم من قومه إلى الميقات الثاني الزماني والمكاني، ميقات الاعتذار والتوبة والاستغفار والشفاعة للذين اتخذوا العجل.

وَسَجَدَ مُوسَىٰ لِرَبِّهِ، وَدَعَا وَاسْتَغْفَرَ، وَوَقَفَ الَّذِينَ مَعَهُ قَرِيبًا مِنَ الْجَبَلِ، وَلَمْ يَضَعُوا عَلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ نُهُوا عَنْ ذَلِكَ، وَدَخَلَ مُوسَىٰ فِي الْغَمَامِ الَّذِي ظَلَّلَ الْجَبَلَ، فَكَانَ الْغَمَامُ مُجَلَّلًا سَاتِرًا.

﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ :

لَقَدْ زَلَزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَ الْأَرْضِ مِنْ تَحْتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي حَضَرُوا مَعَ مُوسَىٰ، فَأَخَذَتْهُمُ رَجْفَةُ الْأَرْضِ، أَي: قَبْضَتْهُمْ جَمِيعًا، وَهَزَّتْهُمْ مَعَهَا، وَأَخَذَتْ قُلُوبَهُمْ رَجْفَةُ الرَّغَبِ مِنَ الْمَوْتِ، وَمِنْ دَفْنِهِمْ أَحْيَاءَ فِي شُقُوقِ الْأَرْضِ.

ويظهر أَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ شَاءَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ بِهِذِهِ الرَّجْفَةُ دَرْسًا تَرْبُويًا عَمَلِيًّا، يُشْعِرُهُمْ فِيهِ أَنَّهُ لَوْ زَادَ هَذِهِ الرَّجْفَةُ زِيَادَةً قَلِيلَةً لَأَهْلَكَهُمْ بِهَا، وَلَدَفَنَهُمْ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ الَّتِي يَقْفُونَ عَلَيْهَا، فَإِذَا كَانُوا قَدْ خَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجَلَ وَعَبَدُوهُ، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ بِالْقُوَّةِ، فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يَخْشَوْهُ، لِأَنَّهُ قَادِرٌ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعِزَّ سُلْطَانُهُ - عَلَى أَنْ يَمْحُوهُمْ مِنَ الْوُجُودِ كُلِّهِ بِطَرْفَةِ عَيْنٍ، أَوْ بِأَقْلٍ مِنْ ذَلِكَ.

عندئذ خاف موسى عليه السلام على صَفْوَةِ قَوْمِهِ أَنْ يُدْفَنُوا فِي الْأَرْضِ بِهَذِهِ الرَّجْفَةِ التَّادِيَّةِ التَّرْبُويَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّهَا لِتَأْدِيبِهِمْ وَتَرْبِيَّتِهِمْ بِصُورَةٍ عَمَلِيَّةٍ مُرْهِبَةٍ، فَتَوَجَّهَ لِرَبِّهِ دَاعِيًا مُلْتَجِنًا:

﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْأَسْفَهَاءُ

مِثْلًا... ﴿١٥٥﴾ ؟؟

إِنَّ الْحَدَّةَ فِي طَنِعِ مُوسَى الْفِطْرِيِّ لَمْ تُمَكِّنْهُ مِنْ أَنْ يَضَيَّرَ قَلِيلًا، لِيَرَى أَثَرَ الرَّجْفَةِ، وَلِيَذْكُرَ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِهَا تَأْدِيبُهُمْ، وَتَرْبِيَّتُهُمْ، لَا إِهْلَاكُهُمْ، وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا التَّأْدِيبِ أَنْ لَا يَتَهَاوَنُوا مُسْتَقْبَلًا فِي أَمْرِ الدِّينِ، وَلَا يَتَسَاهَلُوا مَعَ الْمُحَرِّفِينَ وَالْمُبْدِلِينَ.

فَأَسْرَعَ مَعَ بَدْءِ حُدُوثِ أَوَائِلِ الرَّجْفَةِ قَائِلًا:

• ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَلَئِنِّي ۖ﴾ : أي: لو أنك شئت إهلاكهم على تفتيرهم في الأخذ على أيدي سفهاء بني إسرائيل، لكنت أهلكتهم قبل مجيئهم مُعْذِرِينَ تَائِبِينَ مُسْتَغْفِرِينَ شَافِعِينَ لِلَّذِينَ أُجْرِمُوا، دُونَ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِيقَاتًا لِّتَقْدِيمِ هَذِهِ التَّضَرَّعَاتِ، وَلَكُنْتُ أَهْلَكْتَنِي مَعَهُمْ، لِأَنِّي عَجَلْتُ فِي الْمِيقَاتِ السَّابِقِ فَلَمْ أَضْحَبْ قَوْمِي مَعِيَ، وَاکْتَفَيْتُ بِتَكْلِيفِهِمْ أَنْ يَأْتُوا وَرَائِي بِقِيَادَةِ أَخِي هَارُونَ، فَعَصَوْهُ.

هذه المعاني نفهمها من مثاني القول.

• ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ﴾؟! وَخِلَالَ دُعَائِهِ أَذْرَكَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ تَقْصِرَ صَفْوَةَ قَوْمِهِ، وَتَعْجَلَهُ، لَا يَقْتَضِيَانِ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَزَاءِ إِهْلَاكَهُمْ، فَقَالَ دَاعِيًا: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ﴾؟! أي: أتهلكنا بسبب ما فعل السفهاء منا، الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْإِهْلَاكَ لِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا، مَعَ كُلِّ آيَاتِ التَّوْحِيدِ الْعِظَمَى الَّتِي شَهِدُوهَا، نَظَرًا إِلَى أَنَّهُمُ الْجُمْهُورُ الْأَعْظَمُ مِنَّا، فَهَذَا الْعِرْقُ الْبَشَرِيُّ لَا يَسْتَحِقُّ الْبَقَاءَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِكَثْرَةِ السُّفَهَاءِ الضَّالِّينَ فِيهِ.

استفهام فيه معنى التفجع، وهو مبني على ظن ضعيف سبق إلى ذهنه، فرأى فيه أن هذه الرجفة رجفة إهلاك.

لَقَدْ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعْذُورًا فِي تَصَوُّرَاتِهِ، بِسَبَبِ هَؤُلِ الْمَفَاجَأَةِ الَّتِي شَهِدَهَا بِالرَّجْفَةِ.

وَلَكِنْ سِرْعَانَ مَا أَذْرَكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كُلُّهَا حَيَاةُ امْتِحَانٍ لِلْعِبَادِ، فَمَا جَرَى لِقَوْمِهِ، وَمَا جَرَى مِنْهُمْ مِنْ صُنْعِ الْعِجْلِ وَخَوَارِهِ، وَعِبَادَةِ جُمْهُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ السُّفَهَاءِ لَهُ، هُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ هَذَا الْامْتِحَانِ، فَقَالَ فِي دُعَائِهِ لِرَبِّهِ:

﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ...﴾ (١٥٥)

أي: ما القِصَّةُ الَّتِي جَرَتْ، وَجَرَتْ أَخْدَاثُهَا، وَمِنْهَا تَمَكِينُ السَّامِرِيِّ
مَنْ أَخَذَ الْقَبْضَةَ مِنْ أَثَرِ الرُّسُولِ، وَصُنِعَ الْعِجْلُ الَّذِي يَصْدُرُ عَنْهُ خَوَارُ
كَخَوَارِ الْعُجُولِ، إِلَّا مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ امْتِحَانِكَ لِعِبَادِكَ، هَلْ يَثْبُتُونَ عَلَى
الدِّينِ، أَمْ يَنْحَرِفُونَ عَنْهُ، وَيُحَرِّفُونَ فِيهِ.

الفئة: هي في الأصلِ الصَّهْرُ بالنَّارِ للمُغْدِنِ، كالذَّهَبِ والفضة، لتمييز
الجيد من الرَّذِيءِ، والصَّافِي من المَخْتَلَطِ بالشَوَائِبِ.

يقال لغة: فتن الصائغ الذَّهَبَ يَفْتِنُهُ فِتْنًا وَفُتُونًا، أي: أذابَهُ بالنَّارِ
ليُخْتَبَرَهُ.

ثُمَّ صَارَتْ مَادَّةُ الْكَلِمَةِ تَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ الْإِبْتِلَاءِ وَالامْتِحَانِ وَالِاخْتِبَارِ،
وهذا هُوَ الْمَعْنَى الْمُرَادُ بِكَلِمَةِ الْفِتْنَةِ فِي النَّصِّ هُنَا.

«إِنْ» فِي الْعِبَارَةِ هُنَا حَرْفُ نَفْيٍ بِمَعْنَى: «مَا» النَّافِيَةِ، أَي: مَا الْقِصَّةُ
الَّتِي جَرَتْ كُلُّهَا إِلَّا فِتْنَتُكَ يَا رَبِّ، بِمَعْنَى: أَنَّ كُلَّ الَّذِي جَرَى كَانَ ضَمَنَ
دَائِرَةِ امْتِحَانِكَ الْحَكِيمِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، الْمَشْمُولِ بِعِلْمِكَ الْمَحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ،
دَلٌّ عَلَى هَذِهِ الْإِضَافَاتِ أَنَّ امْتِحَانَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا كَذَلِكَ.

وَيَمَّا أَنَّ الْامْتِحَانَ امْتِحَانُكَ، وَالْفِتْنَةَ فِتْنَتُكَ، فَأَنْتَ الَّذِي تَقْضِي
بِعَذْلِكَ، أَوْ بِفَضْلِكَ بَيْنَ عِبَادِكَ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ.

● ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ أَي: تَحْكُمُ بِعَذْلِكَ بِالنَّظَرِ إِلَى نَتَائِجِ فِتْنَتِكَ
لِعِبَادِكَ، بِالضَّلَالِ عَلَى مَنْ تَشَاءُ مِنْ عِبَادِكَ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِكَ.

● ﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ أَي: وَتَحْكُمُ بِالْهِدَايَةِ بِالنَّظَرِ أَيْضًا إِلَى نَتَائِجِ
فِتْنَتِكَ لِعِبَادِكَ، لِمَنْ تَشَاءُ مِنْ عِبَادِكَ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِكَ.

وَكُلُّ مُؤْمِنٍ بِكَ يَعْلَمُ عِلْمًا حَقًّا أَنَّ مَشِيئَتَكَ فِي أَقْضِيَّتِكَ وَأَحْكَامِكَ
لِعِبَادِكَ أَوْ عَلَيْهِمْ، لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَكَ وَعِلْمَكَ وَعَذْلَكَ أَوْ فَضْلَكَ.

وَبَدِهِيَ أَنْ مَشِيئَةَ اللَّهِ لَا تَفَارِقُ حِكْمَتَهُ، فَهُوَ لَا يَحْكُمُ لِمَنْ كَانَ ضَالًّا بِالْهَدَايَةِ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَى مَنْ كَانَ مُهْتَدِيًّا بِالضَّلَالَةِ.

فَكُلٌّ مِنْ فِعْلِي: ﴿تُضِلُّ﴾ و﴿وَتَهْدِي﴾ مُسْتَعْمَلٌ هُنَا بِمَعْنَى تَقْضِي وَتَحْكُمُ، بِالضَّلَالَةِ، أَوْ بِالْهَدَايَةِ، وَهَذَا أَحَدُ الْمَعَانِي الَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا إِسْتَاذُ الْأَفْعَالِ إِلَى الْفَاعِلِ أَوْ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ.

وَالْمَعْنَى: تَنْسُبُ إِلَى الضَّالِّ الضَّلَالَ، وَتَنْسُبُ إِلَى الْمُهْتَدِي الْهَدَايَةَ. وَبَعْدَ الْحُكْمِ الرَّبَّانِيِّ يَأْتِي الْجَزَاءُ الْمَلَائِمُ لَهُ، وَبِهَذَا تَظْهَرُ ثَمَرَةُ الْامْتِحَانِ وَغَايَتُهُ.

وَلَمَّا أَعْلَنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتِسْلَامَهُ لِحُكْمِ رَبِّهِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَا يَسْتَشِيعُ حُكْمُهُ مِنْ جَزَاءٍ، لَجَأَ إِلَى رَبِّهِ دَاعِيًا قَائِلًا:

• .. أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاقْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ :

﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾: أَي: أَنْتَ رَبُّنَا وَسَيِّدُنَا وَالْمَنْعِمُ عَلَيْنَا وَالْمَالِكُ لَنَا، وَالْمَتَوَلَّى لِكُلِّ أُمُورِنَا، وَفِي هَذَا تَفْوِيضٌ كَامِلٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿فَاقْفِرْ لَنَا﴾: بَعْدَ إِعْلَانِ الْاسْتِسْلَامِ الْكَامِلِ لِحُكْمِ اللَّهِ، وَتَفْوِيضِ الْأَمْرِ كُلِّهِ إِلَيْهِ سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَلِقَوْمِهِ، فَدَعَا دَعَاءً عَامًّا بِالْمَغْفِرَةِ لِنَفْسِهِ وَلِقَوْمِهِ.

الْمَغْفِرَةُ: سَتْرُ الذَّنْبِ، وَفِي طَلَبِ سَتْرِ الذَّنْبِ مَعْنَى التَّجَاوُزِ عَنِ الْمَحَاسَبَةِ وَالْجَزَاءِ عَلَيْهِ، فَكَأَنَّ الذُّنُوبَ غَيْرُ مَنْظُورٍ إِلَيْهَا فِي الْمَحَاسَبَةِ وَالْجَزَاءِ، وَأَتْبَعَ فَدَعَا بِالرَّحْمَةِ، فَقَالَ:

﴿وَارْحَمْنَا﴾: الرَّحْمَةُ صِفَةُ نَفْسِيَّةٌ مِنْ آثَارِهَا الْمَغْفِرَةُ وَالْعَفْوُ وَالصَّفْحُ وَالْإِكْرَامُ وَالْجُودُ، وَكُلُّ الْعَطَاءَاتِ الَّتِي تَمْنَحُ السَّعَادَاتِ.

وَفِي الدُّعَاءِ بِالرَّحْمَةِ بَعْدَ الدُّعَاءِ بِالْمَغْفِرَةِ تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ، أَي: وَزِدْنَا بَعْدَ الْمَغْفِرَةِ مِنْ عَطَايَا رَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾: هذه عبارة ثناء على الله جلّ جلاله، مَبْدُوءَةٌ بِحَرْفِ عَطْفٍ، وَكَانَ مُقْتَضًى الظَّاهِرِ أَنْ تَأْتِيَ دُونَ حَرْفِ عَطْفٍ، فَمَا الْحِكْمَةُ مِنْ عَطْفِهَا بِالْوَاوِ؟.

أقول: إِنَّ التَّدْبِيرَ الْأَمْثَلَ يَهْدِينَا إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ مَحْذُوفَةٍ أَفْصَحَتْ عَنْهَا «الواو» العاطفة^(١)، وتقدير الكلام هُنا:

أَنْتَ وَلِيُّنَا، فَاعْفِرْ لَنَا، وَارْحَمْنَا، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ.

وفي دُعَائِهِ السَّابِقِ فِي الْآيَةِ (١٥١) لِنَفْسِهِ وَلِأَخِيهِ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٥١)

ومن سُنَّةِ التَّكَامُلِ فِي دَلَالَةِ النَّصُوصِ، نفهم أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَيْضاً، هِيَ عَلَى تَقْدِير:

وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وقد دَلَّ الْمَذْكُورُ فِي كُلِّ مِنَ الدُّعَاءَيْنِ عَلَى الْمَحْذُوفِ فِي كُلِّ مِنْهُمَا، وَأَشَارَ وَجُودُ حَرْفِ الْعَطْفِ فِي كُلِّ مِنْهُمَا إِلَى الْجُمْلَةِ الْمَحْذُوفَةِ فِي كُلِّ مِنْهُمَا.

وَيُلاحِظُ أَنَّ طَلَبَ الرَّحْمَةِ مِنَ اللَّهِ، يَسْتَدْعِي الثَّنَاءَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَنَّ طَلَبَ الْمَغْفِرَةِ مِنْهُ يَسْتَدْعِي الثَّنَاءَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ خَيْرُ الْغَافِرِينَ.

وهنا يَرِدُ سَوَالٌ، وهو: لِمَاذَا لَمْ يَأْتِ فِي الثَّنَاءِ الثَّانِي عِبَارَةً: وَأَنْتَ أَغْفَرُ الْغَافِرِينَ، كَمَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ الْأَوَّلِ عِبَارَةً: وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؟!.

(١) ثبت عِنْدِي أَنَّ الْعَطْفَ عَلَى مَحْذُوفٍ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى الْفَاءِ الَّتِي سَمَّاهَا النِّحَاةَ الْفَاءَ الْفَصِيحَةَ، بَلْ قَدْ يَكُونُ بِكُلِّ حُرُوفِ الْعَطْفِ، وَفِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذَا الْكَثِيرِ.

أقول: إِنَّ الْمَغْفِرَةَ لَا تَكُونُ خَيْرًا دَوَامًا، بل قد يكون الخير في كشف جريمة المجرم ومُعَاقِبَتِهِ عَلَى جَرِيمَتِهِ، بَيْنَمَا قَدْ تَذَفَعُ عَاطِفَةُ الْأَبُوَّةِ أَوْ الْأُمُومَةِ إِلَى سِتْرِ كُلِّ جَرَائِمِ الْأَبْنَاءِ، والتجاوزِ عن المؤاخَذَةِ عَلَيْهَا، وهذه المغفرة شَرٌّ، وتشجيع للمجرم على التماذي في جرائمه.

أَمَّا الرَّحْمَةُ فَاللَّهُ أَرْحَمُ كُلِّ الرَّاحِمِينَ دَوَامًا، وَقَدْ جَاءَ فِي التَّصْوَصِ الْقِرَائِيَّةِ أَنَّهُ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الرَّحْمَةَ حِينَمَا تَكُونُ مُنَافِيَةً لِمَقْتَضِيَّاتِ الْحِكْمَةِ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ بِالْمَذْنِبِ الْعُقُوبَةَ الَّتِي تَقْتَضِيهَا حِكْمَتُهُ جَلَّ جلاله، وهذا من الرَّحْمَةِ بِغَيْرِهِ من عباده.

وتابع موسى عليه السلام دُعَاءَهُ قَائِلًا:

● ﴿وَكَتُبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَىكَ...﴾ (١٥٦) ﴿:

أي: وَاكْتُبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً أَوْ حَسَنَاتٍ لَا حَضَرَ لَهَا. وَقَدْ حُذِفَ هَذَا مِنَ الْجَمْلَةِ لِلْعِلْمِ بِهِ، وَهُوَ مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْإِيجَازُ وَالِاِقْتِصَادُ فِي الْعِبَارَةِ، وَلَا سِيَمَا فِي مَخَاطَبَةِ الرَّبِّ جَلَّ جلاله.

﴿وَكَتُبْنَا﴾: دُعَاءُ جَاءَ التَّعْبِيرُ فِيهِ عَنْ آخِرِ الْأَمْرِ الَّذِي يُثَبِّتُ بِهِ الْمَرَادُ الْمُقْضِي تَنْجِيزُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

فَالْأَمْرُ مِنَ الْمُمَكِّنَاتِ يُرَادُ، فَيُقْضَى بِهِ، فَيَكْتُبُ، فَيُنْفَذُ حِينَمَا يَأْتِي وَقْتُ التَّنْفِيزِ. فَطُلِبَ كِتَابَتُهُ يَتَضَمَّنُ عَنْ طَرِيقِ اللَّزُومِ الدِّهْنِي دُعَاءَ بِتَخْصِيصِهِ بِالْإِرَادَةِ، فإِمْضَائِهِ وَالْقَضَاءَ بِهِ، فَكِتَابَتُهُ لَتَنْجِيزِهِ فِي حِينِهِ، وَهَذَا مِنَ الْكِنَايَاتِ لِمَا فِيهِ مِنْ اسْتِخْدَامِ اللَّوَاظِمِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَلْزُومَاتِهَا.

إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ سَأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَرْحَمَنَّا﴾ خَصَّ فِي دُعَائِهِ بِالذِّكْرِ نَوْعَيْنِ مِنْ أَثَارِ رَحْمَتِهِ:

النوع الأول: حَسَنَةٌ مُّعَجَّلَةٌ فِي الدُّنْيَا.

النوع الثاني: حَسَنَةٌ تَجْمَعُ حَسَنَاتٍ لَا نِهَآيَةَ لَهَا مُؤَجَّلَةٌ إِلَى الْآخِرَةِ، إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، يَوْمِ الْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ.

أَمَّا حَسَنَةُ الدُّنْيَا فَتَشْمَلُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، مِنْهَا التَّوْفِيقُ وَالنُّصْرُ وَالصُّحَّةُ وَالرِّزْقُ، وَمِنْحُهُمْ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا، مَعَ مَا أَبَاحَ اللَّهُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَأَمَّا حَسَنَةُ الْآخِرَةِ فَأَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى وَلَا تُسْتَفْصَى، مِنْهَا النِّجَاةُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَمِنْهَا الظَّفَرُ بِالسَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، وَرِضْوَانُ مَنْ اللَّهُ أَكْبَرُ.

● ﴿إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَىٰ نَارٍ كَافَّةٍ﴾: أَي: إِنَّا تُبْنَىٰ إِلَيْكَ، وَرَجَعْنَا إِلَيْكَ، طَائِعِينَ، مُسْتَسْلِمِينَ.

يقال لغة: هَادَ يَهْدُو هَوْدًا، أَي: تَابَ وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ وَالطَّاعَةِ.

إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَعْلَنَ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ التَّوْبَةَ عَنْ مُذْنِبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ، وَعَنِ الَّذِينَ قَصَرُوا فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ، وَعَنْ نَفْسِهِ، فِيمَا كَانَ يَنْبَغِي لِمِثْلِهِ أَنْ يَفْعَلَ مَا هُوَ الْأَكْمَلُ وَالْأَفْضَلُ.



قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾:

أَي: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْمَقَالَةُ.

أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ فالظاهر أَنَّهُ جَوَابُ لِقَوْلِ مُوسَى: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْأَسْفَهَاءُ مِنَّا﴾؟! إِذْ هَزَتْهُ مُفَاجَأَةُ الرَّجْفَةِ، وَظَنُّهَا رَجْفَةً إِهْلَاكَ.

﴿عَذَابِي﴾: أي: عِقَابِي، فالعذاب في اللُّغة أتى بمعنى العقاب، وهو المراد هُنا كما يظهر، ومعلوم أن العقاب إنما يكون عن ذنب، وعقابُ الله للمذنبين إنما يكون معادلاً لذُنُوبهم، فالسَّيِّئَةُ في قانون الله الجزائي تُقَابَلُ بمثلها المكافئ لها.

ولما كان من الذُّنُوب مَا قَدْ يَغْفِرُهُ الله، وَكَانَ مِنْهَا مَا قَدْ يُعَاقِبُ عليه، وَلَمَّا كَانَتْ مَشِيئَةُ اللَّهِ الْحَكِيمَةِ هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ إِنْزَالَ عِقَابِهِ، أَوِ الْغَفْرَانَ وَالْعَقْفَ، كَانَ التَّعْبِيرُ الْمَلَائِمُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾.

وَلَا بُدَّ أَنْ نَضَعَ فِي مُلَاحَظَتِنَا دَوَاماً أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ لَا تُفَارِقُ حُكْمَتَهُ، وَأَنَّ حُكْمَتَهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا تَقْضِي بَعْدْلَهُ، أَوْ تَقْضِي بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فالظاهر أَنَّهُ جَوَابٌ لِقَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾.

يقال لغة: وَسِعَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ، أي: لَمْ يَضِقْ عَنْهُ.

والمعنى: أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ جَدًّا سَعَةً قَابِلَةٌ لِأَنَّ تَفِيضَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَابِلٍ بِتَكْوِينِهِ، أَوْ بِاخْتِيَارِهِ، لَتَلْقَى آثَارَ فَيْضِهَا وَعَطَائِهَا وَجُودِهَا، وَهَذَا الْقَيْدُ يُفْهَمُ بِاللُّزُومِ الْعَقْلِيِّ، أَوْ بِالِاِقْتِضَاءِ الْعَقْلِيِّ، وَبِرَهَائِهِ أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي لَا يَقْبَلُ بِأَضَلِّ تَكْوِينِهِ أَنْ يَتَلَقَّى آثَارَ رَحْمَةِ اللَّهِ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ عُمُومِ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ لِأَنَّهَا لَا تَنْسُغُ لَهُ، بَلْ لِأَنَّهُ مَخْرُومٌ بِطَبِيعَتِهِ مِنْ تَقَبُّلِ آثَارِهَا، وَالِانْتِفَاعِ بِهَا، كَالصُّخْرَةِ الصَّمَاءِ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَيْهَا أَمْطَارُ السَّمَاءِ، الَّتِي هِيَ أَثَرُ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ فَلَا تَنْتَفِعُ بِهَا، لَا لِأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ لَمْ تَسْغَهَا، وَلَكِنْ لِأَنَّهَا هِيَ لَمْ تَقْبَلِ الْانْتِفَاعَ بِغَيْثِ السَّمَاءِ.

وكَذَلِكَ مَنْ يَرْفُضُ بِاخْتِيَارِهِ الْحَرَ، مِنْ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحَرَّةِ، تَلْقَى رَحْمَةَ اللَّهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ بِشُرُوطِ تَلَقِّيْهَا.

ولنفرض أن رَحْمَةَ اللَّهِ تُشْبِه نَهراً عظيماً، يَتَسَّعُ لكل مَنْ يُريد الانتفاع بمائه، بأي وجهٍ مِنْ وَجُوهِ الانتفاع، ولكن بشرط أن يَتَّخِذَ وَسِيلَةً لاستخراج الماء من النهر، مَعَ العلم بأن وسائل استخراج الماء مِنْهُ مُيَسَّرَةٌ لكل طالب الانتفاع به بنسبة مُتساوية، فإذا رَفَضَ المحتاج إلى الماء اتِّخَاذَ آيَةٍ وَسِيلَةٍ مُيَسَّرَةٍ لَهُ، فَهَلْ يُقَالُ: إِنَّ ماء النهر لم يَتَسَّعْ لَهُ، أَمْ يُقَالُ: إِنَّهُ هو الذي أبى باختياره الحرَّ الانتفاعَ بماء النهر.

ولنفرض أن رَحْمَةَ اللَّهِ تُشْبِهُ غِثاً عظيماً عامّاً شاملاً، ولا يحتاج الانتفاعُ به إلا أَنْ يَتَعَرَّضَ ذُو الإرادة الحرَّة لتَلَقَّيهِ مِنَ السَّمَاءِ، لكنَّ المحتاج إليه أَوْلى إلى مغارة، أو سَتَرَ نَفْسَهُ بِمِظْلَةٍ حَاجِبَةٍ، فَهَلْ يُقَالُ: إِنَّ الْغَيْثَ لم يَكُنْ عامّاً شاملاً يَمْنَحُ عِطَاءَهُ لكل مَنْ يَتَلَقَّاهُ، أَمْ يُقَالُ: إِنَّ الَّذِي حَجَبَ نَفْسَهُ بِإِرَادَتِهِ الحرَّة هو الَّذِي أبى الانتفاعَ به.

إِنَّ صِفَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ هِيَ السَّعَةُ الشَّامِلَةُ لكلِّ شيءٍ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَنْتَفِعُ بها هو الَّذِي لَدَيْهِ الْقَابِلِيَّةُ وَالِاسْتِعْدَادُ للانتفاع بها، وإذا كَانَ ذَا إرادة حُرَّة فانتفاعُهُ بِهَا شَرْطُهُ اتِّخَاذُ وَسِيلَةٍ للانتفاع بها، واجتنابُهُ مَا يَحْجُبُهُ عَنْهَا. ضَمَّنَ قوانين الله الثابتة، التي وَضَعَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحِكْمَتِهِ لِحَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَحَيَاةِ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ.

ففي عالم الحياة الدنيا عَالَمُ الْإِبْتِلَاءِ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ كَائِنٍ حَيٍّ مُسْتَعِدّاً بِتَكْوِينِهِ الْفِطْرِيِّ لَتَلَقِّيَ مِقْدَارَ مَا مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ فِي الرِّزْقِ وَالصَّحَّةِ وَتَذَوُّقِ لَذَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالِاسْتِمْتَاعِ بِحَلَاوَةِ مَا فِيهَا مِنْ حُلْوٍ، وَجَعَلَ كُلَّ ذِي إرادة حُرَّة مَوْضُوعَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِمْتِحَانِ، مُسْتَعِدّاً لَتَلَقِّيَ تَعْلِيمَاتِ الْهُدَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ.

ولَكِنَّ بعض النَّاسِ يَرْفُضُونَ بِإِرَادَتِهِمْ الحرَّة الانتفاع بتعليمات الهداية الرَّبَّانِيَّةِ، كَالْمَرِيضِ الَّذِي يَرْفُضُ اسْتِعْمَالَ الدَّوَاءِ، لِأَنَّهُ جَاءَ عَلَى خِلَافِ مَا

يستهي، مع أَنَّ الرُّحَمَاءَ مِنْ أَهْلِهِ وَذَوِيهِ حَرِيصُونَ عَلَى أَنْ يَسْتَغْمَلَهُ، رَغْبَةً مِنْهُمْ فِي شَفَائِهِ.

والمغفرة والعفو هُما مِنْ آثار رَحْمَةِ اللَّهِ بعباده، وَلَكِنْ شرط الانتفاع بهما أَنْ تكونَ لَدَى العاصِي القَابِلِيَّةُ للانتفاعِ بِآثارِ رحمةِ الله في المغفرة والعفو، ضمنَ قوانينِ الله عَزَّ وَجَلَّ في تكوينِ النفوس، وهذه القَابِلِيَّةُ في النفوس الإنسانية مِفْتَاحُهَا التوبة الصادقة، والاستغفار وطلبُ العفو، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَتَحَ أَبْوَابَ نَفْسِهِ لَتَلْقَى آثارَ رَحْمَةِ اللَّهِ في المغفرة والعفو.

وفي عالم الجزاء يَوْمَ الدِّينِ جَعَلَ اللهُ في قوانينه لِلنَّشْأَةِ الأُخْرَى، أَنْ قابليات الانتفاع بِآثارِ رَحْمَةِ اللَّهِ يومئذٍ مَشْرُوطَةٌ بِأَنْ يموتَ الموضوعُ في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ مُؤْمِنًا بِرَبِّهِ، لَا يُشْرِكُ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَلَا بِإِلَهِيَّتِهِ شَيْئًا، وَجَعَلَ قابِلِيَّاتِ الانتفاعِ بها لَدَى عَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ متفاوتاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ، بِحَسَبِ مَا كَانَ لَدَى كُلِّ مِنْهُمْ في الحياة الدُّنْيَا مِنْ إيمانٍ وَعَمَلٍ صالح.

بهذا التحليل ظهر لنا تَمَامًا أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَّ الْعِلَّةَ في عَدَمِ الانْتِفَاعِ بِآثارِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَكْمُنُ في عَدَمِ قَابِلِيَّةِ الشَّيْءِ لِلانْتِفَاعِ بها في أَصْلِ تَكْوِينِهِ الْفِطْرِيِّ، أَوْ في أَنَّهُ أَقْفَلَ عَلَى نَفْسِهِ بِإِرَادَتِهِ أَبْوَابَ اسْتِقْبَالِ آثارِ رَحْمَةِ اللَّهِ، ضِمْنَ قوانينِ التكوينِ العامِّ في عَالَمِ الْإِبْتِلَاءِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ في عَالَمِ الْجَزَاءِ.



قول الله تعالى:

﴿فَسَأَلْتُنِيَّ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

● ﴿فَسَأَلْتُنِيَّ﴾: أي: فسألتُ معقَديزَ من آثار رَحْمَتِي بتتابعِ أقضيّتي وأحكامي الجزائيّة، فالمراد بِالرَّحْمَةِ آثارها، وهي جنسٌ يَشْمَلُ القليلَ والكثيرَ منها، وإضافتها إلى ضمير المتكلم وهو الله عَزَّ وَجَلَّ يجعلها

عامّة شاملةً للجنس، مثل العموم الذي تفيده «ال» التي للجنس، وليس المراد العموم الإفرادي.

● ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٦) : أي : فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ مُتَابِعِينَ فِي حَرَكَةِ حَيَاتِهِمُ التَّعَامُلَ مع أَوْامِرِي وَنَوَاهِيٍّ وَزَوَاجِرِي وَإِنذَارَاتِي بِالتَّقْوَى، أي : بِاتِّقَاءِ عِقَابِي وَعَذَابِي، الَّذِي رَتَّبْتُهُ عَلَى تَرْكِ مَا فَرَضْتُهُ عَلَى عِبَادِي الَّذِينَ وَضَعْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، وَفَعَلَ مَا حَرَّمْتُهُ عَلَيْهِمْ، وَتَنْتَهَى رِحْلَةُ امْتِحَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ مُتَّقُونَ.

التَّقْوَى: تَكُونُ بِاتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ لِلْوَقَايَةِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ.

ومع أَنَّ التَّقْوَى تَسْتَلْزِمُ فِعْلَ كُلِّ الْوَاجِبَاتِ وَمِنْهَا أَدَاءُ الزَّكَاةِ، فَقَدْ خَصَّ اللَّهُ - جَلَّتْ حِكْمَتُهُ - إِيْتَاءَ الزَّكَاةِ بِالذِّكْرِ، اهْتِمَاماً بِشَأْنِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَمَا فَرَضَهَا فِي الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، وَفِي سَائِرِ الرِّسَالَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ، لِأَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ يُحَرِّضُهَا الشُّخْ فِيهَا عَلَى التَّهَوُّنِ بِإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

ومع أَنَّ التَّقْوَى لَا تَتَحَقَّقُ ابْتِدَاءً إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِكُلِّ مَا يُنْزِلُهُ اللَّهُ مِنْ آيَاتٍ بَيَانِيَّةٍ تَبَاعاً، عَلَى مُوسَى وَعَلَى غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِهِ حَتَّى خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، فَقَدْ خَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالذِّكْرِ فِي الْآيَةِ قَضِيَّةَ الْإِيمَانِ بِكُلِّ مَا يُنْزِلُ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ مِنْ آيَاتٍ، وَلِوَازِمِهِ مِنَ الْإِتْبَاعِ وَالْعَمَلِ، نَظْراً إِلَى أَنَّ الْخَطَّ الْفِكْرِيَّ الْأَعْظَمَ الَّذِي تَتَعَلَّقُ بِهِ الْمَوْضُوعَاتُ الْفَرْعِيَّةُ فِي سُورَةِ (الأعراف) هُوَ خَطُّ اتِّبَاعٍ مَا أُنْزِلَ إِلَى النَّاسِ مِنْ رَبِّهِمْ، وَالْإِتْبَاعُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقاً بِالْإِيمَانِ، وَقَدْ جَاءَ بَيَانُ هَذَا الْخَطِّ فِي الْآيَةِ (٣) مِنْ أَوَائِلِ السُّورَةِ. وَيُضَافُ إِلَى هَذَا أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ قَدْ يَشْتَدُّ فِيهَا دَاءُ التَّعَصُّبِ لِلرُّسُولِ السَّابِقِ، وَلِلتَّحْرِيفَاتِ الْمَرْضِيَّاتِ لِلْأَهْوَاءِ الَّتِي دَخَلَتْ فِي الدِّينِ الْمَمْزُوثِ عَنْهُ، فَيَدْفَعُهَا هَذَا الدَّاءُ إِلَى الْكُفْرِ

بآياتِ الله التي أنزلها على الرُّسُولِ اللَّاحِقِ، أو الرُّسُلِ اللَّاحِقِينَ.

وهذا ما أُصِيبَ به اليهودُ إذ كَفَرُوا بِالآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا ما أُصِيبَ به اليهودُ والنَّصَارَى إذ كَفَرُوا بِالآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، مع أَنَّ رُسُلَ اللَّهِ سَوَاءٌ فِي التَّبْلِغِ عَنْ اللَّهِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَنْ فِيهِمَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِإِبْنِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦): أَي: وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ مَا نُنْزِلُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَلَى رُسُلِنَا، فَلَا يَفْرُقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَسِوَاهُ، وَلَا يَتَّعِصِبُونَ لِسَابِقٍ ضِدِّ لَاحِقٍ.

وما جاء في هذه الآية (١٥٦) هو بيانُ رَبَّانِيٍّ لُسَّةٍ ثَابِتَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ يُعَامِلُ بِهَا اللَّهُ النَّاسَ جَمِيعاً، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَلَيْسَ بَيَاناً خَاصّاً بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، لَكِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ فِيهِ دَخُولاً أَوَّلِيّاً، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَاطَبَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُمْ قَوْمُهُ التَّابِعُونَ لَهُ مُدَّةَ بَقَاءِ رِسَالَتِهِ.

● قول الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (١٥٧).

دَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ مِنْ مُفْتَضِّلَاتِ صِفَةِ التَّقْوَى فِي الْعِبَادِ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ وَالتَّكْلِيفِ، أَنَّ يُؤْمِنُوا بِكُلِّ رَسُولٍ سَابِقٍ لِرَسُولِهِمْ، أَوْ لَاحِقٍ لَهُ، حَتَّى خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَلَكِنْ خَصَّ اللَّهُ بِالذِّكْرِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ اللَّاحِقِينَ خَاتَمَهُمُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يَجِدُونَ الْبَشَارَةَ بِبِعْثِهِ مَكْتُوبَةً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ، مَعَ الْإِشَارَةِ فِي التَّوْرَةِ إِلَى كِتَابٍ لَاحِقٍ يُنْزِلُهُ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ الْإِنْجِيلُ الَّذِي

سَيُنْزِلُهُ عَلَىٰ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهُوَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنَّهُمْ سَيَجِدُونَ
البشارةَ بِبِعْثَةِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ الْخَاتِمِ فِيهِ أَيْضاً.

وَلَمَّا كَانَ الْإِنْجِيلَ سَيُنْزَلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَفِيهِ الْبَشَارَةُ الصَّرِيحَةُ
بِالرَّسُولِ الْخَاتِمِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَعتَبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْإِنْجِيلَ عِنْدَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ، سَوَاءً أَقْبَلُوهُ إِيْمَانًا بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَمْ رَفَضُوهُ كُفْراً بِهِ.

وَبِمَا أَنَّ حَرَكَةَ الثَّقَوَى الْمُتَجَدِّدَةِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا صِيغَةُ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ
فِي ﴿يَتَّقُونَ﴾ تَقْتَضِي أَنْ يُؤْمِنُوا بِكُلِّ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ بِهِ، وَبِكُلِّ مَا يَجِبُ
عَلَيْهِمُ الْإِيْمَانُ بِهِ تَبَاعاً، مِمَّنْ يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ نَبِيِّ وَرَسُولٍ، وَمِمَّا يُنْزِلُ مِنْ
آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِلنَّاسِ فِي تَتَابُعِ الْأَزْمَانِ، عَلَىٰ أَيِّ رَسُولٍ لَاحِقٍ مِنْ رُسُلِهِ.

كَانَتْ الْمُنَاسِبَةُ دَاعِيَةً لِإِعْلَامِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ وَجْهِ الْخُصُوصِ. بِالنَّبِيِّ
الرَّسُولِ الْخَاتِمِ الَّذِي سَيَأْتِي مِنْ غَيْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ الَّذِينَ
لَا يَتَّبِعُونَهُ إِذَا بَعَثَهُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَكْتُبُ لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا
يُدْخِلُهُمْ فِي جَنَّتِهِ، لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِمَا أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَعَصَوْا أَمْرَ
اللَّهِ لَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ.

فَمِنْ شَرْطِ نَجَاةٍ مَنْ يُؤْمِنُ بِرَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِسَائِرِ
رُسُلِ اللَّهِ الصَّادِقِينَ، السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ، وَأَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ الْلَاحِقَ إِذَا
كَانَتْ رِسَالَتُهُ مُكَمَّلَةً لِلرَّسَالَةِ السَّابِقَةِ، أَوْ نَاسِخَةً لِبَعْضِ مَا جَاءَ فِيهَا وَمُعَدِّلَةً
لَهُ.

فَفِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَحْدُثُهُمْ مَكْنُوءًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...﴾ (١٥٧) ﴿إِعْلَامٌ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، وَإِعْلَامٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمْ لِلنَّجَاةِ وَالظَّفَرِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ
وَدُخُولِ جَنَّتِهِ أَنْ يَتَّبِعُوا هَذَا الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ.

وَيَتَضَمَّنُ هَذَا النَّصُّ أَنَّهُمْ قَدْ أَعْلِمُوا أَيْضاً بِبِعْثَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ

بني إسرائيل، وأَعْلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَيُنْزِلُ عَلَيْهِ كِتَابًا، وهو الإنجيل، وفي هذا الكتاب البشارة بالرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ.

ووصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هذا الرَّسُولَ الْمُبَشِّرَ بِهِ بصفاتٍ عشر:

الصفة الأولى: أَنَّهُ رَسُولٌ يبعثُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَبْلَغًا وَقائِمًا بوظائف رسالاته التي يُرْسِلُهُ بها، وهذه الصفة تَسْتَلْزِمُ في المعهود من رُسُلِ الله، أَن يكون مؤيِّدًا من قِبَلِ رَبِّهِ بِالآيَاتِ الْإِعْجَازِيَّةِ الَّتِي تُثَبِّتُ صِحَّةَ رِسالته، وَصِدْقَهُ فيما يبلِّغُ عن ربه.

الصفة الثانية: أَنَّهُ نَبِيٌّ، أَي: يَضْطَفِيهِ اللَّهُ بِالنُّبُوَّةِ، فيُوحِي إِلَيْهِ كما أَوْحَى إِلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ.

وذكرَ اللهُ هُنَا وَصْفَ النُّبُوَّةِ، مع أَنَّ رَسُولَ اللهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا، لِدَفْعِ تَوَهُمِ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا مُكَلَّفًا مِنْ قِبَلِ نَبِيٍّ رَسُولٍ، كَالرُّسُلِ السَّبْعِينَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِلدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، فِي الْأَقَالِيمِ الْإِهْلَةِ بِالنَّاسِ يَوْمئِذٍ، فَالرَّسُولُ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا.

دَلَّ عَلَى صِفَتَيْ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾.

الصفة الثالثة: أَنَّهُ أُمِّيٌّ، أَي: لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، وَقَدْ اخْتَارَهُ اللهُ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، لِأَنَّ أَعْظَمَ مَعْجَزَاتِهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامَاتُهُ عَلَيْهِ مُعْجِزَةٌ الْقُرْآنَ، فَاخْتِيَارُهُ أُمِّيًّا اذْعَى إِلَى تَضَدِيقِهِ فِي بَيَانِ أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، إِذْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يُذَكِّرُونَ فِي بَدْءِ دَعْوَتِهِ وَسَمَاعِهِمْ مَا يَتْلُو عَلَيْهِمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ، مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَنْوَاعِ إِعْجَازٍ جَلِيلَةٍ.

فَلَوْ كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ وَيَكْتُبُونَ لَتَبَادَرَ إِلَى أَذْهَانِهِمْ، أَنَّهُ يُحْبَرُ الْقُرْآنَ إِنْشَاءً أَوْ اسْتِنْسَاحًا مِنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ، ثُمَّ يَتْلُوهُ عَلَى النَّاسِ فِي دَعْوَتِهِ.

وكان العربُ يُوصَفُونَ عندَ بني إسرائيلَ بأنَّهم أُمِّيُونَ، إذ كانوا يُقْسِمُونَ النَّاسَ إلى إسرائِيلَينَ، وأُمِّيَّينَ (أي: جوييم، بحسبِ تَغْيِيرِهِم)، وكانوا يَسْتَحِلُّونَ أَكْلَ أَمْوَالِ الْأُمِّيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ، ويقولون كما إبانَ الله عزَّ وجلَّ في الآية (٧٥) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّينَ سَبِيلٌ...﴾ (٧٥)

أي: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْأُمِّيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ سَبِيلٌ لِلْمُؤَاخَذَةِ وَالْجَزَاءِ، فهي مُبَاحَةٌ لَنَا.

وعلى هذا يَكُونُ اللَّفْظُ مُسْتَحْدَماً بِمَعْنَيَيْنِ:

● فَهُوَ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ.

● وَهُوَ مِنْ غَيْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وعلى بني إسرائيلَ أَنْ يَتَّبِعُوهُ، مُسْتَبْعِدِينَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّسُولُ النَّبِيُّ الَّذِي يَأْمُرُهُمُ اللَّهُ بِاتِّبَاعِهِ مَتَى أَرْسَلَهُ إِسْرَائِيلِيًّا مِنْهُمْ.

وهذه النزعة العرقية الأنانية هي العِلَّةُ الفاسِدةُ الَّتِي أَثَارَتِ حَسَدَ الْيَهُودِ، حينَ أَرْسَلَ اللَّهُ هَذَا الرَّسُولَ الْمَوْعُودَ بِهِ مِنَ الْعَرَبِ، أَبْنَاءَ عَمِّهِمْ إِسْمَاعِيلَ، أَخِي جَدِّهِمْ إِسْحَاقَ لِأَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

فجاء في النَّصِّ قولُ الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾.

الصفة الرابعة: أَنَّ الْإِعْلَامَ بِبِغْثَتِهِ وَبِبَغْضِ صِفَاتِهِ الْمُمَيَّزَةِ لَهُ تَمَيِّزًا تَامًا، حَتَّى كَانَهُ مُشْهُودُ الذَّاتِ، مَكْتُوبٌ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّوْرَةِ، وَهَذِهِ مِنَ الْبُشْرِيَّاتِ الَّتِي بَشَّرَ اللَّهُ فِيهَا بِبِغْثَتِهِ قَبْلَ إِرْسَالِهِ بَعَشَرَاتِ الْقُرُونِ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْذُ عَهْدِ مُوسَى.

فجاء في النَّصِّ قولُ الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾.

الَّذِي يَحْدُوثُهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ...﴾.

الصِّفَةُ الخامسة: أَنَّ الإعلامَ بِبِعْثِهِ وَبِبَعْضِ صِفَاتِهِ المُمَيِّزَةِ لَهُ تَمَيِّزاً تَاماً، مَكْتُوبٌ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْإِنْجِيلِ أَيْضاً.

وهذه من البُشْرِيَّاتِ الَّتِي بَشَّرَ اللهُ فِيهَا بِبِعْثِهِ قَبْلَ إِرْسَالِهِ بِنَحْوِ سِتَّةِ قُرُونٍ، كُلُّ قَرْنٍ مِنْهَا مِئَةُ سَنَةٍ.

وهذا أَمْرٌ مَعْلُومٌ لبني إِسْرَائِيلَ الْمُؤْمِنِينَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُنْذُ أَنْزَلَ اللهُ الْإِنْجِيلَ عَلَيْهِ، وَأَنْزَلَ فِيهِ الْبَشَارَةَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَالْإِنْجِيلِيُّونَ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ.

ومن الممكن أَنْ يَكُونَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ بَشَّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّوْرَةِ، بِعِيسَى وَبِالْإِنْجِيلِ، مَبْتِئاً لَهُمْ أَنَّهُ تَوْجَدُ فِي الْإِنْجِيلِ الْبَشَارَةُ بِالرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَلَكِنْ لَا أَمْلِكُ دَلِيلَ إِثْبَاتٍ عَلَى هَذَا.

فجاء في النص قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...﴾.

الصِّفَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ، أَي: بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ لَدَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّهُ حَقٌّ وَخَيْرٌ وَرُشْدٌ وَهِدَايَةٌ، وَفِيهِ مَرْضَاةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

كوجوب الإيمان بالحق، وقول الصدق، والصلاة، والزكاة، وفعل الخيرات.

فجاء في النص قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

الصفة السابعة: أَنَّهُ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَي يَنْهَاهُمْ عَنْ كُلِّ مَا يَغْلُمُونَ أَنَّهُ مُنْكَرٌ قَبِيحٌ مُحَرَّمٌ فِي دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ، كَالشَّرْكِ بِاللَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ، وَالْقَتْلِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَالزَّنا، وَالسَّرْقَةِ، وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَالْكَذِبِ، وَأَقْبَحُ الْاِفْتِرَاءِ عَلَى اللهِ فِي الدِّينِ، وَكَأَكْلِ الرِّبَا، وَأَكْلِ

مَالِ الْيَتِيمِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَالْغُلُولِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ
وشهادة الزور، إلى غير ذلك من مُنْكَرَاتِ معلومات عند اليهود والنصارى.

فجاء في النص: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا
عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾.

الصفة الثامنة: أَنَّهُ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، إِذْ حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى بَنِي
إِسْرَائِيلَ بَعْضَ الطَّيِّبَاتِ، عُقُوبَةً لَهُمْ بِسَبَبِ ظُلْمِ مِنْهُمْ ارْتِكَابُهُ مَعَانِدِينَ.

فإذا جاء الرَّسُولُ الْمُبَشِّرُ بِهِ، أَبَانَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ نَسَخَ
تَحْرِيمَهَا، إِذْ كَانَتْ لَهَا صِفَةُ الْعِلَاجِ الْمُؤَقَّتِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبِغَيْثَةِ
مُحَمَّدٍ ﷺ يَجْعَلُهَا اللَّهُ حَلَالًا لِلنَّاسِ، نَظَرًا إِلَى أَنَّ الْحِكْمَةَ الدَّائِمَةَ لِلنَّاسِ
جَمِيعًا أَنْ تَكُونَ حَلَالًا.

فجاء في النص: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ
مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ...﴾.

الصفة التاسعة: أَنَّهُ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، أَي: يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ، قَدْ حَرَّمَ فِي الدِّينِ الْخَاتَمَ لِرِسَالَاتِهِ لِعِبَادِهِ الْخَبَائِثَ، وَهِيَ الْأَشْيَاءُ
الضَّارَّةُ فِي الْأَجْسَادِ، أَوْ فِي النُّفُوسِ، أَوْ فِي الْعُقَائِدِ، أَوْ فِي الْمَفْهُومَاتِ
الدِّينِيَّةِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْأَشْيَاءَ الْمُسْتَقْدَرَّةَ فِي طَبَائِعِ النُّفُوسِ، أَوْ الْمُسْتَقْدَرَّةَ
فِي مَفْهُومَاتِ الدِّينِ.

فجاء في النص إضافة: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ...﴾.

الخبائث: جَمْعُ «الْخَبِيثَةِ»، وَهِيَ كُلُّ رَدِيءٍ فَاسِدٍ ضَارٍّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ،
وَقَدْ تُطْلَقُ عَلَى الرَّائِحَةِ الْكَرِيهَةِ أَوْ الْمُنْفَرَةِ الْقَبِيحَةِ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ ضَارَّةً،
وَالْمَقْصُودُ هُنَا الْمَعْنَى الْأَوَّلَ.

الصِّفَةُ العَاشِرَةُ: أَنَّهُ يَضَعُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِضْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ.

أي: يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَضَعَ فِي الدِّينِ الْخَاتَمَ لِلنَّاسِ، الْأَصَارَ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فِي الدِّينِ الَّذِي لَمْ تَكُنْ لَهُ صِفَةُ الْعَالَمِيَّةِ لِلنَّاسِ جَمِيعاً حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ.

الإِضْرُ: الْعَهْدُ الثَّقِيلُ، وَالتَّكْلِيفُ الثَّقِيلُ الشَّدِيدُ، وَالْعُقُوبَاتُ الشَّدِيدَاتُ عَلَى الذُّنُوبِ اللَّاتِي لَهَا صِفَةُ الْحُدُودِ.

الْأَغْلَالُ: جَمْعُ «الْغُلِّ» وَهُوَ طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ يُجْعَلُ فِي عُقِّ الْأَسِيرِ أَوْ فِي يَدَيْهِ، أَوْ فِيهِمَا مَعاً، وَتُعْقَدُ بِهِ سِلْسِلَةٌ مِنْ حَدِيدٍ، لِحِزِّ الْأَسِيرِ بِهَا.

وَأُطْلِقَتِ الْأَغْلَالُ هُنَا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى تَشْبِيهِ التَّكْلِيفِ الدِّينِيِّ الشَّاقَّةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْأَغْلَالِ.

فَالْمُرَادُ بِالْأَغْلَالِ التَّكْلِيفُ الشَّاقَّةُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.

لَقَدْ كَانَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عُهْدٌ ثَقِيلَةً، وَتَكْلِيفٌ دِينِيَّةٌ شَاقَّةٌ، وَكَانَتْ الْخُطَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ الْمَقْدَرَةُ الْمَقْضِيَّةُ، أَنَّ يَضَعَ عَنْ عِبَادِهِ فِي الدِّينِ الْخَاتَمَ هَذِهِ الْأَصَارَ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَحِينَ يَبْعَثُ اللَّهُ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِّيَّ، فَإِنَّهُ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ عَنِ النَّاسِ فِي الدِّينِ الْخَاتَمَ مَا كَانَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَصَارٍ وَأَغْلَالٍ شَدِيدَةٍ ثَقِيلَةٍ.

وَتَمَّ الْوَاقِعُ عَلَى وَفْقِ الْخُطَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْمَقْدَرَةِ الْمَقْضِيَّةِ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَجَاءَ فِي النَّصِّ إِضَافَةً: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِضْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

أَمْثَلَةٌ مِنَ الْأَحْكَامِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ:

المِثَالُ الْأَوَّلُ: جَاءَ فِي الْإِصْحَاحِ الْخَامِسِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ

مَا يَلِي:

« ٢ سِتَّةَ أَيَّامٍ يَعْمَلُ عَمَلٌ . وَأَمَّا الْيَوْمَ السَّابِعُ فَفِيهِ يَكُونُ لَكُمْ سَبْتٌ غُظْلَةٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ . كُلُّ مَنْ يَعْمَلْ فِيهِ عَمَلًا يُقْتَلْ لَا تَشْعِلُوا نَارًا فِي جَمِيعِ مَسَاكِينِكُمْ يَوْمَ السَّبْتِ . . . » .

المثال الثاني: جاء في الإصحاح الأول من سفر اللاويين، ما يلي:

«مَا يُقَدِّمُونَ مِنْ قُرْبَانٍ لِلرَّبِّ مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ فَإِنَّهُمْ مَأْمُورُونَ أَنْ يَذْبَحُوهُ وَيُقَطِّعُوهُ وَيَحْرِقُوهُ، فَيُوقِدُهَا الْكَاهِنُ عَلَى الْمَذْبَحِ طَعَامَ وَقُودٍ لِلرَّبِّ . . . » .

المثال الثالث: جاء في الإصحاح الرابع من سفر اللاويين ما يلي:

«مَنْ أَخْطَأَ سَهْوًا فِي جَمِيعِ مَا نَهَى الرَّبُّ عَنْهُ فَجَزَاؤُهُ أَنْ يَذْبَحَ ثُورًا صَاحِبِحًا لِلرَّبِّ ذَبِيحَةً خَطِيئَةٍ، ثُمَّ تُحْرَقُ هَذِهِ الذَّبِيحَةُ عَلَى حَطَبٍ بِالنَّارِ . . . » .
وَيَجْرِي هَذَا ضِمْنَ طُقُوسٍ وَأَعْمَالٍ مُرْتَبَةِ مَرْسُومَةٍ بِنِظَامٍ مُحَدَّدٍ .
فدَلَّ هذا على أنَّهم كانوا مَسْئُولِينَ عَمَّا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنْ مُخَالَفَاتِ
لِأَوَامِرِ الدِّينِ وَنَوَاهِيهِ، وَلَوْ كَانَتْ عَلَى سَبِيلِ الْخَطَا وَالسَّهْوِ وَالنَّسْيَانِ .
وَلَمَّا جَاءَ الدِّينُ الْخَاتِمُ رَفَعَ اللَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - فِيهِ الْحَرَجَ عَمَّا يَفْعَلُ
الْمُكَلَّفُ مُخْطِئًا غَيْرَ عَامِدٍ، أَوْ سَاهِيًا أَوْ نَاسِيًا .

فقد جاء في «الصحيح عن الرسول ﷺ فيما رواه البيهقي عن ابن عمر، قوله:

«وُضِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَا، وَالنَّسْيَانُ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ» .

وجاء في رواية أخرى: «رُفِعَ» بَدَلُ «وُضِعَ» .

المثال الرابع: جاء في الإصحاح السادس من سفر اللاويين ما يلي:

«إِنَّ جَزَاءَ مَنْ جَحَدَ وَدِيعَةً، أَوْ أَمَانَةً، أَوْ اغْتَصَبَ، أَوْ وَجَدَ لُقْطَةً

وَجَحَدَهَا وَخَلَفَ كَاذِبًا، أَنْ يَرُدَّ مَا أَخَذَهُ، أَوْ يُعَوِّضَ بِمِثْلِهِ، وَيَزِيدَ قَدْرَ خُمْسِهِ، وَيُقَدِّمَ كَبْشًا صَاحِحًا مِنَ الْغَنَمِ، تَكْفِيرًا لِإِثْمِهِ، يُذْبَحُ وَيُحْرَقُ».

المثال الخامس: جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر اللاويين ما يدلُّ على أَنَّ لَحْمَ الْجَمَلِ كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ كَانَ نَجَسًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ وَبَرَّه.

المثال السادس: جاء في الإصحاح العشرين مِنْ سفر اللاويين، ما يلي:

«٩ كُلُّ إِنْسَانٍ سَبَّ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ. قَدْ سَبَّ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ دَمُهُ عَلَيْهِ ١٠ وَإِذَا زَنَى رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ فَإِذَا زَنَى مَعَ امْرَأَةٍ قَرِيبِهِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ ...»

١٤ وَإِذَا اتَّخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَأُمُّهَا فَذَلِكَ رَذِيلَةٌ بِالنَّارِ يُحْرَقُونَهُ وَإِيَّاهَا لِكُنِّي لَا يَكُونُ رَذِيلَةٌ بَيْنَكُمْ....»

٢٧ وَإِذَا دَخَلَ فِي رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ جَانٌّ أَوْ تَابِعَةٌ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ. بِالْحِجَارَةِ يَرْجُمُونَهُ. دَمُهُ عَلَيْهِ».

إلى غير ذلك من أحكامٍ ثَقِيلَةٍ كانت على بني إسرائيل، وقد جاء في آخرِ إصحاحِ من سفرِ اللاويين، ما يلي:

«هَذِهِ الْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَى الرَّبُّ بِهَا مُوسَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي جَبَلِ سِينَاءَ».



قولُ اللَّهِ تعالى:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٧) ﴿:

هذا البيان من هذه الآية مُوجَّهٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ، فَلِكُلِّ النَّاسِ الْمَوْضُوعَيْنِ مَوْضِعُ الْامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَتَّى آخِرِ مُمْتَحَنٍ فِيهَا.

﴿قَالِذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾: أي: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِالرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَصَدَّقُوا بِقُلُوبِهِمْ وَأَذَعَنُوا وَاعْتَرَفُوا اعْتِرَافاً إِرَادِيّاً بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ.

«الفاء» لترتيب البيان الذي جاء بعدها على البشارة به في التوراة، وفي الإنجيل.

﴿وَعَزَّزُوهُ﴾: أي: وَعَظَّمُوهُ، وَوَقَّزُوهُ، وَأَعَانُوهُ، وَقَوَّوْهُ.

التَّعْزِيزُ: يَأْتِي فِي اللَّغَةِ بِمَعْنَى التَّوْقِيرِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّفْخِيمِ، وَالْإِعَانَةُ، وَالتَّقْوِيَةُ، وَالتَّنْصُرُ، وَهَذِهِ الْمَعَانِي هِيَ الْمُرَادَةُ هُنَا.

والمعاني الأخرى لهذه الكلمة في اللغة لا تلائم هُنَا.

﴿وَنَصَّرُوهُ﴾ أي: وَأَيَّدُوهُ وَأَعَانُوهُ ضِدَّ أَعْدَائِهِ وَخُصُومِهِ وَمُخَالَفِيهِ.

﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾: أي: وَاتَّبَعُوا الْقُرْآنَ الَّذِي هُوَ نُورٌ هِدَايَةِ الْعُقُولِ.

وَإِطْلَاقُ النُّورِ عَلَى الْقُرْآنِ هُوَ مِنْ قِبَلِ الْاسْتِعَارَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى تَشْبِيهِهِ الْهَدَايَةِ الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ، بِالْهَدَايَةِ الَّتِي تَكُونُ بِالنُّورِ الَّذِي يُزِيلُ الظُّلُمَاتِ، وَيَكْشِفُ السُّبُلَ وَالْمَوَاقِعَ.

وعبارة ﴿أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أَوْجَزَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا مَعْنَيْنِ:

• أَي: أُنْزِلَ عَلَيْهِ لِيُبَلِّغَهُ لِلنَّاسِ.

• فَهُوَ مَعَهُ، يَتْلُوهُ وَيُبَلِّغُهُ لِلنَّاسِ مَا دَامَ حَيًّا فِي الدُّنْيَا.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: هَذِهِ الْجُمْلَةُ خَبَرٌ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾. وما عُطِفَ عَلَى صِلَةِ الْمَوْضُول.

وفي هذه الجملة حَضَرَ اسْتِفِيدَ من تعريف طَرَفِي الإسناد، مَعَ ضَمِيرِ الْفَضْلِ: «هُم».

وَالْمَعْنَى: أُولَئِكَ وَخَذَهُمْ بَعْدَ بَعَثَةِ مُحَمَّدٍ هُمُ الثَّاجُونَ وَالظَّافِرُونَ الْفَائِزُونَ بِنَعِيمِ الْآخِرَةِ الْعَظِيمِ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.



من البشائر بالرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْوَارِدَةِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ:

لا تزال بعض البشائر بالنبيِّ الرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَكْتُوبَةً فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، عَلَى الرُّغْمِ مِمَّا تَعَرَّضَتْ لَهُ هَذِهِ الْكُتُبُ مِنْ تَحْرِيفٍ وَحَذْفٍ.

أولاً: جَاءَ فِي الْإِسْحَاحِ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ التَّنْثِيَةِ، خُطَاباً لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا يَلِي:

«١٨ أَقِيمْ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ وَأَجْعَلْ كَلَامِي فِي فَمِهِ فَيَكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أَوْصِيَهُ بِهِ ١٩ وَيَكُونُ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ لِكَلَامِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أَطَالِيَهُ...».

فِعْبَارَةً: [مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ] تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْمُبَشِّرَ بِهِ لَيْسَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَكَانَتِ الْعِبَارَةُ: «مِنْ وَسْطِهِمْ» لَا [مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ].

وَقَدْ ظَهَرَ فِي الْوَاقِعِ أَنَّهُ مِنَ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ أَوْلَادُ إِسْمَاعِيلَ، وَمَعْلُومٌ لَدَيْ الْجَمِيعِ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ هُوَ أَخُو إِسْحَاقَ لِأَبِيهِ، الَّذِي هُوَ جَدُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْجَدُّ الْأَعْلَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلِلْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ.

وعبارة: [وَأَجْعَلْ كَلَامِي فِي فَمِهِ] تَذُلْ عَلَى أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي يَتْلَقَاهُ عَنْ رَبِّهِ إِنَّمَا يَتْلَقَاهُ عَنْ طَرِيقِ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، فَيَنْطِقُهُ بِلسَانِهِ، وَلَا يَتْلَقَاهُ مَكْتُوبًا كَاللَّوْحِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثانياً: وجاء في الإضاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا ما يلي:

«١٥ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ ١٦ وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الْآبِ فَيُعْطِيَكُمْ مُعْزِياً آخَرَ لِيَمْكُنَّ مَعَكُمْ إِلَى الْأَبَدِ ١٧ رُوحَ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ لِأَنَّهُ لَا يَرَاهُ وَلَا يَعْرِفُهُ وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لِأَنَّهُ مَآكْتُ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ ١٨ لَا أَتْرُكُكُمْ يَتَامَى. إِنِّي آتِي إِلَيْكُمْ...».

وقد تتبّع علماء المسلمين، بمساعدة مَنْ أَسْلَمَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، نُسَخَ التَّوْرَةِ وَالزَّبُورِ وَالْإِنْجِيلِ، فَوَجَدُوا فِيهَا نَحْوَ مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ بَشَارَةً^(١).



مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (البقرة) مِنْ بَيَانِ الْعُقُوبَةِ الَّتِي رَتَبَهَا اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ:

لَمْ يَأْتِ فِي سُورَةِ (الأعراف) بَيَانٌ عَنِ الْعُقُوبَةِ الَّتِي رَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَلَكِنْ جَاءَ بَيَانٌ هَذِهِ الْعُقُوبَةِ فِي اللَّقَطَاتِ الْمُخْتَارَاتِ لِلْبَيَانِ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى وَقَوْمِهِ، فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ أَنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ يَتَّخِذُكُمْ الْعِجْلَ

(١) جاءت طائفة منها في كتاب «العقيدة الإسلامية وأسسه» للمؤلف. وجاء في كتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندي طائفة منها.

فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ .

هذا البيان تابع في سورة (البقرة) لخطاب بني إسرائيل، بعد بغثة
محمد ﷺ، ونزول القرآن عليه .

وقد أخرج هذا البيان إلى العهد المدني، وأنزل في أول سورة مدنية،
لوجود اليهود يومئذ في المدينة، ودعوتهم إلى دين الإسلام، والإيمان
بمحمد ﷺ وبما أنزل الله عليه، ولبدء احتكاك الرسول والمؤمنين بهم في
المدينة .

والمعنى : واذكروا يا بني إسرائيل نعمة الله عليكم، إذ عفا عن
أسلافكم في اتخاذهم العجل، بعد أن ألزمهم بإقامة حد القتل على من كان
قد أشرك منهم، باتخاذ العجل وعبادته .

﴿يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ : أي : عرضتم
أنفسكم لعقاب الله الشديد المرتب على الشرك به، وفي هذا دلالة على
أنهم لم يضروا الله بشركهم شيئاً، لأن الله جلّ جلاله وعظم سلطانه لا
يضره كفر الكافرين به، ولا معصية العصاة المجرمين، كما لا ينفعه إيمان
المؤمنين به، ولا طاعة المطيعين المسلمين، إنما هي أعمال الناس
يُحْصِيهَا اللَّهُ لَهُمْ، ثُمَّ يُوفِّيهِمْ جَزَاءَهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ
وَجَدَ غَيْرَ ذَٰلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ .

﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ : أي : فتوبوا من ذنوبكم العظيم الذي ارتكبتموه .

وهذه التوبة تكون بأن يعترفوا بالاثم العظيم الذي اقترفوه، وبأن
يسألوا ربهم أن يغفر لهم، وبأن يعزموا على عدم العودة إلى مثله، وبأن
يرجعوا إلى طاعة بارئهم .

البارئ : هو الخالق الذي يخلق لا على مثال سبق . قيل : ويختص

بَخَلَقِ الحَيَوَانَ غَالِبًا، لِمَا فِي خَلْقِهِ مِنْ إِدْعَاءٍ، وَقَلَمَا يُسْتَغْمَلُ فِي غَيْرِ الحَيَوَانَ.

قال ابنُ سَيِّدِهِ: بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ يَبْرُؤُهُمْ بَرَاءً وَبُرُوءًا، خَلَقَهُمْ: يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْجَوَاهِرِ وَالْأَعْرَاضِ. أَي: فِي الْمَادِّيَّاتِ وَغَيْرِ الْمَادِّيَّاتِ.

﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: أَي: فَمِنْ تَوْبَتِكُمْ وَرَجُوعِكُمْ إِلَى طَاعَةِ بَارِئِكُمْ أَنْ تُنْفِذُوا الْحَدَّ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، وَهِيَ أَنْ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، أَي: أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَهَذَا يَتَحَقَّقُ بِأَنْ يَقُومَ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا الْعِجْلَ بِقَتْلِ الَّذِينَ عَبَدُوهُ، وَبأنْ يَسْتَسْلِمَ الَّذِينَ عَبَدُوهُ لِلْقَتْلِ. وَيَتَحَقَّقُ بِأَنْ يَقُومَ الَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ بِقَتْلِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فِي سَاحَةِ وَاحِدَةٍ مُشْتَرَكَةٍ.

وَاتَّفَقَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِالِانْتِحَارِ، أَي: بِأَنْ يَقْتُلَ كُلُّ مَنْ عَبَدَ الْعِجْلَ نَفْسَهُ.

والتعبير عن أَنْفُسِ الْآخِرِينَ مِنَ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ بِأَنَّهَا أَنْفُسُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ تَعْبِيرٌ مُتَكَرِّرٌ فِي الْقُرْآنِ، لِإِشْعَارِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، بِأَنَّهُمْ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾: أَي: تَوْبَتُكُمْ إِلَى بَارِئِكُمْ ذَاتُ الْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ، وَقَتْلُكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ طَاعَةً لَهُ، خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَهُ، إِذْ يَرْفَعُ عَنْكُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ، وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا.

﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُّ الرَّحِيمُ﴾: الْفَاءُ فِي [فَنَابَ] تَعْطِفُ عَلَى مَحْذُوفٍ، أَي: فَأَطَاعَ أَسْلَافُكُمْ، فَتَابُوا إِلَى بَارِئِهِمْ، وَسَارَعُوا فِي تَنْفِيزِ قَتْلِ أَنْفُسِهِمْ مُسْتَسْلِمِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ فِي إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِمْ. فَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ تَوْبَتِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ، تَابَ عَلَيْهِمْ، وَرَفَعَ عَنْهُمْ تَنْفِيزَ حَدِّ الْقَتْلِ عَمَّنْ لَمْ يَقْتُلْ بَعْدَ مِنْهُمْ.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُّ﴾: أَي: إِنَّهُ وَخَدَهُ كَثِيرُ التَّوْبَةِ عَلَى عِبَادِهِ بِالمَغْفِرَةِ وَالْعَفْوِ وَجَمِيلِ الْإِحْسَانِ.

﴿الرَّحِيمُ﴾: أي: كثير الرَّحْمَةِ بعباده، وفي هذا تعميم بغد تخصيص،
إذ التوبة أثر من آثار الرحمة.

وفي وصف تنفيذ أمر الله لهم بأن يقتلوا أنفسهم نجد عند المفسرين روايتين، إحداهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والأخرى عن ابن عباس رضي الله عنه.

فروى ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه: «إن موسى عليه السلام لما قال لبني إسرائيل: ﴿يَقْتُولُوا أَنْفُسَكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَيَّ بَارِكُكُمْ﴾ قالوا له: مَا تَوَيْتُنَا؟. قَالَ: يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَأَخَذُوا السَّكَاكِينِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ أَخَاهُ، وَأَبَاهُ، وَابْنَهُ، لَا يُبَالِي مَنْ قَتَلَ، حَتَّى قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى: مُرْهُمْ فَلْيَرْفَعُوا أَيْدِيَهُمْ، وَقَدْ غَفَرَ لِمَنْ قُتِلَ، وَتَيَّبَ عَلَى مَنْ بَقِيَ».

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «أمر موسى قومه عن أمر ربّه أن يقتلوا أنفسهم، واختبأ الذين عكفوا على العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهن ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهن بعضاً، فانجلت الظلمة عنهن عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهن كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة».

هاتان روايتان لا تملك إثبات صحتهما أو صحة إحداهما، وليس في شيء منهما بيان أن النبي المعصوم أخبر به، فالله أعلم بما جرى، وبعده من قتل منهم في هذا التكليف الرباني الذي دلّت الآية على أن الله رفعه عنهم عقاب بذنبهم بتنفيذه صادقين في توبتهم.

أما ما جاء عند الإسرائيليين حول تنفيذ هذا التكليف الرباني، فنجد في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج:

«أَنَّ مُوسَى طَلَبَ مِنَ الْأَوْيَيْنِ أَنْ يَأْخُذُوا سُيُوفَهُمْ، وَيَمْرُوا مِنْ بَابِ

إِلَى بَابٍ فِي الْمَحَلَّةِ، وَيَقُومُوا بِالْقَتْلِ الَّذِي قَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَفَعَلَ
الْأَوِيُّونَ كَمَا قَالَ لَهُمْ مُوسَى، وَقُتِلَ مِنَ الشُّعْبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلَاثَةِ
آلَافٍ رَجُلٍ.

وَأَنَّ مُوسَى طَلَبَ مِنَ الْآوِيِّينَ أَنْ يَتَوَجَّهُُوا بِقَتْلَاهُمْ لِلرَّبِّ مِنْ أَبْنَائِهِمْ
وَأَخْوَانِهِمْ، لِيُعْطِيَهُمُ الرَّبُّ بَرَكَهً.

أي: مغفرةً وعفوًا.

وَأَنَّ مُوسَى سَأَلَ الرَّبَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَغْفِرَ خَطِيئَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.
وجاء فيه أيضاً:

أَنَّ الرَّبَّ ضَرَبَ الشُّعْبَ الْإِسْرَائِيلِيَّ لِأَنَّهُمْ صَنَعُوا الْعِجْلَ.

الْأَوِيُّونَ: هُمْ سِبْطُ مُوسَى هَارُونَ، وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ أَسْنَدَ إِلَيْهِمْ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْقِيَامَ بِالشُّؤْنِ الدِّيْنِيَّةِ.

وَلَكِنْ أَخْبَارُ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ فِي كُتُبِهِمْ قَدْ دَخَلَ فِيهَا تَحْرِيفٌ وَحَذَفٌ
كَثِيرٌ، وَيَضَعُوبُ انْتِقَاءُ الصَّحِيحِ مِنْهَا، وَمِنْ افْتِرَاءَاتِهِمْ فِي كُتُبِهِمْ ادِّعَاؤُهُمْ أَنَّ
هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الَّذِي صَنَعَ الْعِجْلَ لِבَنِي إِسْرَائِيلَ هُزْأً بِهِمْ، مَعَ أَنَّ
الَّذِي كَانَ صَاحِبَ فِثْنَةِ الْعِجْلِ هُوَ السَّامِرِيُّ، بِصُرِيحِ نَصِّ الْقُرْآنِ الَّذِي لَا
يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ.

ويظهر أنَّ عَدَدَ الْقَتْلَى الْوَاردِ فِيهِمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَلِيٍّ، وَفِيهِمَا
رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَدَدٌ مُبَالَغٌ فِيهِ جَدًّا، وَهَلِ الرِّوَايَةُ صَحِيحَةٌ
عَنْهُمَا؟!

فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْحَقِيقَةِ.



الفقرة السابعة

فقرة معترضة فيها تكليف الرسول محمد
بأن ينادي بأنه رسول الله للناس أجمعين

وهي الآية (١٥٨).

قال الله عز وجل:

﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ
الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

تمهيد:

هذه الآية آية معترضة أوقف الله عز وجل بها البيان المتعلق بقصة
موسى عليه السلام وقومه إيقافاً مؤقتاً، على مقدار كلماتها وجملها، وقد
دعا إلى الاعتراض بها اغتنام مناسبة الحديث عن الرسول النبي الأمي
محمد، الذي بشر الله به موسى عليه السلام وبني إسرائيل، إبان
مكالمة الله عز وجل موسى عليه السلام في الميقات الثاني، ميقات الاعتذار
والتوبة والاستغفار والشفاعة، ومعه السبعون المختارون من قومه بني
إسرائيل، ويجد بنو إسرائيل البشارة به مكتوبة عندهم في التوراة، والذين
آمنوا منهم بيسى عليه السلام يجدونها مكتوبة عندهم في الإنجيل.

فجاء في هذه الآية التفات عن متابعة البيان المتعلق بأحداث قصة
موسى وقومه، إلى خطاب الرسول محمد ﷺ إبان تنزيل السورة وما يتصل
به من أزمان لإحقاق، فالى خطاب الناس أجمعين، وفيهم بنو إسرائيل،
بدءاً من وقت التنزيل، واستمراراً مع أزمان الحياة الدنيا، ما دام فيها
ممتحنون مكلفون أن يؤمنوا بالله، وبسائر أركان القاعدة الإيمانية المبينة في
الإسلام، وأن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، فليخطب الله لعباده في القرآن
المجيد سنة الاستمرار والتجدد، ما دام في الوجود مغنيون به.

التدبر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾ (١٥٨)

يَأْمُرُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ رَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ يُنَادِيَ النَّاسَ جَمِيعًا، بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ.

وَيَأْسَلُوبُ غَيْرِ مُبَاشِرٍ يُخَاطَبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ جَمِيعًا بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ، خُطَابًا يَتَنَاوَلُ كُلَّ صَالِحٍ مِنْهُمْ لِلخُطَابِ بِصُورَةٍ إِفْرَادِيَّةٍ، فَيُعْلِمُ كُلَّ فَرْدٍ بِهِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُهُ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ، وَأَنْ يَتَّبِعَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِلنَّاسِ لِيَعْمَلُوا بِهَا، وَيَتَّبِعُوا مَا جَاءَ فِيهَا.

هَذَا الْأَمْرُ لِلرَّسُولِ الَّذِي جَاءَ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ لَا يَمْلِكُ الرَّسُولُ إِلَّا أَنْ يَقُولَهُ وَيُعْلِنَهُ، لِأَنَّهُ أَمْرٌ لِلزَّامِيِّ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَهُ.

لَقَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يُنَادِيَ النَّاسَ جَمِيعًا بِأَبْلَغِ أَدْوَاتِ النِّدَاءِ، فَيُعْلِمَهُمْ بِجَزْمٍ وَتَأَكِيدٍ قَائِلًا لَهُمْ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، أَي: دُونَ اسْتِثْنَاءِ قَوْمٍ، أَوْ شَعْبٍ أَوْ سُلَالَةٍ بَشَرِيَّةٍ، أَوْ أَيِّ شَخْصٍ مِنَ النَّاسِ أَهْلِ لِلخُطَابِ، وَدُونَ اسْتِثْنَاءِ أَيِّ مُنْتَمٍ لِدِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ السَّالِفَةِ.

وَجَاءَ التَّأَكِيدُ بِلَفْظِ ﴿جَمِيعًا﴾ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ اخْتِمَالِ اسْتِثْنَاءِ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ فِي عُمُومِ لَفْظِ: ﴿الْكَاسِ﴾.

وَجَاءَ تَأَكِيدُ الْإِسْنَادِ الْخَبَرِيِّ فِي الْجُمْلَةِ بِ«إِنَّ» - وَالْجُمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ -.

فَكُلُّ مَنْ بَلَغَهُ هَذَا النِّدَاءُ، وَكَانَ أَهْلًا لَخُطَابَاتِ التَّكْلِيفِ الرَّبَّانِيِّ، فَهُوَ مُكَلَّفٌ أَنْ يُؤْمِنَ بِهَذَا الرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَمُكَلَّفٌ أَنْ يُؤْمِنَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَيْهِ، وَأَنْ يَتَّبِعَهُ مُسْلِمًا مُطِيعًا، وَأَنْ يَتَّبِعَ مَا أَنْزَلَ إِلَى النَّاسِ مِنْ رَبِّهِمْ.

● ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ ۞﴾ (١٥٨) :

هذه العبارة تابعة لما أمر الله به رسوله محمداً أن يُنادي الناس به، وقد جاء في هذه العبارة وصف الله عز وجل بما يقتضي عقلاً وجوب الإيمان بالرَّسول الذي يُرسله، إذا كان معه برهانٌ صدق نبوته ورسالته، ووجوب اتباعه، ووجوب العمل بما جاء به عن ربه من آيات وأحكام وتكاليف.

الصفة الأولى: دل عليها: ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ ۞﴾: أي: هو المالك والمَلِكُ للسموات والأرض وما فيهما ومن فيهما.

يُقَال لغة: مَلَكَ الشيءَ يَمْلِكُهُ مِلْكاً ومُلْكاً ومَلَكاً، إذ حازَهُ، وانْفَرَدَ بِحَقِّ التَّصَرُّفِ فيه، وكانَ له على الأحياء المذَرَكَةِ فيما مَلَكَ مِنْ ذوات العِلْمِ، سُلْطَانُ الأَمْرِ والنَّهْيِ وسائر التصرفات.

ومن كان له مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ومن فيهما، كانَ النَّاسُ في الأَرْضِ عِبْدَهُ، إذ هو مالِكُهُمْ، وهو المَلِكُ ذُو السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وهو رَبُّهُمْ الَّذِي يُمِدُّهُمْ دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَيُهَيِّمُنْ عَلَيْهِمْ بِالْإِتِّلَاءِ وبالمحاسبة والجزاء.

فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ إِلَيْهِمْ، وَيَتَّبِعُوهُ وَيُطِيعُوهُ، فَإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ كَانُوا عُصَاةَ كَافِرِينَ بِاللَّهِ، وَاسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ الَّذِي قَرَّرَهُ وَحَكَمَ بِهِ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِرَسُولِهِ.

الصفة الثانية: دل عليها: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ ۞﴾: أي: لَآ مَعْبُودَ فِي الوجود بِحَقِّ سِوَاهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الشُّرَكَاءِ.

وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، كانَ هُوَ الرَّبُّ الَّذِي يجب على عباده أَنْ يَغْبُدُوهُ وَخَدَهُ، وَأَنْ لَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أَحَداً، وَالَّذِي يجب على عباده أَنْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ وَيَتَّبِعُوهُ.

الصِّفَةُ الثالثة: دَلَّ عليها: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: أي: وَالَّذِي يُحْيِي الْأَحْيَاءَ على اختلاف أنواعها وَرُتَبِهَا فِي سُلَّمِ الْحَيَاةِ، وَيُمِيتُهَا بِنَزْعِ مَا بِهِ تَكُونُ حَيَاتُهَا، وَهِيَ الرُّوحُ الَّتِي هِيَ مِنْ أَمْرِ التَّكْوِينِ.

فَالْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ ظَاهِرَتَانِ مُتَكَرِّرَتَانِ فِي عَالَمِ الْمَخْلُوقَاتِ الْقَابِلَاتِ لِلْحَيَاةِ، وَمَا أَحَدٌ يَدَّعِي أَنَّهُ يَمْنَحُ الْحَيَاةَ لِمَادَّةٍ لَا حَيَاةَ فِيهَا. أَوْ لشيءٍ مَغْنَوِيٍّ لَا حَيَاةَ فِيهِ. وَلَوْ ادَّعَى ذَلِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ.

وَمَا أَحَدٌ يَدَّعِي أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِدَامَةِ الْحَيَاةِ وَإِبْقَائِهَا فِي حَيٍّ انْتَهَى أَجَلُهُ فِي الْحَيَاةِ، وَدَعَاؤُهُ دَاْعِي الْمَوْتِ، مَهْمَا اتَّخَذَ لِذَلِكَ مِنْ وَسَائِلَ، وَلَوْ أَنْفَقَ مِْلَاءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا، أَوْ مَا هُوَ أَثْمَنُ مِنَ الذَّهَبِ.

ولهذا اقتصر ادعاء منكري وجود الله الرَّبِّ الْخَالِقِ جَلَّ جلاله وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ، عَلَى أَنَّ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ ظَاهِرَتَانِ طَبِيعَتَانِ فِي الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ، وَأَنَّ الْمَوْتَ غَايَةٌ كُلِّ حَيٍّ حَتْمًا.

وَحِينَ حَاوَلَ عُلَمَاؤُهُمْ تَحْوِيلَ مَادَّةٍ لَا حَيَاةَ فِيهَا، إِلَى كَائِنٍ حَيٍّ مِنْ أَذْنَى الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ حَابُوا، وَقَدْ بَدَّلَتْ دُولُهُمْ فِي ذَلِكَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ عَلَى الْمُخْتَبِرَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَتَابَعُوا بُحُوثَهُمْ طَوَالَ عَشْرَاتِ السِّنِينَ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَوْجِدُوا خَلِيَّةً وَاحِدَةً حَيَّةً مِنْ مَادَّةٍ غَيْرِ ذَاتِ حَيَاةٍ، وَبَاؤُوا بِالْخَيْبَةِ، فَضَلَّ عَنْ أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابَةً، وَأَعْلَنُوا قَرَارَهُمْ الْمَوْافِقَ لِقَرَارِ سَائِرِ عُلَمَاءِ الْأَحْيَاءِ فِي الْعَالَمِ قَائِلِينَ: إِنَّ الْحَيَاةَ لَا تَوْجَدُ إِلَّا اسْتِثْقَاقًا مِنْ حَيَاةٍ سَابِقَةٍ لَهَا.

لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ الْوَاقِعُ فِي الْوُجُودِ عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ لَمْ يَكُنْ إِثْبَاتُ أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي وَيُمِيتُ بِحَاجَةٍ إِلَى مُؤَكَّدَاتٍ فِي الْبَيَانِ الْكَلَامِيِّ، وَلَا إِلَى صِغَةٍ مِنْ صِغَةِ الْحَضَرِ، إِذِ الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ ظَاهِرَتَانِ مُشْهُودَتَانِ، لِخَالِقٍ غَيْبِيِّ غَيْرِ مُشْهُودٍ، وَهَذَا الْخَالِقُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، بِدَيْعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قول الله تعالى :

﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨) :

هذا خطابٌ مُبَاشِرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلنَّاسِ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِتِّلَاءِ، لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ.

وفي هذا الخطاب ثلاث مَطَالِبٍ، يُوجِّهُهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ عَمُومًا مَتَنَاوَلَةً كُلَّ شَخْصٍ مِنَ النَّاسِ الْمُقْصُودِينَ بِهِ، فَهُوَ مُخَاطَبٌ بِهَا إِفْرَادِيًّا وَمَعَ سَائِرِ النَّاسِ الْمَغْنِيِّينَ بِالْخَطَابِ، وَخَتَامٌ تَرْغِيْبِي.

● **المطلب الأول:** ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ﴾ : أي: فيا أيُّهَا النَّاسُ آمِنُوا بِاللَّهِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ.

● **المطلب الثاني:** ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ : أي: وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي سَبَقَتْ الْبَشَارَةُ بِهِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ.

وقد سبقَ في الفقرة السَّادِسَةِ تحليلُ كونه رَسُولًا نَبِيًّا أُمِّيًّا.

وجاء في هذه الفقرة السَّابِعَةِ إِضَافَةٌ كَوْنَهُ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبِكَلِمَاتِهِ.

أي: وَأَعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ مُكَلِّفٌ أَيْضًا أَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، كَمَا أَنَّكُمْ مُكَلَّفُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَبِمَا أَنَّهُ رَسُولٌ مُجْتَبَى لَا يَعْصِي اللَّهَ فِيمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ أُسْوَةٌ لِلنَّاسِ، فَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَيُؤْمِنُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الْمَمْرُؤَاتِ عَلَيْهِ فِي آيَاتِهِ النَّبِيَّاتِ، وَلَيْسَ هُوَ مُجَرَّدَ أَدَاةٍ نَقْلِ وَتَبْلِيغٍ.

إِنَّهُ عَبْدٌ مُبْتَلَى مُكَلِّفٌ، مَغْضُومٌ بِعِصْمَةِ اللَّهِ عَنِ الْمَعَاصِي الَّتِي تَقَعُ فِي حُدُودِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى، وَعَلَيْهِ تَكَالِيفٌ زَائِدَةٌ، هِيَ مِنْ حُدُودِ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ وَمَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ.

● **المطلب الثالث:** ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾: أي: وسيروا في أثر هذا الرسول، مُقْتَدِينَ مُتَّاسِينَ بِهِ، مُهْتَدِينَ بِهَدْيِهِ، فَهُوَ النُّمُودَجُ الْأَمْثَلُ، الَّذِي جَعَلْنَاهُ لَكُمْ، لِيَتَّاسُوا بِهِ، وَتَقْتَدُوا فِي سُلُوكِكُمْ فِي الْحَيَاةِ بِسُلُوكِهِ، وَفِي أَخْلَاقِكُمْ بِأَخْلَاقِهِ، وَفِي آدَابِكُمْ بِآدَابِهِ.

وَإِذَا اسْتَعْرَضْنَا مَا جَاءَ فِي السُّورَةِ مِنْ تَكَالِيفٍ عَظُمَى، مُوجَّهَةً مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، حَتَّى هَذِهِ الْآيَةُ، وَجَدْنَاهَا تَكْلِيفَيْنِ أَعْظَمَيْنِ:

التكليف الأول: وَجُوبُ اتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وَيَكُونُ هَذَا الْإِتِّبَاعُ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَيَدْخُلُ فِيهِ طَاعَةُ الرَّسُولِ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أُنْزِلَ فِي كِتَابِهِ.

التكليف الثاني: وَجُوبُ اتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَيَكُونُ هَذَا الْإِتِّبَاعُ بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خُصُوصِيَّاتِهِ بِالنَّصِّ.

● **الختم الترغيبى:** ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: أي: أَمَرْنَاكُمْ بِأَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَنْ تَتَّبِعُوهُ، رَاغِبِينَ فِي أَنْ تَهْتَدُوا بِتَنْفِيدِ مَا أَمَرْنَاكُمْ بِهِ، لِنُخَكِّمَ لَكُمْ بِالْهِدَايَةِ، فَتُنَبِّئَكُمْ عَلَى مَا كَسَبْتُمْ ثَوَابًا جَزِيلًا، فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ.

لَعَلَّ: أَضَلُّ مَعْنَاهَا التَّوَقُّعُ وَالتَّرَجُّيُّ، وَهِيَ تُحْمَلُ بِالنُّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَعْنَى الرَّغْبَةِ وَالرِّضَا، لِأَنَّ الْمَرْجُوَّ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْحَسَنَةِ مَرْغُوبٌ فِيهِ، وَيُسْتَقْبَلُ بِالرِّضَا. وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَلَا يَرْضَى لَهُمُ الْكُفْرَ وَالْعَمَلَ السَّيِّئَ.

وَهَذَا مِنْ إِطْلَاقِ اللَّفْظِ عَلَى لَازِمٍ مَعْنَاهُ، وَيَدْخُلُ فِي دَائِرَةِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ.



الفقرة الثامنة

من مَنَى الله على بني إسرائيل في التَّيَّةِ

تقطيعهم إلى أسباط - أسقاؤهم بآية خارقة - تظليلهم بالغمام -
إطعامهم المَنَ والسَّلوى .

الآيتان (١٥٩ - ١٦٠) .

قال الله عز وجل :

﴿وَمِنْ قَوْرِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَمْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ يَضُرِبَ بِعَصَاكَ الْكَعْبَةَ فَتَأْتِيَجْثَ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ﴿١٦٠﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ .

القراءات :

(١٦٠) • قرأ أبو عمرو بِكسْرِ الهاءِ والميم في : [عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ] وفي [عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ] .

وقرأ حَمْزَةً والكسائي، وَيَعْقُوبُ، وخلف بِضَمِّهِمَا فيهما : [عَلَيْهِمُ] .

وقرأ باقي القراء العشرة بِكسْرِ الهاءِ وَضَمِّ الميم فيهما : ﴿عَلَيْهِمْ﴾ .

وهذه وجوهٌ عربيةٌ لُنُطْقِ هاءِ الضمير والميم الذي بعده علامةٌ للجمع .

التدبر التحليلي :

قول الله تعالى :

﴿وَمِنْ قَوْرِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ :

جاء هذا البيان الرباني استِذْراكاً الدِّفْعِ تَوْهُمِ أَنَّ كُلَّ قَوْمِ مُوسَىٰ الَّذِينَ

كَانُوا مَعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالرَّسَالَةِ التَّغْدِيلِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَبْقَ بِهَا لِمُوسَى قَوْمٌ مُعْتَرِفٌ بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ، كَانُوا سَيِّئِينَ، أَمْثَالَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ، أَوْ أَمْثَالَ الْمُقْصِرِينَ الْمُتَهَاوِنِينَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْأَخْذِ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ.

بَلْ كَانَ مِنْهُمْ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾: المرادُ بهم الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَا كُلُّ مَنْ دَعَاهُمْ مُوسَى إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ، كَالْمُضِرِّينَ، وَلَا كُلُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣)

﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾: أي: عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَمَلَئِهِمْ مِنْ كِبَرَاءِ الْمُضِرِّينَ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ آلِهِ، وَفِي عَوْدِ الضَّمِيرِ عَلَى فِرْعَوْنَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ مَعَ آلِهِ بِمَثَابَةِ فِرْعَوْنَ وَاحِدٍ، إِذْ كَانُوا يَخْكُمُونَ شُعْبَ مَضَرَ كَجَسَدٍ فِرْعَوْنِيٍّ وَاحِدٍ.

﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾: أي: أَنْ يُعَذِّبَهُمْ لِاتِّبَاعِهِمْ مُوسَى وَالَّذِينَ الَّذِينَ دَعَا إِلَيْهِ.

﴿أُمَّةٌ﴾: يُطْلَقُ لَفْظُ الْأُمَّةِ فِي الِاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ عَلَى كُلِّ مَجْمُوعَةٍ تَجْمَعُهَا صِفَاتٌ أَوْ خَصَائِصٌ أَوْ رَوَابِطٌ مُتَمَيِّزَةٌ.

وَالْفَرِيقُ مِنَ الْأُمَّةِ إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى رَأْيٍ مُتَمَيِّزٍ تُطْلَقُ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ «أُمَّةٌ». حَتَّى الْفَرْدُ الْوَاحِدُ الْمُتَمَيِّزُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ أُمَّةٌ وَخَدَهُ.

﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾: أي: هُمْ دُعَاةٌ يَدْعُونَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَيَهْدُونَ النَّاسَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَتَّخِذُونَ وَسِيلَةً بَاطِلَةً لِّمَا يَقُومُونَ بِهِ مِنْ هِدَايَةٍ، بَلْ يَتَّخِذُونَ وَسَائِلَ مِنَ الْحَقِّ، فَهُمْ يَنْصُرُونَ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وَيَهْدُونَ إِلَى الْحَقِّ بِالْحَقِّ.

معنى «الباء» في عبارة: «بِالْحَقِّ» الاستعانة.

﴿وَبِهِ يَهْدِلُونَ﴾: أي: وَبِالْحَقِّ يَغْدِلُونَ، إِذَا حَكَّمُوا بَيْنَ النَّاسِ، أَوْ قَضَوْا بَيْنَ الْخُصُومِ.

فَهُمْ يَسْتَعِينُونَ بِالْحَقِّ وَبِالنَّظَرِ الثَّاقِبِ إِلَيْهِ، لِمَعْرِفَةِ وَجْهِ الْعَدْلِ الَّذِي يَحْكُمُونَ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَلِمَعْرِفَةِ وَجْهِ الْعَدْلِ الَّذِي يَقْضُونَ بِهِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ.

وهذه شهادة من الله عزَّ وجلَّ لهذا الفريق من قومِ مُوسَى، الَّذِي تَصَحَّحَ نِسْبَتُهُمْ إِلَيْهِ، وَاعْتَبَارُهُمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمُتَّبِعِينَ لَهُ، بِأَنَّهُمْ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ، وَيَغْدِلُونَ بِالْحَقِّ، فَهُمْ بِصِفَاتِهِمْ أُمَّةٌ لِلْمُتَّقِينَ وَإِنْ كَانُوا أَعْدَادًا قَلِيلَةً فِي عُصُورِهِمْ، أَزْرَارٌ أَوْ مُحْسِنُونَ.

أَمَّا الَّذِينَ بَقُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى يَهُودِيَّتِهِمْ بَعْدَ بَغْيَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِعِيسَى، وَلَمْ يَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، فَلَيْسَ فِيهِمْ حَتْمًا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَغْدِلُونَ، لِأَنَّهُمْ قَدْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى بِالْكَفْرِ بِعِيسَى، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ بَعْدَ بَغْيَتِهِ، مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ آمَنُوا بِعِيسَى وَاتَّبَعُوهُ، لَيْسَ فِيهِمْ حَتْمًا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَغْدِلُونَ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَبِسَبَبِ عَدَمِ اتِّبَاعِهِمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

وقدَّم لفظ ﴿بِهِ﴾ على لفظ ﴿يَغْدِلُونَ﴾ مُرَاعَاةً لَفْتِيَّةِ التَّنَاسُقِ فِي رُؤُوسِ الْآيَاتِ.

قول الله تعالى :

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَئَ عَشْرَةَ أَسْبَابًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَزَلَّنا عَلَيْهِمُ السَّمَكُ وَالسَّلَوى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٦﴾﴾ :

جاءت هذه الآية في سورة (الأعراف) حديثاً إخبارياً عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ثُمَّ خَاطَبَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَعْظَمِ مَا جَاءَ فِي فِقْرَاتِهَا، مُمْتَنِّاً عَلَيْهِمْ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَىٰ أَجْدَادِهِمْ، مَعَ زِيَادَةِ الْبَيَانِ، فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أَوَّلِ سُورَةٍ نَزَلَتْ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَيْهَا مُخَاطَباً بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيهَا :

﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَزَلَّنا عَلَيْهِمُ السَّمَكُ وَالسَّلَوى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

وقال تعالى فيها أيضاً مُتَابِعاً امْتِنَانَهُ عَلَيْهِمْ :

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦١﴾﴾ .

أي : وضعوا في ذاكراتكم مَنَّةَ اللَّهِ عَلَىٰ أَجْدَادِكُمْ فِي حَادِثَةِ السَّقْيَا بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ، وَطَلَبِ مُوسَىٰ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُسْقِيَهُمْ بَعْدَ أَنْ طَلَبُوا مِنْهُ السَّقْيَا.

وقد اشتمل هذا الذي جاء في سورة (الأعراف) مَعَ هَذَا الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (البقرة) عَلَىٰ بَيَانِ سَبْعِ قَضَايَا :

القضية الأولى : قول الله تعالى في (الأعراف) : ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَئَ عَشْرَةَ

أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴿٥٩﴾: أي: وَقَسَمْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهَم فِي سَيْنَاءَ بِقِيَادَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قِسْمًا بِحَسَبِ أَصْبَاطِهِمْ، فَكَانُوا بِمَثَابَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُمَّةً.

وَالسُّبُطُ عَنْدهُمْ بِمَثَابَةِ الْقَبِيلَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ، فَالسُّبُطُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبِيلَةٌ تَنْتَبِئُ إِلَى جَدٍّ مِنْ أَجْدَادِهِمْ، أَوْلَادٌ يَغُفُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَام (وَهُوَ إِسْرَائِيلُ) أَوْ أَوْلَادُ أَوْلَادِهِ.

أقول: وَكَانَ هَذَا تَوْجِيهًا رُبَانِيًّا لِلْقِيَامِ بِتَنْظِيمِ إِدَارِيٍّ يَتِمُّ بِهِ تَرْتِيبُ الْجَيْشِ الَّذِي سَيُكَلَّفُ أَنْ يَدْخُلَ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، مُقَاتِلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَعَ مَا فِي هَذَا التَّقْسِيمِ الْإِدَارِيِّ مِنْ تَنْسِيرِ مَصَالِحِ الْإِقَامَةِ وَالْإِرْتِحَالِ، وَتَوْجِيهِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَتَحْدِيدِ إِقَامَةِ كُلِّ سِبْطٍ، وَمَعْرِفَةِ كُلِّ سِبْطٍ لَوُظَائِفِهِ وَمَسْئُولِيَّاتِهِ، وَتَبْلِيغِ الْأَسْبَاطِ عَنْ طَرِيقِ رُؤَسَائِهِمْ مَا يَقْتَضِيهِ الْوَاجِبُ، أَوْ تَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ، تَبْلِيغُهُمْ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، أَوْ مِنْ أُمُورِ الْإِدَارَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْرَائِيلِيِّ.

وَفِي تَفْصِيلِ هَذَا التَّقْسِيمِ جَاءَ عِنْدَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ فِي كُتُبِهِمْ مَا يَلِي:

(١) جَاءَ فِي الْإِضْحَاحِ الْأَوَّلِ مِنْ سِفْرِ الْعَدَدِ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: «أَنَّ الرَّبَّ كَلَّمَ مُوسَى فِي بَرِّيَّةِ سَيْنَاءَ، فِي خَيْمَةِ الْاجْتِمَاعِ، فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ الثَّانِي، فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لَخُرُوجِهِمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ قَائِلًا: أَخْضُوا كُلَّ جَمَاعَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بِعَشَائِرِهِمْ، وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ، كُلِّ ذَكَرٍ بِرَأْسِهِ، مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلِّ خَارِجٍ لِلْحَزْبِ فِي إِسْرَائِيلَ، تَحْسُبُهُمْ أَنْتَ وَهَارُونَ حَسَبَ أَجْنَادِهِمْ، وَيَكُونُ مَعَكُمْ رَجُلٌ لِكُلِّ سِبْطٍ. رَجُلٌ هُوَ رَأْسُ لَبَيْتِ آبَائِهِ».

(٢) وَجَاءَ فِي الْإِضْحَاحَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنَ سِفْرِ الْعَدَدِ «أَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ وَرُؤَسَاءَ أَصْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْإِثْنَيْنِ عَشَرَ قَدْ قَامُوا بِهَذَا الْإِخْصَاءِ.

أَمَّا سِبْطُ مُوسَى وَهَارُونَ وَهُمْ الْأَوْيُونَ فَلَمْ يَدْخُلُوا فِي إِخْصَاءِ الْأَجْنَادِ

يَحْسَبِ قَبَائِلُهُمْ، لَأَنْهُمْ كَلَّفُوا أَنْ يَكُونُوا وَكَلَاءَ عَلَى خِيَمَةِ الْاجْتِمَاعِ الْكُبْرَى
«مَسْكِنِ الشَّهَادَةِ. كما يُسَمُّونَهُ» وَهُوَ فِي وَسْطِ مُخِيَمَاتِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ بِمَنَابَةِ
الْمَعْبَدِ الْكَبِيرِ وَقَصْرِ الْحَكَمِ، لِكُنْهٖ قَابِلٌ لِلثَّقْلِ فِي الْبَرِّيَّةِ حَيْثُ انْتَقَلُوا وَحَيْثُ
ازْتَحَلُّوا، لَأَنْهُمْ صَارُوا بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مَضَرٍ كَالْبُدُو يَنْتَقِلُونَ وَيَزْتَحِلُّونَ،
وَلَا يَتَّوْنُ أَثْنِيَّةً ثَابِتَةً.

فَخُصَّ اللَّأَوِيُّونَ بِأَنْ يَكُونُوا وَكَلَاءَ عَلَى مَسْكِنِ الشَّهَادَةِ، يَحْمُونَهُ
وَيَحْمِلُونَهُ عِنْدَ الْإِزْتِحَالِ، وَيُقِيمُونَهُ عِنْدَ التُّزُولِ، وَهُمْ يَنْزِلُونَ حَوْلَهُ، وَسَطَ
مَنَازِلِ سَائِرِ الْأَسْبَاطِ.

وَكَانَ هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَزيراً لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الشُّؤُنِ الدِّيْنِيَّةِ
وَمَرَّاسِيْمِهَا وَشَعَائِرِهَا، عَلَى مَا يَقُولُونَ.

وَكَانَ سِبْطُ لَأَوِي هُمُ الْمَقْدَمِينَ وَرَاءَ الرُّسُولِ هَارُونُ يَخْدُمُونَهُ،
وَيَحْفَظُونَ شَعَائِرَهُ وَشَعَائِرَ كُلِّ الْجَمَاعَةِ، قُدَّامَ خِيَمَةِ الْاجْتِمَاعِ، وَيَخْرُسُونَ
كُلَّ أَمْتِعَتِهَا.

فَيَبْدُو أَنْ وَظَائِفَ الْكَهَانَةِ الدِّيْنِيَّةِ كَانَتْ مَوْكُولَةً لِلأَوِيِّينَ، وَرُبَّمَا كَانَتْ
فِيهِمْ أَيْضاً وَظَائِفُ الْمَهْمَّاتِ الْإِدَارِيَّةِ الْعَامَّةِ.

وَإِذْ فُرِزَ اللَّأَوِيُّونَ لِهَذِهِ الْمَهْمَّاتِ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي إِخْصَاءِ الْأَجْنَادِ فَقَدْ
بَقِيَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَحَدَ عَشَرَ سِبْطاً مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَعْدَ
«لَأَوِي وَذُرِّيَّاتِهِ».

لَكِنَّ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، جَعَلَا سَلَالَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
سِبْطَيْنِ، أَي: قَبِيلَتَيْنِ، إِذْ كَانَ لَهُ وَلَدَانِ: «أَفْرَايِمُ» وَ«مَنْشَى». وَبِهَذَا عَادَ
مَجْمُوعُ الْأَسْبَاطِ الْمَقْسَمَةِ فِي الْإِخْصَاءِ إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ سِبْطاً، أَي: إِلَى اثْنَيْ
عَشَرَ قَبِيلَةً.

وَاقْتَضَى هَذَا التَّقْسِيمَ تَرْتِيبَ مَنَازِلِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ إِلَى أَحْيَاءَ، وَتَنْظِيمِ

حَرَكَهٖ ارْتَحَالَهَا عِنْدَ الْاَزْتِحَالِ، وَتَمَيَّزَ كُلُّ حَيٍّ مِنْ هَذِهِ الْأَحْيَاءِ بِرَايَةٍ تُرْفَعُ فِي الْحَيِّ.

وُقُسِّمَتْ أَطْرَافُ دَائِرَةِ الْوَسْطِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَحْيَاءَ، شَرْقِيَّةٍ، وَغَرْبِيَّةٍ، وَجَنُوبِيَّةٍ، وَشَمَالِيَّةٍ، وَوُزِعَ عَلَى كُلِّ حَيٍّ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَسْبَاطٍ.

فالحَيِّ الأول: يَجْمَعُ سِبْطُ «رُّؤُوبِينَ» بَرِّئَاةَ «أَلْيَصُورِ». وَسِبْطُ «شِمْعُونَ» بَرِّئَاةَ «شَلُومِيثِلَ». وَسِبْطُ «جَادَ» بَرِّئَاةَ «أَلْيَاسَافَ».

وَتُسَمَّى مَحَلَّتُهُمْ: «مَحَلَّةُ رُّؤُوبِينَ» وَرَايَتُهَا رَايَةُ «مَحَلَّةِ رُّؤُوبِينَ».

وَعِنْدَ الْاَزْتِحَالِ يَزْتَحِلُّ هَؤُلَاءِ ثَانِيًا.

والحَيِّ الثاني: يَجْمَعُ سِبْطُ «يَهُودَا» بَرِّئَاةَ «نَحْشُونِ». وَسِبْطُ «يَسَّاكِرَ» بَرِّئَاةَ «نَثْنَائِيلَ». وَسِبْطُ «زَبُولُونَ» بَرِّئَاةَ «أَلْيَافَ».

وَتُسَمَّى مَحَلَّتُهُمْ: «مَحَلَّةُ يَهُودَا» وَرَايَتُهَا رَايَةُ «مَحَلَّةِ يَهُودَا».

وَعِنْدَ الْاَزْتِحَالِ يَزْتَحِلُّ هَؤُلَاءِ أَوَّلًا.

والحَيِّ الثالث: يَجْمَعُ سِبْطُ «أَفْرَايِمَ» بَنُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَرِّئَاةَ «أَلْيَشْمَعُ». وَسِبْطُ «مَنْشَى» بَنُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَرِّئَاةَ «جَمْلِيثِيلَ».

وَسِبْطُ «بَنِيَامِينَ» بَرِّئَاةَ «أَيَّدَنَ».

وَتُسَمَّى مَحَلَّتُهُمْ «مَحَلَّةُ أَفْرَايِمَ» وَرَايَتُهَا رَايَةُ «مَحَلَّةِ أَفْرَايِمَ».

وَعِنْدَ الْاَزْتِحَالِ يَزْتَحِلُّ هَؤُلَاءِ ثَالِثًا.

والحَيِّ الرابع: يَجْمَعُ سِبْطُ «دَانَ» بَرِّئَاةَ «أَخْيَعَزَرَ». وَسِبْطُ «أَشِيرَ» بَرِّئَاةَ «فَجْعِيثِيلَ». وَسِبْطُ «نَفْتَالِي» بَرِّئَاةَ «أَخِيرَعَ».

وَتُسَمَّى مَحَلَّتُهُمْ: «مَحَلَّةُ دَانَ» وَرَايَتُهَا رَايَةُ «مَحَلَّةِ دَانَ».

وَعِنْدَ الْاَزْتِحَالِ يَزْتَحِلُّ هَؤُلَاءِ آخِرًا.

فالظاهر أن الله عز وجل يُشيرُ إلى هذه التقسيماتِ التنظيمية الإدارية،
بقوله عز وجل في سورة (الأعراف):

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشَرَ أَسْبَابًا أُمًّا﴾ :

أي: وقَطَعْنَاهُمْ بتنظيم إداري اثنتي عشرة قِطْعَةً، حُدِفَتْ لِفْظَةً «قِطْعَةً»
من العبارة إيجازاً.

ولفظ: ﴿أَسْبَابًا﴾ بَدَلٌ من ﴿أَثْنَتَيْ عَشَرَ﴾ ولفظ ﴿أُمًّا﴾ عَطْفُ
بيان، أو هُما حَالَانِ من ضَمِيرٍ: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾.

القضية الثانية: قولُ الله تعالى في سورة (الأعراف): ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى
مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا
عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ...﴾ (١١٠) .

وقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا
اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَشْرِبَهُمْ...﴾ (٦١) .

هذان النِّصَّانِ مُتَكَامِلَانِ ببعض ما جاء فيهما، ومتطابقان أو مُتَمَاثِلَانِ
ببعض ما جاء فيهما:

فما جاء في سورة (الأعراف): ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ
قَوْمُهُ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ . فَدَلٌّ على أن قومه
طلبوا منه السَّقْيَا.

وما جاء في سورة (البقرة): ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا
اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ . فَدَلٌّ على أنه سأل رَبَّهُ أن يُسْقِيَ قومه.

وبالجمع التكاملي بين العبارتين تَكُونُ العبارة كما يلي: وَإِذِ اسْتَسْقَى
مُوسَى لِقَوْمِهِ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ.

﴿أَسْتَسْقَى﴾: طَلَبَ السُّقْيَا، أي: الماء الدائم الذي يستقي منه بنو إسرائيل.

﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ كما جاء في (الأعراف): أي: فانشَقَّتْ من الحَجَرِ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، يَخْرُجُ من كُلِّ عَيْنٍ مِنْهَا الماء.

[انْبَجَسَ]: فعل مُطَاوَعٌ لِفِعْلِ «بَجَسَ» يقال لغة: بَجَسَهُ، يَنْبِجُسُهُ وَيَنْبُجُسُهُ بَجْسًا، فَانْبَجَسَ. الْبَجْسُ: شَقٌّ فِي قِرْبَةٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ أَرْضٍ يَنْبُغُ مِنْهُ الْمَاءُ، فَإِنْ لَمْ يَنْبُغْ مِنْهُ الْمَاءُ فَلَيْسَ انْبِجَاسًا، وَلَا يَشْتَرِطُ فِي نَبْغِ الْمَاءِ بِالانْبِجَاسِ تَفْجُرُهُ وَتَدْفُقُهُ.

﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ كما جاء في (البقرة): أي: فَخَرَجَ الْمَاءُ بِتَدْفُقٍ مِنَ الْحَجَرِ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، يَتَدَفَّقُ مِنْ كُلِّ عَيْنٍ مِنْهَا الْمَاءُ.

وقد جعل الله عَزَّ وَجَلَّ ضَرْبَ مُوسَى الْحَجَرِ بِعَصَاهُ، وَسِيلَةَ صُورِيَّةٍ لِإِجْرَاءِ آيَتِهِ الْإِعْجَازِيَّةِ. وكذلك سائر أحوال ضرب موسى العصا ليجري الله آياته وعجائبه الإعجازية.

فَدَلَّ التَّكَامُلُ بَيْنَ عِبَارَتِي ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ و﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ عَلَى أَنَّهُ حَصَلَ انْشِقَاقٌ فِي الْحَجَرِ أَوَّلًا، فَسَالَ الْمَاءُ انْبِجَاسًا عَادِيًّا مِنَ الْعُيُونِ الْاثْنَتَيْنِ عَشْرَةَ، وَعَقِبَ هَذَا صَارَ الْمَاءُ يَتَفَجَّرُ بِتَدْفُقٍ، وَصَارَ يَشُقُّ أَنْهْرًا عَلَى مَقَادِيرِ الْمِيَاهِ الَّتِي تَتَدَفَّقُ مِنَ الْعُيُونِ، الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْحَجَرِ، آيَةً مِنْ الْآيَاتِ الْإِعْجَازِيَّةِ الَّتِي آتَاهَا اللَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، سُقْيَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ.

«ال» فِي الْحَجَرِ لِلْعَهْدِ، وَاعْتَبَارَهَا لِلْجَنَسِ مُسْتَبَعَدٌ هُنَا، وَالْعَهْدُ يُشِيرُ إِلَى حَدِيثٍ سَابِقٍ مِنَ اللَّهِ.

وَالْفَاءُ الْعَاطِفَةُ فِي الْعِبَارَتَيْنِ، هِيَ الْفَاءُ الْفَصِيحَةُ الَّتِي تَعْطِفُ عَلَى مُحذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ، فَضْرَبَ الْحَجَرَ الَّذِي عَيَّنَهُ اللَّهُ لَهُ بِعَصَاهُ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، فَانْفَجَرَتْ هَذِهِ الْعُيُونُ بِالْمَاءِ الْغَزِيرِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ فِي الْجَمْعِ التَّكَاثُلِيَّ بَيْنَ الْعِبَارَتَيْنِ: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ وَخِيَا مَضْمُونُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ الْمُعَيَّنَ الَّذِي أَعْلَمْنَاكَ بِهِ، أَوْ سَنُعْلِمُكَ بِهِ، لِنُخْرِجَ لَهُمْ مَاءً لِسُقْيَاهُمْ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْحَجَرِ الْمُعَيَّنِ، قُلْنَا لَهُ: اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ، لِيَكُونَ إِجْرَاءُ الْآيَةِ مُقَارِنًا لِلطَّاعَةِ التَّابِعَةِ فَوْرًا لِلْأَمْرِ بِضَرْبِ الْحَجَرِ بِالْعَصَا، فَضَرَبَ مُوسَى الْحَجَرَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِضَرْبِهِ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، فَانْفَجَرَتْ هَذِهِ الْعُيُونُ بِالماء الغزير الوفير، الذي يَكْفِي أَسْبَاطَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْاِثْنَيْنِ عَشَرَ، وَدُونَ أَنْ يَتَزَاحَمُوا عَلَى عَيْنٍ وَاحِدَةٍ.

وَتَكَرَّرَ فِي نَصِّي (الأعراف) و(البقرة) تَكَرُّراً تَطَابُقِيّاً قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾: أَي: قَدْ بَيَّنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَشْرِبَهُمُ الْخَاصَّ بِأُنَاسِهِمْ، فَعَلِمُوا مِنْهُ ذَلِكَ بِالتَّعْيِينِ.

وَلَعَلَّ فِي ذِكْرِ لَفْظِ «أُنَاسٍ» بَدَلَ «سِبْطٍ» إِشَارَةً إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْعُيُونُ خَاصَّةٌ بِالْبَشَرِ، أَمَّا بِهَائِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ فَلَهَا مَشَارِبُ أُخْرَى، غَيْرَ هَذِهِ الْعُيُونِ، وَرَبَّمَا يَكُونُ مَجَرَّدَ تَقْنُنٍ فِي التَّعْبِيرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَبْدُو لِي أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ هَذَا التَّكَرُّارِ التَّطَابُقِيِّ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ، الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ التَّعْلِيمَاتِ الَّتِي صَدَرَتْ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَوَزِيعِ الْأَعْيُنِ عَلَى الْأَسْبَاطِ قَدْ كُرِّرَتْ عَلَيْهِمْ، لِالْإِزَامِهِمْ بِمِرَاعَاةِ النَّظَامِ وَعَدَمِ الْعُدْوَانِ، وَوُجُوبِ الْإِزَامِ كُلِّ سِبْطٍ بِالْعَيْنِ الْمَخْصُصَةِ لَهُمْ.

القضية الثالثة: قول الله تعالى في سورة (الأعراف): ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ بالحديث عن الغائبين.

وقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَمَ...﴾ ﴿٥٧﴾ بأسلوب خطاب بني إسرائيل امتناناً عليهم، إِذِ الْإِنْعَامُ عَلَى الْأَجْدَادِ إِنْعَامٌ

على ذراريهم المتعصبين لهم، والمتفاجرين بالانتماء إليهم، الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ مُلتَزِمُونَ طريقتهم، وفي هذا الامتنان تحريض داخلي غير مباشر على أن يؤمنوا بمحمد ويتبعوه، فالذي أرسل موسى من قبل، هو الذي أرسل محمداً خاتم النبيين والمرسلين.

أي: وظللناكم الغمام عليكم وأنتم في صخرٍ سيناء، حماية لكم من حر الشمس، وهذا على تضمين فعل «ظللنا» معنى فعل «جعلنا».

الغمام: اسم جنس جمعي، يُفَرَّقُ بَيْنَهُ وبين واحده بالتاء، فمفردة «عَمَامَة» وهي السَّحَابَة.

يقال لغة: أَظْلُ الشيء فلاناً، وظلَّله، أي: غَشِيَهُ وسَتَرَهُ.

ويقال: ظَلَّلَهُ بِكَذَا من الشمس، أي: سَتَرَهُ به، حَتَّى لَا تَقَعَ عليه أشعة الشمس فتؤذيه.

وتحليل عبارة: ﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ ونظيرها: ﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ له ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: قالوا: أي: وجعلنا الغمام فوقهم يُظِلُّلُهُمْ مِنْ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ وَحَرَارَتِهَا المؤذية، والضارة ضرراً شديداً أحياناً.

أقول: هذا الوجه يعني تضمين فعل: «ظَلَّلَ» معنى فعل: «جَعَلَ» فَعُدِّي تَعْدِيته. والمعنى: ظَلَّلَكُم جَاعِلًا الغمام عليكم سَاتِرًا لَكُمْ مِنْ أَنْ تَصِلَ إِلَيْكُمْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الحارة، وهذا التضمين له نظائر كثيرة في القرآن المجيد.

الوجه الثاني: وقيل: أضل الكلام: وظللنا عليكم بالغمام، وحذف الخافض من «بِالْغَمَامِ» فانتصب اللفظ بنزع الخافض، فصارت العبارة، وظللنا عليكم الغمام.

الوجه الثالث: أقول: العبارة تحتل معنى آخر، وهو أن يكون الغمام الذي جعله الله فوقهم مباشرة، قد كان غماماً رقيقاً غير كثيف، فظلله الله عز سلطانة، بغمام كثيف فوقه، ليكون الغمام القريب منهم بارداً، إذ جعل فوقه غماماً مظلاً له، يسترّه من أشعة الشمس الحارة، وهذا من عناية الله عز وجل بهم.

وجاء في الإصحاح التاسع من سفر العدَدِ عند بني إسرائيل: «أَنَّ السَّحَابَةَ كَانَتْ عَلَامَةً لَهُمْ عَلَى الْجِلِّ وَالتَّرْحَالِ، فَإِذَا ارْتَحَلَتِ السَّحَابَةُ عَنْ خَيْمَةِ الشَّهَادَةِ ارْتَحَلُوا، وَإِذَا أَقَامَتْ أَقَامُوا.

لكن النص القرآني يدلُّ على أن الغمام كان يظلُّهم جميعاً، ولم يكن خاصاً بخيمة الشهادة.

وإن صحَّ ما كتبه الإسرائيليون، فهو مَحْمُولٌ على سحابة خاصة، غير الغمام العام، الذي كان يظلُّ من أشعة الشمس عموم بني إسرائيل في سينا.

القضية الرابعة: قول الله تعالى في (الأعراف): ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰى وَالسَّلْوٰى﴾ بالحديث عن الغائبين.

وقوله تعالى في (البقرة): ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰى وَالسَّلْوٰى...﴾ (٥٧) بأسلوب خطاب بني إسرائيل امتناناً عليهم. وقد سبق بيان الحكمة.

﴿وَأَنْزَلْنَا﴾: عطاءاتُ الله لعباده كُلُّهَا إنزالٌ من فيوضات آثار رحمته العلية جلَّ جلاله، ولو كانت غير نازلة من السماء، بل هي موجهة لهم من الأرض وأجوائها وبحارها.

﴿الْمَنَّ﴾: رزقٌ كان ينسقط لهم على وجه الأرض كالندى، وهو يشبه القشور، ويتجمّع كالجليد على الأرض، وقد جعله الله لهم بدل الخبز، وطعمه كطعم رقائق خبز بعسل.

[السَّلَوِيُّ]: طَائِرٌ بَرِّيٌّ لَذِيذُ اللَّحْمِ، سَهْلُ الصَّيْدِ، كَانَتْ تَسْوِقُهُ لَهُمْ رِيحُ الْجَنُوبِ كُلِّ مَسَاءٍ، فَيُمْسِكُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ، وَيُغْرِفُ هَذَا الطَّائِرُ بِلَفْظِ «السَّمَانِي» عَلَى وَزْنِ «الْحَبَارَى».

جاء في كُتُبِ بني إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ، طَلَبُوا أَنْ يَأْكُلُوا خُبْزاً وَلَحْماً، فَرَزَقَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ فِي الصَّحْرَاءِ الْمَنِّ وَالسَّلَوِيِّ.

فَاعْطَاهُمُ اللَّهُ بِهَذِينَ أَجُودَ الْخُبْزِ، وَأَطْيَبَ اللَّحْمِ كَمَا طَلَبُوا.

وجاء في الإصحاح السادس عشر من سفر الخروج عند الإسرائيليين:
«أَنَّ الْمَنََّ الَّذِي رَزَقَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهُ، الَّذِي هُوَ بَدَلُ الْخُبْزِ كَانَ يَسْقُطُ عَلَى وَجْهِ الْبَرِّيَّةِ كَالْتَدَى، يُشَبِّهُ الْفُشُورَ، وَيَتَجَمَّعُ كَالْجَلِيدِ عَلَى الْأَرْضِ.

وَأَنَّ مُوسَى قَالَ لَهُمْ: هَذَا هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي أَعْطَاكُمْ الرَّبُّ لِتَأْكُلُوا، وَأَنَّهُ نَهَاَهُمْ عَنْ أَنْ يَدْخِرُوا مِنْهُ لِلْيَوْمِ الثَّانِي، فَخَالَفَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ فَقَوْلَهُ فِيهِ الدُّودُ، وَأَتَتْنِ، فَسَخِطَ عَلَيْهِمْ مُوسَى».

وجاء فيه أيضاً:

«أَنَّ طَعْمَ الْمَنَِّ كَطَعْمِ رِقَاقِ خُبْزٍ بِعَسَلٍ، وَأَنَّهُمْ سَمَوْهُ مَنَّاً».

وجاء فيه أيضاً:

«أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكَلُوا الْمَنََّ أَرْبَعِينَ سَنَةً حَتَّى جَاءُوا إِلَى طَرَفِ أَرْضِ كَنْعَانَ.

القضية الخامسة: قول الله تعالى في (الأعراف): ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. مخبراً عن سوابق الأحداث.

وجاء في سورة (البقرة) نظيرها: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ...﴾ ﴿٥٧﴾

مُتَمَّنّاً عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وجاء فيها أيضاً: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ...﴾ ﴿١٠﴾
بإضافة الامتنان بالشُّرب، الذي هو أيضاً من رِزْقِ اللَّهِ.

قال المفسرون: التقدير: وقلنا لَهُمْ: كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ،
أي: من المَنِّ والسَّلْوَى. وقلنا لَهُمْ: كُلُوا واشربوا من رزق الله.

أقول: مثل هذا التقدير يُقَلِّلُ مِنْ قيمة هذا النص البيانيَّة، إذ يَجْعَلُهَا
قاصرةً على الإيجاز بالحذف.

والأولى أن نقول: هذا كلامٌ مَخَكِيٌّ بِلَفْظِهِ، مُقْتَطَعٌ مِنَ الْحَدِيثِ
الماضي، ومُقَدَّمٌ فِي الْبَيَانِ كما هُوَ عَلَى طَرِيقَةِ عَرْضِ الْمَشْهَدِ كما كَانَ عِنْدَ
حُدُوثِهِ، بِإِبْدَاعِ فَنِّيٍّ جَمِيلٍ، لَمْ يَغْرِفْهُ الْبَلْعَاءُ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَقَدْ أَدْرَكَه
الْإِعْلَامِيُّونَ فِي عُصُورِنَا الْمَتَأَخِّرَةِ، وَهُوَ مِنْ رَوَائِعِ الْإِبْدَاعِ الْقُرْآنِيِّ.

وَفِي تَوْجِيهِهِمْ لِلْأَكْلِ مِنْ بَغْضِ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الرِّزْقَ
الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى رِزْقٌ وَفِيرٌ يَزِيدُ عَنْ حَاجَاتِهِمْ
الْيَوْمِيَّةِ، فَلَا دَاعِيَ لَأَنْ يَدْخِرُوا مِنْهُ شَيْئاً لِلطَّوَارِئِ، كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَهُمْ
فِي مِصْرَ.

القضية السادسة: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (البقرة): ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

لَمَّا كَانَ تَأْمِينُ مُطَالِبِ الْحَيَاةِ مِمَّا يُؤَلَّدُ مَشَاعِرَ الْإِسْتِغْنَاءِ، وَهَذِهِ
الْمَشَاعِرُ تُنْسِي ذِكْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتُنْسِي الْحَاجَةَ إِلَيْهِ، وَهَذَا النُّسْيَانُ يُؤَلَّدُ
الطَّغْيَانَ فِي النَفُوسِ، فَيَذْفَعُ إِلَى الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ بِانْطِلَاقِ إِجْرَامِيٍّ،
حَذَّرَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَنْ يَغْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، وَدَمَجَ بِالْخُطَابِ
مَعَاصِرِي تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، ضَمَّنَ حِكَايَةَ الْخُطَابِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ
وَجَّهَهُ اللَّهُ لِأَجْدَادِهِمْ.

﴿وَلَا تَعْتَوْا﴾: أي: وَلَا تُفْسِدُوا إفساداً شديداً منكراً.

الْعُتُوءُ: أَشَدُّ الْفُسَادِ، يُقَالُ لُغَةً: عَثِيَ يَعْثِي عُتُوءًا، وَعَثِيًا وَعَثِيَانًا.

﴿مُفْسِدِينَ﴾ : حالٌ مُؤَكَّدَةٌ لِإِعْمَالِهَا .

لَكِنَّ جُمْهُورَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ قُرُونٍ، لَمْ يُطِيعُوا هَذَا التَّكْلِيفَ الرَّبَّانِيَّ، بَلِ اسْتَخْدَمُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي مَعْصِيَتِهِ، وَانْطَلَقُوا يَغْتَوُونَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

القضية السابعة: قول الله عز وجل في (الأعراف): ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١٦٠﴾ في معرض الحديث عن الغائبين .

ونظيره تماماً قول الله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ في معرض خطاب ذراري بني إسرائيل الملتزمين سُبُلَ أَجْدَادِهِمُ الظَّالِمِينَ .

أي: لَمْ يُطِيعُوا اللَّهَ فِيمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ، مِنْ أَنْ يَغْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَلِ انْطَلَقُوا يَغْتَوُونَ فِي الْأَرْضِ فِسَاداً حَتَّى صَارُوا شَرَّ النَّاسِ إِفْسَاداً فِي الْأَرْضِ، إِذْ يُفْسِدُونَ الْعُقَائِدَ، وَيُفْسِدُونَ الْأَخْلَاقَ، وَيُفْسِدُونَ النُّظُمَ، وَيَتَلَاعَبُونَ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَرَائِعٍ وَأَحْكَامٍ، وَيُفْسِدُونَ سُلُوكَ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيُجَنِّدُونَ الشَّيَاطِينَ الْأَشْرَارَ، لِتَذْمِيرِ كُلِّ الْقِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَمَخَوِ كُلِّ الْوَصَايَا وَالتَّعْلِيمَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ .

وجاءت عبارة: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ كِنَايَةً عَمَّا فَعَلُوا فِي تَارِيخِهِمُ الطَّوِيلِ مِنْ فِسَادٍ عَرِيضٍ، فِي الْعُصُورِ الثَّالِيَةِ لِعَهْدِي دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَاسْتَمَرَّتْ أَجْيَالُهُمْ كَذَلِكَ حَتَّى بَغْتَةِ مُحَمَّدٍ وَنَزُولِ الْقُرْآنِ .

والمعنى: فَافْسَدُوا وَطَعَوْا وَبَغَوْا، وَعَصَوْا بِأَرْهَافِهِمْ، وَظَلَمُوا ظُلْماً شَنِيعاً فَاحِشاً، وَهَذَا يَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بِكُلِّ مَا فَعَلُوا، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَضُرُّهُ ظُلْمُ الظَّالِمِينَ، كَمَا لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ الْمُطِيعِينَ .

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ إِذْ يُعَرِّضُونَهَا لِإِعْدَابِ أَيْدِي فِي جَهَنَّمَ،

مَعَ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ فِي الدُّنْيَا. وَيَقْصُصُ التَّارِيخَ عَلَيْنَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ وَاضْطِهَادٍ وَذُلٍّ وَمَهَانَةٍ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْقَابِ الزَّمَنِيَّةِ، وَبِأَيْدِي كَثِيرٍ مِنْ جَبَابِرَةِ الْأَرْضِ.

ولمَّا كان بنو إسرائيل المعاصرون للتنزيل على طريقة الظالمين من أجدادهم إلَّا مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ، كانوا مشمولين بهذا الخطاب حتماً، بل هم أَشَدُّ ظُلْماً، لِإِقْيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِمَا آتَى اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا مِنْ آيَاتِ بَيِّنَاتٍ، وَلَأنَّ عُلَمَاءَهُمْ وَأَخْبَارَهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ الْمُبَشِّرُ بِهِ فِي كِتَابِهِمْ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا نِعْمَ اللَّهِ الْكَثِيرَةَ الَّتِي اخْتَصَمَهُمْ بِهَا.

ولو أَنَّهُمْ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَعَمِلُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ لِلنَّاسِ فِي الْقُرْآنِ، لَتَبَرَّزُوا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَجْدَادُهُمُ الظَّالِمُونَ، وَلَمَّا خَاطَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا فَعَلَ أَجْدَادُهُمْ مِنْ ظُلْمٍ قَبْلَهُمْ.

لَكِنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يُسَلِّمُوا، فَتَابَعُوا خُطُوبَاتِ أَجْدَادِهِمُ الظَّالِمِينَ، مُتَعَصِّبِينَ لَهُمْ، وَلَأَعْمَالِهِمْ، وَلِتَحْرِيفَاتِهِمْ فِي دِينِ اللَّهِ، وَمَعْتَزِينَ بِهِمْ، وَرَافِضِينَ دِينَ اللَّهِ الْحَقِّ، وَمُغْتَبِرِينَ أَنْفُسَهُمْ امْتِدَاداً بَشَرِيّاً لِأَبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ فِي كُلِّ قَبَائِحِهِمْ، وَسَيِّئَاتِهِمْ، وَكُفْرِيَّاتِهِمْ، وَغَيْرِ مُسْتَعِدِّينَ نَفْسِيّاً لِلتَّبَرُّؤِ مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي هُمْ فِيهِ، وَالِاسْتِمْسَاكِ بِالْحَقِّ الَّذِي يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ، فَكَانُوا جَدِيرِينَ بِأَنْ يَكُونُوا دَاخِلِينَ فِي عُمُومِ خُطَابِ أَجْدَادِهِمُ الظَّالِمِينَ، وَأَنْ يَكُونُوا بَعْدَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُمَثِّلِينَ لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَجْدَادِهِمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَمُضِيِّينَ ظُلْماً جَدِيداً هُوَ كُفْرُهُمْ بِالرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ.

وَيُوضِّحُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: أَي: بِكُفْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ وَعُثُوثِهِمْ فِسَاداً وَإِفْسَاداً فِي الْأَرْضِ، مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي دَرٍّ:

«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَآخِرُكُمْ وَإِنْسُكُمْ وَجِنَّتُكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً».

وجاء فيه أيضاً:

«يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

قصة استسقاء بني إسرائيل عند أهل الكتاب:

جاء في الإصحاح السابع عشر من سفر الخروج عند الإسرائيليين: «أَنَّ الاستسقاء كان بَعْدَ اِزْتِحَالِهِمْ مِنْ «سِينَ» وَنَزُولِهِمْ فِي «رَفِيدِيم» وَأَنَّهُ كَانَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ بِمَدَّةٍ غَيْرِ طَوِيلَةٍ، وَأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَاصَمُوا مُوسَى مِنْ أَجْلِ السَّقْيَا، وَأَنَّ اللَّهَ أَعْلَمَ مُوسَى بِالصَّخْرَةِ الَّتِي إِذَا ضَرَبَهَا بِعَصَاهُ خَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ لِيَشْرَبُوا، وَأَنَّ الصَّخْرَةَ كَانَتْ فِي «حُورَيْب». وَأَنَّ مُوسَى ضَرَبَ الصَّخْرَةَ بِعَصَاهُ، فَأَخْرَجَ اللَّهُ مِنْهَا الْمَاءَ أَمَامَ عْيُونِ شُيُوخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

الفقرة التاسعة

وَعَدَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنْ يَنْصِرَهُمْ وَيُسْكِنَهُمُ الْقَرْيَةَ بِشَرْطَيْنِ
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ

الآيتان (١٦١ - ١٦٢).

قال الله عز وجل مُتَحَدِّثًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنْ الْغَائِبِينَ فِي سُورَةِ (الأعراف):

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَوْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْرًا مِنْ الشَّكْمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾:

وجاء بشأن هذا الحدث نفسه، قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف (٨٧ نزول) في معرض خطاب بني إسرائيل المعاصرين لنزول القرآن فَمَنْ بَعْدَهُمْ، حَوْلَ مَا جَرَى لِأَجْدَادِهِمُ الَّذِينَ يَعْتَزُّونَ بِهِمْ وَيَتَّبِعُونَ سُبُلَهُمْ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَنْسُفُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

هذان نصان متكاملان في دلالاتهما، وفق سنة التكامل في القرآن المجيد حول موضوع كلّي واحد. وهما يتحدّثان عن حادثة من حوادث بني إسرائيل التي تكرّرت نظائرها في أيامهم الأولى، في عهد النبي يسوع، الذي كان فتى موسى وخادمه الملازم له، وفي عهد صمويل من بعده، وفي عهود لاحقة.

ووجه التكامل فيما بينهما متعدّد:

التكامل بين النصين:

(١) فما جاء في سورة (الأعراف) جاء بأسلوب الحديث عن بني إسرائيل الغائبين.

وما جاء في سورة (البقرة) جاء في معرض خطاب بني إسرائيل المعاصرين لتنزيل القرآن فَمَنْ بَعْدَهُمْ، بشأن أجدادهم الذين يعتزّون بهم، ويلتزمون سبلهم.

(٢) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾: أي: وإذ قال لهم نبيهم اذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ واسْكُنُوهَا، بلاغاً عن الله، وجاء في هذا النص حذف [اذْخُلُوا] والاكتفاء بعبارة ﴿أَسْكُنُوا﴾.

وجاء في سورة (البقرة): ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾: أي: ادخلوا هذه القرية واسكنوها. ودلت هذه العبارة على أن الأمر بدخول القرية وسكنها هو الله، وأن المبلغ لهم هذا الأمر الرباني هو نبيهم، وهو يسوع يومئذ، وكان فتى موسى وخادمه في حياته، على ما ذكر المؤرخين.

(٣) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾: أي: وكلوا منها من حيث شئتم مأكولاً صالحاً تجدونه.

وجاء في سورة (البقرة): ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ فأضاف هذا النص، فكرة الترتيب مع التعقيب، إذ جاء عطف عبارته بالفاء. فبينهما تكامل، أي: فكلوا منها مباشرة عقب دخولها، وكلوا منها بعد ذلك بحسب أعمالكم في الاستثمار.

وأضاف أيضاً كلمة: ﴿رَغَدًا﴾: أي: طيباً واسعاً كثيراً رفيفاً.

(٤) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾:

﴿حِطَّةٌ﴾: أي: اللهم ضغ عنا أوزارنا وذنوبنا ولا تحاسبنا عليها.

وجاء في سورة (البقرة): ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: بتقديم الأمر بدخول باب القرية ساجدين، على الأمر بأن يقولوا: حِطَّة.

والدلالة التكامليّة بين العبارتين تفيد عدم وجوب الترتيب بين التكليفين، وعدم وجوب القيام بهما مفترقين، بل الواجب القيام بهما دون إلزام بترتيب أو اقتران.

(٥) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَرِيعًا﴾

﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ وفي ﴿تَغْفِرْ﴾ قراءة [تُغْفِرُ] بالبناء لما لم يسم فاعله، ومعلوم أن الله هو الذي يغفر، وفي هذا تعليم لنا أنه لا مانع من التعبير بالبناء لما لم يسم فاعله، إذا كان الفعل من خصائص الرب جلّ جلاله.

وفي ﴿حَطَّيْنِكُمْ﴾ قراءات منها [حَطَّايَكُمْ] ومنها بالإفراد، مُراعاة لأحوال المذنبين فيهم ما بين مُكثِرِينَ ومُقَلِّين أخذاً من جَمَعِي الكثرة والقلة، مع التَّفَنُّن في التعبير.

وجاء في سورة (البقرة): ﴿تَنفِزَ لَكُمُ حَطَّيْنِكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: وفي ﴿تَنفِزَ﴾ قراءة [تُغْفِرُ] وقراءة [يُغْفِرُ] وفي هذه القراءات الدلالة التي فَهَمَتَهَا آنفاً.

وجاء في هذا النص إضافة حَرْف العطف (الواو) في: ﴿وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: للدلالة على أَنَّ الفصل والوصل هُنَا مُتَكَافِئَانِ بلاغيًا.

(٦) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿فَبَدَّلَ الَّذِي ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾:

وجاء في سورة (البقرة): ﴿فَبَدَّلَ الَّذِي ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: بحذف عبارة ﴿مِنْهُمْ﴾ اكتفاء بما جاء في نص (الأعراف) وللإشعار بأن دلالة القرينة تكفي، لتحقيق غرض الإيجاز والاقتصاد في العبارة.

(٧) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

وجاء في سورة (البقرة): ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾:

ويبدو التكامل بين هذين التعبيرين فيما يلي:

● فبين ﴿فَأَنْزَلْنَا﴾ و﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ تكامل في أداء المعنى المراد، أي: فَأَنْزَلْنَا بِسُلْطَانِ الرُّبُوبِيَّةِ، وجعلنا هذا الإنزال إرسالاً، ففي الإرسال معنى التوجيه لإداء مهمة ما، بتودة، وأناة، وتتابع، وهذا المعنى لا يدلُّ عليه

الإنزال، كَمَا أَنَّ الْإِنزَالَ بِسُلْطَانِ الرُّبُوبِيَّةِ الْقَاهِرِ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْإِزْسَالُ، فَتَكَامَلًا.

• وبين: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ والضمير يعود على فاعل ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾. وبين ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في النص الذي في (البقرة) تكامل آخر، إذ التصريح بالوصف في مقام الضمير، يُشعر بأن ما أنزل عليهم إرسالاً، قد كان بسبب ظلمهم بالتبديل.

• وبين: ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ في (الأعراف): وَبَيَّنَّ: ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ في البقرة، تكامل ثالث. فعبارة ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ جاءت شارحة ومُبَيِّنَةٌ لعبارة: ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾: أي: إِنَّ ظَلَمَهُمْ، وَهُوَ تَجَاوُزُهُمْ لِحُدُودِ اللَّهِ، قَدْ كَانَ مِنْ نُّوعِ الْفِسْقِ، لَا مِنْ نُّوعِ الْكُفْرِ الْمَخْرَجِ مِنَ الْإِلَّةِ.

الْفِسْقُ: مصطلح إسلامي، مأخوذ من قول العرب: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ، إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا، ومعلوم أَنَّ الرُّطْبَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا تَعَرَّضَتْ لِلْفَسَادِ السَّرِيعِ. وَالْفِسْقُ فِي الْمَصْطَلَحِ الْإِسْلَامِيِّ يُطْلَقُ عَلَى عَصِيَانِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ، وَلَا يُلْزَمُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَصِيَانِ أَثَرًا مِنْ آثَارِ جُحُودِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ، أَوْ إِلَهِيَّتِهِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ أَثَرًا مِنْ آثَارِ اتِّبَاعِ الْهَوَى مَعَ سَلَامَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ مِنَ النُّقْضِ.

القراءات في النص الذي من سورة (الأعراف):

(١٦١) • قرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب: [تُغْفَرُ لَكُمْ خَطِيئَاتُكُمْ]

ومعلوم أن الذي يَغْفِرُ هو الله عز وجل، وجاء الجمع على صيغة من صيغ جُمُوعِ الْقِلَّةِ إِذْ كَانَ بَعْضُ الْقَوْمِ قَلِيلَ الذُّنُوبِ، وَلَا أَرَى أَنْ الْإِضَافَةُ هُنَا تَجْعَلُهُ لِلْكَثْرَةِ.

وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو: [تُغْفِرُ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ]: بِضَمِّيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، وَجَاءَ

الجمع بصيغة من صيغِ جُمُوعِ الكثرة، إذ كان بعض القوم كثير الذنوب.
 وقرأ باقي القراء العشرة: [تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ]: بضمير المتكلم العظيم، وجاء الجمع على صيغة من صيغِ جُمُوعِ القلة، ولا أرى أنَّ الإضافة هنا تجعله للكثرة، إذ كان بعض القوم قليل الذنوب.

القراءات في النص الذي من سورة (البقرة):

(٥٨) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [يُغْفِرْ لَكُمْ] بالبناء لما لم يُسمَّ فاعله، ومعلوم أنه الله.

وقرأ ابنُ عامرٍ: [تُغْفِرْ لَكُمْ] بالبناء لما لم يُسمَّ فاعله، ومعلوم أنه الله.

[يُغْفِرْ] و[تُغْفِرْ] وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ صحيحان، فالخطيئات تأنيثها مجازيٌّ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [تَغْفِرْ لَكُمْ] بضمير المتكلم العظيم جلَّ جلاله.

تمهيد:

كان بنو إسرائيل كلما قضى الله لهم بأن يفتحوا قَرْيَةً (أي: بلداً صغيراً أم كبيراً) من الأرض التي وعدهم أن يفتحها لهم من أرض الشام، إذا صلحوا واستقاموا وجاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده، وأطاعوا أوامر الله ونواهيه، والتزموا الشريعة الربَّانية، يطالبهم نبيُّهم الذي يسوسهم ويقود جهادهم بلاغاً عن الله، إذ كانت تسوسهم أنبياءهم بما يلي:

(١) بأن يدخلوا باب القرية التي يفتحها الله لهم مُستَغْفِرِينَ تائبين من ذُنُوبِهِمْ، وخاضِعِينَ لله، مُطِيعِينَ رؤوسهم، غَيْرَ مُسْتَكْبِرِينَ وَلَا مُتَفَاخِرِينَ بِقُوَّتِهِمُ الدَّائِيَّةِ.

(٢) وَيَأْنُ يَسْتَمِروا بَعْدَ دُخُولِ الْقَرْيَةِ وَسُكْنَاهَا خَاضِعِينَ لِلَّهِ جَلَّ جلاله، وَمُطِيعِينَ لِأوامِرِهِ، وَلِنَوَاهِيهِ، مِنْ مَسْتَوَى الْخُضُوعِ الْأَقْصَى، الَّذِي يُعْبَرُ عَنْهُ فِي الْحَرَكَةِ الْجَسَدِيَّةِ بِالسُّجُودِ، الَّذِي هُوَ وَضْعُ الْجَبْهَةِ عَلَى الْأَرْضِ عِبَادَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ كَانَ يُمَدِّهُمْ بِقُوَى غَيْبِيَّةٍ، وَأَسْبَابٍ لَا يَمْلِكُونَهَا، حَتَّى يُظْفِرَهُمْ وَيَنْصَرَّهُمْ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الْأَشْدَاءِ، الَّذِينَ كَانُوا مُشْرِكِينَ وَثَنِيِّينَ، كَافِرِينَ فَاسِقِينَ.

ويظهر أَنَّ هذا التكليف كان يقال لهم على لسان نبيهم عند حصار كلِّ بَلَدٍ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى فَتْحِهِ جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وكان بنو إسرائيل كُلُّمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَرْيَةً مِنْ هَذِهِ الْقَرْيِ، وَدَخَلُوهَا لَمْ يَلْتَزِمُوا بِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَلَمْ يَجْتَنِبُوا مَا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ.

إِذْ كَانَ يَظْهَرُ فِيهِمُ الْغُلُولُ فِي الْغَنَائِمِ الْمَحْرَمَةِ عَلَيْهِمْ، وَكَانُوا يَدْخُلُونَ مُسْتَكْبِرِينَ، غَيْرَ مُسْتَغْفِرِينَ، وَظَالِمِينَ غَيْرَ عَادِلِينَ، وَكَانُوا يُحَرِّقُونَ بَعْضَ الْقَرْيِ وَيَجْعَلُونَهَا تِلْالاً بَعْدَ قَتْلِ كُلِّ حَيٍّ فِيهَا بَشِراً وَغَيْرَ بَشَرٍ.

وَبَدَلُ أَنْ يَكُونُوا عَابِدِينَ لِلَّهِ، سَاجِدِينَ لَهُ، عَامِلِينَ بِشَرِيعَتِهِ وَأَحْكَامِهِ، كَانَ يَظْهَرُ فِيهِمُ الْفُجُورُ، وَازْتِكَابُ الْمَحْرَمَاتِ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَكَانَ ذَلِكَ يَنْتَشِرُ فِيهِمْ انْتِشَاراً مُسْتَفْحَلاً.

وَذَكَرَتْ كُتُبُهُمْ أَنَّهُمْ صَارُوا يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ الَّتِي كَانَتْ مُشْرِكُو الْبِلَادِ يَعْبُدُونَهَا.

وَجَاءَ فِي الْإِصْحَاحِ الثَّانِي مِنْ سِفْرِ الْقَضَاةِ، أَنَّهُمْ عَبَدُوا مِنْ آلِهَةِ الْقَوْمِ وَأَوْثَانِهِمُ «الْبَغْلِيم» وَهُوَ جَمْعُ «الْبَغْل» وَهَذَا اللَّفْظُ اسْمُ سَامِيٍّ مَعْنَاهُ «الرَّبُّ - السَّيِّدُ - الزَّوْجُ» وَعَبَدُوا وَثَنَ «عَشْتَارُوت» وَهِيَ رَبَّةُ الْأُمُومَةِ، وَهِيَ تُعْبَدُ غَالِباً مَعَ «الْبَغْل». وَالْبَغْلُ إِلَهٌ كِنَعَانِي، وَكَانَ فِي خِرَافَاتِهِمْ إِلَهَ الْخِصْبِ فِي الْحَقُولِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْمَوَاشِي.

والحادثة التي أشار إليها النَّصَان من (الأعراف) و(البقرة) لَمْ أَجِدْ ما يُسَاعِدُ عَلَى تَغْيِينِهَا، ولم يَسْتَطِيع المفسِّرون من قبلي تَغْيِينَهَا، واختَلَفُوا في المراد بالقرية التي ذكرها الله عز وجل بِقَوْلِهِ: ﴿هَٰذِهِ الْقَرْيَةُ﴾ في النَّصِّين.

● فذكر بعضهم اسمَ مَدِينَةٍ: «أَرِيحَا».

● وذكر بعضهم اسمَ مدينة: «أُورُشَلِيم = الْقُدْس» وقالوا: إِنَّ الباب الذي أَمَرَ بَنُوا إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْخُلُوهُ، هو الباب المعروف فيها باسم «باب حِطَّة».

قال ابن كثير: الصَّحِيحُ أَنَّهَا الْقُدْس.

● وقال بغضهم: الظَّاهِرُ أَنَّهَا «حَبْرُون» أي: مدينة الخليل عليه السلام.

● وقيل: غَيْرُ ذَلِكَ.

أقول:

لَيْسَ من المِهْمِ تَغْيِينُ اسمِ القرية، ما دام بنو إِسْرَائِيلَ دَخَلُوا بَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، وَفَتَحُوا فِيهَا مُدُنًا كَثِيرَةً، بِقِيَادَةِ النَّبِيِّ «يَشُوعَ بْنِ نُونٍ» الَّذِي كَانَ فَتَى مُوسَى وَخَادِمَهُ فِي حَيَاتِهِ، ثُمَّ جَعَلَهُ اللَّهُ نَبِيًّا، وَاسْتِثْنَاهُ هُوَ وَ«كَالِبُ بْنُ يَفْنَةَ» مِنَ الْحَرَمَانِ مِنْ دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، بَعْدَ أَنْ قَضَى اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَتِيَهُوا فِي الصَّحْرَاءِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، حَتَّى يَمُوتَ الَّذِينَ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ مُقَاتِلِينَ، مِنْ أَبْنَاءِ عَشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا بِقِيَادَةِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَقَالُوا لِمُوسَى: ﴿فَإِذْ هَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة) بِاسْتِثْنَاءِ «يَشُوعَ بْنِ نُونٍ» وَ«كَالِبِ بْنِ يَفْنَةَ» فَإِنَّهُمَا قَالَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمَئِذٍ: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة).

ثُمَّ فَتَحُوا مُدُنًا كَثِيرَةً فِي عَهْدِ النَّبِيِّ «صَمُوئِيلَ» ثُمَّ فِي عَهْدِ الْقَضَاءِ،
وَكَانَتْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي نَصِّي (الأعراف) و(البقرة) ظَاهِرَةً مُتَكَرِّرَةً.
وَلَعَلَّ فِي إِغْفَالِ تَغْيِينِ الْقَرْيَةِ الْمُرَادَةِ فِي الْقِصَّةِ غَرَضَ الْإِشْعَارِ بِأَنَّهَا
ظَاهِرَةٌ تَكَرَّرَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، حِينَمَا كَانَ يُمِدُّهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقُوَى
غَيْبِيَّةٍ، وَأَسْبَابٍ لَا يَمْلِكُونَهَا، وَيَفْتَحُ اللَّهُ لَهُمُ الْقُرَى فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ.
وَكَانَ الْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ كُلَّمَا فَتَحَ اللَّهُ لَهُمْ قَرْيَةً مِنَ الْقُرَى صَغِيرَةً أَمْ
كَبِيرَةً، أَنْ يَدْخُلُوا بِأَبْهَا خَاضِعِينَ لِلَّهِ، مُطَاطِئِي رُؤُوسِهِمْ لَهُ، مُسْتَغْفِرِينَ مِنْ
ذُنُوبِهِمْ، وَأَنْ يَسْتَمِرُّوا بَعْدَ دُخُولِهَا وَسُكْنَاهَا قَائِمِينَ بِوَاجِبِ السُّجُودِ لِلَّهِ
وَحَدُّهُ، وَالْعَمَلِ بِشَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ، لَا يُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شَيْئًا، وَكَانُوا يُعْطُونَ
الْعَهْدَ عَلَى ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْصُرَهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ يَحَقِّقَ لَهُمْ وَعْدَهُ
وَيَنْصُرَهُمْ، وَيَفْتَحَ لَهُمُ الْقُرَى، وَيُمْكِّنَهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ
مَعَ اللَّهِ، فَيَبْذُلُونَ، وَيَعْمَلُونَ بِقَوْلِ آخَرٍ يَفْتَرُونَهُ، غَيْرِ الْقَوْلِ الَّذِي قَالَهُ اللَّهُ
لَهُمْ، فَيُظْلِمُونَ وَيُفْسِقُونَ.

فَإِذَا تَمَادَوْا فِي مَعَاصِيهِمْ وَمُخَالَفَاتِهِمْ وَانْجِرَافَاتِهِمْ، وَأَهْمَلُوا الْعَمَلَ
بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ، أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ بِسَبَبِ مَا كَانُوا
يُظْلِمُونَ فَاسِقِينَ.

وهذه الحادثة التي ذكرها الله عزَّ وجلَّ في نَصِّي (الأعراف) و(البقرة)
لَا عِلَاقَةَ لَهَا بِالْحَادِثَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي النَّصِّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (المائدة)
الَّذِي يُبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ دَعْوَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنَّ
يَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُمْ بِشَرْطِ أَنْ يَدْخُلُوهَا مُقَاتِلِينَ
مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ لِنَشْرِ دِينِ اللَّهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ.

فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا،
وَقَالُوا لَهُ: يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ
فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ.

ومنذ ذَلِكَ الحين حَرَّمَ الله على بني إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْخُلُوا الْأَرْضَ
المقدسة أَرْبَعِينَ سنة، وَذَلِكَ حَتَّى يَمُوتَ الرَّافِضُونَ، ويظهر فيهم جِيلٌ جَدِيدٌ
لم يُشَارِكُوا فِي الرِّفْضِ.

وَتُوفِيَ هَارُونَ وَمُوسَى عليه السلام، ورافضو دُخُولِ الْأَرْضِ المقدسة
بِالْقِتَالِ من بني إِسْرَائِيلَ فِي التِّبَةِ، دون أَنْ يَدْخُلُوا الْأَرْضَ المقدسة، وَدُونَ
أَنْ يَفْتَحُوا شَيْئاً من قُرَاهَا الْكَبِيرَةِ أَوْ الصَّغِيرَةِ.

وظاهر فِي نَصِي (الأعراف) و(البقرة) أَنَّهُمَا يَتَحَدَّثَانِ عَنْ دُخُولِ الْقَرْيَةِ
بِفَتْحٍ من الله جَلَّ جلاله.

وَاشْتَبَهَ الْأَمْرُ عَلَى بَعْضِ الْمَفْسِّرِينَ فَجَعَلُوا النُّصُوصَ الثَّلَاثَةَ تَتَعَلَّقُ
بِحَادِثَةٍ وَاحِدَةٍ.

التدبر التحليلي:

قول الله تعالى في (الأعراف):

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا
حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَقَرْنَا لَكُمْ خَطْبَيْنِمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

أي: وضع في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي هذا البيان من رَبِّكَ للاعتبار
والانتعاظ، قِصَّةٌ من قِصَصِ بني إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُوسَى عليه السلام، إِذْ بَدَأَ
أَنْبِيَآؤُهُمْ يَسُوسُونَهُمْ، لدخول الْأَرْضِ المقدسة وافتتاح قُرَاهَا الْكَبِيرَةِ
والصغيرة، جهاداً في سبيل الله، لنشر دينه.

● ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾: أي: وَحِينَ قِيلَ لَهُمْ، وَالْقَائِلُ هُوَ نَبِيُّهُمْ الَّذِي
كَانَ يَسُوسُهُمْ بِلَاغاً عَنْ رَبِّهِ، بِدَلِيلِ النَّصِّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (البقرة) فَقَدْ
جاء فيه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ الرَّبِّ جَلَّ جلاله.

● ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾: أي: ادْخُلُوهَا مُقَاتِلِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،
وَاسْكُنُوهَا بِدَلِّ أَهْلِهَا الَّذِينَ سَتَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ.

فَهُمَ الدُّخُولُ بِاللُّزُومِ الْعَقْلِيِّ، لَأَنَّ السُّكْنَى لَا تَخْصُلُ، إِلَّا بَعْدَ الدُّخُولِ قِتَالًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْإِنْتِصَارَ عَلَى أَهْلِهَا.

وجاء التصريح بالدُّخُولِ دُونَ السُّكْنَى فِي النَّصِّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (البقرة): ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾.

وَسَبَقَ فِي التَّمْهِيدِ أَنِّي لَمْ أَجِدْ دَلِيلًا قَوِيًّا عَلَى تَعْيِينِ اسْمِ الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِرُوا بِدُخُولِهَا: (أريحا - القدس - مدينة الخليل) أَوْ غَيْرِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيَدُلُّ اسْمُ الْإِشَارَةِ (هَذِهِ) عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ قَرِيبَةً مِنْ تَجْمُعِ مُعْظَمِهِمْ.

● ﴿وَكُلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾: هَذِهِ الْعِبَارَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَبَاحَ لَهُمْ مَعَ سُكْنَاهَا أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ ثَمَارِ وَأَزْرَاقِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنْ أَمْكَاتِهَا شَاءُوا.

﴿حَيْثُ﴾: ظَرَفُ مَكَانٍ مَبْنِيٍّ عَلَى الضَّمِّ، فِي مَحَلٍّ نَضَبٍ بِالظَّرْفِيَّةِ، وَهُوَ مُضَافٌ إِلَى جُمْلَةٍ ﴿شِئْتُمْ﴾.

وجاء في نص (البقرة): ﴿فَكُلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾: دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَبَاحَ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ ثَمَارِهَا وَأَزْرَاقِهَا عَقِبَ دُخُولِهَا فَاتْحِينَ لَهَا، مِنَ الْأَرْزَاقِ الْمَوْجُودَةِ فِيهَا، وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَقَرُّوا سَاكِنِينَ فِيهَا، وَأَنَّهُمْ سَيَجِدُونَ فِيهَا رِزْقًا كَثِيرًا وَاسِعًا وَفِيهِ رِفَاحِيَّةٌ لَهُمْ، أَخْذًا مِنْ دَلَالَةِ كَلِمَةِ ﴿رَغَدًا﴾ الْمَذْكُورَةِ فِي نَصِّ (البقرة).

● ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾: أَي: وَأَذُوا هَذَيْنِ الْوَاجِبَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنْ تَقُولُوا: ﴿حِطَّةٌ﴾: هَذِهِ كَلِمَةٌ كَلَّفُوا أَنْ يَقُولُوهَا، أَوْ يَقُولُوا مَا يُمَازِلُهَا فِي لُغَتِهِمْ، وَمَعْنَاهَا الْإِصْلَاحِي عِنْدَهُمْ: اللَّهُمَّ ضَعْ عَنَّا أَوْزَارَنَا وَذُنُوبَنَا وَلَا تُحَاسِبْنَا عَلَيْهَا.

وفي قولهم هذا اعترافٌ مِنْهُمْ بذُنُوبِهِمْ، عند نَصْرِ اللَّهِ لَهُمْ على عَدُوِّهِمْ. وثناءٌ على الله عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ قد تَفَضَّلَ عليهم بالنَّصْرِ، وهم يستحقون العقاب على ذُنُوبِهِمْ.

الثاني: أن تدخلوا بابَ القريةِ سُجَّدًا، وهذا الواجب يتضمَّنُ تكليفَهُمْ أن يكونوا خاضِعِينَ لله في قُلُوبِهِمْ خضوعاً تاماً، عابدين له، لا يُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شيئاً، وأن يكونوا عند دُخُولِهِمْ مُغْلِنِينَ بِحَرَكَةِ أَجْسَامِهِمْ خُضُوعَهُمْ لِلَّهِ بِطَاطَاةِ الرَّأْسِ وإخناءِ الظهر، فهذا نوعٌ من السُّجُودِ لُغَةً، كما فَعَلَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ عند فتح مكَّة، وأن يكونوا دوماً بَعْدَ دُخُولِهِمْ وَسُكْنَاهُمْ الْقَرْيَةَ سَاجِدِينَ في عِبَادَتِهِمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَخَدَهُ، فلا يَسْجُدُوا لَشُرَكَاءٍ مِنْ دُونِهِ.

﴿سُجَّدًا﴾: جمعُ «سَاجِدٍ» والكلمة منصوبةٌ على أَنَّهَا حالٌ، وهي هنا بعد الدُخُولِ والاستقرار حالٌ مُقَدَّرَةٌ كما يَقُولُ النحاة.

والسُّجُودُ عَنَوَانٌ لِكَمَالِ الطَّاعَةِ والخُضُوعِ لِلَّهِ، والعمل بشرائعه وأحكامه، ورَمْزُهُ الجَسَدِيُّ يَكُونُ بِطَاطَاةِ الرَّأْسِ، وإخناءِ الظهر، وأَقْصَاهُ الْجَسَدِيُّ يَكُونُ بِوَضْعِ الْجَنْبَةِ على الأرض.

وجاء في نصِّ (البقرة): ﴿وَأَدْخُلُوا أَبْوَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: وسبَقَ بيان الحكمة من هذا التنويع، وهو عدم الإلزام بالترتيب، ولا بالمقارنة، وإنما المطلوب تحقيقُهُما بأيِّ وجه ممكن.

● ﴿نَقِصِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ أي: نَسْتُزِلْكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَعَاصِيَكُمْ، فلا نَكْشِفْهَا لِمَحَاسَبَتِكُمْ عَلَيْهَا.

يقال لغة: غَفَرَ الشيء، يَغْفِرُهُ غَفْراً وَغُفْرَاناً، أي: سَتَرَهُ. ومَعْلُومٌ أَنَّ السَّتْرَ في وقتِ الحساب يَقْتَضِي عدم المحاسبة.

﴿خَطِيئَتِكُمْ﴾: الْخَطِيئَاتُ جمع «الخطيئة» وتُطْلَقُ على الذَّنْبِ صَغِيراً

كَانَ أُمٌ كَبِيرًا. وَتُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى الْفِعْلِ الْمُخَالَفِ لِلصَّوَابِ بِدُونِ قَصْدٍ.
وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْمُرَادُ هُنَا.

وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ الْقِرَاءَاتِ وَتَوْجِيهَهَا فِي نَصِّي (الأعراف) و(البقرة).

وَفِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ وَغَدٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ بَأَنَّ يَغْفِرَ لَهُمْ خَطِيئَاتِهِمْ
وَخَطَايَاهُمْ، إِذَا دَخَلُوا الْبَابَ سُجَّدًا، وَقَالُوا: «حِطَّة».

● ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فِي (الأعراف) ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فِي
(البقرة) بِفَارِقِ إِضَافَةِ حَرْفِ الْعُطْفِ (الواو) لِبَيَانِ أَنَّ الْفَضْلَ وَالْوَضْلَ فِي مِثْلِ
هَذِهِ الْجُمْلَةِ مُتَكَافِئَانِ بِلَاغِيًّا.

فَالْفَضْلُ عَلَى تَقْدِيرِ سَوَالٍ مَطْوِيٍّ: إِذَا كَانَ حَالُ الْخَطَّائِينَ أَنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ
لَهُمْ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ كَامِلِي التَّقْوَى، فَالْأَبْرَارِ، فَالْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي
أَعْلَى الْمَرَاتِبِ؟

وَالْجَوَابُ: سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ، أَيِ: وَالْأَبْرَارِ، وَكَامِلِي التَّقْوَى، لِأَنَّ
هَؤُلَاءِ أَكْمَلَ حَالًا مِنَ الَّذِينَ لَهُمْ خَطِيئَاتٌ أَوْ خَطَايَا، أَجْرًا عَظِيمًا.
وَهَذَا الْفَصْلُ يُحَسِّنُهُ مِرَاعَاةُ أَحْوَالِ الْفُطْنَاءِ.

وَالْوَضْلُ يُحَسِّنُهُ تَوَافُقُ الْجُمْلَتَيْنِ، فِي كَوْنِهِمَا خَبَرًا وَوَعْدًا كَرِيمًا
مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ. وَيُحَسِّنُهُ أَيْضًا مِرَاعَاةُ حَالِ مَنْ لَمْ يَنْقَدِحْ فِي ذَهْنِهِ
السُّؤَالُ الَّذِي سَبَقَ بَيَانُهُ.

الْمُحْسِنُونَ: هُمُ الَّذِينَ اسْتَوْفَوْا حُقُوقَ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، وَزَادُوا أَعْمَالًا
صَالِحَةً مِنْ أَعْمَالِ مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ وَاجِبَةً عَلَيْهِمْ، وَرَاقَبُوا اللَّهَ
فِي أَعْمَالِهِمْ، فَاحْسَنُوهَا، وَجَوَّدُوهَا، فَكَانُوا مُحْسِنِينَ بِهَا، يَعْْبُدُونَ اللَّهَ كَأَنَّهُمْ
يَرَوْنَهُ.

دَلَّ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ عَنْ طَرِيقِ اللَّزُومِ الذَّهْنِيِّ

على أَنَّ اللَّهَ سَيَزِيدُ مِنْ فَضْلِهِ كَامِلِي الثَّقْوَى، وسيزيد الأبرار، كما يزيد المحسنين، ولكنَّ الزيادة الَّتِي يَمْنَحُهَا اللَّهُ لِمَنْ هُمْ أَحْسَنُ حَالاً مِنْ ذَوِي الْخَطِيئَاتِ تَأْتِي بِحَسَبِ رِزْقَانِهِمْ فِي دَرَجَاتٍ مَرَابَتِهِمْ فَحِكْمَةُ اللَّهِ تَقْتَضِي ذَلِكَ كَمَا اقْتَضَتْ زِيَادَةُ الْعَطَاءِ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْ فَضْلِهِ.

قول الله تعالى في سورة (الأعراف):

• ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٢).

وقولُ اللَّهِ تعالى في سورة (البقرة):

• ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٥٩).

سبق بيان التكامل في هذين النصين.

لَقَدْ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ظَالِمُونَ كَثِيرُونَ بَدَّلُوا الْقَوْلَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ، فَحَرَّفُوا فِي التَّصَوُّصِ، وَعَمِلُوا عَلَى خِلَافِ شَرِيعَةِ اللَّهِ لَهُمْ، وَعَصَوْا أَوَامِرَ اللَّهِ وَنَوَاهِيَهُ، فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَذَابٍ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ مُرْسَلًا، بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَظْلِمُونَ فَاسْقِينَ خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: هَذِهِ الْعِبَارَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ عَصَوْا اللَّهَ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَحَرَّفُوا فِي دِينِ اللَّهِ، وَوَصَفَ اللَّهُ الْمُبْدِلِينَ بِأَنَّهُمْ قَدْ ظَلَمُوا، أَي: تَجَاوَزُوا حُدُودَ اللَّهِ. إِنَّ تَبْدِيلَ قَوْلِ اللَّهِ التَّكْلِيفِي يَكُونُ بِوَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: هو التحريف في القول، أو وضع قولٍ آخر بدله، كما فَعَلَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي كُتُبِهِمُ الْمَنْزَلَةِ، وَفِي أَقْوَالِ أَنْبِيَائِهِمْ وَرُسُلِهِمْ، فَكَتَبُوا أَقْوَالاً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى خِلَافِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَنَسَبُوهَا إِلَى اللَّهِ، وَكَتَبُوا

أَقْوَالاً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَنَسَبُوهَا إِلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَرُسُلِهِمْ عَلَى خِلَافِ مَا قَالَ لَهُمْ أَنْبِيَائُهُمْ وَرُسُلُهُمْ .

الوجه الثاني: هو الْعَمَلُ بِخِلَافِ أَقْوَالِ اللَّهِ وَأَقْوَالِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ التَّكْلِيفِيَّةِ .

وقد دَلَّ عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ بِخِلَافِ الْقَوْلِ التَّكْلِيفِيِّ هُوَ مِنَ التَّبْدِيلِ لَهُ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ عَنِ الرُّسُولِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، لِأَدَاءِ الْعِمْرَةِ، وَهِيَ الْعِمْرَةُ الَّتِي صَدَّ مَشْرُكُو قُرَيْشِ الرُّسُولَ وَمَنْ مَعَهُ عَنْ أَدَائِهَا، فِي سُورَةِ (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول).

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرٍ لِنَاخِذُهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ :

فَبَانَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، أَنَّ مُخَالَفَةَ قَوْلِ اللَّهِ التَّكْلِيفِيِّ هُوَ مِنْ تَبْدِيلِ كَلَامِ اللَّهِ، إِذْ نَهَى اللَّهُ رَسُولَهُ عَنْ أَنْ يَأْذَنَ لَهُؤُلَاءِ الْمُخَلَّفِينَ بِأَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ إِلَى فَتْحِ قَرِيبٍ، يُحَقِّقُ اللَّهُ فِيهِ لِلْمُؤْمِنِينَ مَغَائِمَ كَثِيرَةً، وَحِينَ لَمْ يَأْذَنَ لَهُمُ الرُّسُولُ تَنْفِيذاً لِقَوْلِ اللَّهِ بِأَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ، كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُخَلَّفُونَ يُرِيدُونَ الْخُرُوجَ مَعَهُ بِدَافِعِ الطَّمَعِ، وَلَوْ كَانَ فِي هَذَا الْخُرُوجِ مُخَالَفَةً لِقَوْلِ اللَّهِ التَّكْلِيفِيِّ .

وقد كان كثير من بني إسرائيل في أيام صحَّةِ رِسَالَةِ رُسُلِهِمْ، وَقِيَادَةِ أَنْبِيَائِهِمْ لَهُمْ يُبَدِّلُونَ كَلَامَ اللَّهِ بِالْمَعَاصِيِ وَالْمُخَالَفَاتِ، وَيُطَبِّقُونَ بِأَعْمَالِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ قَوْلًا مُخَالَفًا لِلْقَوْلِ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فِي كِتَابِ رَبِّهِمْ، أَوْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِمْ وَأَنْبِيَائِهِمْ، عُصَاةَ ظَالِمِينَ فَاسِقِينَ، بَعْدَ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمُ الْقَرْيَةَ الَّتِي وَعَدَهُمْ أَنْ يَفْتَحَهَا لَهُمْ، وَيَنْصُرَهُمْ بِجِهَادِهِمْ فِي سَبِيلِهِ عَلَى أَهْلِهَا الْكَافِرِينَ الْمُشْرِكِينَ، أَهْلَ الْفِسْقِ وَالْفُجُورِ وَالْأَوْثَانِ .

وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا مِنْهُمْ فِيمَا قَامُوا بِهِ مِنْ فَتْحِ الْقُرَى فِي الْأَرْضِ
الْمَقْدَسَةِ، مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، بَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِقِيَادَةِ نَبِيِّهِمْ «يَسُوعَ» ثُمَّ
بِقِيَادَةِ «صَمُوئِيلَ» ثُمَّ فِي عَهْدِ الْقِضَاءِ، ثُمَّ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ.

وكان من معاصي بني إسرائيل التي بَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ بِهَا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ مَا يَلِي:

(١) الْغُلُولُ فِي الْغَنَائِمِ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ.

(٢) هَذْمُ بَعْضِ الْقُرَى الَّتِي يَفْتَحُهَا اللَّهُ لَهُمْ، وَإِحْرَاقُهَا، وَتَرْكُهَا تَلًّا
خَرَابًا مُتَهَدِّمًا، وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَيَسْكُنُوهَا، بَعْدَ أَنْ يَنْصُرَهُمُ اللَّهُ
عَلَى أَهْلِهَا.

(٣) أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْسُقُونَ، وَيَفْجُرُونَ، وَيُخَالِفُونَ تَعْلِيمَاتِ شَرِيعَةِ اللَّهِ
لَهُمْ.

(٤) وَزَادَ بَغْضُهُمْ فِي تَجَاوُزِهِمْ لِحُدُودِ اللَّهِ، أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا لِأَنْفُسِهِمْ
أَوْثَانًا مِنْ أَوْثَانِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ انْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ، فَعَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ.

(٥) وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِذَا دَخَلُوا الْقَرْيَةَ الَّتِي وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ يَنْصُرَهُمْ
عَلَى أَهْلِهَا، بِأَسْبَابٍ مِنْ لَدُنْهُ، يَدْخُلُونَهَا مُسْتَكْبِرِينَ، مُتَعَاظِمِينَ بِقُوَّتِهِمْ
مُتَفَاخِرِينَ، وَلَا يَدْخُلُونَهَا كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ سَاجِدِينَ، أَيْ: مُطَاطِئِي رُؤُوسِهِمْ
مُتَوَاضِعِينَ لِرَبِّهِمْ، خَاضِعِينَ لَهُ بِقُلُوبِهِمْ، شُكْرًا لَهُ عَلَى مَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ
مِنَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ الْمُبِينِ، وَكَانُوا يَتَحَايِلُونَ فَيَتَقَاصِرُونَ فَيَزْحَفُونَ عَلَى
أَسْتَاهِهِمْ لئَلَّا يُخْنُوا ظُهُورَهُمْ خُضُوعًا لِلَّهِ وَيُوهَمُونَ الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ بِالطَّاعَةِ.

وَكَانُوا لَا يَسْتَغْفِرُونَ كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ يَقُولُوا: حِطَّةٌ، عَنَادًا وَكِبْرًا،
وَسُوءَ طَوِيَّةٍ.

وَكَانُوا بَدَّلَ أَنْ يَقُولُوا: «حِطَّةٌ» بِاعْتِبَارِ هَذَا اللَّفْظِ شَعِيرَةً مِنْ شَعَائِرِ

دخولهم القرية فاتحين، يقولون: «حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ» أو «حِنْطَةٌ فِي شَعِيرَةٍ» سُخْرِيَّةٌ مِنَ الْأَمْرِ الْمَوْجَّه لِهِمْ، وَعَدَمَ إِيمَانٍ بِفَائِدَتِهِ، وَيُوْهَمُونَ الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ بِأَنَّهُمْ مَطِيعُونَ.

روى البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا، وَقُولُوا: حِطَّةٌ، فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ».

وفي رواية أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس، وعن أبي هريرة، أَنَّهُمْ قَالُوا: «حِنْطَةٌ فِي شَعِيرَةٍ».

ولعلَّ بعضهم كانوا يقولون هذا من العصاة، وبعضهم كانوا يقولون الآخر.

وكانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُعَاقِبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لكَثْرَةِ الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ، بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ (أي: مِنْ جَوْ الْأَرْضِ فَوْقَهُمْ) يُنْزِلُهُ عَلَيْهِمْ مُرْسَلًا.

● ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٦)

[الأعراف].

● ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَنفُسُونَ﴾ (١٦٧)

[البقرة].

سبق بيان التكامل في هَذَيْنِ النَّصِّينِ.

﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: هَذَا الْفِعْلُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرْسَلَ مَبْعُوثٌ لِأَدَاءِ وَظِيفَةٍ مُهِمَّةٍ، وَهِيَ هُنَا تَعْذِيبُ الظَّالِمِينَ، وَتَعْذِيبٌ مِنْ سَكَّتُوا عَلَى ظَلَمِهِمْ، فَلَمْ يَرُدُّوهُمْ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ.

﴿فَأَنزَلْنَا﴾: هَذَا الْفِعْلُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَوَامِرَ الْإِرْسَالِ أَوَامِرُ عُلوِيَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ، إِذْ كُلُّ تَصَارِيفِ الْمَقَادِيرِ الرَّبَّانِيَّةِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِيهَا مَعْنَى الْإِنْزَالِ

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَلَوْ كَانَتْ الْأَسْبَابُ أَسْبَاباً أَرْضِيَّةً، لِأَنَّ الْمُتَصَرِّفَ بِكَوْنِهِ هُوَ فِي مَقَامِ الْعُلُوِّ دَوَاماً.

عبارة: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ التي في نَصِّ (البقرة) تُشْعِرُ بِسَبَبِ إِنْزَالِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ، فَبَيَانِ الْوُضْفِ لَدَى إِضْدارِ الْحُكْمِ، أَوْ لَدَى بَيَانِ تَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، يُشْعِرُ أَنَّ هَذَا الْوُضْفَ هُوَ السَّبَبُ الْمُقْتَضِي لذلك.

﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾: أي: عَذَاباً نَّازِلاً عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ جَوْ الْأَرْضِ هُوَ سَمَاءٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، فَكُلُّ مَا هُوَ فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ يُسَمَّى فِي اللُّغَةِ سَمَاءً.

أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

«كُلُّ شَيْءٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الرِّجْزِ يَغْنِي بِهِ الْعَذَابُ».

أي: الوسيلة التي يَكُونُ بِهَا حُصُولُ الْعَذَابِ لِلْمُعْذِبِينَ.

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ،

وَحُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ قَالُوا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ رِجْزٌ، وَبَقِيَّةُ عَذَابٍ عَذَّبَ بِهِ أَنَاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ، فَإِذَا

كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا، وَإِذَا بَلَغَكُمْ أَنَّهُ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا».

﴿يَمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ في (الأعراف) و﴿يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ في

(البقرة): أي: بسبب ما كَانُوا يَتَجَاوَزُونَ حُدُودَ اللَّهِ فَاسِقِينَ عَنْ طَاعَتِهِ،

مُعْرِضِينَ أَنْفُسَهُمْ لِلْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ وَعِقَابِ اللَّهِ لَهُمْ.

وقد سَبَقَ فِي نَظَرَاتِ التَّكَامُلِ بَيْنَ نَصِّي (الأعراف) و(البقرة) بَيَانِ

الْفِسْقِ بِمَا يَكْفِي.

أَمَّا الظُّلْمُ فِي اللُّغَةِ: فَهُوَ تَجَاوُزُ الْحَدِّ، وَوَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ

مَوْضِعِهِ.



عبادة بغض بني إسرائيل الأوثان أخذاً من كتبهم .

جاء في الإصحاح الثاني من سفر القضاة ما يلي :

« ١١ » وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَي الرَّبِّ وَعَبَدُوا الْبَغْلِيمَ ١٢ وَتَرَكُوا الرَّبَّ إِلَهَ آبَائِهِمُ الَّذِي أَخْرَجَهُمْ مِنْ مِصْرَ وَسَارُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ وَسَجَدُوا لَهَا وَأَغَاظُوا الرَّبَّ ١٣ تَرَكُوا الرَّبَّ وَعَبَدُوا الْبَغْلَ وَعَشْتَارُوتُ^(١) ١٤ فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ فَدَفَعَهُمْ بِأَيْدِي نَاهِيهِمْ وَبَاعَهُمْ بِيَدِ أَعْدَائِهِمْ حَوْلَهُمْ وَلَمْ يَقْدِرُوا بَعْدَ عَلَى الْوُقُوفِ أَمَامَ أَعْدَائِهِمْ ١٥ حِينَما خَرَجُوا كَانَتْ يَدُ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ لِلشَّرِّ. كَمَا تَكَلَّمَ مُوسَى وَكَمَا أَقْسَمَ الرَّبُّ لَهُمْ. فَضَاقَ بِهِمُ الْأَمْرُ جِدًّا .

الفقرة العاشرة

المعتدون في السبت من بني إسرائيل

الآيات من (١٦٣ - ١٦٦) وهي آيات مدنية التنزيل مضمومة بالوحي إلى موضعها من سورة (الأعراف) المكية لمراعاة اقتضائين : المناسبة الفكرية، والحكمة التنزيلية في العهد المدني حيث ظهر الاحتكاك مع اليهود.

قال الله عز وجل :

﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبُتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَا إِلَهَ مِثْلُ اللَّهِ هَلْ نَحْنُ مُعَذِّبُهُمْ أَمْ عَدَا بَأْسُهُمْ شِدِيدٌ قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَيْنَا رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْأَسْوَءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا

(١) سبق قريباً تفسير وثني «البعل» و«عشتاروت» انظر الصفحة (٦٥٥).

يُعَذِّبُ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ .

القراءات :

(١٦٣) • قرأ ابنُ كثير، والكِسَائِي، وَخَلْفَ : [وَسَلَّهْمُ].

وقرأ باقي القراء العَشْرَةَ : ﴿وَسَلَّهْمُ﴾ .

والقراءتان وجهان عريان لنطق فعل الأمر من فعل «سأل» .

(١٦٣) • قرأ يعقوب : [تَأْتِيَهُمْ] بضم هاء الضمير في الموضعين .

وقرأ باقي القراء العَشْرَةَ : ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾ بِكسر هاء الضمير في

الموضعين . وهما وجهان عَرَبِيَّان لنطق هاء الضمير التي يأتي بعدها ميم الجمع .

(١٦٤) • قرأ حفصُ : ﴿مَعْدِرَةٌ﴾ بالنُّضْب، أي : لأجل المعذرة،

مفعول لأجله .

وقرأ باقي القراء العشرة : [مَعْدِرَةٌ] بالرَّفْع، أي : موعِظَتُنَا لهم مَعْدِرَةٌ،

فالكلمة خبرٌ لمبتدأٍ محذوف .

والقراءتان وجهانِ عَرَبِيَّانِ صحيحان، والمؤدَّى واحد .

(١٦٥) • قرأ نافع، وأبو جَعْفَرُ : [بِئْسَ] بياء ساكنة مدية .

وقرأ ابنُ عامرٍ : [بُئْسَ] بهَمْزَة ساكنة .

وقرأ شعبة في أَحَدِ وَجْهَيْنِ له : [بِئْسَ] بياء ساكنة بعدها همزة

مفتوحة .

وقرأ باقي القراء العَشْرَةَ : [بِئْسَ] بهَمْزَة مَكْسُورَة بَعْدَهَا ياء مدية .

والمعنى في هذه القراءات ذات الوجوه في نطق الكلمة أَنَّ العذاب

الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ بِهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ الْبُؤْسِ وَالضَّرِّ .

وقد ذُكر الله بني إسرائيل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول)
بالحدث الذي تضمنته هذا النص، فقال عز وجل فيها:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٥﴾ فَعَمِلْنَهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾﴾ .

وَخَاطَبَهُمْ فِي سُوْرَةِ (النِّسَاءِ/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بقوله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ .

وَأَبَانَ لَهُمْ فِي سُوْرَةِ (النِّسَاءِ) أَيضًا، أَنَّهُ نَهَاَهُمْ عَنِ أَنْ يَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ بِالْعَمَلِ فِيهِ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا، فَتَقَضُّوا مِيثَاقَهُمْ، وَاسْتَحَقُّوا عِقَابَ اللَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٩﴾﴾ .

تمهيد:

لَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَعْمَالَ الْكَسْبِ يَوْمَ السَّبْتِ، وَشَدَّدَ عَلَيْهِمُ التَّحْرِيمَ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا أَنْ لَا يَعْمَلُوا فِيهِ عَمَلًا مَا مِنْ أَعْمَالِ دُنْيَاهُمْ .

وَذَكَرَ أَنْ سَبَبَ هَذَا التَّشْدِيدِ، أَنَّ بَنِي إِسْرَآئِيلَ اخْتَارُوهُ بَدَلَ الْجُمُعَةِ .
الَّذِي أَنهَى اللَّهُ فِيهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . فَقَالُوا: نَأْخُذُ يَوْمَ السَّبْتِ، لِأَنَّهُ الْيَوْمَ الَّذِي ارْتَاحَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ عَمَلِيَّاتِ الْخَلْقِ بِرَغْمِهِمْ، وَهَذَا افْتِرَاءٌ مِنْهُمْ عَلَى اللَّهِ جُلَّ جَلَالِهِ، لِأَنَّهُ لَا يُكَلِّفُهُ الْخَلْقُ أَكْثَرَ مِنْ أَمْرِ التَّكْوِينِ، فَلَا يَمَسُّهُ تَعَبٌ وَلَا لُغُوبٌ .

فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَكَلَّفَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ يَوْمًا لَا يَقُومُونَ فِيهِ بِأَيِّ

عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا، وَإِلَّا عَاقَبَهُمْ عِقَاباً شَدِيداً، وَثَبَّتَ عَلَيْهِمْ هَذَا التَّكْلِيفَ.

وَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بِالرَّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَوْماً خَاصّاً لاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ فِي صَلَاةٍ جَامِعَةٍ، وَقَصَرَ تَحْرِيمَ الْعَمَلِ فِي هَذَا الْيَوْمِ عَلَى مُمَارَسَاتِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَنَحْوِهِمَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَجِبُ فِيهِ السَّغْيُ لِحُضُورِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَخُطْبَتَيْهَا، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ جَازَ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ، وَيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَرْزَاقَهُمْ وَمَكَاسِبَهُمْ.

لَكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ اقْتَرَحُوا عَلَى رَبِّهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ، فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ بِالْتِّزَامِ عَدَمَ الْعَمَلِ فِيهِ مِيثَاقاً غَلِيظاً، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) الْآئِفَ الذِّكْرُ:

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ (١٥٤).

وَجَاءَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١١٢).

وَفَسَّرَ مُجَاهِدٌ اخْتِلَافَهُمْ فِيهِ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَتَرَكُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، أَي: اقْتَرَحُوهُ عَلَى رَبِّهِمْ بَدَلَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُمْ، وَلَكِنْ شَدَّدَ عَلَيْهِمْ التَّكْلِيفَ فِيهِ، فَالْزَمَهُمْ وَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَعْمَلُوا فِيهِ أَيَّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا، فَإِذَا عَمِلُوا فِيهِ وَعَصَوْا رَبَّهُمْ عَاقَبَهُمُ اللَّهُ عِقَاباً شَدِيداً، مَا دَامَتْ شَرِيعَةُ مُوسَى مَعْمُولاً بِهَا لَمْ تُنْسَخْ أَوْ يُنْسَخَ مِنْهَا أَحْكَامُ تَكْلِيفِيَّةٍ فِي شَرِيعَةٍ لَاحِقَةٍ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاءَ بِشَرِيعَةٍ أَحَلَّ اللَّهُ فِيهَا بَعْضَ مَا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَى الْيَهُودِ.

أما محمد بن عبد الله فقد بعثه الله بالشرعة الباقية أحكامها حتى آخر ممتحن مكلف في الحياة الدنيا، والناسخة لكل الأحكام التي كانت لها صفة الأحكام العلاجية المؤقتة.

وفي هذه الآية من سورة (النحل) أبان الله عز وجل أنه ما جعل السبب وأحكامه الشديدة، إلا على بني إسرائيل الذين اختلفوا على ربهم فيه، فاقترحوه عليه بدل يوم الجمعة.

ومثل هذه المقترحات على الله هي من قبيل التدخل في خصائص ربوبية الرب جل جلاله وعظم سلطانه، الذي له الخلق، وله الأمر، وله الحكم، وله التشريع، تبارك الله رب العالمين.

فجعل الله السبب خاصاً ببني إسرائيل، المكلفين أن يعملوا بشريعة موسى، وجعل أحكامه وعقوبات مخالفتها مشددة عقوبة لهم، وقد لصقت بهم حتى جاء نسخها في رسالة ربانية لاحقة.

روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيِّدَ أَتْنَهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا. ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ (يَعْنِي يَوْمَ الْجُمُعَةِ) فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَذَا اللَّهُ لَهُ، فَالْإِنْسَانُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدَاً، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ».

وروى مسلم عن أبي هريرة، وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قالاً: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ. وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَذَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ».

قِصَّةُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ :

إِنَّ الْقِصَّةَ الَّتِي أَشَارَتْ إِلَيْهَا النُّصُوصُ الْقِرَائِيَّةُ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا، مِنْ قِصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَدْ كَانَتْ مَعْرُوفَةً مَشْهُورَةً بَيْنَهُمْ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَغْزِرْ عَلَيْهَا فِي أَسْفَارِهِمُ الْمَدُونَةَ، الَّتِي دَوَّنُوا فِيهَا تَارِيخَهُمْ، وَجَعَلُوهَا كُتُبًا مُقَدَّسَةً، وَأَعْلَنُوهَا.

لَكِنِّي وَجَدْتُ مَا يُشِيرُ إِلَيْهَا فِي سِفْرِ «نَحْمِيَا» فِي الْإِضْحَاحِ الثَّالِثِ عَشَرَ مِنْهُ، فَقَدْ جَاءَ فِيهِ قَوْلُ «نَحْمِيَا».

«١٥ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ رَأَيْتُ فِي يَهُودَا قَوْمًا يَدُوسُونَ مَعَاصِرَ فِي السَّبْتِ. وَيَأْتُونَ بِحُزَمٍ. وَيَحْمِلُونَ حَمِيرًا. وَأَيْضًا يَدْخُلُونَ أُورُشَلِيمَ (أَي: الْقُدْسِ) فِي يَوْمِ السَّبْتِ بِخَمِيرٍ وَعِنَبٍ وَتِينٍ وَكُلِّ مَا يُحْمَلُ. فَأَشْهَدْتُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَيْنِهِمُ الطَّعَامَ ١٦ وَالصُّورِيُّونَ السَّاكِنُونَ بِهَا كَانُوا يَأْتُونَ بِسَمَكٍ وَكُلِّ بِضَاعَةٍ وَيَبِيعُونَ فِي السَّبْتِ لِبَنِي يَهُودَا. وَفِي أُورُشَلِيمَ ١٧ فَخَاصَمْتُ عُظَمَاءَ يَهُودَا وَقُلْتُ لَهُمْ: مَا هَذَا الْأَمْرُ الْقَبِيحُ الَّذِي تَعْمَلُونَهُ وَتُدْنُسُونَ يَوْمَ السَّبْتِ؟! ١٨ أَلَمْ يَفْعَلْ آبَاؤُكُمْ هَكَذَا فَجَلَبَ إِلَهُنَا كُلَّ هَذَا الشَّرِّ وَعَلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ؟! وَأَنْتُمْ تَزِيدُونَ غَضَبًا عَلَى إِسْرَائِيلَ إِذْ تُدْنُسُونَ السَّبْتِ?!»

هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قِصَّةَ عُذْوَانِ آبَائِهِمْ عَلَى حُزْمَةِ يَوْمِ السَّبْتِ، الَّذِي هُوَ سَبْتُ عَلَيْهِمْ، وَانْتِقَامِ اللَّهِ مِنْهُمْ قِصَّةً مَعْرُوفَةً لَدَيْهِمْ، فَقَدْ مَسَحَ اللَّهُ الَّذِينَ عَنَوْا وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِتَنْهِي وَعَظِيمِهِمْ، مُسْتَهِينِينَ مُسْتَكْبِرِينَ مُتَمَادِينَ فِي غَيْبِهِمْ، عَلَى أَشْكَالِ الْقِرْدَةِ.

خلاصة القصة كما ذكرها أئمة تفسير القرآن :

وخلاصةُ القِصَّةِ أَخْذًا مِمَّا ذَكَرَهُ أئمةُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، هِيَ أَنَّ سُكَّانَ قَرْيَةٍ مِنَ الْقُرَى الَّتِي تَقَعُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، قِيلَ: هِيَ «أَيْلَةَ» أَيْ: «الْعَقَبَةُ» الْيَوْمَ. وَقِيلَ: «طَبْرِيَّة» أَوْ قَرْيَةُ أُخْرَى كَانَتْ عَلَى خَلِيجِ الْعَقَبَةِ مِنْ

الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَكَانَ سُكَّانُهَا الْإِسْرَائِيلِيُّونَ صَيَّادِي سَمَكٍ، وَكَانُوا كَثِيرِي ظُلْمٍ وَفَسْقٍ.

فشاء الله بإرادته الحكيمة أَنْ يَخْتَبِرَهُمْ، هَلْ يَلْتَزِمُونَ بِحُرْمَةِ يَوْمِ السَّبْتِ، الَّذِي يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ فِيهِ أَنْ يَقُومُوا بِعَمَلٍ مَا مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا، وَمِنْهَا صَيْدُ السَّمَكِ أَوْ بَيْعُهُ، أَمْ هُمْ يَغْضُونَ، وَيَعْتَدُونَ، وَيَتَمَرَّدُونَ، وَلَا يَسْتَجِيبُونَ لِمَوْعِظَةٍ وَاعِظٍ مِنْهُمْ؟؟

فجعل الله عَزَّ وَجَلَّ حِثَانِ الْبَحْرِ تَأْتِي إِلَى قُرْبِ سَاحِلِهِمْ ظَاهِرَةً وَافِرَةً يَوْمَ السَّبْتِ، بِخِلَافِ الْأَيَّامِ الْأُخْرَى، إِذْ جَعَلَهَا بِحُكْمَتِهِ تَنْصَرِفُ إِلَى عُمُقِ الْبَحْرِ بَعِيداً عَنْ سَاحِلِهِمْ.

فَصَعَبَ عَلَيْهِمُ الْإِتِمَامُ بِحُرْمَةِ الصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْتِ. إِذْ وَجَدُوا الصَّيْدَ فِيهِ عَمَلاً مُزِيحاً، يُعْطِيهِمْ صَيْدًا وَفِيْرًا، فَعَصَى الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ، فَصَارُوا يَضْطَادُونَ الْأَسْمَاكَ يَوْمَ السَّبْتِ.

فَأَسْرَعَ أَهْلُ الطَّاعَةِ مِنْهُمْ فَتَهَوُّهُمْ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا، فَشَدَّدُوا عَلَيْهِمُ التَّكْيِيرَ، فَتَمَادَوْا فِي غِيِّهِمْ، وَعَتَوْا وَظَلَمُوا وَفَسَقُوا.

فَكَفَّ عَنْ مُتَابَعَةِ وَعَظِهِمْ فَرِيقٌ، إِذْ يَتَّبِعُونَ مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ. وَتَابَعَ فَرِيقٌ آخَرَ مَوْعِظَتَهُمْ، إِذْ مَا زَالَ لَدَيْهِمْ رَجَاءٌ مَا بَأَنْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ.

وَجَرَى جِوَارٍ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ:

فَقَالَ الَّذِينَ كَفُّوا عَنْ مُتَابَعَةِ وَعَظِ الْمُعْتَدِينَ، وَأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، لِلْفَرِيقِ الْآخَرِ الَّذِينَ مَا زَالُوا يُتَابِعُونَ إِنْكَارَ الْمُنْكَرِ وَالتَّحْذِيرَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ: لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ وَقَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةِ مَيُؤُوسٍ مِنْهَا، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُهْلِكََهُمُ اللَّهُ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا.

فَأَجَابَ الْفَرِيقُ الْمَتَابِعُ: نُرِيدُ أَنْ نُقَدِّمَ عُذْرَنَا إِلَى رَبِّنَا، بِأَنَّنَا لَمْ نُقْصِرْ

بما يجبُ عَلَيْنَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ .
وَلَا يَزَالُ يُوجَدُ لَدَيْنَا رَجَاءٌ مَا بَأْسُ يَسْتَجِيبُ بَعْضَهُمْ .

فَلَمَّا عَتَا الْعَصَاةَ مَسَخَهُمُ اللَّهُ قِرْدَةً ، وَأَنْزَلَ بِهِمْ عَذَاباً أَلِيماً شَدِيداً
مُوجِعاً مُهِيناً .

وَأَنْجَى اللَّهُ الَّذِينَ كَانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ مَنْ كَفَّ مِنْهُمْ ، وَمَنْ تَابَعَ
وَاعْطَا ، آمراً بِالْمَعْرُوفِ وَنَاهياً عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَنَاصِحاً .

التدبر التحليلي :

تمهيد :

هذا النصُّ مَدْنِيُّ التَّنْزِيلِ ، وَقَدْ نَزَلَ الْوَحْيُ بِضَمِّهِ إِلَى سُورَةِ (الأعراف)
الَّتِي هِيَ مِنْ أَوَاسِطِ التَّنْزِيلِ الْمَكِّيِّ .

وَالْحِكْمَةُ مِنْ هَذَا الْإِجْرَاءِ مِرَاعَاةُ اقْتِضَاءَيْنِ :

الْاِقْتِضَاءُ الْأَوَّلُ : أَنَّ سُورَةَ (الأعراف) الْمَكِّيَّةَ تَشْتَمِلُ عَلَى أَحْدَاثٍ كَثِيرَةٍ
مِنْ أَحْدَاثِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَالْمُنَاسِبَةُ الْفِكْرِيَّةُ تَسْتَدْعِي ضَمَّهُ إِلَيْهَا .

الْاِقْتِضَاءُ الثَّانِي : أَنَّ الْمَرْحَلَةَ الْمَكِّيَّةَ مِنْ تَارِيخِ دَعْوَةِ الرُّسُولِ
مُحَمَّدٌ ﷺ لَمْ يَكُنْ فِيهَا بَيْنَ الرُّسُولِ وَبَيْنَ الْيَهُودِ احْتِكَاكٌ مَا ، لِأَنَّ الْيَهُودَ
عِنْدَ نُزُوحِهِمْ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ إِلَى دَاخِلِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ اخْتَارُوا أَنْ يَسْتَوْطِنُوا
«يَثْرِبَ» لِأَنَّ صِفَاتَهَا مُطَابِقَةً لَصِفَاتِ الْبَلَدِ الَّذِي سَيُظْهِرُ فِيهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ
الْمُبَشِّرُ بِهِ فِي كُتُبِهِمْ ، وَكَانُوا يُحِبُّونَ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

وَقَدْ صُدِّرَ النَّصُّ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرُسُولِهِ : ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ
الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾ وَالْمَرَادُ سُؤَالُ الْيَهُودِ ، وَقَدْ كَانَتْ لِلْيَهُودِ قَبَائِلُ
ثَلَاثٌ فِي «يَثْرِبَ» ذَاتِ النَّخِيلِ ، وَقَدْ سَمَّاهَا الرُّسُولُ ﷺ الْمَدِينَةَ بَعْدَ هِجْرَتِهِ
إِلَيْهَا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي مَكَّةَ إِقَامَةٌ وَلَا احْتِكَاكٌ بِالرُّسُولِ وَلَا بَدْعُوته .

فكان من الحكمة تأخير إنزال النص إلى العهد المدني من تاريخ دعوة الرسول.

يُضَافُ إِلَى هَذَا أَنَّ الْقِصَّةَ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا هَذَا النَّصُّ، مِمَّا وَارَاهُ الْيَهُودُ عَنِ الْأَنْظَارِ، وَلَمْ يُدَوِّنُوهُ فِي كُتُبِهِمُ الْمَعْلَنَةِ، لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى مَسْخِ الْعُتَاةِ الْمُعْتَدِينَ مِنْهُمْ فِي السَّبْتِ قِرَدَةً، وَهُمْ مِنْ آبَائِهِمُ الَّذِينَ يَفْتَخِرُونَ بِهِمْ، وَيَعْتَبِرُونَهُمْ مِنْ أَبْنَاءِ اللَّهِ وَأَحِبَّائِهِ.

وَكَانَ تَصْدِيرُ النَّصِّ بِالْأَمْرِ بِسُؤَالِهِمْ مَقْصُودًا، إِذِ الْقَصْدُ إِعْلَامُهُمْ بِأَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْ عَلِيمٍ حَكِيمٍ خَبِيرٍ، فَهَذِهِ الْقِصَّةُ لَا يَغْرِفُهَا غَيْرُ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ يَكُونُ عِلْمُهُمْ بِهَا مُعْتَمَدًا عَلَى الزَّوَايَاتِ الشَّفْهِةِ فَقَطْ، وَإِذَا كَانَتْ مُدَوَّنَةً فَهِيَ فِي كُتُبٍ يُخْفُونَهَا وَلَا يُغْلِبُونَهَا، فَلَا يُمَكِّنُ الْإِطْلَاقَ عَلَيْهَا فِي مَكْتُوبَاتِهِمُ الْمَعْلَنَةِ.

وَلَا ضَيْرَ أَنْ لَا يَغْتَرِفُوا بِوُجُودِهَا فِي تَارِيخِهِمْ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ، إِذْ يَكْفِي أَنْ يُقِيمَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْهِ، إِذْ هُمْ يَغْرِفُونَهَا وَيَكْتُمُونَهَا، وَاللَّهُ يُحَاسِبُهُمْ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ.

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ...﴾ (١١٣) ﴿: هَذَا

الْخَطَابُ مُوجَّهٌ أَوَّلًا لِلرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلِكُلِّ مَنْ يَهْتَمُّ بِدَعْوَةِ الْيَهُودِ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْخَاتَمِ.

الْقَرْيَةُ: تُطْلَقُ عَلَى كُلِّ مَجْمَعٍ سَكَنِي ذِي أَبْنِيَّةٍ ثَابِتَةٍ، سِوَاءِ أَكَانَ صَغِيرًا أَمْ كَبِيرًا، وَلَوْ بَلَغَ مَدِينَةً عَظْمَى. وَقَدْ تُطْلَقُ عَلَى قُرَى مُتَقَارِبَةٍ تَمَثَّلُ فِي مَجْمُوعِهَا وَخَدَّةً إِدَارِيَّةً كَقُرَى قَوْمِ لُوطَ، وَقُرَى قَوْمِ شَعِيبَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

• ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾: يَدُلُّ هَذَا الْوَصْفُ لِهَذِهِ الْقَرْيَةِ عَلَى أَنَّهَا عِنْدَ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ قَدْ اخْتَلَفَ وَضْعُهَا عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ اخْتِلَافَ خَرَابٍ أَوْ غَيْرِهِ، كَانِحِسَارٍ مَاءِ الْبَحْرِ عَنْهَا.

قيل: هي «أَيْلَة» أي: العقبة. وقيل: «طبرية». وقيل غير ذلك، والله أعلم، وَتَحْدِيدُهَا لَا يَزِيدُ فِي الْعِبْرَةِ الْمَقْصُودَةِ شَيْئاً.

والمراد بكونها حاضرة البحر، كونها قريبة منه، وقد تكون متصلةً بساحله، فحاضرو المياها في اللغة هم الكائنون قريباً منها، أو المشرفون عليها، أو المتصلون بها.

ويراد بالسؤال عن القرية السؤال عن أهلها، وعن قصتهم التي جرت لهم، إذ كانوا يَسْكُنُونَهَا، فأخذوا فيها أحداثاً انتهت بمسح عصاتهم العتاة على أشكال القُرود.

إطلاق لفظ «القرية» وإرادة أهلها مجاز مشهور، وهو نوع من أنواع المجاز المرسل، وهو هنا من إطلاق المحل وإرادة الحال فيه، أو هو من قبيل حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

● ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾:

﴿إِذْ﴾ ظرفية بمعنى «الحين».

﴿يَعْدُونَ﴾: أي: يظلمون، يُقال لغة: عَدَا يَعْدُو عَدَواً وَعَدَواً، أي: ظلم.

وقد كان معظم أهل هذه القرية يعدون في السبت، أي: يظلمون أنفسهم بمعصية الله في انتهاك حرمة يوم السبت، الذي حرّم الله عليهم فيه الأعمال الدنيوية، وهو من الإضر الذي حمّله الله عليهم بسبب ظلمهم وعنادهم وقسوتهم.

﴿فِي السَّبْتِ﴾: أي: في اليوم المعروف من الأسبوع، بعد الجمعة وقبل الأحد.

فالمعنى: واسألهم عن خبر أهل القرية التي كانت قائمة بقرب البحر،

حِينَ كَانُوا يَغْدُونَ ظَالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فِي الْعَمَلِ وَالصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْتِ، وَكَانُوا يُمَارِسُونَ هَذِهِ الْمَعْصِيَةَ دَوَامًا، بِدَلِيلِ اسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ: ﴿يَعْدُونَ﴾.

فكلمة ﴿إِذَا﴾ ظرف للمسؤول عنه، والمسؤول عنه هُوَ خَبَرُهُمْ: وَقَصَّتُهُمْ، وَمَا جَرَى مِنْهُمْ وَعَلَيْهِمْ. وهذه مُقَدَّرَاتٌ ذَهْنًا بَيْنَ ﴿عَنِ﴾ وَبَيْنَ ﴿الْقَرْيَةِ﴾.

قول الله تعالى:

• ﴿إِذَا تَأْتِيهِمْ حَيْتَانُ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ...﴾ (١١٣)

أي: حين كانت تأتِيهم حيتَانُ بَحْرِهِم الذي تَقَعُ قَرْيَتُهُمْ قَرِيبًا مِنْهُ، يَوْمَ دُخُولِهِمْ فِي زَمَنِ السَّبْتِ ظَاهِرَةً وَافِرَةً.

يقال لغة: سَبَتَ يَسْبِتُ وَيَسْبِتُ، وَأَسْبَتَ، أَي: دَخَلَ فِي زَمَنِ يَوْمِ السَّبْتِ، كَمَا يُقَالُ: أَضْحَى، أَي: دَخَلَ فِي زَمَنِ الضُّحَى. وَامْسَى، أَي: دَخَلَ فِي زَمَنِ الْمَسَاءِ.

﴿شُرْعًا﴾: أَي: مُقْبِلَةً نَحْوَ سَاحِلِهِمْ تَدْخُلُ مَاءَهُمْ، قَادِمَةً مِنْ غَمْرِ الْبَحْرِ إِلَى جَانِبِهِ الضُّخْل. واللفظ منصوب على أَنَّهُ حَالٌ.

يُقَالُ لُغَةً: حَيْتَانُ شُرْعٌ، أَي: شَارِعَاتٌ مِنْ غَمْرَةِ الْمَاءِ إِلَى الْجُدِّ. وَجُدُّ كُلِّ شَيْءٍ جَانِبُهُ.

ويقال: دَوَابُّ شُرْعٌ، إِذَا دَخَلَتِ الْمَاءَ.

والمراد دُخُولُ الْحَيْتَانِ إِلَى الْمَاءِ الْقَرِيبِ مِنْ سَاحِلِ قَرْيَتِهِمْ.

الْحُوتُ: السَّمَكَةُ صَغِيرَةٌ كَانَتْ أَمَّ كَبِيرَةٍ، وَيَجْمَعُ لَفْظُ «حُوتٍ» عَلَى «حَيْتَانٍ» وَ«أَحْوَاتٍ».

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْئُرُونَ﴾ : أي : وَيَوْمَ لَا يَكُونُونَ داخلين في زَمَنِ السَّبْتِ من أيام الأسبوع. أُطلق لفظ «يوم» وأريدَ بِهِ معنى «حين» أي : وحين يكونون في يومٍ آخَرَ غيرَ يومِ السَّبْتِ ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ إلى قرب شاطئهم حيثانُ بخرهم.

وإضافة الحيتان إليهم في عبارة : ﴿حَيْثَانُهُمْ﴾ هي على تقدير : حيتانُ بحرِ قزيتهم، أو حيتانُ ابتلائهم وامتحانهم، فالإضافة تكفي فيها أدنى علاقةٍ تصلُ المضافَ بالمُضافِ إليه.

قولُ الله تعالى :

• ﴿كَذَلِكَ بَلَّوْهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ :

أي : كَذَلِكَ الامْتِحَانِ الشَّدِيدِ الَّذِي امْتَحَنَاهُمْ بِهِ، إِذْ حَرَمْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَلَ مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا يَوْمَ السَّبْتِ، وَمِنْهُ صَيَدُ الْحَيْتَانِ، قَدْ جَعَلْنَا الْحَيْتَانَ تَأْتِي إِلَى قُرْبِ سَاحِلِهِمْ مِنْ غَمْرِ الْبَحْرِ يَوْمَ السَّبْتِ، وَتَبْقَى فِي غَمْرِ الْبَحْرِ بَعِيداً عَنْهُمْ سَائِرِ الْأَيَّامِ، وَنَحْنُ نَشْدُدُّ عَلَيْهِمُ الْامْتِحَانَ دَوَاماً بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَفْسُقُونَ دَوَاماً، فَيَخْرُجُونَ عَنْ حَدَائِقِ الطَّاعَةِ إِلَى أَوْحَالِ الْمَعْصِيَةِ، وَبَعْدَ الْامْتِحَانِ الشَّدِيدِ عَلَى نَفْسِهِمْ، يَغْدُونَ وَيَتَمَرَّدُونَ حَتَّى يَصِلُوا إِلَى دَرَكَةِ الْعُتُوِّ، وَهُوَ الطُّغْيَانُ بِاسْتِكْبَارٍ وَعِنَادٍ، وَعِنْدَئِذٍ يَسْتَحَقُّونَ الْعِقَابَ الشَّدِيدَ الَّذِي يَنَاسِبُ عُتُوَّهُمْ وَطُغْيَانَهُمْ، وَاسْتِكْبَارَهُمْ وَعِنَادَهُمْ، وَإِصْرَارَهُمْ عَلَى مَعْصِيَةِ بَارئِهِمْ.

وهذه الشُّدَّةُ فِي الْامْتِحَانِ قَدْ كَانَتْ خَاصَّةً بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، لَتَعَاظِمَ شُرُورِهِمْ، وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَعَلَى بَارئِهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

الْبَلَاءُ وَالْإِتْلَاءُ فِي اللُّغَةِ : الْامْتِحَانُ لِكَشْفِ حَالِ الْمُتَحَنِّينَ.

قولُ الله تعالى :

• ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكَزْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ .

﴿وَإِذْ﴾ ظرف زمانٍ معطوفٌ على مثله في الآية السابقة .

﴿أُمَّةٌ﴾: لفظ «أُمَّة» يُطلق على مجموعةٍ من الناس تَجْمَعُهَا وَخْدَةٌ جامعة . وكان إبراهيم عليه السلام في بداية أمره في قومه أُمَّةٌ وَخْدَه .

﴿تَعِظُونَ﴾: أي: تنصِّحُونَ نُصْحًا مَقْرُونًا بِمَا يُثِيرُ الرِّغْبَةَ والرَّهْبَةَ في النفس، للانتفاع بالنصح، واتباع ما هَدَى إِلَيْهِ من فعل أو ترك .

قال ابنُ سَيِّدَةَ: الوعظُ: هو تَذَكِيرُكَ لِلإنْسَانِ بما يُلَيِّنُ قَلْبَهُ من ثوابٍ وعقابٍ .

﴿قَوْمًا﴾: الْقَوْمُ: جَمَاعَةٌ من النَّاسِ تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ ما يَقُومُونَ بها .

﴿مُهْلِكُهُمْ﴾: أي: مَنَزَلَ بِهِمْ عَذَابًا يُمِيتُهُمْ وَيَسْتَأْصِلُهُمْ به .

﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: أي: عِقَابُهُ لَهُمْ دُونَ إِمَاتَةٍ وَاسْتِئْصَالٍ .

﴿مَعَذَرَةٌ﴾: أي: لِأَجْلِ أَنْ تَرْفَعَ اللَّوْمَ عَن أَنْفُسِنَا عِنْدَ رَبِّنَا، بَأَنَّا لَمْ نَقْصُرْ بِوَجِبِ النَّصْحِ وَالْوَعْظِ وَالتَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ .

يقال لغة: عَذَرَ فُلَانٌ فُلَانًا فِيمَا صَنَعَ، مِمَّا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يَفْعَلَهُ، أَوْ أَنْ لَا يَتْرُكَه: عَذْرًا، وَمَعَذَرَةٌ، أي: رَفَعَ عَنْهُ اللَّوْمَ فِيهِ، إِذْ رَأَى لَهُ حُجَّةً مُقْبُولَةً .

هذه الآية دَلَّتْ بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ، وَبَدَلَالَتِهَا اللَّزُومِيَّةِ الذَّهْنِيَّةِ، عَلَى أَنَّ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الْمُتَحَدِّثِ عَنْهَا فِي النَّصِّ، قَدْ كَانَ فِيهِمْ عُصَاةٌ مُتَمَرِّدُونَ يَغْدُونَ فِي السَّبَبِ ظَالِمِينَ مُتَجَاوِزِينَ حُدُودَ اللَّهِ بِجُرْأَةٍ وَوَقَاحَةٍ . وَكَانَ فِيهِمْ صَالِحُونَ، يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَعِظُونَ الْعُصَاةَ .

وَاسْتَمَرَّ النَّاصِحُونَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُوجِّهُونَ مُوَاعِظَهُمْ لِلْعُصَاةِ

مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، دُونَ أَنْ يَجِدُوا لِمَوَاعِظِهِمْ أَثْرًا فِي الْعَصَاةِ الْفَاسِقِينَ، الْأَمْرَ الَّذِي جَعَلَ فَرِيقًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْوَاعِظِينَ النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، يَشْعُرُونَ بِالْيَأْسِ مِنْ اسْتِجَابَةِ الْعَصَاةِ الْمُتَمَرِّدِينَ، وَالْإِقْلَاعِ عَنْ مَعَاصِيهِمُ الْمُتَوَاطِئِينَ عَلَيْهَا، حَتَّى أَيقِنُوا بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُهْلِكُهُمْ بِعَذَابٍ يُمِيتُهُمْ فِيهِ وَيَسْتَأْصِلُهُمْ، أَوْ يُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا دُونَ أَنْ يُمِيتَهُمْ وَيَسْتَأْصِلَهُمْ، فَكَفُّوا عَنْهُمْ وَاعْتَزَّلُوهُمْ.

لَكِنَّ الْفَرِيقَ الْآخَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْوَاعِظِينَ النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَمْ يَكُونُوا عَنْ مُتَابَعَةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ نَهْيٍ عَنِ الْمُنْكَرِ مَقْرُونٍ بِالترهيبِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقَمَتِهِ.

لَقَدْ اجْتَهِدَ الْفَرِيقَ الْأَوَّلَ، فَرَأَوْا أَنَّ الْعَصَاةَ قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مِنْهَا، فَلَا جَدْوَى مِنْ مُتَابَعَةِ مَوْعِظَتِهِمْ.

وَاجْتَهِدَ الْفَرِيقَ الْآخَرَ، فَرَأَوْا أَنَّهُمْ مَا زَالُوا لَدَيْهِمْ بَقِيَّةً رَجَاءٍ فِي أَنْ يَسْتَجِيبَ وَلَوْ بَعْضُ الْعَصَاةِ لِمَوَاعِظِهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَنْفِذُوا كُلَّ وَسَائِلِهِمُ الْإِصْلَاحِيَّةِ بَعْدُ، فَإِذَا تَوَقَّفُوا عَنْ مُتَابَعَةِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ الْمَقْرُونِ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، مَعَ وُجُودِ بَقِيَّةٍ وَسَائِلَ لَمْ يَسْتَخْدِمُوهَا بَعْدُ، فَقَدْ يَكُونُونَ مَسْئُولِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَنِ التَّقْصِيرِ فِي اسْتِخْدَامِهَا، وَلَا سِيَّما لَمْ يَنْقُطْ كُلُّ رَجَائِهِمْ.

وَجَرَى حِوَارٌ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ:

قَالَ الْفَرِيقُ الْأَوَّلُ الَّذِي يَنْسَقِبُ فَاَنْقَطَعَ، لِلْفَرِيقِ الْآخَرِ الْمُتَابِعِ: لِمَ تَغْطُونَ قَوْمًا وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مِنْهَا، وَالْعُقُوبَةُ الْمُتَوَقَّعَةُ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، أَنْ يُهْلِكَهُمْ اللَّهُ فَيُمِيتَهُمْ بِعَذَابٍ، أَوْ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا دُونَ إِمَاتَةٍ وَاسْتِصْالٍ؟!

قَالَ الْفَرِيقُ الْآخَرُ: نَحْنُ لَا نَرَى رَأْيَكُمْ، بَلْ مَا زَالَتْ لَدَيْنَا وَسَائِلُ لَمْ

نَسْتَخْدِمُهَا بَعْدُ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَخْدِمَهَا حَتَّى نُقَدِّمَ عُذْرَنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيَرْفَعَ الْمَلَامَ عَنَّا، وَمَا زَالَ لَدَيْنَا بَغْضُ رَجَاءٍ بِاسْتِجَابَةِ بَغْضِهِمْ، وَإِنَّا لَمْ نَصِلْ إِلَى مَرْحَلَةِ الْيَأْسِ الْكَامِلِ.

دَلَّ عَلَى الشَّقِّ الْأَوَّلِ مِنَ الْجَوَابِ، عِبَارَةٌ: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِلَيْنَا رَبِّكُمْ﴾: أي: تُتَابِعُ تَقْدِيمَ مَا تُقَدِّمُ مِنْ وَسَائِلِ إِصْلَاحٍ وَنَهْيٍ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَرْهِيْبٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقْمَتِهِ، لِأَجْلِ رَفْعِ اللَّوْمِ عَنْ أَنْفُسِنَا عِنْدَ اللَّهِ، بَأَنَّا لَمْ نَأَلْ جَهْدًا فِي مَوْعَظَتِهِمْ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِي يَغْضُونَ اللَّهَ بِهِ دَوَامًا.

وَدَلَّ عَلَى الشَّقِّ الْآخِرِ مِنَ الْجَوَابِ، عِبَارَةٌ: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَقُونَ﴾: فهذه العبارة تُشْعِرُ بِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الرَّجَاءَ لَمْ يَنْقَطِعْ بَعْدُ، بَلْ مَا زَالَ بَغْضُ رَجَاءٍ بِاسْتِجَابَةِ بَغْضِهِمْ، وَأَنَّ الْعَصَاةَ لَمْ يَصِلُوا مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرِهِمْ إِلَى مَرْحَلَةِ الْيَأْسِ الْكَامِلِ، عَلَى خِلَافِ مَا يَرَى الْفَرِيقُ الْأَوَّلُ.

فَكَلِمَةُ «لَعَلَّ» تُسْتَعْمَلُ فِي الْأَمْرِ الْمَرْجُوِّ، وَلَوْ بَوَاحٍ مَا، وَبِنِسْبَةِ ضَمِيلَةٍ.

لَكِنَّ رَأْيَ الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ هُوَ الَّذِي أَيْدَهُ الْوَاقِعُ.



قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

● ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٥):

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾: أي: فَلَمَّا تَرَكَ الْعَصَاةَ الْعَمَلُ بِمَا ذُكِّرُوا بِهِ مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ كَانُوا يَعِظُونَهُمْ، وَأَعْرَضُوا عَنِ التَّذْكِيرِ، غَيْرَ مُكْتَرِثِينَ لَهُ، وَلَا عَابِثِينَ بِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لِمَا ذُكِّرُوا بِهِ وَجُودٌ فِي ذَاكِرَاتِهِمْ الْعَامِلَاتِ فِي سَاحَةِ تَصَوُّرَاتِهِمْ الْمَوْجِهَاتِ لِسُلُوكِهِمْ.

عندئذٍ كان من الحكمة أن نُجْرِيَ فيهم سُنَّةَ الْعِقَابِ الَّتِي أَجْرَيْنَاهَا فِي الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَأَنْ نُنَجِّي أَهْلَ الطَّاعَةِ مِنْهُمْ، الَّذِينَ كَانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ، وَلَا يَرْضَوْنَ بَارِزَتِكَابِ الْمَعَاصِي.

وتنفيذاً لهذه السنة التي اقتضتها الحكمة السَّنية :

● ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٥) :

أي : أَنجَيْنَا مِنَ الْعِقَابِ الَّذِينَ كَانُوا يَنْهَوْنَ الْمُعْتَدِينَ فِي السَّبْتِ عَنِ السُّوءِ الَّذِي كَانُوا يَفْعَلُونَهُ، وَيَلْزَمُ ذَهْنًا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْوَاعِظِينَ كَانُوا لَا يَفْعَلُونَ مَا كَانُوا يَنْهَوْنَ عَنْهُ، لِأَنَّ مَعْصِيَةَ الظَّالِمِينَ كَانَتْ مِنَ الْمَعَاصِي الظَّاهِرَةِ، وَهِيَ صِنْدُهُمُ الْحَيَاتَانِ يَوْمَ السَّبْتِ.

وَالَّذِينَ كَانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَنْجَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُمُ الْفَرِيقَانِ :

● الَّذِينَ اجْتَهِدُوا فَرَأَوْا أَنَّ الْقَوْمَ مِثْوَسٌ مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ.

● وَالَّذِينَ اجْتَهِدُوا فَرَأَوْا أَنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَصِلُوا إِلَى مَرْحَلَةِ مِثْوَسٍ مِنْهَا.

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي أَنجَيْنَا فِيهِ الَّذِينَ كَانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ، أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَفْسُقُونَ.

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ :

أَخَذَهُمْ بِالْعَذَابِ، يُرَادُ بِهِ الْقَبْضُ عَلَيْهِمْ بِالْأَسْبَابِ وَالْوَسَائِلِ الَّتِي تُنَزَّلُ بِهِمُ الْعَذَابُ، وَتَجْعَلُهُمْ يَشْعُرُونَ بِالْأَلَمِ عِقَابِ اللَّهِ لَهُمْ، عَلَى تَمَادِيهِمْ فِي ظَلَمِهِمْ، وَالْمَرَادُ بِالَّذِينَ ظَلَمُوا الَّذِينَ كَانُوا يَغْدُونَ فِي السَّبْتِ.

وَلَمْ يُرَدْ هُنَا إِهْلَاكُهُمْ، إِذْ جَاءَ فِي الْبَيَانِ بَعْدَ هَذَا أَنََّّهُمْ بَعْدَ أَخْذِهِمْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ عَتَوْا عَمَّا نَهَوْا عَنْهُ، فَالْمَرَادُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ بِهِمُ الْبَأْسَ وَالضَّرَّاءَ

لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ وَيَتُوبُونَ، إجراءً لُسُنَّتِهِ الَّتِي أَبَانَهَا فِي الْآيَةِ (٩٨) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ.

﴿بَيْيْسٌ﴾: أي: شديد، يقال لغة: بَوَّسَ يَبْوُسُ بَأْسًا، وبِأَسَةً، وبِأَسَةً، أي: قَوِيٍّ واشْتَدَّ، فهو «بَيْيْسٌ» أي: قَوِيٌّ شديد.

﴿يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: أي: بِسَبَبِ مُوَظَّيَّتِهِمُ الْمُتَكَرِّرَةِ عَلَى فِسْقِهِمْ. دَلَّ الْفِعْلُ الْمَضَارِعَ عَلَى أَنَّ الْفِسْقَ كَانَ دِينَهُمْ وَعَادَةً مِنْ عَادَاتِهِمُ الْمُتَكَرِّرَةِ فِيهِمْ.

الْفِسْقُ: الْعَضْيَانُ وَالْخُرُوجُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِفِعْلِ مَا نَهَى عَنْهُ، أَوْ بَتْرِكِ مَا أَمَرَ بِهِ.



قول الله تعالى:

• ﴿قَلَمًا عَتَوَا عَنْ مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾:

﴿قَلَمًا﴾ «الفاء» لبيان تَرْتُّبِ الْعِقَابِ عَلَى الْعَتَوِ. «لَمَّا» حِينِيَّةٌ تَخْتَصُّ بِالْمَاضِي.

﴿وَعَتَوَا﴾: أي: تَجَاوَزُوا حُدُودَ الْمَعَاصِي الَّتِي يَتَّسِعُ لَهَا الْإِمْهَالُ، وَتَتَّسِعُ لَهَا ظِلَالُ الْغَفْرَانِ وَالْعَفْوِ.

الْعَتَوُ: تَجَاوَزَ الْحَدَّ وَالْإِسْتِكْبَارَ وَالتَّجَبُّرَ. وَالْعَاتِي: هُوَ الْجَبَّارُ، وَالشَّدِيدُ الدُّخُولُ فِي الْفَسَادِ، وَالْمُتَمَرِّدُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ مَوْعِظَةً وَلَا نَصِيحَةً.

• ﴿قَلَمًا عَتَوَا عَنْ مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾: فِعْلٌ «عَتَى» لَا يَتَعَدَّى، فَاقْتَضَى الْمَعْنَى تَضْمِينَهُ مَعْنَى فِعْلِ آخَرَ. وَالْمَلَائِمُ أَنْ تُقَدَّرَ مَعْنَى فِعْلِ: «اسْتَنَكَفَ» فَتَكُونُ الْعِبَارَةُ عَلَى تَقْدِيرٍ:

فَلَمَّا عَتَوَا مُسْتَنَكِفِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ بَتْرَكَ مَا نُهُوا عَنْهُ، مِنَ الْعُدْوَانِ عَلَى

حُزْمَةً يَوْمَ السَّبْتِ، الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ تَزَكُّ الْأَعْمَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ،
وَاسْتَمَرُّوا مُتَمَادِينَ فِي مَعْصِيَةِ بَارِيهِمْ.

● ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: أي: قُلْنَا لَهُمْ بِأَمْرِ تَكْوِينِي:
كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ، فَكَانُوا كَذَلِكَ بِهَذَا الْأَمْرِ التَّكْوِينِيِّ الرَّبَّانِيِّ، لِأَنَّ أَوَامِرَ
التَّكْوِينِ الَّتِي يَأْمُرُ اللَّهُ بِهَا نَافِذَةٌ لَا مُحَالَةَ عَقِبَ الْأَمْرِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي
سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٧).

﴿خَاسِئِينَ﴾: أي: أَذِلَّاءَ مَطْرُودِينَ مُبْعَدِينَ. الْخَاسِئُ: هُوَ الدَّلِيلُ
الْمَطْرُودُ الْمُبْعَدُ.

فمسخ الله صُورَ أجسادهم فجعلها على صُور أجسادِ القُرودِ، وجعلهم
خَاسِئِينَ، أَذِلَّاءَ مَطْرُودِينَ مُبْعَدِينَ.

وخطب الله عز وجل بني إسرائيل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧)
بقوله لهم:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ
﴿٦٥﴾ فجعلناها نكلاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَقَهَا وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٦٦):

أي: فجعلنا العُقُوبَةَ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا بِهَذِهِ الْأَمَةِ عُقُوبَةً رَادِعَةً لِأُمَّمٍ مُعَاصِرَةِ
تَقَعُ بَيْنَ يَدَيْهَا فِي قَرَاهَا، حَتَّى لَا تَتِمَادَى مِثْلَهَا فِي غِيهَا وَعِصْيَانِهَا، وَلِلْأُمَّمِ
الَّتِي سَتَأْتِي مُسْتَقْبَلًا مِنْ أُمَّمِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

النُّكَالُ: الْعِقَابُ الشَّدِيدُ الرَّادِعُ لِلْوَاقِعِينَ فِي الْعِصْيَانِ، أَوْ تَذَفْعُهُمْ
نُفُوسَهُمْ بِقُوَّةٍ لِلْعِصْيَانِ.

﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: مَا بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ يُطَلَّقُ عَلَى الْمَاضِي الْغَابِرِ،
وَعَلَى الْحَاضِرِ الْمَعَاوِرِ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَشْهَدُوهُ.

﴿وَمَا خَلَقَهَا﴾: أي: وما سيأتي مستقبلاً، فالمستقبل بالنسبة إلى الناس هو خلقهم، لأنهم لا يشهدونه، فهو كالشيء الواقع خلقهم.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: أي: ودافعاً للالتزام بالتقوى والمحافظة عليها، بالنسبة إلى الذين يتقون عقاب الله في سلوكهم، ويرجون ثوابه.

وخاطب الله عز وجل أيضاً بني إسرائيل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بقوله جل جلاله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آوَوْا إِلَى الْكُذْبِ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارَهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝٤٧﴾.

فأنذرهم الله بطمس وجوههم ومحو حواسهم فيها، وبردّها على أذبارهم، أو بلغنهم كما لعن أصحاب السبت الذين مسخهم قردة، وجعلهم خاسئين.



الفقرة الحادية عشرة

إِغْلَامُ اللَّهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّهُ سَيَنْعَثُ عَلَيْهِمْ

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

مع بيان تقطيعهم في الأرض أمّا وبيان واقع حالهم الديني

وهي الآيات من (١٦٧ - ١٧٠) وهذه الآيات مدنية التنزيل مضمومة بالوحي إلى موضعها من سورة (الأعراف) المكية لمراعاة اقتضائين: المناسبة الفكرية، والحكمة التنزيلية في العهد المدني حيث ظهر الاحتكاك مع اليهود.

قال الله عز وجل:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٦٧ وَطَقَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَمًا

مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَيَكُونُهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِيَهُمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوا آتَوْهُ يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ مِثْقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ ﴿١٧٠﴾ ❖

القراءات:

(١٦٩) • قرأ زويس: [وَإِنْ يَأْتِيَهُمْ] بضم هاء الضمير.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَإِنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ بكسر هاء الضمير. والقراءتان وجهان عربيان في النطق.

(١٦٩) • قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بقاء المخاطبين.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ بياء الغائبين. وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، خطاباً لبني إسرائيل، وحديثاً عنهم.

(١٧٠) • قرأ شعبة: [يُمْسِكُونَ] من فعل: «أَمْسَكَ يُمْسِكُ».

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿يُمْسِكُونَ﴾ من فعل: «مَسَكَ يُمْسِكُ» المضعف.

يُقال لغة: مَسَكَ بالشيء، وأَمْسَكَ، وَمَسَكَ. أي: أخذ به، وتعلق واعتصم.

فالقراءتان متكافئتان لغة. وقد يكون في فعل «مَسَكَ» المضعف معنى شدة التعلق والاعتصام، فيكون بين القراءة تكامل في أداء المعنى المراد، إذ بغض المضلحين يُمْسِكُونَ بالكتاب إمساكاً عادياً دُونَ شدة، وبعضهم يُمْسِكُ بِهِ بِشِدَّةٍ وَقُوَّةٍ.

التدبر التحليلي :

قول الله تعالى :

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَوْرٌ رَجِيمٌ ۝﴾

تمهيد :

هذه الآية من التنزيل المدني، ضُمَّتْ إلى سورة (الأعراف) المكية لمراعاة اقتضاءئين: المناسبة الفكرية التي استدعت ضمه إلى سورة (الأعراف). والحكمة في تأخير التنزيل إلى العهد المدني، حيث ظهر فيه احتكاك اليهود بالرُّسُولِ محمد ﷺ والمؤمنين.

وقد عَلِمَ الله عزَّ وجلَّ أَنَّ بني إسرائيل سَيَسْتَمِرُّونَ فاسِدين مُفسِدين في الأرض، بَعْدَ أَنْ فَضَّلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ فِي عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَبَّمَا بَعْدَهُ فِي بَعْضِ عُهودِ تَارِيخِهِمُ الْقَدِيمِ، فَافْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، وَفَسَقُوا فَعَاقَبَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ عِقَابَاتٍ تَأْدِيبٍ وَتَرْبِيَةٍ، إِذْ أَخَذَهُمْ بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ، لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ إِلَى بَارئِهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يُقْلِعُونَ عَنْ غِيهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ مِنْ الْعِقَابَاتِ، وَمَسَخَ بَغْضَ عُتَاتِهِمْ، فَجَعَلَهُمْ عَلَى أَشْكَالِ الْفُرُودِ، فَلَمْ تَنْعِظْ سُلَالَاتُهُمْ، وَكَانُوا يَنْتَحِلُونَ لِكُلِّ عُقُوبَةٍ تَفْسِيرَاتٍ جَانِبِيَّةً، لَا تَتَّصِلُ بِحَقِيقَةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ ظُلْمٍ وَعَتُوٍّ وَإِفْسَادٍ فِي الْأَرْضِ، وَاسْتِكْبَارٍ وَاسْتِغْلَاءٍ عَلَى سَائِرِ عِبَادِ اللهِ، بِأَنَّهُمْ سُلَالَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَبْنَاءِ اللهِ وَأَحِبَّاءِهِ، فَمَزَقَ اللهُ دَوْلَتَهُمُ الَّتِي لَمْ تَدُمْ فِي مَقَائِيسِ تَارِيخِ الدُّوَلِ إِلَّا قَلِيلًا، فَزَادُوا فِسْقًا وَفَجُورًا، وَاتَّخَذَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ الْأَوْثَانَ، فَعَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ، تَأَثَّرًا بِالشُّعُوبِ وَالْأَقْوَامِ الْوُثْنِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَعَهُمْ، أَوْ مُجَاوِرَةً لَهُمْ، وَبَدَّلَ أَنْ يَكُونُوا حُمَاةَ لِدِينِ اللهِ الْحَقِّ، صَارُوا دُعَاةَ سِحْرِ وَكُفْرِ بِاللَّهِ، وَاسْتِخْدَامِ لِلشَّيَاطِينِ مِنَ الْجِنِّ.

فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ الْأُمَمِ الْقَوِيَّةَ حَوْلَهُمْ مِّنْ أَكْثَرُوا فِيهِم الْقَتْلَ
وَالسَّبْيَ وَالْإِذْلَالَ، وَسَاقُوهُمْ عبيداً. فَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى صراطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ،
إِلَّا أَفْرَاداً قَلِيلِينَ مِنْهُمْ، لَا يُمَثِّلُونَ قُوَّةَ رَاعِيَةٍ ضَابِطَةٍ لَهُمْ عَنِ الانْحِرَافِ،
وَصَارَ دَيْنُهُمُ التَّعَصُّبُ لِمَا أَذْخَلُوهُ فِي دِينِ اللَّهِ مِنْ تَخْرِيفَاتٍ وَضَلَالَاتٍ
بِحَسَبِ أَهْوَائِهِمْ، وَصَارَ دَائِبُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوا مَنْ يُخَالِفُهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَلَوْ
كَانَ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ، فَقَتَلُوا عِدداً مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْهُمْ، وَاسْتَصْدَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ فِي
ذَلِكَ فَتَاوَى زَعَمُوا أَنَّهَا فَتَاوَى دِينِيَّةٍ، وَهَذِهِ الْفَتَاوَى تَسْمَحُ لَهُمْ بِأَنْ يَقْتُلُوا
النَّبِيَّ بَعْدَ إِنْكَارِهِمْ نُبُوَّتَهُ، قَائِلِينَ: لِأَنَّ يَمُوتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ
يَتَعَرَّضَ شَعْبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلُّهُ لِتَغْيِيرِ مَفْهُومَاتِهِ الْمُزَوَّرَةِ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ
التَّخْرِيفَاتُ الَّتِي اسْتَحْدَثُوهَا فِي دِينِ اللَّهِ.

لِذَلِكَ كُلُّهُ قَضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحُكْمَتِهِ السَّنِيَّةِ، أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْهِمْ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَأَعْلَمَهُمْ بِقَضَائِهِ هَذَا، وَأَكَّدَهُ فِيهَا
أَوْحَى بِهِ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ.

وَهَذَا بِقَضَائِهِ هَذَا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّهُ سَيُنْزِلُ بِهِمْ هَذَا الْقَضَاءَ كُلَّمَا أَكْثَرُوا
فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ.

التدبر:

● ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾: هَذِهِ الْعِبَارَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا جَاءَ قَبْلَهَا فِي
السُّورَةِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ
إِذْ يَعْدُونَكَ فِي السَّبْتِ...﴾: أَي: وَاسْأَلَهُمْ عَنْ قَضَاءِ اللَّهِ بِشَأْنِهِمْ إِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكَ... إِلَى آخِرِ الْبَيَانِ.

أَوْ هِيَ مُسْتَأْنَفَةٌ، وَالْمَعْنَى: وَضَعَ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي أَيُّمَا كُنْتَ إِذْ
تَأَذَّنَ رَبُّكَ... إِلَى آخِرِ الْبَيَانِ.

﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾: أَي: أَعْلَمَ مُؤَكِّداً، وَنَادَى مُهْدِداً فِيهَا أَوْحَى لِبَعْضِ
أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَقْسَمَ فِي إِعْلَامِهِ.

يقال لغة: تَأَذَّنَ فُلَانٌ: أي: أَعْلَمَ وأَقْسَمَ، ونَادَى في الناس بتهديدٍ وَوَعِيدٍ، مُنْذِرًا بِشَرٍّ.

● ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ...﴾: اللَّامُ واقعةٌ في جواب قَسَمٍ مَنَوِيٍّ، أي: وَإِذْ أَعْلَمَ رَبُّكَ مُوَكَّدًا مُقْسِمًا، لَيَبْعَثَنَّ عَلَى أَجْيَالٍ بَيْنِي إِسْرَائِيلَ.

● ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْكَةِ مَنْ يَسْأَلُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ...﴾: أي: إِلَى يَوْمِ إِنْهَاءِ رَحْلَةِ امْتِحَانِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿مَنْ يَسْأَلُهُمْ﴾: أي: مَنْ يُجَسِّمُهُمْ، وَيُحْمَلُهُمْ، وَيُكَلِّفُهُمْ ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

يقال لغة: سَأَمَهُ الْأَمْرَ، أي: كَلَّفَهُ إِيَّاهُ، وَأَوَّلَاهُ إِيَّاهُ، أَوْ حَمَلَهُ إِيَّاهُ. وَالسُّؤْمُ: يَأْتِي فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى أَنْ تُجَسِّمَ إِنْسَانًا مَشَقَّةً، أَوْ سُوءًا، أَوْ ظُلْمًا، أي: أَنْ تُحْمَلَهُ ذَلِكَ وَهُوَ عَاجِزٌ عَنِ الْمَخَالَفَةِ.

وَسُوءُ الْعَذَابِ: هُوَ أَشَدُّ الْعَذَابِ وَأَكْثَرُهُ مَشَقَّةً، وَهُوَ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ، وَأَضْلُ الْكَلَامِ: الْعَذَابُ السُّوءُ.

السُّوءُ: كُلُّ مَا يَقْبَحُ وَيُغْمُ الْإِنْسَانُ، وَهُوَ اسْمٌ جَامِعٌ لِمَخْتَلِفِ الْآفَاتِ.

وَدَلَّتْ عِبَارَةُ ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْكَةِ...﴾ عَلَى أَنَّ هَذِهِ السَّلَاطَةَ الْيَهُودِيَّةَ سَتَبَقِي مِنْهُمْ أَجْيَالٌ فِي النَّاسِ مَا دَامَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِشَرٍّ، وَهَؤُلَاءِ الْأَجْيَالِ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، وَيُظْلِمُونَ، وَيَبْتَلِي بِهِمُ اللَّهُ الْأَمَمَ شَيَاطِينَ أَخْبَانًا، كَمَا ابْتَلَى النَّاسَ بِإِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

وَكُلَّمَا كَثُرَ ظُلْمُهُمْ وَإِسَادُهُمْ، وَانْتَشَرَتْ فِي النَّاسِ خَبَائِثُهُمْ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ يَسْأَلُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَيُعِيدُهُمْ إِلَى وَضْعِهِمُ الَّذِي قَضَى عَلَيْهِمْ فِيهِ بَأْنُ يَكُونُوا فِي حَالَةٍ ذِلَّةٍ وَمَسْكَنَةٍ، تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى بِشَأْنِهِمْ فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَمَثَرِيتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ

يَعَايَنَتِ اللَّهُ يَفْتُلُوكَ الْيَئِينَ يَغْيِرَ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ .

لَكِنْ مِنْ تَرَكِ الْمَلَّةَ مِنْهُمْ وَابْتَعَدَ عَنْ خَبَائِثِهِمْ فَإِنَّهُ يُنْجِي نَفْسَهُ مِنْ هَذِهِ الْعُقُوبَةِ الرَّبَّائِيَّةِ الْمُعْتَادَةِ، وَالَّتِي تَأْتِي لِبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينًا فَحِينًا كُلَّمَا ظَلَمُوا وَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، وَتَجَبَّرُوا وَطَغَوْا وَبَغَوْا.

وَتَذُلُّ عِبَارَةٌ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ لِبَعَثَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْكَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ...﴾ بمفهومها العام على أَنَّ هَذَا الْبَعْثَ يَكُونُ عَقَبَ قِيَامِهِمْ بِإِفْسَادٍ فِي الْأَرْضِ، وَتَمَادٍ فِي الشَّرِّ إِلَى حَدٍّ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ مَعَهُ الْإِمْهَالُ، وَتَأْخِيرُ الْعِقَابِ، فَيَكُونُ عِقَابُهُمْ بِأَنْ يُسَلِّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ.

● ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ...﴾: مِنْ سُئَةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ الْإِمْهَالُ، فَالْمَرَادُ بِسُرْعَةِ الْعِقَابِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - إِنْزَالُهُ سَرِيعاً بِهِمْ بَعْدَ تَقَاثُمِ شُرُورِهِمْ، وَاقْتِضَاءُ الْحِكْمَةِ مُعَاقِبَتِهِمْ، فَإِذَا قَضَى اللَّهُ الْعِقَابَ أَنْزَلَهُ بِسُرْعَةٍ، وَالْمُعَاقِبُونَ غَافِلُونَ غَيْرَ مُتَرَقِّينَ إِنْزَالَهُ فِيهِمْ.

● ﴿وَإِنَّهُمْ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه العبارة تُغْطِي بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى تَتَابُعِ أَجْيَالِهِمْ أَمَلًا بِأَنَّهُمْ إِذَا آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَاسْتَقَامُوا، وَأَصْلَحُوا، وَلَمْ يَقُومُوا بِمَا يَقْتَضِي عِقَابَهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَرْفَعُ عَنْهُمْ تَسْلِيْطَ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، فَالِنَصِّ بِجَمْلَتِهِ وَدَلَالَتِهِ الْعَامَّةِ يَذُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّسْلِيْطَ يَكُونُ عِقَاباً لَهُمْ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْهُمْ مِنْ مُقْتَضِيَّاتٍ لَهُ، فَإِذَا لَمْ يُوجَدْ هَذَا الْمُقْتَضِي لَمْ يُسَلِّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، كَمَا كَانَ حَالُهُمْ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ الْمُسْلِمَةِ إِذْ كَانُوا أَهْلَ دِمَّةٍ.

وَجَاءَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ مُؤَكَّدَةً بِ«إِنَّ» - وَالْجُمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ - وَاللَّامُ الْمَرْحَلَةُ).

غُفُورٌ: أَيُّ: كَثِيرُ الْمَغْفِرَةِ وَعَظِيمُهَا، إِذْ صِيغَةُ «فَعُولٌ» مِنْ صِيغِ الْمُبَالَغَةِ وَالتَّكْثِيرِ. الْمَغْفِرَةُ: سَتْرُ الذُّنُوبِ الَّتِي يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ الْمَوَازَاةِ عَلَيْهَا.

رَحِيم: أي: كثير الرَّحْمَةِ وعظيمها، إذ صيغة «فَعِيل» من صيغ المبالغة والتكثير. الرحمة: صفة نفسية من صفات الله عز وجل نُثِبَتْها له على ما يليق بجلاله، ومن آثارها العطاء والمعونة والتوفيق والعُفْران.

وأغلب أحوال اليهود إذا لم يُسَلِّمُوا وَيَدْخُلُوا في دين الله الحق، أن يكونوا كما قال الله عز وجل بشأنهم في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفْتُلُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

أي: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ صِفَةُ الْهَزِيمَةِ وَالضَّعْفِ وَالْهَوَانِ وَالْخُضُوعِ في أي مَكَان ظَفَرَ بِهِمْ فيه.

يُقَالُ لغة: ثَقِفَهُ، أي: ظَفَرَ به.

ومعنى ضَرْبِ الذِّلَّةِ والمسكنة عليهم، طَبَعُها عليهم، كَمَا تُطْبَعُ النُّقُودُ بِضَرْبِ الْقَوَالِبِ المنقوشة عليها، فَتَظْهَرُ صُورَةُ النُّقْشِ الَّتِي عَلَى الْقَالِبِ فيها. والمراد أن الذِّلَّةَ والمسكنة تُلَازِمَانِيهِمْ غالباً.



قول الله تعالى:

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ أَصْلَحُوا وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَيَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

هذا النص من توابع الآيات المدنية المضمومة بالوحي إلى سورة مكية، لمراعاة اقتضاءين: أَحَدُهُمَا الداعي الزماني إذ اقتضت الحكمة تأخير الإنزال إلى العهد المدني من تاريخ دعوة الرسول ﷺ، والآخر الداعي

الفكري الَّذِي اقْتَضَى ضَمُّهَا إِلَى سورة مَكِّيَّة، إِذْ فِيهَا مَقْدَارٌ وَفِيرٌ مِنْ أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وهذا النَصُّ يَبَيِّنُ أَحْوَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُنْذُ التَّشْتِيتِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، بِسَبَبِ دُثُوبِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، وَإِرَاقَتِهِمُ الدَّمَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَعِبَادَتِهِمْ أَوْثَانَ الْأُمَمِ الْوَثْنِيَّةِ الْمُشْرِكَةِ الَّتِي اخْتَلَطُوا بِهَا، مَسَالِمِينَ أَوْ مُحَارِبِينَ، حَتَّى بَغَتْهُ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، وَإِيمَانٍ مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِهِ، وَاتَّبَاعِهِمُ الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ، وَإِقَامَتِهِمُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَحَتَّى كَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ.

وهذه الْآيَةُ تَبَيَّنُ التَّشْتِيتَ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ كَانَ تَقْطِيعُهُمْ فِي الْأَرْضِ عُقُوبَةً لَهُمْ، إِذْ لَمْ يَصْلُحُوا لِحَمْلِ رِسَالَةِ الرَّبِّ لِلنَّاسِ، وَلَا لِلْمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا وَالْإِلْتِمَامِ بِهَا، بَلْ أَرَادُوا اسْتِمَارَهَا لِأَنَانِيَّاتِهِمُ الْخَاصَّةِ، وَأَرَادُوا احْتِكَارَ الرَّبِّ لَأَنْفُسِهِمْ، مَعَ عَدَمِ الْإِلْتِمَامِ بِشَرَائِعِهِ وَتَكَالُيفِهِ، وَادَّعَوْا أَنَّ الرَّبَّ اصْطَفَاهُمْ وَأَحَبَّهُمْ لَذَاتِ سُلَالَتِهِمْ، لَا لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ، عَمَلًا بِهَا، وَنَشْرًا لَهَا، وَلَا لِإِغْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ.

فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سَفَكٍ مِنْهُمْ دِمَاءً كَثِيرَةً، وَسَبَّاهُمْ، وَطَرَدَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، مِنَ الْأُمَمِ الْوَثْنِيَّةِ مِنْ حَوْلِهِمْ، إِذْ لَمْ يَزَعُوا شَرِيعَةَ اللَّهِ، وَلَا أَقَامُوهَا كَمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ، مَعَ ادَّعَائِهِمْ كِذْبًا وَزُورًا أَنَّهُمْ مُنْتَمُونَ إِلَيْهَا وَقَدْ حَرَّفُوهَا وَغَيَّرُوهَا وَبَدَّلُوهَا فِيهَا.

فَمِنْهُمْ مَنْ نُقِلَ إِلَى بَعْضِ أَرْضِ التَّشْتِيتِ بِالْقَهْرِ وَالْإِكْرَاهِ، عَنْ طَرِيقِ الطَّرْدِ أَوِ السَّبْيِ: وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّوْا بِأَنْفُسِهِمْ خَوْفًا، إِذْ لَمْ يَجِدُوا فِي الْبَقَاءِ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ الْأَمْنِ الَّذِي يُحِبُّونَهُ.

وَحِينَ تَسْتَتُوا فِي الْأَرْضِ شَرْقَهَا وَغَرْبَهَا وَجَنُوبَهَا وَشَمَالَهَا، كَانُوا عَلَى دَرَجَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ صَالِحِينَ، وَهَؤُلَاءِ قَلَّةٌ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ دُونَ ذَلِكَ تَنَازُلًا فِي الدَّرَجَاتِ فَالِدَّرَكَاتِ، حَتَّى دَرَكَةِ الْفُجَّارِ وَالْكَفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْأَوْثَانِ.

وَلَمَّا تَقَطَّعُوا فِي الْأَرْضِ كَوَّنُوا فِي مَوَاقِعِهِمُ الْمَشْتَتَةَ أُمَمًا، كُلُّ قِسْمٍ مِنْهُمْ كَوَّنَ أُمَّةً مُجْتَمِعَةً إِسْرَائِيلِيَّةً، لَمْ تَذُبْ فِي الْأُمَمِ الَّتِي دَخَلُوا فِيهَا، وَعَاشُوا بَيْنَهَا، وَهَذَا مَا يُثَبِّتُ تَارِيخَهُمْ حَتَّى وَاقِعِهِمُ الْمَعَاصِرَ.

وَنَوَّعَ اللَّهُ لَهُمْ وَهُمْ فِي بُلْدَانِ التَّشْتِيتِ أَنْوَاعَ الْامْتِحَانِ لِيَتَوَبُّوا، وَلِيَرْجِعُوا إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالْعَمَلِ بِكِتَابِهِ الْمَنْزَلِ، وَشَرِيعَتِهِمُ الَّتِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهَا مُوسَى وَالْأَنْبِيَاءُ مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، حَتَّى انْتَهَتْ مُدَّةُ الْعَمَلِ بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ، بِبِعْثَةِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

فَكَانَ مِنْ أَنْوَاعِ الْامْتِحَانِ الَّذِي امْتَحَنَهُمُ اللَّهُ بِهِ حَسَنَاتٌ تَسْرُهُمْ عَلَى أَيْدِي الشُّعُوبِ الَّتِي نَزَلُوا بَيْنَهَا، أَوْ بِتَصَارِيفِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ مُبَاشَرَةً.

وَكَانَ مِنْ أَنْوَاعِ الْامْتِحَانِ الَّذِي امْتَحَنَهُمُ اللَّهُ بِهِ سَيِّئَاتٌ تَسُوؤُهُمْ عَلَى أَيْدِي الشُّعُوبِ الَّتِي نَزَلُوا بَيْنَهَا، أَوْ بِتَصَارِيفِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ.

● ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا...﴾: دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ

عَزَّ وَجَلَّ أَجْرَى مَقَادِيرَهُ الْخَفِيَّةَ، الَّتِي كَانَ مِنْ آثَارِهَا تَقْطِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَمْزِيقُهُمْ فِي الْأَرْضِ، بَعْدَ ضَرْبِ دَوْلَتِهِمْ وَوَحْدَتِهِمْ.

وَلَمْ يَكُنْ هَذَا التَّقْطِيعُ وَالتَّمْزِيقُ إِلَّا عُقُوبَةً لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَزَعُوا حُقُوقَ الْمُنْحَةِ الَّتِي مَنَحَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا، إِذْ اسْتَخْلَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، عَنْ مُلُوكِهَا الْوَثْنِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا فِيهَا، وَكَانَ هَذَا الْاسْتِخْلَافُ الَّذِي مَنَحَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهُ بِمَعُونَاتٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ، لِيَقِيمُوا الدَّوْلَةَ الرَّبَّانِيَّةَ، وَلِيُعْلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، إِذْ مَكَّنَّهُمْ مِنَ الْإِنْتِصَارِ عَلَى شُعُوبِهَا ذَوَاتِ الْقُوَّةِ وَالْبَأْسِ.

لَكِنَّهُمْ سُرْعَانَ مَا حَرَّفُوا وَغَيَّرُوا وَبَدَّلُوا، وَاتَّبَعُوا سَنَنَ الْأُمَمِ الظَّالِمَةِ الْآثِمَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ، إِفْسَادًا فِي الْأَرْضِ وَظُلْمًا وَغُدُونًا، وَفُسْقًا وَفُجُورًا وَوَثْنِيَّاتٍ، فَسَلَبَهُمُ اللَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَتْ حُكْمَتُهُ - مَا كَانَ قَدْ مَنَحَهُمْ، وَمَزَقَهُمْ، فَكَانُوا فِي شَتَاتِ الْأَرْضِ أُمَمًا.

● ﴿مَنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمَنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ...﴾: دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ الصَّالِحِينَ إِبَّانَ تَقْطِيعِهِمْ وَتَشْتِيتِهِمْ كَانُوا قَلِيلِينَ، إِذْ لَوْ كَانُوا كَثِيرِينَ لَأَخَذُوا عَلَى أَيْدِي الْفَاسِدِينَ الْمَفْسِدِينَ مِنْهُمْ، فَلَمْ يُعَاقِبَهُمُ اللَّهُ بِالتَّقْطِيعِ وَالتَّشْتِيتِ فِي أَنْحَاءِ الْأَرْضِ، فَقَرِئَةُ التَّقْطِيعِ عَقُوبَةٌ لَهُمْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الصَّالِحِينَ كَانُوا فِيهِمْ قَلِيلِينَ ضِعْفًا.

ومن إبداع الإيجاز القرآني عبارة: ﴿وَمَنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾: إِذْ نَعْلَمُ أَنَّ دَرَجَاتِ الصَّالِحِينَ تَأْتِي تَحْتَهَا دَرَكَاتٌ مُتَعَدَّاتٌ جَدًّا، أَحْطَاهَا دَرَكَاتُ مَنْكِرِي رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَدَرَكَاتُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُلْخِدِينَ وَالْكَفَرَةَ الْجَبَّارِينَ الطَّغَاةَ الْبَغَاةَ فِي الْأَرْضِ، وَهَذِهِ أَحْسُهَا وَأَشَدُّهَا اسْتِحْقَاقًا لِلْعَذَابِ الْخَالِدِ الشَّدِيدِ.

● ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٨٦): أَي: وَامْتَحَنَاهُمْ أَحْيَانًا بِمَا يَسُرُّهُمْ مِنْ حَسَنَاتٍ، وَامْتَحَنَاهُمْ أَحْيَانًا بِمَا يَسُوؤُهُمْ مِنْ سَيِّئَاتٍ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَرْجِعُوا تَائِبِينَ مُسْتَغْفِرِينَ، مُلتَزِمِينَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ امْتَحَنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بُلْدَانِ التَّشْتِيتِ، بِأَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَاتٍ وَمُتَضَادَّاتٍ، مِنْ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَسُرُّهُمْ، وَمِنْ السَّيِّئَاتِ الَّتِي تَسُوؤُهُمْ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أَي: رَغْبَةً فِي أَنْ يَسْتَقِظُوا مِنْ غَفْلَاتِهِمْ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ - جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - يُذَكِّرُهُمْ بِنَفْسِهِ، عَنْ طَرِيقِ تَنْوِيعِ مَقَادِيرِهِ فِيهِمْ، لِيَرْجِعُوا تَائِبِينَ إِلَيْهِ فِي أَحْوَالِ الْمَصَائِبِ وَالْمَكَارِهِ الَّتِي تَسُوؤُهُمْ، وَشَاكِرِينَ مُطِيعِينَ فِي أَحْوَالِ النِّعَمِ وَالْعَطَايَا الَّتِي تَسُرُّهُمْ، وَلِيَعْمَلُوا بِشَرِيعَتِهِ وَمَنْهَاجِهِ.

الحسنات: عنوان جامع لكل ما يسرُّ من نعم.

السَّيِّئَاتِ: عنوان جامع لكل ما يسوء من مكاره ومصائب.

بيان أسباب عقاب الله لبني إسرائيل بالتشتيت في كتبهم:

ولدى تَتَبَعَ ما جاء في كتب بني إسرائيل، نَجِدُ فيها ما يَدُلُّ على أسباب عقاب الله لهم بالتشتيت في الأرض، ومنها ما يلي:

(١) جاء في الإصحاح السابع عشر من سفر الملوك الثاني:

«أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَمِلُوا بِأَعْمَالِ الْوَثْنِيِّينَ، وَاتَّخَذُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْأَوْثَانَ، وَرَفَضُوا فَرَائِضَ اللَّهِ وَغَهَدَهُ الَّذِي قَطَعَهُ مَعَ آبَائِهِمْ، وَسَارُوا وَرَاءَ الْبَاطِلِ، وَسَارُوا بِاطِّلاَ وَرَاءَ الْأُمَمِ الَّذِينَ حَوْلَهُمُ الَّذِينَ أَمَرَهُمُ الرَّبُّ أَنْ لَا يَعْمَلُوا مِثْلَهُمْ، وَعَمِلُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَسْبُوكَاتٍ عِجْلِينَ، وَعَبَدُوا الْبَعْلَ^(١). فَغَضِبَ الرَّبُّ جَدًّا عَلَى إِسْرَائِيلَ، فَأَذَلَّهُمْ، وَدَفَعَهُمْ لِيَدِ نَاهِيِهِمْ، حَتَّى طَرَحَهُمْ مِنْ أَمَامِهِ، فَسَبَى إِسْرَائِيلُ^(٢) مِنْ أَرْضِهِ إِلَى أَشُورِ».

(٢) وجاء في سفر «حزقيال»:

«أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَلَى مَدِينَةِ أُورُشَلِيمَ (= الْقُدْس) وَأَنْ يَتَنَبَّأَ عَلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، بِأَنَّهُ اسْتَلَّ سَيْفَهُ مِنْ غَمْدِهِ، لِيَقْطَعَ مِنْهَا الصَّدِيقَ وَالشَّرِيرَ».

(٣) وجاء في الإصحاح الثاني والعشرين منه:

«أَنَّ اللَّهَ قَالَ لَهُ: قُلْ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: أَيُّهَا الْمَدِينَةُ السَّافِكَةُ الدَّمَ فِي وَسْطِهَا لِإِيَّائِي وَقَتِّهَا. الصَّانِعَةُ أَضْغَامًا لِنَفْسِهَا لِتَتَنَجَّسَ بِهَا. قَدْ أَثْمَتِ بِذِمِّكَ الَّذِي سَفَكْتَ، وَنَجَّسْتَ نَفْسَكَ بِأَضْغَامِكَ الَّتِي عَمِلْتَ. وَقَرَنْتِ أَيَّامَكَ. وَبَلَغْتَ سِنِيكَ. فَلِذَلِكَ جَعَلْتُكَ عَارًا لِلْأُمَمِ. وَسُخْرَةً لِجَمِيعِ

(١) الْبَعْل: وَثْنٌ اتَّخَذَهُ الْكَنْعَانِيُّونَ إِلَهًا يُعْبَد، وَكَانَ فِي خُرَافَتِهِمْ إِلَهَ الْخَضْبِ فِي الْحَقُولِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْمَوَاشِي.

(٢) فَسَبَى إِسْرَائِيلُ: أَي: شَغَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

الْأَرْضِ الْقَرِيبَةِ إِلَيْكَ وَالْبَعِيدَةِ عَنْكَ يَسْخَرُونَ مِنْكَ يَا نَجِسَةَ الْإِثْمِ، يَا كَثِيرَةَ الشَّعْبِ. هُوَ ذَا رُؤَسَاءِ إِسْرَائِيلَ كُلِّ وَاحِدٍ حَسَبَ اسْتِطَاعَتِهِ كَانُوا فِيكَ لِأَجْلِ سَفْكِ الدِّمِّ. فِيكَ أَهَانُوا أَبَا وَأُمَّ. فِي وَسْطِكَ عَامَلُوا الْغَرِيبَ بِالظُّلْمِ. فِيكَ اضْطَهَدُوا الْيَتِيمَ وَالْأَرْمَلَ. وَازْدَرَيْتَ أَقْدَاسِي. وَنَجَسْتَ سُبُوتِي. كَانَ فِيكَ أَنْاسٌ وَشَأَةٌ لِسَفْكِ الدِّمِّ. فِي وَسْطِكَ عَمِلُوا رَذِيلَةً. فِيكَ كَشَفَ الْإِنْسَانُ عَوْرَةَ أَبِيهِ. فِيكَ أَذَلُّوا أَلَمَتَّنَجِسَةَ بِطَمَئِهَا، إِنْسَانٌ فَعَلَ الرَّجْسَ بامرأة قَرِيبِهِ. إِنْسَانٌ نَجَسَ كَنَّتَهُ بِرَذِيلَةٍ. إِنْسَانٌ أَذَلَّ فِيكَ أُخْتَهُ بِنْتِ أَبِيهِ. فِيكَ أَخَذُوا الرِّشْوَةَ لِسَفْكِ الدِّمِّ. أَخَذْتَ الرِّبَا وَالْمَرَابَحَةَ. وَسَلَبْتَ أَقْرَبَاءَكَ بِالظُّلْمِ.

أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ وَسَافَعْتُ، وَأُبَدِّدُكَ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَأُذَرِّبُكَ فِي الْأَرْضِ. وَتَتَدَنِّسِينَ بِنَفْسِكَ أَمَامَ عُيُونِ الْأُمَمِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ».



قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ يَثْلُمِمْ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالَدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

تمهيد:

تحدثت هذه الآية عن سلاطينهم الذين كانوا خلفاء لهم من بعدهم، لكنهم كانوا خلفاء فاسدين، يعلمون كتاب الله فيهم، الذين ورثوه عن آبائهم، وتوجد لديهم نصوصه، لكنهم لا يحرمون في سلوكهم حرامه، ولا يؤدّون ما عليهم من واجبات، فيأكلون المال الحرام، ويرتكبون كُبريات الآثام، ويظلمون ويغتدّون ويقتلون بغير حقّ لأكل أموال الناس بالباطل، ولو كانوا ضِعْفَاءَ يَتَأَمَّى أَوْ أَرَامِلَ، أَوْ عَاجِزِينَ وَعَاجِزَاتٍ.

فإذا ذُكِّرُوا بِاللَّهِ وَعِقَابِهِ كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ قَائِلِينَ سَيَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا، لَأَنَّا
أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ، فَتَحْنُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، شَغِبُ اللَّهِ الْمُخْتَارَ، لَا يُؤَاخِذُنَا عَلَى
مَعَاصِينَا مَهْمَا عَظُمَتْ، يَقُولُونَ هَذَا الْقَوْلَ وَأَشْبَاهَهُ افْتِرَاءً عَلَى رَبِّهِمْ، وَهُمْ
يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ، قَدْ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، بِأَنْ يَعْمَلُوا
بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ فِي الْكِتَابِ وَبِأَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ
دَرَسُوا مَا فِيهِ، وَعَلِمُوا بِهَذَا الْمِيثَاقِ الَّذِي يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ انْتَمَى إِلَى هَذِهِ
الْأُمَّةِ، وَاتَّبَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِهِ، وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ، لِيُؤْمِنُوا بِهِ وَيَعْمَلُوا بِأَحْكَامِهِ، فَيُحِلُّوا حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُوا حَرَامَهُ،
وَيُوجِبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَاجِبَاتِهِ، بَيَانًا وَتَطْبِيقًا، دُونَ تَحْرِيفٍ وَلَا تَغْيِيرٍ وَلَا
تَبْدِيلٍ، وَلَا تَفْسِيرَاتٍ بَاطِلَاتٍ، مَا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ.

وَهُمْ يَعْلَمُونَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي فِي كُتُبِهِمْ أَنَّ ثَوَابَ الدَّارِ الْآخِرَةِ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ عِقَابَ اللَّهِ، بِفَعْلٍ مَا أَمَرَ بِهِ أَمْرٌ إيجابٍ، وَتَرْكٍ مَا نَهَى
عَنْهُ نَهْيٌ تَحْرِيمٍ.

وَالَّذِينَ عَلِمُوا هَذَا فَلَمْ يَتَّقُوا اللَّهَ فَمِنْ الْمُنَاسِبِ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ بِالْخُطَابِ
عَلَى سَبِيلِ التَّأْنِيبِ وَالتَّلْوِيمِ وَالتَّوْبِيخِ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟!!﴾ وَأَنْ يُقَالَ عَنِ
الْغَائِبِينَ مِنْهُمْ: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟!!﴾

التدبر التحليلي:

● ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: أي: فجاء بَعْدَهُمْ مِنْ سَلَالَتِهِمْ
الَّذِينَ حَلُّوا مَحَلَّهُمْ وَوَرِثُوا مَمْلَكَاتِهِمْ، وَوَرِثُوا مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ مَادِّيَّاتٍ
وَعِلْمِيَّاتٍ، وَأَمْجَادٍ، ذُرِّيَّةٌ فَاسِدُونَ، يَفْتَخِرُونَ بِأَنَّهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، لَكِنْ
آبَاءُهُمْ لَمْ يَحْسِنُوا رِعَايَتَهُمْ وَلَا تَرْبِيَتَهُمْ عَلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ فَتَشَوُّوا فَاسِدِينَ.

يقال لغة: خَلَفَ فُلَانٌ فُلَانًا خَلْفًا، وَخِلَافَةً، أَيْ: جَاءَ بَعْدَهُ، فَصَارَ
مَكَانَهُ، وَكَانَ خَلِيفَتَهُ.

﴿خَلَفٌ﴾: الْخَلْفُ بِإِسْكَانِ اللَّامِ، وَالْخَالِفُ، وَالْخَالِفَةُ: الْفَاسِدُ مِنَ النَّاسِ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ، وَالْعَاصِي الْكَثِيرُ الْخِلَافِ.

أما الولد الصالح فيسمى «خلفاً» بفتح اللام.

هذا هو الأضلّ الغالب، وقد يستعمل الخلف والخلف في كل من المعنيين.

وجاء في القرآن استعمال الخلف بإسكان اللام في الذرية الفاسدة، في موضعين منه، هذا أحدهما. والآخر جاء في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) بعد ذكر طائفة من الرسل السابقين، وبغض ذريّاتهم، فقال الله عز وجل فيها:

﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾:

ويدخل المعنيون في النص الذي في سورة (الأعراف) ضمن عموم النص الذي في سورة (مريم) ومعنى ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ فسوف يلقون يوم الحساب غياً مسجلاً عليهم في صحائفهم، فيحاسبون عليه، وبعد الحساب يجازون، كل منهم بحسب نسبة غيه، أي: بحسب ضلاله وإنميه ومعاصيه، ومخالفة مقتضيات الإيمان، وواجب العمل، ممّا فرض الله على الناس في الحياة الدنيا، من فعل أو ترك.

● ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾: أي: ورثوا عن آبائهم الكتاب الربانيّ الشامل للكتاب الذي أنزله الله عز وجل على موسى، ولما أنزله من بعده على رسل بني إسرائيل، حتى تاريخ التشيت في أنحاء الأرض.

ودلّ التعبير بأنهم ورثوا الكتاب على أنّ وراثتهم له قد كانت وراثّة الاعتراف بأنه كتاب الله لهم، وأنّ عليهم أن يعملوا بما فيه.

لَكِنَّهُمْ فِي وَاقِعٍ حَالِهِمْ كَانُوا لَا يَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ، بَلْ يَخَالِفُونَهُ، مُتَّبِعِينَ
أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَمَا يَتَعَلَّقُونَ بِهِ مِنْ أَعْرَاضٍ هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الْقَلِيلَةُ
الضَّيْلَةُ السَّرِيعَةُ الزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ.

● ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ :

أي: يُهْمِلُونَ الْعَمَلَ بِمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي وَرَثُوهُ، لِيَأْخُذُوا
لَأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَلَذَاتِهِمْ وَمَطَالِبِ نَفْسِهِمْ مِنْ مَتَاعِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَسَمَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ مَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مِنْ لَذَائِ شَهَوَاتٍ
وَسَائِرِ مَا تُحِبُّهُ نَفُوسُ النَّاسِ مِنْهَا عَرَضًا، إِذْ وَجُودُهَا وَجُودٌ عَارِضٌ سَرِيعُ
الزَّوَالِ، لَا بَقَاءَ لَهُ. بِخِلَافِ مَا فِي الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّينِ، فَهُوَ نَعِيمٌ مُقِيمٌ لَا
يَزُولُ.

وجاءت الإشارةُ إلى مُرَضِيَّاتِ الْأَنْفُسِ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بِعِبَارَةِ
[هَذَا الْأَدْنَى].

﴿الْأَدْنَى﴾ : أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ مِنْ فَعَلَ «دَنَا يَدْنُوا فَهُوَ دَانٍ» و«الدُّنْيَا» مُؤَنَّثٌ
«الْأَدْنَى» فِيهِ أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ أَيْضًا.

فَالْأَدْنَى هُوَ الْأَقْرَبُ، وَالدُّنْيَا هِيَ الْقُرْبَى، ضِدُّ الْأَبْعَدِ وَالْبُعْدَى.

وقد وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ كُلَّ مَا يَطِيبُ لِلنَّفُوسِ مِنْ
هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِأَنَّهُ مَتَاعٌ، وَالْمَتَاعُ فِي اللُّغَةِ، هُوَ كُلُّ شَيْءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ وَالْفَنَاءُ
يَأْتِي عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ سَرِيعُ الزَّوَالِ، مِثْلُ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا
مَتَعٌ - وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْفُرُورِ - قُلْ مَتَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ
أَنْقَى - فَمَا مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ - وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ
فَمَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى -﴾.

وَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَا يَأْخُذُهُ هَؤُلَاءِ الْخُلَفُ الْفَاسِدُونَ، مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا، وَهُوَ عَرَضٌ هَذَا الْأَدْنَى، إِنَّمَا يَأْخُذُونَهُ بِالْمَعَاصِيِ وَالْمَخَالَفَاتِ، وَازْتِكَابِ الْإِثَامِ وَالذُّنُوبِ مِنْ مَخْتَلِفِ الدَّرَكَاتِ، قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى بِشَأْنِهِمْ:

﴿وَيَقُولُونَ سَيَغْفِرُ لَنَا﴾ لَأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا يَأْخُذُونَهُ مِمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ، لَمَّا اخْتَاجُوا لِأَن يَقُولُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، أَوْ لِإِخْوَانِهِمْ، أَوْ لَوَاعِظِهِمْ سَيَغْفِرُ لَنَا، أَيْ: إِنَّ اللَّهَ سَيَغْفِرُ لَنَا كُلَّ ذُنُوبِنَا وَمَعَاصِينَا، مَهْمَا كَانَتْ مِنَ الْكِبَائِرِ الْكُبْرَى، لِأَنَّ اللَّهَ فَضَّلَنَا لِدَوَاتِنَا عَلَى سَائِرِ النَّاسِ، فَتَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ.

لَكِنَّ مَقَالَتَهُمْ هَذِهِ مِنَ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ، وَعَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى رُسُلِهِ، فَمَغْفِرَةُ اللَّهِ لَا تَخْتَصُّ بِشَعْبٍ دُونَ شَعْبٍ، إِذْ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ جَمِيعًا، فَمَنْ حَقَّقَ فِي نَفْسِهِ شُرُوطَ الْمَغْفِرَةِ عَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَالذُّنُوبُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِحُقُوقِ الْعِبَادِ لَا بُدَّ مِنْ إِقَامَةِ عَذْلِ اللَّهِ فِيهَا، فإِذَا أَنْ يَغْفِرَ الْمَظْلُومُونَ، وَإِذَا أَنْ يَفْتَضَّ اللَّهُ مِنَ ظَالِمِهِمْ، وَالْقِصَاصُ يَوْمَ الدِّينِ يَكُونُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، أَوْ يَكُونُ بَطْرَحٍ مَا يُسَاوِيهَا مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَظْلُومِينَ عَلَى الظَّالِمِينَ.

● ﴿وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾: أَيْ: وَبِمَا أَنَّهُمْ يَغْتَبِرُونَ مَغْفِرَةَ اللَّهِ لَهُمْ تَحَقُّقُ بِأَفْضَلِيَّتِهِمْ لِدَوَاتِهِمْ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ، ادِّعَاءُ مِنْهُمْ بِأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ، فَإِنَّهُمْ يُكْرَرُونَ اِزْتِكَابَهُمْ لِكِبَائِرِ الذُّنُوبِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ اِزْتَكَبُوهَا، وَلَوْ لَمْ يَقُمْ فِي نَفْسِهِمْ طَلَبُ مُلِحٍّ لَارْتِكَابِهَا، فَهُمْ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى آثِمِينَ ظَالِمِينَ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ الدَّاعِي النَّفْسِيِّ الْمُلِحِّ لِازْتِكَابِ الْإِثْمِ الْكَبِيرِ، حَتَّى صَارَتْ مُمَارَسَاتُهُمْ لِلْمَعَاصِيِ عَادَاتٍ، لَا يَرُدُّعُهُمْ عَنْهَا أَقْوَى الرُّوَادِعِ وَأَشَدُّهَا.

ذَلَّتْ كَلِمَةُ [إِنْ] مِنْ عِبَارَةٍ ﴿وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ وَهِيَ أَدَاةٌ مِنْ أَدَوَاتِ الشَّرْطِ تُسْتَعْمَلُ فِي الْمَشْكُوكِ فِيهِ أَوْ الْقَلِيلِ النَّادِرِ، عَلَى أَنَّ هَذَا الْعَرَضَ الْمِمَّاثِلَ لِلْعَرَضِ السَّابِقِ لَمْ يَكُنْ مُنْتَظَرًا، وَلَا مُرْتَقَبًا مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِمْ، إِذْ لَيْسَ فِي نَفْسِهِمْ الدَّافِعُ الْمُلِحُّ فِي طَلْبِهِ وَالرَّغْبَةُ فِي الْحَصُولِ عَلَيْهِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَأْخُذُونَهُ، لِاسْتِهْثَاءِهِمْ بِازْتِكَابِ كِبَائِرِ الْإِثْمِ.

لقد كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، وَصَدَّقُوا أَكَاذِبَ أَنْفُسِهِمْ وافتراءاتهم عليه،
فَانْطَلَقُوا فَاجِرِينَ، لَا يَزِدُّهُمْ عَنْ فُجُورِهِمْ رَادِعٌ.

• ﴿أَلَمْ يُوَخِّدْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا
مَا فِيهِ؟﴾ ١٩

استفهام تقريرى لانتزاع اعترافهم بالميثاق الذي أخذ عليهم.

الميثاق: العهد المؤكَّد الموثَّق المثبَّت بما يمنعه من التفلُّت، وأخذ
الميثاق عليهم، يُفِيد شِدَّ العهدِ عليهم، حتَّى لَا يَحْتَالُوا لِلتَّفْلُتِ مِنْهُ، وميثاق
الكتاب الذي أخذ على بني إسرائيل، هو ما أخذ عليهم من عهد في
الكتاب الرِّبَّانِي الَّذِي وَرِثُوهُ، وَدَرَسُوا ما فيه، وهذا العهد الموثَّق المغلَّظ
عليهم هو أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ الْمَنْزَلُ من لَدُنْهُ، والمبْلَغُ عَلَى
الْسِّنَةِ رُسُلِهِ.

مما في كُتُبِ أهل الكتاب بشأن هذا الميثاق:

ونجد في كُتُبِ أهل الكتاب ما يَدُلُّ على أَخِذِ الميثاقِ عَلَى بني
إسرائيل بأنَّ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ.

جاء في الإصحاحِ الْخَامِسِ من سِفْرِ التَّثْنِيَةِ ما يلي:

« ١ وَدَعَا مُوسَى جَمِيعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالَ لَهُمْ: اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ
الْفَرَائِضَ وَالْأَحْكَامَ الَّتِي أَتَكَلَّمُ بِهَا فِي مَسَامِعُكُمْ الْيَوْمَ. وَتَعَلَّمُوا وَاخْتَرِزُوا
لِتَعَلَّمُوهَا ٢ الرَّبُّ إِلَهُنَا قَطَعَ مَعَنَا عَهْداً فِي حُورِيب^(١) ٣ لَيْسَ مَعَ آبَائِنَا قَطَعَ
الرَّبُّ هَذَا الْعَهْدَ بَلْ مَعَنَا نَحْنُ الَّذِينَ هُمْ الْيَوْمَ جَمِيعاً أَحْيَاءُ... فقال: ٦
أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ ٧ لَا
يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي... ١١ لَا تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهُكَ بَاطِلاً. لِأَنَّ

(١) حُورِيب: أي: جبل سيناء.

الرَّبُّ لَا يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلًا... ٣٢ فَاحْتَرِزُوا لِتَعْمَلُوا كَمَا أَمَرَكُمْ
الرَّبُّ إِلَهُكُمْ. لَا تَزَيِّغُوا يَمِينًا وَلَا يَسَارًا...».

هذا من كتبهم شاهد على أخذ العهد المشدد الموثق عليهم بأن
يَحْفَظُوا وَصَايَا الرَّبِّ لَهُمْ، وَلَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ. لَكُنْهُمْ خَالِفُوا
وَنَقَضُوا الميثاق، وافترؤا على الله الكذب.

● ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾: أي: والحال أنهم درسوا ما في الكتاب،
وعلموا من دراستهم له أن الله أخذ الميثاق على بني إسرائيل السابقين،
وعلى سلالاتهم وذرياتهم، أن لا يقولوا على الله إلا الحق.
يُقَالُ لغة: دَرَسَ الْكِتَابَ وَنَحْوَهُ يَدْرُسُهُ دَرْسًا وَدِرَاسَةً، أي: قرأه
وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ لِيَحْفَظَهُ وَيَفْهَمَ دَلَالَاتِ أَلْفَاظِهِ.

● ﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾!!!؟

وفي القراءة الأخرى: [أَفَلَا يَعْقِلُونَ]؟! حديثاً عن الغائبين.

أي: وثواب الله في جنات النعيم، للمتقين الذين لا يرتكبون الآثام
والمعاصي والخطايا، فيفعلون ما أمر الله به أمر إلزام وإيجاب، ويتركون ما
نهى الله عنه نهى تحريم، خير في مقاديره، وكيفياته، وبقائه، من عرض
هذا المتاع الأدنى، متاع الحياة الدنيا، الذي يغصون الله من أجله، ويفترون
على الله الكذب، ليجدوا لأنفسهم ذرائع يسترون بها جرائمهم، أو يهوتون
بها من أمرها.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! [أَفَلَا يَعْقِلُونَ]: أي: أفقدتم ما وهبناكم من عقل
علمي يميز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وما وهبناكم من عقل
إرادي يضبط ويعقل أهواءكم وشهواتكم، فأنتم بسبب ذلك لا تعقلون؟!!

وبمقتضى القراءة الأخرى: [أَفَلَا يَعْقِلُونَ] يكون المعنى: أفقدوا ما
وهبناهم من عقل علمي، وعقل إرادي فهم بسبب ذلك لا يعقلون؟



قول الله تعالى:

• ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧١):

وقرأ شعبه عن عاصم: [وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ] بإسكان الميم وكسر السين دون تشديد، والقراءتان متكافئتان، إحداهما مِنْ فِعْلٍ «مَسَّكَ» والأخرى مِنْ فِعْلٍ: «أَمَسَّكَ».

تُشير هذه الآية إلى وجود طائفة مُتَّقِينَ، ضَمَنَ جماهير الخلفِ الفاسدين من ذُرِّيَّاتِ بني إسرائيل، ومن صفات هذه الطائفة المحافظة على الْعَمَلِ بِتَعَالِيمِ كِتَابِ رَبِّهِمْ دون تحريف ولا تغيير ولا تبديل، وَهُمْ لَا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِمْ، وَيَعْمَلُونَ عَلَى إِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَإِصْلَاحِ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ.

وقد أبان الله عزَّ وجلَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يُضِيعُ اللَّهُ أَجْرَهُمْ عِنْدَهُ، وَإِنْ كَانُوا قَلَّةً ضَمَنَ جُمُوعَ كَثِيرِينَ فَاسِدِينَ مِنَ الْيَهُودِ، لِأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ الْمُصْلِحِينَ.

• ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾: أي: يَعْمَلُونَ بما جَاءَ فِيهِ مِنْ وَصَايَا وَأَحْكَامٍ، وَلَا يُحَرِّفُونَ فِيهِ، وَلَا يُبَدِّلُونَ، وَلَا يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، فَلَا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا.

وَمِنَ التَّمَسُّكِ بِكِتَابِ اللَّهِ الْمَنْزَلِ إِلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِكُلِّ رَسُولٍ وَنَبِيِّ جَاءَ إِلَى النَّاسِ بَعْدَ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، لِأَنَّ كِتَابَهُمْ يَأْمُرُهُمْ بِذَلِكَ، فَلَا يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الطَّائِفَةِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَهَارُونَ، بَلْ هَؤُلَاءِ يَدْخُلُونَ فِي الْخَلْفِ الْفَاسِدِ الْكَافِرِ.

وبهذا يظهرُ لَنَا أَنَّ كُلَّ الَّذِينَ كَانُوا يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ حَقًّا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَدْ آمَنُوا بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ بَغْتَتِهِ، وَأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ كَانُوا يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ حَقًّا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَدْ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَاتِمِ

الأنبياء والمرسلين بَعْدَ بَغْثِهِ، فَمَنْ كَانَ مَتَمَسِّكًا حَقًّا بِالتَّوْرَةِ، وَمَنْ كَانَ مَتَمَسِّكًا حَقًّا بِالْإِنْجِيلِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْمِنَ بِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ وَيَتَّبِعَهُ، وَيَتَّبِعَ الْكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِهِ وَاتِّبَاعَهُ هُوَ مِمَّا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي كُتُبِهِمْ.

● ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ : أي: المفروضة عليهم في شريعتهم، وَخَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ بِالذِّكْرِ، مَعَ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ، اهْتِمَامًا بِشَأْنِ هَذَا الرُّكْنِ مِنْ أَرْكَانِ دِينِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، فِي كُلِّ الرِّسَالَاتِ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا رُسُلَهُ لِلنَّاسِ.

وقد كانت الصلاة من شريعة الله لموسى وهارون، مُنْذُ أَوَائِلِ بَغْثِهِمَا، إِذْ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ مَضْطَهَدِينَ مُسْتَعْبَدِينَ، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧).

أي: وأوحينا إلى موسى وأخيه هارون أن اتَّخِذا وَهَيْئًا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا لعبادتي فيها بالصلاة والذكر، واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ هَذِهِ مُتَّجِهَةً لِلْقِبْلَةِ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ المفروضة عليكم فيها.

والذي يجعلني أذهبُ إِلَى رَأْيِ اتَّخَاذِ الْمَسَاجِدِ، فِي مَجْمَعَاتِ مَسَاكِنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ بَيُوتٌ يَسْكُنُونَهَا مِنْذُ عَهْدِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَكُونُوا أَهْلَ خِيَامٍ، فَلَا مَعْنَى لِلأَمْرِ بِتَحْصِيلِ مَا هُوَ حَاصِلٌ، لَكِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ بَيُوتٌ خَاصَّةٌ لِعِبَادَةِ اللَّهِ بِالصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ فِيهَا، فَنَزَلَ الْوَحْيُ بِالْأَمْرِ بِاتَّخَاذِ هَذِهِ الْبُيُوتِ، وَجَعْلِهَا مُتَّجِهَةً لِلْقِبْلَةِ. وَعِبَارَةٌ: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قَرِينَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّهَا مَسَاجِدُ.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ : أي: وبشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِالْعَاقِبَةِ الْحَسَنَةِ السَّارَّةِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾: هَذِهِ الْجُمْلَةُ دَلَّتْ عَلَى خَيْرِ الْمَبْتَدَأِ
الَّذِي جَاءَ فِي صَدْرِ الْآيَةِ، وَوُضِعَتْ مَوْضِعَ الْخَبَرِ وَنَزَلَتْ مَنْزِلَتُهُ، وَالتَّقْدِيرُ:
وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ فَسَوْفَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ لَأَنَّا لَا
نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ.

إِنَّ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ الثَّابِتَةِ أَنَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَسَمَتْ حُكْمَتُهُ السَّيِّئَةُ - لَا
يُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ، وَلَا يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ ذِكْرًا كَانَ أَمْ
أَنْثَى، وَلَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَلَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا
يُضِيعُ إِيْمَانَ مَنْ آمَنَ صَادِقًا، وَلَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ.
كُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي جَاءَتْ بِهَا نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ.

يُقَالُ لُغَةً: أَضَاعَ فُلَانٌ الشَّيْءَ، أَيُّ: جَعَلَهُ يُفْقَدُ بِإِهْمَالِهِ لَهُ، فَلَا يَكُونُ
لَهُ وَجُودٌ، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُهْمِلُ جَزَاءَ عَمَلٍ صَالِحٍ مَهْمًا قَلًّا، إِذَا
ابْتَغَى بِهِ عَامِلُهُ وَجْهَ رَبِّهِ، وَكَانَ عَلَى مَا شَرَعَ لِعِبَادِهِ تَكْلِيفًا أَوْ إِذْنًا، فَهُوَ لَا
يُضِيعُ أَجْرَ عَمَلٍ صَالِحٍ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ.

كَلِمَةٌ: «مُضْلِحٌ» اسْمٌ فَاعِلٌ مِنْ فِعْلِ «أَضْلَحَ» وَهَذَا الْفِعْلُ يَأْتِي بِمَعْنَى:
فَعَلَ مَا هُوَ صَالِحٌ وَنَافِعٌ فِي عَمَلِهِ وَأَمْرِهِ. وَيَأْتِي بِمَعْنَى أَضْلَحَ غَيْرَهُ، أَيُّ:
سَعَى فِي إِصْلَاحِ غَيْرِهِ وَإِزَالَةِ فُسَادِهِ.

وَالْمُضْلِحُونَ هُمُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي يَرْضَى اللَّهُ
عَنْهَا، وَيُثِيبُ فَاعِلِيهَا، مِنْ كُلِّ مَا هُوَ خَيْرٌ وَنَافِعٌ وَفِيهِ قُرْبَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،
سَوَاءً أَكَانَ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ، أَمْ كَانَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ
وَالنَّفُوسِ.

وَهُمْ أَيْضًا الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي إِصْلَاحِ النَّاسِ، وَدَعَوَتِهِمْ لِفِعْلِ
الصَّالِحَاتِ، وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، وَابْتِغَاءِ الْخَيْرَاتِ، وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِي رَبَّ

الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَرَبِّ الْأَخْيَاءِ وَالْأُمَوَاتِ، سَائِلِينَ اللَّهَ أَنْ يُشِيبَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، عَلَى ابْتِغَائِهِمْ رِضْوَانَهُ فِي الْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ، النَّعِيمَ الْمُقِيمَ فِي جَنَّاتِ الْخُلُودِ، الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ، فَلِأَبْرَارٍ، فَاَلْمُحْسِنِينَ.



الفقرة الثانية عشرة

رَفَعِ الْجَبَلَ فَوْقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِيَأْخُذُوا الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَيَذْكُرُوا مَا فِيهِ

وهي الآية (١٧١) من السورة وهي مَدَنِيَّة التَّنْزِيلِ.

قال الله عز وجل:

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُمْ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾:

تمهيد:

تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الدَّلَالََةَ عَلَى حَدَثِ جَرَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عَهْدِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ مِنْ تَارِيخِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِرَاعَاةً لِلْاِقْتِضَاءِ مِنَ الَّذِينَ سَبَقَ بَيَانُهُمَا فِي سَوَابِقِهَا.

وَجَاءَ بَيَانُ هَذَا الْحَدَثِ بِأَسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِ ضِمْنَ حِكَايَةِ طَائِفَةٍ مِنْ قِصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَحْدَاثِهِمْ.

وَجَاءَ فِي سُورَةِ (النِّسَاءِ/ ٤ مَصْحُف/ ٩٢ نَزُول) بَيَانُ اسْمِ الْجَبَلِ الْمَعْنَى، بِأَنَّهُ جَبَلُ الطُّورِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ لَعَلَّ الْبَاقِيَ يَسْمَعُ فَيَتَّقِ﴾
 ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ لَعَلَّ الْبَاقِيَ يَسْمَعُ فَيَتَّقِ﴾
 نَعُدُّوا فِي السَّبَبِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ﴿١٥٢﴾﴾.

وجاء بيان هذا الحدثِ نَفْسِهِ بِأَسْلُوبِ خِطَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فقال الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لهم .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ .

وقال الله عز وجل فيها أيضاً خطاباً لبني إسرائيل :

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَيْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْكَمَا يَا مَأْرُكُ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ .

قِصَّةُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَكَامِلَاتِ الدَّلَالَاتِ فِيمَا بَيَّنَّهَا، هِيَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ، وَإِنْقَازِ اللَّهِ لَهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، بِفُلِّقِ الْبَحْرِ لَهُمْ حَتَّى عَبَرُوهُ عَلَى الْيَابَسَةِ مِنْهُ، وَبِإِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ بِضَمِّ مَاءِ الْبَحْرِ عَلَيْهِمْ، أُصِيبُوا بِدَاءِ الْوَلَدِ الْمَدْلَلِ عَلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ، الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُحَقِّقَ لَهُ مَا يَشْتَهِي دَوَاماً، دُونَ أَنْ يَتَحَمَّلَ هُوَ شَيْئاً مِنَ التَّكَالِيفِ وَالْوَاجِبَاتِ، مُقَابِلَ تَكْرِيمِهِ وَالْعِنَايَةِ بِهِ، وَتَخْلِيصِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ وَخُصُومِهِ، وَيُرِيدُ دَوَاماً فِعْلَ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ مِنْ أَجْلِهِ .

فَقَالُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾ : أَي : أَرَأَيْتَ إِيَّاهُ عَيْنَانَا غَيْرَ مُسْتَتَرٍ عَنَّا بِشَيْءٍ، وَقَالُوا لَهُ : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهُ جَهْرَةً﴾ : أَي : لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ مُسْلِمِينَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ عَيْنَانَا، وَيَأْمُرَنَا بِالْإِيمَانِ بِكَ وَالْإِسْلَامِ لَكَ .

فَعَاقِبَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى هَذَا التَّعَتُّتِ، فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، فَأَمَاتَتْهُمْ، ثُمَّ بَعَثَهُمُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ، وَكَانَتْ هَذِهِ مَوْتُهُ تَأْدِيبٍ وَتَرْبِيَةٍ، وَحُلَّ لِبَعْضِ عُقْدَةِ الدَّلَالِ الَّتِي فِي نَفُوسِهِمْ .

لَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ عُقْدَةِ الدَّلَالِ هَذِهِ، وَأَرَادُوا أَنْ تَكُونَ مَنَزِلَتُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ تَفْضِيلًا وَتَشْرِيفًا، دُونَ أَنْ يَتَحَمَّلُوا فِي مُقَابِلِهَا وَاجِبًا وَلَا تَكْلِيفًا.

يَبْدُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا فَضَّلَهُمْ عَلَى شُعُوبِ زَمَانِهِمُ الْوَثْنِيِّينَ لِيَحْمِلُوا شَرِيعَتَهُ وَمَنْهَاجَهُ، وَيَعْمَلُوا بِهِمَا، وَلِيَذْعُوا النَّاسَ إِلَى دِينِ اللَّهِ، مُقَدِّمِينَ أَنْفُسَهُمْ لِلنَّاسِ عَلَى أَنَّهُمْ الْقُدْوَةُ الْحَسَنَةُ، الْمَطْبَقَةُ لِدِينِ اللَّهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ.

فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَعَالِيمَ الدِّينِ عَلَى مُوسَى بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ، كَلَّفَهُ أَنْ يَبْلُغَهُمْ إِيَّاهُ، وَأَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ بِأَنْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ، وَلَا يُخِلُّوا بِمَا أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ تَارِكِينَ، وَلَا بِمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فَاعِلِينَ.

فَأَسْمَعَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَعَالِيمَ الرَّبِّ وَوَصَايَاهُ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُعَاهِدُوا اللَّهَ عَلَى حِفْظِ هَذِهِ الْوَصَايَا وَتَذَكُّرِهَا دَوَامًا، وَالْعَمَلِ بِهَا.

فَأَبْنَى جُمْهُورُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْإِلْتِزَامَ بِالتَّعْلِيمَاتِ وَالْوَصَايَا الرَّبَّانِيَّةِ، وَأَرَادُوا أَنْ يَسْتَمِرُّوا فِي حَيَاتِهِمْ عَلَى أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، شَغْبًا مُدَلَّلًا عَلَى رَبِّهِ، يُعْطِيهِمْ تَفْضِيلَهُ وَنِعَمَهُ، دُونَ أَنْ يُؤَدُّوا فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاجِبَاتِهِمْ تُجَاهَ رَبِّهِمْ، وَدُونَ أَنْ يَتَحَمَّلُوا مَشَقَّاتِ تَكَالِيفِ الْامْتِحَانِ.

فَرَفَعَ اللَّهُ فَوْقَ مَحَلَّتِهِمُ النَّازِلِينَ بِهَا فِي سَيْنَاءِ جَبَلِ الطُّورِ، لِرَفْضِهِمْ إِعْطَاءَ الْعَهْدِ عَلَى الْإِلْتِزَامِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ، وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِلَاغًا عَنْ رَبِّهِ: خُذُوا مَا آتَاكُمْ اللَّهُ مِنْ وَصَايَا وَأَحْكَامٍ فِي كِتَابِهِ بِقُوَّةٍ، وَعَاهِدُوا عَلَى الْعَمَلِ بِمَا جَاءَ فِيهِ، أَوْ يُلْقِي اللَّهُ هَذَا الْجَبَلَ عَلَيْكُمْ فَيُهْلِكَكُمْ.

وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ هَذَا ظَلَّتْ عُقْدَةُ الشُّغْبِ الْمُدَلَّلِ مُسْتَحْكِمَةً فِيهِمْ، فَقَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا.

وَيُظْهِرُ أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ الْأَمْرَ لِمَجْرَدِ التَّخْوِيفِ، فَلَوْ أَعْلَنُوا عِضْيَانَهُمْ لَمْ يَنْفُذِ اللَّهُ فِيهِمْ مَا أَشْعَرَهُمْ بِهِ، فَهُوَ لَا يُوقِعُ الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ، وَلَوْ تَمَرَّدُوا، كَمَا

يَتَصَوَّرُ الْوَلَدُ الْمَدْلُلُّ عَلَى أَبِيهِ، أَنَّ أَبَاهُ لَنْ يَضْرِبَهُ بِالْعَصَا، وَلَوْ رَفَعَهَا فَوْقَهُ مُهْدِداً إِيَّاهُ بِالضَّرْبِ، دَلَّ عَلَى هَذَا مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ (٩٣) مِنْ سُورَةِ (البقرة) وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خُطَاباً لَهُمْ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا... (٩٣)﴾.

وَيُظْهِرُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَذْنَى مِنْهُمْ الْجَبَلَ الْمَرْفُوعَ فَوْقَهُمْ شَيْئاً فَشَيْئاً، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ وَقَعَ عَلَيْهِمْ، وَطَاحَتْهُمْ بِالْأَرْضِ طَحْنًا.

عِنْدَئِذٍ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ أَوْهَامُ مُبِوَعَةِ الدَّلَالِ، وَتَكَشَّفَتْ لَهُمْ حَقِيقَةُ جَبْرُوتِ الرَّبِّ، وَسَطَوَةِ انتِقَامِهِ.

وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ قَبِيلِ الْإِكْرَاهِ عَلَى الدِّينِ، إِذْ هُمْ مُؤْمِنُونَ، بَلْ هُوَ عِلَاجٌ لَمَّا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ عُقْدَةِ الدَّلَالِ عَلَى رَبِّهِمْ، وَتَهْدِيدٌ بِالْعِقَابِ عَلَى الْعَصِيَانِ، بَعْدَ الْإِيمَانِ وَإِعْلَانِ الْإِسْلَامِ، فَإِذَا رَفَضُوا إِعْلَانِ الْإِلْتِزَامِ بِالطَّاعَةِ، كَانَ الْقَتْلُ عِقَاباً عَادِلاً لَهُمْ، بِالنَّحْدِ الشَّرْعِيِّ، كَسَائِرِ عَقُوبَاتِ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَإِذَا صَحَّوْا مِنْ سَكَرَاتِ مُبِوَعَةِ الدَّلَالِ عَلَى رَبِّهِمْ، لَمْ يَجِدُوا خُلَاصاً لَهُمْ إِلَّا بِأَنْ يُعْطُوا عَهْدَهُمْ وَمِيثَاقَهُمْ عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ، أَي: بِقُوَّةِ إِرَادَةِ عَلَى تَنْفِيذِ أَوْامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَعَلَى أَنْ يَذْكُرُوا مَا فِيهِ دَوَاماً.

التدبر:

● ﴿وَإِذْ نَنفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ... (١٧١)﴾.

أي: وَضَعَ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي أَيُّهَا كُنْتُ، قِصَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ رَفَعْنَا جَبَلَ الطُّورِ فَوْقَهُمْ فَصَارَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، فِي عَهْدِ مُوسَى.

أو واسألَهُمْ عن قِصَّةِ رَفْعِ الْجَبَلِ فَوْقَ أَجْدَادِهِمْ فِي عَهْدِ مُوسَى، حَتَّى صَارَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ، عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الْآيَةِ (١٦٣) الَّتِي جَاءَ فِيهَا: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ...﴾ ﴿١٦٣﴾.

● ﴿نَنفَخْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ : أي: رَفَعْنَا جَبَلَ الطُّورِ فَوْقَهُمْ.

يُقَالُ لُغَةً: نَفَخَ الْحَجَرَ أَوْ نَحَوَهُ يَنْفُخُهُ نَفْخًا، أَي: رَفَعَهُ مِنْ مَكَانِهِ لِيَرْمِي بِهِ.

● ﴿كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ﴾ : أَي صَارَ جَبَلَ الطُّورِ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ.

الظِّلَّةُ: كُلُّ شَيْءٍ أَظْلَكَ. وَمَا سَتَرَ مِنْ فَوْقٍ. وَمَا أَطْبَقَ مِنْ فَوْقٍ. وَتَطَلَّقَ الظِّلَّةُ عَلَى سَحَابَةٍ مُطْبِقَةٍ.

وقد ظَلَّلَ الْجَبَلَ مَحَلَّتَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَنْزِلُونَ فِيهَا.

● ﴿وَوَظَّنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ : أَي: وَظَنُوا ظَنًّا قَوِيًّا إِذْ دَنَا الْجَبَلَ مِنْ رُؤُوسِهِمْ أَنَّهُ وَاقِعٌ عَلَيْهِمْ وَمَخْتَلِطٌ عِنْدَ وَقُوعِهِ بِأَجْسَادِهِمْ، مُهْلِكًا مَاحِقًا سَاحِقًا.

وكان هذا الظَّنُّ بَعْدَ أَنْ أَدْنَى اللَّهُ الْجَبَلَ مِنْ رُؤُوسِهِمْ، إِذْ هُمْ قَبْلَ ذَلِكَ، وَحِينَ كَانَ مُزْتَفًى كَالسَّحَابَةِ، تَوَهَّمُوا أَنَّ رَفْعَ الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ لِمَجْرَدِ التَّخْوِيفِ، فَقَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، كَمَا ظَهَرَ لَنَا آيَفًا أَخَذًا مِنَ الْآيَةِ (٩٣) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ).

● ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ : أَي: وَجَاءَهُمْ عِنْدئِذٍ الْأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ عَلَى لِسَانِ مُوسَى قَائِلًا لَهُمْ: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ أَوَامِرٍ وَنَوَاهِيٍّ وَوَصَايَا وَأَحْكَامٍ تَشْرِيعِيَّةٍ بِقُوَّةٍ.

والمَرَادُ بِالْقُوَّةِ قُوَّةُ الْإِرَادَةِ وَالْعَزِيمَةِ عَلَى تَحْمِيلِ التَّكَالِيفِ، وَالصُّعُوبَاتِ، وَالْمَشَقَّاتِ، وَالْمَكَارِهِ.

● ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾: أي: وَضَعُوا في ذَاكرَاتِكُمْ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ مِنْ وَصَايَا وَأَوَامِرَ، تَسْتَذْكُرُونَهَا، وَتَسْتَعِزُّونَهَا عِنْدَ مُنَاسَبَاتِهَا لِلْعَمَلِ بِهَا، فِعْلًا فِيمَا يَجِبُ فِعْلُهُ، وَتَرْكًَا فِيمَا يَجِبُ تَرْكُهُ.

● ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: أي: لِيَكُونَ تَذْكُرُكُمْ لَهَا بَاعثًا لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، فِرْجَاءَ تَحَقُّقِ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا مَعَ هَذَا الْبَاعِثِ أَكْثَرُ مِنْهُ دُونَهُ، إِذِ الْإِهْمَالُ وَالتَّرُكُ وَالنِّسْيَانُ لَتَعْلِيمَاتِ الْوَاجِبَاتِ وَالْمَحْرَمَاتِ الدِّينِيَّةِ يَهْوُونَ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْصِيَتَهَا.

ومعلومٌ من تضافرِ التُّصَوُّصِ الْأَصُولِ، أَنَّ الْعَمَلَ بِمُقْتَضَى التَّعْلِيمَاتِ وَالتَّكْلِيفَاتِ الدِّينِيَّةِ يَبْقَى مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ.

وقد أعطى بنو إسرائيلَ الميثاقَ يَوْمَئِذٍ، لِكَيْتَهُمْ لَمْ يَلْتَزِمُوا بَعْدَ ذَلِكَ، بَلْ تَوَلَّوْا فَأَدَارُوا ظُهُورَهُمْ لَهُ، وَابْتَعَدُوا عَنْهُ، وَعَصَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، بِدَلِيلِ مَا جَاءَ فِي الْآيَتَيْنِ (٦٣ - ٦٤) مِنْ سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خُطَابًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾: فَعَلَ «تَوَلَّى» يَأْتِي بِمَعْنَى «نَأَى» وَيَأْتِي بِمَعْنَى أَذْبَرَ، أَي: ثُمَّ أَذْبَرْتُمْ وَنَأَيْتُمْ.

مِمَّا فِي كِتَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَمْرِ لَهُمْ بِأَنْ يَتَذَكَّرُوا مَا فِي كِتَابِهِمْ:

جاء في الإصحاح السادس من سفر التثنية من كتب العهد القديم ما

يلي:

«٤ اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلَ. الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ ٥ فَتَجِبُ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ

كُلُّ قَلْبِكَ. وَمِنْ نَفْسِكَ. وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ ٦ وَلِتَكُنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَنَا
أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ عَلَى قَلْبِكَ ٧ وَقُصَّهَا عَلَى أَوْلَادِكَ. وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ
تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ وَحِينَ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ. وَحِينَ تَنَامُ. وَحِينَ تَقُومُ ٨
وَارْبِطْهَا عَلَى يَدِكَ. وَلِتَكُنْ عَصَائِبَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ ٩ وَاکْتُبْهَا عَلَى قَوَائِمِ أَبْوَابِ
بَيْتِكَ وَعَلَى أَبْوَابِكَ».

لَكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَعْمَلُوا بِهَذِهِ الْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَاهُمُ الرَّبُّ بِهَا،
وَلَمْ يَعْمَلُوا بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْلِيمَاتٍ وَشَرَائِعَ وَأَحْكَامٍ، فَحَقَّ عَلَيْهِمْ
غَضَبُ اللَّهِ وَسَخَطُهُ.



كان الفراغ من كتابة هذا المجلد الرابع ليلة الثلاثاء
١٤٢٠/٦/١١ هجرية الموافق لـ ١٩٩٩/٩/٢١ ميلادية
والحمد لله على معونته وتوفيقه.

الفهرس

الصفحة

الموضوع

سورة الأعراف ٧ مصحف - ٣٩ نزول

٥	مقدمات
٧	(١) نص السورة وما فيها من فرش القراءات
٣٨	(٢) مما ورد في السنة بشأن سورة (الأعراف)
٣٩	(٣) موضوع سورة الأعراف
٤٠	(٤) دروس سورة الأعراف
٤٨	(٥) التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة الأعراف الآيات من (١ - ١٠) ..
٤٨	تمهيد
٥٠	التدبر التحليلي
	● ﴿المص (١) كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حَرْجٌ منه لتنذر به
٥٠	وذكرى للمؤمنين ﴿٢﴾
٥٦	- الحكمة من عبارتي [أنزلنا إليك] و[أنزلنا عليك]
	● ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونَهُ أُولَئَاءَ قَلِيلًا مَّا
٥٨	تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
٦٢	- أحوال الإنسان بالنسبة إلى المعارف
٦٥	- قيمة التذكر وأثره في السلوك
٧٠	- مراتب تأثير ذكر الله في قلوب المؤمنين
٧٠	(١) مرتبة الوجل
٧١	(٢) مرتبة الخشوع
٧٢	(٣) مرتبة الطمأنينة
٧٢	- مقادير الذكر والتذكر في الأزمان والأحوال

- ٧٨ • ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾
 ٧٨ • ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ .
 ٨٣ ما جاء من وعيد بالإهلاك المعجل في السور النازلة قبل الأعراف
 • ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ وحتى الآية (٩)
 ٨٥ تمهيد
 ٨٦ التدبر:
 ٨٧ • ﴿فَلَنَقْصِصَ عَلَيْهِمْ بَعْلَمَ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾
 ٨٨ • ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمِئِذٍ الْحَقُّ... (٨)... (٩)﴾
 ٩٠ - امتنان الله على عباده بإنزال الحق والميزان
 ٩١ - نظرة تحليلية إلى الميزان والموازين على اختلافها
 ٩٢ - الدليل على إنزال الحق وإنزال الميزان
 ٩٦ - وزن أعمال العباد يوم الدين
 ٩٨ • ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾
 • ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾
 ٩٨ • ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾
 ١٠٠
 ١٠٣ - قضايا الدرس الأول من دروس سورة الأعراف
 (٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة الأعراف الآيات من (١١) -
 (٢٥)
 ١٠٥
 ١٠٦ تمهيد
 • ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾
 ١٠٧ • ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴿١٢﴾﴾ ؟
 ١١٢ • ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾﴾
 ١١٣ - توجيه السؤال لإبليس في ثلاثة مجالس
 • ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٤﴾﴾
 ١١٧

- ﴿قال أنظرني إلى يوم يُعْثَوْنَ * قال إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (١٥) ١١٨
- ﴿قال فيما أغويتني لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ... (١٧) ﴿..... ١٢٠
- ﴿قال اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨) ١٢٥
- مما جاء في السنة حول ملء جهنم بالكافرين ١٢٦
- ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكُلا من حيث شئتما وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) ١٢٩
- ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ورؤي عنهما من سَوَآئِهِمَا...﴾ (٢٠) (٢١) ﴿..... ١٣١
- ﴿وقاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِيقٌ النَّاصِحِينَ * فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ ١٣٧
- ﴿فلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ...﴾ (٢٢) ١٤١
- ﴿وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلهكما الشجرة وأقل لكما إِنَّ الشيطان لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٣) ١٤٣
- ﴿قالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) ١٤٥
- ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين﴾ (٢٤) ١٤٦
- ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ (٢٥) ١٥٠
- (٧) التدبیر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة الأعراف الآيات من (٢٦ - ٣٦) ١٥١
- تمهيد ١٥٢
- التدبر ١٥٤
- ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سَوَآئِكُمْ وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ (٢٦) ١٥٤
- ﴿يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَآئِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٧) ١٥٨
- ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَالله أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) ١٦٣

- ١٦٤ - أَوَّل دَاعٍ لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ دَاعِي الْفَاحِشَةِ ﴿٢٩﴾
- ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾
- ١٦٩ تمهيد
- ١٦٩ - فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ خَمْسُ قَضَايَا
- ١٧١ - الْقَضِيَّةُ الْأُولَى: [قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ] - الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: [وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ] - الْقَضِيَّةُ الثَّلَاثَةُ: [وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ] - الْقَضِيَّةُ الرَّابِعَةُ: [كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ] - الْقَضِيَّةُ الْخَامِسَةُ: [فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ] • ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ... (٣١) وَحَتَّى الْآيَةِ (٣٣)...﴾
- ١٧٩ تمهيد
- ١٧٩ التَّدْبِيرُ
- ١٧٩ - الْقَضِيَّةُ الْأُولَى: [يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ] - الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: [وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ] - التَّحْرِيفَاتُ فِي الْجَاهِلِيَّاتِ الْأُولَى لِأَحْكَامِ الْأَلْبَسَةِ وَالْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ الرَّبَانِيَةِ • ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...﴾
- ١٨٦ ﴿٣١﴾
- ﴿قُلْ هِيَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٢﴾
- ١٨٧ • ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِثْمَ وَالْبَغْيَ بَغِيرَ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾
- ١٨٨ وفيها حصر المحرمات في خمس كليات
- ١٨٩ الكلية الأولى: الفواحش ما ظهر منها وما بطن
- ١٨٩

١٩١	الكلية الثانية: الإثم
١٩٢	الكلية الثالثة: البغي
١٩٣	الكلية الرابعة: الشُّرْكُ بالله
١٩٦	الكلية الخامسة: أن يتقَوَّل العباد على الله ما لا يعلمون أنه من عند الله
	● ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ
١٩٨	﴿٢٤﴾
١٩٨	تمهيد
١٩٩	التدبر
	● ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى
	وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
٢٠١	واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدُونَ ﴿٣٦﴾
	(٨) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دُرُوس سورة (الأعراف) الآيات من (٣٧)
٢٠٧	- (٥٣)
٢٠٨	تمهيد
٢١٠	التدبر
	● ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أولئك لَهُمْ نَصِيبٌ
٢١٠	من الكتاب... ﴿ (الآية ٣٧)
٢١١	وتشتمل على قضيتين بعد بيان أنهم من أظلم الظالمين:
٢١١	القضية الأولى: تتعلّق برحلة هؤلاء الظالمين في الحياة الدنيا
٢١٢	القضية الثانية: تتعلّق ببيان حالتهم حينما تأتيهم ملائكة الموت
	● ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ
٢١٤	كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا... ﴿ (الآية ٣٨ والآية ٣٩)
	وتشتمل هاتان الآيتان على أربع لقطات من مشهد يوم الدين بشأن هؤلاء
٢١٤	الظالمين
	اللّقطة الأولى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ فِي
٢١٤	النار﴾
٢١٥	اللّقطة الثانية: ﴿كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾
٢١٥	اللّقطة الثالثة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا... ﴿ (٣٨)

- اللقطة الرابعة: ﴿وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل...﴾ (٣٩) ٢١٩
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ الآية (٤٠) والآية (٤١) ﴿..... ٢١٩
- وتشتمل هاتان الآيتان على ست قضايا ٢٢٠
- القضية الأولى: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ ٢٢٠
- حديث: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ يَبِضُّ الْوُجُوهَ...» ٢٢١
- القضية الثانية: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ٢٢٤
- القضية الثالثة: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ٢٢٦
- القضية الرابعة: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ ٢٢٧
- القضية الخامسة: ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ ٢٢٧
- القضية السادسة: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ٢٢٨
- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نَكْفِ أَنْفُسًا إِلَّا وَشَعْنًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الآية (٤٢) وبعض الآية ٤٣ ٢٢٩
- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ٢٢٩
- ﴿لَا نَكْفِ أَنْفُسًا إِلَّا وَشَعْنًا﴾ ٢٣١
- ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢) ٢٣٢
- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ ٢٣٣
- ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ ٢٣٤
- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ ٢٣٦
- ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ ٢٣٦
- ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ ٢٣٧
- ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمِ الْجَنَّةَ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) ٢٣٨
- ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ...﴾ (٤٤) (٤٧) ٢٣٩
- تمهيد ٢٣٩
- التدبر ٢٤١

- ٢٤١ ﴿٤٤﴾ قالوا نعم..... ﴿٤٤﴾
- ٢٤٢ ﴿٤٤﴾ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾
- ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرِينَ
- ٢٤٣ ﴿٤٥﴾
- ٢٤٥ ﴿٤٥﴾ وَيَبِينُهُمَا حِجَابٌ ﴿٤٥﴾
- ٢٤٥ ﴿٤٥﴾ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴿٤٥﴾
- ﴿٤٥﴾ وَنَادَا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ
- ٢٤٧ ﴿٤٦﴾
- ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ
- ٢٤٨ ﴿٤٧﴾ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾
- ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ
- ﴿٤٧﴾ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ * أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ
- ٢٤٩ بِرَحْمَةٍ...؟! ﴿٤٧﴾
- ٢٥٠ ﴿٤٩﴾ اذْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَخْزَنُونَ ﴿٤٩﴾
- ﴿٤٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا
- ٢٥١ ﴿٥٠﴾ رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالُوا أَنَّ اللَّهَ حَزَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَحَتَّى الْآيَةِ ٥٣ .
- ٢٥٢ تمهيد
- ٢٥٣ التدبير
- ٢٥٣ ﴿٥٠﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴿٥٠﴾
- ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا
- ٢٥٥ ﴿٥١﴾ نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾
- ٢٥٩ - صور اتخاذ الكافرين دين الله لهواً ولعباً
- ٢٦٠ كيف تغر الحياة الدنيا الإنسان؟
- ٢٦٤ ﴿٥١﴾ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ ﴿٥١﴾
- ٢٦٧ - الصفات المذكورة في هذا النص للكافرين أصحاب النار
- ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جَنَنَاهُمْ بَكْتَابٍ فَضَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمِ
- ٢٦٨ ﴿٥٢﴾ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَحَتَّى الْآيَةِ ٥٣
- ٢٦٩ تمهيد

- التدبر: ٢٧٠
- ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصْلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
- ﴿٥٢﴾ ٢٧٠
- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)﴾ . ٢٧٤
 - (٩) التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة الأعراف الآيات من (٥٤) - (٥٨) ٢٧٩
 - القراءات ٢٨٠
 - الربط بموضوع السورة ٢٨٣
 - ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْجُورَاتٌ بِأَمْرِ آلَا لَهُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ ... ٢٨٤
 - ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ٢٩٤
 - في هاتين الآيتين أربع قضايا تعليمية، وقضية ترغيبية ٢٩٥
 - القضية الأولى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ ٢٩٥
 - القضية الثانية: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾ ٢٩٦
 - القضية الثالثة: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ٢٩٨
 - القضية الرابعة: ﴿وادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ٣٠٠
 - القضية الخامسة الترغيبية: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾ ٣٠٢
 - ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سَقَنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ (٥٧) (٥٨)﴾ ٣٠٣
 - تمهيد ٣٠٣
 - ﴿وهو الذي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ ٣٠٤
 - ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ ٣٠٦
 - ﴿سَقَنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ ٣٠٧

- ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ٣٠٧
- ﴿كَذَلِكَ نَخْرُجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ ٣٠٩
- ﴿وَالْبَلَدَ الطَّيِّبَ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا
- كذلك نصرف للآيات قوم يشكرون﴾ ﴿٥٨﴾ ٣١٠
- (١٠) التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس سورة (الأعراف) الآيات من
- ٣١٥ (٥٩ - ١٧١)
- مقدمة: حول ما اشتمل عليه هذا الدرس من لقطات مختارات موجزات من
- قصص سبعة رسل، وبيان مجمل عن رسل لم تذكر أسماؤهم وفيه سبعة
- فصول ٣١٥
- الفصل الأول: التدبر التحليلي للقطات المختارات في هذه السورة من قصة
- نوح عليه السلام وقومه، الآيات من (٥٩ - ٦٤) ٣١٦
- القراءات ٣١٦
- تمهيد ٣١٧
- الآية (٥٩) ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال...﴾ ٣١٨
- الآية (٦٠) ﴿فقال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين﴾ ٣٢٢
- الآيات (٦١ - ٦٢ - ٦٣) ﴿فقال يا قوم ليس بي ضلاله...﴾ وفي رد
- نوح ست قضايا ٣٢٣
- الآية (٦٤) ﴿فكذبوه فانجيناه والذين معه...﴾ ٣٣٢
- الفصل الثاني: التدبر التحليلي للقطات المختارات في هذه السورة من قصة
- هود عليه السلام وقومه، الآية (٦٥ - ٧٢) ٣٣٤
- القراءات ٣٣٤
- تمهيد: وتعريف بعاد قوم الرسول (هود) ٣٣٥
- التدبر ٣٣٧
- الآية (٦٥) ﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله﴾ ٣٣٨
- الآية (٦٦) ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة﴾ ... ٣٣٩
- الآيات (٦٧ - ٦٨ - ٦٩) ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة﴾ وقد اشتمل رد
- هود على تسع مقالات ٣٤٠
- الآية (٧٠) ﴿قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد﴾ ٣٤٧

- الآية (٧١) ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ وقد
اشتملت على ثلاث مقالات وجهها هود لقومه ٣٥٠
- الآية (٧٢) ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا﴾ ٣٥٢
- الفصل الثالث: التدبر التحليلي للقطات المختارات في هذه السورة من قصة
صالح عليه السلام وقومه، الآيات من (٧٣ - ٧٩) ٣٥٣
- القراءات ٣٥٤
- تمهيد: وتعريف بشمود قوم الرسول صالح عليه السلام ٣٥٥
- تلخيص ما جاء في القرآن بشأن ثمود ودعوة رسولهم صالح لهم ٣٥٦
- حكايات تاريخية بشأن ثمود وإهلاك الله لهم ٣٦١
- التدبر: ٣٦٨
- الآيتان (٧٣) و(٧٤) وفيهما ثماني مقالات وجهها صالح عليه السلام
لقومه ٣٦٨
- المقالة الأولى: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ ٣٦٩
- المقالة الثانية: ﴿ما لكم من إله غيره﴾ ٣٧٠
- المقالة الثالثة: ﴿قد جاءكم بينة من ربكم﴾ ٣٧٠
- المقالة الرابعة: ﴿هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها
بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ (٧٣) ٣٧٢
- المقالة الخامسة: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد...﴾ (٧٤) ٣٧٤
- تأثير ذكريات التاريخ في النفوس ٣٧٥
- المقالة السادسة: ﴿ويؤاكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون
الجبال بيوتاً﴾ ٣٧٥
- المقالة السابعة: ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ ٣٧٦
- المقالة الثامنة: ﴿وَلَا تَغْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ...﴾ (٧٤) ٣٧٧
- الآيتان (٧٥) و(٧٦) ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذي
استضعفوا لمن آمن منهم...﴾ (٧٦) ٣٧٨
- الآيات (٧٧ - ٧٨ - ٧٩) ﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا
صالح أئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا
في دارهم جاثمين * فتولى عنهم...﴾ (٧٩) ٣٨٠

٣٨٧	الفصل الرابع: التدبر التحليلي للقطات المختارات في هذ السورة من قصة لوط عليه السلام وقومه (الآيات من ٨٠ - ٨٤)
٣٨٧	القراءات
٣٨٨	موجز عن لوط عليه السلام وقومه عند المؤرخين
٣٩٠	التدبر
٣٩٠	• الآيتان (٨٠) و(٨١) وتمهيد
٣٩٠	• ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا...﴾ (٨٠)
٣٩٣	• ﴿إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ...﴾ (٨١)
٣٩٤	• ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (٨٢)
٣٩٤	• ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ...﴾ (٨٣)
٣٩٥	• ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٣)
٣٩٦	• ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤)
٣٩٧	الفصل الخامس: التدبر التحليلي للقطات المختارات من قصة شعيب عليه السلام وقومه. الآيات من (٨٥ - ٩٣)
٣٩٨	القراءات
٣٩٩	موجز عن شعيب وقومه عند المؤرخين
٤٠٢	التدبر
٤٠٢	تمهيد
٤٠٣	• الآيات من (٨٥ - ٨٧) وفيها بيان (١٣) قضية وجهها شعيب لقومه ...
٤٠٣	• ﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ (٨٥)
٤٠٣	القضية الأولى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾
٤٠٤	القضية الثانية: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾
٤٠٤	القضية الثالثة: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾
٤٠٦	القضية الرابعة: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾
٤٠٧	القضية الخامسة: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾
٤٠٨	القضية السادسة: ﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾
٤٠٩	القضية السابعة: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
٤٠٩	القضية الثامنة: ﴿وَلَا تَعْدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾

- القضية التاسعة: ﴿وتصدُّون عن سبيل الله من آمن به﴾ ٤١٠
- القضية العاشرة: ﴿وتبغونها عوجاً﴾ ٤١١
- القضية الحادية عشرة: ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكتركم﴾ ٤١٢
- القضية الثانية عشرة: ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المُفْسِدِينَ﴾ (٨٦) ٤١٣
- القضية الثالثة عشرة: ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاضربوا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ (٨٧) ٤١٣
- الآيات من (٨٨ - ٩٣) ٤١٥
- تمهيد ٤١٦
- التدبر ٤١٦
- ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لتخرجنك...﴾ (٨٨) ٤١٦
- الآيتان (٨٨) و(٨٩) وفيهما ثلاث مقولات جدلية وجههما شعيب لقومه، ومقولة ثبات، ومقولة دعاء لربه ٤١٧
- المقولة الجدلية الأولى: ﴿قال أولو كنا كارهين﴾ ٤١٨
- المقولة الجدلية الثانية: ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عُدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ ٤٢٠
- المقولة الجدلية الثالثة: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ .. ٤٢١
- مقولة ثبات شعيب على موقفه: ﴿وسع ربنا كل شيء على الله توكلنا﴾ . ٤٢٣
- مقولة دعاء شعيب ربه: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ (٨٩) ٤٢٣
- الآية (٩٠) ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إلكم لخاسرون﴾ (٩٠) ٤٢٤
- الآية (٩١) ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ (٩١) ... ٤٢٥
- الآية (٩٢) ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لهم يغثوا فيها...﴾ (٩٢) ٤٢٦
- الآية (٩٣) ﴿فتولَّى عنهم وقال يا قوم لقد بلغتكم رسالات ربي...﴾ (٩٣) ٤٢٧
- الفصل السادس: التدبر التحليلي لبيان مجمل عن أقوام ورسل لم تذكر أسماؤهم مع تعقيب ختامي. الآيات من (٩٤ - ١٠٢) ٤٢٨
- القراءات ٤٢٩
- تمهيد ٤٣٠

- التدبر ٤٣١
- الآيتان: (٩٤) و(٩٥) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ...﴾ (٩٤) ٤٣١
- ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤) ٤٣٢
- ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيْئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ سَأَبَّأْنَا الضَّرَاءَ
وَالسَّرَاءَ...﴾ (٩٥) ٤٣٤
- ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩٥) ٤٣٥
- المعنى العام للآيتين (٩٤ - ٩٥) ٤٣٦
- الآية (٩٦) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦) ٤٣٧
- الآيات من (٩٧ - ٩٩) ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ
نَائِمُونَ﴾ (٩٧) أو ﴿أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى﴾ وحتى الآية ٩٩ ٤٤١
- الآية (١٠٠) ﴿أَوْ لَمْ يَنْهَدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ
أَهْلِهَا...﴾ (١٠٠) ٤٤٦
- وقد جاء في هذه الآية بيان قانون ربّاني مؤلف من ثلاث موادّ ٤٤٨
- مراحل سنن الله في الأمم الأربع ٤٤٩
- الآيتان (١٠١) و(١٠٢) ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقِصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ
جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ...﴾
(١٠١)....(١٠٢) ٤٥٢
- تمهيد ٤٥٢
- التدبر ٤٥٤
- ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقِصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا...﴾ (١٠١) ٤٥٤
- ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ...﴾ (١٠١) ٤٥٤
- ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ...﴾ (١٠١) ٤٥٥
- ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠١) ٤٥٥
- ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (١٠٢) .. ٤٥٦
- الفصل السابع: التدبر التحليلي للقطات المختارات من قصة موسى وقومه في
سورة (الأعراف). الآيات من (١٠٣ - ١٧١) وهو فصل طويل قسمته إلى
(١٢) فقرة ٤٥٧

- الفقرة الأولى: بَعَثَ اللهُ موسى إلى فرعون وملئه بآيتي العصا واليد الآيات من (١٠٣ - ١٢٦) ٤٥٧
- القراءات ٤٥٨
- التدبر التحليلي ٤٦٠
- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ موسى بِآيَاتِنَا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ (١١٣) ﴿ ٤٦٠
 - الآيتان (١٠٤ - ١٠٥) ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسولٌ من رَبِّ العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكُم ببيّنة من رَبِّكم فازيل مَعِيَ بني إسرائيل﴾ (١٠٥) ﴿ ٤٦٣
 - الآية (١٠٦) ﴿قال إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين﴾ (١٠٦) ﴿ ٤٦٧
 - الآيتان (١٠٧ - ١٠٨) ﴿فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يدهُ فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ (١٠٨) ﴿ ٤٦٨
 - الآيات من (١٠٩ - ١١٢) ﴿قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساجر عليمٌ * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون * قالوا أزجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم﴾ ٤٦٩
 - الآيتان (١١٣ - ١١٤) ﴿وجاء السحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾ (١١٤) ﴿ ٤٧٣
 - الآيتان (١١٥ - ١١٦) ﴿قالوا يا موسى إمّا أن نُلقي وإمّا أن نكون نحن الملقين * قال ألقوا فلمّا ألقوا سَحَرُوا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسِحْرِ عظيم﴾ (١١٦) ﴿ ٤٧٧
 - الآيات من (١١٧ - ١٢٢) ﴿وَأَوْحَيْنَا إلى موسى أن ألقِ عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون * فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقي السحرة ساجدين * قالوا آمنا بربِّ العالمين * رَبِّ موسى وهارون﴾ (١٢٢) ﴿ ٤٨٠
 - الأفكار التي أضافها هذا النص على ما جاء في (يونس وطه والشعراء) ٤٨٢
 - الآيتان: (١٢٣ - ١٢٤) ﴿قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إنّ هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ (١٢٤) ﴿ ٤٨٣

- الآيتان: (١٢٥ - ١٢٦) ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا نُنْقِمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْ أَمَنَا﴾
 ٤٨٧ ﴿١٢٦﴾ ﴿بَآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾
 الفقرة الثانية: تمزّد فرعون وملئه وعنادهم واستكبارهم حتى إغراقهم الآيات من
 ٤٩١ (١٢٧ - ١٣٧)
 ٤٩٢ القراءات
 ٤٩٢ التدبر التحليلي
 ● الآية (١٢٧) ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيَفْسُدُوا
 فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَهْلُكُ قَالَ سَنُنْقِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا
 ٤٩٢ فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾
 ٤٩٣ تمهيد
 ٤٩٤ تدبر الآية
 ٤٩٧ عقيدة القبط في عهود الفراعنة
 ● الآيتان (١٢٨ - ١٢٩) ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ
 الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ
 قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا وَمَنْ بَعْدَ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِدْوُكُمْ
 ٤٩٨ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾
 ٤٩٩ وفيهما وصيتان ومقولتان بشأن ستين من سنن الله في عبادته:
 ٤٩٩ الوصية الأولى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾
 ٤٩٩ الوصية الثانية: ﴿وَاصْبِرُوا﴾
 ٥٠٠ والسنة الأولى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾
 ٥٠٠ والسنة الثانية: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾
 ● الآيات من (١٣٠ - ١٣٢) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ
 الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ
 سَيِّئَةٌ يَطْفِرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا
 يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ
 ٥٠٣﴾ ﴿١٣٢﴾
 ● الآية (١٣٣) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ
 ٥٠٩ آيَاتٍ مَفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾

- ٥١٠ - شرح الآيات المفصلات
 • الآية (١٣٤) ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعِ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَتَكُنْ مِنَّا رَجُزًا لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾
 ٥١٣ ﴿١٣٥﴾
 • الآيات (١٣٥ - ١٣٦) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هَمَّ بِالْعُدْوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾
 ٥١٥
 • الآية (١٣٧) ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مِثْرَ الْأَرْضِ وَمِغَارِهَا الَّذِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَصْغُرُونَ﴾
 ٥١٧ ﴿١٣٨﴾
 ٥٢٠ - الأرض التي أورثها الله بني إسرائيل هي بلاد الشام
 الفقرة الثالثة: عبور بني إسرائيل البحر وقولهم لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم
 ٥٢٢ آلهة. الآيات من (١٣٨ - ١٤١)
 ٥٢٢ القراءات
 ٥٢٣ التدبر التحليلي
 • الآية (١٣٨) ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾
 ٥٢٤ ﴿١٣٩﴾
 • الآية (١٣٩) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا يَكْفُرُونَ بِهِمْ وَمَا كَانَ يَكْفُرُونَ بِهِمْ﴾
 ٥٢٧ ﴿١٤٠﴾
 • الآية (١٤٠) ﴿قَالَ أَغِيرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾
 ٥٢٧ ﴿١٤١﴾
 • الآية (١٤١) ﴿وَلَاذُنُجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾
 ٥٢٩ ﴿١٤٢﴾
 ٥٢٩ تمهيد
 ٥٣١ التدبر

- الفقرة الرابعة: ميعاد الميقات الأول وهو ميقات كتابة الألواح الآيات من (١٤٢)
- ١٤٧ - ٥٣٢
- القراءات ٥٣٣
- التدبر ٥٣٥
- الآية (١٤٢) ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٥٣٥
- وقد اشتمل أمر الاستخلاف على ثلاث مواد: ٥٣٧
- المادة الأولى: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ ٥٣٧
- المادة الثانية: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ٥٣٧
- المادة الثالثة: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٥٣٨
- الآية (١٤٣) ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرْنِي أَنْظِرْ لِيكَ قَالَ لَنْ نَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبَعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٣٩
- الآية (١٤٤) ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ٥٤٣
- الآية (١٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَهُ بِأَخْذِهَا بِحَسَنِهَا سَأَرَيْكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ ٥٤٧
- تحليل معنى: ﴿يَأْخُذُوا بِحَسَنِهَا﴾ ٥٥٠
- الآيتان (١٤٦ - ١٤٧) ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٥٥٣
- أنواع آيات الله الكلامية، والإعجازية، والجزائية، والكونية ٥٥٤
- لماذا يصرف الله عن آياته بعض عباده ٥٥٥

- الفقرة الخامسة: اتخاذ بني إسرائيل العجل الآيات من (١٤٨ - ١٥٤) ٥٦٢
- القراءات ٥٦٢
- تمهيد ٥٦٤
- التدبر ٥٦٧
- الآية (١٤٨) ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حَلْيَتِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَار أَلَم يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ٥٦٩
- الآية (١٤٩) ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ٥٧٠
- الآية (١٥٠) ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسْفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ٥٧٣
- معترضة حول ما جاء في سورة (طه) بشأن هذا الموضوع الذي جاء في الآية (١٥٠) ٥٧٩
- الآيتان (١٥٢ - ١٥٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٥٩١
- الآية (١٥٤) ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نَسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ٥٩٤
- الفقرة السادسة: ميعاد الميقات الثاني ميقات التوبة والاعتذار والشفاعة. الآيات من (١٥٥ - ١٥٧) ٥٩٦
- القراءات ٥٩٧
- تمهيد ٥٩٧
- التدبر ٥٩٨
- الآية (١٥٥) ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا...﴾ ٥٩٨
- ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ ٦٠٠

- ٦٠٠ • ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَبَايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا...﴾ ؟
- ٦٠١ • ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾
- ٦٠٢ • ﴿تُضِلُّ مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾
- ٦٠٣ • ﴿أَنْتَ وَلِينَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾
- الآية (١٥٦) ﴿وَكَتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا
- ٦٠٥ • إِلَيْكَ...﴾
- ٦٠٦ • ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾
- ٦٠٩ • ﴿فَسَأَكْتِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾
- الآية (١٥٧) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا
- عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل
- لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي
- كانت عليهم...﴾
- ٦١١ - صفات الرسول المبشر به محمد ﷺ وهي عشر صفات
- ٦١٣ - أمثلة من الأحكام الثقيلة التي كانت على بني إسرائيل
- ٦١٧ • ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ
- ٦١٩ • هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾
- ٦٢١ - من البشائر بالرسول النبي الأمي الواردة في التوراة والإنجيل
- ما جاء في سورة (البقرة) من بيان العقوبة التي رتبها الله على الذين اتخذوا
- العجل من بني إسرائيل
- ٦٢٢ - الفقرة السابعة: فقرة معترضة فيها تكليف الرسول محمد بأن ينادي بأنه
- ٦٢٧ رسول الله للناس أجمعين﴾
- الآية (١٥٨) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ
- ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله
- النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴿١٥٨﴾﴾ ...
- ٦٢٧ • تمهيد
- ٦٢٨ • التدبر التحليلي
- ٦٢٨ • ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾
- ٦٢٩ • ﴿الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾

- ﴿فَأَمْنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨) ٦٣١
- الفقرة الثامنة: مَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي التَّيَّةِ الْآيَتَانِ (١٥٩ - ١٦٠) . ٦٣٣
- القراءات ٦٣٣
- التدبر التحليلي ٦٣٣٣
- الآية (١٥٩) ﴿وَمَنْ قَوْمَ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهُودُْنَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩) ٦٣٣
- الآية (١٦٠) ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتِي عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٠) ٦٣٦
- ذكر ما جاء في سورة (البقر) حول موضوع هذه الآية ٦٣٦
- اشتمل ما جاء في (الأعراف) وفي (البقرة) على سبع قضايا ٦٣٦
- القضية الأولى: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتِي عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ ٦٣٦
- القضية الثانية: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ ٦٤٠
- القضية الثالثة: ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ ٦٤٢
- القضية الرابعة: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ﴾ ٦٤٤
- القضية الخامسة: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ٦٤٥
- القضية السادسة: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (١٦٠) من البقرة ٦٤٦
- القضية السابعة: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ٦٤٧
- قصة استسقاء بني إسرائيل عند أهل الكتاب ٦٤٩
- الفقرة التاسعة: وعد الله بني إسرائيل بأن ينصرهم ويسكنهم القرية بشرطين، فبذل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم. الآيتان (١٦١ - ١٦٢)
- والآيتان (٥٨ - ٥٩) من سورة البقرة. ٦٤٩
- ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٦) ٦٤٩

- التكامل بين نصي (الأعراف) و(البقرة) ٦٥٠
- القراءات في النص الذي من سورة (الأعراف) ٦٥٣
- القراءات في النص الذي من سورة (البقرة) ٦٥٤
- تمهيد ٦٥٤
- التدبر التحليلي ٦٥٨
- الآية (١٦١) ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُم اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ حَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٦٥٨
- الآية (١٦٢) ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ ٦٦٢
- عبادة بعض بني إسرائيل الأوثان أخذاً من كتبهم ٦٦٧
- الفقرة العاشرة: المعتدون في السبت من بني إسرائيل الآيات من (١٦٣-١٦٦) ٦٦٧
- القراءات ٦٦٨
- عرض ما جاء في سورتي (البقرة) و(النساء) حول هذا ٦٦٩
- تمهيد ٦٦٩
- قصة الذين اعتدوا في السبت من بني إسرائيل ٦٧٢
- خلاصة القصة كما ذكرها أئمة تفسير القرآن ٦٧٢
- التدبر التحليلي ٦٧٤
- تمهيد ٦٧٤
- الآية (١٦٣) ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ ٦٧٥
- ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ ٦٧٦
- ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ٦٧٧
- ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ٦٧٨
- الآية (١٦٤) ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ٦٧٩
- الآية (١٦٥) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزَابٍ مِثْلِ بَيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ٦٨١
- الآية (١٦٦) ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قَالُوا لِمَ كُنَّا كُفَرًا خَاسِئِينَ﴾ .. ٦٨٣

- الفقرة الحادية عشرة: إعلام الله بني إسرائيل بأنه سيبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب مع بيان تقطيعهم في الأرض أمماً وبيان واقع حالهم الديني. الآيات من (١٦٧ - ١٧٠) ٦٨٥
- القراءات ٦٨٦
- التدبر التحليلي ٦٨٧
- الآية (١٦٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٦٨٧
- تمهيد ٦٨٧
- التدبر ٦٨٨
- الآية (١٦٨) ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ٦٩١
- بيان أسباب عقاب الله بني إسرائيل بالتشتيت في كتبهم ٦٩٥
- الآية (١٦٩) ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ خَيْرَ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٦٩٦
- تمهيد ٦٩٦
- التدبر التحليلي ٦٩٧
- ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ ٦٩٧
- ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ ٦٩٨
- ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ٦٩٩
- ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ ٧٠٠
- ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ ٧٠١
- مما في كتب أهل الكتاب بشأن ما أخذ عليهم من ميثاق ٧٠١
- ﴿وَالِدَارَ الْآخِرَةَ خَيْرَ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٧٠٢
- الآية (١٧٠) ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ ٧٠٣

٧٠٦	الفقرة الثانية عشرة: رفع الجبل فوق بني إسرائيل ليأخذوا الكتاب بقوة ويذكروا ما فيه. الآية (١٧١)
٧٠٦	تمهيد
٧٠٩	التدبر
٧١١	- ممّا في كتب بني إسرائيل من أمرٍ لهم بأن يتذكروا ما في كتابهم
٧١٢	تأريخ الفراغ من كتابة هذا المجلد الرابع



